إمّا

روايات

جين أوستين

ترجمة صالح زكي
ومراجعة محمد سامي عاشور

التنوير

كلاسيكيات
الأدب الانجليزي

جين اوستن

إمّا

رواية

مقـدّمة

ولدت جين أوستن في ستيفنسن بمقاطعة هامبشير في جنوب بريطانيا عام 1775، وكان والدها قسًا قرويًا من الطبقة المتوسطة وليس لديه مال كثير، لكن طفولتها كانت سعيدة وسط أسرتها الصغيرة المكونة من والديها وأختها وأخويها. وقد بدأت جين دراستها في البيت تحت إشراف أبيها وأخويها حتى عام 1783 عندما سافرت مع أختها لتلتحقا بمدرسة داخلية لمدة ثلاث سنوات. أكملت بعدها تعليمها في مكتبة أبيها الوافرة بالكتب والمراجع المختلفة، وقد تميزت عائلة جورج أوستن، والد جين، بشغفها بالثقافة والإطلاع والمناقشة والحوار. وقد أسهم هذا الجو الثقافي المتفتح في تشجيع جين على الكتابة في سن صغيرة.
وجدير بالذكر أن جين أوستن لم تغادر قريتها ولم تعبر حدود المقاطعة التي أحبتها حبًا جمًّا باستثناء سفر قريب إلى بلدة (بات) لفترة وجيزة عادت بعدها إلى بلدتها.
وقد تعمدت جين أوستن ألا تكتب عن شيء لا تعرفه فقد كانت أمينة مع نفسها ومع قرائها، وعلى الرغم من معاصرتها لأحداث سياسية مهمة ولحروب نابليون بونابرت واحتلال بريطانيا للهند ولدول أخرى كثيرة في أفريقيا فقد آثرت أن تتناول المشاكل اليومية التقليدية التي يواجهها أي شخص عادي في حياته. وكان لديها إحساس عميق بمعرفة طبائع البشر وأمزجتهم وخصوصياتهم، وقدرة عالية على تحاليل أدق التفاصيل النفسية والتقلبات الأخلاقية للنفس البشرية، ولذلك اتسمت روايات جين أوستن بالواقعية الشديدة في تصوير الشخصيات ومشاعرهم وأحاسيسهم العاطفية ودوافعهم البشرية في شتى التصرفات وقد نجحت نجاحًا عظيمًا في خلق جو طبيعي وشديد الحميمية والمصداقية في رواياتها من خلال بانوراما شخصياتها سواء الرجال أو النساء وعلى اختلاف أعمارهم وتوجهاتهم وأشكالهم.
وقد ركزت جين أوستن على تصوير المجتمع الإنجليزي في منتصف القرن 18 وبداية القرن 19 ونسيجه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي من خلال قصص عاطفية ذات شحنة زاخرة من الأحاسيس والمشاعر، فهي مزيجا من العلاقات العاطفية المتشابكة التي تعتمد على محور الانطباعات الأولية، فهذا المحور سيلاحظه من قرأ لجين أوستن أو شاهد فيلمًا معتمدًا على روايتها، فالعاشقان في النهاية، لابد أن يكونا قد أخذا انطباعًا سيئًا تجاه بعضهما حين

التقيا للمرة الأولى وكذلك الأشخاص الذين يظهرون بشكل شهم وطيب ويملكون قلوبًا مرهفة هم في الحقيقة أشخاص سيئون واستغلاليون ومنافقون.
وتتمركز روايات أوستن حول أهمية الزواج باعتباره الخلاص الوحيد المناسب للمرأة في ذلك الوقت، ولتحقيق الأمان الاقتصادي والاجتماعي لها على حد سواء.
وتميزت جين أوستن بأسلوبها اللاذع والتهكمي، ونجحت في خلق جو من السخرية استطاعت من خلاله التعرض لأمور أخلاقية ولمشاكل معنوية يعاني منها المجتمع وحاولت أن توجه لها النقد في إطار كوميدي اجتماعي ساخر.
وعلى الرغم من أن أعمال جين أوستن لم تمنحها الشهرة المتوقعة في حياتها - باستثناء بعض الحالات النقدية الإيجابية - فإنها حازت على إعجاب القراء والنقاد عند صدور كتاب عن حياتها وأعمالها نشره ابن أختها في عام 1870 مما ساعد على التعريف بها وبأعمالها الأدبية، وأسهم في تعريفها لعدد أكبر من القراء.
وقد تم إدراج جين أوستن في قوائم أمهات الكتب بدءًا من النصف الثاني من القرن العشرين، وتبع ذلك فيض من الكتابات النقدية والدراسات الأكاديمية حول رويات جين أوستن وتحليلها من النواحي الفنية والأيديولوجية والتاريخية واللغوية وما إلى ذلك.
وقد احتلت مكانة هامة في الثقافة الشعبية من خلال الإعداد السينمائي والإذاعي لأعمالها.
وقد وصل مجموع روايات جين أوستن إلى ست روايات، أشهرها العقل والعاطفة 1811، وحب وكبرياء 1813، ومانسفيلد بارك 1814 وتبع ذلك رواية إقناع 1816، ثم رواية دير نورثانجر 1818.
وقد تضاربت الآراء حول جين أوستن ومكانتها الأدبية، ولعل خير من امتدح عبقريتها الكاتب الإنكليزي ماكولي الذي كتب في عام 1843 عن قدرتها وقدرة شكسبير على رسم الصور الهزلية الساخرة. وأشار ج. أج. لويس 1847 إلى موهبتها المسرحية المدهشة واستخدامها للحوار بين الشخصيات بدرجة كبيرة من الواقعية والسخرية في نفس الوقت، ووصفها الشاعر اللورد ألفريد تينيسون 1860 بأنها تجيء في المرتبة بعد شكسبير مباشرة.
ورواية «إمَّا» مثل سائر روايات جين أوستن تدور حول موضوع الزواج: من سيتزوج من؟ وكيف سيتم الاختيار؟ وهل الحب عنصر أساسي لنجاح الزواج؟.
والشخصية المحورية في هذه الرواية، كما يتضح من العنوان، هي إمَّا وودهاوس الفتاة الثرية التي تعيش مع والدها بعد وفاة والدتها وتزوج أختها الكبرى، وتنعم إمَّا بالعيش في ضيعة هارتفليد في بيت العائلة الكبير في قلب الريف الإنكليزي.

وفي مستهل الرواية تبدو إمَّا فتاة سعيدة تشعر بالرضا والطمأنينة وعدم حاجتها الملحة للزواج، فهي ليست مثل باقي بطلات جين أوستن في حاجة إلى المال فهي تتمتع بثروة لا بأس بها تغنيها عن هذا الاحتياج، ويتضح لنا أن إمَّا بدأت تشعر بنوع من الفراغ والملل بعد زواج مربيتها وصديقتها ميسي تيلور من السيد وستون وانتقالها إلى راندلز البلدة المجاورة. وقد سبق للسيد وستون الزواج قبل ذلك، وعند وفاة زوجته وقلة موارده المالية في ذلك الوقت اضطر إلى ترك ابنه فرانك تشرشل للعيش مع خاله وأسرته. وتبدأ إمَّا في البحث عن صديقة تملأ بها وقت فراغها بعد رحيل ميس تيلور، فيقع اختيارها على هاربيت الفتاة اليتيمة ذات السبعة عشر عامًا، وتقرر إمَّا أن تكرس جهودها لتجد لها الزوج المناسب، وبعد عدة مفارقات في سياق الرواية تدرك إمَّا أنها قد أخطأت في توقعاتها وحساباتها تجاه الآخرين، وتنتهي القصة بزواج إمَّا من السيد ناتيللي، وهاربيت من السيد مارتن، وهكذا تختم جين أوستن رواياتها بالنهاية السعيدة كما هو النسق العام الذي تبعته في جميع كتاباتها.

وفى النهاية يتضح لنا - كما أشار معظم النقاد - أن جين أوستن حصرت كتاباتها داخل حدود معرفتها الشخصية فلم تتجاوز محيطها الاجتماعي والجغرافي، وركزت على تصوير دقيق للنفس البشرية، وأدى نجاحها في ذلك إلى تخطي رواياتها الخصوصية إلى العالمية لما اتسمت به من مصداقية وحس إنساني واع.

د. نادية الخولي

الفصل الأول

بدت «إمَّا وودهاوس» وكأنما جمعت قسطًا من أجزل النعم؛ لما كانت عليه من جمال وذكاء وثراء ومرح، علاوة على إقامتها في بيت جمع أسباب الراحة. ولذا فقد سلخت من عمرها قرابة إحدى وعشرين سنة لم تلق فيها إلا النذر اليسير مما يقلقها أو يثير حفيظتها.

كانت صغرى ابنتين لأب يفيض محبة وحنانًا. وما أن تزوجت أختها حتى غدت سيدة بيت أبيها وهي صغيرة جدًا.

وكان قد انقضى أمد طويل على وفاة أمها حتى لم يبق عالقًا في ذهن «إمَّا» من قبلاتها وعناقها إلا ذكريات غير واضحة.

وعهدت إدارة البيت إلى سيدة ممتازة عوضت «إمَّا» عن أمها الراحلة، فقد كان حبها لا يقل كثيرًا عن حب أمها لها.

وقضت «مس تيلور» مع أسرة وودهاوس ستة عشر عامًا كانت فيها أقرب إلى الصديقة منها إلى مديرة البيت، ولقد أحلت الابنتين في سويداء قلبها. بيد أن «إمَّا» كانت لها المنزلة الأولى، إذ كانت ألفتها بها ألفة الشقيقة بالشقيقة.

وكان ل«مس تيلور» في رقة الحاشية ولين الجانب ما جعلها تمتنع عن فرض القيود على «إمَّا» حتى في الوقت الذي لم تكن قد تخلت فيه عن ممارسة ما لمديرة البيت من سلطان. ولما كان شبح السيطرة بينهما قد ولى وطال الأمد على زواله فقد عاشتا معايشة الصداقة المتبادلة، وأصبحت «إمَّا» تعمل ما يحلو لها. وعلى الرغم من تقديرها لآراء «مس تيلور» كانت تسير في الغالب وفق هواها.

وكان من شوائب «إمَّا» حقًا أن كان لها القدرة على أن تسلك الطريق التي ترضاها، كما أنها كانت تعتز إلى درجة ما بنفسها. فكان في ذلك ما يهدد بتعكير صفو الحياة عليها في كثير من متعها. ولم يكن الخطر من ذلك ظاهرًا للعيان في ذلك الوقت حتى هذه الشوائب لم يكن ينظر إليها على أنها عامل من عوامل سوء الحظ.

وحل الأسى بعد ذلك وهو أسى هين، فلم يكن قط بالوضع الذي يثير شعورًا بغيضًا.

فلقد تزوجت «مس تيلور» وكان افتقادها أول باعث للأسى وكان يوم قران هذه الصديقة الحبيبة أول يوم تجلس فيه «إمَّا» وقد انتابها الحزن وقتًا طويلًا.

وانتهت مراسيم الزاوج، وانفرط عقد أهل العروس، وبقيت «إمَّا» ووالدها ليتناولا العشاء سويًا ولا أمل لهما في رفيق ثالث يسري عنهما في أمسيتهما الطويلة. واسترخى والدها كما هي عادته للنعاس بعد تناول العشاء، ولم يعد لها إلا أن تجلس وتفكر فيما افتقدته.

على أن هذا الحادث كان يبشر بكل أسباب السعادة لصديقتها، إذ كان مستر «وستن» شخصية محبوبة، رضي الخلق، ذا ثراء يهيئ له عيشًا رغدًا، كما أن عمره كان مناسبًا، وسلوكه مرضيًا.

وشعرت «إمَّا» بشيء من الرضى عندما فكرت في أنها - بدافع من نكران الذات والصداقة الفياضة - كانت دائمًا شديدة الرغبة في تلك الزيجة، وكيف أنها مهدت لها. ولكن يوم إتمامها مع ذلك كان عندها يومًا أغبر، فلقد أحست بفراق «مس تيلور» في كل آونة، وتذكرت ما شملتها به فيما مضي من حنان وعطف استمرا ستة عشر عامًا، كما استعادت ذكرى تعليمها لها، وكيف أنها كانت تلعب معها وهي في الخامسة من عمرها، وكيف بذلت كل ما في وسعها حتى لا تفترق عنها وتسليها في صحتها وتعنى بتمريضها في أمراض طفولتها المتعددة.

وشعرت أنها مدينة لها بالكثير من العرفان بالجميل من أجل هذا. غير أن ذكريات صلتيهما في السنوات السبع الأخيرة وما كان بينهما من مساواة تامة في المعاملة وانعدام التحرز كلية لما انفردتا ببعضهما عقب زواج «إيزابلا»، كانت أعز وأرق الذكريات جميعها.

لقد كانت «مس تيلور» صديقة ورفيقة لم يظفر بمثلها إلا القليلون، وكانت ذكية مثقفة، نافعة رقيقة، عليمة بكل ما يتصل بالعائلة، شغوفة بجميع شؤونها وعلى الأخص ب» إمَّا» نفسها، في جميع مسراتها ومشروعاتها، لقد كانت هي الشخص الذي تبوح له بكل ما يدور في خلدها، وهي التي تكن لها حبًا لا تعتريه شائبة. فكيف تقوى الآن على تحمل هذا التغيير في حياتها؟.

حقًا أن صديقتها سوف لا تبعد إلا مسافة نصفه ميل عن بيت العائلة، ولكن «إمَّا» كانت تدرك الفرق العظيم بين «مس وستن» وقد بعدت عنهم نصف ميل وبين «مس تيلور» وقد كانت تقيم في رحاب منزلهم.

ورغم كل ما كان لها من مزايا طبيعية ومواهب منزلية، أصبحت «إمَّا» الآن عرضة لآلام الوحدة الفكرية.

لقد كانت تحب والدها كثيرًا ولكنه لم يكن الرفيق الذي يسايرها في الحديث، سواء أكان حديثًا للترويح أم كان حديثًا جادًا عميقًا.

ولقد زاد كثيرًا من مساوئ الفرق الحقيقي بين عمريهما (ولم يكن مستر وودهاوس قد تزوج مبكرًا)، ما كان من تكوينه الجسماني وعاداته، وما كان من

أثر اعتلال صحته طوال حياته وعدم ممارسته أي نشاط جسماني أو عقلي فأصبح في كل تصرفاته كمن هو أكبر منه سنًا.

وعلى الرغم من أنه كان محبوبًا أينما حل لطيبة قلبه ورقة طبعه، إلا أن مواهبه العقلية لم تكن لتزكيه في أي وقت.

وكانت أختها قد استقرت بعد زواجها في لندن وأصبح لا يفصلها عنها إلا ستة عشر ميلًا، وهي مسافة ليست بالبعيدة نسبيًا، إلا أن «إمَّا» وجدت زيارتها لها يوميًا أمرًا مستعصيًا، ولذا كان لابد لها من أن تعاني الكثير من أمسيات شهري أكتوبر ونوفمبر في «هارتفيلد» حتى يحين موعد عيد الفصح وتأتي «إيزابلا» مع زوجها وأطفالها الصغار ويعمر بهم البيت وتنعم بصحبتهم ثانية.

ولم تكن «إمَّا» لتجد من يحل محل هؤلاء في قرية «هايبري»، وهي قرية امتدت مساحتها وكثر سكانها حتى أشرفت على أن تكون مدينة. وكانت «هارتفيلد» رغم مروجها وشجيرات توتها، ورغم اسمها، جزءًا لا يتجزأ من هذه القرية.

لقد كانت أسرة «وودهاوس» أعظم الأسر المستوطنة في هذه القرية مكانة، بقدر ما كانت لكل أهليها ملاذًا. وقد تعرفت «إمَّا» على الكثيرين من هؤلاء لما كان عليه والدها من أدب وترحيب بالناس جميعًا، ولكنها مع هذا لم تجد من بينهم واحدًا يسد فراغ «مس تيلور» ولو لبضع للساعات. نعم فلقد كان هذا التغيير الذي طرأ على حياتها مصدر كآبة وحزن لها، ولم يعد لإمَّا إلا أن تظل تئن حسرة، وأن تعلل النفس بحدوث المستحيل، إلى أن يستيقظ والدها فتقتضيها الضرورة إدخال السرور على قلبه. فلقد كان في حاجة إلى من يرفع معنوياته لما كان عليه من سرعة الانفصال وسهولة الانقباض وما جبل عليه من تعلق بكل من ألف عشرتهم، ونفور من التخلي عنهم، وبغض للتعبير في كل صوره.

ولقد كان الزواج، وهو أصل التحول من حال إلى حال، بغيضًا إلى نفسه على الدوام، حتى أن جميع الوسائل لم تجدِ حتى الآن في إرضائه عن زواج ابنته، ولا أن تجعله يذكرها بغير الأسى والإشفاق على الرغم من أن زواجها كان وليد المحبة، ثم إذا به الآن يضطر إلى التخلي عن «مس تيلور» كذلك.

وقد دفعه ما طبع عليه من أنانية رقيقة، وصعوبة تصوره بأن غيره من الناس قد يشعرون بغير ما يشعر به، إلى أن أصبح يميل كثيرًا إلى الظن بأن «مس تيلور» قد أساءت بعملها إلى نفسها بعد ما أساءت إليهم، وأنها لو كانت أمضت بقية العمر في «هارتفيلد» لكانت بذلك أكثر سعادة.

وابتسمت «إمَّا» وأخذت تتحدث معه وهي مبتهجة ما أمكنها كي تبعد عنه هذه الأفكار، ولكن ما أن حان وقت تناول الشاي حتى وجد نفسه مندفعًا إلى تكرار نفس ما سبق له قوله وقت تناول العشاء.

«ما أتعس مس تيلور!! وددت لو أصبحت هنا ثانية! وما أتعس تلك الساعة التي فكر مستر «وستن» في زواجها!!».

«لست أوافقك على ذلك يا أبي. نعم أنت تعلم بأني لا أقدر على موافقتك على رأيك. إن مستر «وستن» رجل مرح وظريف وممتاز ولذا فهو جدير بأن تكون له زوجة صالحة. وما كان بودك أن تعيش «مس تيلور» معنا دومًا وأن تتحمل كل أهوائي ونزواتي الغريبة وفي وسعها أن يكون لها بيتها الخاص بها».

«بيتها الخاص!! ولكن ما الميزة في أن يكون لها بيت خاص بها؟ فهذا منزلنا وهو في اتساعه ثلاثة أضعاف منزلها، وأنت يا عزيزتي ليست لك نزوات غريبة».

«إننا سنذهب لزيارتهما كثيرًا، وهما بالمثل سوف يأتيان لزيارتنا، وسوف نتقابل دائمًا. ومن واجبنا أن نبدأ بالزيارة للتهنئة بالزواج ولا بد أن يكون ذلك سريعًا».

«وكيف يتسنى لي يا عزيزتي قطع تلك المسافة الطويلة؟ إن «راندولز» بعيدة ولا أقدر أن أمشي نصف تلك المسافة».

«لا يا والدي، وما فكر واحد منا في أن تذهب إليها سيرًا على الأقدام، فسوف نذهب إليها بالعربة بكل تأكيد».

«العربة!! - ولكن «جيمز» لا يحب إعدادها لمثل هذه المسافة القصيرة. وأين يكون إيواؤنا لخيولنا المسكينة وقت الزيارة».

«إنها ستكون في حظيرة مستر «وستن» يا والدي، ولقد تم الاتفاق على هذا بعد أن تباحثنا فيه مع مستر «وستن» في الليلة الماضية. وأما عن «جيمز» فكن واثقًا كل الثقة بأنه يروق له دائمًا أن يذهب إلى «راندولز» لأن ابنته تعمل خادمة هناك. أما ذهابه إلى أية جهة أخرى فهذا هو ما يمكن أن يكون موضع الشك يا والدي. وهذا العمل الجميل الذي تقوم به ابنته حنينة هناك هو من غرس يديك لأنك أنت الذي هيأته لها، وما كان أحد ليفكر فيها لولا أنك أوصيت بها. وإن «جيمز» لشاكر لك حسن صنيعك».

«يسرني كثيرًا أني فكرت فيها، وهو من حسن الطالع، لأني ما كنت أود أن أرى «جيمز» يظن أنه قد أغفل شأنه بحال. وأنا واثق بأنها ستكون خادمة طيبة جدًا، فهي بنت مؤدبة تحسن الكلام، وإني لأحسن الظن بها كثيرًا، فهي كلما وقع نظري عليها أراها تحييني وتسأل عن صحتي بطريقة لطيفة جدًا، كما ألاحظ أنها في كل مرة أتت إليك فيها لتقوم بأشغال الإبرة، كانت تدير أكرة الباب بالطريقة الصحيحة ولا تدفع الباب بشدة أبدًا. وأنا على يقين بأنها ستكون خادمة ممتازة. وإنه لشيء يبعث على الراحة في نفس «مس تيلور» المسكينة عندما تجد شخصًا بقربها اعتادت رؤيته، وفضلا عن ذلك فكلما ذهب «جيمز» ليرى ابنته ستعلم منه شيئًا كل أخبارنا، وسوف ينبئها هو كذلك بأحوالنا جميعًا».

وعملت «إمَّا» كل ما في وسعها كيلا تفارقه تلك الأفكار السارة، وكانت تأمل أنها إذا ما استعانت بالنرد فقد تهيئ له وقتا طيبًا طيلة المساء ولن يصيبها من الهم إلا ما كان خاصًا بها.

ومدت مائدة النرد. ولكن زائرًا أقبل في الحال فأصبحتِ غير ذات موضوع.

إن مستر «نيتلي» الرجل العاقل الذي بلغ السابعة أو الثامنة والثلاثين من عمره، لم يكن من أخص أصدقاء الأسرة القدامى فحسب، ولكن صلته بها كانت ذات طابع خاص، فهو الأخ الأكبر لزوج «إيزابلا»، وكان يقيم على بعد ميل واحد من «هايبري». وكثيرًا ما كان يزور الأسرة فيلقى منها كل ترحيب.
ولقد قوبلت زيارته هذه المرة بترحيب فاق كل ما اعتاده قبلًا. ذلك لأنه كان قادمًا مباشرة من لندن حيث تقيم «إيزابلا» فكان همزة وصل بين الطرفين، وقد عاد الآن إلى بيته بعد غياب بضعة أيام فتناول عشاء متأخرًا ثم سار إلى «هارتفيلد» ليخبرهم بأن جميع من في «ميدان برَنزويك» بخير.
وقد سر مستر وودهاوس لحضوره وامتلأت نفسه بشرًا بعض الوقت. كما كان في بشاشة مستر «نيتلي» ما يرتاح إليه دائمًا. كذلك نالت أسئلته العديدة عن «إيزابلا» المسكينة وعن أطفالها ردودًا أرضته غاية الرضى.
وما كاد ينتهي كل ذلك حتى قال مستر وودهاوس بشعور من الامتنان:
«إنه لعطف كبير منك يا مستر «نيتلي» أن تخرج في تلك الساعة المتأخرة وتأتي لزيارتنا، وإني لأخشى أن يكون المشي قد نال منك».
«لا شيء في ذلك يا سيدي، فهي ليلة مقمرة جميلة، والطقس دافئ حتى لأراني مضطرًا إلى الابتعاد عن نار موقدك المتأججة».
«ولكن لا بد أن الطريق كان مبللًا وقذرًا، وبودي ألا يكون قد أصابك برد من جراء ذلك».
«أتقول قذرًا يا سيدي!! أنظر إلى نعلي فلن ترى فيها بقعة واحدة».
«حسنًا!! وإن كان في ذلك ما يبعث على الدهشة ولا شك، لأن الأمطار هنا هطلت مدرارًا، وقد سقطت بغزارة نحو نصفه ساعة ونحن نتناول طعام الإفطار، ووددت لو أنهم أجلوا الزواج».
«وبهذه المناسبة أراني لم أقم بالتهنئة حتى الآن، ولما كنت أشعر كل الشعور بأنكما لا بد مغتبطان كل الاغتباط، لم أجد أي ضرورة للإسراع بالتهنئة. على أني آمل أن يكون كل شيء قد تم على خير ما نرجو. ولكن كيف كان مسلككم جميعًا، ومن كان أكثركم بكاء؟».
«آه، ما أتعس مس «تيلور»!! إنه عمل يوجب الأسى».
«أستميحكما المعذرة إن قلت ما أتعس مستر وودهاوس ومس وودهاوس فهما التعيسان حقًا. ولكني لا أقوى على أن أقول: مسكينة يا «مس تيلور»، إني لأشعر بالتقدير العظيم نحوك ونحو «إمَّا».
أما حين تكون المسألة مسألة اعتماد على الغير أو استقلال عنهم فهذا شيء آخر. وعلى كل حال حين تكون المسألة مسألة إرضاء أحد فإن من الأفضل إرضاء شخص واحد عن إرضاء شخصين».
وقالت «إمَّا» في دعابة: «وخاصة إذا كان أحد الاثنين مخلوقًا غريب الأطوار متعبًا. أنا أعرف بأن هذا هو ما تفكر فيه، وهو ما كنت لا بد قائلة إذا لم يكن أبي قريبًا منا».

وقال مستر وودهاوس متنهدًا:
«أعتقد أن ما تقولينه يا عزيزتي هو عين الصواب، وأنا أشعر أحيانًا بأني غريب الأطوار ومتعب».
«لا تظن يا والدي العزيز أني قصدتك، أو أن مستر «نيتلي» كان يعنيك... يا لها من فكرة مزعجة... لا، أبدًا.. وما قصدت إلا نفسي، وأنت تعلم بأن مستر «نيتلي» يجب أن يجد فيّ خطأ يفتح له بابًا ليمزح معي، وما كل هذا إلا مزاح. وكلانا يقول للآخر دائمًا ما يحلو له منه».
نعم فلقد كان مستر «نيتلي» واحدًا من بين القليلين الذين يستطيعون تبين أخطاء «إمَّا» وودهاوس بقدر ما كان الوحيد الذي يستطيع أن يكاشفها بخطئها. وإن كانت «إمَّا» لا تستسيغ ذلك منه كثيرًا، فقد كانت تعلم بأن أباها أكثر استعدادًا لاستساغته، ومن ثم فقد كانت تود أن تبعد عنه الظنون بأن كائنًا من كان لا يراها رمزًا للكمال.
وقال مستر «نيتلي»: إن «إمَّا» تعلم أني لا أتملقها، ولكني ما قصدت تعريضًا بأحد، لقد اعتادت مس «تيلور» أن تعمل على إرضاء شخصين وليس لها الآن إلا واحد ترضيه فلا بد أذن أن تكون هي الفائزة من هذه الزيجة».
وقالت «إمَّا» لكي تغير مجرى الحديث:
«حسنًا، إنك تريد أن تسمع شيئًا عن موضوع الزواج ويسعدني أن أقص عليك ما تريد لأننا جميعًا سلكنا مسلكًا حميدًا، فلم يتأخر أحد عن الحضور، وكان الكل مبتهجين، فلا دمعة سالت ولا علت الإكتئابة وجه أحد. لم يحدث شيء من هذا... ولقد أحسسنا جميعًا بأنه لن يفصلنا عن بعضنا سوى مسافة نصف ميل وتأكدنا بأن التقاءنا سيكون يوميًا». وقال والدها: «إن عزيزتي «إمَّا» لها قدرة على احتمال كل شيء ولكنها في الحقيقة يا مستر «نيتلي» مهمومة كل الهم لحرمانها من مس «تيلور» التعسة، وأنا واثق بأنها ستشعر ببعدها عنها أكثر مما قد تتصور». واستدارت «إمَّا» برأسها وهي حيرى بين الدموع والبسمات».
وقال مستر «نيتلي»: «يستحيل على «إمَّا» ألا تشعر بفراق رفيقة كهذه، وما كنا لنشعر نحوها يا سيدي بهذا الحب لو أننا ظننا بأن هذا الفراق سيكون سهلًا عليها، ولكنها تعلم مقدار ما سيعود على مس «تيلور» من فائدة بزواجها وتعلم أن مس «تيلور» وهي في تلك السن أكثر ما تكون استعدادًا للاستقرار في بيت يكون خاصًا بها. وإن من أهم الأمور لديها أن تضمن ما يؤمنها على مستقبل مريح.
ولهذا فإن «إمَّا» تشعر بالسرور بأكثر مما تشعر بالألم، وأن كل صديق لمس «تيلور» يجب عليه أن يغتبط عندما يراها سعيدة بزواجها».
فقالت «إمَّا»: «بل لقد نسيت شيئًا آخر كان مبعث سرور لي وكان بالنسبة لي شيئًا عظيمًا جدًا ذلك أنني أنا التي رتبت هذا الزواج، فلقد مهدت له منذ أربع سنوات وقد تابعته حتى نجحت في إتمامه وثبتت سلامته، في حين كان

الكثيرون يقولون أن مستر «وستن» لن يتزوج مرة أخرى. كل ذلك يجعلني أشعر بارتياح لا يعد له شيء آخر».

وهز مستر «نيتلي» رأسه بينما أجاب والدها في حنان ومحبة: «أجل يا عزيزتي، بودي ألا تمهدي للزيجات وألا تتنبأي بحدوث الأشياء لأن كل ما تقولينه دائمًا يتحقق، ورجائي ألا تمهدي لزيجات بعد اليوم».

«أعدك بأني لن أفعل ذلك فيما يتصل بي يا والدي، ولكني أجده عملًا واجبًا بالنسبة لغيري وهو أعظم تسلية في الوجود، وخاصة بعد نجاح كهذا الذي وفقت فيه.. لقد قال الكل أن مستر «وستن» لن يتزوج مرة أخرى، وأن مستر «وستن» الذي عاش طويلًا وهو أرمل، وكان يبدو دائمًا في منتهى الراحة وهو لا زوجة له، وكان إما مشغولًا بمهام أعماله في المدينة، أو مختلطًا هنا بأصدقائه، موضع الترحيب أينما ذهب، دائمًا باشًا مبتهجًا ليس في حاجة إلى أن يقضي ليلة واحدة بمفرده طيلة العام، اللهم إلا أن يشاء ذلك هو نفسه. لا، لا، إن مستر وستن لن يتزوج ثانية أبدًا. ولقد لاكته ألسن بعض الناس بالحديث فقالوا عنه أنه أخذ على نفسه عهدًا أمام زوجته وهي على فراش الموت ألا يتزوج بعدها، وقال آخرون أن ابنه وخاله منعاه من الزواج. وكم دار في هذا الموضوع من أحاديث هي هراء في صيغة الجد، ولكني ما صدقت منها شيئًا. ومنذ اليوم الذي تقابلت أنا ومس «تيلور» معه في منعطف «برودواي» منذ أربع سنوات مضت، عندما رأيناه، وقد أخذ المطر يتساقط، يسرع في خفة وشهامة فيستعير لنا مظلتين من بيت المزارع ميشيل، كونت لنفسي رأيًا في الموضوع، ورسمت الخطة لتهيئة الزواج منذ تلك الساعة. وإذ كان النجاح حليفي هذه المرة يا والدي العزيز، فلا أخالك تظن إني سأتخلى عن التمهيد للزيجات».

فقال مستر «نيتلي»: «لست أفهم ما تعنين بكلمة «النجاح» - إن النجاح يفرض بذل الجهد، فإذا كنت طيلة السنوات الأربع الأخيرة وقد بذلت جهدًا لإتمام هذا الزواج، فحري بك أن تقو لي إنك أمضيت وقتك فيما هو صواب ولذيذ، وإن عملًا كهذا يشغل عقل سيدة في مقتبل العمر لهو عمل جدير بالثناء، أما إذا كنت، كما أتخيل، تعنين بما تسمينه التمهيد للزواج أن تكتفي برسم الخطة وأن تقولي لنفسك في يوم لا تجدين فيه ما يشغلك: «أظنه يكون من الأمور المستحسنة لو أن مستر «وستن» تزوج مس «تيلور» ثم تظلين تكررين هذا القول لنفسك بين الحين والحين - ففيم إذن تتكلمين عن النجاح؟ وأين هو فضلك في هذا؟ وبأي شيء تفخرين؟ إن كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد، هو أن حدسًا طارئًا خطر لك فصادفك فيه الحظ».

«ألم تدرك يومًا ما للحدس الموفق من شعور باللذة والنصر يا أبتي؟ إني إذن أشفق عليك، ولقد كنت أظنك أكثر ذكاء - ثق بأن الحدس الموفق ليس كله وليد الحظ، بل فيه دائمًا شيء من الموهبة وسداد الرأي. أما كلمة النجاح البائسة التي صدرت مني ولقيت منك هذه المعارضة، فأظن أن من حقي أن

أتشبث بها وأن أنسبها إلى نفسي. إنك قد رسمت صورتين جميلتين، ولكني أظن أنه قد تكون هناك صورة ثالثة هي وسط بين حالتين، عدم عمل أي شيء، وعمل كل شيء، فلو أنني لم أعمل على زيارات مستر «وستن» لبيتنا، وأشجعه وأذلل الكثير من العقبات، لما تم شيء من هذا أبدًا، وأظنك أدرى بهارتفيلد حتى تفهم معنى ما أقول».

«إن رجلًا صريحًا وطيبًا كمستر «وستن»، وسيدة عاقلة لا تغيرها الأهواء مثل مس «تيلور»، قد يتركان ليدبرا أمورهما ونحن مطمئنون إلى حكمهما، وأغلب الظن أنك بتدخلك تسيئين إلى نفسك أكثر مما تسيئين إليهما».

وتدخل مستر «وودهاوس» في الحديث وهو لا يكاد يفهم كثيرًا مما دار بينهما فقال:

«إن «إمَّا» لا تفكر في نفسها أبدًا إذا وجدت أنها قادرة على فعل الخير للناس، ولكن رجائي يا عزيزتي ألا تمهدي لزيجات أخرى بعد الآن، فهي أشياء سخيفة تمزق شمل العائلة وتدخل عليها الهموم».

فلتكن مرة واحدة أخرى يا والدي من أجل مستر «ألتن»، كم أنا مشفقة على مستر «ألتن»، إنك تحب مستر ألتن يا والدي، ولابد من أن أبحث له عن زوجة، وإن كنت لا أجد في «هايبري» من هي جديرة به». إنه قد أمضى هنا عامًا كاملًا وكون لنفسه منزلًا فيه كل أسباب الراحة، ومن العار، أن تتركه بعد الآن أعزبًا. لقد خطر في ذهني وهو يجمع يديه إلى بعضهما اليوم أنه كان يبدو وكأنه يتوق إلى من يؤدي له هذه الخدمة الجميلة، إن لي رأيًا جميلا في مستر «ألتن»، وهذه هي طريقتى الوحيدة لأؤدي له خدمة».

«إن مستر «ألتن» شاب ظريف جدًا ولا شك إني أقدره كل التقدير، ولكنك إن أردت أن تشمليه بشيء من عنايتك يا عزيزتي، فسليه أن يأتي يومًا لتناول الغداء معنا، فهذا أفضل من أي شيء آخر، وقد يتعطف مستر «نيتلي» فيحضر للقائه».

وقال مستر «نيتلي» ضاحكًا: «مع مزيد السرور يا سيدي، وفي أي وقت تحدده، وإني متفق معكم كل الاتفاق في أن هذا أفضل بكثير، ادعيه يا «إمَّا» لتناول الغداء، وقدمي له أحسن الأسماك وأطيب الفراخ، ولكن اتركيه وشأنه ليختار زوجته، وثقي بأن الرجل وقد بلغ السادسة أو السابعة بعد العشرين قادر على أن يدبر أمر نفسه».

كان مستر «وستن» من مواطني «هايبري» ومن سلالة أسرة موقرة علت في الجيلين أو الثلاثة أجيال الأخيرة إلى درجة رفيعة من الحسب والغنى. وقد نال قسطًا من التعليم وافرًا ولكنه وقد آل إليه وهو في مقتبل العمر ما ييسر له حياة مستقلة، أصبح عيوفًا عن مزاولة أي عمل من الأعمال العادية، التي كان يزاولها أخوته. ولكنه مع ذلك استجاب إلى نداء عقله النشيط المستبشر وميوله الاجتماعية فانضم إلى فرقة الدفاع الوطني «الميليشيا» التي تكونت وقتئذ في القرية.

وكان النقيب «وستن» محبوبًا من الجميع. فلما هيأت له حياة الجندية فرصة التعرف بمس «تشرشل» وهي من إحدى أسر «يوركشير» العريقة، وهامت بحبه، لم يكن هذا ليثير الدهشة في نفس أحد إلا أخاها وزوجته اللذان لم يرياه من قبل، وكان فيهما من الكبرياء والشعور بالعظمة ما جعلهما يظنان بأنها مصاهرة قد تنتقص من مكانتهما.

ولما كانت مس «تشرشل» قد بلغت رشدها ولها حرية التصرف في مالها، وهو لا يعدو أن يكون جزءًا لا يكاد يذكر بجانب أملاك الأسرة ومزارعها، فقد تشبثت بالزواج ولم يستطع أحد أن يثنيها عنه، فتم على مضض وشعور من مستر «تشرشل» وزوجته بأنه وصمة عار، فتخليا عنها بعد أن زوداها بما تقتضيه المظاهر.

لقد كانت زيجة غير متلائمة، فلم توفر للزوجين قسطًا كبيرًا من السعادة المرجوة. وكان جديرًا بمسز «وستن» أن تحقق من هذه الزيجة الكثير، فقد كان لها زوج له من قلبه المحب و طبعه الرقيق ما جعله يوفيها حقها مقابل ما تفضلت وحبته به من حب. لقد كانت فيها شجاعة ولكنها لم تكن خير أنواع الشجاعة، وكان لها من العزم ما كفاها لتنفيذ إرادتها على الرغم من معارضة أخيها، ولكن لم يكن لها منه ما يمنعها من الأسف الذي لا أساس له من أصالة الفكر على ما بدر من أخيها من غضب لا مبرر له، ولا يمنع شعورها بالحرمان من عيشة الترف التي عاشتها في بيتها من قبل.

لقد عاشا بأكثر مما تطيقه مواردهما، ولكن هذا لم يكن بالشيء الذي يقارن بما كانت تعيش عليه في بيت «أسكومب». ولقد استمرت على حبها لزوجها

ولكنها كانت تروم أن تجمع بين شيئين في آن واحد، أن تكون زوجة النقيب «وستن» ومس «تشرشل» من أرومة بيت «أسكومب» معًا.
ولقد كان النقيب «وستن» الذي كانت تنظر إليه أسرة تشرشل خاصة على أنه قد ظفر بزيجة مدهشة، هو الذي برهنت الحوادث على أنه الطرف الذي خرج بأكبر نصيب من الخسارة في تلك الصفقة. ذلك لأنه وقد ماتت زوجته بعد ثلاثة سنوات من زواجهما أصبح أقل يسرًا مما كان عليه قبلًا، علاوة على طفل أنجبته له وكان عليه أن يرعاه. ولكنه ما لبث أن أعفي من تكاليف رعايته. فلقد كان مولد الطفل وما لازم أمه من مرض يستدر العطف، عاملًا من عوامل الوئام وإزالة الفرقة.
ونظرًا لأن مستر «تشرشل» وزوجته لم ينجبا أطفالًا ولم يكن أمامهما صغير آخر في مثل قرابة ذلك الطفل يقومان برعايته، فقد تقدما برغبتهما في أن يتكفلا بتربية «فرانك» الصغير عقب موت أمه.
وقد تفترض أن الوالد الأرمل قد شعر بشيء من التردد وعدم الموافقة في تسليم ابنه، ولكن اعتبارات أخرى سرعان ما تغلبت على تردده، فعهد بالطفل إلى أسرة تشرشل لترعاه وينعم بثرائها. ولم يبق أمام الأب إلا أن يبحث عن راحته ويحسن من مركزه على قدر طاقته. وكان لابد له من تغيير شامل في معيشته، فترك الخدمة في الجيش الوطني واحترف التجارة. وقد سهل له أخوته ذلك وفتحوا له أبواب العمل فيها، إذ كانوا قد استقروا في لندن وهيئوا لأنفسهم مركزًا طيبًا في التجارة. فكان له في تجارته ما يشغله، وكان له بيت صغير في «هايبري» يقضي فيه معظم أوقات فراغه. واستمر طيلة ثماني عشرة سنة أو لعلها عشرون سنة، وهو يقضي وقته مبتهجًا ما بين أعمال تعود عليه بالكسب أو صلات اجتماعية تجلب له المتعة. وقد أمكنه أن يحقق لنفسه في تلك الفترة مبلغًا يكفي لابتياع ضيعة صغيرة تجاور «هايبري» فقد كانت هذه دائمًا أمنيته، كما يكفي للاقتران بسيدة مثل مس «تيلور» لا مال لها، وأن يعيش وفق ميوله الاجتماعية ونزعته إلى مودة الناس.
لقد مضى الآن بعض الوقت منذ أن بدأت مس «تيلور» تؤثر في مشاريعه، ولكن ذلك التأثير لم يكن بتأثير الجارف الذي يحدث بين شابين فلم يزعزع من عزمه على ألا يهدأ أو يسكن حتى يبتاع «راندولز». وكان بيعها أمرًا ظل يترقبه من زمن. وكم طال انتظاره لتحقيق هذه الأمنية ولكنه ثابر وهو واضع هذا الهدف نصب عينيه حتى تم له ما أراد.
لقد حقق مالًا كثيرًا وابتاع له دارًا ونال زوجته التي يريدها، وهكذا بدأ عهدًا جديدًا عاش فيه محوطًا بكل الاحتمالات التي تهيئ له حياة أرغد وأهنأ مما كان له قبلًا. وهو لم يكن يومًا تعسًا في حياته لأن طباعه جعلته في مأمن من ذلك حتى في أيام زيجته الأولى. غير أن زيجته الثانية كانت خليقة بأن تريه ما يصحب الاقتران بسيدة كريمة الخصال بصيرة بحقائق الأمور من سعادة، وأن

تبرهن له بالبراهين المحببة إلى النفوس على أنه أفضل للإنسان أن يَختار من أن يُختار، وأن يذكي في الغير العرفان بالجميل من أن يستشعره في نفسه.

لقد كان كل همه في اختيار زوجته أن يسعد نفسه. كان المال ملك يديه، أما «فرانك» فان تنشئته ليكون وريثًا لخاله قد أصبحت حقيقة قائمة وأصبح تبني أسرة «تشرشل» له وانتسابه إليها أمرًا معروفًا حتى إذا بلغ رشده حمل لقبها وأصبحت حاجته إلى معونة تأتيه من أبيه أمرًا مستبعدًا، نعم فما كان والده ليخشى شيئًا من ذلك. لقد كانت زوجة خال الطفل سيدة متقلبة الأهواء لا تستمر على حال وكان زوجها في قبضة يدها وتحت أمرتها، غير أن مستر «وستن» لم يكن يتخيل أبدًا أن تقلبات أهوائها مهما بلغت من الشدة سيكون لها أقل أثر على عزيز مثل طفله، وهو في نظره جدير بأن يكون ذلك العزيز.

وكان مستر «وستن» يرى ابنه في لندن كل سنة وكان فخورًا به. وجعلت الأخبار التي كان يذيعها عن ابنه، بأنه شاب في غاية الظرف، مواطني «هايبري» يحسون نحوه كذلك بنوع من الفخار ويعتبرونه من أبناء الناحية ويرون فيما يتحلى به من كريم الشمائل وما ينتظر له من مستقبل زاهر شيئًا يهتمون له جميعًا. نعم لقد كان مستر «فرانك تشرشل» مفخرة من مفاخر أهل «هايبري» وكان شغفهم برؤيته قويًا، رغم أنه لم يقابل شعورهم بشيء يوازي شعورهم، حتى أنه لم يأت إلى هذه الجهة إطلاقًا. وكم جرت أحاديث عند قدومه لزيارة أبيه ولكن الزيارة لم تتحقق.

والآن وقد تزوج والده فقد أجمعت الآراء على أن هذه الزيارة أصبحت واجبة الأداء، ولم يكن أحد ليشذ عن هذا الرأي في المجلس الذي جمع مسز «بري» بمسز «بيتس» وابنتها لتناول الشاي عندهما، أو عندما ردت مسز «بيتس» وكريمتها الزيارة لها.

لقد حان الوقت لكي يأتي مستر «فرانك تشرشل» إليهم وقوى الأمل في مجيئه عندما علموا أنه كتب إلى زوجة أبيه بمناسبة زواجها، ومضت بضعة أيام لم تخلو فيها الأحاديث التي كانت تدور في أثناء الزيارات الصباحية في «هايبري» من ذكر الخطاب الرقيق الذي وصل إلى مسز «وستن» من فرانك «تشرشل».

«لعلك سمعت عن الخطاب الرقيق الذي كتبه مستر فرانك تشرشل إلى مسز وستن؟ لقد فهمت مما أخبرني به مستر «وودهاوس» أنه كان خطابًا رقيقًا جدًا، لقد رأى مستر «وودهاوس» الخطاط بنفسه وهو يقول أنه لم ير قط في حياته خطابًا في مثل رقته».

كان حقًا خطابًا جديرًا بالتقدير، وكان له أبلغ الأثر في تكوين فكرة طيبة لدى مسز «وستن» عن صاحبه. فقد كانت هذه اللفتة السارة من جانبه برهانًا قاطعًا على جميل شعوره جاءت متوجة لكل مظهر وكل مصدر

من مصادر التهنئة التي أزجيت إليها بمناسبة زواجها. لقد شعرت بأنها سيدة مِيمونة الطالع، وإنها قد عاشت لترى نفسها في عداد السعداء، وإنها إن

أسفت فإنما تأسف على شيء واحد هو افتراقها عن الأصدقاء الذين لم تخمد جذوة صداقتهم لها وكان من الصعب عليهم تحمل ألم فراقهم عنها.
لقد كانت تعلم بأنهم سيشعرون أحيانًا بوحشتها، وكان الألم ينتابها إذا ما خطر في ذهنها أن «إمَّا» قد تفقد شيئًا من مباهجها، أو أن الضيق قد ينتابها لأنها حرمت من صحبتها. ولكن العزيزة «إمَّا» لم تكن ذات خلق ضعيف، وكانت تفوق معظم الفتيات في قدرتها على مواجهة الأمور، وكان لها من سعة التفكير والنشاط والحيوية ما يجعلها تتغلب في يسر وإشراق عن كل ما يصادفها من متاعب صغيرة أو نقص في المسرات. ثم هناك إلى جانب ذلك قصر المسافة بين «راندولز» «وهارتفيلد» وهي مسافة يسهل على السيدة حتى ولو كانت بمفردها أن تسيرها مشيًا على الأقدام، كما كان لمستر «وستن» من ميوله وظروفه ما يبعث على راحة النفس ويجعل الموسم القادم يبشر بأن يكون مناسبة لقضاء نصف أمسيات الأسبوع سويًا.
لقد كانت «إمَّا» تقضي الساعات تفكر فيما عليها من واجب العرفان بالجميل لمسز «وستن» لا يتخللها إلا لحظات من الألم على فراقها. أما شعور مسز «وستن» بالرضى، بما هو أكثر من الرضى، وإحساسها بالاغتباط وبالبهجة فقد كان واضحًا باديًا عليها، حتى أن «إمَّا» وهي أدرى الناس بأبيها، كانت تستولي عليها الدهشة أحيانًا عندما تراه ما يزال يظهر إشفاقه على مس «تيلور» البائسة كلما تركاها في «راندولز» مغمورة بمطالب الحياة العائلية أو شاهداها تخرج من عندهما كل المساء برفقة زوجها الودود وفي عربة تملكها، فلم تخرج من عندهما مرة دون أن تبدو من مستر «وودهاوس» تنهيدة خافتة يعقبها قوله «واحسرتاه على مس تيلور البائسة! كم كان يسرها أن تبقى معنا».
ولم يكن هناك أمل في عودة مس «تيلور» بقدر ما لم يكن هناك احتمال في توقفه عن الإشفاق عليها، ولكن لم تمض أسابيع قلائل حتى حدث ما يخفف عن مستر «وودهاوس» ويسري عنه. فلقد انتهت التهاني التي كان يتلقاها من جيرانه وكفت التمنيات الطيبة التي كان يلقي بها إليه الناس في مناسبة كانت تحزنه، وأكلت كعكة الزواج التي أقلقته وأثقلته بالهموم عن آخرها. ولم تكن معدته لتحتمل شيئًا دسمًا، ومن ثم فلم يكن يصدق أبدًا أن غيره من الناس يختلفون عنه في ذلك. وكان يرى أن كل طعام لا يتفق معه، طعام لا يصلح لأحد من الناس، ولهذا فقد جاهد لكي يمنعهم عن شراء كعكة الزواج، فلما فشل في ذلك حاول بكل ما وسعه أن يمنع الناس من أكلها. ولقد أتعب نفسه كثيرًا في استشارة مستر «بري» الصيدلي في ذلك. وكان مستر «بري» رجلًا ذكيًا مهذبًا، وكانت زياراته المتكررة تدخل السرور على نفس «وودهاوس» وكان كلما سئل لا يجد محيصًا عن الاعتراف (ولو كان ذلك مخالفًا لاتجاهه وميوله) بأن كعكة الزواج قد لا توافق الكثيرين، بل قد لا توافق معظم الناس إلا إذا كان أكلها باعتدِال، وكان هذا الرأي الذي جاء معززًا لرأيه هو أمل مستر

«وودهاوس» في التأثير على كل زائر للعروسين، وعلى الرغم من ذلك فقد أكلت الكعكة عن بكرة أبيها ولم تهدأ أعصابه حتى التهمت عن آخرها.

وانتشرت في«هايبري» شائعات عجيبة بأن أطفال مستر «بري» جميعًا قد شوهدوا وفى أيديهم شرائح من كعكة زواج مسز «وستن»، ولكن مستر «وودهاوس» لم يصدق هذا أبدًا.

الفصل الثالث

كان «مستر وودهاوس» مغرمًا بمعاشرة الناس على طريقته الخاصة ولهذا فقد كان يحب كثيرا أن يأتي أصدقاؤه لزيارته، ولقد أمكنه أن يسيطر بدرجة كبيرة على الزيارات التي يقوم بها له أفراد دائرته الصغيرة لأسباب عديدة متجمعة، منها طول مدة إقامته في «هارتفيلد» وما طبع عليه من سجايا حميدة، وثراؤه، وبيته، وكريمته. ولم تكن صلاته بالأسر لتخرج عن نطاق هذه الدائرة، فقد كان خوفه الشديد من السهر ومن ولائم العشاء الكبيرة سببًا في أنه كان يرى نفسه غير أهل للتعارف إلا بمن تكون زياراتهم له وفق مزاجه وميوله وكان من حسن حظه أن قرية «هايبري» بما فيها «وراندولز» التي تقع معها في نفس الأبرشية، وكذلك رهبانية «دونيول» في الأبرشية المجاورة، وهي مقر مستر «نيتلي» كانت تضم كثيرين من أمثال هؤلاء الأصدقاء، وغالبًا ما كانت «إمَّا» تغريه فيدعو بعضًا من النخبة الأخيار لتناول الغداء ولكن اجتماعات الأمسيات هي التي كانت دائمًا مفضلة عنده. وكان من النادر أن تمر أمسية في الأسبوع من غير أن تهيء «إمَّا» منضدة للعب الورق، اللهم إلا إذا كان يشعر بعزوف عن مقابلة الناس.

وكان مستر «وستن» وقرينته ومستر «نيتلي» يأتون دائمًا على الرحب لما كان لهم في نفسه من مكانة وتقدير، وكان مستر «ألتن» ذلك الشاب الذي يعيش بمفرده غير راض عن وحدته، لا يخشى أن يلقى أعراضًا إذا رغب في أن يستبدل أمسياته الموحشة التي يكون فيها وحيدًا لا مؤنس له، ما يلقاه في حجرة الاستقبال ببيت مستر «وودهاوس» من مظاهر النعمة، بمن فيها من خيرة مجتمع، علاوة على ابتسامات ابنته الجميلة.

وتلى هؤلاء مجموعة أخرى، كان أكثر أفرادها ترددًا على بيته، إذا ما تهيأت لهم الظروف المناسبة «مسز بيتس» وابنتها مس «بيتس»، ثم مسز «جدرد» - ثلاث سيدات كن غالبًا يلبين الدعوة التي تأتيهن من هارتفيلد، فتذهب إليهن العربة لتأتي بهن ثم تعود بهن المرة بعد المرة، حتى أصبح مستر «وودهاوس»، يظن أنه لا الحوذي «جيمز» ولا الخيل يلقون في ذلك عناء. ولو أن هذا كان يحدث مرة واحدة في العام لسبب له ضيقًا.

وكانت «مسز بيتس»، وهي أرملة راعي كنيسة «هايبري» السابق، سيدة شمطاء، زهدت في كل شيء عدا موائد الشاي ولعبة الكوادريل (الورق).

وكانت تعيش مع ابنتها الوحيدة عيشة الكفاف وتلقى من التقدير والاحترام ما هو خليق بسيدة عجوز لا حول لها، وفي مثل ظروفها السيئة ولقد بلغت ابنتها من الحظوة ما لم يبلغه مثيلاتها ممن لم يكن متزوجات، ولا نصيب لهن من الشباب أو الجمال أو الغنى.
وكان «مس بيتس» في أسوأ موقف يمكن أن يكون فيه أحد في هذه الدنيا بسبب ما كانت تنعم به في حظوة عند الناس، دون أن يكون لها ذكاء خارق يعوض عليها موطن النقص فيها، أو يسمح لها بأن تخيف أولئك الذين يكرهونها إلى حد التظاهر باحترامها، وهي لم تباه يومًا بجمالها أو بذكائها، فقد ولى عهد شبابها وهي مغمورة لا يميزها شيء على غيرها، وكرست ربيع عمرها لترعى أمًا ذهبت زهرة أيامها، وتجاهد لكي تعيش في حدود دخل ضئيل ما أمكنها. ومع ذلك فقد كانت سعيدة، ولم يكن أحد يذكر اسمها إلا مقرونًا بطيبة قلبها، كل ذلك لانطباعها على حب الخير وشعورها بالرضى ولأنها أحبت الناس وتمنت لهم السعادة جميعًا، ولا تخفى عليها شاردة ولا واردة من مزاياهم. وكانت تؤمن بأنها من أوفر الخلائق حظًا، وأنها مغمورة بالنعم بما جادت به عليها الحياة من أم ممتازة وعدد وفير من الجيران الطيبين والأصدقاء المخلصين، وبيت فيه كل أسباب الحياة. وكان لها من بساطتها وطبيعتها المستبشرة ونفسيتها القانعة الشاكرة ما حببها إلى الناس جميعًا بقدر ما كان مصدر سعادة لها. وكانت لها قدرة على تناول صغائر الأمور بالحديث المستفيض، فكان ذلك يصادف هوى في نفس مستر «وودهاوس»، كما كان في جعبتها الكثير من أخبار الناس، فكانت تتناول سيرهم بالحديث البريء.
أما مسز «جدرد» فكانت صاحبة مدرسة ليست مما يطلق عليها اسم الأكاديمية أو المؤسسة، أو أية تسمية أخرى مما يصاغ في جمل طويلة، وهي ليست إلا عبارات من الهراء النمق الذي يقصد منه الإعلان عن مزاياها العديدة وما تقوم عليه من قواعد جديدة، وطرق حديثة، تلك المدارس التي يتقاضون فيها عن الفتيات مبالغ باهظة ليخرجن منها وقد ذبلت صحتهن وتملكهن الزهو والكبرياء، ولكنها كانت مدرسة داخلية تسير على النظام القديم وتقوم على أسس حقيقية ثابتة، يمكن التلميذات فيها الحصول على قسط معقول من المعلومات مقابل أجر معقول، ويبعث بالبنات إليها لأبعادهن عن البيت، ولكي ينلن فيها قسطًا قليلًا من التعليم دون خطر من أن يعدن منها أعجوبة من الأعاجيب.
لقد كان لمدرسة مسز «جدرد» سمعة طيبة هي جديرة بها، ولما كانت «هايبري» معروفة بأنها مكان صحي، فقد أعدت صاحبتها منزلًا فسيحًا وحديقة واسعة، وزودت الأطفال بغذاء صحي وفير وجعلتهم يمرحون كثيرًا أيام الصيف، أما في أيام الشتاء فكانت تضمد بنفسها ما يصيب أقدامهن من قروح وتسلخات بسبب الصقيع. ولم يكن مستغربًا أن تُرى وهي تسير ومن ورائها أربعون صغيرة، يسرن مثنى مثنى وهن في طريقهن إلى الكنيسة، فقد كانت

مسز «جدرد» سيدة نقية السريرة، فيها عطف الأمومة، كدّت أيام الصبا فأصبحت ترى الآن أن لها الحق في عطلة بين الحين والحين، تمضيها في زيارة بعض الناس لتتناول معهم قدحًا من الشاي.
وبالنظر إلى ما كان لمستر «وودهاوس» عليها من أياد بيضاء، فقد كانت تشعر بأن من حقه عليها أن تترك حجرتها الأنيقة التي زينت جدرانها بالتحف الجميلة، كلما تيسر لها ذلك لتقضيها حول مدفأته.
هؤلاء كن السيدات اللائي كان في وسع «إمَّا» جمعهن في بيتها أغلب الأحيان. وما أسعدها بدعوتهن من أجل والدها ولو أن هكذا بالنسبة لها لم يكن ليسد الفراغ الذي تركته «مسز وستن» وراءها.
فلقد سرها أن ترى والدها هانئًا، كما سرها كثيرًا أن تكون هي المهيئة لهنائه. غير أن الأحاديث الهادئة لمثل هؤلاء السيدات الثلاث جعلتها تحس بأن هذه الأمسيات الطويلة هي ما كانت تخشاه.
وذات صباح، بينما كانت جالسة تفكر فيما تكون عليه خاتمة اليوم، جاءها خطاب من مسز «جدرد» تلتمس فيه بأبلغ عبارات التبجيل أن يؤذن لها باصطحاب «مس سمث» عند مجيئها لزيارتهم.
وقابلت رجاءها بترحيب عظيم، فقد كانت «مس سمث» فتاة في السابعة عشرة سبق ل» إمَّا» أن رأتها فاستلفتت أنظارها بجمالها. وكان الرد على هذا الرجاء توجيه دعوة كريمة لها للحضور. ولم تعد سيدة القصر الجميلة لتخشى قضاء أمسية مملة بعد ذلك.
كانت «هاريت سمث» ابنة غير شرعية، ألحقها شخص ما منذ سنوات مضت بمدرسة مسز «جدرد»؛ ثم نقلها شخص ما من وضعها كتلميذة إلى مشرفة بالقسم الداخلي. وكان هذا هو كل ما يعرف عن تاريخ حياتها. ولم يكن لها صديقات معروفات غير اللائي صادقتهن في «هايبري». وكانت قد عادت على التو من زيارة طويلة قضتها في الريف في ضيافة شابات كن معها في المدرسة.
كانت فتاة جميلة جدًا، وكان جمالها من النوع الذي تهواه «إمَّا» وتعجب به خاصة. كانت قصيرة القامة ممتلئة الجسم، مليحة الخلقة، مشرقة المحيا، لها عينان زرقاوتان وشعر فاتح، تقاسيم وجهها منتظمة ونظراتها بالغة العذوبة.
وأعجبت «إمَّا» كثيرًا بها وبأخلاقها، وقبل أن ينقضي المساء كانت قد وطدت العزم على ألا تقطع صلتها بها، وإذا كانت لم تلمس في حديث «مس سمث» شيئًا يدل على ذكاء خارق، فقد وجدت فيها جاذبية خاصة. لم تكن خجولة بدرجة تبعث على الضيق، ولم تتوان عن الحديث، ولكنها في الوقت نفسه كانت بعيدة كل البعد عن إقحام نفسها فيه، وقد أظهرت عند لقائها للحاضرين بشاشة وكياسة، وأبدت عظيم امتنانها وتقديرها للسماح لها بزيارة «هارتفيلد»، وكشفت في غير نفاق عن تأثرها بكل ما شاهدته من عظمة لا تقارن بما ألفته، مما دل على حسن ذوقها وعلى أنها جديرة بالتشجيع، بل لقد

كان تشجيعها واجبًا، فإن ما لها من عينين زرقاوين ناعستين، وما طبعت عليه من الرقة يجب ألا يضيع هباء بين من هم أقل قدرًا من أهل «هايبري». ثم هؤلاء الصديقات اللائي تعرفت بهن لهن لسن أهلًا لصحبتها. وأولئك الصويحبات اللائي كانت في زيارتهن على الرغم من أنهن من أسرة طيبة لا بد أن يلحقن بها ضررًا. إنهن من أسرة تعرف بأسرة «مارتن». وكان ل» إمَّا» علم بأن تلك الأسرة تستأجر ضيعة واسعة يملكها مستر «نيتلي»، وأنها تقيم بناحية رهبانية «دونول»، وأنها أسرة مؤتمنة فيما تعتقد وأن «مستر نيتلي» يظن بها خيرًا. ولكنها مع ذلك لا بد أن تكون من عامة الناس وأن تكون غير مثقفة، ولا تصلح بأي حال لأن تعقد الصداقة بفتاة لا ينقصها إلا القليل من المعرفة والرشاقة لتصبح كاملة. إن عليها أن تلحظها وأن تعمل على رفع مكانتها فتفرق بينها وبين معارفها اللائي لا يلائمنها ثم تدفع بها إلى وسط أرقى، ولسوف تشكلها من حيث مسلكها مع الناس ومن حيث تفكيرها، وهي لا بد واجدة في هذا العمل لذة، فهو عمل لذيذ مليء بالعطف والحنان ويتفق وما هي عليه من مكانة وما لديها من فراغ وما فيها من مقدرة.

لقد شغلت في أثناء حديثها معها والاستماع إليها، بعينيها الزرقاوين الناعستين وأعجبت بهما، ورسمت كل هذه الخطط خلال ذلك حتى انقضت فترة المساء بسرعة خاطفة على غير ما اعتادته. وكذلك مائدة العشاء التي كانت دائمًا تعقب مثل هذه الاجتماعات والتي اعتادت أن تجلس وترقب إعدادها، مُدت واستكملت عدتها، ثم قربت من مكان المدفأة قبل أن تكاد تتنبه إلى ذلك.

وفي حيوية لم تفارقها أبدًا في أدائها للأعمال بعناية وعلى أكمل وجه، وبشعور حي صادر عن عقلية تعتز بآرائها، قامت «إمَّا» بكل الحفاوة التي تتطلبها وجبة العشاء، وأخذت تقدم لضيوفها الدجاج المفرى، والمحار المطهى بسرعة وإصرار حالا دون ترددهم في قبولها. وكانت مشاعر مستر «وودهاوس» في مثل تلك المناسبات في حرب محزنة مع نفسها، فكان يجب أن يرى المفرش يغطي المائدة فهذا ما اعتاد أن يراه منذ صباه، ولكن اعتقاده بأن تناول العشاء أمر ضار بالصحة جعله يحزن إذا رأى أي شيء يوضع فوق المفرش، ولهذا، فبينما كان حسن كرمه يأبى عليه إلا أن يرحب بزائريه ويغمرهم بكل شيء، كان اهتمامه بصحبتهم يثير غمه إذ يراهم يأكلون. وإن صحنًا به عصيدة مخففة مثل صحنه لهو كل ما كان يمكن أن يوصي به أو يوافق عليه، ولو أنه قد يضغط على نفسه وهو يرى السيدات يلتهمن ما لذ وطاب ويقول:

«اسمحي لي يا «مسز بيتس» أن أقترح عليك تذوق واحدة من هذا البيض. إن بيضة مسلوقة قليلًا لا يضر أكلها، وإن «سيرل» لا يدانيه أحد في درايته بسلق البيض وأنا لا أشير بأكل بيضة يسلقها شخص آخر. ولا داعي للخوف على أية حال لأنها بيضات صغيرات جدًا كما ترين. وبيضة صغيرة مما لدينا لن تؤذيك، دعي يا «مس بيتس» ابنتي «إمَّا» تقدم لك قطعة صغيرة من الفطير المحشو، إن فطائرنا محشوة بالتفاح، ولا تخافي أن تكون الفاكهة المحفوظة عندنا غير

صحية، «وكل نصيحتي لك ألا تأكلي الكريم وأنت يا مستر «جدرد» ما رأيك في نصف قدح من النبيذ» نصف قدح صغير في كوب ماء، ولست أظن بأن هذا لا يوافقك».

وتركته «إمَّا» يتحدث وظلت تمد زائريها بسخاء لا مزيد عليه، وكان منتهى سرورها في هذا المساء أن تراهن مغتبطات ساعة انصرافهن. لقد كان ابتهاج «مس سمث» وفق ما كانت تروم. لقد كانت «مس وودهاوس» من الشخصيات البارزة في «هايبري» إلى حد أن فكرة التعارف بها ملأت قلب «مس سمث» بشعور من التهيب المقرون بالسرور. غير أن الفتاة الصغيرة المتواضعة الشكورة، غادرت البيت وهي راضية كل الرضى وسرها ما لقيته من حفاوة «مس وودهاوس» بها طيلة المساء ومصافحتها لها يدًا بيد بالفعل آخر الأمسية.

وسرعان ما توطدت أواصر الصداقة بين «مس سمث» وأسرة هارتفيلد، وكان من عادة «إمَّا» إنها إذا أرادت شيئًا حزمت أمرها وسارعت إلى تنفيذه، ولهذا لم تتوان في دعوتها للولائم، وفي تشجيعها ومطالبتها بالإكثار من زياراتها.
وزادت الألفة بينهما بتقادم العهد على تعارفهما، فلقد تنبأت «إمَّا» منذ أول وهلة بأنها قد تجد فيها الرفيق الصالح حين يخرج للتريض مشيًا على الأقدام، إذ كانت تعاني من تلك الناحية بعد أن افترقت عنها «مسز وستن» لأن والدها لم يتخطى في مشيه مكان شجيرات التوت، حيث كانت هناك رقعتان من الأرض وجد فيهما كل ما يشبع رغبته في السير إلى مسافة تطول أو تقصر حسب فصول العام. ومنذ أن تزوجت «مسز وستن» قلت ممارستها لتلك الرياضة وظلت مقصورة على مسافات محدودة للغاية. لقد جازفت مرة سارت وبمفردها إلى «راندولز» ولكنها لم تشعر بلذة، ومن ثم فإن فتاة مثل «هاريت سمث» يسهل عليها استدعاؤها في أي وقت لمصاحبتها في سيرها سوف تكون غنمًا يضاف إلى ما لها من امتيازات أخرى. وقد خبرتها من جميع الوجوه وازدادت معرفتها بها فرضيت عنها واستمسكت بتنفيذ ما رسمته من أجلها.
و لم تكن «هاريت» فتاة حاذقة ولا شك ولكنها كانت حلوة الشمائل، طيعة، شكورة، بعيدة عن الزهو بنفسها، وكل ما كان ينقصها هو أن تجد من يوجهها، فلقد نشأت محببة إلى الناس وكان ميلها إلى صحبة الأخيار، وتقديرها لكل ما هو جميل وصادر عن ذكاء، دليلًا على أن الذوق لا يعوزها، ولو أن قوة الإدراك لم تكن منتظرة منها.
لقد أيقنت «إمَّا» أن مس «هاريت سمث» هي الصديقة الشابة التي تريدها وأنها الشخص الذي ينقص بيتها. إن وجود صديقة تشبه «مسز وستن» تمامًا كان أمرًا مستبعدًا فإن وجود اثنتين من هذا الطراز ليس بالأمر الممكن، بل هي لم تكن في حاجة إلى اثنتين من هذا الطراز. إنها تختلف عن «مسز وستن» تمامًا، وعاطفتها نحوها تتميز عن عاطفتها نحو «مسز وستن» ومستقلة عنها كل الاستقلال. ذلك أن «مسز وستن» كانت موضع تقدير أساسه العرفان بالجميل والإكبار، أما محبتها لهاريت فمصدرها شعورها بأنها

سوف تؤدي لها منفعة وإذا لم يكن هناك ما يمكنها أن تؤديه نحو «مسز وستن» فقد كان في استطاعتها أن تؤدي كل شيء نحو «هاريت».
وكانت أولى محاولاتها في ذلك سعيها للتعرف على والديها ولكن هاريت لم تكن تذكر من ذلك شيئًا لقد كانت على استعداد لأن تقول كل شيء في وسعها، ولكن كل أسئلة تتعلق بهذه الناحية ذهبت كلها هباء. واستسلمت «إمَّا» لخيالها وجعلت تصور لنفسها ما يحلو لها عن منبت صديقتها. ولكنها لم تعتقد قط بأنها لو كانت في مكانها كانت تظل عاجزة عن معرفة حقيقة أمر نفسها. ولم تكن «هاريت» ممن يزجون بأنوفهم لاستقصاء الأخبار ولذا قنعت في ذلك بما وصل لعلمها من أخبار اختارتها لها مسز «جدرد» وأفضت بها إليها، فرضيت بها ولم تطلب مزيدًا عليها.
وكان قسط كبير من حديثهما يدور حول مسز «جدرد» وعن المدرسات والبنات وأحوال المدرسة بوجه عام، بل أن حديثهما كان ولا شك يقتصر على هذه الموضوعات وحدها لو أنها لم تذكر شيئًا عن معرفتها بأسرة «مارتن» التي تقيم بضيعة الرهبانية، فقد كانت كثيرًا ما تفكر في هذه الأسرة التي قضت معها شهرين شعرت فيها بأقصى قسط من السعادة وأصبح يطيب لها الآن أن تتحدث عما استمتعت به مدة زيارتها، وأن تصف ما لقيته هناك مما تستريح له النفس وتعجب له.
وكانت «إمَّا» تشجعها على أن تسترسل في الكلام إذ وجدت متعة في أن ترى صورة لطيفة من ناس من نوع آخر، وأن ترى بساطة الشباب في الكلام تغمر «هاريت» وهي تتحدث عن مسز «مارتن» وتذكر أن في بيتها بهوين رائعين أحدهما في اتساع حجرة استقبال مسز «جدرد»، وأن لديها رئيسة خدم عاشت معها خمسة وعشرين عامًا وأن لديهم ثماني بقرات من بينها اثنتان من أبقار «الدِرْني» وبقرة صغيرة من نوع «الولش»، صغيرة وجميلة جدًا، وأن مسز «مارتن» تقول وهي معجبة بهذا البقرة: «إنها بقرتي»، ثم تستطرد فتقول أن لهم مقصورة صيفية في حديقتهم وأنهم سيتناولون فيها جميعًا الشاي يومًا ما في السنة القادمة، وهي مقصورة جميلة للغاية وتتسع لاثني عشر شخصًا.
لقد سرها ذاك الحديث بعض الوقت دون أن تفكر فيما وراءه من دوافع ولكنها بعد أن أصبحت أكثر فهمًا لأحوال تلك الأسرة أخذت تحس شعورًا آخر. فقد كانت فكرتها في بادئ الأمر، أنها تتكون من والدة وابنتها وابن وزوجته، ولكنها عندما تبينت أن مستر «مارتن» الذي شغل جانبًا من حديث صديقتها- وكانت تذكره دائمًا وهي في غاية الرضا وتصفه بطيبة القلب لما يأتيه من أعمال تنم عن حسن سريرته كان أعزبًا - ولا زوجة له - أصبحت تخشى أن يكون من وراء ذلك، ومن وراء الترحيب والعطف من ناحيتهم، خطر يلحق بصديقتها الصغيرة المسكينة، وأنها إن لم تشملها برعايتها فستتردى في هاوية لا تقوم لها من بعدها قائمة.

ودفعتها هذه الفكرة إلى زيادة أسئلتها وتنويع أهدافها، فشرعت تستدرج «هاريت» حتى تسترسل في حديثها عن مستر «مارتن» وهو حديث لم يلق غضاضة من جانب «هاريت»، بل هي لم تتردد في ذكر ما كان له من دور في نزهاتهم خلال الليالي المقمرة أو في ألعابهم المسائية. كانت تتحدث في استفاضة عن خفة روحه وعن نفسه المرحة ومبادرته إلى تقديم المساعدة لها، وأنه سار يومًا ثلاثة أميال ليجلب لها بعض ثمار الجوز لأنها قالت مرة أنها مولعة بأكلها، وأنه كان في كل ما يقوم به ميالًا بسجيته إلى المعونة وفعل الخير، وأنه أتى ذات ليلة بابن الراعي إلى «الصالون» لكي يغني لها، وكانت هي مولعة بالغناء، أما هو فكان لا يغني إلا قليلًا، وأنها تعتقد بأنه شديد الذكاء يفهم كل شيء، وأن له قطيعًا جميلًا من الأغنام، وأنها شاهدت وهي تقيم بينهم أن الإقبال على طلب صوف أغنامه كان أعظم منه على صوف أغنام غيره من أهل القرية، وأنها تعتقد أن الناس جميعًا يلهجون بذكره، وأن أمه وأخواته يكبرنه إكبارًا، وأن مسز «مارتن» أخبرتها يومًا (وقد علت وجهها حمرة وهي تذكر ذلك) أنه أحسن الأبناء طرًا، ولذا فهي موقنة بأنه إذا تزوج سيكون زوجًا مثليًا، لا لأنها شديدة الرغبة في تزويجه، فهي ليست قط متلهفة على ذلك».

وقالت «إمَّا» في نفسها: «لقد أصبت يا مسز «مارتن» وإنك لتعرفين ما تهدفين إليه».

واستطردت «هاريت» تقول أنها لما غادرت بيتهم، تكرمت مسز «مارتن» فبعثت بأوزة جميلة إلى مسز «جدرد» فكانت أحسن ما وقعت عليه عينا مسز «جدرد» من الأوز». وقد قامت مسز جدرد بطهوها يوم أحد، ودعت المدرسات الثلاث، مس «ناش» ومس «برنس» ومس «رتشاردس» ليتناولن معها العشاء».

«وأظن أن مستر «مارتن» لا تتعدى معلوماته ما له صلة بأعماله، أفلا يطالع؟».

«أي نعم، أعني أنني لا أعلم في الواقع ولكني أعتقد أنه قرأ كثيرًا، ولكن قراءاته ليست من النوع المدى يخطر لك، إنه يقرأ التقارير الزراعية وكتبًا أخرى وضعها فوق حافة أحد النوافذ، ولكنه يقرأها جميعًا لنفسه، على أنه كان في بعض الأمسيات قبل أن نلهو بلعب الورق يأخذ في قراءة نبذ من «المقتطفات الظريفة» وهي مسلية جدًا. وأنا أعلم كذلك أنه قرأ قصة «راعي ويكفيلد» ولكنه لم يقرأ «غراميات الغاب» ولا «أطفال الدير»، ولم يكن قد سمع عنها قبل أن أذكرها له، ولكنه يعتزم الحصول عليها حالما يتيسر له ذلك».

ثم كان السؤال التالي: «وكيف يبدو مستر «مارتن» في طلعته؟».

«أجل، إنه غير جميل، بل ليست به مسحة من الجمال، ولقد ظننته لأول وهلة شخصًا عاديًا جدًا ولكني لا أظنه كذلك الآن. إن المرء كما تعلمين لا يحكم عليه إلا بعد وقت، ولكن ألم يتسن لك رؤيته؟ إنه يأتي من وقت إلى آخر إلى «هايبري» ومن المؤكد أنه يمر بها ممتطيًا جواده وهو في طريقه إلى «كنجستون» وكثيرًا ما يمر بداركم».

«قد يكون هذا وربما أكون رأيته خمسين مرة دون أن أعلم من يكون هذا. إن آخر من يثير اهتمامي من الناس هو الفلاح الصغير سواء أكان ممتطيًا جوادًا أم سائرًا على الأقدام، والفلاحون هم على وجه التحديد الفئة التي أشعر برغبتي في الابتعاد عنها، وقد ارتاح إلى من كانوا من طبقة هي أقل من طبقتي درجة أو درجتين ما دام مظهرهم لائقًا، وقد يتسنى لي القيام ببعض ما يعود على أسرهم بالنفع، ولكن الفلاح لا يمكن أن يكون في حاجة إلى معونتي، ولذا فهو من وجهة واحدة فوق مستوى نظري، أما فيما عداها فهو دونه».
«أجل، من المحتمل أنك لم تلحظيه ولكنه ولا شك يعرفك تمامًا، أعني أنه يعرف شكلك».
«أنا لا يخامرني شك في أنه شاب محترم جدًا بل وأعرف تمامًا أنه كما ذكرت، ولذا فإني أتمنى له كل خير، وما عمره حسب تقديرك؟».
«لقد بلغ الرابعة والعشرين في اليوم الثامن من شهر يونيو الماضي، وتاريخ ميلادي هو الثالث والعشرين أي أن الفرق بين تاريخ ميلاده وتاريخي أسبوعان ويوم واحد وهي مصادفة عجيبة جدًا».
«أربع وعشرون فقط، أن هذه سن صغيرة للزواج وأمه محقة في أنها لا تتعجل زواجه، ثم يبدو أنهم في عيشة هانئة في وضعهم الراهن، فإذا ما أقدمت أمه على زواجه الآن فربما ندمت على ذلك، بل قد يكون من المستحسن أن يكون زواجه بعد ست سنوات من الآن إذا وفق إلى فتاة طيبة وعلى شيء من الثراء ومن مستواه».
«بعد ست سنوات يصبح يا عزيزتي مس «وودهاوس» في الثلاثين»
«أجل، وهذه هي أقل سن يراها معظم من لا موارد لهم سنًا ملائمة ليتحملوا أعباء الزواج، ويخيل إلي أن مستر «مارتن» يعتمد على نفسه في تكوين مركزه المالي، وهو لا يمكن بحال أن يكون قد بلغ في ذلك شأوًا كبيرًا مهما كان نصيبه من مال أصابه من موت والده، ومهما كان نصيبه فيما تحوزه أسرته من أملاك، فهي فيما أرى أموال غير ثابتة تستغل في تجارة الماشية وما أشبه ذلك، ومع أنه مع الجد والتوفيق وبمرور الوقت قد يصبح غنيًا، فإن من المستحيل أن يكون قد حقق شيئًا من ذلك الآن».
«نعم، نعم هذا هو الوضع الصحيح، ولكنهم يعيشون عيشة رغدة، نعم أنهم ليس لديهم رجل يعمل ساقيًا، أما فيما عدا ذلك فلا ينقصهم شيء، على أن مسز «مارتن» تتحدث بالفعل عن استخدام رجل من هذا النوع بعد عام».
«بودي يا «هاريت» ألا تقعي في المحظور عندما يتزوج، أعني بذلك ألا تتعرفي إلى زوجته، فعلى الرغم من أن أخواته إذا نظرنا إلى ثقافتهن الواسعة قد لا يكن محل اعتراض، فإن هذا لا يستتبع أن تكون زوجته كفئًا لك. فان مولدك وما يحيط به من ظروف قاسية يجب أن يجعلك تتريثين في اختيار من ترافقين، فلا شك أنك ابنة سيد كريم، ولا بد أن تعززي مركزك هذا بكل ما في وسعك، وإلا وجد الكثيرون في ذلك مغمزًا ولذ لهم أن يحطوا من شأنك».

«أجل وأعتقد أن أمثال هؤلاء موجودون بالفعل، ولكن ما دمت أزور بيت «هارتفيلد» وما دمت تشملينني بعطفك يا مس «وودهاوس» فإني لا أخشى شيئًا مما قد يفعلون».
«إنك تفهمين جيدًا» يا «هاريت» ما لأثر الناس من سلطان، ولكني سأوطد صلتك بعلية القوم لتكوني في غنى حتى عن «هارتفيلد» ومس «وودهاوس». إني أود أن أرى لك دائمًا صلات طيبة، ومن ثم أرى من الصواب أن تقللي من المعارف الذين ليسوا على شاكلتك، و لهذا فإني أقول لك إن كنت لا تزالين مقيمة في هذه القرية عندما يتزوج مستر «مارتن» فبودي ألا تجرك صداقتك بأخواتك إلى مصادقة الزوجة التي يحتمل أن تكون ابنة غير متعلمة لواحد من الفلاحين».
«كوني واثقة من هذا، وإن كنت لا أظن إلا أن مستر «مارتن» سوف يتزوج بواحدة نالت قسطًا من التعليم ونشأت نشأة طيبة. ومع ذلك فأنا لا أقصد أن أعترض على ما تبدين من ملاحظات، وأنا واثقة من أنني لن أرغب في التعرف إلى زوجته، وإن كنت سأحمل لشقيقاته دائمًا كل تقدير وخاصة «إليزابيث»، وسيحزنني أن أتخلى عنهن لأنهن على قدر من التعليم مثل حالي، أما إذا ما اقترن بجاهلة من حثالة القوم فمن المؤكد أنه سيكون أجدر بي ألا أزورها ما دام هذا في الإمكان».
وراقبتها «إمَّا» في أثناء ذلك الحديث المتقلب ولكنها لم تر منه من أعراض الحب ما يخيف. لقد كان هذا الشاب أول من أعجب بها، ولكنها كانت واثقة من عدم وجود شيء غير هذا بينهما وأنه لن يصعب عليها أن تحول بين مس «هاريت» وبين أية تطورات عاطفية أخرى.
وقابلتا مستر «مارتن» في نفس اليوم التالي بينما كانتا تسيران في طريق «دونيول». كان يسعى على قدميه، وبعد أن حدجها بنظرة فيها أكبر دلائل الاحترام ألقى بنظرة فيها كل الرضى إلى رفيقتها. ولم تأسف «إمَّا» على فرصة سنحت لها لكي تفحصه فحصًا عامًا، فتقدمت بضع
خطوات عنهما وتركتهما يتبادلان الحديث، وبنظرة خاطفة أمكنها أن تقف على الكثير مما يتعلق بمستر «مارتن»، لقد كان مظهره أنيقًا وبدا لها شابًا متزنًا، أما فيما عدا ذلك فلم يكن له ما يميزه، بل انه إذا قورن بسادة القوم لما استطاع في نظرها أن يحتفظ بالأرض التي كسبها في تقدير «هاريت». بل أن «هاريت» لم تكن غافلة عنه أثر الرقة والكياسة في النفوس، فلقد لاحظت من تلقاء نفسها ما كان عليه مستر «وودهاوس» من رقة الشمائل، وأعجبها ما رأته فيه من حسن المسلك. أما مستر «مارتن» فقد بدا وكأنه لا يعرف من الكياسة شيئًا.
ولم يمضيا معًا غير دقائق قليلة، إذ لا ينبغي أن يتركا مس «وودهاوس» تنتظر طويلًا، أقبلت مس «هاريت» بعدها على عجل وعلى وجهها ابتسامة وفي

مشاعرها ثورة متأججة. كانت مس «وودهاوس» تأمل أن تطفئ من تأججها سريعًا.
وسارعت مس هاريت تقول: «انظري كيف هيأت لنا الظروف فرصة مقابلته، ما أعجب هذا! لقد قال إنها كانت محض مصادفة، إنه لم يتخذ طريقه إلى جوار «رانداولز» ولم يكن يظن بأننا نسير في هذا الطريق، بل كان يظن أننا نتخذ طريقنا في معظم الأيام في اتجاه «راندولز». إنه لم يتمكن من الحصول على قصة «غرام الغابة» حتى الآن. لقد كان
مشغولاً آخر مرة جاء فيها إلى «كنجستون» إلى حد أن نسيها بالكلية، ولكنه سيذهب مرة أخرى غدًا. من أعجب أن نقابله مصادفة «أجل يا مس «وودهاوس» هل تجدينه كما كنت تنتظرين أن يكون؟ وما رأيك فيه؟ هل تظنينه شخصًا عاديًا؟».
«إنه شخص عادي جدًا، وهوعادي بشكل ملحوظ، ولكن هذا لا يعد شيئًا إذا قورن بما يعوزه من رقة الجانب. وما كان لي حق في أن أنتظر منه الكثير، بل أنا لم أكن أنتظر منه الكثير، ومع ذلك فلم يدر بخلدي أبدًا أن أجده جلفًا لم يتذوق للكياسة طعمًا، وأعترف لك بأنني كنت أتخيله أقرب قليلًا إلى أخلاق السادة».
وردت «هاريت» وفي صوتها غصة «حقًا إنه ليس كالسادة في رقتهم».
«أظنك يا هاريت منذ أن عرفتينا قد اختلطت مرارًا وتكرارًا ببعض السادة، ولا بد أنك لاحظت أن بينهم وبين مستر «مارتن» بونًا شاسعًا، نعم لقد وجدت في «هارتفيلد» نماذج فذة من الرجال الذين نشأوا نشأة طيبة ونالوا قسطًا وافرًا من التعليم، ويدهشني بعد أن رأيتيهم أن تختلطي بمستر «مارتن» مرة أخرى ولا تلحظين أنه من طبقة دنيا، وأكثر ما يدهشني أنك فكرت قبل اليوم بأن فيه ملاحة. أما بدأت تحسين بذلك الآن؟ أولم تأخذك الدهشة؟ إني واثقة من أنك قد أخذت بقبح مظهره وخشونة مسلكه، وصوته الخالي من الرقة والعذوبة كما سمعته وأنا واقفة هنا».
«لا شك أنه ليس على شاكلة مستر «نيتلي»، وليس فيه ملاحة مظهره وطريقة مشيته، وأنى لأرى الفرق بينهما واضحًا كل الوضوح، ولكن مستر «نيتلي» مع ذلك رجل مفرط في ظرفه».
«إن مستر نيتلي يستلفت الأنظار بحسن مظهره وليس من العدل أن نقارنه بمستر «مارتن»، وقد لا تعثرين على واحد في كل مائة له من علو المكانة وطيب العنصر ما لمستر «نيتلي»، ولكنه ليس بالسيد الأوحد الذي عرفتيه أخيرًا، فما قولك في مستر «وستن» ومستر «ألتن»؟ قارني مستر «مارتن» بأيهما شئت، ووازني بينه وبينهما في المظهر، من حيث المشية وطريقة الحديث والسكوت، فلا بد أنك ستجدين فارقًا».
«نعم أن هناك فارقًا عظيمًا ولكن مستر «وستن» أوشك أن يكون رجلًا مسنًا، فهو لابد بين الأربعين والخمسين».

«وهذا ما يجعل سلوكه الحميد أبعد أثرًا، فكلما تقدم المرء في العمر يا «هاريت» كان حسن سلوكه من الاعتبارات الهامة وأية بادرة من جلبة أو غلظة أو انعدام للكياسة فيه تبدو مفضوحة مذمومة، وأن ما يتجاوز عنه في وقت الشباب يكون مكروهًا في الكبر، ومستر «مارتن» لديه الآن خرق ورعونة فما بالك حين يصبح في سن مستر «وستن»؟».

وأجابتها «هاريت» وهي واجمة: «حقًا ليس عندي ما أقوله».

«ولكن الظنون تصدق مع ذلك، فهو لا شك سوف يصبح فلاحًا جلفًا لا يعنى بمظهره قليلًا ولا يفكر إلا في الكسب والخسارة».

«أيكون هذا حقًا؟ ما أقبح أن يكون الأمر كذلك».

نعم، فما أكثر ما تستولي أعماله الآن على كل مشاعره، يتضح ذلك جليًا من نسيانه السؤال عن الكتاب الذي أوصيتني بشرائه.

لقد شغل بالسوق عن كل ما عداه وهذا هو حال من يسعى وراء المال، إذ ما شأنه بالكتب؟ لا شك عندي أنه سيصيب نجاحًا ويصبح بمرور الوقت رجلًا ذا ثراء، ومع ذلك فليس لنا أن نجزع نحن من جهله أو خشونته».

«حقًا إني لأعجب كيف لم يذكر الكتاب؟».

كان هذا كل ما ردت به «هاريت» نطقت به وهي مغمومة مكتئبة.

ورأت «إمَّا» ألا ضير عليها إن هي تركتها في غمها وتوقفت قليلًا عن الحديث. ثم عادت تقول:

«لو إننا نظرنا من ناحية معينة فقد يكون مستر «ألتن» متفوقًا في سلوكه على كل من مستر «نيتلي» ومستر «وستن»، فسلوكهما قد يكون أكثر رقة وقد يصح أن يكون أنموذجًا تحتذيه الناس وهم في مأمن، وقد يكون مستر «وستن»، من ناحية أخرى صريحًا ومندفعًا إلى حد الخشونة، ومع ذلك فكل الناس تحب ذلك فيه لأنه يقرن ذلك بقسط وفير من الدعابة الطيبة - وإن كانت هذه الناحية فيه مما لا تجوز محاكاتها - وبقدر ما لا تنبغي محاكاة مستر «نيتلي» بما فيه من صراحة قاسية وأسلوب آمر، وإن كان ذلك يلائم شخصيته، فإن حسن قوامه وجماله مظهره ومركزه في الحياة يسمح له بذلك، فإذا حاول أحد من الشبان تقليده كان لا يطاق في نظر الناس - وعلى النقيض من ذلك فإني أظن ألا ضير على شاب إذا ما أشار عليه أحد بأن يتخذ من مستر «ألتن» أنموذجًا له، فمستر «ألتن» مرح باش خدوم رقيق، ويلوح لي أنه قد ازداد رقة وعذوبة في الأيام الأخيرة بوجه خاص، ولست أدري يا «هاريت» إذا كان يعتزم التقرب إلى إحدانا فيخصها بمزيد من المعاملة الرقيقة، ولكن ما لفت نظري هو أنه قد أصبح الآن أكثر ظرفًا مما كان، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه قصد أن يدخل السرور على قلبك، ألم أخبرك. بما قاله عنك في اليوم السابق؟» ثم رددت بعض ما امتدحها به مستر «ألتن» وانتهت بقولها: «وهو لم يعد الحقيقة فيما قال».

وعلت حمرة الخفر وجه «هاريت» وابتسمت وهي تقول: «إنها تظن أن مستر «ألتن» رجل ظريف للغاية على الدوام».

لقد كان مستر «ألتن» الشخص الذي وضعته «إمَّا» نصب عينيها لتصرف به الفلاح من تفكير «هاريت» ورأت فيها خطة رائعة بقدر ما هي أمنية طبيعية محتملة التحقيق إلى حد لا يجعل لها فضلًا كبيرًا في ابتكارها. وأخشى ما كانت تخشاه أن يكون ذلك ما يفكر فيه سائر الناس ويرسمون خططه. وحتى إذا صح ذلك لم يكن من المحتمل أن يجاريها أحد منهم في توقيت هذه الخطة، فقد فكرت فيها في نفس الأمسية التي قدمت فيها «هاريت» إلى «هارتفيلد»، وكانت كلما استعرضت الأمر، زاد إحساسها بضرورة الإسراع في تحقيقها. لقد كانت مكانة مستر «ألتن» لا تشوبها شائبة فهو من السادة ولا تربطه بالدهماء صلة، وهو في الوقت نفسه من أسرة لا اعتراض لها على واحدة مثل «هاريت» تحيط الظنون بمولدها. وهو فوق ذلك له منزل تتهيأ فيه أسباب راحتها. وكانت «إمَّا» تعتقد لذلك بأن له دخلًا فوق الكفاية، إذ على الرغم من صغر أبرشية «هايبري» كانت له أملاك خاصة. ولقد قدرته كثيرًا لأنها رأت فيه شابًا طيب القلب حسن القصد رفيع القدر لا ينقصه الفهم النافع أو المعرفة بشؤون الدنيا، ملم بما يعود عليه بالمنفعة. بل لقد أقنعت نفسها بأنه يرى في «هاريت» فتاة جميلة، وتأكدت بأن هذا الرأي سوف يكون مع تكرار المقابلات في «هارتفيلد» أساسًا يمكن الاعتماد عليه من ناحيته. وأما من ناحية «هاريت» فلم يكن يخامرها الشك في أن تفضيله إياها سيكون له من الأثر في نفسها ما يحقق الهدف المنشود.

لقد كان في الواقع شابًا ظريفًا للغاية، شابًا تهواه كل سيدة غير متزمتة. لقد عرف بأناقته وكان في شكله مرضيًا بصفة عامة، إلا بالنسبة لها فقد كانت ترى في تقاسيم وجهه قلة انسجام لا يمكن تجاهلها. ولكنها رأت أن فتاة يرضيها «روبرت مارتن» لأنه يجوب القرية بجواد ليجلب لها ثمار الجوز، قد يسهل غزو قلبها بعبارات الإعجاب التي يصوغها مستر «ألتن».

قال مستر «نيتلي» لمسز «وستن»:
«لست أدري يا مسز «وستن» شيئًا عن رأيك في تلك الصداقة الوثيقة التي توطدت أواصرها بين «إمَّا» و«هاريت سمث» ولكني أظنها شيئًا غير مستحب».
«شيئًا غير مستحب! وهل تظنها حقًا غير مستحبة؟ ولم ذلك؟».
«أظن ألا فائدة ترجى من إحداهما للأخرى».
«إنك لتدهشني، فإن «إمَّا» لابد أن تفيد هاريت، كما أن «هاريت» وقد أمدت «إمَّا» بشيء جديد يثير اهتمامها ستكون بدورها قد أدت ل «إمّا» عملًا طيبًا، لقد كنت أرقب صداقتهما الوثيقة فتفيض نفسي سرورًا، فما أكثر الفارق بين شعوري وشعورك.. كيف لا تظن أن في تلك الصداقة منفعة لهما! لا شك أن هذا سيكون بداية لمشاحناتنا من أجل «إمَّا» يا مستر «نيتلي».
«أوتظنين أني قد حضرت خصيصًا للمشحانة معك لما علمت بأن «مستر وستن» قد خرج،. وأنه سيصبح لزامًا عليك أن تخوض هذه المعركة بنفسك».
«لو أن «مستر وستن» كان هنا، فإنه ولا شك كان يناصرني، لأن رأيه في الموضوع مثل رأيي، ولقد كنا نتحدث عن ذلك بالأمس، واتفق رأينا على أن من يمن طالع «إمَّا» إن وجدت مثل هذه الفتاة في «هايبري» لتكون رفيقة طيبة لها. إنني لا أجد فيك مستر «نيتلي» القاضي العادل في هذه القضية. إنك قد اعتدت أن تعيش وحيدًا حتى صرت لا تعلم قيمة الرفيق، وقد لا يوجد من الرجال من يقدر ما تشعر به سيدة من الراحة النفسية وهي في صحبة إحدى بنات جنسها إذا كانت قد اعتادت هذه الصحبة طوال حياتها، إني لا أكاد أتصور سبب اعتراضك على مس «هاريت سمث»، فهي ليست بالشابة الممتازة التي يجب أن تكون عليه صديقة «إمَّا» ولكننا لو نظرنا إلى المسألة من جهة أخرى، فما دامت «إمَّا» تريد أن ترى صديقتها أكثر ثقافة ودراية بشؤون الدنيا، فإن من شأن هذا أن يحملها على المزيد من القراءة هي نفسها، وسيقرأن سويًا، وأنا أعلم أنها تعني ذلك».
«بل أن «إمَّا» منذ أن كانت في الثانية عشرة كل من عمرها كانت تحب الاستزادة من القراءة. ولقد رأيت قوائم عديدة من الكتب أعدتها في أوقات مختلفة لكي تقرأها، فكانت كتبًا أحسنت اختيارها وقامت على ترتيبها أحسن

قيام، تارة بالحروف الأبجدية، وتارة على أسس أخرى. وإني لأذكر أن آخر قائمة أعدتها وهي لم تتجاوز بعد الرابعة عشرة، من عمرها كانت تدل على أن حكمها على الأشياء جدير بالثناء، حتى لقد احتفظت عندي بهذه القائمة بعض الوقت. وما من شك في أنها قد أعدت الآن قائمة أخرى أعظم منها، على أنني قد أصبحت لا أنتظر من «إمَّا» أن تكون دؤوبة على القراءة بانتظام، فهي لن تستجيب إلى شيء يحتاج إلى جهد أو إصطبار، أو يتطلب تغليب الفهم على الخيال، وأنا واثق من أن «هاريت» لن تفلح فيما أخفقت فيه «مس تيلور»؛ وما كنت يومًا قادرة على أن تغريها على قراءة نصف ما كنت تريدين منها، وأنت أعلم مني بأنك عجزت عن ذلك».

وأجابته «مسز وستن» وعلى وجهها بسمة:

«حقًا هذا ما كنت أظنه وقتئذ، ولكن منذ أن افترقنا لم استطع أن أذكر أن «إمَّا» أغفلت القيام بشيء كنت أريده».

وقال «مستر نيتلي» في رفق: «ما كنت أود أن أحيي مثل هذه الذكريات». وانتظر برهة ثم استطرد يقول: «ولكني وقد برئت حواسي من أثر كل سحر، لا زلت أرى وأسمع وأذكر. لقد أفسد «إمَّا» أنها كانت أذكى أفراد أسرتها، وكان من سوء حظها أنها كانت وهي في العاشرة قادرة على إجابة أسئلة كانت تعجز عنها أختها وهي في السابعة عشرة، وكانت إجاباتها في سرعة وعن يقين، بينما كانت «إيزابلا» بطيئة وجلة. ومنذ أن بلغت «إمَّا» الثانية عشرة وهي ربة البيت المهيمنة عليك وعلى الجميع، ولم تكن غير أمها التي فقدتها صنوًا لها، فلقد ورثت عن أمها ما كان لها من مواهب، ولا بد أنها تأثرت كثيرًا بشخصية أمها وبسلطانها».

«لقد كان يسوءني يا «مستر نيتلي» لو أنني كنت يومًا في حاجة إلى تزكية منك، لو أنني كنت تركت أسرة مستر «وودهاوس» ورغبت في عمل آخر؛ فأغلب ظني أنك في تلك الحالة ما كنت تجود بكلمة طيبة من أجلي لأي إنسان بل إني موقنة بأنك كنت تظن دائمًا بأني لم أكن أهلًا للعمل الذي وكل إلي».

قال باسمًا: «أجل، ومكانك هنا أفضل، فأنت تصلحين كل الصلاحية لأن تكوني زوجة لا أن تكوني مربية. على أنك كنت تعدين نفسك طيلة إقامتك في «هارتفيلد» لكي تكوني زوجة ممتازة، وقد تكونين عجزت عن أن تمدي «إمَّا» بثقافة شاملة بما يتفق مع مواهبك، ولكنك كنت تتلقين منها دروسًا قيمة عن أهم شيء تتطلبه الحياة الزوجية، ذلك هو كبح إرادتك أو أداء ما تطلب منك. ولو أن وستن كان سألني أن أزكي له زوجة لكنت ولا شك أرشح له «مس تيلور».

«شكرًا، فليس لي فضل كبير في أن أكون زوجة صالحة لرجل مثل «مستر وستن»».

«ولماذا؟ الحق يقال أن الغرم واقع عليك حقًا ولا ريب، فقد تبصرين معه على كل شيء، أما هو فلن يجد منك شيئًا يصطبر عليه، على أننا لن نيأس على أية

حال، فقد يشعر وستن بالضيق من فرط ما يعتاده من المتعة والراحة، كما أن ابنه قد يؤرق باله».

«آمل ألا يكون هذا، بل هو أمر لا يحتمل حدوثه. لا يا مستر «نيتلي» لا تتنبأ لي بمضايقات في تلك الناحية».

«لا، لست أتنبأ بشيء من هذا، وإنما هو مجرد ذكر لما يحتمل حدوثه، ولست أدعي لنفسي ما لمس «إمَّا» « من عبقرية في التنبؤ أو الحدث، بل إني لأرجو من كل مشاعري أن يكون للفتى من كريم الخصال ما لمستر «وستن» وفي الثراء ما لأسرة «تشرشل». أما عن «هاريت سمث» إني لم أنته من نصف ما أردت أن أقول عنها فهي كما أظن أسوأ من أن تتخذها «إمَّا» رفيقة لها، فهي لا تعرف شيئًا وتنظر إلى «إمَّا» على أنها تعرف كل شيء وهي تتملقها وتكيل لها المديح دائمًا وفي هذه الطامة الكبرى، لأنه يصدر منها على غير هدى، وجهها يبعث على المداهنة في كل آونة. وكيف تتصور «إمَّا» أنها ستتعلم شيئًا إذا «هاريت» تريها أنها أقل منها شأنًا؟ وإني أقول ولا جناح علي فيما أقول إن «هاريت» نفسها لن تنال من هذه الصحبة مغنمًا، وأن بيت «هارتفيلد» سيزهدها في الأماكن الأخرى التي تنتمي إليها بحكم وضعها، وستغدو ولها من الصقل والتهذيب ما ينغص عليها العيش في بيئة وفي بيت شاءت ظروفها ومولدها أن يكون مقامها فيه، ولسوف أكون مخطئًا إذا كانت نظريات «إمَّا» تضفي أية قوة على عقل أية فتاة أو تساندها على المواءمة بين نفسها وبين ظروف حياتها المختلفة، وكل ما يمكن أن تحققه هو قسط من الصقل والتهذيب».

«أراني إما أن أكون أكثر منك ثقة بحسن تفكير «إمَّا»، أو أن أكون أكثر قلقًا على راحتها الراهنة. وأنا لا آسف على هذه الصداقة، وكم بدت على أحسن ما تكون في الليلة الماضية».

«أجل، أراك تؤثرين أن تتكلمي عن شخصها ولا تتكلمي عن عقليتها، وأنا لن أحاول إنكار أن «إمَّا» ظريفة وجذابة ».

«ظريفة وجذابة!؟ أحرى بك أن تقول أنها جميلة، وهل في قدرتك أن تتصور أي شيء أقرب إلى الجمال الرائع من «إمَّا» وجهًا وقوامًا؟».

«لست أدري ما في قدرتي أن أتصوره، ولكني أعترف بأني من النادر أن سعدت برؤية وجه أو قوام كسعادتي برؤية وجهها وقوامها، ولكني مع ذلك صديق متحيز منذ أمد».

«ما أجمل عينيها!! تلكما العينان العسليتان الصافيتان. وما أشدهما بريقًا!! وتقاسيم وجهها المنسقة ومحياها المشرق وجمال بشرتها!! ثم ما أبهج النضرة المنبعثة من كمال صحتها!!».

وما أجملها طولًا وشكلًا، وما أصلب عودها وأحلى قامتها!! وأنك لا ترى معالم الصحة في ازدهار بشرتها فحسب، بل تراها كذلك في حركتها وهامتها ونظرتها. إن الإنسان ليسمِع أحيانًا عن طفل يوصف بأنه عنوان الصحة وأن

«إمَّا» لتوحي إليّ دائمًا بأنها عنوان الصحة الكاملة بين والكبار. إنها الجمال بعينه، أليست كذلك يا مستر «نيتلي»؟.
وأجابها: «إني لا أجد في ذاتها عيبًا ولا نقصًا، وأظن أن كل ما وصفتها به لا يعدو الحقيقة، وأنا دائمًا أحب أن أتطلع إليها، وأضيف إلى ذلك ثناء آخر، فإني لا أخالها مزهوة بنفسها، ولو نظرنا إلى ما هي عليه من جمال لرأيناها تبدو وكأن هذا الجمال الرائع لا يشغل من تفكيرها إلا حيزًا ضئيلًا أما عجبها فهو في ناحية غير هذه. ومع ذلك يا مسز «وستن» فلن أصرف بهذا الحديث عن كراهيتي لصداقتها مع «هاريت سمث» أو عما ساورني من خوف مما قد تلحقه هذه الصداقة بهما».
«أما أنا يا مستر «نيتلي» كلي ثقة بأن هذه الصداقة لن تلحق بهما ضررًا، فان عزيزتي «إمَّا» مع كل ما بها من هنات، مخلوقة ممتازة، وأنى لنا أن نرى ابنة أفضل أو شقيقة أشفق أو صديقة أخلص منها؟ لا، لا، إن لها من الصفات ما لا سبيل إلى التشكك فيها وهي لن تسيء إلى أحد، ولا تتمادى في هفوة تصدر منها، وإن أخطأت مرة فهي تصيب مائة مرة».
«حسنًا فلن أضايقك أكثر من هذا، وستظل «إمَّا» ملاكًا وسأحتفظ برأيي لنفسي إلى أن يحين موعد عيد الميلاد وتعود «إيزابلا» و«جون». إن «جون» يحب «إمَّا» حبًا يقوم على رجحان الفكر بعيدًا عن التحيز والهوى، وكذلك «إيزابلا» فهي تسير في تفكيرها على خطاه، إلا عندما لا يشتد يجزع على الأطفال بالقدر الكافي، وأنا واثق بأنهما سيتفقان معي في الرأي».
«أنا أعلم بأنكم جميعًا تحبونها حبًا يحول بينكم وبين أن تظلموها أو تقسوا عليها، ولكن معذرة، يا مستر «نيتلي» إذ استبحت لنفسي (باعتباري كما تعلم كأمها وأن لي حق الأم في الكلام عتها) حرية التلميح بأن صداقة «هاريت سمث» لن يكون لكم من وراء طول جدلكم فيها فائدة ترجى. وإنى أستميحكم القول بأنه على فرض أننا نخشى أن تحدث هذه الصداقة بعض المضايقة، فليس من المنتظر أن تقطع «إمَّا» هذه الصداقة التي أقرها والدها وهو الوحيد الذي له أن يحاسبها ما دامت تجد في تلك الصداقة مصدرًا لسعادتها. لقد ظل إسداء النصح لها من اختصاصي سنوات عديدة فلا تدهش يا مستر «نيتلي» لتلك البقية الباقية من مظاهر وظيفتي السابقة».
وصاح قائلًا: «عفوًا، بل أنا مدين لك بهذه النصيحة وإنها لنصيحة غالية سيكون مصيرها أفضل من كثير من نصائحك السابقة لأني سآخذ بها هذه المرة».
إن مستر «جون نيتلي» سريعة الهلع وقد لا تسرها حالة أختها.
ورد عليها: «اطمئني فلن أثير ذعرًا وسأحتفظ باكتئابي لنفسي، إن «إمَّا» تهمني وأنا أخلص لها كل الإخلاص، «وإيزابلا» كزوجة أخ أقرب منها إلي بل لعل اهتمامي بها لا يصل إلى اهتمامي «بإمَّا». إن مشاعر الإنسان نحو «إمَّا» يقترن بها شيء من القلق عليها ومن حب الاستطلاع في كل ما يتصل بها. ترى ماذا يدخر الزمن لها!».

وقالت مسز «وستن» في حنان «وكذلك أنا، أشعر بما تشعر به».
«إنها تعلن دائمًا بأنها لن تتزوج وهذا بطبيعة الحال لا يدل على شيء أبدًا، ولكن لا أظن أن نظرها قد وقع حتى الآن على رجل أثار اهتمامها. على أنها لن تضار في شيء إن هي هامت بحب من هو ند لها. وبودي أن أرى «إمَّا» وقد وقعت في شراك الحب، ثم. يساورها بعض الشك في أن حبيبها لا يبادلها حبها، فسيكون هذا في مصلحتها على أنه ليس هنا في هذه الناحية من يمكن أن يثير حبها، ثم هي نادرًا ما تغادر منزلها».
وقالت مسز «وستن»: «نعم يبدو أنه ليس هناك الآن من شيء يمكن أن يغريها على الرجوع عما أعتزمته في الوقت الحاضر، ولكني لا أحب لها أن تعقد صلات يكون من ورائها خلق المتاعب لمستر «وودهاوس» المسكين طالما هي تحس بالسعادة في «هارتفيلد». بل أنا لا أشير بزواج مس «إمَّا» في الوقت الحاضر، وأؤكد لك أني ما قصدت بذلك التقليل مما لهذا الموضوع من أهمية».
وتعمدت من عبارتها أن تخفي ما أمكنها بعض ما كان يدور في ذهنها وذهن مستر «وستن» حول هذا الموضوع. فلقد كان الجو في «راندولز» مليئًا بالتمنيات حول مصير «إمَّا»، غير أنه لم يكن من المستحب أن تجعل هذه التمنيات موضع الحدس والتخمين، وكان في انتقال مستر «نيتلي» بالحديث عقب ذلك مباشرة حين سألها، «ما رأي «وستن» في الطقس؟ هل سيكون ممطرًا؟» ما أكد لها بأنه لن يزيد على ما قاله شيئًا أو أن يخمن شيئًا عن «هارتفيلد».

لم يكن يخامر «إمَّا»، أي شك في أنها نجحت في توجيه «هاريت» توجيهًا سليمًا، وأنها قد أذكت ما فيها من زهو بنفسها إلى ما يحقق هدفًا طيبًا. نعم فلقد ألفتها الآن أكثر إدراكًا لمحاسن مستر «ألتن» وخصاله الجميلة. ثم لما كانت «إمَّا» لا تضيع وقتًا في توكيد إعجابه بها، بما توجهه إليها من تلميحات إيجابية رقيقة، فقد وثقت بأنها كانت بالفعل تبذر بذور محبته في قلب «هاريت» كلما وجدت إلى ذلك سبيلًا. كذلك تأكدت
«إمَّا» من ناحية أخرى بأن مستر «ألتن» كان قريب الوقوع في هوى «هاريت» إن لم يكن قد وقع فيه بالفعل. نعم فلم يكن يخامرها شك من محبته، فقد كان يتحدث عن «هاريت» كثيرًا ويمتدحها بحرارة حتى ظنت إنه لن يطول بها الوقت حتى تحقق أمنيتها، وكانت ملاحظته للتقدم العجيب الذي ظهر على سلوك «هاريت» منذ اتصالها بهارتفيلد من بين الأدلة الناصعة على ازدياد تعلقه بها، لقد قال لها مرة: «إنك وهبت مس «هاريت» كل ما كان ينقصها، وجعلتيها رشيقة مقربة النفوس. لقد كانت جميلة لما عرفتك، ولكنك أضفيت عليها من جاذبية قد فاق في رأيي ما حبتها به الطبيعة».
وقالت «إمَّا». «يسرني اعتقادك بأني قد أديت لها عملًا نافعًا، على أن «هاريت» لم يكن ينقصها إلا إخراج مكنونات نفسها وتزويدها بالقليل من الملاحظات. لقد كانت حلوة الشمائل بطبيعتها، جميلة بسجيتها وما قمت لها إلا بالنزر اليسير».
وهنا قال مستر «ألتن» الشهم: «لو أن معارضة السيدات كانت مسموحة..».
«وربما أكون قد زودتها بالقليل من قوة الحكم على الأشياء وعلمتها كيف تفكر في أمور لم تصادفها من قبل».
«تمامًا، وهذا ما أدهشني خاصة، فلقد رفعت كثيرًا على الحكم، وكم كنت ماهرة في ذلك».
«لقد سرني هذا كثيرًا فلم أقابل في حياتي شخصية أكثر وأصدق قربًا إلى نفسي منها».
«أنا لا أشك فيما تقولين» قال هذا بروح فيها لوعة، تحمل الكثير من مظاهر المحب ولم يكن سرورها الآن بأقل من سرورها في يوم آخر حين رأته يعزز رغبة مفاجئة طرأت عليها بأن ترسم صورة لهاريت.

قالت لها «إمَّا» يومئذ: «هل أخذت لك صورة يا «هاريت» يومًا ما؟ وهل جلست مرة لترسم لك صورة؟».

وكانت «هاريت» على وشك أن تغادر الحجرة، ولكنها توقفت لتقول في براءة مدهشة: «لا ياعزيزتي، أبدًا».

وما كادت تختفي عن الأنظار حتى صاحت «إمَّا» قائلة:

«ما أجمل أن يقتني الإنسان صورة جميلة لها!! إني لن أضن بمال من أجل صورة كهذه، وكم أنا مشوقة لأقوم بمحاولة لرسم صورة لها بنفسي، فأنت قد لا تعرف عني أن لي دراية بذلك، فقد كان لي منذ سنتين أو ثلاث، ولع شديد بالتصوير، وحاولت عمل صور للكثيرين من أصدقائي، وكان الناس يرون أن لي في ذلك قدرة لا بأس بها بوجه عام، ولكني عرفت عن ذلك لسبب ما، غير أني أكاد أجرؤ الآن على محاولة ذلك إذا رغبت «هاريت» في أن تجلس لكي أصورها، فما أبهج أن يكون لها عندي صورة.

وصاح مستر «ألتن» قائلًا: «دعيني أتوسل إليك أن ترسمي لها هذه الصورة، إن في ذلك متعة وأي متعة، أرجو يا « مس وودهاوس» أن تستغلي موهبتك الجميلة من أجل صديقتك، إني أعرف رسومك، وكيف تظنين أنني أجهل قدرها؟ أليست هذه الحجرة نفسها مليئة بصور للمناظر الطبيعية والأزهار من عملك؟ وهل لا توجد لدى «مسز وستن» صور لشخصيات في حجرة الاستقبال براند ولز لا تمكن محاكاتها؟».

وفكرت «إمَّا» ثم اندفعت تقول: «أجل يا عزيزي! ولكن ما علاقة هذا بعمل صور طبق الأصل من الأشخاص؟ إنك لا تعرف شيئًا عن الرسم. لا تدعي بأنك تكاد تجن من أجل جمال رسومي، وخير لك أن تحتفظ بسرورك من أجل وجه «هاريت» - ولكنها استدركت تقول: «أجل، إذا أنت شملتني بمثل هذا التشجيع الرقيق يا مستر «ألتن» فإني أعتقد بأني سأحاول ذلك». إن ملامح «هاريت» دقيقة للغاية وهذا مما يجعل تصويرها صعبًا، وعلاوة على ذلك، فأن عينيها لهما مميزات خاصة كما توجد حول فمها خطوط تجب ملاحظتها».

«هذا صحيح فيما يتعلق بشكل العين والخطوط التي تحيط بالفم، ولا أشك في أنك ستتغلبين على ذلك، أرجوك أن تحاولي، أرجوك أن تشرعي في رسم صورتها، وإذا ما قمت بهذا العمل- على حد قولك- فإنه سيكون شيئًا جميلًا يحرص المرء على اقتنائه».

«ولكني أخشى يا مستر «ألتن» ألا توافق «مس هاريت» على الجلوس لكي أرسمها، فهي لا تهتم كثيرًا بجمالها، ألم تلاحظ طريقة إجابتها على سؤالي كما لو كانت تريد أن تقول: «ولماذا ترسم صورتي»».

«أجل، أؤكد لك أني لاحظت ذلك ولم أغفل عنه ولكني لا زلت أستبعد أنه يصعب عليك استمالتها».

وعادت «هاريت» بعد قليل، فعرضت عليها الفكرة على الفور، ولم تجد في نفسها أمام إلحاحهما إلا أن تستجيب لرجائهما. ورغبت «إمَّا» في أن تبدأ

العمل في الحال، فجاءت بحقيبتها الصغيرة التي تحوي الهياكل العديدة لصور لم تكن أكملتها كي يختاروا منها حجم الصورة الذي يلائم «هاريت»، وهكذا جعلت تعرض كل ما كانت قد بدأته في الصور، تتفحص الواحدة تلو الأخرى، بعضها صور صغيرة، وبعضها يظهر نصف القوام، أو القوام كله، بعضها بقلم الرصاص، وبعضها الآخر بالفحم أو بالألوان المائية. فلقد كانت دائمًا تروم العلم كل شيء، فأحرزت بما بذلته من جهد قليل تقدمًا في الرسم والموسيقى لا يتاح للكثيرين غيرها، حتى صارت تعزف وتغني، كما كانت ترسم بجميع الأساليب. غير أن الثبات على مواصلة الأشياء كان دائمًا يعوزها، فلم تقترب من درجة الكمال التي كان يسعدها أن تظفر بها، بل ما كان ينبغي لها أن تقصر عن بلوغها. وإذا كانت لم تسمح لنفسها إطلاقًا بأن تخدع نفسها في قدرتها على التصوير أو الموسيقى فلم تكن تمانع في أن ترى الغير يخدعون في قدرتها على ذلك أو تأسف لأن شهرتها تعدو حدود ما هي أهل له.

تجد في كل رسم من رسومها ما يجعله جديرًا بالإعجاب، وكان أجدرها بالإعجاب أقلها إتمامًا. وكان أسلوبها ينبض بالحياة. ولو أن رسومها كانت أقل عددًا بكثير مما هي، أو لو أنها كانت عشرة أضعاف ما كانت، فإن سرور رفيقها في الحجرة في تلك اللحظة ما كان ليتغير. نعم، فلقد غلبهما السرور، إذ ما من أحد إلا وتسره رؤية صورة تطابق شخصية صاحبها، وما رسمته «مس وودهاوس» من ذلك لا بد كان رائعًا.

وقالت «إمَّا»: «ليست هناك مجموعة كبيرة في الوجوه المنوعة لكي أريها لك، إذ لم يكن أمامي إلا أفراد أسرتي لأهتدي فيها بوجوهم. فهذه صورة لأبي، وتلك صورة أخرى له ولكن مجرد تفكيره بأنه سوف يجلس للتصوير كان يثير أعصابه حتى أنني لم أتمكن من تصويره إلا خلسة، ولذا لم تكن واحدة منهما تشبهه تمامًا. وها هي صورة «لمسز وستن» وهذه أخرى، وتلك ثالثة. إن عزيزتي «مسز وستن» هي في كل المناسبات أكرم من صادفتهم. كانت تجلس لأصورها كلما طلبت منها ذلك- وهذه صورة أختي، إنها تشبهها تمامًا بقوامها الصغير الرشيق، والوجه شديد الشبه بوجهها. ولو أنها كانت جلست طويلًا لكنت أخرجت لها صورة لا تفترق عنها، ولكتها كانت تتعجلني لكي أرسم أطفالها الأربعة، ولذا لم تهدأ في جلستها أبدًا. وها هي محاولاتي في رسم ثلاثة من أطفالها الأربعة. لقد ملأت صور الثلاثة «هنري» و«جون» و «بلا»، فراغ الورقة من أولها إلى آخرها. وإنك لتجدين أن الصور الثلاثة تشبه بعضها، فلقد كانت أمهم تتلهف على تصويرهم، فلم أقو على رفض طلبها. وأنت تعلمين أن الأطفال في الثالثة أو الرابعة من عمرهم يصعب عليهم أن يكفوا عن الحركة، كما أنه ليس من السهل فيما عدا الشعر ولون البشرة عمل صور لهم تدل على شيء أكثر من مظهرهم العام وملامح وجوههم، اللهم إلا إذا كانت قسامات وجوههم أقل تناسقًا ودقة. ثم ها هي صورة تخطيطية لرابعهم وهو رضيع، صورته وهو نائم فوق الأريكة، وهو بالشريط الذي يحيط بقبعته صورة

طبق الأصل منه. لقد نام ووضع رأسه في أنسب الأوضاع، بالوضع الذي ترينه هنا، إني فخورة بجورج الصغير - وهذا ركن الأريكة ترينه في غاية الجمال».
وأخرجت بعد ذلك صورة تخطيطية صغيرة لرجل بحجم كامل، وهي تقول: «وها هو آخر ما رسمت وأحسنه، إنها صورة لمستر «جون نيتلي» زوج أختي، ولم يكن ينقصها إلا القليل حتى تتم عندما طرحتها جانبًا ساعة كنت فيها غاضبة، وآليت فيها على نفسي ألا أرسم بعدها صورة لأحد - فلقد شعرت وقتها بكثير من الاستفزاز، ذلك لأنني بعد ما كابدته فيها من متاعب، وبعد أن جعلتها شبيهة به كل الشبه (وكانت «مسز وستن» تتفق معي في الرأي بأنها كذلك) ولا عيب فيها إلا أنها أكثر رشاقة مما يجب - وهو عيب في صالحه - بعد ذلك كله إذا بي أقابل بتقريظ فاتر من عزيزتي «ايزابلا»، وإذا بها تقول: «أجل، إن فيها بعض الشبه ولكن الواقع إنها لم «تنصفه تمامًا» « وكنا عانينا الكثير لنحمله له على أن يجلس أمامي لتصويره، وظن هو أن هذه منة كبرى منه، فلم أطق ذلك أبدًا ولذا لم أتمها وتركتها لتكون عبرة لكل من يأتي ليزورهم في بيتهم «بميدان بزنزويك» وكما قلت عاهدت نفسي بعد ذلك على ألا أصور أحدًا، ولكني من أجل «هاريت» أو بالأحرى من أجلي أنا نفسي، ولأن المسألة ليست مسألة أزواج وزوجات الآن فأني سأرجع الآن فما كنت قررته لنفسي.
وبدأ مستر «ألتن» وكأن تلك الفكرة قد أثارت اهتمامه وملأت قلبه بالسرور، فصاح يردد قائلًا:
«ليست مسألة أزواج وزوجات الآن، إنه الأمر كما ترين، وهو تمامًا كما تقولين، فلا أزواج ولا زوجات قال هذا بشعور يستلفت الأنظار، حتى أن «إمَّا» أخذت تفكر فيما لو كان أحرى بها أن تتركهما وحدهما في الحال، ولكنها وقد كانت جد راغبة في البدء التصوير، رأت أن ترجئ ذلك بعض الوقت. ولم تلبث طويلًا حتى كانت قد حددت اتساع الصورة، وفي أي نوع تكون، لقد كانت فكرتها أن تجعلها صورة بحجم الجسم كله، وبالألوان المائية مثل صورة «جون ليتلي،» وأن تخطها بمكان محترم فوق رف المدفأة.
وجلست «هاريت» باسمة وقد احمر وجهها خجلًا. وكانت تخشى أن تغير من جلستها أو من تعبيرات وجهها، فكانت النتيجة مزيجًا بالغ العذوبة من تعبير الشباب ويقظة عين الفنان.
ولكن «إمَّا» لم تكن لتنجز عملًا ومستر «ألتن» من خلفها يرقب كل لمسة من لمساتها ولا يكاد يستقر لحظة في مكانه، لقد سمحت له بالوقوف حيث يمكنه أن يتأملها دون أن تبدو منه مخالفة، ولكنها اضطرت بعد ذلك إلى منعه من الوقوف حيث هو، ورجته أن يتخذ له مكانًا آخر يقف فيه، ثم خطر لها بعد ذلك أن تشغله بالقراءة؛ فقالت تخاطبه: «لو إنك تكرمت فقرأت علينا شيئًا لكان ذلك مكرمة منك ولا شك، فإنك بذلك ستخفف ما ألاقيه من صعوبة في العمل، وتقلل مما تشعر به مس «سمث» من حرج».

وسر ذلك مستر «ألتن» كثيرًا، ووقفت «هاريت» تنصت بينما راحت «إمَّا» ترسم في هدوء، وإن كان لا بد لها مع ذلك من أن تسمح له بالتقدم والنظر بين الحين والحين. فلو أنه سمح له بأقل من ذلك لكان شيئًا أقل مما ينبغي للحبيب، ولذلك كان كلما توقف قلم الرصاص لحظة
في يد «إمَّا» وثب ليرى ما أنجزته ويبدي اغتباطه. وما كان لها أن تمتعض في الواقع من مشجع كهذا، فقد دفعه إعجابه إلى تبين الشبه بين الأصل والصورة حتى قبل أن يتحقق هذا الشبه. ولم تعجب «إمَّا» برأيه، أما حبه ووداعته فلم يكن فيهما مجال لنقد.
لقد كانت جلسة مرضية للغاية، وسرها ما تم خلالها من رسوم تخطيطية في اليوم الأول، مما جعلها راغبة في الاستمرار. ولم يكن فيها نقص في الشبه، فلقد كان الحظ حليفها في الأسلوب الذي اختارته لرسمها، أو لما كانت تعتزم إدخال بعض التحسينات على الصورة، فتطيل القامة قليلًا تجعل صاحبتها أكثر رشاقة، فقد وثقت كل الثقة بأن الصورة سوف تخرج جميلة من جميع الوجوه في النهاية، وأنها ستملأ مكانها الذي أعد لها، وتستوجب المديح لكليهما فتكون عنوانًا على جمال احداهما، ودليلًا على مهارة الأخرى ورمزًا لصداقة الاثنتين معًا، مع ما تقترن به كل هذا من ملابسات أخرى مستحبة لصداقة «مستر ألتن» التي يرجى من ورائها الكثير.
وكان اليوم التالي موعد جلوس «هاريت» للمرة الثانية، ورأى «مستر ألتن» كما يحتم عليه الواجب أن يلتمس السماح له بالحضور والقراءة.
«بكل تأكيد ويسعدنا كثيرًا أن تكون من بين زمرتنا».
وكما حدث في اليوم السابق تمت الترتيبات وتبادل التحيات، وصادفهم من النجاح حظ وفير، وكملت الصورة في زمن وجيز وفي جو من السعادة. لقد رضي عنها كل من شاهدها أما بالنسبة لمستر «ألتن» فقد ظلت مثار نشوة لا تنقطع، ونصب نفسه مدافعًا عنها ضد أي نقد يوجه إليها.
وأبدت «مسز وستن» ملاحظة وهي لا تدري أنها تخاطب محبًا ولهانًا. قالت:
«إن «مس وودهاوس» زودت صديقتها بما ينقصها من الجمال وتعبيرات العين سليمة للغاية، غير أن «مس سمث» ليس لها هذان الحاجبان، ولا تلك الأهداب، والخطأ خطأ وجهها لافتقاده هذه الحواجب والأهداب».
ورد عليها: «أتظنين هذا؟ إني لا أوافقك على ذلك، فالصورة تشبهها تمامًا في كل معالمها، بل وما رأيت في حياتي تشابهًا مثلها، ثم أن علينا أن نعمل حسابًا لأثر الظل».
وقال «مستر نيتلي»: «لقد زدت من طولها كثيرًا يا «إمَّا»».
وكانت «إمَّا» على علم بأنها فعلت ذلك، ولكنها لم تعترف به، وعقب «مستر ألتن» في حماس: «لا، لا، بالمرة. أؤكد أنها ليست أطول مما يجب، ثم عليك أن تلاحظ أنها وجالسة، وهذا بطبيعة الحال يحدث اختلافًا، أو هو من شأنه أن يؤدي إلى هذه الفكرة، ولا بد كذلك من مراعاة النسب، تناسب الأبعاد وتقصير

الخطوط لتبدو الصورة إلى العين مطابقة للحقيقة لا، إنها توحي بطول «مس سمث» الحقيقي، ولا شك في هذا».
وقال «مستر وودهاوس»: «إنها صورة جميلة حقًا، ولقد أجدت الرسم كما هي عادتك دائمًا يا عزيزتي، بل إني لا أرى أحدًا يجاريك في هذا المضمار، والشيء الوحيد الذي لا أرتاح إليه في الصورة، هو أنها تبدو وكأن صاحبتها جالسة في العراء، ولا يغطي كتفيها غير شال صغير، مما يجعلني أظن أنها لا بد ستصاب بالبرد».
«ولكن المفروض يا والدي العزيز أن الفصل فصل صيف، وإنه يوم دافئ، أنظر إلى الشجرة».
ولكن الجلوس في العراء لا يؤمن أبدًا يا عزيزتي».
وصاح «مستر ألتن»: «لك ياسيدي أن تقول ما تشاء، ولكن لا بد لي أن أعترف بأني أعتبرها فكرة رائعة، فكرة وضع «مس سمث» في العراء وتلك الشجرة تنطق بحيوية لا سبيل إلى محاكاتها ولو أنها كانت في غير هذا الوضع لقلّت قيمتها. وهذه الطهارة التي تبدو في «مس سمث» وفي الصورة بأكملها، ما أجملها!! إني لا أملّ من النظر إليها، وما رأيت في حياتي صورة مثلها».
ثم جاءت بعد ذلك مسألة إطار الصورة، وهنا ظهرت بعض العقبات، لا بد من عمل هذا الإطار على الفور، ولابد أن يكون عمله في لندن، وأن يكون على يد شخص ذكي له من حسن الذوق ما يجعله أهلًا للاعتماد عليه.
وقد رؤى أن «إيزابلا» وهي التي يوكل إليها عادة القيام بمثل هذه المهام، لا ينبغي أن يعهد إليها بهذه المهمة، إذ كان الوقت في شهر ديسمبر، ولن يطيق «مستر وودهاوس» أن يسمع بأن ابنته «إيزابلا» قد خرجت من بيتها في ذلك الشهر وفيه ما فيه من ضباب كثيف. ولكن ما كاد «مستر ألتن» يتبين هذه الحيرة حتى عمل على إزالتها، فقد كانت شهامته دائمًا متوثبة، فتقدم يقول: «إن سروره سيكون عظيمًا لو عهد إليه بهذا العمل وترك له أمر إنجازه، ففي وسعه أن يركب إلى لندن في وقت، وأنه لمن العسير عليه أن يعبر عن السعادة التي تغمره وهو يكلف القيام بمثل هذه المهمة».
واندفعت «إمَّا» تقول: ما أكرمك!! ولكني لا أحتمل مجرد التفكير في ذلك، ولن أوكل إليك القيام بعمل متعب كهذا بأي حال».
وكان لهذا القول أثره المطلوب، إذ أخذ يكرر التوسلات والتأكيدات، حتى وصلوا في النهاية إلى حل لم يستغرق الوصول إليه وقتًا طويلًا.
واتفق أخيرًا على أن يذهب مستر ألتن بالصورة إلى لندن، وأن يختار الإطار الملائم لها، وأن يعطي التعليمات التي يراها لازمة. كما رأت «إمَّا» أن بوسعها حزمها حتى تضمن سلامتها دون أن تجعل منها حملًا ثقيلًا، أما هو فقد كان لا يجد في أي عمل كهذا ما يمكن أن يكون فيه إرهاق له أو يعتبر حملًا بالمرة.
«ما أغلاها من وديعة!!» قالها في تنهيدة رقيقة وهو يتسلم الصورة.

وقالت «إمَّا» في نفسها: «إن هذا الرجل فيه من الشهامة ما يؤهله للحب، هذا ما يجب أن أعترف به، غير أن هناك مع ذلك طرقًا أخرى عديدة للحب، وهو رجل ممتاز وفي ميعة الصبا، وهو ملائم «لهاريت» كل الملائمة، وأقول كل الملاءمة كما قالها هو نفسه، ولكني أراه بذل عصارة قلبه في صوغ عبارات المديح لها بأكثر مما تقره مبادئي، ولكن ما العمل؟ فهذه هو شعوره نحو «هاريت»؟.

وحدث في نفس اليوم الذي ذهب فيه «مستر ألتن» إلى لندن ظرف جديد كان يتطلب من «إمَّا» أن تؤدي خدمة لصديقتها. فلقد جاءت «هاريت» كعادتها إلى «هارتفيلد» بعد الإفطار مباشرة. وبعد قليل ذهبت إلى بيتها على أن تعود ثانية لتناول العشاء، ولكنها بكرت بالعودة أكثر مما وعدت، وكان مظهرها وما كان يبدو عليها من اضطراب ولهفة، يدلان على أن شيئًا غير عادي قد وقع لها، وأنها كانت تتوق إلى الافضاء به. وان هي إلا نصف دقيقة حتى ظهرت جلية الأمر..

فلقد سمعت ساعة عودتها إلى بيت «مسز جدرد» بأن «مستر مارتن» كان هناك قبل وصولها بساعة، ولما لم يجدها ولم يكن يتوقع عودتها فقد ترك لها ربطة صغيرة مرسلة من إحدى شقيقاته، وانصرف. وعندما فتحت الربطة، وجدت علاوة على الأغنيتين اللتين كانت أعارتهما لأليزابيت لكي تنسخ منهما صورة، خطابًا موجهًا إليها، وكان الخطاب منه، أي من «مستر مارتن» وقد طلب فيه يدها صراحة.

من كان يظن هذا؟ لقد دهشت لذلك حتى لم تدر ماذا تفعل، أجل، إنها خطبة سريعة صريحة، والخطاب نفسه جميل للغاية، أو هذا على الأقل ما ظننته، لقد كتبه بأسلوب من يحبها حبًا جارفًا. إنها لم تستطع أن تبين حقيقة الأمر، ومن ثم فقد جاءت بأقصى سرعة لتسأل «مس وودهاوس» عما يجب أن تفعله.

وأستنكفت «إمَّا» من صاحبتها ما بدا عليها من سرور مشوب بالشك وصاحت فيها قائلة: «أجزم بأن الفتى قد وطد العزم على ألا يفقد شيئًا لأنه لم يطلبه، وإنه سيوطد صلته إن أمكنه».

وصاحت «هاريت» قائلة: «هل تسمحين بقراءة الخطاب؟ إني أتوسل إليك، فأنا أفضل أن تقرئيه بنفسك».

ولم يكن ذلك الإلحاح ليسيء إلى «إمَّا»، فقرأته واستولت عليها الدهشة. لقد كان في أسلوب يعلو على ما كانت تتوقعه، فهو لم يكن خلوًا من اللحن فحسب، ولكنه كان في صوغه لا يقل عما يصوغه سادة القوم، ودانت لغته رغم بساطتها متينة لا تكلف فيها، وعباراته العاطفية تشهد على قدرة كاتبها. لقد كان خطابًا موجزًا ولكنه كان يدل على سلامة التفكير، وعلى المحبة وسعة العقل، وعلى الكياسة ورقة الشعور.

وتأملته في صمت، بينما وقفت «هاريت» قلقة في انتظار رأيها وهي تردد: «أجل، أجل» حتى وجدت نفسها آخر الأمر مضطرة إلى أن تقول: «هل هو خطاب مقبول؟ أم هو موجز للغاية؟».

وأجابتها «إمَّا» بتؤدة: «إنه ولا شك خطاب في منتهى الجمال، وقد بلغت جودته يا «هاريت» درجة تجعلني إذا فحصت الأمر من جميع نواحيه، أظن أن إحدى شقيقاته لابد قد عاونته في كتابته، إذ يصعب على أن أتخيل بأن الفتى الذي رأيته يتحدث إليك في اليوم السابق، قادر على التعبير بهذه الجودة لو أنه ترك لمواهبه، ومع ذلك فالأسلوب قطعًا ليس أسلوب سيدة، فهو متين محكم، وعباراته مركزة وغير مشتتة. إن مما لا شك فيه أنه رجل مفكر، وأنه ربما كان ذكيًا بطبيعته، وأنه ثاقب الفكر وأنه إذا ما تناول القلم تخير أنسب الألفاظ، هذا هو حال بعض الرجال، وأنا أدرى بهذا النوع من العقول، عقول فيها القوة والعزم، وفيها عواطف لا تشوبها الغلظة إلى حد ما».

وناولتها الخطاب وهي تقول: «إنه يا «هاريت» خطاب أجمل مما كنت أتوقع».

وقالت «هاريت» وكانت لا تزال في انتظار رأيها:

«أجل، أجل، و.. و.. ماذا أفعل؟».

«ماذا تفعلين؟ أي شيء تعنينه؟ الخطاب؟».

«نعم.»

«ولكن ما هو موضع التردد عندك في ذلك؟ لابد أن تردي عليه ولا تتمهلي».

«أجل، وماذا عساي أقول له؟ زوديني بالنصيحة يا مس «وودهاوس» يا عزيزتي».

«لا، لا، والأفضل أن يكون موضوع الخطاب من شأنك أنت؛ وأنا واثقة أنك قادرة على حسن التعبير عما في نفسك، ولا خوف عليك من أن تسطري شيئًا لا يفهم معناه، وهذا أهم شيء، إذ يجب أن يكون المعنى قاطعًا، لا لبس فيه ولا حياء، وكل تعبير تريدين به الاعتراف بالجميل والألم الذي تسببينه له، كما تقضي بذلك أصول الكياسة، سيأتي إليك طواعية ودون عناء، ومع ذلك فإياك أن تدعي شعورك بالجميل أو العطف يكتسحك في طريقه، فتندفعي إلى الظهور بمظهر الحزن على خيبة رجائه».

وقالت «هاريت» وهي مطرقة: «إذن فأنت ترين أنه يجب عليَّ أن أرفضه».

«ماذا تعنين يا عزيزتي «هاريت» بقولك «يجب أن أرفضه؟ وهل أنت في شك من هذا؟ لقد كان هذا ظني، ولكن عفوًا، فربما أكون قد أخطأت فهمك وظننتك في شك مما بجب أن يحويه ردك عليه. فلقد كنت أظن أن كل ما أردت أن تستشيريني فيه هو صوغ العبارة التي تضعين فيها ردك».

ولم تحر «هاريت» جوابًا، وواصلت «إمَّا» كلامها في شيء من التحفظ وهي تقول:

«أفهم من هذا أنك تعنين الرد بالموافقة».

«لا، لست أعني ذلك، إلهي ماذا أفعل؟ ما الذي تشيرين به عليّ؟ أرجوك يا «مس وودهاوس» أن تخبريني عما يجب عمله».
«لن أسدي إليك أية نصيحة يا «هاريت» وليس لي دخل في ذلك وهذه مسألة متروكة لك لتقطعي فيها برأي وبدافع من شعورك».
وقالت «هاريت» وهي تمعن النظر في الخطاب:
«ما كان يجول بخاطري أنه يهواني بهذا القدر».
ولبثت «إمَّا» هنيهة لا تنبس بكلمة، ولكنها وقد أخذت تدرك ما قد يكون لهذا الخطاب من أثر بالغ بسبب ما حواه من عبارات المديح الساحرة، وجدت من الصواب أن تقول «إن المرأة إذا أشكل عليها الأمر، في هل تقبل الزواج من رجل ما أو ترفضه، وجب عليها أن ترفضه. وإذا كان هناك أي تردد من جانبها في أن تقول له «نعم» وجب عليها أن تقول «لا» على الفور، فهذه مسألة لا تؤمن عاقبة الارتباط فيها برأي إذا داخلك الشك، أو كنت غير متحمسة لها. وقد رأيت من واجبي بصفتي صديقتك، وأكبر منك سنًا، أن أقول لك كل هذا، ولكن لا تتخيلي أني أردت التأثير عليك».
«قطعًا لا، وأني لعلى يقين بأن لك من كريم الخلق ما يمنع ذلك، ولكن حبذا لو نصحتيني بما ينبغي لي أن أفعله - لا، لا، فلست أقصد هذا - وكما تقولين، لابد للمرء من أن يكون له رأي قاطع وألا يكون مترددًا، لأن الأمر جد خطير، وقد يكون الآمن فيه أن يقول الإنسان «لا» فهل تظنين أن الأحرى بي أن أقول «لا»؟».
فقالت «إمَّا» وعلى ثغرها ابتسامة عذبة: «لن أنصحك أي طريق تتخذين بأية حال، ورأيك هو الذي يجب أن يفضل كل الآراء فيما فيه سعادتك، فإن أنت فضلت «مستر مارتن» على الناس جميعًا، وإذا كنت ترينه أقرب من خالطينه من الرجال إلى قلبك، فلماذا تترددين؟ بل أراك قد ارتبكت وأحمر وجهك حياء يا «هاريت» فهل جال بخاطرك في هذه اللحظة شخص آخر تنطبق عليه هذه الأوصاف؟ لا تخدعي نفسك يا «هاريت». ولا تجعلي العرفان بالجميل أو العطف يتغلبان عليك، خبريني فيمن تفكرين في هذه اللحظة؟».
ودلت المظاهر على أن «هاريت» قد اقتنعت بكلامها، فبدلًا من أن ترد، ظهر عليها الارتباك، واتجهت إلى الموقد، ووقفت بجواره تفكر، وكان الخطاب لا يزال في يدها تطويه دون اكتراث وفى حركة آلية.
وانتظرت «إمَّا» في قلق لترى أثر كل هذا والأمل القوي لا يزال يداعبها، وأخيرًا تكلمت «هاريت» في شيء من التردد، فقالت:
«بما أنك يا «مس وودهاوس» قد أحجمت عن أبداء رأيك فلا بد لي من أن أتولى الأمر بنفسي على قدر استطاعتي، والآن قد حزمت أمري، وقررت أن أرفض «مستر مارتن» فهل ترين أني على صواب؟».
«تمامًا، بل هو عين الصواب، وأنت يا عزيزتي «هاريت» إنما فعلت في ذلك ما كان يجب عليك أن تفعليه، لقد احتفظت بشعوري لنفسي حين كنت مترددة،

أما الآن وقد استقر رأيك نهائيًا، فإني لا أتردد في الموافقة على رأيك، بل أن قرارك يا عزيزتي «هاريت» يدخل الفرحة على قلبي، فقد كان يحزنني أو تنقطع الصلة التي بيننا، وهو ما كان لا بد أن يحدث نتيجة لزواجك من «مستر مارتن» فلما لمست فيك مسحة من التردد، لم أفتح فمي بكلمة عن ذلك، لأني لم أرد أن أوثر عليك وإن كنت سأفقد صديقة عزيزة عليّ، إذ ما كان ليتيسر لي أن أقوم بزيارة مسز «روبرت مارتن» في المزرعة المجاورة للرهبانية، والآن قد اطمأنت نفسي وهدأ بالي من ناحيتك».

ولم تكن «هاريت» قد توقعت خطرًا يلحقها، ولكن فكرة أن ذلك كان متوقعًا كانت شديدة الوقع عليها، فصاحت وهي تنظر إليها في هلع وقالت:

«عجبًا!! هل وكنت ستمتنعين عن زيارتي؟ لا، أؤكد لك أنك ما كنت تفعلين ذلك، على أني لم يدر بخاطرى شيء من ذلك قبل الآن، ما أفظعه من شيء لو أنه حدث!! وما أجمل أننا نجونا من احتمال وقوعه يا عزيزتي «مس وودهاوس» وأنا لا أضحي بما أفاضت علي به صداقتك من شرف وسعادة في مقابل أي شيء في الوجود».

نعم يا «هاريت» إني كنت سأشعر بألم شديد لو أني حرمت من صداقتك، ولكنه كان أمرًا لا بد منه، وقد كنت بعملك ستتسببين في عزلتك عن صحبة كرام الناس، ولم يكن لي في هذه الحالة إلا أن أتنحى عنك».

«عجبي!! وكيف كنت أحتمل ذلك!! لو أنني حرمت من الحضور إلى «هارتفيلد» لكان في ذلك هلاكي».

«يا عزيزتي الحبيبة!! عجبًا أن يكون مثلك منفيًا في صنيعة الرهبانية!! وأن تكتب على مثلك صحبة الجهلاء والسذج وحدهم طول حياتك، بل أني لأعجب كيف وجد هذا الفتى في نفسه الجرأة على طلب يدك، لا بد أنه يُحسن الظن بنفسه».

ولم يرض «هاريت» هذا التجريح فقالت: «لست أظنه مغرورًا على وجه العموم وهو على الأقل كريم الخلق، وسأظل أشعر دائمًا بأنني مدينة له بالشكر، كما أني أحترمه كل الاحترام ولكن هذا شيء آخر، وأنت تعلمين أنه على الرغم من احتمال حبه لي، فأن ذلك لا يستتبع حبي له، ولا بد لي من الاعتراف بأني منذ اللحظة التي زرتكم فيها شاهدت أناسًا هم من حيث الخلق والخلق يعلون عن كل مقارنة، وفيهم واحد بصفة خاصة مفرط في أناقته وظرفه، ومع ذلك فإني أعتقد أن «مستر مارتن» فتى ظريف جدًا، وإني لأقدره كثيرًا كما أقدر تعلقه الكبير بي، وكتابته مثل هذا الخطاب، ولكن تركي لك شيء لن أقدم عليه مهما كانت الأسباب».

«شكرًا، شكر يا صديقتي الحلوة، الصغيرة، وسوف لا نفترق عن بعضنا. على أن الواحدة لا تتزوج رجلًا لمجرد أنه طلبها، أو علق بها، أو لأنه استطاع أن يسطر خطابًا جميلًا».

«لا بالتأكيد، ثم هو لا يزيد على أن يكون خطابًا موجزًا». وأحست «إمَّا» بما لصديقتها من ذوق سقيم، ولكنها تغاضت عن ذلك واستطردت تقول: «حقًا ما تقولين، وأن ما قد تعرفه المرأة عن زوجها من قدرة على كتابة خطاب جميل لهو عزاء ضئيل عما قد يلحقها من حرج لإحساسها في كل ساعة من ساعات النهار بسذاجته».
«أجل، هذا ما لا شك فيه، فما من شخص يمكن أن يهتم بموضوع خطاب، ولكن الذي يوجب الاهتمام، هو أن يسعد المرء دائمًا برفقاء تسره صحبتهم، لقد اعتزمت أن أرفضه، ولكن ماذا أفعل وماذا أقول؟».
وأكدت لها «إمَّا» بأنه لا توجد صعوبة في الرد، ونصحتها بكتابة ردها إليها مباشرة، ووافقت «هاريت» على ذلك أملًا، في أن تنال معاونتها في ذلك. وعلى الرغم من أن «إمَّا» ظلت تمانع وتعارض في تقديم أية مساعدة لها، فقد أعانتها في تكوين كل جملة من جمل الرد. وكان لتصفح «هاريت» لخطابه مرة أخرى وهي ترد عليه أثر ملطف على مشاعرها، ومن ثم فقد كان من الضروري بصفة خاصة تزويدها ببعض العبارات القاطعة. لقد كان يقلقها أنها ستحزنه، كما فكرت كثيرًا فيما سيكون عليه رأي أمه وأخواته، وماذا هن قائلات عنها فقد كانت شديدة الرغبة في ألا يذهب بهن الظن إلى جحودها ونكرانها للجميل، حتى اعتقدت «إمَّا» أنها لو قابلت الفتى في تلك اللحظة لعادت فقبلت عرضه بعد كل ذلك.
وكتبت الخطاب أخيرًا وغلّفته، ثم أرسلته وانتهى بذلك الأمر، وأصبحت «هاريت» في مأمن من الخطر، ولكنها لبثت مكتئبة مهمومة طوال المساء، وتركتها «إمَّا» تخفض عنها وتحاول أن تخفف من ذلك بالحديث عن محبتها لها، أحيانًا وبالحديث عن «مستر ألتن» أحيانًا أخرى. وقالت «هاريت» وفي صوتها نبرات حزينة: «سوف لا أدعى إلى الرهبانية مرة أخرى».
«وحتى لو دعيت فلن يمكنني أن أحتمل بعدك عني يا «هاريت» فقد أصبح وجودك في «هارتفيلد» ضرورة إلى حد لا يسمح لنا بأن نتركك تذهبين إلى الرهبانية».
«وأنا من ناحيتي لا أظن أني أحب أن أذهب هناك لأني لن أكون سعيدة إلا في هارتفيلد» ثم استطردت بعد أن توقفت برهة «أظن أن «مسز جدرد» ستدهش كثيرًا إذا علمت بما حدث، وأعتقد أن «مس ناش» ستدهش كذلك لأنها تظن أن أختها تزوجت زيجة عظيمة مع أن زوجها لا يعدو أن يكون بائع أقمشة».
إن المرء يا «هاريت» لا يجوز أن ينتظر من مدرّسة بإحدى المدارس طموحًا، ولا تهذيبًا أكثر من هذا، بل إني لا أكاد أجزم أن «مس ناش» ستحسدك على سنوح فرصة كهذه للزواج، وموضوع هيام «مارتن» بك قد يبدو شيئًا ذا قيمة في نظرها، إذ أظنها تجهل بأن هناك شيئًا خيرًا من ذلك مدخرًا لك. نعم، فان الاهتمام البادي من شخص بالذات لم يحن الوقت بعد ليكون حديث الناس في

«هايبري»، وإني لأكاد أتصور بأن نظراته وتصرفاته لم تفصح عن نفسها لأحد سوانا نحن الاثنتين».

علت الحمرة وجه «هاريت» وابتسمت، ثم نطقت بكلمات عبرت بها عن دهشتها كيف أن الناس يحبونها بهذا القدر فلقد أشاع موضوع «مستر ألتن» السرور في نفسها ولا شك، ولكنها مع ذلك عادت بعد قليل تبدى عطفها على «مارتن» الذي رفضته وتقول في حنان: «لقد وصله خطابي الآن، ترى ماذا يفعلون الآن، وهل وصل لأخواته علم بذلك؟ فهو إذا حزن استولى عليهن الحزن كذلك، وعلى أية حال أرجو ألا يحز الموضوع في نفسه كثيرًا».

وصاحت «إمَّا» تقول: «فلنفكر في بعض أصدقائنا الغائبين الذين قد شغلوا بما يشرح صدورهم، فقد يكون «مستر ألتن» في هذه اللحظة مشغولًا بعرض صورتك على أمه وأخواته، وهو يقول لهن أن الأصل يفوق الصورة جمالًا، ثم هو لا يبوح لهن بالاسم، باسمك الغالي، إلا بعد أن يحلفن عليه في الرجاء خمس أو ست مرات».

«صورتى أنا!! ولكنه قد ترك صورتي في شارع بوند».

«وهل تظنين أنه فعل هذا حقًا؟ إذن فلست أعرف شيئًا عن مستر «ألتن» لا يا «هاريت»، لا أيتها الصغيرة، لن تبقى صورتك في شارع «بوند» إلا ريثما يكاد يستعد للرحيل غدًا، فهي ستكون نعم الرفيق له طيلة هذه الأمسية وسيجد فيها بهجته وسلواه، وهي ستكون وسيلته للإفصاح لعائلته عما حزم عليه أمره. إنها وسيلة التعارف بينك وبينهم وهي التي سوف تشيع بينهم ألذ ما عرفته طبيعة الإنسان من مشاعر، وسوف يتلهفون على معرفة أخبارك ويكونون عنك أحسن فكرة، ولسوف يشغل خيالهم بك ويحسون بالبهجة تجري في عروقهم». وابتسمت «هاريت» مرة آخرى، وجعلت بسماتها تقوى وتنفرج..

نامت «هاريت» في «هارتفيلد» تلك الليلة، وكانت منذ أسابيع مضت قد اعتادت أن تمضي أكثر من نصف وقتها هناك، حتى كاد بالتدريج أن تصبح لها حجرة للنوم خاصة بها، وقد رأت «إمَّا» أن من أصلح الأشياء وآمنها وأكرمها من كل الوجوه أن تجعل أقامتها معهم أكبر مدة ممكنة في الوقت الحاضر بالذات، اضطرت «هاريت» إلى الذهاب في صبيحة اليوم التالي إلى بيت «مسز جدرد» لقضاء ساعة أو ساعتين، ولكن ذهابها إليه كان على أساس ضرورة عودتها إلى «هارتفيلد» لتمضي فيها بضعة أيام متواصلة.

وما أن غادرت هارتفيلد حتى عاد مستر «نيتلي» إلى «هارتفيلد» وجلس إلى مستر «وودهاوس» و«إمَّا» بعض الوقت، إلى أن زينت «إمَّا» لوالدها أن يخرج للتريض، كما كان قد اعتزم من قبل، وألا يؤجل رياضته إلى أكثر من ذلك. ورضي «وودهاوس» استجابة لرجاء الاثنين، رغم أن ذلك كان لا يتفق وما طبع عليها من أدب يمنعه من ترك مستر «نيتلي» لمثل هذا الغرض. أما «مستر نيتلي» الذي لم يكن يحفل بمظاهر المجاملة، فقد جعل يرد بعبارات موجزة وقاطعة، فيها تباين جميل لما كان يردده صاحبه من اعتذارات مستفيضة، وتمنع عن الخروج في صيغة مهذبة.

«أجل، أرجو المغفرة يا مستر «نيتلي»، ولكنك إذا قبلت عذري ولم تعتبر أني أتيت أمرًا، فإني سأخذ بنصيحة «إمَّا» وأخرج مدة ربع ساعة. ولما كانت الشمس قد غربت، فإني أعتقد أنه قد يكون أحرى بي أن أقوم بنزهتي ما دام ذلك في الإمكان. إني يا «مستر نيتلي» أرفع الكلفة بيننا في صلتي بك، نعم أن المرضى من أمثالنا لهم بعض الامتيازات».

«أرجوك يا سيدي العزيز ألا تعاملني كما لو كنت غريبًا». «إني أترك ابنتي معك وهي خير من يقوم مقامي، إنه ليسعد «إمَّا» أن تحتفي بك، ولذا فأني أستسمحك لأخرج للمشي فهو رياضتي في الشتاء».

«وهذا يا سيدي أحسن شيء يمكن أن تعمله».

«كان يسعدني أن تكون بصحبتي يا «مستر نيتلي» ولكن سيري بطيء جدًا، وقد تتعبك خطوتي، وأمامك علاوة على ذلك طريق طويل في عودتك إلى رهبانية «دونول» سيرًا على أقدامك».

«شكرًا يا سيدي شكرًا، وأنا نفسي على وشك الاستئذان في الانصراف، وأظن أنه كلما أسرعت أنت بالخروج كان أفضل، وسأحضر لك معطفك وأفتح لك باب الحديقة»..

وخرج «مستر وودهاوس» أخيرًا، ولكن «مستر نيتلي» بدلًا من أن يستأذن في الانصراف عاد فجلس ثانية وبدا وكأنه يميل إلى مزيد من الحديث، وبدأ الحديث بالفعل، عن «هاريت» فخصها في كلامه بمدح لم تسمعه «إمَّا» منه من قبل حيث قال:

«لست أقدر جمالها بمثل ما تقدرينه، ولكنها فتاة لطيفة، وإني لأقرر ما طبعت عليه من خلق. أما سلوكها فهو متوقف على من تخالطهم، فإن حسنت رعايتها أصبحت سيدة فاضلة».

«يسرني أن يكون هذا رأيك، وإني لآمل ألا تعوزها الأيدي الصالحة التي تتعهدها بالرعاية».

فقال: «تعالي هنا، فأنت تتوقين إلى كلمة إطراء، فما دام الأمر كذلك فها أنذا أقول أنك قد رفعت من شأنها وأنسيتيها ما كانت تأتي به من هأهأة أشبه بهأهأة تلميذات المدارس، الحق أنك جديرة بالثناء من أجل ما أديتيه لها».

«شكرًا، وإني لكنت أحس بكثير من هوان النفس لو أنني اعتقدت بأنني لم أحقق لها نفعًا، غير أن من الناس من لا يؤدون الثناء حيث يجب الثناء وأنت بالذات قلما تكيل لي ثناء».

«أتقولون أنك في انتظارها ثانية هذا الصباح؟».

«إني أنتظر مجيئها بين لحظة وأخرى، بل لقد طالت غيبتها عما كانت تعتزم».

«ربما حدث لها حادث، أو أقبل بعض الزائرين فأخروها».

«ما أكثر الحديث عن سير الناس في «هايبري» وما أشقى القائمين بها وأتعبهم للناس!!».

«قد يختلف نظر «هاريت» عن نظرتك فيمن تظنين أنت أنهم أصل المتاعب».

وكانت «إمَّا» تعلم أن ما يقوله هو عين الصواب وأنه أمر لا يستحق جدلًا، ولذا لم تقل شيئًا. ثم أعقب مستر «نيتلي» عبارته بقوله على الفور هو يبتسم:

«لا أريد أن أحدد الزمان ولا المكان، ولكني أجد لزامًا على أن أخبرك بأن عندي ما يعزز ثقتي بأن صديقتك الصغيرة ستسمع عاجلًا خبرًا في صالحها».

«صحيح!! كيف هذا؟ وما نوع هذا الخبر؟».

فقال وهو لا يزال يبتسم: «أؤكد لك أنه خبر خطير للغاية».

«خطير جدًا!! إنني لا أستطيع أن أفكر إلا في شيء واحد... من هو ذا الذي يهيم بحبها؟ ثم من هو ذا الذي اصطفاك وأتخذك أمينًا على سره؟»

وكانت «إمَّا» تؤمل أن يكون مستر «ألتن» قد قصد الإلقاء بتلميحة لها معناها، فقد كان «مستر نيتلي» صديق الجميع وناصحهم، وكانت تعلم أن مستر «ألتن» يلجأ إليه أحيانًا ليستشيره.

وأجابها: «لدي ما يعزز ظني بأن «هاريت» سيتقدم إليها حالًا من يطلب يدها، وهذا الخبر من مصدر لا يتطرق إليه شك، إنه «روبرت مارتن»، ويبدو أن زيارتها لهم في ناحية الرهبانية هذا الصيف قد حققت له هدفه، فهو مولع بحبها ويريد أن يتزوجها».

وقالت «إمَّا»: «إنه كريم النفس جدًا، ولكن هل هو واثق من أن «هاريت» ستوافق على زواجها منه؟».

«أجل، أجل، إنه سيطلب يدها، فهل يكفيك هذا؟ لقد تعمد أن يأتي إلى الرهبانية منذ يومين في المساء لكي يستشيرني في ذلك، لأنه يعلم أني أقدره كثيرًا، كما أقدر كل أسرته، وأعتقد أنه يعتبرني من أعز أصدقائه. لقد جاء يسألني إذا كنت أظن أن تبكيره بالزواج قد لا يكون من أصالة الرأي، أو إذا كان من رأيي أنها أصغر من أن تليق به، وبالاختصار، إذا كنت موافقًا على اختياره كلية. ولعله كان يخشى أن يعتبرها الناس من وسط أرقى من وسطه، خاصة منذ أن أخذت تهتمين بشؤونها. وقد سررت كثيرًا لكل ما قاله، بل إني لم أجد أحدًا له من سداد الرأي ما يبز «روبرت مارتن»، فهو دائمًا يرمي في كلامه إلى هدف معين، وهو صريح ليس به عوج، وهو دائم صادق الحكم، وقد أخبرني بكل شيء، عن ظروفه وخططه، وعما اعتزموا جميعًا أن يعملوه عند زواجه. إنه حقًا فتى ممتاز، سواء أكان ابنًا أم أخًا. ولم أتردد في إسداء النصح له بالزواج، فقد برهن لي على أنه قادر على تحمل مسؤولياته، وتأكدت والحالة كما ذكرت، أن هذا هو خير ما يفعله، كذلك امتدحت فتاتنا الجميلة، وخرج من عندي قرير العين مسرورًا. وهو إن لم يكن أقام وزنًا لآرائي من قبل، فهو لا بد قد نظر إلي هذه المرة بعين الإكبار، وأعتقد أنه تركني وهو يظن أنني أحسن من يصادفه من صديق مخلص وناصح أمين، حدث كل هذا في ليلة أول أمس، وأظن أننا لن نعدو الحقيقة إذا قلنا أنه لن يتوانى عن التحدث إليها في الأمر، وما دام لم يتكلم بالأمس كما هو ظاهر، فمن المحتمل جدًا أنه سيذهب اليوم إلى بيت «مسز جدرد»، وهكذا لعل زائرًا أخرها وهي لا تراه مصدر تعب لها».

وقالت «إمَّا» ولم تكن الابتسامة قد فارقتها معظم الوقت الذي دارفيه هذا الحديث: «قل لي بالله كيف عرفت أن مستر «مارتن» لم يتكلم أمس؟».

وأجابها في دهشة: «لست أجزم بهذا، ولكن ذلك مما يمكن استنتاجه، ألم تكن معك طول النهار بالأمس؟».

وقالت: «هلم إليّ وسأفضي إليك بشيء مقابل ما أفضيت به إليّ، فلقد تكلم بالأمس هذا، أعني أنه كتب إليها ورفض طلبه».

وكان عليها أن تكرر هذه العبارة حتى يمكنه تصديقها. واحمر وجه «مستر نيتلي» وبدت عليه الدهشة والاستياء ثم وقف غاضبًا وهو يتمتم:

«إذن فهي غرة أكثر مما كنت أظنها، وماذا تريد هذه الفتاة الحمقاء؟».

وصاحت «إمَّا» تقول: «عجبًا؟ أن الرجل لا يستطيع أن يدرك أن المرأة قد ترفض عرضه، وهو يتخيل دائمًا أنها لا يمكن أن ترد أحدًا يتقدم إليها».
«هراء!! إن الرجل لا يتخيل شيئًا من ذلك، ولكن ما معنى هذا؟ وهل ترفض «هاريت سمث» «روبرت مارتن»؟ لو صح هذا فهو الجنون بعينه، ولكني أرجو ألا يكون ما قلتيه حقًا».
«بل لقد رأيت ردها عليه، وكان واضحًا لا غموض فيه».
«عجبًا!! رأيت ردها بل أنت التي كتبت ردها كذلك؟ إن هذا كله من صنع يديك يا «إمَّا» وأنت التي زينت لها رفضه».
« وعلى فرض أني فعلت، وهو شيء لا أستبيحه لنفسي، فأني لا أشعر بأني قد أخطأت إن «مستر مارتن» فتى مهذب جدًا، ولكني لا أعترف بأنه كفء لهاريت، ولقد أدهشني جدًا كيف وجد في نفسه الجرأة على أن يتقدم إليها، وقد فهمت مما ذكرته الآن أنه كان متهيبًا ومترددًا، وليس أدعى إلى الأسف من أنه استطاع أن يتغلب على تهيبه وتردده».
وقال مستر نيتلي متعجبًا وبصوت مرتفع فيه حرارة:
«ليس كفئًا لهاريت!!» ثم أردف يقول بعد قليل وقد هدأ روعه:
«لا، إنه ليس كفئًا لها حقًا، فهو يفوقها عقلًا ومركزًا، إن عواطفك الجامحة يا «إمَّا» نحو هذه الفتاة قد أعمتك، ثم ماذا لدى «هاريت» من مؤهلات من حيث مولدها وطبيعتها وثقافتها لكي ترتبط بمن هو أعلى منزلة من «روبرت مارتن»؟ فهي ابنة غير شرعية، ولا علم لأحد بوالديها،
وقد يكونان معدمين، بل أن من المؤكد أنها من أصل وضيع فكل ما يعرف عنها أنها مشرفة بمدرسة ثانوية داخلية، وهي بعد ذلك فتاة لا نصيب لها من سعة التفكير أو سعة المعرفة، لم تتعلم في حياتها شيئًا نافعًا؛ ثم هي بعد ذلك صغيرة جدًا، ومن السذاجة بحيث لا يمكن أن تتعلم بنفسها. وهي في مثل سنها لا تتأنى لها خبرة من تجاربها في الحياة، وليس من المحتمل، بما لها من ذكاء محدود أن تجد من التجارب ما ينفعها. وكل ما فيها أنها لطيفة ووديعة. وما كنت لأتردد في الموافقة على هذه الخطبة إلا من أجله، ذلك لأنها أقل مما يستحق وغير جديرة بأن يرتبط بها. لقد كنت أشعر من ناحية الثروة أن من المحتمل جدًا أن تنمو ثروته وتزدهر، وأنه لو كانت له زوجة عاقلة أو معاونة، فلن يسوء حاله، ولكني لم أستطع أن أكون منطقيًا إلى هذا الحد مع رجل وقع في شراك الحب ولذا وجدتني أميل إلى الاعتقاد بأنه لا ضير عليه إذا هو تزوج بها، لما هي عليه من استعداد لو وجد يدًا حكيمة كيده لسلس قياده في الاتجاه السليم. ولقد شعرت، بأنها الرابحة من تلك الزيجة، وأن لها منها كل الغنم، ولم يكن يخالجني أدنى شك - ولا زلت لا يخالجني شك - في أن الناس جميعًا سوف يقولون أنها بهذا الزواج كانت ميمونة الطالع، بل لقد كنت واثقًا بأن هذا الزواج سوف يرضيك. وقد خطر ببالي وقتها أنه لن يحزنك أن تغادر صديقتك

«هايبري» من أجل زيجة موفقة، وأذكر أني قلت في نفسي وحتى «إمَّا» مع ما عليه من تحيز نحو «هاريت» سترى أن هذه زيجة طيبة».

«إني لا أتمالك نفسي من الدهشة عندما أراك لا تعلم إلا اليسير عن «إمَّا» حتى تقول مثل ما قلت، عجبًا لك!! أتظن فلاحًا (ولا يزيد «مستر مارتن» على أن يكون فلاحًا رغم فضائله ومزاياه) يكون كفئًا للزواج من أحب صديقة لي، وإنني لن أحزن على تركها «هايبري» من أجل زواجها برجل لا أسمح لنفسي بأن يكون أحد معارفي. إني لأعجب كيف تظن أن هذا مبلغ شعوري» «أؤكد لك بأن شعوري ليس كما تظن، ولا بد لي من القول بأنك لم تكن بحال عادلًا فيما قلت، إنك لم تعدل في تقدير ما لهاريت من مؤهلات، وأنا وغيري نخالفك في تقديرك لها؛ وقد يكون «مستر مارتن» أغنى منها، ولكنه يقل عنها مرتبة في المجتمع، وهي تعيش في وسط أسمى وأرفع من وسطه، وزواجها به فيه إنقاص من شأنها، وخفض لمنزلتها».

«وهل يكون في زواج الجاهلة التي لا يعرف أصلها بسيد زكي مبجل، حرفته الزراعة، ما ينتقص من قدرها؟»".

«وأما من جهة ظروف منبتها، فعلى الرغم من أن القانون لا يعترف بها، فأن المنطق السليم لا يجيز هذا، فهي ليست مسئولة عن أخطاء غيرها، ولا يجوز أن تكفر عن هذا بوضع نفسها في مستوى أقل من المستوى الذي نشأت وترعرعت فيه، بل ما من شك في أن أباها من سادة الناس وأثريائهم فهو ينفق عليها بسخاء، ولا يضن عليها بشيء في سبيل ازدهارها وراحتها. نعم إني لا أشك في أنها ابنة سيد، وأنها في مصاف بنات السادة، ولا سبيل لأحد أن ينكر ذلك، ولذا فهي أرفع من «روبرت مارتن» وأعلى منه مكانة».

ورد عليها «مستر نيتلي» يقول: «مهما يكون من أمر والديها، ومهما يكن شخص من تكفل بتربيتها، فإن من الواضح أنهم لم يكونوا يعدونها للاختلاط بما تسمينه مجتمعًا راقيًا، إذ بعد أن أخذت قسطًا يسيرًا من التعليم؛ تركت في رعاية «مسز جدرد» لتشق طريقها في الحياة بنفسها، تتحرك ركاب «مستر جدرد» وتقتصر في اتصالاتها على معارفها ومن الواضح أن أصدقاءها أنفسهم رأوا في ذلك ما يكفيها بل هي نفسها كانت لا تبغي أكثر من ذلك، وكانت إلى الوقت الذي اخترت فيه أن تجعلها صديقة لك لا تأنف من صحبة بنات جنسها ولا تطمع فيما هو أكثر من وضعها وكانت أسعد ما تكون وهي بين أسرة مارتن أيام الصيف. لم تكن تشعر وقتها بعلو المنزلة، وهي اذ كانت تشعر بذلك الآن فإنما أنت السبب في ذلك، وما كنت بذلك الصديقة الخاصة لهاريت يا «إمَّا». وروبرت مارتن؛

ما كان ليقطع شوطًا بعيدًا كهذا إن لم يكن قد أغراه ما شعر به من عدم زهدها فيه. إني أعرفه حق المعرفة وأعرف أن له من الشعور الحي الفياض ما لا يجعله يقدم على خطبة أية سيدة استجابة لعواطفه الشخصية وحدها. أما الغِرور فهو أبعِد الناس عنه، كِوني واثقة بأنه لا بد قد وجد منها تشجيعًا.

ورأت «إمَّا» أن الأنسب لها ألا ترد عليه مباشرة فيما يؤكده وفضلت متابعة بسط آرائها في الموضوع قالت:

«إنك صديق حميم لمستر «مارتن» ولكنك كما قلت لك من قبل لم تكن عادلًا في الحكم على «هاريت» فإن ما لها من مؤهلات الزيجة الطيبة لا يمكن أن يكون موضع استهانة على نحو ما وصفت. وهي ليست فتاة ذكية، ولكن إدراكها أحسن مما تظن، ثم هي لا تستحق هذا الاستخفاف بتفكيرها. وإذا نحن تغاضينا عن ذلك، وفرضنا أنها كما وصفتها: لطيفة ووديعة لا أكثر، فاسمح لي بأن أقول لك أن ما عندها من هاتين الصفتين ليس مما يستهان به ليزكيها لدى الناس جميعًا، فهي حقًّا فتاة جميلة، ولا بد أن يكون هذا رأي تسعة وتسعين في كل مائة ممن يرونها، وإلى أن يحين الوقت الذي يكون فيه الرجال أكثر اتجاهًا إلى النظرة الفلسفية في تقدير الجمال، عما يظن أنهم عليه عادة، وإلى أن يحين الوقت الذي يهيمون فيه بالعقول الراجحة بدلًا من الوجوه الجميلة، فإن فتاة في جمال «هاريت» ستظل واثقة بأنها ستكون دائمًا موضع الاعجاب، يسعى الرجال إليها سعيًا وهي محتفظة بقدرتها على أن تختار من بين الكثيرين، وبحقها في أن تتباهى بحسنها. وكذلك ما طبعت عليه من نقاء السريرة ليس مما يستهان به في تزكيتها لأنه يجمع إلى لين العريكة البشاشة والتواضع والألفة بالناس، وإني لأكون جد مخطئة لو أنكم معشر الرجال بوجه عام لا ترون أن مثل هذا الجمال وهذه النفسية هما أعظم ما تعتز به امرأة من مؤهلات».

«أؤكد لك يا «إمَّا» أن سماعي لك وأنت تسيئين إلى تفكيرك على هذا النحو، كاف لأن يجعلني أفكر بأن تفكيرك هو كما تعرضينه أمامي وأفضل لك ألا يكون لك عقل من أن يكون لك عقل تسيئين التصرف فيه على نحو ما تفعلين».

وصاحت «إمَّا» تقول في شيء من الدعابة: «كن واثقًا بأني أعلم أن هذا هو شعوركم جميعًا، وأعلم أن فتاة مثل «هاريت» هي مشتهى كل الرجال، وأن النظرة الأولى إليها تأسر فؤاد الرجل وتقنعه، أجل أن «هاريت» لها أن تنتقي وتختار، ولو أنك أنت نفسك كنت تريد الزواج هي التي تصلح لأن تكون زوجتك. وهل يجوز أن تكون موضع الدهشة وهي لم تبلغ إلا السابعة عشرة من عمرها ولم تخط إلا أولى خطواتها في الحياة، وقد بدأ الناس يعرفونها وتعرفهم، إذا هي أعرضت عن أول رجل يتقدم إليها؟ لا، إني لأستحلفكم أن تتركوا لها فسحة من الوقت للتطلع إلى ما حولها».

ورد «مستر نيتلي» في الحال: «كنت أرى دائمًا أن صداقتكما غاية في السخف، ولو أني فضلت أن أحتفظ بهذا الرأي لنفسي، ولكني الآن أرى أن هذه الصداقة ستكون وبالًا على «هاريت»، وأنك لتملئينها غرورًا بجمالها وبما لها من ميزات حتى تصبح بعد قليل وقد اقتنعت بأنه ليس بين الرجال الذين في متناولها من هو كفء لها. والغرور إذا استولى على عقلية ضعيفة، تولدت

عنه كل الشرور، وليس من شيء أسهل على المرأة من أن تزيد من غلوها وتبالغ في آمالها. ومع ذلك فقد لا تنهال طلبات الزواج على «مس هاريت» سريعًا، رغم أنها فتاة على جانب كبير من الظرف، فإن عقلاء الرجال مهما كان رأيك الذي تختارينه لنفسك، لا يريدون زوجات سخيفات، أما الرجال الذين ينتمون إلى أسر كريمة فليس لهم ولع بالارتباط بفتاة لا يعرف أصلها ونسبها، ومعظم ذوي الفطنة من الرجال يخشون ما سوف يلاقونه من المتاعب وما يلحقهم من العار إذا ما كشفت الأيام عن سر منبتها. دعيها إذن تتزوج «روبرت مارتن»، أما إذا شجعتيها على الانتظار لكي تفوز بزوج أفضل، ولقنيتها ألا تقنع من الرجال إلا بمن كان ذا جاه، وعلى جانب كبير من الثراء، فإنها لن تبارح النزل الذي تقيم فيه عند «مسز جدرد» طيلة البقية الباقية من عمرها، أو على الأقل (لأن هاريت سيمث يرضيها أن تتزوج، بأي رجل) إلى أن يبلغ بها اليأس مبلغًا يجعلها تسعد باقتناص ابن مدرس الخط العجوز».
«إن اختلافنا يا «مستر نيتلي» في تفكيرنا في هذه النقطة كبير ولذا فلن ترجى فائدة من بحثها، إذ لن يكون من وراء ذلك إلا أن يغضب أحدنا الآخر. إما أن أدعها تتزوج «روبرت مارتن» فهذا مستحيل، وقد رفضته رفضًا لا رجعة فيه، حتى لا يكون هناك عودة إلى هذا الطلب، وعليها أن تتحمل ما قد ينجم عن رفضها الزواج منه من ضرر مهما بلغ شأنه، وأما عن الرفض في ذاته، فأني لا أزعم بأنني كنت عديمة الأثر فيه، ولكنني أؤكد لك بأنه لم يكن لي ولا لغيري ما يمكن أن نفعله إلا النزر اليسير. فمظهره يوجب الرفض، وحركاته غير مرضية، وهي إن مال قلبها إليه قبلًا، فقد برئت الآن من هذا الميل، وفي استطاعتي أن أتخيل أنها ربما كانت ترضى به قبل أن تتهيأ لها الفرصة لرؤية من يتفوق عليه. لقد كان أخًا لصديقاتها، وبذل الجهد في إرضائها، ولما لم تكن قد رأت من هو أحسن منه (ولا بد أن ذلك كان أكبر عامل مساعد له) فقد كان طبيعيًا ألا تجد فيه وهي تقيم في ناحية الرهبانية ما ينفرها منه، ولكن الوضع قد تغير الآن، وأصبحت تدرك من هم السادة، ولذلك فلن ترتضي «هاريت» لنفسها الآن غير سيد مثقف كريم الخصال».
وصاح «مستر نيتلي» قائلًا: «هراء!! محض هراءلا مثيل له!!، إن «روبرت مارتن» يتصف بسلامة الفكر والإخلاص، وفيه دعابة تزكي هاتين الخصلتين، وأن له من العقل ما يعز على«هاريت سمث» أن تدركه».
ولم تحر «إمَّا» جوابًا، وحاولت أن تبدو مشرقة الوجه، وكأن الأمر لا يقلقها، ولكنها ولا شك كانت تشعر في نفسها بالضيق، وودت لو أنه تركها وحدها». إنها لم تندم على ما فعلت، وكانت لا تزال تعتقد في نفسها أنها أقدر منه على الحكم في موضوع كهذا يتعلق بحق المرأة وما يتصل به من ضروب الكياسة، و لكنها كانت مع ذلك قد أعتادت احترام آرائه بوجه عام، مما جعلها تكره أن تراه يجهر بمعارضته لها بقدر ما كرهت أن تراه يجلس غاضبًا في مواجهتها.

ومضت دقائق وهما على هذا السكون الكريه الذي لم تقطعه إلا محاولة «إمَّا» الحديث عن الطقس، ولكنها لم تجد منه ردًا، فقد كان غارقًا في تفكير عميق انتهى به إلى أن يقول: «لو أن «مارتن» فكر جيدًا لوجد أن خسارته ليست بالشيء الذي يذكر، وأرجو أن يدرك ذلك قريبًا؛ أما أنت فإنك أدرى الناس بآرائك عن «هاريت»، ولكن أما وأنك لا تخفين ولعك بتهيئة الزيجات، فأن من المؤكد أن لديك آراء وخططًا ومشاريع في هذا الصدد، وأنا بصفتي صديقًا لك، أرى لزامًا عليّ أن أنوّه لك بأن «ألتن» لو كان هو الرجل الذي تقصدينه فأن كل جهدك فيما أحسب سوف يضيع هباء».

وضحكت «إمَّا» ضحكة استنكار، أما هو فقد استمر يقول:

«تأكدي بأن «ألتن» لن يستجيب، إن «ألتن» من خيرة الرجال، وهو راع محترم لأبرشية «هايبري» ولكنه لا يحتمل أبدًا أن يندفع في زيجة خرقاء، وهو يعرف كغيره من الناس، قيمة الدخل الكبير، وقد يكون حديثه عاطفيًا، ولكنه يحكم العقل في جميع أعماله، وهو يدرك ما لديه من محاسن بقدر ما تدركين أنت ما لدى «هاريت»، ثم هو يعلم أنه رجل في ميعة الصبا، وعلى جانب كبير من الجمال، وأنه محبوب أينما حل. ولقد تأكدت من طريقة حديثه العامة في أوقات تخلى فيها عن تحفظه وكان لا يوجد معه فيها سوى الرجال، إنه ضنين بنفسه، وسمعته وهو يتحدث في حماس شديد أسرة كبيرة فيها شابات صديقات لأخواته، ولكل واحدة منهن عشرون ألفًا من الجنيهات».

فقالت «إمَّا» وهي تضحك ثانية: «إني مدينة لك بالشكر كثيرًا، ولو أني كنت أهدف إلى تزويج مستر «ألتن» من «هاريت» لكان هذا التحذير منك جميلًا، ولكن كل ما أريده الآن هو أن أحتفظ بهاريت لنفسي ولقد تركت في الوقت الحاضر موضوع تهيئة الزيجات، إذ لا أمل عندي في أن أوفق في زيجة كتلك التي أنجزتها في «راندولز» وسأمتنع عن تهيئة الزيجات ما دمت بخير».

«عمتي صباحًا» - قال هذا ثم وقف وانصرف مسرعًا. لقد كان في حالة شديدة من الغيظ لشعوره بالخيبة التي لحقت بالفتى وتألمه لأنه كان سببًا في ذلك بموافقته على زواجه. وزاد في ألمه ما رسخ في ذهنه من أن «إمَّا» كان لها يد في ذلك.

وكذلك «إمَّا» كانت في حالة من الضيق، وإن كانت أسباب ضيقها أقل وضوحًا من أسباب غيظه، فقد كانت لا تشعر بالرضى الكامل عن نفسها لأنها لم تكن مقتنعة كل الاقتناع بأن آراءها في هذه المسألة كانت صائبة وآراء خصمها خاطئة».

وكذلك هو قد انصرف وهو أكثر منها اعتقادًا بأن الصواب في جانبه ومع ذلك فإن الأسى لم يكن قد بلغ منها مبلغه، ولو كانت «هاريت» عادت بعد فترة وجيزة، لكان في ذلك ما يخفف عنها، ولكن طول غياب «هاريت» زادها قلقًا، وساورتها وساوس مزعجة، فذهب بها الفكر إلى أن الفتى قد يأتي إلى بيت «مسز جدرد» في هذا الصباح فيقابل «هاريت» ويؤثر عليها، فكان توقعها

الفشل بعد كل ما قامت به أكثر ما يضايقها، فلما أقبلت «هاريت» منتعشة وليس لديها سبب تبديه تبريرًا لطول غيابها، شعرت «إمَّا» بالغبطة التي هدأت من روعها وأكدت لها بأنه على فرض أن «مستر نيتلي» فكر أو قال ما يحلو له، فأنها لم تأت شيئًا لا تجيزه الصداقة أو تبرره مشاعر المرأة.
لقد أزعجها «مستر نيتلي» قليلًا من ناحية مستر «ألتن» ولكنها عندما فكرت في أن «مستر نيتلي» لم يتح له من الفرص لمراقبته باهتمام مما أتيح لها (كذلك أكدت لنفسها على الرغم مما كان يدعيه «مستر نيتلي») ولا بالمهارة التي لها في موضوع كهذا، وأنه إنما قال ما قاله في تسرع وغضب، أيقنت بأنه قال في سخطه وغضبه ما كان يود أن يكون صحيحًا، لا ما كان يعلمه علم الواقع. وقد يكون سمع «مستر ألتن» يتكلم دون تحفظ، وعرف ما لم تعرفه، وقد لا يكون «مستر ألتن» مبرأ من الاهتمام بأمور المال بل أن من الطبيعي أن يكون أكثر اهتمامًا من ألا يكون، ولكن «مستر نيتلي» فاته أن يقدر ما لعاطفة الحب القوية من أثر يتغلب على كل الدوافع الأخرى. إن «مستر نيتلي» لم يشهد مثل هذه العاطفة من تردد ومن ثم فهو بطبيعة الحال لا يقدر أثرها، ولكن «إمَّا» شاهدت الكثير منها، مما جعلها لا تشك في أنها سوف تتغلب على ما قد يقف في سبيلها من تردد قد توحي به الحكمة والتعقل، بل هي لم تكن تعتقد بأن «مستر ألتن» له من بعد النظر ما يتعدى الحد المعقول.
ولقد هدأت عندما رأت ما بدت عليه «هاريت» من هدوء وغبطة. إنها لم تعد إلى «هايبري» لتفكر في «مستر مارتن»، بل لتتحدث عن «مستر ألتن»، لقد قالت لها «مس ناش» شيئًا قصته عليها على الفور وهي في نشوتها، قالت أن مستر «برني» كان عند «مسز جدرد» ليعود طفلة مريضة، وأن «مس ناش» رأته فأخبرها بأنه بينما كان عائدًا بالأمس من كيتون بارك التقى بمستر «ألتن»، وأدهشه أن رآه متجهًا إلى لندن، وأن يعلم منه أنه ليس في نيته العودة قبل الغد، على الرغم من أنها كانت ليلة «نادي لعب الورق» التي لم يتخلف عنها مرة قبل ذلك، وأن مستر «بري» احتج عليه وقال له أنه لا يليق بأحسن اللاعبين أن يتغيب في هذا المناسبة، وحاول اغراءه لكي يؤجل رحلته يومًا واحدًا.
ولكنه لم ينجح في ذلك لأن «مستر ألتن» كان مصممًا على مواصلة السير، وأخبره بطريقة غير عادية، أنه ذاهب لقضاء حاجة ليس في الوجود ما يغريه على تأجيلها، وتحدث عن قيامه بعمل يحسد المرء عليه، وإنه يحمل معه شيئًا نفيسًا للغاية.
ولم يفهمه «مستر بري» تمامًا، ولكنه تأكد أنه لا بد وأن يكون في الأمر سيدة، بل لقد صارحه بذلك، واستولى على «مستر ألتن» الخجل وابتسم وقتها ثم سار ممتطيًا جواده في حيوية متدفقة.
لقد أخبرتها «مس ناش» بكل هذا، وقالت غير ذلك كلامًا كثيرًا عن «مستر ألتن». ثم قالت وهي تنظر إليها نظرةِ ذات معان: «إنها لا تدعِي بأنها فهمت

موضوع مهمته، ولكنها تعلم فقط بأن أية سيدة يفضلها مستر «ألتن» فهي في نظرها أسعد نساء العالم جميعًا، إذ لا سبيل إلى الشك في أنه ليس هناك من يماثل «مستر ألتن» في جماله وظرفه.

قد يتشاجر «مستر نيتلي» مع «إمَّا» ولكن لم يكن من المعقول أن تتشاجر «إمَّا» مع نفسها، فلقد بلغ استياؤه منها حدًا طالت معه غيبته عن «هارتفيلد» على غير عادته. وعندما التقيا، دلت نظراته الغاضبة على أنه لم يكن قد عفا عنها بعد، وأسفت لذلك ولكنها لم تندم على ما فعلت، بل على النقيض من ذلك دلت مظاهر الأمور في الأيام القليلة الأخيرة، على سلامة ما رسمته من خطط، مما زاد اعتزازها بها.

فقد وصلت الصورة سالمة في إطارها الجميل، عقب عودة «مستر ألتن» مباشرة، وما كادت تعلق فوق رف حجرة الجلوس العائلية حتى انتصب «مستر ألتن» واقفًا ليراها، وعبارات الإعجاب تنطلق من بين شفتيه في جمل غير مستكملة، وفي همسات خافتة، وهو ما كان منتظرًا منه، أما هاريت فقد تبلورت مشاعرها واستحالت إلى محبة متينة ثابتة تتفق مع ما سمحت بها عقليتها وشبابها. ورضيت «إمَّا» تمام الرضى بذلك لأن مستر «مارتن» لم تعد له في نفس «هاريت»، صورة إلا ما تفقده من موازنة تكون فيها كفته هي الكفة الراجحة.

ولم تكن آراء «إمَّا» في تثقيف صديقتها الصغيرة بالإكثار من القراءة النافعة والمحادثة المفيدة قد قطعت سوى مرحلتها الأولى، وكانت دائمًا تقف عند حد الرغبة في الاستزادة منها في اليوم التالي، فلقد كان الحديث أيسر من الدرس والمطالعة، وكان أشهى على نفسها أن تترك المجال لخيالها لكي يسبح ويعمل لمستقبل «هاريت» بدلًا من أن تشغل نفسها بزيادة مداركها أو تصرف اهتمامها إلى الحقائق الرصينة.

وكان سبيل «هاريت» الوحيد في ممارسة الأدب وتزويد عقلها بما يفيد في خريف العمر، هو جمع وكتابة كل أنواع الأحاجي التي تصادفها، في مجلد صغير رقيق من الورق المضغوط، عملته لها صديقتها وزينته بالرموز الدالة على الانتصار في الصيد والمباريات. وكان جمع مثل هذه الأحاجي على نطاق واسع عادة شائعة في ذلك العصر الأدبي، ولقد سطرت منها «مس ناش»، وهي المدرسة الأولى بمدرسة «مسز جدرد» ما لا يقل عن الثلاثمائة في هذا المجلد. وكانت «هاريت» وقد أخذت الفكرة عن «مس ناش» تأمل بمعاونة «مس وودهاوس» أن تزيد عليها. وساعدتها «إمَّا» على ذلك بابتكاراتها أحيانًا

وبما كانت تذكره منها أحيانًا أخرى، وبما كان لها من ذوق سليم دائمًا. ولما كانت «هاريت» تجيد الخط فقد كان من المنتظر أن يأتي عملها غاية في التنسيق والترتيب، شكلًا وكمًّا.
وكان اهتمام «مستر وودهاوس» بذلك العمل كبيرًا كاهتمام الفتاتين، وكثيرا ما حاول أن يتذكر شيئًا جديرًا بالتدوين، وكان من بين ما قاله: «كم من أحاجي محبوكة كانت لي في أيام صباي، وإني لأعجب لنفسي كيف لا أتذكرها الآن ولكني آمل أن أتذكرها على مر الأيام» - وكان يعقب على ذلك دائمًا بقوله: «كتبي جميلة ولكنها كالثلج جامدة». وتحدث في ذلك إلى صديقه «بري» ولكن «بري» لم يتذكر منها شيئًا كذلك، ومع ذلك فقد رغب مستر «وودهاوس» إلى صديقه أن يكون متيقظًا لما قد يصادفه منها، فقد كان «بري» كثير التنقل، واعتقد «وودهاوس» أنه قد يظفر بالكثير من هذه الأحاجي من الأماكن التي يرتادها.
ولم يكن من رأي «إمَّا» الاستعانة بأحد من أهالي «هايبري» عامة، ولم تستثن من ذلك سوى «مستر ألتن»، فقد كان الوحيد الذي طلبت معونته ورجته الإسهام بأي شيء يتذكره من الأحاجي المستملحة، وسرها أن تراه جادًا في مهمته، عظيم الاهتمام باستعادة ما يستطيعه منها إلى الذاكرة. وقد لاحظت عليه في الوقت نفسه أنه كان حريصًا غاية الحرص على ألا يفوه بكلمة لا تتسم بالشهامة، أو يقول ما لا ينطوي على إطراء للنساء. وقد كانتا مدينتين له بأحجيتين أو ثلاثة، كانت أكثر الأحاجي التي جمعت مراعاة للأدب.
وابتهج وعظم ابتهاجه عندما تذكر آخر الأمر الأحجية المشهورة، وأخذ يرويها في عطف وحنان:
أول أجزائي دليل الألم وعلى الثاني يقع الألم
وإن جُمع الجزءان كان البلسم للسِّقم
ولكن «إمَّا» أسفت أسفًا شديدًا وهي تعترف له بأنه سبق لهما تدوين تلك الأحجية في إحدى صفحات المجلد، ثم قالت:
«ولكن لماذا لا تكتب لنا شيئًا من عندك أنت يا «مستر ألتن»، فهذا هو الضمان الوحيد لجدته، وليس أسهل عليك من أن تقوم بهذا».
واعتذر قائلًا: «إنه لم يسبق لي كتابة شيء من ذلك طوال حياته، وأنه أكثر الناس غباء في هذه الناحية، وإنه يخشى ألا تكون مس وودهاوس… ». وتوقف لحظة ثم قال: «ولا «مس سمث»، على ما لهما من قدرة على الإيحاء، قادرين على إلهامه».
وجاء اليوم الثاني يحمل الدليل على قدرتهما على الإلهام فقد أقبل ليمكث لحظات قصيرة ويترك رقعة من الورق فوق المنضدة، وبها، على حد قوله، أحجية من أحد أصدقائه إلى فتاة يعجب بها، وإن كانت «إمَّا» تأكدت من أول وهلة أنها من وضعه هو.

ثم أرف يقول: «على إني لا أقدم هذه لتكون من بين ما تجمعه «مس سمث»، لأنها خاصة بصديقي، وليس من حقي أن أجعلها بحال عرضة لأنظار الناس، ولكن قد يروق لك مع ذلك أن تنظري إليها».

وأدركت «إمَّا» أن هذا الكلام موجه إليها أكثر مما كان موجهًا إلى «هاريت»، فقد كان يبدو عليه اضطراب شديد جعل مواجهته ل« إمَّا» أيسر عليه مما لو واجه صديقتها، وسكت برهة ثم انصرف.

وقالت «إمَّا» وهي تبتسم: «خذيها» - ودفعت بالورقة إلى «هاريت» وهي تقول: «إنها لك فخذي ما لك».

ولكن «هاريت» اعترتها رجفة فلم تستطع أن تمسها، ووجدت «إمَّا» نفسها، وهي من لم تحجم يومًا عن أن تكون البادئة، مضطرة إلى أن تفحص الورقة بنفسها، فإذا بها تقرأ فيها:

إلى الآنسة..

«أحجية»

أول مقاطعي دليل الثروة وأبهة الملك، وما عليه ملوك الأرض من ترف وهدوء بال. وثانيهما يأتي برأي آخر للإنسان، انظر إليه تجده المتوج فوق البحار. وإذا اجتمع المقطعان، فما أعجب انعكاس الآية، إذ يذهب ما يفخر به الإنسان من الحرية والسلطان، ويخر سيد الأرض والبحار عبدًا، ثم لا يكون الملك لغير السيدة الحسناء، وإن بديهتك بالكلمة حالًا ستجود، فهل تأتي الموافقة فيما تشعه العيون الناعسة من ضياء؟».

وألقت على الورقة نظرة وفكرت، وأدركت المعنى، ثم قرأتها مرة أخرى لتتأكد تمامًا من معنى السطور، ثم أعطتها ل «هاريت» وجلست تبتسم وهي مسرورة وتقول في نفسها، بينما راحت «هاريت» تجهد قريحتها لفك ما بالورقة من رموز في مزيج من الأمل والغباء: «هذا جميل جدًا يا مستر «ألتن» إنه جميل جدًا ولا شك!! لقد قرأت من الأحاجي ما هو أصعب من ذلك، إن أحجيتك تعنى كلمة «كورت شب» courtship، إنه تلميح جميل جدًا تستحق عليه الثناء، تريد أن تتحسس به الطريق، إنه كما لو كنت تريد، أن تقول في غير لبس أو غموض: «اسمحي لي يا «مس سمث» أن أطلب يدك، وأظهري بنظرة واحدة منك أنك توافقين على الأحجية وعلى خطب ودك».

فهل تأتي الموافقة بما تشع العيون الناعسة من ضياء؟

إنها «هاريت» بنفسها، والناعسة هي الكلمة التي تصف عينيها، وإن أدق ما ذكره من التعبير هو قوله:

«وإن بديهتك بالكلمة حالًا ستجود».

ها، بديهة «هاريت» المتوثبة!! هذا شيء حسن على أية حال ولا بد أن الرجل قد شغفه حبها حتى وصفها على هذا النحو. وددت لو أنك استفدت من هذا يا مستر «نيتلي» وظني أنك ستجد فيه ما يقنعك، وستجد نفسك مضطرًا إلى

الاعتراف بأنك أخطأت مرة في حياتك.. إنها أحجية ممتازة ولا شك، أحجية هادفة، ولا بد أن تصل الأمور حالًا إلى قول فصل».
واضطرت «إمَّا» إلى الكف عن الاسترسال في هذه الملاحظات المحببة إليها، على كثرة ما كانت تود الاسترسال فيها بسبب ما كانت توجهه إليها «هاريت» من أسئلة تنم عن لهفتها ودهشتها!: ماذا يمكن أن تكون
يا مس «وودهاوس»؟ وعلام تدل؟ ليس لدي عنها أية فكرة، وليس في استطاعتي أن أتكهن بما تعنيه، وماذا عساها أن تكون؟ حاولي أنت يا «مس وودهاوس» أن تعرفي ذلك، ساعديني فلست أجد شيئًا أشق عليّ من هذا، فهل هي كلمة «مملكة»؟ إني لأعجب من يكون هذا الصديق، ومن تكون هذه الفتاة؟ وهل تظنينها طيبة؟ وهل هي سيدة؟
«ثم لا يكون المسلك لغير السيدة الحسناء».
وهل يقصد بالكلمة الكوكب «نبتيون»؟.
«أنظر تراه المتوج فوق البحار».
هل يقصد بها «الحربة ذات الشِعب الثلاث؟»،.
هل هي عروس البحر؟ أم هي «سمك القرش؟»،.
ولكن لا، إن كلمة قرش ذات مقطع واحد، لا بد وأن تكون الأحجية مسبوكة غاية السبك، وإلا ما كان أتى بها. عجبًا يا مس «وودهاوس»!! هل تظنين أننا سنعرفها».
«عروس البحر والقرش»!! ما هذا الهراء؟ ما هذا الذي تفكرين فيه يا عزيزتي «هاريت»؟ وما الفائدة التي يجنيها من الاتيان إلينا بأحجية قام بها صديقه في وصف عروس البحر أو سمكة القرش؟ اعطني الورقة وأنصتي إليّ:
إلى الآنسة..
اقرئي يا «مس سمث»
«أول مقاطعي دليل الثروة وأبهة الملك وما عليه ملوك الأرض من ترف وهدوء بال».
إنها (كورت) (ومعناها بلاط الملك).
«وثانيهما يأتي برأي آخر للإنسان، أنظر إليه تجده المتوج فوق البحار»
إنها كلمة (شِبْ) (أي السفينة) وهي واضحة كل الوضوح. ثم يلي ذلك زبد الكلام:
«وكلها آه، إذا اجتمع الشطران فما أعجب انعكاس الآية، إذ يذهب ما يفخر به الإنسان من الحرية والسلطان ويخرّ سيد الأرض والبحر عبدًا، ثم لا يكون الملك لغير السيدة الحسناء» ما أصدق هذا المديح!! ويأتي بعد ذلك التطبيق، وأظنك يا عزيزتي «هاريت» لن تجدي في فهمه مشقة، اقرئيها بنفسك مرة أخرى وأنت هادئة، فما من شك في أنها كتبت لك ومن أجلك».
وانصاعت «هاريت» لهذا الإغراء السار على القراءة، ثم قرأت خاتمة السطور فالتهبت مشاعرها وغمرها السرور حتى عجزت عن الكلام، بل ولم تكن بها

حاجة إلى الكلام، فقد كان يكفيها الشعور، وتكلمت «إمَّا» نيابة عنها فقالت:
«إن لهذا المديح معنى خاصًا محددًا، حتى إني لا أشك مطلقًا فيما اعتزمه مستر «ألتن»، فأنت كعبته وهدفه وعما قريب ستضعين يدك على الدليل كله. لقد ظننت دائمًا أن هذا هو الذي سيكون حتمًا، وإنني لا يمكن أن أكون مخدوعة، وقد وضح الأمر الآن كل الوضوح، وتبين فكره واستقر رأيه على ما كنت أريده مذ عرفته، أجل يا «هاريت» لقد تمنيت كثيرًا منذ وقت طويل أن يحدث هذا الذي حدث، وإن كنت لا أستطيع أن أتبين إذا كان ارتباطي بمستر «ألتن» هو أعز ما تشتهيه النفس أم هو أكثر الأمور تمشيًا مع طبيعة الأشياء. على أن احتمال حدوثه ومناسبة حدوثه يتساويان مع ذلك، وإني لسعيدة جدًا، وأهنئك يا عزيزتي «هاريت» من كل جوارحي، فهو ارتباط تفخر أية امرأة بأنها كانت الباعث عليه. إنها صلة لا ينجم عنها إلا كل خير، وستظفرين فيها بكل ما تريدين من اعتبار واستقلال وبيت يليق بك وستكونين وسط أصدقائك المخلصين بجوار «هارتفيلد» وبجواري، ولسوف يدعم كل ذلك صداقتنا إلى الأبد. إنه ارتباط لن يحمر وجه أحدنا خجلا منه أبدًا».
وكان كل ما أمكن مس «هاريت» أن تنطق به هو التعانق المفعم بالحنان وهي تردد:
«عزيزتي «مس وودهاوس»، عزيزتي «مس وودهاوس»، فلما وصلا بعد ذلك إلى شيء أدنى إلى مراتب الحديث، تبينت صديقتها بجلاء ووضوح أنها كانت ترى وتحس، وتترقب، وتتذكر، كما كان ينبغي عليها، لقد بان اعترافها بتفوق مستر «ألتن» بوضوح.
وصاحت «هاريت» تقول أخيرًا: «إن ما تقولينه هو دائمًا عين الحق، ولذا فإني أظن وأعتقد وآمل أنه لا بد وأن يكون الأمر كذلك، ولولا هذا ما كنت أستطيع أن أتصور ما قد حدث، فهو فوق ما أستحق، وكيف لا، ومستر «ألتن» قادرعلى أن يتزوج بمن يريد، وقد أجمع الكل على أنه رجل ممتاز، ويكفي أن تفكري في تلك الأشعار الجزلة.
«إلى الآنسة..».
يا إلهي، ما أذكاه من رجل!! وهل هي حقيقة موجهة إليّ؟..
وأجابت «إمَّا» «إنها الحقيقة، فلا أنا بسائلة ولا بمستمعة لسؤال يوجه إليّ في ذلك. اقبلي رأيي في هذا الموضوع على عهدتي، إنها مقدمة لمسرحية جميلة وعنوان لأحد فصولها، وستتوالى الحقيقة بعد ذلك حالاً».
«إنه أحد الأشياء التي لم يكن أحد يصدقها، فمنذ شهر واحد لم يكن يخطر ببالي شيء من هذا، ولكن كثيرًا ما تحدث العجائب».
«عندما يتعارف «مستر ألتن» بمس «سمث» فلا بد أن تحدث العجائب؛ ومع ذلك فهو أمر عجيب فعلًا، فأن من المستغرب ومن غير المألوف حقًا أن الشيء المرغوب بهذا الوضوح وهذا الجلاء - مما يتطلب من الغير التدبير والترتيب - يتم ويأخذ طابعه الصحيح بهذه السرعة. فأنت ومستر «ألتن»

يجمعكما مركزكما المتشابه في الحياة، وظروفكما العائلية تقرب المسافة بينكما، وزواجكما سيكون شبيهًا بالزيجة التي تمت في «راندولز» - كأنما يتخلل الهواء في «هارتفيلد» شيء يوجه الحب الوجهة الصحيحة، ويبعث به في الاتجاه الذي يجب أن يسير فيه.

«ما كان قط طريق الحب الصادق أملس» ولو أنه كان لهارتفيلد طبعة خاصة بها لشكسبير، لكان خليقًا بأن يدرج فيها تعليق مستفيض عن هذا الفقرة.

«إني لأعجب كيف أحبني مستر «ألتن» وكيف اختارني من بين الناس جميعًا، أنا التي لم تعرفه، ولم يسبق لها أن كلمته في عيد الملاك ميخائيل!! هذا الذي يوصف بأنه أجمل الرجال، وبأنه رجل يتطلع إليه الناس كما يتطلعون إلى «مستر نيتلي»!! والكل يرجو صحبته، حتى أجمع الكل على أنه إن لم يكن باختياره لما تناول وجبة طعام واحدة بمفرده، وأن ما يدعى إليه من الولائم أسبوعيًا أكثر من أيام الأسبوع عددًا. ثم كم هو ممتاز في أعمال الكنيسة كذلك!!، إن «مس ناش» قد كتبت كل ما كان يعظ به الناس منذ أن قدم إلى «هايبري» رباه!! أني لأعجب كيف أني كنت قليلة الإدراك عندما أعود بذاكرتي إلى أول يوم رأيته فيه، لقد أسرعت أنا وراهبان إلى الحجرة الأمامية، واسترقنا النظر إليه من خلال الستار، عندما سمعنا أنه سيمر، ثم أقبلت «مس ناش» فقرعتنا وحملتنا على الانصراف، ثم مكثت هي لترى وتنظر، ولكنها ما لبثت أن نادتني لأعود، وجعلتني أنظر إليها، وكان هذا عطفًا جميلًا منها، وكم كان رأينا فيه بأنه رجل حسن الطبع جميل الخلقة وهو يتأبط ذراع مستر «كول».

«إن هذا الرباط لا بد أن يرتاح له أصدقاؤك مهما كانوا ومهما كانت مكانتهم، بشرط ألا يعوزهم حسن الإدراك على الأقل، فليس علينا أن نكترث بالأغبياء. فإذا كان أصدقاؤك يريدون لك زواجًا سعيدًا، فها هو الرجل الذي له من مكارم الأخلاق ما يكفل ذلك، وإذا كانوا يريدون لك استقرارًا في تفس المكان وبين نفس الجماعة التي اختاروها لك، فهنا يمكن أن يتم لهم ما يريدون وإذا كان غرضهم على حد القول المأثور، أن يكون زواجك زواجًا طيبًا، فهنا الثروة المريحة والمنزل المحترم والحياة الباسمة التي لا بد أن ترضيهم».

«أجل وهو عين الحقيقة، وما ألطف حديثك، إني لأحب أن أستمع إليك، إنك تدركين كل شيء، إنك مثل «مستر ألتن» في الذكاء. أنظري إلى أحجيته، فلو أنني بقيت سنة كاملة أدرس وأبحث لما أمكنني أن أعمل مثلها».

«ظننت من طريقة اعتذاره بالأمس، إنه أراد أن يجرب قدرته».

«وأنا أظن أن هذا أحسن ماقرأته من الأحاجي بلا استثناء».

«الحق أني لم أقرأ أحجية أوفى منها بالغرض».

«وهي في طولها لا تكاد تقل عما جمعناه من قبل».

«أنا لا أعتبر طولها شيئًا يرفع من قيمتها، ومثل هذه الأشياء لا تكون عادة قصيرة».

وركزت «هاريت» أنظارها على السطور، فشغلها ذلك عن أن تسمع شيئًا، فقد كان تفكيرها منصرفًا إلى المقارنات التي ترضي نفسها. وقالت بعد ذلك وقد احمرت وجنتاها:

«فرق بين أن يكون للإنسان علم بتصريف الأمور بصفة عامة كما يفعل سائر الناس، حتى إذا عنّ له أن يقول شيئًا جلس وكتب ما يجب أن يقال في إيجاز، وبين أن يكتب الإنسان ما يريد شعرًا وأحاجي كهذه الأحجية».

وما كانت «إمَّا» لترغب في أكثر من هذا رفضًا لألسلوب «مارتن» المنثور.

وواصلت «هاريت» حديثها فقالت: «ما أملح تلك السطور ولا سيما السطرين الأخيرين!! ولكن كيف يتأتى لي أن أرد الورقة، أو أن أقول بأني فهمت الأحجية، وكيف يكون تصرفنا يا مس «وودهاوس» في هذه الورقة؟».

«أتركي هذا لي ولا تفعلي شيئًا، وسيحضر هنا في هذا المساء بالتأكيد وسأردها إليه، ونتبادل بعض المهاترات والعبارات السطحية دون تورط منك، وثقي بأنه سيحين الوقت الذي تختاره عيناك الناعستان لكي تشعا ما فيهما من ضياء».

«إنه لشيء يؤسف له يا مس «وودهاوس» ألا يؤذن لي بتدوين هذه الأحجية الجميلة في مجلدي، ويقينًا أني لم أحصل على أحجية في نصف جودتها».

«احذفي السطرين الأخيرين، وليس هناك ما يمنعك من تدوينها في مجلدك».

«آه، ولكن هذين السطرين..».

«هما أحسن ما فيها، هذا مسلم به ولكنهما لمتعتك فقط فاحتفظي بهما للمتعة الخاصة، ولن تقل جودتهما لأنك اقتطعتيهما، فلا المعنى يتغير ولا السجع يتأثر، فاحذفي السطرين الأخيرين، ولن تصبح الأحجية بعد ذلك خاصة بأحد، وما تبقى منها سيكون أحجية جميلة، ونبيلة وخليقة بأن تدرج في أية مجموعة، وثقي بأنه لن يرضيه أن يرى استخفافًا بأحجيته، وهي أفضل عنده من حبه، لأن الشاعر الذي يحب، لا بد من تشجيعه في الناحيتين، ناحية حبه وناحية شعره، أو يصرف النظر عن كليهما، أعطني المجلد وسأدون الأحجية بنفسي ولن يكون عليك لوم أو تثريب في ذلك».

وأذعنت «هاريت» رغم أن عقلها كان يعارض تقطيع أوصال أحجبتها، رغبة منها في ألا تعرض صديقتها حبها على الملأ فهو أغلى من أن يذاع على الناس.

وقالت: «لن أدع ذلك المجلد يخرج من بين يدي».

وأجابتها «إمَّا» قائلة: «هذا جميل جدًا، وهو شعور حي صادر من القلب، وكلما بقي ازداد سروري، ولكن ها هو أبي قادم، وأظنك لا تعارضي في أن أقرأ له الأحجية لأنه سيسر بها كثيرًا، وهو يحب مثل هذه الأشياء، خاصة ما كان فيه إطراء للمرأة، فهو من أنبل الناس وأرقهم حاشية نحونا جميعًا، ويجب أن تأذني لي بقراءتها له».

وبدأ الوجوم على وجه «هاريت» فقالت «إمَّا»:

«عزيزتي «هاريت» يجب ألا تكوني مرهفة الإحساس من ناحية تلك الأحجية، لأنك ستكشفين عن مشاعرك بطريقة غير لائقة إذا كنت

مرهفة الحس أو متسرعة، أو بدا منك ما يدل على أنك تحمّلين الأحجية من المعاني أكثر مما تحتمل، أو حتى تحملينها كل ما فيها من المعاني. لا تجعلي لمثل هذا النزر اليسير من قلائد الأعجاب سلطانًا عليك، فلو أنه كان يروم السرية، لما ترك الورقة وأنا بجوارك، ولكنه رأى أن يدفع بها نحوي لتكون أقرب إليّ. هيا لا تجعلينا نعير هذا الموضوع اهتمامنا، فإن له من الشجاعة ما فيه الكفاية ليتقدم من غير أن نبذل عصارة المهج على هذه الأحجية».

«لا، لا، وأرجو ألا أجعل نفسي أضحوكة بسببها، إفعلي ما يحلو لك».

ودخل مستر «وودهاوس» ولم يلبث أن أثار الموضوع مرة ثانية فأعاد السؤال الذي اعتاده قال:

«أجل عزيزتي، كيف يسير العمل في مجلدكما؟ هل من جديد؟».

«نعم يا والدي، ولدينا ما سنقرأه عليك وهو شيء جديد حقًا، فلقد عثرنا هذا الصباح على ورقة فوق المائدة (ألقت بها جنية فيما أظن)، تحتوي على أحجية لطيفة للغاية، وقد فرغنا من تدوينها حالًا»، ثم قرأتها عليه في تؤدة ووضوح كرغبته في أي شيء يقرأ عليه، وقرأتها مرتين أو ثلاثًا وهي توضح كل جزء تقرؤه، وقد سر لذلك كثيرًا، وأعجبه منها بصفة خاصة، كما تنبأت، نهاية الأحجية وما فيها من إشادة بالمرأة.

«أجل إن هذا هو عين الصواب ولا شك، فلقد صيغت في عبارة طيبة صادقة: «أيتها السيدة الحسناء» إنها يا عزيزتي أحجية لطيفة للغاية ومن السهل أن أتنبأ بالجنية التي أحضرتها، فما من أحد سواك يا «إمَّا» قادر على كتابة شيء لطيف كهذا».

وطأطات «إمَّا» رأسها وابتسمت وفكر أبوها هنيهة ثم تنهد في حنان واستطرد يقول:

«لقد كانت أمك العزيزة ماهرة في كل هذه الأشياء، ليتني كان لي ولو ذاكرتها القوية!! فأنا لا أتذكر شيئًا حتى ولا تلك الأحجية التي سمعيتني أذكرها، ولا أتذكر منها سوى المقطوعة الأولى، مع أن لها مقطوعات عديدة.

كيتي الجميلة مثلجة ولهيبها كم أتقيه
ولقد طلبت مساعدة من خادع لا أرتجيه
وغدوت أخشى قربه وبكل روحي أتقيه
إذ كان قبلًا مفسدًا لخطبتي، فالشر فيه

هذا كل ما أتذكره منها، ولكن كلها مليئة بعبارات ماهرة، ولكني اذكر يا عزيزتي أني قلت إنك حصلت عليها».

«نعم يا والدي وهي مدونة في صفحتنا الثانية، وقد نقلناها عن المقتطفات المستملحة» من وضع جاريك كما تعلم».

«أجل، هذا صحيح، وبودي لو كنت قادرًا على أن أتذكر الكثير منها».

«كيتي الجميلة مثلجة»

إن هذا الاسم يذكرني «بإيزابلا» المسكينة، فلقد كانت على وشك أن يطلق عليها اسم «كاترين» تيمنًا باسم جدتها، وآمل أن تكون معنا في الأسبوع القادم، فهل فكرت يا عزيزتي أين تكون إقامتها، وفي أية حجرة سينام الأطفال؟
«أجل، ستكون في حجرتها طبعًا، وهي الحجرة المخصصة لها دائمًا وهناك حجرة الحضانة، وهي للأطفال كما هي العادة، ثم لماذا يكون هناك أي تغيير؟»
«لست أدري يا عزيزتي، ولكنها لم تأت هنا منذ فترة طويلة، منذ عيد الميلاد الماضي، حيث قضت معنا أيامًا قليلة، وأن اشتغال مستر «جون نيتلي» بالمحاماة يسبب تعبًا كبيرًا لها، كم هي مسكينة «إيزابلا»!!.
إننا جميعًا نشعر بالألم لبعدها عنا، ثم ما أشد حزنها عندما تأتي ولا ترى «مس تيلور» هنا».
«سوف لا تدهش من ذلك يا والدي أبدًا».
«لست واثقًا من ذلك يا عزيزتي، وأؤكد لك أني كنت مشدوهًا لما سمعت لأول مرة بأنها ستتزوج».
لابد من دعوة «مستر وستن» و «مسز وستن» لتناول العشاء معنا عندما تكون «إيزابلا» هنا».
«نعم يا عزيزتي، إن كان هناك متسع من الوقت (قالها بصوت فيه حسرة): إنها ستأتي لتقيم معنا أسبوعًا واحدًا لا أكثر ولن يكون هناك وقت لنعمل شيئًا».

«من سوء الحظ ألا يمكثوا طويلًا، ولكنها الضرورة التي قضت بذلك، إذ لا بد لمستر «جون نيتلي» من أن يعود إلى المدينة في الثامن والعشرين، ويجب أن نحمد الله يا والدي مع ذلك على أن كل ما لديهم من وقت يقضونه في الريف سيكون مخصصًا لنا، وأنهم لن يقتطعوا يومين أو ثلاثة ليقضوها في الرهبانية، وقد وعد «مستر نيتلي» بالتنحي عن حقه عليهم في عيد الميلاد هذا، على الرغم من أن بعدهم عنه كان أطول من بعدهم عنا».
«إنه ليكون أمرًا شاقًا جدًا يا عزيزتي لو أن «إيزابلا» المسكينة ذهبت إلى أي مكان غير هارتفيلد».
ذلك أن «مستر وودهاوس» لم يكن يعترف لمستر «نيتلي» بأي حقوق على نحو أخيه، أو بأي حقوق لأحد على «إيزابلا» ألا أن تكون الحقوق له هو وحده، وجلس وهو يفكر فترة قصيرة ثم قال:
«ولكني لا أرى لماذا تكون«إيزابلا» المسكينة مضطرة إلى العودة بهذه السرعة رغم أنه هو مضطر إلى هذا، ومن رأيي يا «إمَّا» أن أحاول أن أزين لها البقاء معنا وقتًا أطول فقد ترتاح هي والأطفال إذا أطالوا بقاءهم عندنا».
«إن هذا يا والدي هو ما عجزت دائمًا عن تحقيقه، ولا أعتقد أنك سوف تنجح فيه أبدًا، لأن «إيزابلا» لا تحتمل التخلف عن زوجها».

وكانت هذه حقيقة لا جدال فيها، ولم يسع مستر «وودهاوس» إلا أن يتنهد عندما لم ير من ذلك بدًا، فلما رأت «إمَّا» أن فكرة تعلق «إيزابلا» بزوجها قد أثرت في نفسيته، عمدت في الحال إلى تحويل مجرى الحديث وجهة أخرى قد ترفع من حيويته فقالت:

«لابد أن «هاريت» ستقيم معنا على قدر استطاعتها عندما تكون أختي وزوجها هنا وأعتقد أنها ستجد في الأطفال كل ما يسرها. إننا فخورون بالأطفال يا والدي أليس كذلك» ولست أدري أيهما ستراه «هاريت» أكثر جمالًا، «هنري» أم «جون»؟».

«نعم لست أدري من ستحكم عليه بأنه أكثر جمالًا، ما أكثر فرحة الأعزاء الصغار بالمجيء، إنهما مغرمان جدًا بالحضور إلى هارتفيلد يا «هاريت».

«إنهما كما تقول يا سيدي، ومن ذا الذي لا يحب المجيء إليها».

«إن «هنري» ولد لطيف، ولكن «جون» أشبه بأمه كثيرًا وهنري أكبرهما سنًا، وقد سمى باسمي وليس باسم أبيه. أما «جون» وهو ثانيهما، فقد سمي باسم والده وأعتقد أن البعض استولت عليهم الدهشة عندما رأوا أن الأكبر لا يسمى باسم أبيه، ولكن «إيزابلا» أرادت أن تمنحه اسم «هنري» فكان ذلك جميلًا جدًا منها وهو لا شك ولد على جانب كبير من الذكاء، على أن كليهما لا مع ذلك ذكي بشكل ملحوظ، ولهما نزعات كثيرة لطيفة، فهما يأتيان ويقفان بجوار مقعدي ويقولان: «هل تعطينا يا جدي قطعة من الخيط؟. وقد طلب مني «هنري» مرة أن أعطيه سكينًا، ولكني أخبرته بأن السكاكين إنما صنعت للأجداد وأظن أن أباهما يقسو عليهما في معظم الأوقات».

وقالت «إمَّا»: «إنه يبدو لك قاسيًا عليهما، لأنك مفرط في رقة طبعك، ولكنك لو قارنته بغيره من الأباء فلن تجده قاسيًا. إنه يريد من أولاده نشاطًا وخشونة، فإذا انحرفوا، قال لهم قولًا لاذعًا من وقت إلى آخر، ولكنه مع ذلك والد محب، نعم، إن مستر «جون نيتلي» والد عطوف ولا شك، والأطفال جميعًا يحبونه».

ثم يدخل عمهما ويطوح بهما عاليًا نحو السقف بطريقة تثير الفزع».

«ولكنهما يا والدي يحبان ذلك، وليس هناك ما هو أحب إليهما من هذا، وإنهما ليجدان في هذا كل متعة ولولا أن عمهما وضع لهما قاعدة بحيث يأخذ كل منهما دوره، لما تخلى البادئ بدوره عن مكانه للآخر إطلاقًا».

«على أية حال، إنني لا استطيع أن أدرك لذلك معنى».

«هذا هو حالنا جميعًا يا والدي، إن نصف الناس لا يفهمون ما يسعد النصف الآخر».

فلما تقدم النهار، وكانت الفتاتان على وشك أن تفترقا استعدادًا لوجبة الغذاء العادية في الساعة الرابعة بعد ظهر كل يوم، إذا ببطل الأحجية الفريدة يدخل عليهما. واستدارت «هاريت» في مكانها. أما «إمَّا» فقد استقبلته بابتسامتها الأليفة وهي تلاحظ بنظراتها الخاطفة ما تنبئ به عيناه من أنه قد أقدم على شيء، وأنه قد ألقى بزهر النرد، وتخيلت وقتها أنه إنما أتى ليرى ماذا كانت

نتيجة ما أقدم عليه، أما هو فقد تظاهر بأنه أنما أتى ليسأل عما إذا كان يمكنه التخلف عن الحضور إلى حفل مستر «وودهاوس»، أو أن هناك ثمة ضرورة لوجوده في «هارتفيلد»، فإن كان هذا فلا يسعه إلا الموافقة والتخلي عن كل ما عداه في سبيل حضوره، فإذا لم يكن هذا، فأن مستر «كول» قد ألح عليه ليتناول الغذاء معه وأنه وعده بالحضور وعدًا مشروطًا».

وشكرته «إمَّا» وهي تقول إنها لا يمكن أن تسمح لنفسها بأن تخيب رجاء صديقة من أجل حفلهم، وأن هناك من لاعبي الورق ما يكفي حاجة أبيها في الأمسية. وعاد يلح وعادت ترفض، وكان بعد ذلك على وشك التحية والانصراف عندما أخذت الورقة من فوق المائدة وأعادتها إليه وهي تقول:

«ها هي الأحجية التي تفضلت بتركها معنا، وشكرًا لك على السماح لنا برؤيتها، لقد أعجبنا بها كل الإعجاب، حتى لقد جرؤت على تدوينها ضمن ما تقوم مس «سمث» بجمعه، وأرجو ألا يأخذ صديقك هذا علينا ويظنه خرقًا منا. وبالطبع لم أدون أكثر من الثمانية أسطر الأولى».

ولم يدر «مستر ألتن» ماذا يقول، ونظر إليها نظرة ما بين الشك والارتباك، ثم قال شيئًا عن الشرف، وعاد ينظر إلى كل من «إمَّا» و«هاريت» ثم وقع نظره على المجلد مفتوحًا أمامه، فرفعه وأخذ يفحصه بإمعان. ورأت «إمَّا» أن تتحاشى هذه اللحظة الحرجة، فابتسمت وقالت: «اعتذر لصديقك نيابة عني ولكن أحجية جميلة لا يجوز أن يختص بها واحد أو اثنان من الناس، وليتأكد ما دام يكتب بهذا الشهامة فسوف يلقى قبولًا عند جميع النساء».

وأجابها «مستر ألتن»: «لن أتردد في أن أقول (قالها في كثير من التردد)، وخاصة إذا كان صديقي يشعر بمثل ما أشعر به، في أنني لا يخامرني أدنى شك في أنه لو علم بأن قصيدته القصيرة قد نالت هذا الشرف الذي أراه (ونظر إلى المجلد مرة أخرى ثم أعاده فوق المائدة)، فإنه لا بد أن يعتبر ذلك اللحظة الخالدة التي يحق له أن يتيه بها فخارًا طوال حياته».

وما كاد ينتهي من الكلام، حتى بارح المكان مسرعًا، ولم تستطع «إمَّا» أن تستوعب ما قاله على الفور لأنه رغم ما كان له من حميد الخصال، كان يتكلم بطريقة استعراضية كادت تثير في نفس «إمَّا» ميلًا شديدًا إلى الضحك، فجرت كي تفرج عن نفسها بالضحك، وتركت «هاريت» لتنعم بأزكى وأعلى درجات السرور.

لم تكن حالة الطقس بعد لتمنع الفتاتين من الرياضة بانتظام رغم أن شهر ديسمبر كان قد انتصف. وأرادت «إمَّا» أن تخرج في الصباح لتقوم بزيارة خيرية لأسرة فقيرة تعاني من المرض، وتعيش على مسافة قصيرة وراء مشارف «هايبري». وكان الطريق إلى كوخ الأسرة المنعزل في آخر منعطف الأبرشية، وهو منعطف يخرج متعامدًا من الطريق الرئيسي العريض كثير المنحنيات. ومن هذا نستنتج أن منزل مستر «ألتن» المبارك يقع في ذلك المنعطف. وكان عليهما أن تمرا في بداية المنعطف على عدد من المساكن المتواضعة، ثم تسيرا مسافة تقرب من ربع الميل قبل أن تريا مسكن راعي الأبرشية قائمًا، وهو منزل قديم وليس على درجة كبيرة من الجمال، وأقرب ما يكون على الطريق نفسه، ولم يكن لموقعه ميزة تميزه وأن كان مالكه الحالي قد جدده وزخرفه كثيرًا، وفي ظرف كهذا لم يكن بوسع الصديقتين ألا أن تتمهلا في مشيتهما وأن تتطلعا إلى المنزل بعين فاحصة. وأبدت «إمَّا» ملاحظة.

قالت:

«ها هو وستذهبين يومًا ما بمجلد الأحاجي إليه».

وردت «هاريت»: «ما أحسنه منزلًا!! وما أجمله!! وها هي الستائر الزرقاء التي تعجب بها «مس ناش» كثيرًا».

قالت «إمَّا»: «إني لا أسلك هذا الطريق كثيرًا في هذه الأيام، ولكني سأجد بعد اليوم ما يغريني على أن أسلكه كثيرًا، وسوف أعرف تدريجًا كل السياجات والبوابات والمناقع، والأشجار التي اجتثت أغصانها في هذا القطاع من «هايبري».

واكتشفت «إمَّا» أن «هاريت» لم يسبق لها أن دخلت مسكن راعي الأبرشية، وأنها كانت تتوق كثيرًا إلى معرفته من الداخل، وفكرت فيما كان يبدو عليها من لهفة على ذلك، واتخذت من هذه اللهفة برهانًا جديدًا على الحب إضافته إلى ما كان يراه «مستر ألتن» في «هاريت» من سرعة البديهة قالت:

«وددت لو أننا وجدنا طريقة للدخول، ولكني لا أجد في ذهني عذرًا مقبولًا لذلك، وليس هناك خادم أسأله عمن تكون مديرة البيت، كذلك ليست معي رسالة من أبي اتخذها ذريعة».

وجعلت تفكر دون أن تهتدي إلى شيء، ومضت دقائق قليلة والسكون يخيم عليهما، ثم بدأت «هاريت» الحديث مرة أخرى.

«إن من بواعث دهشتي يا «مس وودهاوس» أنك تعافين الزواج وتحرضين عنه وأنت بهذه الجاذبية».

وضحكت «إمَّا» وقالت ترد عليها:

«إن كوني جذابة يا «هاريت» لا يكفي لأن يغريني على الزواج، إذ لا بد أن أجد جاذبية في الآخرين كذلك أو في واحد آخر على الأقل. إنني لا أرفض الزواج في الوقت الحاضر فحسب، بل لا تراودني رغبة أن أتزوج إطلاقًا».

«هذا ما تقولينه، ولكن هذا ما يصعب عليّ تصديقه».

«لن يغريني على الزواج إلا أن أرى شخصًا يتفوق على أي رجل ممن سبقت لي معرفتهم. إن «مستر ألتن» (وقد عادت تستجمع نفسها) خارج نطاق البحث، ثم إنني لا أود أن أرى شخصًا تتوافر فيه هذه الصفات، وأفضل ألا يوجد من يمكنه إغرائي، إذ لن يكون وضعي بأحسن مما أنا عليه، ولو أنه قدر لي أن أتزوج فلا بد أني سأندم على ذلك».

«غريب!! إنه شيء غريب أن أسمع مثل هذا الكلام من سيدة».

«لست أجد في نفسي ما يغريني على الزواج مما يغري سائر النساء. نعم قد يتغير الوضع إذا أنا أحببت، ولكني لم أحب قبل الآن إطلاقًا. فالحب ليس مزاجي ولا هو طبيعتي. ولست أظن أنني سأحب يومًا. بل أعتقد أنني أكون معتوهة لو أنني غيرت وضعي الحالي دون أن أحب، فلست في حاجة إلى المال، ولا إلى العمل، ولا إلى الشهرة، وأعتقد عددًا قليلًا من المتزوجات من لهن في بيوت أزواجهن مثل ما لي في «هارتفيلد» من سلطة في المنزل، ولن أنتظر أن ألقى من أي رجل ما ألقاه في بيت أبي من الاهتمام والرعاية والصدارة والإيمان بأن كل ما أقوله هو الصواب».

«ولكنك ستصبحين بذلك آخر الأمر عانسًا مثل «مس بيتس»».

«إن الصورة كما تعرضينها يا «هاريت» رهيبة، ولو فكرت في أني سأكون يومًا ما مثل مس «بيتس» في سذاجتها، واستسلامها، وابتسامتها، وطريقة كلامها، وعدم قدرتها على التمييز بين الأشياء، وتزمتها، وسرد كل شيء يتصل بمن حولها، لتزوجت غدًا، ولكني أسر بأني واثقة بأنه ليس بيني وبينها شبه واحد إلا أن كلينا غير متزوج».

«ولكنك مع هذا ستكونين عانسًا، وهذا شيء رهيب».

«لا عليك من هذا يا «هاريت» فلن أكون عانسًا فقيرة، لأن الفقر وحده هو الذي يجعل العزوبة في عيون الناس شيئًا محتقرًا، فالسيدة العزبة ذات المورد الضئيل تكون عانسًا ممقوتة تبعث على السخرية، وتكون ألعوبة البنات والصبية، ولكن غير المتزوجة إذا كانت ثرية، تكون دائمًا موقرة. وليس في هذا التميز حظٌّ من وفاء الناس، أو من حسن إدراكهم كما يبدو لأول وهلة، إنما المورد الضئيل أدنى إلى أن يكون سببًا في قصر العقل وسوء الطباع. وأولئك

الذين يعيشون على الكفاف، والذين قد يضطرون إلى العيش وسط جماعة قليلة العدد وعادة ذات مستوى متواضع، قد يقصر إدراكهم، وتكثر همومهم. على أن هذا لا ينطبق على «مس بيتس». وكل ما لا يروقني فيها أنها أطيب قلبًا وأكثر سذاجة مما يتفق وطبيعتي، أما بالنسبة للناس عامة، فهي تتفق مع مشاربهم على الرغم من فقرها وعدم زواجها. فمما لا شك فيه أن الفقر لم يضيق من عقليتها، وأنا واثقة بأنه لو كان لها من حطام الدنيا شلن واحد، فلن يبعد عليها أن تضحي بنصفه، ثم ما من أحد يخشى منها سوءًا، وهذا شيء يجذب قلوب الناس إليها».

«عجبي!! ولكن ماذا عسى أن تفعلي؟ وما الذي ستفعلين به لنفسك عندما تتقدم بك السن؟».

«لو كانت نفسي كما أعرفها يا «هاريت» فأن لي عقلًا نشيطًا ودؤوبًا على التفكير، كما أن لي موارد كثيرة أعتمد عليها، ولست أرى لماذا أحتاج إلى عمل وأنا في الأربعين أو الخمسين، أكثر مما أحتاج إليه وأنا في الواحدة والعشرين، وأن ما تؤديه امرأة من أعمال يدوية أو نظرية أو عقلية، سيكون بوسعي أداؤه وقتئذ على نحو ما أؤديه الآن، أو مع اختلاف يسير. فإذا أنا قللت من الرسم سأكثر من القراءة، وإذا أنا تخليت عن الموسيقى، سأحب صناعة السجاد. أما النواحي التي تستهوي النفوس، والمسائل العاطفية التي تولد عقدة نقص وتؤدي إلى شر يعمل الجميع على تجنبه إذا لم يتزوجوا، فأني سوف أكون سعيدة بوجودي مع أطفال شقيقتي الذين أحب كل الحب أن أرعاهم، وهم قد يزدادون عددًا حتى يهيئوا لي ما قد تتوق إليه نفسي في خريف الحياة، وسوف أجد فيهم الكفاية من الآمال والمخاوف. وعلى الرغم من أنه لن يكون حبي لأحدهم كحب الأم لابنها، فإن هذا يتفق وما أنشده من راحة وأفضل عندي من عاطفة أكثر حرارة ولكنها أقل تبصرًا. أهلًا بأبناء وبنات أختي!! ولسوف يكون معي في معظم الأحيان واحدة على الأقل من بنات أختي».

«أتعرفين ابنة أخت «مس بيتس»؟ لا بد أنك شاهدتيها مائة مرة، ولكن هل لك بها صداقة؟».

«أجل، ونحن دائمًا نجد أنفسنا مضطرين، إلى التعارف كلما جاءت إلى «هايبري» ولا يفوتني أن أذكر بهذه المناسبة، أنها بالذات تكفي لأن تجعل الإنسان يتخلى عن كل غرور يساوره عن ابنة الأخت، اللهم احفظني من أن أضايق الناس بالتحدث عن أطفال «مستر نيتلي» نصف ما تضايقهم «مس بيتس» بالحديث عن «جين فيرفاكس». فلقد سئمت حتى ذكر اسم «جين فيرفاكس». إن كل خطاب يصل منها يقرأ أربعين مرة، وتحياتها وسلاماتها إلى الأصدقاء تبلغ إليهم المرة بعد المرة، وإن هي أرسلت لخالتها أنموذجًا لميدعة (مريلة) أو نسجت رباطًا لجورب جدتها، فإنك لا تسمعين طيلة الشهر إلا الحديث عن ذلك. إني أرجو «لجين فيرفاكس» كل خير، ولكنها ترهقني حتى توشك أن تخمد أنفاسي».

وكانا قد اقتربا في ذلك الوقت من الكوخ، فعدلا عما تلهوان به من حديث تافه.
لقد كانت «إمَّا» عطوفة للغاية، تولي الفقراء الرعاية، وتشملهم بحنانها، وتسدي إليهم النصح، وتجود عليهم بمالها، وتفسح لهم صدرها، كانت عليمة بأحوالهم، متغاضية عن جهلهم وغواياته، ولا تنتظر ممن لم يفدهم التعليم كثيرًا أن يتصفوا بأعلى مراتب الأحاسيس العاطفية، تنفذ إلى صميم متاعبهم مدفوعة إلى ذلك بروح التعاطف، وتقدم لهم العون عن حكمة وطيب خاطر، ومن ثم فقد قامت بزيارتها لهذه الأسرة التي انتابها المرض تدفعها الرغبة في مواجهة المرض والفقر مجتمعين. وبعد أن مكثت هناك وقتًا يتيح لها التخفيف من متاعب هذه الأسرة ويسمح لها بإسداء النصيحة، غادرت الكوخ وقد ترك المنظر في نفسها أثرًا جعلها تقول لهاريت وهما تسيران.
«تلك هي المناظر التي يستفيد منها الإنسان يا «هاريت»، وكل ما عداها يعد شيئًا تافهًا. إني أشعر الآن وكأني لن أقوى على التفكير في غير هؤلاء البؤساء حتى آخر النهار، ومع ذلك فمن ذا الذي يستطيع أن يقول متى يمحى أثر ما رأيت من فكري؟».
وردت «هاريت»: «ما أصدق ما تقولين، وما أبأسهم من مخلوقات، إن المرء لا يسعه إلا أن يفكر فيهم».
واستطردت «إمَّا» تقول وهي تتخطى السياج المنخفض وتمر فوق الطريق المتأرجح الذي ينتهي عند آخر الممر المنحدر الضيق عبر حديقة الكوخ حتى وصل بهما إلى المنعطف ثانية:
«الحق إني لا أظن أن هذا الأثر سيمحى سريعًا، بل أغلب ظني أنه لن يمحى أبدًا». ثم توقفت لتلقي نظرة أخرى على مظاهر البؤس التي تخيم على المكان من الخارج وتستعيد ما رأته بداخله مما هو أمرّ وأدهى.
وقالت رفيقتها: «لا، لا يا عزيزتي».
وواصلتا السير، وانحنى المنعطف بهما قليلًا، ثم سارتا حتى اجتازتا هذه الانحناءة، فإذا بهما تريان «مستر ألتن» فجأة، وكان قريبًا منهما بحيث لم يسمح قربه ل «إمَّا» بأكثر من أن تقول:
«ها نحن وجهًا لوجه أمام اختبار عسير لسلامة تفكيرنا يا «هاريت»، ثم استطردت تقول وهي تبتسم: «أجل، وآمل أن تقريني على أن العطف إذا جلب راحة للبؤساء وطرح عن كواهلهم الألم، فقد أتى ولا ريب بكل ما له قيمة في الحياة، وأننا إذا شعرنا نحو التعساء بقدر كاف من العطف يحملنا على بذل كل ما في وسعنا من أجلهم، إن ما يتبقى بحد ذلك لا يعدو أن يكون حنانًا أجوف لن يلحقنا منه إلا الألم».
ولم تكد «هاريت» تجيب بقولها: «أجل يا عزيزتي» حتى كان الرجل معهما. وكان أول موضوع تناولوه بالحديث عند المقابلة مطالب هذه الأسرة البائسة ومتاعبها. فلقد كان في طريقه إلى زيارتها، ولكنه رأى الآن أن يرجئ هذه

الزيارة ومع ذلك فقد تناول حديثهم بحثًا شيقًا عما يمكن عمله وما يجب عمله من أجلها، ثم إذا بمستر «ألتن» يستدير ليسير معهما.

وقالت «إمَّا» في نفسها، إنه لشيء يزيد من حبهما لبعضهما أن يتلاقيا في مثل هذه المهمة وفي مشروع خيري كهذا، ولن أدهش إذا أدى ذلك إلى إعلان خطبتهما، بل لولا أنني هنا، لكان إعلانها واقعًا لا محالة. كم كنت أود أن أكون الآن في جهة أخرى».

ورغبة منها في الابتعاد عنهما ما وسعها البعد، لا تلبث أن انحرفت بنفسها في طريق ضيق يعلو قليلًا على أحد جانبي المنعطف وتركتهما يسيران سويًا في الطريق العام. ولكنها ما كادت تبتعد عنهما دقيقتين حتى وجدت «هاريت» بحكم ما اعتادته من محاكاة وعدم اعتماد على النفس تصعد لتكون معها، وأنهما عما قليل سيكونان في أثرها. وما كان ذلك بالشيء الذي ترتضيه نفسها، فتوقفت فورًا عن المسير بحجة عمل بعض التغيير في رباط حذائها، وانحنت حتى سدت الطريق عليهما ثم رجتهما بأن يتكرما بمواصلة السير، على أن تتبعهما بعد نصف دقيقة. وفعلا كما طلبت إليهما. فلما انقضى الوقت الذي قدرت أنه يكفي عقلًا لإصلاح ما طرأ على حذائها، ارتاحت لأنها وجدت فرصة لمزيد من التأخير، إذ أبصرت طفلة تلحق بها آتية من الكوخ، إطاعة لأمرها، وهي تحمل قدرًا لتجلب فيه بعض الحساء من «هارتفيلد».

وكان من الطبيعي جدًا، أو هو ما كان يجب أن يكون طبيعيًا، أن تسير هذه الطفلة جنبًا إلى جنب، وأن تتبادل معها الحديث، وتوجه إليها الأسئلة، لولا أنها كانت وقتئذ تسير على غير خطة مرسومة، وبهذه الوسيلة كان للآخرين العذر في أن يتقدما، دون أن يكون ثمة ما يضطرهما إلى الانتظار، ولكنها لحقت بهما مع ذلك على غير إرادتها، فقد كانت خطى الطفلة سريعة، بينما كان الآخران يتهاديان في سيرهما.

وقد لاحظت أنهما يتحدثان حديثًا شيقًا مما زاد من اهتمامها. كان «مستر ألتن» يتكلم بحماس، و«هاريت» تنصت إليه مسرورة، كلها آذان واعية. وطلبت «إمَّا» من الطفلة أن تواصل سيرها وتسبقها، ثم أخذت تفكر في كيف تتخلف قليلًا، وإذا بهما يلتفتان خلفهما، فاضطرت إلى اللحاق بهما.

وكان «مستر ألتن» لا يزال يتحدث ومنهمكًا في تفاصيل شيقة، غير أن «إمَّا» شعرت بخيبة عندما وجدت أن حديثه مع رفيقته الحسناء لم يكن ألا وصفًا للحفل الذي أقيم بالأمس في بيت صديقه «كول» وأنها لم تلحق بهما ألا لتسمع الحديث عن «جبن ستلتن»، ولحم الخنزير المقدد من «ولتشير الشمالية»، والزبد والخضر والبنجر، وكل أصناف الحلوى.

وقالت في نفسها لكي يطمئن خاطرها: «لا شك أن هذا سيؤدي فورًا إلى ما هو أحسن، فإن كل ما يدور بين المحبين لذيذ، وقد يكون ذلك مقدمة لما هو أقرب إلى القلب. ليتني كنت بعدت عنهما فترة أطول».

وساروا ثلاثتهم معًا وهم لا يتحدثون، حتى بدا لهم سور بيت راعي

الأبرشية، فإذا «بإمَّا» قد صحت عزيمتها فجأة على أنه ليس أقل من أن تدخل «هاريت» البيت، ودفعها ذلك إلى أن تدعي مرة أخرى أن شيئًا ما قد حدث لحذائها ولا بد من إصلاحه، وفى براعة تلقي بجزء من رباطه في حفرة، راجية إليهما التوقف ليريا عجزها عن إصلاح هذا التلف، حتى تتمكن بذلك من السير إلى بيتها في غير عناء، واستدارت لتقول:

«لقد ضاع جزء من رباط حذائي، ولست أدري كيف أتصرف، إني لأشعر حقيقة بأنني رفيقة متعبة، وإن كنت أرجو ألا يظن بي أنني أستعمل دائمًا أصنافًا رديئة أرجو يا «مستر ألتن» أن تأذن لي بالوقوف عند باب داركم لأسأل مديرة البيت عن قطعة من الشريط أو الخيط أو أي شيء آخر حتى أتمكن من الاحتفاظ بحذائي فوق قدمي».

وبدا «مستر ألتن» وقد غمره السرور بسبب هذا العرض، وما كان لأحد أن يدانيه في سرعة استجابته ورغبته في أن يدخلها منزله، بذل كل ما في وسعه لكي يجعل كل شيء يبدو كما ينبغي.

وكانت الحجرة التي دخلوها حجرته الخاصة، لا، وكانت إلى خلفها حجرة أخرى تتصل بها مباشرة والباب الذي يصل بينهما مفتوحًا. ودخلت «إمَّا» من هذا الباب ومعها مديرة البيت لتقدم لها المساعدة وتعمل على راحتها، ووجدت «إمَّا» نفسها مضطرة إلى ترك الباب مفتوحًا كما وجدته وكان بودها لو أن مستر «ألتن» قد أغلقه وراءها، ولكنه لم يفعل، وهكذا ظل الباب بين الحجرتين مفتوحًا. وشغلت «إمَّا» مديرة البيت في حديث متواصل أملًا أن تتيح لمستر «ألتن» أن يختار لنفسه الموضوع الذي يرى التحدث فيه مع هاريت، في الحجرة المجاورة، ومضت عشر دقائق وهي لا تسمع إلا نفسها، فقررت ألا يطول الوقت على هذا النحو، فانتهت من إصلاح حذائها وعادت مرة أخرى إلى حيث يوجد «ألتن» و «هاريت».

كان الحبيبان يقفان معًا بجوار إحدى النوافذ، وكانت النافذة تطل على منظر من أبهى المناظر وأنسبها. ولبثت «إمَّا» نصف دقيقة وهي تحس بالفخر، فقد دبرت شيئًا ونجحت فيه، ولكنها مع ذلك لم تقنع بذلك فهو لم يصل بعد إلى الحد المطلوب.

لقد كان أكثر ما يكون رقة وبهجة، حتى لقد اعترف لهاريت بأنه رأهما وهما يسيران، وأنه اقتفى أثرهما عمدًا، وبدت منه إيماءات وعبارات طفيفة تنبئ عن حبه لها، أما فيما عدا ذلك فلا يصدر منه شيء جدّي.

وقالت «إمَّا» في نفسها: «إنه حريص، وحريص جدًا، إنه لا يتقدم قيد أنملة، ولا يجازف بشيء حتى يتأكد من أنه في مأمن».

وعلى الرغم من أن خطتها المحكمة لم تأت بنتيجة حاسمة فقد كانت تغالط نفسها بأن ما قامت به كان فرصة فيها متعة كبيرة لكليهما، لا بد أنها ستصل بهما إلى الحدث العظيم.

كان لا بد أن يترك «مستر ألتن» الآن وشأنه، إذ لم يعد في وسع «إمَّا» أن تنظم شؤون سعادته، أو تحمله على الإسراع في إجراءاته لقد أضحى مجيء عائلة أختها إليهم وشيكًا، وكان مجيئها أول الأمر أملًا مرتقبًا، ولكنه أصبح بعد ذلك حقيقة متوقعة، مما سوف يسترعي اهتمامها قبل أي شيء آخر.

ولم يكن أحد لينتظر منها في العشرة الأيام التي تقضيها أسرة أختها في«هارتفيلد»، ولا «إمَّا» نفسها، أن تقوم بمساعدة المحبين، إلا ما ندر في مساعدات عابرة وسريعة. وقد يقطع المحبان شوطًا بعيدًا وسريعًا لو أنهما أرادا ذلك، فإن لم يريداه فهما لا بد متقدمان بعض الشيء سواء حاولا أو لم يحاولا.

وما كانت «إمَّا» في قرارة نفسها تود التفرغ لهما، فإن من الناس من إذا أفرطت في مساعدتهم، قل ما يبذلونه من جهد نحو أنفسهم.

ولما كان مستر «جون نيتلي» وعقيلته قد طال، غيابهما عن «سرى» هذه المرة أكثر مما اعتادا، فقد أثار حضورهما بطبيعة الحال اهتمامًا أكثر من ذي قبل. لقد كانا يقتسمان كل عطلة لهما حتى هذا العام، منذ زواجهما، بين «هارتفيلد» و«رهبانية دونول» ولكنهما آثرا هذه المرة أن يخصصا عطلة الخريف بأكملها للأطفال يقضونها في الاستحمام في البحر، فانقضت بذلك شهور عديدة دون أن يراهم أقاربهم بصفة منتظمة في «سرى»، بل أن «مستر وودهاوس» لم يرهم إطلاقًا طوال هذه المدة.

فلم يكن من الميسور إغراؤه على الذهاب إلى مكان بعيد مثل لندن حتى ولو كان هذا من أجل «إيزابلا» المسكينة، ومن ثم فقد شعر الآن بمنتهى الغبطة المقرونة بالقلق وهو في انتظار هذه الزيارة القصيرة، وكان دائب الفكر فيما قد تسببه الرحلة لها من متاعب ولم يكن أقل تفكيرًا فيما سوف تلاقيه خيوله وحوذيه من المتاعب، من جراء حمل بعض أفراد الجماعة في الرحلة الأخيرة من سفرهم.

وما كان ينبغي له أن يجزع، فقد قطعوا الستة عشر ميلًا الأخيرة وهم في غبطة، ووصل مستر «جون نيتلي» وعقيلته وأطفالهما الخمسة وعدد من المربيات إلى «هارتفيلد» بسلام.

ولقد كان لمجيئهم وما استتبع وصولهم من ضجيج، ومن فرحة بسلامة الوصول، ومن حضور الكثير من الوافدين على البيت، وما اقتضاه ذلك من

ضرورة الحديث إليهم والترحيب بهم، والتخلص منهم، أثره في حياة «هارتفيلد» بما كان ينطوي عليه كل ذلك من صخب وارتباك مما لم يكن لأعصابه طاقة على احتماله لأي سبب آخر، بل وما كانت لتحتمله طويلًا حتى لهذا السبب نفسه.

على أن العادات المرعية في هارتفيلد، ومشاعر «مستر وودهاوس» كانت دائمًا موضع احترام مسز «جون نيتلي»، ولذلك وعلى الرغم من حرص الأم على توفير أسباب المتعة لصغارها، وأن تكون لهم كامل الحرية والرعاية، وأن يكون لهم كلما أرادوا وكل ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والنوم واللعب، في الحال ودون أدنى تأخير، فإنها لم تكن لتسمح للأطفال إطلاقًا بأن يكونوا مصدر إزعاج لأبيها، لا من ناحية أشخاصهم ولا من ناحية رعايتهم والقيام على شؤونهم.

فلقد كانت مسز «جون نيتلي» جذابة، رشيقة، هادئة الطباع، رقيقة، وكانت حميدة الخصال محببة إلى النفوس، تتفانى في خدمة أسرتها. فهي زوجة وفية، وأم مولعة بحب أبنائها. بقدر ما كان بينها وبين أبيها وأختها من حنان وعطف، وهي كلها روابط متينة لم تدع مكانًا لمزيد من المحبة والتعاطف، ولم تترك لها فرصة لترى في أحد منهم عيبًا، ولم تكن من ناحية أخرى سيدة واسعة الإدراك أو سريعة الفهم، فقد كانت في كل ذلك على شاكلة أبيها، بقدر ما ورثت منه الكثير من صفاته الجسمانية.

كان بنيانها رقيقًا، وكانت حريصة على أن يتوفر في أبنائها ما افتقدته في نفسها من عامل الصحة، وكانت كذلك كثيرة المخاوف متوترة الأعصاب، وتعجب بمستر «ونج فيلد» إعجاب والدها بمستر «بري». كذلك تشابها في شعورهما بالحنان والعطف على الناس كافة، وفي تقدير معارفهما القدامى جميعًا.

أما مستر «جون نيتلي» فقد كان رجلًا، فارع الطول، مظهره يدل على أنه من السادة، وكان ذكيًا للغاية، ناجحًا في مهنته، محبا لبيته، مبجلًا

في حياته الخاصة، ولكنه كان متحفظًا حريصًا فيما يقول أو يفعل، مما نفر الناس منه أحيانًا وجعله يشعر بكآبة أحيانًا أخرى، على أنه لم يكن مع ذلك حاد الطباع ولا ميالًا إلى مخاصمة الناس بالقدر الذي يعرضه للومهم، ومع ذلك فإن طبعه لم يكن أقوى جوانبه، وإن كان من الصعب، وقد نعم بزوجة كهذه تكاد تعبده وتقدسه، ألا تزداد عيوبه الطبيعية أمام ما جبلت عليه زوجته من هدوء وسماحة، كان لا بد أن تحزا في نفسه.

وقد كان فيه ما ينقصها من صفاء الذهن وسرعة الإدراك، ولكنه كان أحيانًا يأتي عملًا بعيدًا عن اللياقة، أو يقول كلامًا قاسيًا ليس له ما يسوغه.

ولم تكن أخت زوجته تألفه كثيرًا، بل ما كان ليخفي عليها شيء من عيوبه، فقد كانت سريعة الاحساس بما يلحقه بإيزابلا أحيانًا من أبسط الإساءات التي لم تكن «إيزابلا» نفسها تشعر بها. وقد كان من الجائز أن تتغاضى

حتى عما هو أكثر من ذلك لو أن سلوكه نحوها هي كان أكثر مجاملة باعتبارها أخت زوجته. ولكنه كان في معاملته لها كالأخ أو الصديق العطوف الرزين، فلا ثناء ولا إغضاء عن هفواتها، ومع ذلك فما كان أي مديح لها مهما كانت درجته كافيًا ليجعلها تغض عن أعظم هفواته جميعًا في نظرها، تلك هي عجزه عن التسامح المتسم بالتجلة والاحترام نحو أبيها، فقد كان ينقصه الصبر الذي كانت تود أن تراه معه. فقد كان يضجر أحيانًا بما يصدر من «مستر وودهاوس» من تصرفات غير عادية، ومن ملل وعدم استقرار، فكان يعترض عليه أحيانًا، أو يقابله أحيانًا أخرى برد عنيف لا يقل عن مسلك مستر «وودهاوس» عنفًا. ومع ذلك فلم يكن هذا بالحديث الذي يتكرر كثيرًا، فقد كان مستر «جون نيتلي» ولا شك يقدر حماه كل التقدير، ويحس إحساسًا قويًا بواجبه نحوه بوجه عام، ولكن حدوثه على ندرته، كان يبدو في نظر «إمَّا» كثير التكرار، وساعد على ذلك لا ما كان ينتابها من ألم بسببب توقعها حدوث خطأ قد لا يحدث إطلاقًا. وكان مستر «نيتلي» لا يبدي في أول كل زيارة من المشاعر إلا أحسنها، ومن ثم فقد كان يرجى وقد اقتضت الضرورة، أن تكون هذه الزيارة قصيرة، أن تمر في وئام ومحبة، فلا يحدث في خلالها ما يعكر صفوها، ولكنها ما كادوا بجلسون إلى بعضهم عقب حضورهم، ويهدؤون من وعثاء سفرهم، حتى أخذ «مستر وودهاوس» يهز رأسه في أسى ويتنهد وهو يلفت نظر ابنته إلى التغير الكئيب الذي طرأ على «هارتفيلد» منذ أن كانت هنا آخر مرة، وأردف يقول: «آه يا عزيزتي!! مسكينة «مس تيلور»، إنها مسألة محزنة».

وردت «مسز نيتلي» على الفور في عطف ملموس: «أجل يا سيدي إذ لا بد أنك أنت والعزيزة «إمَّا» متألمان لفراقها، فما أقسى هذا عليكما!! لقد حزنت من أجلكما، ولم أستطع أن أتصور كيف يمكنكما العيش بدونها، إنه ولا شك تغيير يبعث على الأسى، ولكني أرجو أن تكون سعيدة».

«سعيدة يا عزيزتي!! نعم أرجو أن تكون كذلك، وإن كنت لا أعلم شيئًا سوى أن المكان يوافقها كثيرًا».

وهنا سأل مستر «جون نيتلي» «إمَّا» بصوت هادئ، عما إذا كانت الحالة في «راندولز» تثير أي قلق.

«لا، فليس هناك أقل شيء من هذا، بل ولم أر «مسز وستن» أحسن مما هي عليه الآن طوال حياتي، ولم تبد في عيني يومًا أصح مما أراها الآن، ولكن والدي يعبر عما يشعر به هو مع الأسف».

وأجابها بلباقة: «إن في ذلك ما يشرف كلاهما».

وسألت «إيزابلا» في نبرات حزينة صادفت هوى في نفس أبيها: «وهل ترونها في معظم الأوقات يا سيدي؟».

وتردد «مستر وودهاوس» ثم قال: «ليس بالكثرة التي كنت أحبها يا عزيزتي».

«عجبًا يا والدي، إننا لم نحرم من رؤيتها ألا يومًا واحدًا بأكمله منذ أن تزوجا، ونحن في الصباح أو في المساء من كل يوم، عِدا اليوم الذي أشرت إليه، كنا

نرى «مستر وستن» تارة، و«مسز وستن» تارة أخرى، وغالبًا ما كنا نراهما معا إما في راندولز، وإما هنا، وأغلب الأحيان هنا، كما تتصورين يا «إيزابلا»، وهما يبديان كثيرًا من كرم النفس في زيارتهما. «مستر وستن» لا يقل عنها كرمًا. إنك يا والدي وأنت تتكلم بهذه الطريقة المحزنة، قد تعطي «إيزابلا» فكرة خاطئة عنا جميعًا. يجب أن يعلم الناس جميعًا أننا نشعر بأن «مس تيلور» قد تركت فراغًا، ولكنهم يجب أن يتأكدوا كذلك بأن «مستر وستن» وزوجته يعملان على ألا نشعر بهذا الفراغ بجميع الوسائل التي كنا ننتظرها منهما، هذه هي الحقيقة بعينها».
وتدخّل مستر «جون نيتلي»: وهذا ما يجب أن يكون، هذا ما كنت أتوقعه مما جاء في رسائلكم إلينا، وما من شك في أن حرصها على إظهار اهتمامها بكم، ونزعته الاجتماعية وعدم ارتباطه بما يشغله، كل ذلك قد سهل عليهما مهمة التودد إليكم. لقد كنت أقول لك يا حبيبتي دائمًا، إني أرى أن التغيير في «هارتفيلد» لن يكون كبيرًا كما كنت تخشين، وها أنت تسمعين ما تقوله «إمَّا»: أرجو أن تكون قد اقتنعت الآن».
ورد «مستر وودهاوس»: «نعم لا شك في ذلك، نعم كن واثقًا من ذلك. ولست أنكر أن «مسز وستن» - مسكينة يا «مسز وستن» - تأتي لزيارتنا في أغلب الأوقات، ولكنها تضطر بعد ذلك إلى العودة ثانية».
إن من الصعب على «مستر وستن» يا والدي ألا تعود إليه ولا شك وأخالك تنسى «مستر وستن» تمامًا».
وقال مستر «جون نيتلي» متلطفًا: «من رأيي ولا شك أن لمستر «وستن» بعض الحق، إننا أنا وأنت يا «إمَّا» يجب أن ندافع عن الزوج المسكين، ومن المحتمل جدًا، أنا باعتباري زوجًا، وأنت باعتبارك لا زوج لك، أن يكون لنا نفس الشعور نحو ما للرجل من حقوق. أما «إيزابلا» فقد طال عهدها بالزواج حتى أصبحت تغفل ما لأي «مستر وستن» من حقوق وهي قريرة العين بذلك».
وصاحت به زوجته ولم تكن قد سمعت أو فهمت من حديث زوجها إلا القليل: «أنا يا حبيبي، هل أنت تتحدث عني» إني واثقة من أنه لا يمكن أن يوجد، بل ولا يوجد فعلًا من هو أشد مني دفاعًا عن مسائل الزواج، ولولا ما تركته «مس تيلور» في «هارتفيلد» من وحشة، ما كنت أفكر قط إلا أنها أسعد نساء العالم قاطبة، وأما التصغير من شأن «مستر وستن»، ذلك الرجل الممتاز، فأني لا أعرف شيئًا طيبًا إلا ويستحقه، إني أعتقد أنه من أحسن الرجال طباعًا، ولو أني أستثنيك أنت وأخاك، لما وجدت له في السلوك نظيرًا، ولن أنسى له أنه وقت اشتداد الريح يوم عيد الفصح الماضي، أخذ يعمل على أن يطير لهنري طيارته، ولن أنسى ما حباني به من عطف خاص في شهر سبتمبر الماضي، حين جلس في الساعة الثانية عشرة ليلًا ليكتب لي رسالة يؤكد فيها عدم وجود الحمى القرمزية في «كيهام»، وقد تأكدت من كل ذلك أنه لا يوجد قلب

أرق من قلبه، ولا رجل أحسن منه في الأرض قاطبة، ولو كان هناك امرأة جديرة به، فهذه المرأة هي «مس تيلور».
وسأل مستر «جون نيتلي»: «ولكن أين الفتى، وهل أتى هنا لهذه المناسبة، أم لا؟».
فأجابته «إمَّا»: «إنه لم يأتِ إلى هايبري حتى الآن، فقد كنا ننتظر مجيه بعد زواج أبيه مباشرة، ولكنه لم يحضر، وما سمعت أحدًا يذكره بعد ذلك».
وقال والدها: «لكن يجب أن تخبريهم عن الخطاب يا عزيزتي، فقد كتب رسالة إلى «مسز وستن» المسكينة ليهنئها، وكانت رسالة رقيقة جميلة، ولقد أرتني إياها، ووجدت أن ذلك كان منه ولا شك عملًا مجيدًا، وإن كان لا أحد يعلم إذا كانت هذه الرسالة من بنات أفكاره أو لا، فهو صغير، ولعل خاله...».
«إنه يا والدي العزيز قد بلغ الثالثة بعد العشرين، وأراك قد نسيت كيف تمر بنا السنون».
«هل حقًا بلغ الثالثة والعشرين؟ ما كنت أظن ذلك، إنه كان في الثانية من عمره وقت أن فقد أمه المسكينة. وعلى كل حال، فقد كانت رسالته طيبة للغاية ولطيفة، غمرت كلا من «مستر وستن» وزوجته بالسرور، وإني لأذكر أنه كتبها في «ويموث» في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر، وأنه بدأها بقوله: «سيدتي العزيزة» - لقد نسيت ما كتبه بعد ذلك، ثم أمهرها بإمضاء: «ف. وستين تشرشل»، أذكر ذلك تمامًا.
وصاحت «مسز جون نيتلي» طيبة القلب تقول: «كم كان هذا جميلًا منه! بقدر ما كان سارًا! لست أشك في أنه شاب لطيف جدًا، ولكن مما يوجب الأسف أنه لا يقيم في بيت والده، إنها لفجيعة حقًا أن ينتزع الطفل من والديه ومن بيته الطبيعي. لست أدري أبدًا كيف أمكن «لمستر وستن» أن يتخلى عنه، لعمري!! هل يتخلى المرء عن ابنه!! الحق أني أسيء الظن بكل من يشير بشيء من ذلك على أي إنسان».
وتحدث مستر «نيتلي» في جمود وهو يقول:
«لا أعتقد أن أحدًا من الناس أحسن الظن يومًا بآل «تشرشل»، ثم لا داعي لأن تتصوري أن «مستر وستن» يمكن أن يشعر بما تشعرين به لو أن «هنري» أو «جون» أخذ منك. فمستر «وستن» أقرب إلى الرجل السهل المرح منه إلى الرجل القوي المشاعر، فهو يتقبل الأشياء كما يجدها، ولا يعدم سبيلًا للاستمتاع بها، معتمدًا في ذلك، فيما أظن، على ما يسمونه بالمجتمع لينال ملذاته من مأكل ومشرب، ولعب الورق خمس مرات في الأسبوع مع جيرانه بأكثر مما يعتمد على روابط الأسرة، أو أية متعة أخرى تأتي عن طريق حياة البيت».
ولم تكن «إمَّا» راضية عن الإطار الذي أحاطه الحديث بصورة «مستر وستن»، وهمت أن تنتزعه، ولكنها قاومت نفسها، وتغاضت عما سمعته، رغبة منها في ألا تعكر الصفو ما أمكنها، وتذرعت بالصبر ما أمكنها الصبر، فقد كانت هناك

عادات منزلية راسخة لها قيمتها واحترامها، تلك التي جعلت زوج اختها يرى أن البيت فيه الكفاية كلها ودفعته إلى التقليل من شأن الصلات الاجتماعية، ومن شأن أولئك الذين يهتمون بها.

كان من المتفق عليه أن يتناول مستر «نيتلي» الغذاء معهم، مع ما كان في ذلك من تعارض مع ميول «مستر وودهاوس»، الذي كان يرى من حقه أن يخص نفسه بصحبة «إيزابلا» في اليوم الأول من زيارة الأسرة لا يشاركه فيها أحد. ولكن «إمَّا» كانت قد اتخذت في هذه المسألة قرارًا، فعلاوة على إدراكها لما للأخوين من حق الرعاية الكاملة، فقد كان مما يسعدها، بسبب ظروف اختلافها مؤخرًا مع «مستر نيتلي»، أن تحتفظ له بالدعوة التي تليق به. وكانت تأمل من وراء ذلك أن يعودا صديقين مرة أخرى، فقد حان الوقت في ظنها للتصالح، غير أن المصالحة بينهما كانت مع ذلك أمرًا متعذرًا، فقد كانت متأكدة بأنها لم تخطئ، وهو من جانبه كذلك لن يعترف بأنه أخطأ، ولذا وجب استبعاد فكرة المصالحة، أو تنازل كل طرف عن رأيه، ولكن لا أقل مع ذلك من أن يتظاهرا بنسيان خلافهما الماضي. واعتقدت «إمَّا» أن مما يساعد على عودة صداقتهما إلى مجاريها الأولى، أنه حينما دخل عليها «مستر نيتلي»، كان معها أصغر أطفال أختها سنًا، وهي طفلة صغيرة في الشهر الثامن من عمرها تقريبًا، تزور «هارتفيلد» للمرة الأولى في حياتها، وكانت سعيدة في تلك اللحظة لأن خالتها كانت ترقصها بين يديها.

وساعد ذلك بالفعل على تحقيق ما كانت ترجوه، إذ على الرغم من أن نظراته الأولى كانت جدية، وأسئلته مقتضبة، لم يلبث أن أخذ يتناولهم جميعًا في حديثه كما كانت عاداته، ثم أخذ الطفلة من بين ذراعيها بطريقة تدل على الصداقة التامة، الخالية من التكلف. وأحست «إمَّا» أنها قد أعادا صديقين مرة أخرى. واطمأن قلبها كثيرًا بادئ الأمر وهي تستشعر ذلك، ثم تملكها شيء من الجرأة، ولم تتمالك نفسها من أن تقول وهو يبدي إعجابه بالطفلة:

«ما أثلجه للصدر أن تتفق آراؤنا فيما يختص ببنات وأبناء إخوتنا وأخواتنا!! فحتى إذا اختلفت أراؤنا في الرجال والنساء اختلافًا بينًا في بعض الحالات فإنها لن تختلف حين يكون الأمر متعلقًا بهؤلاء الأطفال».

«لو أنك كنت في تقديرك للرجال والنساء مدفوعة بطبيعتك، ولم تستسلمي للخيال والأهواء، كما هو شأنك مع هؤلاء الأطفال، لأمكن أن نكون في تفكيرنا دائمًا سواء».

«طبعًا،« فاختلافنا لا بد أن ينشأ دائمًا في أنني أتجنب الصواب».

ورد وعلى وجهه ابتسامة: «أجل، ثم فكري جيدًا لقد كنت في السادسة عشرة من عمري عندما ولدت أنت».

وأجابت: «لقد كان الفرق كبيرًا وقتئذ، ولا شك أنك كنت تفوقني كثيرًا في حكمك على الأشياء في تلك الفترة من حياتنا، ولكن أليس مرور إحدى وعشرين سنة كافيًا للتقريب بين إدراكي وإدراكك؟».

«نعم يقربه إلى درجة كبيرة».

«نعم، ولكنه لا يقربه إلى الحد الذي يهيء لي الفرصة لأكون على حق حين تختلف آراؤنا!».

«ما زالت لي عليك ميزة تجارب ستة عشرة سنة كاملة، ثم أنا بعد ذلك لست فتاة حسناء أو طفلًا مدللًا. هلمي إليّ يا عزيزتي «إمَّا» ولنكن أصدقاء، ولنكف عن الكلام في هذا الموضوع وأنت يا «إمَّا» الصغيرة، قولي لخالتك أن من واجبها أن تجعل لك من نفسها مثلًا أفضل، بدلًا من ترديد ما يجيش بنفسها من مضايقات سابقة، وإنها إن لم تكن أخطأت فيما مضى فهي قد أخطأت الآن».

وصاحت «إمَّا» تقول: «إنه لقول الحق، إنه لعين الصدق. وأنت يا «إمَّا» الصغيرة شبِّي على أن تكوني سيدة أفضل من خالتك. كوني أكثر منها ذكاء، ولا تكوني حتى في نصف غرورها، واسمح لي الآن يا «مستر نيتلي» بكلمة أو كلمتين لا قول لي بعدهما:

«ما دام حسن النية متوفرًا فقد كان كلانا على صواب، ولا بد لي من أن أقول أنه لم يثبت أن شيئًا مما قلته قد ثبت خطؤه، وكل ما يعنيني الآن هو أن أطمئن إلى أن «مستر مارتن» لم يتعرض لخيبة أمل مريرة».

وأجابها في إيجاز يحمل كل المعاني:

«لم يصب أحد بخيبة أمل أمرّ منها».

«واحسراتاه!! إن ذلك ولا شك يحزنني كثيرًا، والآن تعال إليّ، ولنشد على أيدي بعضنا بعضًا».

وما كاد يفرغان من هذا الحديث في جو من الود والصفاء، حتى دخل عليهما «جون نيتلي» وقال: «كيف حالك يا جورج».

وأنت يا «جون» كيف حالك؟» نطق بها كل منهما باللهجة الإنكليزية الصرفة، وفي هدوء كاد يصل إلى حد عدم الاكتراث، وإن كان كل منهما يخفي وراء عبارته ذلك الود الخالص الذي كان كفيلًا بأن يدفع كلا منهما إذا دعا الداع إلى القيام بكل ما فيه نفع لأخيه.

وجاء المساء فكان هادئًا تتخلله الأحاديث، فقد ترك «مستر وودهاوس» لعب الورق ليتحدث مع عزيزته «إيزابلا» حديثًا يرتاح إليه، وانقسمت الجماعة الصغيرة إلى فريقين طبيعيين: هو وابنته فريق، والأخوان «نيتلي» فريق، كل فريق منهما يتحدث في موضوعه الخاص، وقلّما يتبادل الكلام مع الفريق الآخر، بينما «إمَّا» كانت تشترك مع هذا أو ذاك بين الحين والحين.

وتناول حديث الأخوين ما يعنيهما في الأمور، وما يتصل بأعمالهما، وخاصة ما كان يتعلق بشؤون أكبرهما، فقد كان هذا بطبعه أكثرهما استعدادًا للتحدث، وأشدهما قدرة على مواصلة أطراف الحديث، فلقد كان في أعماله تولي القضاء في القرية، ولذا كان كثيرًا ما يستشير «جون» في بعض نقاط القانون، أو على الأقل يقص عليه أخبار حادثة غريبة مما يعرض له. ثم باعتباره مزارعًا وبيده زمام صنيعة الأسرة في «دونول»، كان عليه أن يتحدث فيما سوف يكون عليه محصول كل حقل في العام التالي، وأن يدلي بكل المعلومات المحلية التي قد يجد فيها أخوه متعة في قرية قضى فيها أطول أيام حياته ولا تزال تربطه بها صلات قوية.
وهكذا تناول الحديث كل ما عنّ له من مشروع عمل مصرف، إلى تغيير سياج، إلى قطع إحدى الأشجار، إلى مصير كل فدان خصص لزراعة القمح أو اللفت أو أذرة الربيع.
ولم يكن «جون» ليقل اهتمامه بهذا الحديث عن أخيه، على قدر ما سمحت به طباعه الخشنة، فكان كلما أغفل أخوه شيئًا يحتاج إلى سؤال، تقدم هو فسأل عنه بنغمة تقرب من أن تكون تلهفًا.
وبينما كان الأخوان منهمكين فيما فيه متعتهما، كان «مستر وودهاوس» يستمتع بفيض من الحديث مع ابنته، حديث يعبّر فيه عن أسفه، على ما فاته من فرص سعيدة، عما يكنّه لها من حب يجعله في خوف من أن يلحقها أي ضرر.
قال في لهفة وقد أمسك بيدها فعطلها بضع لحظات عما كانت تؤديه لأحد أطفالها الخمسة:
«ابنتي العزيزة «إيزابلا»، ما أطول المدة وما أقساها تلك التي مضت منذ كنت هنا!! وما أشد التعب الذي لا بد أنك قد قاسيته من وعثاء السفر!! يجب يا عزيزتي أن تبكري بالنوم، وإني أشير عليك قبل أن تأوي إلى فراشك، بتناول القليل من العصيدة. سيأخذ كل منا صحنًا لطيفًا منها، ما رأيك يا عزيزتي «إمَّا» لو أننا جميعًا تناولنا قليلًا منها».
ولم تكن «إمَّا» تفكر في شيء من هذا، فقد كانت تعلم أن مستر «جون نيتلي» وأخاه، كانا مثلها لا يمكن حملهما على تناول هذا الصنف من الطعام، ولذا لم تأمر بإعداد أكثر من صحنين منه.
وبعد أن استطرد في حديثه عن محاسن العصيدة، أردف يقول وهو في دهشة من أن الناس جميعًا لا يتناولونها في أمسياتهم، في أسلوب من يفكر تفكيرًا عميقًا:
«لقد كان قضاؤكم فصل الخريف في «سوث إند» بدلًا من مجيئكم هنا، عملًا غير مستحسن يا عزيزتي، وأنا لم أحسن الظن يومًا بهواء البحر».
«لقد أوصى به مستر «ونج فيلد» بشدة يا سيدي، ولولا ذلك ما ذهبنا، لقد أوصى به للأطفال جميعًا وخاصة لِبِلّا الصغيرة بسبب ضعف حلقها، أوصى

بهواء البحر وبالاستحمام في ماء البحر على السواء».
«عجبًا يا عزيزتي!! ولكن «بري» يشك كثيرًا في أن يكون للبحر أية فائدة لها، وأنا من ناحيتي كنت واثقًا كل الثقة من ذلك منذ وقت بعيد، ولو أني لم أخبرك من قبل بأن البحر يندر أن تكون له فائدة لأي إنسان، بل إني واثق أنه كاد يقتلني يومًا ما».
فصاحت «إمَّا» وقد شعرت أنه موضوع لا تُؤمن عواقبه:
«أرجو ألا تتكلموا عن البحر لأن ذلك يثير في نفسي شعورًا بالحسد والتعاسة، فإنني لم يسبق لي رؤيته ولهذا فإن الحديث عن «سوث إند» إذا سمحتم. ثم إنني يا عزيزتي «إيزابلا» لم أسمعك تسألين عن مستر «بري» ولو مرة واحدة حتى الآن في حين أنه لا ينساك إطلاقًا».
«آه!! ما أطيب «مستر بري»!! كيف حاله يا سيدي».
«لا بأس، وإن لم يكن على أحسن ما نحب له، إن «بري» المسكين يشكو من مرض المرارة، وهو لا يجد الوقت الذي يُعنى فيه بنفسه، وهو يقول لي أنه لا يجد وقتًا لذلك. إنه شيء محزن للغاية، ولكن الناس من جميع أطراف القرية يطلبونه، وما أظن أن هناك رجلًا له مثل تجاريبه، بل قد لا يوجد في أي مكان آخر رجل في مثل مهارته».
«وكيف حال «مسز بري» وأطفالها، هل كبر الأطفال؟ إني أقدر«مستر بري» كل التقدير، وأرجو أن يأتي لزيارتنا قريبًا، إنه سيُسر لرؤية أطفالي الصغار».
«أرجو أن يأتينا غدًا لأن عندي سؤالًا أو سؤالين أحب أن أسأله بشأنهما، لما لهما من بعض الأهمية عندي، وأنت يا عزيزتي، يجدر بك عند مجيئه أن تدعيه يفحص حلق الصغيرة «بلَّا»».
«إن حلقها يا سيدي العزيز تحسن كثيرًا حتى أصبحت غير قلقة من ناحيته، وقد يكون مرد ذلك إلى الاستحمام وما كان له من فائدة عظيمة، أو «لمروخ» مستر «ونج فيلد» الممتاز الذي ظللنا نستعمله بين الحين والحين منذ شهر أغسطس».
«إنه لشيء بعيد الاحتمال أن يكون الاستحمام قد أفادها، ولو كنت أعلم أنك في حاجة إلى «مروخ» لتكلمت مع ».
وقالت «إمَّا»: «يبدو لي أنك قد نسيت «مسز بيتس» وابنتها «مس بيتس» فلم أسمع سؤالًا واحدًا عنهما».
«أجل، عائلة «بيتس» الطيبة، إني لأخجل من نفسي، ولكنك تذكرينهما في معظم رسائلك إليّ وأرجو أن تكونا متمتعتين بصحة جيدة. نعم، ما أطيب «مسز بيتس» العجوز، سأذهب لزيارتها غدًا ومعي أطفالي، فهما تشعران دائمًا بالسرور عند رؤيتهم، ناهيك «بمس بيتس»، تلك الآنسة الرائعة، إن كليهما من خيار النساء وأكملهن، كيف حالتهما يا سيدي؟».
«لا بأس بصحتهما يا عزيزتي بوجه عام، غير أن «مسز بيتس» المسكينة أصابها برد شديد منذ شهر تقريبًا».

«إني لآسفة لذلك، ولكن البرد لم يكن أبدًا منشرًا في أي وقت كما كان في هذا الخريف، لقد ذكر لي مستر «ونج فيلد» أنه لم يسبق أن رأى إصابات البرد منتشرة بمثل هذه الكثرة، ولا بشدة هذه الوطأة إلا أن يكون المرض المنتشر هو مرض الإنفلونزا».
«نعم لقد كانت الحالة كما تقولين إلى حد كبير، وإن لم تكن بالدرجة التي تذكرينها، إن «بري» يقول إن إصابات البر كانت كثيرة الانتشار، ولكنها لم تكن في ضدة وطأتها كالإصابات التي يشاهدها عادة في شهر نوفمبر، إن «بري» لا يرى أنه كان فصلًا مليئًا بالأمراض».
«لا، لست أظن بأن مستر «ونج فيلد» يعتبره فصلًا موبوءًا ما عدا ».
«والحق يا ابنتي العزيزة المسكينة إن هذا الفصل يكون كثير الأمراض دائمًا في لندن، وما من أحد يتمتع في مدينة لندن بالصحة، وأنّى يكون لأحد أن يتمتع بها؟ إنه حقًا لشيء مزعج أن أراك مضطرة إلى المعيشة هناك – وعلى هذه المسافة البعيدة منا!! وفي مثل هذا الهواء الفاسد!!».
«لا أبدًا، إننا لا نعيش في هواء فاسد إطلاقًا والجهة التي تقطنها في لندن، تفوق كثيرًا معظم الجهات الأخرى، وليس لك أن تدرجنا في جو لندن بصفة عامة يا سيدي العزيز، لأن ناحية «ميدان برونزويك» تختلف كثيرًا عن سائر الجهات، فالهواء عندنا منعش وعليل، وأعترف بأنني لن أرضى بالمعيشة في جهة أخرى غير هذه المدينة، فلا تكاد توجد جهة أخرى أرتضيها سكنًا لأولادي. حقًا إننا نقيم في جهة هواؤها عليل، ومستر «ونج فيلد» نفسه يرى أن منطقة «ميدان برونزويك» هي أصلح الجهات هواء».
«إنها لا تقارن يا عزيزتي بهارتفيلد، إنك ترفعين من شأنها، ولكنكم بعد قضاء أسبوع في «هارتفيلد» ستصبحون وكأنكم خلقتم من جديد، وسوف تتغير أشكالكم عم كنتم عليه ولا أستطيع أن أزعم أن أحدًا منكم في رأيي يبدو في أكمل صحته الآن».
«يؤسفني أن أسمع منك ذلك يا سيدي، ولكني أؤكد لك أنه لولا ذلك الصداع العصبي البسيط، وتلك الاضطربات في النبض التي لا تفارقني تمامًا أينما كنت، لكنت الآن على أتم ما يكون من الصحة، وإذا كان الأطفال قد بدا عليهم شيء من الشحوب قبل أن يأووا إلى فراشهم، فما ذلك إلا نتيجة لأنهم كانوا مجهدين على غير عادتهم من أثر السفر، ولفرحتهم بالمجيء، وآمل أن يتغير رأيك في صحتهم غدًا. بل أؤكد لك أن مستر «ونج فيلد» أخبرني بأنه ما تركنا نسافر يومًا ونحن في مثل الصحة التي نحن عليها الآن، وأعتقد أنك لن تظن بأن مظهر مستر «نيتلي» يدل على اعتلال صحته (ثم التفتت إلى زوجها وهي تنظر إليه نظرة قلق متسمة بالحب».
«إن صحته متوسطة يا عزيزتي ولا يمكنني أن أحابيك في ذلك، بل أرى أن «مستر نيتلي» لا يبدو متمتعًا بكامل صحته».
وصاح مستر «جون نيتلي» عند سماع اسمه:

«ماذا جرى يا سيدي؟ هل كنت توجه كلامًا إليّ؟».
«يؤسفني يا حبيبي أن أجد والدي يظن أنك لا تبدو في أكمل صحتك، ولكني أرجو أن يكون هذا نتيجة لما لحقك من التعب البسيط، ومع ذلك فقد كان بودي كما تعلم، لو أنك عرضت نفسك على مستر «ونج فيلد» قبل سفرك».
وأسرع مستر «نيتلي» يقول في دهشة: «أرجو يا عزيزتي «إيزابلا» أن تشغلي بالك بصحتي، وحسبك ما تقومين به من علاج وتدليل لنفسك وللأطفال. دعينب أبدو كما أحب أن أبدو».
وصاحت «إمَّا» قائلة: «لم أفهم تمامًا ماذا كنت تقول لأخيك عن صديقك مستر «جراهام»، أو عزمه على الإتيان بناظر زراعة من اسكتلندة ليشرف على ضيعته الجديدة، ولكن هل هناك فائدة ترجى من وراء ذلك؟ ثم ألا يكون التحيز للقديم له أثره القوي».
وظلّت «إمَّا» تتحدث بهذه الطريقة طويلًا، وكانت في حديثها موفقة، حتى أنها عندما اضطرت إلى الانتباه مرة أخرى لوالدها وأختها، لم يكن هناك ما يؤذي سمعها أكثر من استفسار «إيزابلا» عن «جين فيرفاكس» بعطف وحنان وعلى الرغم من عدم وجود انسجام بينها وبين «مس فيرفاكس» بوجه عام، فقد استعذبت في تلك اللحظة اشتراكها في الثناء عليها.
وقالت «مسز جون نيتلي»: «ما ألطف «مسز جين فيرفاكس» وأظرفها!! إني لم أرها منذ وقت طويل، اللهم إلا الفينة بعد الفينة وبطريق الصدفة المحضة في لندن، وما أسعد جدتها العجوز الطيبة وخالتها الممتازة بها عندما تأتي لزيارتهما!! إني لأشعر بمنتهى الأسف لما تقوله العزيزة «إمَّا» في أنها لن تمكث في «هايبري»، ولكني أظن أن المقدم «كامبيل» وزوجته قد تزوجت ابنتهما، الآن لن يسعهما أن يفرطا فيها أبدًا؛ وهي نِعم الرفيقة التي ترتاح إليها «إمَّا» لو أنها بقيت هنا».
ووافق «مستر وودهاوس» على كل ذلك وزاد عليه قوله:
«إن صديقتنا العزيزة الصغيرة «هاريت سمث» هي الأخرى فتاة لطيفة، إنك سوف تحبين «هاريت»، ولن تجد «إمَّا» رفيقة خيرًا من «هاريت»».
«إني لأسعد ما أكون بأن أسمع بذلك، ولكني أعلم بأن «جين فيرفاكس» ذات ثقافة عالية، وهي ممتازة، وفي سن «إمَّا» تمامًا».
وطاب لهم الحديث في ذلك الموضوع، ثم انتقلوا منه إلى مواضيع أخرى في مثل أهميته، وانتهت أحاديثهم في وئام وانسجام. ومع ذلك فلم ينته المساء إلا وقد خيمت على الجو سحابة من الكدر فقد جيء بالعصيدة فأثار مجيئها نقاشًا طويلًا، فيه مدح مستفيض وتعليقات كثيرة، وقرارات لا تُنقض عن فائدتها لصحة جميع الأجسام، ولوم قارس للبيوت الكثيرة التي لا تستسيغها. غير أن من سوء الحظ أن من بين نواحي القصور التي كان على ابنته أن تواجهها، ناحية كانت أحدثها عهدًا، ومن ثم فقد كانت أشدها أثرًا، تلك هي ما كانت تقاسيه من طاهيتها في «سوث إند»، وهي شابة استأجرتها مؤقتًا، فقد عجزت

هذه الطاهية عن أن تدرك ما كانت تعنيه من إعداد صحن من العصيدة اللذيذة الناعمة التي لا هي ثخينة القوام، ولا هي كثيرة السيولة، ولذلك فكثيرًا ما فشلت في تلبية رغبة سيدتها في أن تظفر بصحن منها يمكن أن تستسيغه. فانفتحت بذلك ثغرة خطيرة سرعان ما نفذ إليها الحديث.

فقد سمعت «إمَّا» مستر «وودهاوس» يقول في دهشة وهو يهز رأسه ويركز عينيه عليها في اهتمام وحنان:

«إني لا أكاد أرى نهاية للعواقب الوخيمة التي نجمت عن ذهابك إلى «سوث إند» مما لا يطاق الحديث فيه».

ولبث فترة وهي ترجو في أثناءها ألا يسترسل في ذلك الحديث، وأن يكون في تفكيره الهادئ ما يكفي لحمله على الانصراف إلى تذوق عصيدته الناعمة. ولكن ما كادت تنقضي لحظات معدودات حتى انطلق يقول:

«سأظل دائمًا في حسرة لذهابك إلى البحر في هذا الخريف بدل المجيء إلى هنا».

«ولكن ما الذي يستوجب الحسرة في ذلك يا والدي؟ إني أؤكد لك أن ذلك أفاد الأعمال فائدة عظيمة».

«ثم علاوة على ذلك، إذا كان لا بد من ذهابك إلى البحر، فقد كان الأحرى بك ألا تذهبي إلى «سوث إند» فهي مكان غير صحي، ولقد دهش «بري» عندما سمع بأنك اخترت «سوث إند» دون غيرها».

«إني أعلم أن الكثيرين يرون هذا الرأي، ولكن من المؤكد أنهم مخطئون في ذلك تمامًا يا سيدي، فلقد تمتعنا جميعًا بصحة جيدة هناك، ولم نجد أية مضايقة من الوحل، وقد قال مستر «ونج فيلد» إن من الخطأ الجسيم أن يظن أحد من الناس أن المكان غير صحي، وأعتقد أنه ممن يُعتد برأيهم، لما له من علم تام بطبيعة الهواء فيها، ثم لقد ذهب إلى هناك أخوه وأسرته مرارًا».

«كان يجب عليك أن تذهبي إلى «كرومر» يا عزيزتي إذا كان لا بد من الذهاب إلى أي مكان. لقد ذهب «بري» إلى «كرومر» مرة، وهو يعتقد أنها أحسن مكان للاستحمام في البحر، ويقول أن البحر هناك فسيح وجميل، والهواء في غاية النقاء، وقد كان من الممكن كما فهمت العثور على أماكن للسكن هناك بعيدة عن البحر على بعد ربع ميل منه، ومريحة كل الراحة، نعم لقد كان لا بد لكم من استشارة «بري»».

«ولكن هناك يا سيدي العزيز فرقًا في المسافة التي تقضيها في السفر وحسبك أن تحتسب حساب بُعدها، إنها مسافة قد تصل إلى مائة ميل بدلًا من الأربعين».

«ولكن يا عزيزتي، إذا كانت الصحة مهددة بالخطر فهي كما يقول «بري» فوق كل اعتبار آخر، وإذا كان لا بد للإنسان من السفر، فسيان عنده أن يقطع أربعين ميلًا أو مائة ميل، بل خير للإنسان ألا يتحرك وأن يقيم في لندن كلية من

أن يقطع أربعين ميلًا كي يصل إلى مكان هواؤه أردأ، وهذا ما قاله «بري» بنصه، لقد بدا له ما فعلتموه كان عملًا بعيدًا عن الروية وحسن التقدير».

وحاولت «إمَّا» أن تمنع والدها من الاسترسال في هذا الكلام، ولكن محاولاتها ضاعت سدى، وما كان لها أن تعجب بعد ذلك عندما رأت زوج أختها يثور غضبًا عندما وصل والدها إلى هذه النقطة ويقول:

«يجدر بمستر «بري» أن يحتفظ برأيه لنفسه حتى يُطلب منه، ثم لماذا يشغل نفسه بما أفعله؟ ألأني أذهب إلى مكان دون آخر على ساحل البحر؟ أرجو أن يكون لي ما لمستر «بري» من حق إبداء الرأي، وأنا لم أعد في حاجة إلى تعاليمه ولا إلى عقاقيره».

وسكت هنيهة هدأت فيها نفسه قليلًا، ثم ما هي إلا لحظة بعد ذلك حتى انطلق يقول في تهكم جاف:

«ولو أمكن مستر «بري» أن يقول لي كيف أتنقل بزوجتي وأطفالي الخمسة مسافة مائة وثلاثين ميلًا دون أن أتكبد نفقات أكثر، أو ألاقي عناء أشد مما أتكبده أو ألاقيه لو كانت المسافة أربعين ميلًا، كنت مستعدًا إلى أن أفضل «كرومر» على «سوث إند» كما يفضلها».

وصاح «مستر نيتلي» كي يخفف من حدة الحديث:

«حقًا ما تقول، فإن بُعد المسافة شيء تجب مراعاته ولا شك، لكن أما عن فكرتي التي كنت أحدثك عنها يا «جون» من أنني أريد تغيير موضع الممر الموصل إلى «لنجهام» وجعله أكثر انحرافًا إلى الجهة اليمنى، حتى لا يخترق المراعي التي حول المنزل، فأنا لا أرى فيها أية صعوبة، على أنني لن أحاول القيام بهذا لو كانت في ذلك أية مضايقة لأهالي «هايبري». ولو أنك تذكرت بالضبط الوضع الحالي للممر على أن الطريقة الوحيدة لإثبات ذلك، هي بالرجوع إلى خرائطنا، وأرجو أن أراك غدًا صباحًا في الأبرشية، وعندئذ نفحص الخرائط سويًا ثم تبدي لي رأيك».

وأقلقت «مستر وودهاوس» تلك العبارات الخشنة التي وجهت إلى صديقة «بري»، وهو الذي كان ينسب إليه بطريقة لا شعورية الكثير من أحاسيسه نفسه وتعبيراتها، ولكن التهدئة التي لقيها من ابنتيه أزالت تدريجًا ما كان لهذا الحدرث من أثر سيء في نفسه، كما أن يقظة أحد الأخوين وحسن إدراك الأخ الثاني، حالًا دون تجدده.

كان من الصعب أن تجد إنسانًا أسعد من «مسز جون نيتلي» خلال تلك الفترة القصيرة التي قضتها في زيارة «هارتفيلد» إذ كانت تذهب كل صباح ومعها أطفالها الخمسة لتقضي مع معارفها القدامى بعض الوقت، ثم تعود في المساء لتتحدث مع أبيها وأختها عما فعلته في الصباح ولم يكن شيء أحب إلى نفسها من ألا تمر الأيام بمثل هذه السرعة، فلقد كانت زيارة ممتعة، وكان من أسباب كمالها، أنها كانت قصيرة جدًا.

وكان الأصدقاء بوجه عام أكثر ما يجتمعون بهم في الصباح منهم في المساء، ومع ذلك فلم يكن بد من خروجهم في إحدى المرات تلبية لدعوة عشاء كامل رغم أن ذلك كان في ليلة عيد الميلاد، إذا ما كان «مستر وستن» ليقبل منهم اعتذارًا عن قبوله دعوته، وهكذا أصبح لزامًا عليهم جميعًا أن يتناولوا عشاءهم في «راندولز» في إحدى الليالي. وحتى «مستر وودهاوس» نفسه أمكن التأثير عليه وحمله على التسليم بأن قبول الدعوة خير من انقسام الجماعة.

ولقد كان في استطاعته أن يقيم العقبات دون قبول هذه الدعوة وأن يتعلل بوسيلة انتقالهم إلى «راندولز» بقضهم وقضيضهم، ولكن وجود عربة ابنته بخيولها في «هارتفيلد» جعله لا يوجه لهذه المسألة أكثر من سؤال بسيط لم يرق حتى إلى حد التشكك. بل أن «إمَّا» لم تجد نفسها في حاجة إلى وقت طويل لكي تقنعه بأن في إمكانهم كذلك تدبير مكان لهاريت في إحدى العربتين.

ولم يُدع معهم إلى هذا العشاء، إلا زمرتهم الخاصة المكونة من «هاريت» و«مستر ألتن» و«مستر نيتلي» إذ روعيت فيه ميول «مستر وودهاوس» وعاداته فكان عدد المدعوين قليلًا، وحددت للعشاء ساعة مبكرة.

وكانت «هاريت» قد أمضت المساء في اليوم السابق لهذا الحادث العظيم، في «هارتفيلد» (وإنه لحادث عظيم حقًا أن يتناول «مستر وودهاوس» العشاء خارج بيته في الرابع والعشرين من ديسمبر)، وكانت قد عادت إلى بيتها مضطرة لإصابتها بوعكة برد شديدة، ولولا رغبتها الملحة في أن تقوم «مسز جدرد» على تمريضها، لما سمحت لها «إمَّا» بمغادرة البيت.

وزارتها «إمَّا» في اليوم التالي، فأدركت استحالة ذهابها معهم إلى «راندولز»، فقد كانت تشكو من حمى شديدة، وكانت تشكو من ألم شديد في حلقها.

وكانت «مسز جدرد» شديدة العناية بها، تفيض عليها حنانًا. كما تحدثوا عن استدعاء «مستر بري». وكانت «هاريت» في شدة المرض والأعياء، فلم تقو على مقاومة هذا الظرف القاهر الذي منعها من تلبية هذه الدعوة الممتعة، وإن لم تتمالك نفسها من البكاء وهي تتكلم عن حرمانها منها.

وجلست «إمَّا» معها بقدر ما سمح لها وقتها كي ترعاها في غياب «مسز جدرد» الذي لم يكن في استطاعتها أن تتحاشاه، ثم أخذت لكي ترفع من معنوياتها تحدثها عما سوف يشعر به «مستر ألتن» في حزن وألم عندما يعلم بحالتها، وتركتها أخيرًا وقد استراحت إلى حد مقبول بإيمانها السعيد بأنه لن يجد في دعوته إلى العشاء راحة أو غبطة، وبأن الكل سوف يحزنون لتخلفها عن الحضور. ولم تكد «إمَّا» تبعد عن بيت «مسز جدرد» بضع خطوات حتى التقت بمستر «ألتن» نفسه متجهًا إليها فيما يبدو. وبينما هما يتمهلان في سيرهما معًا، ويتحدثان عن المريضة التي كان ذاهبًا للسؤال عنها عندما سمع بشدة وطأة المرض عليها، وحتى يستطيع كذلك أن ينقل بعض أنبائها إلى «هارتفيلد»، أدركها مستر «جون نيتلي»، وكان عائدًا من زيارته اليومية إلى «دونول» بصحبة ولديه الكبيرين اللذين دل إشراق وجههما بالصحة على ما أفاداه من التجول في القرية وبدا من إسراعهما الخطى نحو البيت إنهما كانا متلهفين على التهام لحم الضأن وبودنج الرز.

وسار الكل معًا، وأخذت «إمَّا» تصف مرض صديقتها وتقول إنه التهاب حاد في الحلق، مصحوب بارتفاع كبير في درجة الحرارة، مع نبض سريع ومنخفض، وما إلى ذلك من علة صديقتها وإنه قد أحزنها ما علمته من «مسز جدرد» من أن «هاريت» كانت دائمًا عرضة لالتهاب الحلق الشديد وأنها كثيرًا ما كانت تنزعج عليها.

وبدا على «مستر ألتن»، الانزعاج عندما سمع ذلك، وقال متعجبًا:

«التهاب في الحلق!! أرجو ألا يكون من الأمراض المعدية وألا يكون من الأمراض الخبيثة، وهل رآها «بري»؟ يجب أن تحافظي على نفسك كما تحافظين على صديقتك، وألا تخاطري بنفسك. ولكن لماذا لم يذهب «بري» ليراها؟

غير أن «إمَّا» - ولم تكن تخشى على صديقتها شيئًا – سرعان ما هدّأت من روعه وأكّدت له بأن «مسز جدرد» لا تنقصها العناية ولا التجربة، ولكن لما كان من الواجب أن تبقيه على شيء من التعلق على أية حال ولم تكن لها رغبة في تخليصه منه، بل لعلها كانت أميل إلى زيادته وإشعاله، فقد قالت بعد قليل وكأنها تطرق موضوعًا آخر:

«إن الطقس بارد، شديد البرودة، حتى ليبدو من برودته كأنه الثلج بعينه، ولو كان ذهابنا اليوم إلى مكان آخر ومع جماعة أخرى، لحاولت ولا شك عدم مبارحة البيت، وعملت على إبعاد أبي عن تلك المخاطرة، أما وقد صحت عزيمته، وبدا وكأنه لا يشعر بالبرد، فأني لا أريد التدخل لأني أعلم بأن ذلك قد

يصيب كلا من «مستر وستن» و«مسز وستن» بخيبة أمل شديدة، ولكني أقسم بأني لو كنت مكانك يا مستر «ألتن» لاعتذرت عن الذهاب، إذ يبدو لي أن صوتك به أثر التهاب، فإذا أضفت إلى ذلك ما يطلبه منك الغد وما ستعانيه فيه من مشقة، فلست أظن إلا أن الحكمة تقضي بأن تمكث في البيت، وأن تعنى بنفسك الليلة».

وبدا «مستر ألتن» وكأنه لا يدري بما يجيب، بل لقد كان فعلًا لا يدري بما يجيب، إذ على الرغم من أنه راض غاية الرضى عن الرعاية التي يلقاها من مثل هذه الحسناء، حريص على ألا يخالف نصحها، لم يكن لديه أقل ميل للتنحي عن هذه الزيارة. ولكن «إمَّا» كانت مشغولة بما لديها من آراء وتصورات سابقة لم تسمح لها بأن تستمع إليه في غير تحيز، أو تنظر إليه بعين فاحصة، بل رضيت عن نفسها كل الرضى، وهي تستمع إليه وهو يقول: «نعم الطقس بارد جدًا، إنه في غاية البرودة ولا شك».

وسارت وهي مغتبطة فقد تمكنت من أن تحله من الذهاب إلى «راندولز»، ومكّنت له من أن يسأل عن «هاريت» في كل ساعة من ساعات المساء، وقالت أخيرًا.

«لقد أنصفت، وسنتولى عنك الاعتذار «لمستر وستن» وزوجته».

وما كادت تنتهي من عبارتها، حتى وجدت زوج أختها يعرض عليه مكانًا في عربته، إذ لم يكن هناك ما يمنعه من الذهاب غير الطقس، ورأت «مستر ألتن» يوافق على هذا العرض فورًا وهو راض كل الرضى، وهكذا انتهى الأمر، وأصبح ذهاب «مستر ألتن» شيئًا مؤكدًا، بل لم يبد على محياه الجميل الوضاء من السرور من قبل مثل ما بدا عليه في هذه اللحظة، ولم يسبق له أن ابتسم بهذا الوضوح، ولا سبق لعينيه أن شعتّا بالسرور كما رأتهما تشعان وهو ينظر إليها بعد ذلك.

وقالت في نفسها: «أجل ما أعجب ذلك!! ما أعجب بعد أن خلّصته من الدعوة أن يختار الذهاب معهم ويترك «هاريت» وهي مريضة!! إنه لشيء ولا شك في غاية الغرابة!! ولكني أعتقد أن كثيرًا من الرجال، وعلى الأخص غير المتزوجين منهم، يميلون إلى مثل ذلك، ويولعون بتناول العشاء خارج بيوتهم، وهم يضعون الدعوة إلى وليمة عشاء في المقام الأول من مسراتهم، بل لعلها مفضلة لديهم على أعمالهم وكراماتهم، وحتى على واجباتهم. إذن لا بد أن يكون هذا هو حال «مستر ألتن»، وهو شاب له مكانته ولا شك، وفيه رقة وعذوبة، وهو يهيم بحب «هاريت»، ولكنه مع ذلك لا يقوى على رفض دعوة إلى وليمة، فيستجيب لتناول العشاء خارج بيته كلما دعي، ما أعجب الحب!! فها هو يرى سرعة البديهة في «هاريت»، ثم لا يؤثر أن يتناول العشاء وحده من أجلها».

وتركهما مستر «ألتن» بعد ذلك فورًا، ووجدت «إمَّا أن من العدل أن تعترف بأنها شعرت بوجود عاطفة قوية من الطريقة الِتي ذكر بها اسم «هاريت»

ساعة انصرافه، ومن نبرات صوته وهو يؤكد لها بأنه سيذهب إلى بيت «مسز جدرد» ليستقصي أخبار صديقتها الجميلة قبل أن يسعد بلقائها ثانية، وأنه كله أمل في أنه سوف يتمكن من موافاتها بأنباء أحسن، ثم تنهد ومسح الابتسامة عن شفتيه بطريقة جعلت كفة الميزان ترجح في جانبه».

ومضت دقائق قليلة سادها السكون، بدأ بعدها «جون نيتلي» الحديث بقوله:

«إني لم أر في حياتي رجلًا حريصًا على التظرف مثل «مستر ألتن»، وإنه ليجهد نفسه في ذلك إذا كان الأمر متعلقًا بالنساء، وهو مع الرجال حكيم غير متكلف، إما إذا أراد إشاعة البهجة في النساء فإن جوارحه كلها تنطق بذلك».

وردّت «إمَّا» تقول «إن تصرفات «مستر ألتن» لا تخلو من عيوب – ولكن إذا أراد الإنسان أن يكون محبوبًا، وجب عليه أن يتغاضى - وكم يتغاضى الواحد منا عن الكثير. والشخص المتوسط المواهب، إن بذل قصارى جهده، كان له التفوق على الممتاز الخامل. والمرء لا يسعه إلا أن يعرف ما عليه «مستر ألتن» من رقة الطبع وطيبة القلب».

وردَّ مستر «جون نيتلي» على الفور وفي شيء من الخبث:

«أجل يبدو عليه أنه على جانب كبير من رقة الشعور نحوك أنت».

وأجابت وعلى ثغرها ابتسامة تعبّر عن دهشتها: «أنا!! وهل يدور بخلدك أني هدف «مستر ألتن» ومطمحه؟».

«إني أعترف لك يا «إمَّا» بأن هذا ما جال بخاطري، وإذا كان ذلك لم يخطر ببالك من قبل، فيحسن بك أن تأخذيه في اعتبارك الآن».

«عجبًا أن يحبني مستر ألتن؟ يا لها من فكرة!!».

«أنا لا أقول أنه يحبك، ولكن قد يحسن بك أن تأخذي في اعتبارك إذا كان الأمر كذلك أم لا، وأن ترتبي سلوكك نحوه وفقًا لما يتبين لك بعد ذلك، وأظن أن معاملتك فيها تشجيع له، إنني أتكلم معك يا «إمَّا» كصديق، ويجدر بك أن تدققي النظر حولي وأن تتأكدي من عملك ومن مقاصدك».

«أشكرك، ولكني أؤكد لك بأنك لم تصب شيئًا من الحقيقة في ذلك، فأنا و«مستر ألتن» صديقان حميمان، ولا شيء أكثر من ذلك».

قالت ذلك وقد استمرت في سيرها وهي تسرَّي عن نفسها بالتفكير في الهفوات التي كثيرًا ما تنجم عن عدم الإلمام الكامل بالظروف والملابسات وفي الأخطاء التي يقع فيها أولئك الذين يدعون لأنفسهم دائمًا قدرة الحكم على الأشياء. فلم يرقها أن ترى زوج أختها يتخيلها غير متبصرة وجاهلة، وفي حاجة إلى النصح، أما هو فلم يزد على ما قاله شيئًا. أما «مستر وودهاوس» فكان قد وطد نفسه على القيام بهذه الزيارة إلى حد كان من المستحيل معه أن يفكر في التراجع عنها على الرغم من اشتداد برودة الجو، وركب أخيرًا عربته في الموعد المحدد بالدقة، ومعه كبرى ابنتيه وهو يبدو أقل من الآخرين إحساسًا ببرودة الطقس المتزايدة، فلقد غمرته السعادة التي سيضيفها ذهابه على «راندولز»، حتى لم يُعد يتبين برودة الجو، ثم هو فوق ذلك قد تدِثر

بالملابس حتى لم يعد يشعر بالبرد. ومع هذا فقد كان البرد زمهريرًا، فلما بدأت العربة الثانية تتحرك، كانت بعض ذرات الثلج قد أخذت تتساقط، وبدت السماء محمّلة بالثلج، وكأنما لا ينقصها إلا هبّة ريح معتدلة، ثم تصبح الأرض بعد قليل وقد كسيت بحلة بيضاء ناصعة.
ولاحظت «إمَّا» بعد قليل أن زميلها لم يكن منشرح الصدر، فلقد كان يرى في الاستعداد لهذا العشاء والخروج في مثل هذا الطقس، وما قد يتعرض له أطفاله بعد تناول العشاء من أذى، أو على الأقل من مضايقات شرًا لا يرضاه مستر «جون نيتلي» بأي حال. ثم هو فوق ذلك كان لا ينتظر من وراء هذه الزيارة شيئًا ذا قيمة، ولذا فقد أمضى كل الوقت الذي كانت تسير فيه العربة بهما إلى بيت راعي «الأبرشية» وهو يُعَبّر عن عدم ارتياحه وانطلق يقول: «لا بد أن يكون المرء قد أفرط في حسن الظن بنفسه وهو يدعو الناس إلى ترك مواقدهم، ليواجهوا يومًا كهذا سعيًا إلى لقائه، ولا بد أنه يظن في نفسه أنه شخص محبوب للغاية. وأنا من ناحيتي لا أجد في نفسي القدرة على فعل ذلك، لأنه سلوك في منتهى السخف، فها هو الثلج يتساقط الآن. يا لها من جهالة!! ألا تترك الناس ليستريحو في بيوتهم؟ ويا جهل أولئك الذين لا يستقرون في بيوتهم لينعموا بالراحة ما دام هذا في إمكانهم!! الحق لو أننا اضطررنا إلى الخروج في أمسية كهذه، تلبية لنداء الواجب، أو للقيام بعمل هام، لاعتبرنا ذلك أمرًا شاقًا، وها نحن وعلينا من الملابس ما قد يكون أخف مما اعتدنا أن نرتديه، نسير باختيارنا، وبغير مبرر، نتحدى صوت الطبيعة التي تُبصّر الإنسان بما يقع تحت نظره وحسه لكي يستقر في بيته، ويحافظ على كل ما لديه تحت سقفه، ومع ذلك فها نحن نسير قدمًا لنقضي خمس ساعات مُقبضة للنفس، في بيت رجل آخر، لن نقول في أثنائها قولًا أو نسمع شيئًا لم نقله بالأمس، أو لم يقرع أسماعنا من قبل، وقد نقوله أو نسمعه في الغد كذلك، نغدو في طقس عبوس، وقد نعود في طقس أكثر عبوسًا، ثم فوق كل ذلك أربعة خيول وأربعة من الخدم يخرجون في هذه الرحلة لا لشيء إلا لينقلوا خمسة مخلوقات كسالى تنتفض جسومهم إلى حجرات أبرد، وبين جماعة أسوأ ممن قد يكونون معهم في بيوتهم».
ولم تجد «إمَّا» في نفسها القدرة على موافقته على رأيه وهي راضية قريرة، على نحو ما اعتاد أن يسمعه من زوجته حين تقره على رأيه بقولها: «هذا صحيح يا حبيبي». ومن ثم فقد حزمت أمرها على ألا ترد عليه. فهي من جهة لا تحب الموافقة العمياء، ومن جهة أخرى تخشى إن هي ردت عليه أن تثير مشاحنة بينهما. وهكذا آثرت ألا تنبس ببنت شفة. وتركته يتكلم ويُصلح من وضع نظارته، بينما التفّت هي في دثارها دون أن تفتح فمها بكلمة.
ووصلا أخيرًا إلى بيت مضيفهما فانعطفت العربة بهما إلى داخله، وأدلى سُلّمها وما هي إلا لحظة حتى كان «مستر ألتن» معهم وقد تهندم وأشرق وجهه بابتسامةٍ جميلة. ورحّبت «إمَّا» برؤيته كوسيلة لتغيير مجرى الحديث. لقد بدأ

«مستر ألتن» وكل جوارحه تنطق بالبشر والامتنان، وأخذ يرحّب بهما في بهجة وسرور حتى ظنت بأنه وقد وصلته معلومات عن «هاريت» تختلف عما وصلتها، وكانت قد أرسلت وهي ترتدي ملابسها تسأل عنها، فجاءها الرد بأنها «كما هي - لم تتحسن».

وقالت في الحال: «لم يكن التقرير الذي وصلني من «مسز جُدرد» طيبًا كما كنت أرجو، إذ كان الرد على سؤالي: «لم تتحسن».

وظهر على وجهه الحزن في الحال، ورد عليها بصوت ملؤه الحنان:

«لا، بل يخزنني أني وجدت - وكنت على وشك أن أخبرك- أني عندما ذهبت إلى بيت «مسز جُدرد»، وكان هذا آخر ما قمت به قبل رجوعي لارتداء ملابسي علمت بأن حالة «مس سمث» لم تتحسن، ولم تكن بأي حال أحسن مما كانت، بل لعلها كانت أسوأ، وقد أقلقني ذلك، وأخذ مني الحزن مأخذه. لقد كنت أعلل نفسي بالأمل في أن تكون قد تحسنت بعد أن تناولت جرعة من الدواء المنعش للقلب في الصباح».

وابتسمت «إمَّا» وهي تقول: «أرجو أن تكون زيارتي قد أفادتها من ناحية حالتها النفسية، أما آلام الحلق فهذا ما لا قِبل لي بأبعاده عنها، وهي ولا شك وعكة برد شديدة الوطأة، ولعلك سمعت بأن مستر «بري» قد زارها».

«نعم لقد ظننت ذلك – أعني أنني لم -».

«إنه اعتاد أن يزورها كلما تعرضت لهذه الأمراض، وأرجو أن يصل كلانا في الصباح تقرير يجعلنا أكثر اطمئنانًا، وإن كان من المستحيل ألا يشعر الإنسان بالقلق عليها، وكان تخلفها عن مصاحبتنا الليلة خسارة أليمة في الواقع».

«يا له من شيء مُروِّع!! إنه لأمر مروّع ولا ريب، وسنشعر في كل لحظة بأنها تركت فراغًا».

كان ذلك تفكيرًا محمودًا منه، بقدر ما كان تنهده وهو يتكلم معها جديرًا وبالتقدير. ولكن حديثه في هذا الموضوع كان يجب في رأيها أن يمتد أطول من ذلك وزادت حسرتها عندما رأته، ولما يمض على ذلك غير نصف دقيقة، يتحدث عن أشياء أخرى، وبصوت يفيض بشرًا وابتهاجًا.

قال:

« يا لها من وسيلة ممتازة أن يستعمل فراء الضأن للعربات، وما أكثر ما يجعل العربة مريحة حتى ليصبح من المستحيل أن يشعر المرء بالبرد مع هذه الحيطة. إن الوسائل الحديثة قد جعلت عربات السادة ولا شك مريحة للغاية فالمرء فيها يُحاط بسياج يقيه من الطقس، حتى النسمة لا تجد إلى داخلها منفذًا، وبذلك أصبح الطقس شيئًا لا يخشى عواقبه أبدًا، فالطقس هذا المساء قارس البرودة، ولكننا ونحن داخل عربة كهذه لا نكاد نحس به، ها ها!! إني أرى بعض الثلج يتساقط فعلًا».

وقال «جون نيتلي»، «أجل وأظن أنه سيتساقط كثيرًا».

واستدرك «مستر ألتن» يقول: «إنه طقس عيد الميلاد، وهو يتفق وما يكون عليه الطقس عادة في مثل هذا الوقت من السنة، وكم كان من حسن طالعنا أن سقوط الثلج لم يبدأ بالأمس فيعوق اجتماعنا اليوم. نعم لقد كان هذا محتملًا، وإذن لكان من الصعب على «مستر وودهاوس» أن يجازف بالحضور لو أن الأرض اكتست بطبقة من الثلج، ولكن الثلج
كما هو الآن شيء لا يُعتد به. وهذا هو الفصل الذي يستحب فيه اجتماع الأصحاب. وفي يوم عيد الميلاد يدعو كل امرئ الأصدقاء حوله. والناس جميعًا لا يبالون بالطقس مهما ساءت حالته. لقد حجزني الثلج مرة مدة أسبوع كامل في بيت أحد الأصدقاء، ولم يكن أسعد تلك الأيام، فلقد ذهبت على أن أقضي ليلة واحدة، فلم أتمكن من الخروج إلا بعد أسبوع من تلك الليلة.
ونظر إليه مستر «جون نيتلي» نظرة تدل على أنه لا يعرف أي سرور هذا الذي يعنيه واكتفى بأن يقول في عبارة جامدة: «أما عن نفسي، فأنا لا يروقني أن يحتجزني الثلج أسبوعًا بأكمله في «راندولز».
ولقد كان من الجائز أن تجد «إمَّا» في هذا الحديث ما يُسرِّي عنها في وقت غير هذا الوقت. ولكنها في هذه اللحظة، كان قد استبد بها العجب من مشاعر «مستر ألتن» بإزاء مسائل أخرى، وكأنما غابت «هاريت» عن ذهنه تمامًا من أجل مأدبة ممتعة.
واستمر «مستر ألتن» يقول: «ولا بد أننا واجدون دفئًا كبيرًا هذه الليلة، وأن كل شيء سيكون في منتهى الراحة، وأن «مستر وستن» وزوجته أشخاص يسعد المرء بهم. فمسز «وستن» فوق كل مديح، أما هو فهو شخص يُعتز به، فهو مضياف بقدر ما هو مولع بالاجتماعات، وسوف، يكون اجتماعنا قليلًا في عدد أفراده، غير أنه عندما تكون الجماعة الصغيرة من الصفوة، فإنها تكون أجمل الاجتماعات جميعًا. ثم أن حجرة الطعام في بيت «مستر وستن» لا تتسع لأكثر من عشرة، وأنا من جانبي أفضل في مثل هذه المناسبات أن ينقص العدد اثنين عن العشرة على أن نزيد عليها اثنين. ثم التفت نحو «إمَّا» وقال في نغمة رقيقة: «أظنك توافقينني على ذلك، وأعتقد أنك تحبذين رأيي هذا، ولو أن مستر «نيتلي» وقد اعتاد الاجتماعات الكبيرة في لندن لا يشاركنا هذا الشعور».
«ليس لي علم بالاجتماعات الكبيرة في لندن يا سيدي، فأنا لا أحضر وليمة عشاء مع أحد أبدًا».
ورد «مستر ألتن» بنغمة المتعجب المشفق: «عجبًا!! ما كنت أظن أن مهنة القانون تستبعد الإنسان بهذا القدر، أجل يا سيدي ومع ذلك فلا بد أن يحين الوقت الذي تجزى فيه على كل ذلك عندما يقل تعبك وتزداد متعتك».
وأجابه مستر «جون نيتلي» وهم يهمون باجتياز البوابة الخارجية: «إن أحسن متعة لي هي أن أجد نفسي قد عُدت إلى «هارتفيلد» سالمًا».

كان لا بد لكل رجل من هؤلاء السادة أن يُغير من ملامح وجهه وهم يدخلون إلى حجرة الاستقبال في بيت «مستر وستن» - فيحد «مستر ألتن» من مرحه، ويبدو مستر «جون نيتلي» من عبوسته، وأن يقلل «مستر ألتن» من ابتساماته – بينما يزيد مستر «جون نيتلي» منها، ليكونا أهلًا للمكان. وأما «إمَّا» فيكفيها أن تكون طبيعية وأن تظهر كعادتها فرحة مستبشرة، فقد كانت تجد متعتها في وجودها بين أسرة «مستر وستن»، إذ كان «مستر وستن» من أقرب المقربين إليها، ولم يكن هناك فوق ظهر الأرض من تتحدث معه دون تحفظ مثلما تتحدث مع زوجته، وما من أحد غيرها كانت تقص عليه شيئًا وهي موقنة بأنه يستمع إليها ويعي ما تقول ويفهم ما تقصه عليه في بسائط أحوالها وترتيباتها ومشكلاتها ومسراتها ومسرات أبيها مثلها. ولم تكن تذكر شيئًا عن «هارتفيلد» إلا وكانت «مسز وستن» تبدي عظيم اهتمامها به، وكان من أهم ما ترتاح إليه نفس كل منهما، أن يتناولا بالحديث كل المسائل البسيطة التي تتوقف عليها السعادة اليومية في حياتها الخاصة، وأن يدوم الحديث بينهما في ذلك نصف ساعة دون مقاطعة.

لقد كان في ذلك متعة لم تكن زيارة اليوم بأكمله لتوفيها حقها، ولم تكن لتختص بها نصف الساعة الحالية. ومع ذلك فقد وجدت «إمَّا» ما يُرضيها في رؤية «مسز وستن» وابتساماتها، وفي إحساسها بأنها تلمسها وتسمع صوتها، وقررت ألا تفكر ما وسعها في تصرفات «مستر ألتن» وما قد يأتيه من أفعال مستغربة، أو في أي شيء آخر قد لا ترتاح إليه نفسها وأن تستمع بكل ما في الحفل من متعة أقدر ما تستطيع. أما مرض «هاريت» فكان قد دار فيه حديث طويل قبل وصول «إمَّا» إذ أخذ «مستر وودهاوس» يروي قصة البرد الذي أصابها، بعد أن كان قد استراح في مقعده وقتًا يسمح له بسرد كل شيء عنه، وأن تتحدث عن قصة مجيئه ومجيء «إيزالا»، مُردِّدًا بأن «إمَّا» سوف تأتي بعده. ثم ما كان يصل إلى نهاية حديثه قريرًا وهو يقول: «إن على «جيمز» أن يأتي لرؤية ابنته حتى كانت بقية الجماعة قد حضرت، وتمكنت «مسز وستن» التي كانت توليه كل انتباهها من أن تتركه وترحب بعزيزتها «إمَّا».

وكانت «إمَّا» قد رأت أن تتناسى «مستر ألتن» بعض الوقت، من ثم فقد ساءها وقد اتخذ كل منهم مجلسه، أن تراه يجلس قريبًا منها، حتى كان من العسير

عليها أن تتغلب على فكرة عدم شعوره العجيب نحو «هاريت».
ولم يجلس في ملاصقاتها فحسب، ولكنه استمر يطالعها بوجهه المغتبط ويوجه إليها الحديث في كل مناسبة بتلهف واشتياق، وهكذا بدلًا من أن تنساه، دفعها سلوكه إلى عدم الكف عن التفكير في قرارة نفسها فيما إذا كان رأي زوج أختها فيه صحيحًا، وهل من الممكن أن يكون ذلك الرجل قد بدأ يتحول بحبه من «هاريت» إليها. إنه لمن السخف الذي لا يحتمل أن يفكر مثل هذا التفكير، ومع ذلك فقد كان مهتمًا بها، حريصًا على توفير الدفء لها، شديد الاهتمام بأبيها، سعيدًا بالاحتفاء بمسز «وستن». ثم بدأ آخر الأمر يعجب برسومها في تحمس شديد ودراية قليلة، فبدا ويا للهول كما لو كان على أبواب الحب. ولهذا فقد جهدت ما وسعها الجهد في أن تحتفظ نحوه بالأدب الضروري، ورأت لصالحها ألا تكون فظة معه، ولصالح «هاريت» أن تكون دمثة في سلوكها، أملًا في أن تتحول الأمور إلى الغاية المنشودة. على أن ذلك تطلّب منها جهدًا كبيرًا. وقد كان الآخرون منهمكين في الحديث وقت أن كان «مستر ألتن» يشغلها بسخافته، في حين أنها كانت تتوق إلى الإصغاء لما يدور بينهم من حديث. ومع ذلك فقد سمعت الكثير مما كان كافيًا لأن تعرف منه أن مستر «وستن» كان يُدلي بمعلومات عن ابنه، وسمعت كلمة «فرانك» وكلمة «ابني» تتردد مرارًا خلال حديثه، وزاد ظنها مما سمعته من أطراف الحديث بأنه يُعلن قرب مجيء ابنه لزيارتهم. ولكنهم انتهوا من حديثهم قبل أن تتمكن من جعل «ألتن» يكف عن الكلام معها، ورأت أن أي سؤال جديد تسأله في موضوع فرانك قد يكون شيئًا مستهجنًا. وعلى الرغم من أن «إمَّا» كانت قد وطدت عزمها على ألا تتزوج أبدًا، فقد كان ذكر اسم «فرانك تشرشل» أو التفكير فيه يثير اهتمامها دائمًا. وكثيرًا ما فكرت، وخاصة بعد أن تزوج والده بمس «تيلور»، أنها إذا قدّر لها أن تتزوج، فإنه هو الشخص الذي يناسبها في السن والخلق، وبدا لها بحكم الرابطة التي تربط الأسرتين أنه رجلها، وما كانت تظنها إلا زيجة لا بد وأن يفكر فيها كل من يعرفهما. بل لقد اقتنعت تمامًا بأن «مستر وستن» و«مسز وستن» كانا يفكران في ذلك. وعلى الرغم من أنها لم تكن تريد أن تتأثر به أو بغيره، حتى لا تتخلى عن وضع كانت تؤمن بأنه يهيء لها من أسباب الخير ما لا يهيئه لها أي وضع آخر، فقد كانت تتوق لرؤيته، مصممة على أن تجده ظريفًا، واثقة من أنه سيعجب بها إلى درجة ما شاعرة بالسرور من أن تراود عقول أصدقائها فكرة زواجهما من بعضهما.
ولم تجد – وهذه مشاعرها – إلا أن حفاوة «مستر ألتن» بها قد أسيئ اختيار وقتها بصورة مزعجة، ولكنها كانت مرتاحة مع ذلك لظهورها معه بالأدب الجم، رغم أنها كانت تشعر بالوجوم في قرارة نفسها، كما أثلج صدرها ما ظننته من أن بقية وقت الزيارة لن ينقضي دون أن تظفر بالمعلومات التي تريدها عن فرانك، أو على الأقل بمضمونها من «مستر وستن»، ذلك الرجل الصريح النقي السريرة. وقد تحقق ظنها عندما سعدت بالتخلص من «مِستر ألتن» وجلست

بجوار «مستر وستن» ساعة العشاء. واستغل مضيفها أول فترة سنحت بعد عبارات الترحيب بالضيوف وكانوا قد انتهوا من تناول ضلع الضأن، ليقول لها:
«لا ينقصنا إلا اثنان آخران هنا صديقتك الصغيرة اللطيفة «مس سمث» وابني لكي أقول بعدها أن عددنا قد اكتمل، وأعتقد أنك لم تسمعيني وأنا أقول للآخرين في حجرة الاستقبال، أننا في انتظار «فرانك» فلقد وصلني منه خطاب في هذا الصباح، يقول فيه إنه سيكون معنا بعد أسبوعين.
وتكلمت «إمَّا» بالقدر المناسب من السرور، ووافقته على رأيه بأن «مستر فرانك تشرشل» و «مس سمث» يكملان الجماعة فعلًا.
واستطرد «مستر وستن» يقول: «إن فرانك ظل يبدي رغبته في الحضور إلينا منذ سبتمبر، وظل يردد ذلك في كل رسالة من رسائله، ولكنه لا يتحكم في وقته، فأمامه من يتعين عليه أن يرضيهم، ورضاؤهم واجب عليه (وبيني وبينك) إن إرضاءهم يتطلب تضحيات كبيرة وكثيرة. ولكني لا أشك الآن في أننا سنراه هنا في حوالي الأسبوع الثاني في شهر يناير».
«ما أعظم ما يدخله هذا من السرور على قلبك، وإن «مسز وستن» لشديدة الشوق إلى التعرف به، ولابد أنها لا تقل عنك اغتباطًا بمجيئه».
«أجل سيسعدها ذلك، ولكنها تعتقد أن مجيئه قد يؤجل مرة أخرى. إنها ليست متأكدة من حضوره تأكدي من ذلك، ولكنها لا تعرف الوضع معرفتي به، والأمر كما ترين هو (وهذا سر بيننا لم أذكر منه حرفًا واحدًا في الغرفة الأخرى، وفي كل العائلات أسرار كما تعلمين) إن جماعة من الأصدقاء وجهت إليهم الدعوة لزيارة «أنسكومب» في شهر يناير، ويتوقف
حضور «فرانك» على تأجيل زيارتهم، فإذا لم تؤجل فلم يستطيع التحرك من مكانه، ولكني أعلم أنهم سيؤجلون زيارتهم، فهناك سيدة لها مكانتها في «أنسكومب»، وهي تكره تلك الأسرة بصفة خاصة، وعلى الرغم من أن هناك ما يوجب دعوة هذه الجماعة مرة في كل سنتين أو ثلاث، فإن الزيارة تؤجل دائمًا عندما تصبح وشيكة الحدوث، ولا يخامرني أدنى شك أن هذا هو الذي سيحدث الآن، بل أني أكاد أجزم بذلك كما أجزم بوجودي هنا الآن، وهكذا سوف أرى «فرانك» هنا قبل منتصف يناير (وأؤمأ برأسه نحو رأس المائدة وهو يقول: «ولكن صديقتك الحميمة التي تجلس هناك ليس لها من التخيلات، و لم تعتد منها إلا القليل في «هارتفيلد»، إلى حد لا تستطيع معه أن ترتب حسابها على أساس هذه التخيلات كما ظللت أفعل أنا وقتًا طويلًا».
وردت «إمَّا» تقول: «إنه لمن دواعي أسفي أن يكون هنالك أي شك في موضوع حضوره، ولكني مع ذلك في جانبك يا «مستر وستن» فإذا رأيت أنه سيأتي لزيارتكم كان ذلك رأيي كذلك فأنت عليم بما يجري في «أنسكومب».
«أجل وأعتقد أن حقي أن يكون لي هذا العلم ولو أني لم أذهب إلى ذلك المكان مرة طوال حياتي، وهذه السيدة التي حدثتك عنها، امرأة مسنة، ولكني لا أسمح لنفسي يومًا بأن أذمها مراعاة لفرانكِ، لأني أعتقد إنها مولعة به. وقد

كان عهدي بها أنها لا تحب إلا نفسها، ولكني أراها دائمة العطف عليه (وذلك بطريقتها الخاصة، وعلى أن تغض الطرف عن أهوائها وتقلباتها، ورغبتها في أن يكون كل شيء وفق هواها) وفى رأيي أنه جدير بالثناء لقدرته على إثارة مثل ذلك الشعور فيها، وإذا كنت لا أبوح لأحد بذلك، فإني أختصك بأن أقول لك أن قلب هذه السيدة نحو الناس جميعًا كأنما قُدّ من حجر، وطباعها لا تحتمل».

وصادف الحديث في هذا الموضوع هوى في نفس «إمَّا» حتى أنها شرعت تتحدث فيه مع «مسز وستن» بمجرد انتقالهم إلى حجرة الاستقبال، راجية أن تجد في حضوره باعثًا على سرورها، ولو أنها أضافت بأنها تعلم بأن المقابلة الأولى قد تكون لها رهبتها. ووافقتها «مسز وستن» على ذلك وإن زادت عليه أنه يسعدها أن تكون مطمئنة إلى أنه لن يكون هناك خوف من تلك المقابلة الأولى في الموعد الذي يتحدثون عنه «لأني لا أتوقع أن يتحقق مجيئه في هذا الموعد، وليس لي ما «لمستر وستن» من ثقة بمجيئه، وأني لأخشى كثيرًا أن يتمخض كل هذا عن لا شيء، وأعتقد أن «مستر وستن» كان يُدلي إليك بوصف دقيق عن الموقف».

«أجل، ويبدو أن كل شيء لا يتوقف إلاعلى انحراف مزاج «مسز تشرشل» وهو ما أرى ليس في الدنيا شيء يكاد يكون مؤكدًا مثله».

وقالت «مسز وستن» وهي تبتسم: «عزيزتي» إمَّا، وما الذي يضمن لنا أنها ستغير رأيها فجأة؟ ثم التفتت إلى «إيزابلا» التي لم تسمع الحديث وقالت: «ليكن في علمك يا عزيزتي «مسز نيتلي» أني لست واثقة أبدًا من رؤية مستر «فرانك تشرشل» كما يظن والده، لأن ذلك يتوقف على شعور زوجة خاله وما يحلو لها، أو باختصار على مزاجها، وأني لن أحجم عن الإدلاء بالحقيقة إليكما يا ابنتاي وهي أن «مسز تشرشل» هي الآمرة الناهية في «أنكسومب»، وهي امرأة ذات أهواء متقلبة، ومجيئه الآن متوقف على إرادتها في إخلاء سبيله».

وردت «إيزابلا»: «أوه!! «مسز تشرشل» إن الناس جميعًا يعرفونها، وإني أؤكد لك بأني ما فكرت في هذا الفتى المسكين إلا وشعرت بالاشفاق عليه، إذ لا بد أن يكون العيش مع شخص سيء الطباع مثلها شيئًا مزعجًا، وهو ما أعفينا منه في حياتنا من حسن حظنا. إنها حياة لا بد أن تكون تعسة بائسة وإنه لمن النعم أن هذه السيدة لم ترزق بنين، فلو كان لها أطفال، فما أشد ما كانت تسببه لتلك المخلوقات الصغيرة المسكينة من شقاء!! ».

وودت «إمَّا» لو أنها كانت على انفراد مع «مسز وستن» في تلك اللحظة حتى تسمع أكثر مما سمعت، لأن «مسز وستن» تبوح لها بما لا تجازف بأن تبوح به «لإيزابلا»، ولأنها كانت موقنة بأنها لن تخفي عنها شيئًا يتعلق بأسرة! تشرتشل» فيما عدا رأيها في الفتى وهو رأي استطاعت بخيالها وغريزتها أن تقف على قدر كبير منه. وعلى أية حال فلم يكن هناك ما يقال في تلك الآونة أكثر مما قيل، فقد لحق بهن «مستر وودهاوس» في حجرة الاستقبال بعد قليل، وهو رجل لا يطيق صبرًا على إطالة الجلوس بعد تناول العشاء، ويعتبر

ذلك أشبه بالبقاء في السجن. ولم يكن الحديث ولا النبيذ عنده مما يساعده على البقاء في مكانه، ومن ثم فقد انتقل الآن وهو مغتبط إلى أولئك الذين كان يشعر دائمًا بالراحة وهو بينهم.

وفيما هو يتحدث إلى «إيزابلا»، سنحت الفرصة «لإمّا» لكي تقول:

«وعلى ذلك فأنت لا تعتبرين زيارة ابن زوجك هذه مؤكدة بأي حال، يؤسفني ذلك حقًا، فالتعارف بينكما لا بد أن يكون غير سار متى حدث، ولكنه كلما تم في أقرب وقت كان أفضل».

«أجل، وكلما كان هناك تأجيل زاد تخوف الإنسان في أن تكون هناك تأجيلات أخرى، فلو تأجلت زيارة أسرة «بريزويتس» هذه المرة، فإن خوفي من انتحال أعذار أخرى تخيّب رجاءنا لن ينقطع، وأنا لا أكاد أتصور أن التردد في المجيء يأتي من جانبه، ولكني متأكدة بأن أسرة «تشرشل» شديدة الرغبة في الاستئثار به، فهناك شعور بالغيرة، وهم غيورون حتى من حبه لوالده، وقصارى القول فإني لا أركن إلى الاعتقاد بأنه آتٍ، وبودي لو كان «مستر تشرشل» أقل خيالًا».

وقالت «إمَّا»، «إن من واجبه أن يحضر، ولو استطاع أن يأتي ليومين فقط لكان من واجبه أن يفعل، وإنه ليصعب على المرء أن يتصور شابًا فتيًا ليست له القدرة على أن يفعل حتى شيئًا كهذا.

إن الفتاة إذا ألقت بها المقادير إلى أيدي قرناء السوء، فقد يمكن تهديدها بغية إبقائها بعيدة عن أولئك الذين تحب أن تكون معهم. أما أن شابًا يكون في مثل هذا الحرج حتى ليعجز عن أن يمضي أسبوعًا مع أبيه إذا هو أراد، فهذا ما لا يستطيع أن يفهمه أحد».

وردت «مسز وستن» تقول: «لا بد للمرء أن يكون في «أنسكومب» وأن يعرف حياة هذه الأسرة قبل أن يقرر ماذا يفعل، وقد يتعيّن على المرء بصفة عامة أن يكون حذرًا في الحكم على سلوك أي فرد معيّن في أية أسرة معينة، أما «أنسكومب» فلا يجوز أن يحكم عليها أحد بهذه الأحكام العامة، فإن هذه السيدة لا تصدر عن روية ولا يقف في سبيلها شيء».

«ولكنها مولعة بحب ابن أخت زوجها، وهو كبير الحظوة عندها. ومن الطبيعي جدًا حسب فكرتي عن «مسز تشرشل»، أنها وهي تأبى أن تضحي بشيء في سبيل راحة زوجها الذي تدين له بكل شيء وتسلك نحوه سلوكًا قائمًا على الأهواء والنزوات، أن يكون زمامها عادة في يد ابن أخت زوجها الذي لا تدين له بشيء إطلاقًا».

«لا تدعي لنفسك ما عزيزتي «إمَّا» وأنت على ما جبلت عليه من حسن الطبع، إنك قادرة على تفهم من ساءت طباعهم، أو أنك تستطيعين أن تضعي لهم القواعد والأصول، بل عليك أن تدعيهم وشأنهم، ولست أشعر في أن لفرانك في بعض الأوقات نفوذًا كبيرًا، ولكنه قد يستحيل عليه التكهن بالوقت الذي يستطيع أن يستغل فيه سلطانه عليها».

وأصغت إليها «إمَّا» ثم قالت في هدوء: «لن أقنع حتى يحضر».
واستطردت «مسز وستن» تقول: «قد يكون له تأثير كبير في بعض الأمور وقد يقل تأثيره في أمور غيرها، ويغلب أن يكون من بين الأمور التي لا يستطيع أن يتغلب عليها موضوع تركه لهم وحضوره لزيارتنا».

الفصل الخامس عشر

لم يمضِ وقت طويل حتى كان «مستر وودهاوس». قد استعد لتناول الشاي، وما أن تناوله حتى أبدى استعداده للعودة إلى منزله، وحاول الثلاث اللائي كن يجلسن معه أن يسرّين عنه بما يشغله من ملاحظة أنهم أصبحوا في ساعة متأخرة من الليل إلى أن أقبل السادة الآخرون.
وكان «مستر وستن» فياضًا في حديثه معهم، شديد الترحيب بهم، عزوفًا عن تفرق جمعهم في ساعة مبكرة. وزاد عدد الحاضرين في حجرة الاستقبال أخيرًا، وكان «مستر ألتن» أول القادمين، ويفيض حيوية وابتهاجًا. وكانت «إمَّا» و «مسز وستن» تجلسان معًا على أريكة واحدة، فشاركهما على التو وجلس بينهما من غير أن يدعواه إلى الجلوس.
وأرادت «إمَّا» وقد انتعشت نفسها بما علمته عن قرب مجيء «مسز تشرشل» أن تتناسى ما صدر منه أخيرًا من تصرفات لا تليق، وأن تنظر إليه نظرة الرضى كما ظلت تفعل من قبل. فلما رأته يضع موضوع «هاريت» في مقدمة حديثه الآن أظهرت استعدادها إلى الإصغاء إليه، وعلى محياها ابتسامات الصداقة الحقة.
لقد أظهر شدة قلقه على صديقتها الحسناء «صديقتها الحسناء المحبوبة الجميلة»، واسترسل يتساءل: «هل علمت شيئًا عن صحتها؟ هل سمعت أي شيء عنها منذ وجودهم في راندولز» لقد كان على حد قوله يشعر بقلق عظيم ولا يسعه أن يعترف بأن طبيعة مرضها أقلقته كثيرًا، واستمر يتحدث على هذا النحو بعض الوقت بطريقة تنم عن الاخلاص حتى كان لا يبدي اهتمامًا إلى أية إجابة عن أسئلته، وأن ظل طول الوقت متيقظًا لما قد يكون للحلق الملتهب من آثار مخيفة، وصفحت «إمَّا» عما فرط منه، وعفت عما سلف.
غير أنه وقع بعد ذلك ما قلب إحساسها رأسا على عقب، فقد بدا فجأة وكأن خوفه من الحلق الملتهب لم يكن من أجل «هاريت» نفسها، بل من أجلها هي،

وكأنه يخشى عليها هي من العدوى أكثر مما كان يتمنى ألا يكون مرض صديقتها معديًا بالكلية، فأخذ يرجوها بإلحاح أن تبتعد عن زيارة
حجرة المريضة في الوقت الحاضر ويتوسل إليها أن تعده بأنها لن تقدم على مثل هذه المخاطرة حتى يقابل مستر «بري» ويقف منه على رأيه. ورغم محاولتها تخفيف الأمر والعودة بالحديث في الموضوع إلى طريقه السليم، فلم يتوقف عن إظهار قلقه الشديد عليها.
واغتاظت «إمَّا» لذلك ولم تستطع أن تخفي غيظها بعد أن بدا ما لا سبيل إلى إخفائه، وهو أنه يريد أن يظهر بأنه لا يحب «هاريت» بل يهيم بحبها هي نفسها، ولو صحّ هذا لكان دليلًا على عدم الثبات. وعملًا جديرًا بالاشمئزاز والاحتقار، وأحست «إمَّا» بأن من الصعب عليها كبت مشاعرها وأنها على وشك أن تشتط غضبًا.
والتفت إلى «مسز وستن» يرجو منها العون وهو يقول: «هلا وجد منها مسندًا؟ هلا انضمت إليه وحبذت معه «لمس وودهاوس» عدم الذهاب إلى بيت «مسز جدرد» حتى يثبت تمامًا أن مرض «مس سمث» غير معد بالمرة؟»، وأضاف بأنه «لن يقنع بأقل من عهد تقطعه «إمَّا» على نفسها بذلك، فهلا كان لها من التأثير عليها ما يساعده على أن يظفر بذلك العهد؟» ثم استطرد يقول: «إنها كثيرة الاهتمام بالغير في حين أنها لا تهتم بنفسها، لقد أرادت مني أن أبقى اليوم كي أعالج
نفسي من وعكة البرد، ثم هي لا تتعهد الآن بتجنب خطر الإصابة بالتهاب الحلق المتقرح، فهل هذا عدل يا «مسز وستن»؟ احكمي فيما بيننا، أليس من حقي أن أشكوها؟ إني واثق من مساندتك الرقيقة ومعاونتك لي في ذلك».
ورأت «إمَّا» أن «مسز وستن» قد استولت عليها الدهشة العظيمة بما بدا من كلماته وطريقة حديثه من أنه كان يتصور بأنه أول من لهم الحق في العناية بشؤونها، أما هي فقد شعرت بأنها استثيرت إلى حد كبير، وأن كرامته قد انتهكت إلى درجة تستوجب منها أن تقول شيئًا ما على الفور، ولكنها اكتفت مع ذلك بأن وجهت إليه نظرة ظنت أن فيها الكفاية لكي ترده إلى صوابه، ثم تركت الأريكة وانتقلت لتتخذ لنفسها مقعدًا بجوار أختها، وانصرفت إليها بكل انتباهها.
ولم تكن هناك فسحة من الوقت لترى وقع هذا التأنيب في «مستر ألتن»، ولا سيما بعد أن انتقل الحديث إلى موضوع آخر، فقد دخل «مستر جون نيتلي» إلى الحجرة بعد أن وقف على حالة الطقس ليخبرهم بكل ما عنده ويقول لهم أن الأرض قد كساها الثلج، وأن الثلج لا يزال يتساقط بسرعة، وأن الريح تهب بشدة، واختتم كلامه موجهًا قوله إلى «مستر وودهاوس»:
سوف يكون هذا برهانًا يا سيدي على أنك قد بدأت تلبي الدعوات الشتوية بحماسة، وأنه لشيء جديد على الحوذي وعلى الخيول أن يضطروا إلى شق طريقهم وسط عاصفة ثلجية».

وسكت «مستر وودهاوس» من أثر الهلع، أما من عداه فقد كان لكل واحد منهم رأي يبديه، بعضهم استولت عليهم الدهشة، وبعضهم أخذوا يتساءلون أو يقولون ما يطمئنون به أنفسهم، وحاولت كل من «إمَّا» ومستر «ويتني» أن يسريا عن مستر «وودهاوس» وأن يصرفاه عن الانتباه إلى ما يقوله زوج ابنته الذي كان لا يفتر يتشفى فيه. فيقول:

«لقد أعجبت يا سيدي كثيرًا بصدق عزيمتك، فقد خاطرت بالخروج في مثل هذا الطقس وكنت ولا شك ترى سقوط الثلج وشيكًا، فقد كان هذا أمرًا واضحًا للجميع، ولقد أعجبتني حيويتك، وقد يكون لي أن أقول إننا سنعود إلى بيوتنا سالمين، وأن سقوط الثلج ساعة أو ساعتين لن يوصد الطريق أمامنا وأن لدينا عربتين، إن طوحت الريح بواحدة منهما في مكان قفر من الحقول، فلن نعدم عربة أخرى، نعم أظن أننا سنصل جميعًا إلى «هارتفيلد» قبل منتصف الليل سالمين».

وأخذ «مستر وستن» يعترف وهو مزهو بانتصار من نوع آخر، بأنه كان على علم بأن الثلج قد أخذ يتساقط منذ بعض الوقت، ولكنه لم ينطق بكلمة حتى لا يقلق راحة «مستر وودهاوس» فيتخذ من ذلك ذريعة للإسراع بالانصراف، أما أن الثلج قد سقط، أو هو قد يسقط بحيث يعطل عودتهم فليس إلا دعابة. نعم فلن يجدوا في عودته مشقة، وكم كان بوده أن يستعصي الطريق عليهم حتى يتمكن بذلك من إيوائهم جميعًا في «راندولز»، مؤكدًا في كرم وحسن ضيافة بأن كل واحد منهم سوف يجد مكانًا للمبيت، داعيًا زوجته إلى الموافقة على أن مبيت الجميع ميسور بشيء من التعديل البسيط، في حين أنها كانت لا تدري كيف يتأتى لها ذلك وليس تحت تصرفها غير حجرتين.

وكان أول ما نطق به «مستر وودهاوس» بعد مرور بعض الوقت أن التفت إلى ابنته في دهشة وقال:

ماذا نفعل يا عزيزتي «إمَّا»؟ ما العمل؟ وظل يتطلع إليها ليجد عندها الأمن والطمأنينة، فكان عندها ما أراد. فلقد طمأنته إلى قدرة الحوذي وإلى قوة الخيول الفائقة وإلى أن من حولهم أصدقاء كثيرين، فأنعشه ذلك بعض الشيء.

ولم يكن هلع ابنته الكبرى ليقل عن هلعه، فقد استحوذ على مخيلتها الخوف من أن تحتجز في «راندولز» بينما أطفالها في «هارتفيلد» وتخيلت أن الطريق لن يظل صالحًا للمرور طويلًا بعد ذلك، وأنه لن يسمح لهم بمزيد من التسويف، ومن ثم كانت حريصة على إنهاء المناقشة، على أن يبقى أبوها مع «إمَّا» في «راندولز» وأن تسرع هي وزوجها على الفور في شق طريقهما خلال الثلوج المتراكمة التي قد تعوق سيرهما، والتفتت إلى زوجها لتقول:

«يحسن بك يا حبيبي أن تأمر بإعداد العربة في الحال، وقد نتمكن من السير لو أننا خرجنا حالًا، فإذا ساءت الأمور فسوف أغادر العربة وأمشي نصف الطريق على قدمي حتى إذا وصلت إلى البيت غيرت حذائي فورًا، وليس هذا بالشيء الذي يصيبني البرد من جرائه».

وأجابها زوجها: «عجبًا!! لو أن هذا الذي تقولين حدث يا عزيزتي «إيزابلا» لكان أعجب شيء في الوجود، فكل شيء في الدنيا يكاد يصيبك بالبرد، وإني لأعجب كيف يمكن أن تذهبي إلى البيت سيرًا على الأقدام، وحذاؤك رقيق لا يحتمل المشي إليه، وكفى ما سوف تعانيه الخيل من مشقة الطريق».
والتفتت «إيزابلا» نحو «مسز وستن» تطلب موافقتها على خطتها فلم يسعها إلا أن توافق، وذهبت «إيزابلا» إلى «إمَّا» ولكن «إمَّا» لم تكن قد فقدت بعد الأمل في أن الجميع قد يتمكنون من العودة معًا.
وكانوا لا يزالون في نقاشهم حين عاد «مستر نيتلي» وكان قد غادر الحجرة مباشرة عقب أول تقرير جاء به أخوه عن حالة الثلج، ليخبرهم بأنه خرج يستطلع الحال، وأنه يرى أنه ليست هناك ثمة صعوبة في الوصول إلى بيوتهم متى شاءوا سواء كان ذلك الآن أم كان بعد ساعة من الزمن، وأنه سار إلى مسافة في طريق«هايبري» فلم يكن الثلج في أي مكان منه يعلو على نصف بوصة، بل لم يكن كافيًا في بعض الأماكن ليكسو الأرض حلة بيضاء، وأن ما يتساقط من الثلج الآن قليل جدًا، وأن السحب أخذت تنقشع، وكل الظواهر تدل على أن سقوط الثلج سينقطع حالًا. وأضاف إنه قابل الحوذيين فوافقاه على أن ليس هناك ما يخشى منه.
وخففت تلك الأنباء كثيرًا من قلق «إيزابلا» واضطرابها. ولم تكن «إمَّا» لتقل عنها اقتناعًا بها من أجل أبيها الذي هدأ روعه بقدر ما سمح له جهازه العصبي. على أن المخاوف التي استثيرت في نفسه لم يكن من السهل مع ذلك تهدئتها إلى الحد الذي يجعله يشعر بالراحة والاطمئنان طالما بقي في «راندولز»، فلقد اقتنع الآن بأن ليس هناك خطر من رجوعه إلى بيته فورًا، ولكنه لم يجد ما يؤكد له أن في بقائه أمانًا.
وبينما كان الآخرون يضغطون عليه ويحبذون بقاءه استطاع «مستر نيتلي»، و«إمَّا» أن يحزما الأمر في جمل قصيرة معدودات. قال «مستر نيتلي»:
«إن والدك سيكون قلقًا، فلماذا لا تذهبون؟».
«أنا على استعداد لو أن الآخرين كانوا كذلك».
«هل لي أن أدق الجرس؟».
«نعم فلتفعل!».
ودق الجرس، وطلب إعداد العربة، ومرّت دقائق قليلة راود «إمَّا» خلالها الأمل في أن يصل رفيق متعب إلى داره فيسكن وتهدأ أعصابه، وأن يستعيد الآخر هدوءه إذا ما انتهت رحلة المتاعب هذه.
وجيء بالعربة، وكان «مستر وودهاوس» دائمًا أول من تتجه إليه الرعاية في مثل هذه المناسبات، ومن ثم فقد رافقه كل من «مستر نيتلي» و«مستر وستن» وسارا في ركابه حتى وصل إلى عربته، ولكن ما قاله كل منهما من توكيدات لم يمنع من تجدد فزعه عندما أبصر كمية الثلج التي تساقطت، واكتشف أن الليل كان أحلك مما كان يتوقع. فلقد كان يخشى أنِ تكونِ رحلتهم

شاقة متعبة، وألا تكون «إيزابلا» المسكينة راضية عن ليلتها، وأقلقه أن تكون «إمَّا» في العربة التي تسير خلف عربته، ولم يدر ماذا يحسُن بهم عمله، فقد كان من رأيه ألا تفترق العربتان عن بعضهما ما أمكن.
وتحدث مع الحوذي «جيمز» وكلفه أن يسير على مهل وأن ينتظر العربة الأخرى وهو يشق طريقه.
وخطت «إيزابلا» إلى داخل العربة بعد أبيها، وغاب عن «مستر جون نيتلي» أنه ليس من ركاب هذه العربة فخطا إلى داخلها في أثر زوجته، وهو أمر طبيعي.
وهكذا ألفت «إمَّا» نفسها وقد رافقها «مستر ألتن» إلى العربة الأخرى، ثم دخل بعدها، وفى عربة واحدة معها، وأغلق عليهما بابها، فصار لزامًا عليهما أن يقضيا رحلتهما في العربة وحدهما.
وما كان هذا ليضايقها لحظة واحدة، بل لعلها على العكس كانت تجد فيه سعادة لولا ما ساورها من شكوك في أمره في ذلك اليوم، فلولاها لتمكنت من التحدث معه عن «هاريت» ولكانت مسافة ثلاثة أرباع الميل تبدو إذن وكأنها ربع ميل فقط، ولكنها ودّت الآن لو أن هذه الخلوة لم تكن، فقد كانت واثقة من أنه قد تناول من نبيذ مستر «وستن» المعتق قدرًا كبيرًا، وتأكدت من أنه سيسترسل في كلامه السخيف.
ولكي تكبح جماحه ما استطاعت بسلوكها، فقد أعدّت العدة فورًا لكي تجعل حديثها معه في صيغة من الرزانة والجد وأن تقصره على الكلام عن الطقس والليل، ولكنها ما كادت تبدأ الحديث، وما كادا يمران بالبوابة المؤدية إلى الطريق، ويلحقان بالعربة الأخرى حتى وجدت موضوع الحديث قد توقف فجأة، ورأته يمسك بيدها ويطلب إليها أن توليه انتباهها ثم يسترسل فيعبّر عن هيامه بها، مغتنمًا هذه الفرصة الثمينة لكي يعلن لها عن مشاعره التي لا بد أن تكون معروفة لها، مشاعر الأمل،
والتخوف والتقديس، وعن استعداده للموت إن هي رفضته، ثم يعلل النفس بأن حبه المتأجج، وهيامه الذي لا نظير له، وغرامه الذي ليس كمثله غرام، سيكون شفيعًا له عندها. نعم، فلقد عقد العزم باختصار على أن يلقى عرضه قبولًا لديها في أقرب وقت..
وهكذا، وبلا مقدمات، وبلا اعتذار، وبلا حياء، اعترف «مستر ألتن» حبيب «هاريت» بحبه «لإمَّا» وبرغبته في الزواج منها. وحاولت «إمَّا» أن تصده، ولكن محاولتها ذهبت سدى وأصر على أن يقول كل ما في جعبته.
وغضبت «إمَّا» كل الغضب لهذا السلوك ولكنها آثرت في تلك اللحظة أن تكبح جماح نفسها إذا هي نطقت بشيء، فلقد شعرت بأن نصف ما كان به من حماقة مرده الإفراط في الشراب، ومن ثم راودها الأمل بأن يكون سلوكه هذا ابن ساعته وأنه لا بد منته بعد ذلك، ا ولهذا ففي مزيج من الجد والدعابة أجابته وهي تبغي من وراء كلماتها أن يكون فيها ما يلائم حالة بين بين التي كان عليها.

«إني مندهشة جدًا يا «مستر ألتن» عجبًا!! أتقول هذا لي أنا؟ إنك قد نسيت نفسك وظننتني صديقتي، وانه ليسعدني أن أقوم بتسليم أية رسالة منك إلى «مس سمث»، ولكني أرجوك ألا تزيد من هذا معي».
«مس سمث»! رسالة إلى مس سمث!! ماذا عساها أن تعني بهذا!! وأعاد ترديد كلماتها ممعنًا في طريقة النطق التي يؤكد بها دهشته، فلم يسعها إلا أن ترد عليه بسرعة:
«إن هذا يا «مستر ألتن» أعجب ما رأيت من سلوك، فإني لا أجد سببًا واحدًا أعلل به سلوكك إلا أنك قد فقدت وعيك، وإلا لما خاطبتني أو تكلمت عن «هاريت» بمثل هذه الطريقة - تحكم في نفسك ولا تقل أكثر من ذلك، وسأحاول أن أنسى ما قلته».
ولكن «مستر ألتن» لم يحتسِ من النبيذ إلا القدر الذي ينعشه، لا القدر الذي يذهب بعقله، فلقد كان يدركَ تمامًا معنى ما يقول على حد توكيده. وما كاد يحتج في قوة على ظنها بأنه مخمور، ويشكو مما يلحقه به هذا الظن من أذى، ثم يعرّج في لمسات عابرة على ما يكنه من احترام «لمس سمث» صديقتها، ويبدي دهشته مع ذلك من ذكر اسمها بالمرة، حتى استأنف حديثه في موضوع هيامه وهو يلح في أن يسمع ردها بالموافقة وأخذ ظنها بأنه ثمل يقل، بقدر ما زاد ظنها في تقلبه وجرأته، ثم جاهدت بعض الشيء حتى لا تخرج عن جادة الأدب.، وأجابته:
«إنه من المستحيل عليّ أن يراودني شك بعد الآن، فلقد وضح أمرك، وأن دهشتي يا «مستر ألتن» لهي فوق ما يمكن التعبير عنه، وهل بعد هذا السلوك الذي سلكته نحو «مس سمث»، والذي شاهدته بنفسي طيلة الشهر الماضي، وبعد هذه الرعاية التي كنت توليها إياها، وكنت ألاحظها كل يوم، تخاطبني بهده الطريقة، إن هذا خلق ولا ريب منحرف، وما كنت أظنه محتملاً. ثق يا سيدي بأني بعيدة.، وبعيدة جدًا عن أن أرضى بأن أكون موضوع مثل هذه الاعترافات».
وصاح «مستر ألتن» قائلًا: «رباه!! ما معنى ذلك؟ «مس سمث»!! إني ما فكرت في «مس سمث» طول حياتي، ولم أختصها أبدًا بشيء من العناية، إلا لأنها صديقتك، وما كان يعنيني أن تموت أو تحيا إلا لأنها صديقتك، ولو كانت تتصور ما يخالف ذلك، فإن أمانيها قد أضلتها السبيل إني آسف جدًا، آسف أشد الأسف، يا للعجب!! «مس سمث؟!»
عجبًا يا «مس وودهاوس»!! من ذا الذي يفكر في «مس سمث»، و«مس وودهاوس» بالقرب منه، كلا، وأقسم لك بشرفي أنه ليس في خلقي أي انحراف، وما فكرت أبدًا إلا فيك وحدك، وإني لأحتج على كل من يقول إني شملت أي إنسان غيرك بشيء من عنايتي، وكل ما قلته أو فعلته منذ أسابيع كثيرة مضت، كان هدفي الوحيد منه إظهار فرط حبي لك ولا يمكن أن تكوني جادة في شكك، لا أبدًا!!».

ثم قال في نبرات موحية: «بل إني لمتأكد بأنك لاحظتيني وفهمتيني».
وقد يصعب على المرء أن يحدد مشاعر «إمَّا» وهي تستمع إلى هذا الكلام، أو يقول أي هذه المشاعر المؤلمة كان يبز غيره. بل لقد كانت هي نفسها قد غمرتها مشاعرها حتى لم تعد قادرة على تحديد ذلك، ومضت لحظتان سادهما السكون، ولكن «مستر ألتن» رأى فيهما تشجيعًا له، فحاول أن يمسك بيدها مرة أخرى وهو يقول مغتبطاً:
«كم أنت لطيفة يا «مس وودهاوس»!! اسمحي لي أن أفسر سكوتك الجميل على أنه دليل على أنك أدركت مقصدي منذ وقت طويل».
وصاحت «إمَّا» تقول: «لا يا سيدي، إن السكوت لا يدل على شيء من هذا، وأنا لم أدرك قصدك من قبل، بل لقد أخطأت كل الخطأ في إدراك قصدك حتى هذه اللحظة، أما عن نفسي فإني آسفة أشد الأسف إذ أراك تفضفض عن مشاعرك، وما من شيء أبعد من هذا عما أريده، وإن اتصالك بصديقتي «هاريت» وتتبعك لها (كما بدا لي) قد غمرني بالسرور، وكنت أصبو إلى أن أراك قد وفقت في هذا، ولكني لو ظننت وقتها أنها لم تكن الهدف الذي اجتذبك إلى «هارتفيلد»، لوجدتك ولا شك غير مصيب في كثرة ترددك عليها. وهل تريدني أن أعتقد أنك لم تحاول إطلاقًا أن تزكي نفسك لمس «هاريت سمث» خاصة؟ وإنك لم تفكر فيها جديًا؟»».
فصاح قائلًا وقد أحس بالمهانة بدوره. «أبدًا يا سيدتي وأؤكد لك أن شيئًا من هذا لم يحدث أبدًا، وأني لأعجب كيف أفكر في «مس سمث»، جديًا!! إن«مس سمث»، فتاة لا غبار عليها، ويسعدني أن أراها قد استقرت وتزوجت زيجة محترمة. وأنا أرجو لها كل خير، ولا شك عندي بأن هناك من الرجال، من لا يعارض في...، إن لكل شخص مكانته الاجتماعية، أما من جهتي فإنني لا أظنني قد ضيعت نفسي وبلغ بي اليأس من أن أوفق إلى زوجة كفء، حدّا يجعلني أتقدم إلى «مس سمث»!! لا يا سيدتي إن زياراتي لهارتفيلد لم تكن إلا من أجلك أنت ولما لقيته منك من تشجيع على ذلك».
«تشجيع؟؟ ماذا تقول!! أنا كنت أشجعك!؟ لقد أخطأت يا سيدي كل الخطأ في ظنك هذا، وما كانت نظرتي إليك إلا على أنك معجب بصديقتي، وأنت فيما عدا ذلك لست في نظري إلا واحدًا من معارفي العاديين لا أكثر، وإني لشديدة الأسف، ولكن من الخير أن ينتهي الخطأ عند هذا الحد، ولو أنك داومت على سلوكك هذا، لأخطأت «مس هاريت» مقصدك، وربما لم تكن في عدم إدراكها لهذا الفارق العظيم بين درجات الناس، الذي أراك تحس به كل هذا الاحساس بأكثر مني، على أن الشعور بخيبة الأمل في هذه الحالة الآن إنما هو من جوانب واحد، وأعتقد أن هذا لن يدوم، فأنا لست أفكر حاليًا في الزواج».
وعقد الغضب لسانه عن أن يتفوه بكلمة أخرى. وكانت طريقة حديثها حازمة فلم تترك له مجالًا للرجاء، وفي تلك اللحظة التي ثارت فيها حفيظة كل منهما لشعوره بأنِ كرامته قد امتهنت، كان عليهما أن يستمرا في صحبة بعضهما

بضع دقائق أخرى، فقد شاءت مخاوف «مستر وودهاوس» أن تضعهما سويًا في هذا الحيز الضيق، ولو أن الغضب لم يصل إلى ذروته لبدت منه تصرفات اليأس المبتذلة، ولكن انفعالهما الذي لم تخف حدته، لم يترك مجالًا لما تضيق به صدور الناس من أخذ ورد.

ووقفت العربة بهما فجأة عند باب منزله، ولم يكونا قد شعرا بدخولها المنعطف الذي يقع فيه منزله، ولا متى وقفت العربة، وسرعان ما خرج منها دون أن ينطق بكلمة واحدة، ورأت «إمَّا» أن من الحكمة أن تتمنى له ليلة سعيدة، ورد التحية في برود وكبرياء، ثم انتقلت بها العربة إلى «هارتفيلد» وقد أثير شعورها بالغيظ إلى درجة لا يمكن وصفها.

ورحب بها والدها في «هارتفيلد» وهو مسرور بقدومها، فقد كان يرتجف خوفًا عليها من خطر قد يلحقها وهي بمفردها في عربة تسير بها من منعطف راعي «الأبرشية» وتعرج بها في منحنى لا يطيق التفكير فيه، خاصة وأن العربة لا يقودها حوذيه «جيمز» بل حوذي عادي لم تكن له خبرة حوذيه الخاص.

وقد بدا أن الحاجة كانت ماسة إلى عودتها لكي تصلح الأمور جميعها، وهكذا نرى مستر «جون نيتلي»، وقد شعر بالخجل لما بدا منه من غلظة نحو رجل كله عطف ورعاية، يحنو على أبيها ولا يهمه شيء إلا راحته إلى حد، إن لم يسمح له بمشاركته في تناول طبق من العصيدة، فقد دفعه على الأقل إلى الموافقة على فائدتها للصحة.

وانقضى اليوم في هدوء وسكينة لكل فرد من أفراد تلك الجماعة الصغيرة، إلا «إمَّا» التي لم يصادفها طيلة حياتها اضطراب في التفكير مثلما صادفها في هذه الليلة، وقد اقتضتها ضرورة التظاهر بالمرح والاهتمام، جهدًا مضنيًا، إلى أن جاءت الساعة التي افترق فيها كل منهم إلى فراشه، لتمنحها فترة من التفكير الهادئ.

كانت قد انتهت من تصفيف شعرها وانصرفت الخادمة. وجلست «إمَّا» بعد ذلك تفكر وتتأمل وتترك نفسها لشعور التعاسة الذي كان ينتابها. فلقد كانت المسألة كلها مسألة طالعها النحس أن يتبدد كل ما كانت تؤمل فيه، وأن تتطور الأمور في اتجاه لا يرضى. يا لها ضربة قاصمة أصابت «هاريت»!! لقد كان هذا الجانب أسوأ ما في الأمر، كل شيء فيه جلب في أعقابه الألم والمهانة من نوع أو آخر، ولكن كل ذلك إذا قورن بما لحق «بهاريت» كان هينًا بسيطًا. بل لقد كانت «إمَّا» تقبل عن رضى بأن تكون أكثر خطأ وأكثر ملامة، وأن تكون خليقة بمزيد من الخزي والعار بسبب سوء حكمها على الأشياء، لو أن آثار غلطتها ارتدت عليها وحدها.

«لو أنني لم أرغب «هاريت» في محبة الرجل لتحملت كل شيء، صحيح إنه ربما كان يضاعف جرأته عليّ، ولكن «هاريت» المسكينة قد خدعت هي إلى هذا الحد!!» لقد أحتج أنه لم يفكر جديًا في «هاريت» على الإطلاق، نعم على الإطلاق، وحاولت «إمَّا» أن تستعرض الماضي ما أمكنها فألفت نفسها في لجة من الحيرة والارتباك، وبدت لها نفسها وقد احتضنت الفكرة التي احتضنتها، وفرضت الفروض، ورتبت كل شيء على أساسها. وإذن لابد أن سلوكه لم يكن واضح المعالم، لا بد أنه كان سلوكا متأرجحًا مترددًا وباعثًا على الغموض، ولولا ذلك لما خُدعت». والصورة!! كم كان متلهفًا عليها! والأحجية ومئات من المناسبات الأخرى! لقد كانت كلها تبدو واضحة على أنها موجهة إلى «هاريت»، وتؤكد ذلك الأحجية، ما ذكره فيها من «سرعة بديهتها» ولكن «العيون الناعسة» من كان يقصده بها، الحق أن الوصف لم يكن منطبقًا على أيهما. نعم، لقد كانت الأحجية كلها خلطًا تعوزه الحقيقة وحسن الذوق، ثم من ذا الذي كان يستطع أن يرى ما وراء هذا المزيج الكثيف من الترهات؟» الحق يقال أنها كانت قد لاحظت في كثير من الأحيان، وخاصة في الأيام الأخيرة، أن سلوكه نحوها كان فيه شهامة لا ضرورة لها، ولكنها مع ذلك كانت تتغاضى عن ذلك وترى أنه نتيجة قصور في الحكم الصحيح وفى المعرفة والذوق، ودليل من بين أدلة عديدة على أنه لم ينشأ في أوساط راقية، وعلى أنه كان ينقصه أحيانًا بعض الأناقة السليمة رغم رقة حديثه، ولكنها ما كانت تشك لحظة واحدة حتى ذلك اليوم، في إنه كان لا يعني بذلك سوى التعبير عما يكنه لها من

احترام وتقدير، باعتبارها صديقة «هاريت». لقد شعرت الآن بأنها مدينة لمستر «جون نيتلي» بأول فكرة عن هذا الموضوع، وبأول بداية لاحتمال هذا الاتجاه الجديد،. وما كان أحد لينكر ما للأخوين «نيتلي» من بصيرة نافذة، لقد تذكرت الآن ما قاله لها «مستر نيتلي» مرة عن «مستر ألتن»، وتحذيره لها، ثم تأكيده بأن «مستر ألتن» لن يتزوج دون روية. واحمرت وجنتاها خجلًا عندما تبينت أنهما كانا أصدق علمًا بأخلاقه منها. لقد برهن «مستر ألتن» في كثير من الحالات على أنه عكس ما كانت تعتقد، إذ كان متكبرًا، دعيًا، مغرورًا، امتلأ عقله بما يزعمه لنفسه عن مزايا بينما هو لا يهتم بمشاعر الآخرين.
لقد كانت رغبة «مستر ألتن» في التقدم ليطلب يدها- على عكس ما جرت به العادة - سببًا في تسوئ فكرتها عنه، ولم تُجده في ذاك اعترافاته ولا عروضه، فإن«إمَّا» لم تفكر يومًا في حبه، بل لقد شعرت بالإهانة وهي تراه يعلق آماله عليها. لقد أراد أن يتزوج زيجة طيبة، فدفعه غروره إلى أن يرفع بصره إليها وأن يتظاهر بأنه قد شغف بها حبًا. وما كان ضميرها ليؤرقها لما أصابه من خيبة الأمل، فهو لم تبد في أقواله ولا في حركاته ما ينم عن حب صادق. صحيح أنه أكثر من التنهدات وهو يتحدث، ولكن تعبيراته ونبرات صوته كانت أبعد ما تكون عن الحب الحقيقي. ولم تجد «إمَّا» في نفسها ما يدعوها للإشفاق عليه. إن كل ما كان يبغيه هو أن يرفع من شأن نفسه، وأن يحسن من أحواله، فهو إذا لم يستطع الظفر «بمس وودهاوس» سليلة «بيت هارتفيلد» والوريثة لثلاثين ألفًا من الجنيهات، كما يذهب به خياله، فإنه سرعان ما يحاول الزواج بآنسة أخرى تملك العشرين أو العشرة آلاف.
ولكن الذي كان يثير غضبها إلى أقصى الحدود هو ما قاله عن تشجيعها له، وزعمه بأنها كانت عليمة بأغراضه، راضية عن مقاصده، تقبل باختصار أن تتزوجه، وافتراضه أنه يقف منها على قدم المساواة، سواء من حيث النسب أو التفكير، ثم احتقاره لصديقتها، فأثبت بذلك أنه يدرك من كان دونه في المقام، ويعمى في الوقت نفسه عمن كان فوقه، حتى ظن أن طلب يدها لا يعتبر جرأة منه، إن هذا لهو الاستفزاز بعينه.
وقد لا يكون من الانصاف أن تنتظر منه أن يدرك مدى تخلفه عنها في العقل وفي دقة التفكير، لأن ما ينقصه من ذلك كفيل بأن يقعد به عن إدراك هذا الفارق بينهما، ولكن كان عليه أن يعلم بأنها تفوقه كثيرًا من حيث المال والمكانة، فهو لا بد مدرك أن «بيت وودهاوس» قد استقر في «هارتفيلد» منذ أجيال عديدة، وأنه فرع من فروع أسرة عريقة تليدة، أسرة «ألتن» لم تكن شيئًا مذكورًا. حقيقة أن الأرض التي في حيازة «بيت هارتفيلد» ليست شاسعة، فهي ليست إلا جزءًا صغيرًا من ضيعة «أبرشية دونول» التي ألحق بها كل ما بقي من قرية «هايبري» غير أن موارد أسرتها من مصادر أخرى كانت كفيلة بالا تجعلهم في مكانة دون «أبرشية دونول» نفسها، في كل شيء عدا حيازة الأرضِ، فضلًا عن أن «أسرة وودهاوس» كانت، دائمًا موضع التقدير والاحِترام

من أهل المنطقة كلها، وهي المنطقة التي لما يمضي على وجود «مستر ألتن» بها غير سنتين اثنين، حين أقبل إليها ليشق طريقه على قدر جهده، وليس له من قرابة إلا قرابته بمحترفي التجارة، ولا شيء يلفت الأنظار إليه إلا مركزه وتأدبه، ثم ها هو الآن يتخيل أنها تحبه، وهذا هو كل ما يعتمد عليه فيما يبدو.

وبعد أن استطردت «إمَّا» قليلًا في هذا التفكير المحموم على التناقض الواضح بين الدماثة والغرور، وجدت أن الأمانة تقتضيها أن تتوقف لتعترف بأن سلوكها نحوه كان محببًا إلى النفس، داعيًا إلى التقدير، متسمًا بالترحيب والاهتمام، إلى حد قد يحمل الرجل العادي في دقته وقدرته على الملاحظة، مثل «مستر ألتن» (هذا إذا لم تكن نواياها الحقيقية واضحة) على أن يتخيل أنه من المقربين إليها ومن ذوي الحظوة عندها. ثم إذا كانت هي قد أخطأت في فهم مشاعره فليس لها أن تعجب اذا أخطأ هو في فهم مشاعرها وقد أعمته مصالحه.

إن أول الأخطاء في هذا الموضوع كله، وأكثرها شفاعة، أنما يقع على كاهلها. فإنه لمن الحماقة والخطأ أن يحاول إنسان أن يقوم بدور إيجابي لكي يجمع بين شخصين، فهي مخاطرة لها نتائج بعيدة المدى، ومغالاة في الوثوق بالنفس، واستهانة بجلائل الأمور، بل هو تحايل على ما يجب أن يكون بسيطًا لا تعقيد فيه.

وقد قلقت «إمَّا» لذلك كثيرًا. وشعرت بالخجل، ووطدت عزمها على ألا تقوم بمثال هذه المحاولة بعد الآن وقالت لنفسها:

«ها أنذا قد دفعت المسكينة «هاريت» بكلامي، إلى دعم صلتها بهذا الرجل، ولولاي لما فكرت فيه أبدًا، بل من المؤكد أنها لم تكن لتعلق عليه أملًا لولا أنني أكدت لها تعلقه بها، فهي متواضعة بقدر ما كنت أظنه كذلك. ليتني كنت قنعت بتنفيرها من الفتى «مارتن»، فلقد كنت على حق في ذلك، وهو ولا شك إجراء محمود من جانبي. ولكن كان يجب عليّ أن أكتفي بذلك وأن أترك ما تبقى للوقت وتحين الفرص. لقد كنت أقدمها في الأوساط الراقية، وكنت أهيء لها الفرصة لتنال استحسان من تراه جديرًا بها، وكان من واجبي ألا أحاول أكثر من هذا، و لكن الفتاة المسكينة قد فقدت الآن ما كانت تشعر به من السكينة إلى حين. إني لم أكن في كل ذلك ألا نصف من صديقة لها، وإذا هي لم تشعر في ذلك بصدمة عنيفة لآمالها فإني لا أ كاد أجد غير «ألتن» من يليق بها. «وليم كوكس»؟ لا، إني لا أطيقه، وهو محام ناشئ ومتعجرف».

وتوقفت هنا عن الكلام واحمرت وجنتاها خجلًا وضحكت لرجوعها إلى سيرتها الأولى، ثم عادت تفكر وهي أكثر جدية وأشد قلقًا، فيما كان، وفيما يُحتمل أن يكون، وفيما يجب أن يكون. فكرت فيما يجب أن تقوله لهاريت لتوضح لنا مأساتها وفي كل ما قد تعانيه المسكينه من آلام، وفيما قد تكون عليه المقابلات في المستقبل من حرج، وفي الصعوبة التي قد تترتب مستقبلًا على الاستمرار في صداقة «مستر ألتن» أو قطعها على السواء، وفي المضايقات

التي قد تنجم عن كبت الأحاسيس وإخفاء الشعور بالإساءة، وتجنب الجلبة والضجيج لقد كان في كل هذا ما يكفي ليشغل بالها في تأملات محزنة. وآوت أخيرا إلى فراشها ولم تكن قد انتهت بعد إلى قرار سوى أنها قد أيقنت بأنها قد ارتكبت أفظع غلطة.
على أن طلوع النهار على واحدة مثل «إمَّا» في شبابها، ومرحها الطبيعي رغم ما يكون قد اعتراها من هموم وقتية في أثناء الليل، كفيل بأن يعيد إليها حيويتها ويذهب عنها أتراحها. فالشباب وبهجة الصبح صنوان قويان لهما أثر بليغ، ومن ثم فإن المآسي والآلام إذا لم تبلغ حدًا يؤرق صاحبها، فإن العين لا بد تتفتح في الصباح على آلام أخف، وعلى آمال أزهى وأكثر إشراقًا.
واستيقظت «إمَّا» في الصباح وهي أكثر ارتياحًا مما كانت وقت أن آوت إلى فراشها، وأكثر استعدادًا للتخفيف من حدة الشر الذي يواجهها، والتخلص منه بسلام. وكان أعظم عزاء لها، أن «مستر ألتن» لم يكن جادًا في حبه لها، أو أنه لم يكن له من رقة الشعور ما يجعله يشعر بصدمة عندما لا تتحقق آماله، وأن طبيعة هاريت لم تكن من النوع المرهف الذي يحتضن آلامه، وأنه لا داعي لأن يعرف كائن من كان بما حدث، اللهم إلا ثلاثتهم الذين شملتهم المأساة خاصة، ولا سيما والدها الذي كانت تحرص كل الحرص على ألا تسبب له إزعاجًا ولو لحظة واحده من هذه الناحية. وابتهجت لهذه الأفكار السارة كثيرًا، كما كان لمنظر الثلوج المتراكمة على الأرض أثر كبير في نفسها، فقد كانت ترحب بأن يظل ثلاثتهم في الوقت الحاضر في عزلة عن بعضهم.
كانت حالة الطقس في يومها هذا أعظم ما يلائم مزاجها، ومع أنه كان يوم عيد الميلاد، فإنها لم تقو على الذهاب إلى الكنيسة، ولو أنها كانت حاولت ذلك لكان ذلك سببا في ابتئاس «مستر وودهاوس»، ولذا فقد شعرت بأنها في مأمن من أن تثير أية أفكار غير سارة لا مكان لها في ظروفها أو أن تسمع بشيء من ذلك. ولما كانت الأرض قد ظلت مغطاة بالثلوج، والطقس متقلبًا ما بين صقيع متجمد، وثلوج آخذة في الذوبان، مما جعله أبعد من أن يكون صالحًا للرياضة، وكان الصباح يبدأ كل يوم بأمطار غزيرة أو ثلوج منهمرة لا تلبث أن تتحول إلى جليد عندما يحل المساء، فقد بقيت سجينة مكرمة في بيتها أيامًا عديدة لا تستطيع الاتصال بهاريت، اللهم أن يكون ذلك عن طريق تبادل الرسائل. ثم لا حاجة بها إلى الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد بأكثر مما كانت بها حاجة إلى الذهاب إليها يوم عيد الميلاد، ولا ضرورة تقضي بتلمس الأعذار التي تبرر تغيب «مستر ألتن» عنهم؟
فلقد كان الطقس مما يجعل كل إنسان يقبع في عقر داره. وعلى الرغم من أنها كانت ترجو وتعتقد أن «مستر ألتن» كان يجد سلواه بين جماعة أو أخرى، فقد كان أعظم ما يسرها أن ترى والدها راضيًا كل الرضى عن بقائه في منزله لا يغادره، وأن تسمعه يقول أن ملازمته للبيت قد دلت على حكمته، ويسأل «مستر نيتلي» الذي لم يكن أي طقس ليعرقله عن المجيء إليهم:

«عجبًا يا «مستر نيتلي»، لماذا لم تقم في بيتك كما فعل «مستر ألتن» المسكين».

ولولا همومها الخاصة، لكانت تلك الأيام التي ظلت فيها حبيسة في بيتها، أكثر أيامها راحة ومتعة، فقد كانت مثل هذه العزلة أكثر ما يلائم زوج أختها الذي كان يتعين على من كان في صحبته أن يرعى مشاعره دائمًا، وهو علاوة على ذلك كان قد تخلص من الشعور بالكآبة الذي لازمه وهو في «راندولز» حتى أصبح في الأيام الباقية له في «هارتفيلد» عزيزًا على الجميع، ظريفًا دائمًا، يهتم بالجميع، ولا يحمل لأحد في حديثه حقدًا ولا ضغينة.

ولكن على الرغم من كل ما كانت تؤمله «إمَّا» من زوال هذه الغمة عن صدرها، وما كانت تشعر به من راحة بسبب إرجاء ضرورة مواجهة موضوع الأمس، فقد كانت ترى سحابة كئيبة تخيم على نفسها كلما فكرت في الساعة التي يتعين عليها فيها أن توضح الأمور «لهاريت». وهكذا استحال عليها أن تهدأ نفسها، وأن تكون خالية من الهموم.

الفصل السابع عشر

ولم تدم إقامة «مستر جون نيتلي» وزوجته في «هارتفيلد» طويلًا، فسرعان ما تحسن الطقس إلى درجة تسمح لمن يرى وجوب الرحيل بأن يرحل. وقد حاول «مستر وودهاوس» على عادته أن يقنع ابنته بالتخلف هي وأطفالها جميعًا، ولكنه ألقى نفسه مضطرًا في آخر الأمر أن يقف لتوديع الجماعة، ثم عاد بعد ذلك ليعبر عن أسفه على مصير «إيزابلا» المسكينة، هذه المسكينة التي تقضي حياتها بين من يشغفها حبهم وتتغنى بمحاسنهم، وتغمض عيونها عن مساوئهم، وتظل دائمًا منهمكة في كل ما هو بريء من الأعمال، فضربت بذلك المثل على السعادة النسوية الحقة.

وقد حمل نفس المساء الذي رحلت فيه الجماعة رسالة إلى «مستر وودهاوس» من «مستر ألتن»، كانت رسالة مطولة تفيض أدبًا واحترامًا، يقول فيها مع أطيب تحياته، أن في عزمه مبارحة «هايبري» في صبيحة اليوم التالي، ميممًا نحو «باث»، استجابة لرغبة بعض أصدقائه الذين ألحوا عليه بالرجاء كي يقضي معهم بضعة أسابيع، وأنه يأسف كل الأسف بسبب ظروف كثيرة، منها الطقس ومطالب العمل، أن يستحيل عليه الحضور شخصيًا ليستأذن من

«مستر وودهاوس» في الرحيل، وهو الذي أضفى عليه من التكريم ما جعله يلهج بحسن صنيعه على الدوام، وإنه ليسعده أن يلبي كل ما يطلبه منه «مستر وودهاوس».

واستولت على «إمَّا» الدهشة المقرونة بالغبطة. لقد كان تغيب «مستر ألتن» في الوقت الحاضر الشيء الذي تتمناه، ولقد أعجبها تدبير أمر تغيبه، ولو أنها لم تستصوب طريقة إبلاغه، فما كان يستطيع أن يعبّر عما يعتمل في نفسه نحوها بأبلغ من عبارات التبجيل والمجاملة التي أضفاها على أبيها في رسالته، بينما تعمّد أن يغفلها منها إغفالًا مقصودًا، فلم يُشركها حتى في عبارات التحية في مطلع رسالته.

وقد كان في كل ذلك من التغير في المعاملة وفي الجدية في استئذانه في السفر، وفي عبارات التقدير والعرفان بالجميل التي جرى بها قلمه وما حمل «إمَّا» على الاعتقاد أو الأمر بأن أباها لن تفوته ملاحظة هذا التبدل، أما في الواقع فقد فات أباها أن يلحظ شيئًا من ذلك، فقد استولت عليه الدهشة لهذا الرحيل المفاجئ، وخشى أن يلحق «بمستر ألتن» سوء قبل أن يصل إلى نهاية رحلته، فعجز عن أن يرى في أسلوب رسالته شيئًا غير عادي. ومع ذلك فقد أفادت الرسالة كثيرًا لأنها أمدتهما بمادة جديدة يفكران فيها ويتحدثان عنها بقية اليوم وهما على انفراد. وقد تحدث «مستر وودهاوس» إليها عن مخاوفه، وجاهدت «إمَّا» بسرعتها المعهودة لإبعاد تلك المخاوف عنه.

وقد عقدت «إمَّا» الآن عزمها على ألا تتأخر في إطلاع «هاريت» على حقيقة الموقف وألا تخفي شيئًا عنها. ولما كانت تعتقد بأنها قد أوشكت على البرء من البرد الذي أصابها، فقد رأت من المستحسن أن يكون أمام صديقتها فسحة من الوقت ما أمكن لكي تبرأ من علتها الأخرى قبل عودة «مستر ألتن». ومن ثم فقد ذهبت إلى بيت «مستر جُدرد» في اليوم التالي متحملة ما لا بد من أن تتحمله من الآلام التي تنجم عن نقل مثل هذا الخبر، وما أقساه من ألم! نعم لقد كان عليها أن تهدم الآمال التي ظلت تبنيها باهتمام فيما مضى وأن تظهر في مظهر غير كريم، مظهر السيدة المفضلة التي تعترف بخطئها وسوء حكمتها في آرائها، وملاحظاتها واعتقاداتها وتنبؤاتها خلال الأسابيع الستة الماضية. وقد أعاد إليها هذا الاعتراف ما أحست به من الخجل فيما مضى، وكانت رؤيتها لدموع «هاريت» باعثًا لها على ألا تغفر لنفسها زلتها بعد اليوم.

وتحملت «هاريت» النبأ بشجاعة دون أن تلوم في ذلك أحدًا وأثبتت بذلك ما لها من أصالة الخلق ومن التواضع في فكرتها عن نفسها، مما سهل على صديقتها مهمتها في تلك اللحظة. فلقد كانت «إمَّا» في حالة نفسية تجعلها تقدر البساطة والتواضع أعظم تقدير، فبدت لها «هاريت» وقد اتصفت بكل ما هو محبب إلى النفوس وبكل ما يجتذبها إلى قلوب الناس. ولم تجد «هاريت» فيما حدث ما يدعو إلى شكايتها فإن حب رجل مثل «مستر ألتن» لها هو ولا شك

امتياز يفوق ما تستحقه، وما من أحد كان يظنه ممكنًا، إلا إذا كان متحيزًا، أو صديقًا شديد العطف مثل «مس وودهاوس».

وانهمرت الدموع غزيرة من مآقي «إمَّا» فقد كان حزنها أصيلًا لا صنعة فيه. وما من وقار، أو عظمة، كان كفيلًا بأن يبعث على الاحترام بأكثر من تلك الدموع التي كانت في عينيها. لقد أصغت إلى صديقتها وحاولت أن تواسيها من قرارة قلبها، وبكل ما اتسعت له وسائلها وتفكيرها.

وما من شك في أن «هاريت» قد أثبتت في تلك الآونة أنها المتفوقة من بين الاثنتين، وأن «إمَّا» لو كانت مثلها، لكان هذا أجدى عليها وأجلب لسعادتها من نبوغها وذكائها.

لقد تطورت المسألة إلى حد لم يكن يسمح لها بأن تسير في الحياة بعد ذلك في غباء وجهل، ولكنها تركت «هاريت» الآن، وفي نفسها ما عقدت عليه العزم من قبل، بأن تكون متواضعة، حكيمة، تكبح جماح خيالها ما بقي لها من العمر، وأصبحت ترى الآن أن واجبها الذي لا يعلو عليه واجب آخر غير واجبها نحو أبيها، يقتضيها أن تهيء كل ما فيه راحة «هاريت» وأن تحاول جهدها أن تثبت لها حبها بطريقة أفضل من أن تهيء زيجة لها. فجاءت بها إلى «هارتفيلد» وغمرتها بعطفها وحنانها، وبذلت قصارى جهدها كي تشغل فراغها وتسليها، واستعانت بالكتب وبالحديث لتطرد «مستر ألتن» من مخيلتها.

وكانت تعلم أن تحقيق ذلك سوف يحتاج إلى وقت طويل وأنها لا تعدو أن تكون حكمًا وسطًا لا خبرة له بمثل تلك المسائل بوحه عام، وأنها ليست كفئًا لأن تواسي في موضوع حب «مستر ألتن» بوجه خاص، ولكنها رأت مع ذلك أنها لن تخرج عن جادة الصواب لو أنها - و«هاريت» في هذه السن تفتقد كل أمل - عملت على أن تتقدم الأمور بها نحو الاستقرار قبل أن يعود «مستر ألتن»، بحيث تسمح لهم مرة ثانية بالاجتماع جميعًا في ظروف الصداقة العادية دون أن يكون في ذلك خطر في فضح مشاعرهم أو في إذكائها.

لقد كانت هاريت ترى في «ألتن» كل ما يمثل الكمال، ولم تجد من يعدله في هيته أو طيبته، وأثبتت في الواقع بذلك أنها كانت جادة في حبه بأكثر مما تنبأت به «إمَّا»، لكن «إمَّا» وجدت مع هذا أن مقاومة مثل هذا الشعور غير المتبادل أمر طبيعي، بل هو أمر لا مفر منه، وأن مثل هذا الحب لا يمكن أن يستمر طويلًا بمثل القوة التي كانت له.

وإذا كان «مستر ألتن» بعد عودته يظهر عدم اهتمامه بصورة جليّة لا تدع سبيلًا إلى الشك مما لم تكن «إمَّا» ترتاب في أنه يتوق إلى عمله الآن، فأنها لا تتخيل أن «هاريت» يمكن أن تداوم على أن تجعل سعادتها مقرونة برؤيته أو بذكراه.

على أن ارتباط ثلاثتهم ارتباطًا كاملًا بنفس المكان، كان له أثر سيء على كل واحد منهم، فلم يكن في وسع أحدهم أن ينتزع نفسه من هذا المجتمع، أو أن يحدث فيه تغييرًا جوهريًا، واذن فلا مناص في أن يتقابلوا وأن يلقى بعضهم بعضًا، وأن يحاولوا أن يوفقوا بين ذلك وبين أنفسهم ما استطاعوا.

ولقد كان حديث زميلات «هاريت» في بيت «مسز جدرد» مما يزيد عليها تنغيص عيشها، فقد كان «مستر ألتن» معبود المدرسات وكبريات البنات بالمدرسة، ومن ثم فلم يكن غير «هارتفيلد» مكانًا يمكن أن تسمع فيه عنه حديثًا وسطًا يخفف عنها ألمها، أو كلمات صدق تنفرها منه، فحيثما حدث الجرح وجب أن يكون التئامه إن كان ثمة التئام. وشعرت «إمَّا» بأنها لن تنعم حقيقة حتى ترى صديقتها في طريقها إلى البرء مما هي فيه.

لم يأت مستر «فرانك تشرشل»، ولما اقترب الموعد الذي كان محددًا لمجيئه تحققت مخاوف «مسز وستن» حين وصلت منه رسالة يعتذر فيها ويقول إنه لم يظفر بالموافقة على مجيئه وإنه شديد الألم والأسف من أجل ذلك ولكنه ما زال يؤمل الحضور إلى «راندولز» قريبًا.

وكان إحساس «مسز وستن» بخيبة الأمل أكبر من إحساس زوجها رغم أنها كانت أكثر منه رزانة في ترقبها مجيء الفتى. غير أن المستبشر على الرغم من أنه ينتظر من الخير أكثر مما يتحقق فعلًا، لا يدفع الثمن كمدًا يتناسب مع ما كان يؤمله من الخير، وسرعان ما يعمل على تناسي الفشل وتجديد الأمل، ولهذا لم تستمر دهشة «مستر وستن» وأسفه أكثر من نصف ساعة أخذ بعدها يفكر في أن مجيء «فرانك» بعد شهرين أو ثلاثة قد يكون أفضل من مجيئه الآن حيث الوقت أحسن أوقات السنة التي يعتدل فيها الطقس، ولا شك في أنه سيتمكن في أثنائها من المكوث معهم فترة أطول عما لو بكر بالحضور.

وما أسرع ما أعاد إليه هذا التفكير طمأنينته وأثلج صدره، في حين كانت «مسز وستن» وهي أخوف منه طبعًا، لا تنتظر إلا مزيدًا من الاعتذارات والتأجيلات في المستقبل، وزاد في آلامها ما كان يساورها من قلق لما سوف يلاقيه زوجها من جراء ذلك.

ولم تكن حالة «إمَّا» التعسة في ذلك الوقت لتجعلها تهتم بتخلف «مستر فرانك تشرشل» عن المجيء إلا أن يكون ذلك بسبب ما سوف يلقاه من في «راندولز» من خيبة أمل، بل كانت تفضل عليه الهدوء والابتعاد عما فيه إغراء لها. وقد استصوبت أن تكون على طبيعتها بصفة عامة، فحرصت على أن تبدي من الاهتمام بما حدث وتشارك «مستر ومسز وستن» في صدمتهما بما يتفق وصداقتها لهما.

وكانت هي أول من أعلن النبأ لمستر «نيتلي»، وعبّرت عن دهشتها لمسلك أسرة «تشرشل» في إبقائه بعيدًا عن أهله بما رأته ضروريًا من التعليقات (أو أزيد من ذلك قليلًا بالنظر إلى أنها كانت تقوم بدور تمثيلي في هذه الحالة) ثم واصلت الحديث بأكثر مما كان يمليه عليها شعورها، عما كان يمكن أن يكون لهذه الزيارة من أثر في إضافة شخصية جديدة إلى جماعتهم المحدودة في «سَرِى»، وما تحدثه رؤية قادم جديد من بهجة، وما افتقدوه من يوم، كان

يمكن أن يكون يوم عيد لأهل «هايبري» كافة عندما يرونه. فلما عرجت في ختام حديثها على أسرة «تشرشل» وجدت نفسها على خلاف مباشر في الرأي مع «مستر نيتلي»، وكان أكثر ما أضحكها أن ترى نفسها تعضد الرأي الذي يناقض رأيها الحقيقي، وتتخذ من آراء «مسز وستن» حجة على نفسها.

قال «مستر نيتلي» في جفاء: «إن أسرة «تشرشل» قد تكون مخطئة، ولكني أؤكد أنه كان بوسعه أن يأتي لو أنه أراد المجيء».

«لست أدرى لماذا نقول هذا، فهو شديد الرغبة في الحضور ولكن خاله وزوجته لا يفرطان فيه».

«لا يمكن أن أصدق بأنه غير قادر على المجيء إذا هو أراد، لن أصدق هذا إلا بالدليل المقنع».

«ما أعجب ما تكون!! وماذا فعل «مستر فرانك تشرشل» حتى تظن فيه أنه إنسان غير طبيعي إلى هذا الحد؟».

«ما ظننته أبدًا مخلوقًا غير طبيعي حين ظننت فيه أنه قد اعتاد أن يستعلي على أقاربه وأنه لا يعنى إلا بمسراته الخاصة نتيجة لمعاشرة من كانوا المثل الذي يقتدى به، فإن من الطبيعي، بل أكثر من الطبيعي أن تنتظر من شاب قام بتربيته أناس يتصفون بالكبرياء ويعيشون عيشة الترف والأنانية، ثم هو لا يكون بعد ذلك مثلهم في الكبرياء والترف والأنانية، ولو أن «فرانك» رغب في رؤية أبيه لأعد العدة لتحقيق ذلك فيما بين شهري سبتمبر ويناير. وإن رجلًا في مثل سنه - كم يبلغ من العمر؟ ثلاثة وعشرين؟ أو أربعة وعشرين؟ - يستبعد ألا يجد الوسيلة التي تمكنه من أن يقوم بتحقيق هذا، إن ذلك مستحيل».

«إنه لمن السهل عليك أن تقول هذا، وأن تشعر بهذا الشعور، فقد كنت دائمًا المهيمن على شؤون نفسك، وأنت يا «مستر نيتلي»، أبعد من يحكم على الصعوبات التي يلاقيها من يعتمدون على غيرهم. وأنت لا تدرك ما في معاملة من يتصفون بحدة الطبع من صعاب».

«لا أكاد أتخيل أن رجلًا قد بلغ الثالثة أو الرابعة والعشرين من عمره ولا تكون له حرية الفكر والعمل بهذه الدرجة، مع أن لديه المال والفراغ، ونحن نعلم بأن لديه الكثير منهما حتى أنه يُسر بصرفهما في الجهات التي لا يغشاها إلا الكسالى، وكثيرًا ما سُمع عنه أنه ذهب إلى أماكن الاستحمام، أو حيث توجد الينابيع وما شاكلها. لقد كان من عهد قريب في «ويموث»، وهذا دليل على أن في وسعه الابتعاد عن أسرة «تشرشل». «أجل، إن ذلك في مقدوره أحيانًا»..

«وهو لا يذهب إلا في تلك الأحايين التي يراها تستحق الذهاب وحيثما يجد ما يشبع ملذاته».

«ليس من العدل أن تحكم على أخلاق الناس من غير أن تكون على علم بأحوالهم، وما من أحد لم يختلط اختلاطًا تامًا بالأسرة، يستطيع أن يُدلي برأي في الصعوبات التي يلاقيها أحد أفرادها. إن واجبنا يقتضينا أن نتعرف على أسرة «أنسكومب» وأن نعرف طباع «مسز تشرشل» قبل أن تتخذ قرارًا فيما

يكون بوسع ابن أخت زوجها أن يفعله، فقد يستطيع أن يفعل أحيانًا ما لا يستطيع أن يفعله أحيانًا أخرى».
«هناك شيء واحد يا «إمَّا» في قدرة الإنسان أن يفعله إذا هو أراد، ذلك هو واجبه، ولا يكون هذا بالمناورات والتحايل، ولكنه بالقوة والعزيمة، ومن واجب «فرانك تشرشل» أن يظهر اهتمامه بأبيه. إنه يعلم أن هذا من واجبه، بدليل وعوده ورسائله، فلو هو أراد ذلك حقًا لأمكنه أداؤه، إن الرجل الجاد إذا شعر حقًا بأن عليه واجبًا يجب أداؤه، يذهب فورًا إلى «مسز تشرشل» ليقول لها في بساطة وعزم: «ستجدينني دائمًا على استعداد للتضحية بأي شيء فيه متعة لي، ما دام ذلك يرضيك، ولكن لا بد لي من الذهاب حالًا لرؤية أبي لأنه أعلم بأنه سيتألم إذا فاتني في هذه المناسبة أن أظهر له أنه موضع تقديري واحترامي. ولهذا فإني سأرتحل غدًا، فإذا أمكنه أن يقول ذلك لها في الحال بالحزم الذي هو خليق بالرجال فلن يقوم أي اعتراض على ذهابه».
وقالت «إمَّا» وهي تضحك: «لا، وربما كان هناك ترتيب آخر بخصوص عودته ثانية، وهل هذه لغة يتحدث بها شاب إلى من يعتمد عليها كل الاعتماد إلا أحد غيرك يا «مستر نيتلي» يتصور أن هذا في الإمكان، ولكنك لا تعلم شيئًا عما هو واجب في ظروف تختلف كل الاختلاف عن ظروفك. كيف يمكن أن تتصور «مستر فرانك تشرشل» وهو يقول مثل ذلك لخاله وزوجة خاله، وهما اللذان ربياه ويقومان بالإنفاق عليه!!. أن يقف وسط الحجرة ويقول ذلك بأعلى صوته!! كيف تتصور شيئًا من هذا؟».
«ثقي يا «إمَّا» أن الرجل الحصيف لن يجد في ذلك صعوبة، وحسبه أن يشعر بأن الصواب في جانبه لكي يُدلي بما يريد بالطريقة السليمة التي ينتهجها العقلاء. وسوف يعود عليه ذلك بالنفع ويرفع من قدره، ويثبت أقدامه عند أولئك الذين يعتمد عليهم، أكثر مما يأتيه عن طريق الخطط والأساليب المنوعة، وسوف يظفر بالاحترام علاوة على الحب، كما يصبح موضع ثقتهما، إذ يعتقدان بأن ابن الأخت الذي يبر بوالده، سيكون بارًا بهما، فهما يعلمان، كما يعلم هو، وكما يجب أن يعلم الناس جميعًا، إن من واجبه الذهاب لزيارة والده، وهما حين يبذلان الجهد لتأخر هذه الزيارة، إنما يشعران في قرارة نفسيهما بأنهما، لا يحسنان، الظن به لخضوعه لأهوائهما. إن الناس جميعًا يحترمون المسلك القديم، وهو أن اتبع هذا المسلك، وجعله مبدأه في الحياة وداوم عليه، بانتظام، فهما لا بد أن يلينا وأن يأخذا برأيه».
«إني أشك في ذلك كثيرًا، وأراك مولعًا بإخضاع العقول الصغيرة، ولكن العقول الصغيرة في الأثرياء ذوي السلطان تنزع إلى أن تنتفخ وتكبر حتى تستعصي على الاخضاع كالعقول الكبيرة، لأتخيلك أنت يا «مستر نيتلي»، أنك لو نقلت ووضعت في مكان مستر «فرانك تشرشل» لأمكنك أن تقول وتعمل ما توصي به الآن وقد تصل في ذلك إلى نتائج طيبة جدًا، وقد لا تجد عائلة «تشرشل» ما تعترض به عليك، ولكنك في هذه الحالة لن يكون عليك أن تشق

طريقك من خلال عادات وتقاليد اعتدتها من قبل، أما هو فقد ربي على ذلك ولن يسهل عليه أن ينتقل فجأة إلى الاستقلال برأيه، ويضرب بما لهم عليه من حقوق عرض الحائط، بل هو قد يكون مثلك شديد الإحساس بما يجب أن يتبع، ولكنه وهو في ظروف غير ظروفك لا يستطيع أن يعمل وفق ما يحس به».

«إذن فشعوره ليس بهذه القوة، لأنه إذا لم يدفعه إلى بذل ما يعادله من جهد فإنه لا يمكن أن يكون عن قدر مماثل من العقيدة والإيمان».

«ولكن ما أكبر الفرق بينكما في الوضع والعادات!! وددت لو حاولت أن تفهم ما قد يشعر به شاب دمث لو أنه واجه أولئك الذين اعتاد أن يعتمد عليهم طوال حياته بالمعارضة».

«إن فتاك الدمث شاب على جانب كبير من الضعف لو أن هذه كانت أول مرة يحزم فيها أمره على أن يعمل ما يراه صوابًا، مخالفًا في ذلك رأي الآخرين. لقد كان من وأجبه أن يكون قد عوّد نفسه القيام بالواجب بدلًا من أن ينظر إلى مصلحته، وقد أسمح بمثل هذا للطفل، لا للرجل، وما دام قد أصبح كامل الإدراك فإن واجبه يقتضيه أن يتنبه وأن يطرح عن كاهله كل سلطان لهما لا يرى له مبررًا، نعم لقد كان عليه أن يقاوم أول محاولة من جانبهما يرى فيها استهانة بأبيه، ولو أنه بدأ بداية طيبة، لما واجهته الآن أية صعوبة».

وصاحت «إمَّا»: «إننا لن نتفق على شيء بشأنه وليس في ذلك شيء غير عادي. ليست عندي أية فكرة على أنه فتى ضعيف، بل أكاد أجزم

بأنه ليس ضعيفًا، و«مستر وستن» لن يغفر الجهالة في أحد حتى ولو كانت في ابنه، ولكن أكبر الظن أنه أكثر انصياعًا وموافقة وتساهلًا، مما يتفق وآراءك عن كمال الرجال، أؤكد لك بأنه كما أقول، وإن كان هذا ينتقص من بعض مزاياه فهو يضفي عليه مزايا أخرى كثيرة».

«أجل كل المزايا التي هي السكون بدلًا من الحركة، وأن يعيش عيشة من الملذات الخاملة، وأن يستشعر في نفسه القدرة على انتحال المعاذير لذلك، فهو قادر على الجلوس ليسطّر رسالة منمقة ملؤها الوعود والأباطيل، ثم يضلل نفسه بأنه قد وفق إلى أحسن طريقة يضمن لها السكينة في بيته، ولا يجعل لأبيه سبيلًا إلى الشكوى. إن خطاباته تثير الامتعاض في نفسي ».

«أنت فريد في مشاعرك، ويبدو أنها ترضي الناس جميعًا ما عداي».

«وأظنها لا ترضي «مسز وستن»، فإن من الصعب أن ترضي سيدة في مثل تفكيرها السليم وإحساسها المرهف، تقوم بالنسبة له مقام الأم، دون أن يكون لها حنان الأم الذي يجعل العين كليلة عن عيوب الابن، إن الاهتمام «براندولز» يجب أن يكون ضعفين من أجلها، وشعورها بأنها أهملت، من شأنه أن يزداد بالمثل إلى الضعفين، وإني أؤكد بأنها لو كانت هي نفسها ذات شأن، لحضر، ثم ما كان يعينها في هذه الحالة أن يحضر أو لا يحضر. وهل تحسبين أن صديقتك غافلة عن إدراك هذه الاعتبارات؟ هل تظنين أنها لا تفكر في معظم الوقت؟ لا يا «إمَّا» إن فتاك الظريف قد يكون ظريفًا على طريقة الفرنسيين لا على

طريقة الإنكليز، فقد يكون رقيقًا جدًا في معاملته للناس ومحببًا إلى نفوسهم، ولكن تنقصه الرقة الإنكليزية في مراعاة شعور الآخرين، ومن ثم فلست أجد فيه ظرفًا بمعنى الكلمة».
«يبدو لي أنك لن تتخلى عن إساءة الظن به «.
وأجابها «مستر نيتلي» في كثير من الامتعاض:
«أنا، لا أظن ذلك مطلقًا، ولا أريد أن يتجه بي فكري إلى أن أظن به سوءًا، ولن أتأخر عن الاعتراف بما فيه من محاسن، شأنه شأن بقية الرجال، و لكني لم أسمع بأنه يتصف بشيء من ذلك، اللهم إلا ما يتصل منها بشخصه من حديث بنيانه وجمال خلقته، ورقته في معاملة الناس».
«حسنًا، ولو لم يكن له غير هذا ليزكيه لكفاه لكي يكون محبوبًا في «هايبري»، فنحن لا يقع نظرنا كثيرًا على الشباب الظريف المثقف الذي نشأ تنشئة طيبة، وواجبنا ألا ندقق، وألا نطالب بكل الفضائل، ألا يسعك أن تتخيل يا «مستر نيتلي» ما سيكون لمجيئه من الإثارة؟ فلن يكون هناك وقتها إلا موضوع واحد في كل من «أبرشية دونول» و«أبرشية هايبري»، ولن يكون هناك إلا موضوع واحد يثير اهتمام الناس وحبهم للاستطلاع وهذا الموضوع لن يكون سوى «فرانك تشرتشل» ولن يكون تفكيرنا ولا حديثنا في أحد سواه».
«أرجو المعذرة لأنك أفحمتيني، وإنه ليسرني التعرف به لو وجدته لبقًا يحسن الحديث، أما إذا كان غِرًا ثرثارًا فلن يشغل شيئًا من وقتي أو تفكيري».
«ظني به أنه يكيف حديثه بما يلائم ميول الناس وأنه قدير بل وحريص على أن يكون محبوبًا من الناس جميعًا، فهو يتحدث إليك عن الزراعة كما يتحدث معي عن الرسم أو الموسيقى، وهكذا الحال مع جميع الناس، وله من الثقافة العامة ما يؤهله إما لأن يسير في الركب، أو أن تكون له الزعامة حسب ما تقتضيه الكياسة وحسن التفكير، وهو في كلتا الحالتين غزير الكلام. هذه هي فكرتي عنه».
وقال «مستر نيتلي» متحمسًا: «أما فكرتي أنا عنه فهي أنه لو تبين أنه على نحو ما تقولين لكان أعظم شخص لا يحتمل فوق ظهر الأرض، عجبًا!! أتكون له وهو في الثالثة أو الرابعة والعشرين الصدارة على من معه، ويكون الرجل العظيم والسياسي المحنك الذي يدرك طبائع الناس جميعًا، ويسخّر مواهبهم لإبراز تفوقه عليهم، ويغمر كل من حوله بالإطراء، استخفافًا بعقولهم كي يظهروا بالغفلة إذا ما قورنوا به.
إن حسن إدراكك يا عزيزتي «إمَّا» لكفيل بأن يجعلك تجزمين بأن مثل هذا الجرو المدلَّل لا يحتمل».
وصاحت «إمَّا» تقول: «لن أزيد على ما قلته عنه شيئًا، إنك تقلب الحسن قبيحًا، وأرى أن كلينا متحيز فأنت ضده وأنا في صفه ولا ينتظر أن نتفق على رأي حتى يأتي هنا».
«أمتحيز أنا؟ كلا أنا لست بالمتحيز».

«ولكني متحيزة له للغاية ولا أرى في ذلك ما أستحي منه أن حبي «لمستر وستن» وزوجته يجعلني لا أكف عن أن أكون متحيزة له».

وردّ عليها «مستر نيتلي» في كثير من الغيظ:

«إنه شخص لا يخطر على بال في نهاية الشهر إلى نهاية الشهر الذي يليه».

واضطرت «إمَّا» بعد هذا الرد على تغيير مجرى الحديث، ولو أنها لم تر لغضبه سببًا، وعجبت كيف يكره فتى، لشيء إلا لأنه يختلف عنه فيما جُبل عليه، مما لا يتفق وما عهدته فيه دائمًا من اتساع الأفق. لقد كانت تعيب فيه اعتزازه بنفسه دائمًا، ولكنها ما كانت تظن لحظة واحدة قبل ذلك أنه يغبن غيره وينكر عليه محاسنه.

رأت «إمَّا» وهي تسير ذات صباح مع «هاريت» أنهما قد تحدثتا بما فيه الكفاية عن «مستر ألتن» في ذلك اليوم، ولم تر حاجة إلى مزيد من الحديث لكي تسري عن صديقتها أو تهون عن الأثر الذي أقترفته نحوها، ومن ثم فقد جاهدت في أثناء عودتها لكي تنهي الحديث في ذلك الموضوع. ولكن الحديث فيه لم يلبث أن عاد بعد أن ظنت أنها قد أغلقت بابه. وكانت «إمَّا» وهي تحاول أن تسدل الستار على الحديث في هذا الموضوع، قد أخذت تتحدث بعض الوقت عن الفقراء وما يعانونه في زمهرير الشتاء، فإذ بهاريت ترد عليها في توجع «ما أبرّ مستر ألتن» بالفقراء.

عندئذ أدركت «إمَّا» أنه لا بد من إجراء آخر تتخذه.

وكانتا قد اقتربتا من البيت الذي تقيم فيه «مسز بيتس» وكريمتها «مس بيتس»، وقع قرارها على أن تدخل مع «هاريت» لزيارتهما طلبًا للخلاص في حضرة غيرهما من الناس. وكان لهذه الزيارة ما يكفي لكي يبررها. فقد كانت «مسز بيتس» وكريمتها مولعتين بزيارة الناس لهما، ثم أن «إمَّا» كانت واثقة من أن قلة من الناس ممن يتلسمون لها الأخطاء يرونها مهملة في هذه الناحية، ولا تسهم بنصيبها في إدخال السرور على قلبيهما على قلة ما لهما من أسباب المتعة.

وكثيرًا ما نوّه لها «مستر نيتلي» بهذا العيب، كما شعرت هي في قرارة نفسها بأنها مقصرة في هذه الناحية، ولكن لم يكن شيء من هذا ليتغلب على كراهيتها الشديدة لهذه الزيارات، فقد كانت ترى فيها مضيعة للوقت بين جماعة من النساء المتعبات، علاوة على فزعها من التعرض بسببها لخطر الاختلاط بالطبقة الثانية أو الثالثة من أهل «هايبري» الذين كانوا يزورون «مسز بيتس» وابنتها، ولذلك كان من النادر أن تقترب منهما. ولكنها الآن وقد مرت ببابهما، قررت فجأة أن تدخل وقد قالت لهاريت وهي تقترح عليها الدخول إنهما في مأمن من أن يكون قد وصل خطاب من «جين فيرفاكس».

وكان البيت مملوكًا لجماعة من رجال الأعمال، وكانت «مسز بيتس» وابنتها تقيمان في الطابق الأرضي منه وفي هذه الشقة المتواضعة، التي كانت كل شيء بالنسبة لحاجاتهما، كانتا تستقبلان ضيوفهما بالحفاوة والتكريم.

وقامت السيدة العجوز الأنيقة من مكانها في أدفأ ركن من الحجرة حيث كانت جالسة منهمكة في عمل التريكو، لتتنازل عن مكانها «لمس وودهاوس» وانطلقت ابنتها بما لها من نشاط أوسع وقدرة على الكلام تغمرهما بعنايتها وحنانها وتشكرهما على هذه الزيارة، وتبدي إشفاقها على أحذيتهما، وتسأل باشتياق عن صحة «مستر وودهاوس»، وتنقل إليهما أخبارًا سارة عن صحة والدتها وعن الفطيرة الحلوة التي أتت بها من الصوان «البوفيه».

ثم أخذت تقول: «لقد كانت «مسز كول» هنا منذ برهة، وقد أتت لزيارتنا، على أن تقضي معنا عشر دقائق، ولكنها تكرمت وأمضت معنا ساعة كاملة، كما تناولت قطعة من الفطيرة، وكان فضلًا منها أن تقول أنها أعجبتها للغاية، ولذلك فهي تأمل أن تتكرما فتأخذ كل من «مس وودهاوس» و«مس هاريت» قطعة منها».

وكان الحديث عن أسرة «كول» لا بد مؤد إلى الحديث عن «مستر ألتن» فقد كانت تربطه بتلك الأسرة ألفة ومودة، وكان قد وصل إلى «مستر كول» خطاب من «مستر ألتن» منذ سفره، وأدركت «إمَّا» ما سينجم عن ذلك، إذ كان لا بد أن يدور الحديث عن الخطاب مرة أخرى، وعن الفترة التي غاب فيها «مستر ألتن»، وعن الحفلات الكثيرة التي لبًى إليها الدعوة، وكيف أنه كان ملء العيون أينما حل، وكيف كانت حلبة الرقص الكبرى في حفلة مدير التشريفات مزدحمة على سعتها.

واستمعت «إمَّا» لكل هذا وأولته عظيم اهتمامها، وجادت بما هو ضروري من الإطراء، وكانت في ذلك سباقة إلى إبداء الملاحظات لكي تقفل باب الحديث على «هاريت» فلا تضطر إلى التفوه بكلمة. وكانت «إمَّا» قد وطدت نفسها على سماع ذلك كله عندما دخلت المنزل، ولكنها كانت تؤمل وقد امتدحته مرة ألا تظل تُحرج بالتحدث في هذا الموضوع المتعب، وأن يتشعب الحديث فينتقل إلى سيدات وآنسات «هايبري»، وإلى ندوات لعب الورق في بيوتهن. كذلك لم تكن «إمَّا» مستعدة لسماع شيء عن «جين فيرفاكس» بعد الذي سمعته عن «مستر ألتن».

ولكن «مس بيتس» أسرعت في كلامها عقب حديثها عن «مستر ألتن» إلى الحديث فجأة عن «أسرة كول» لتخرج خلال ذلك برسالة وصلت من ابنة أختها. واستطردت تقول:

«نعم، إن «مستر ألتن» كما فهمت يجيد الرقص، ولا شك في ذلك، وقد قالت لي «مس كول» إن الرقص في صالات «باث» كان -، وقد تعطفت «مسز كول» وجلست معنا بعض الوقت تتحدث عن «جين»، إذ ما كادت تدخل حتى أخدت تسأل عنها، ذلك لأن «جين» محبوبة هناك جدًا، وعندما تكون «جين» معنا، ترى «مسز كول» أنها

مهما بالغت في العطف والحنان عليها فهي مقصرة لم توفها حقها، وأعتقد أن «جين» جدِيرة بهذا أكثر من أي إنسان آخر، ولذلكِ أخذت تسأل عنها مباشرة

وتقول: «أعتقد أنه لم تصلكما أخبار من «جين» أخيرًا، لأن هذا الوقت ليس بالوقت الذي تكتب إليكما فيه» - وعندما قلت على الفور «بل لقد وصلتنا أخبار منها، فقد استلمنا خطابًا منها في هذا الصباح» - لم أجد في حياتي شخصًا استولت عليه الدهشة مثلما استولت عليها إذ قالت: «اقسمي بشرفك على صحة ذلك!! حسنًا ان ذلك لم يكن منتظرًا، دعيني أسمع ما تقول».
وابتسمت «إمَّا» في أدب وأبدت اهتمامها وقالت:
وهل وصلتكمما أخبار من مس «فيرفاكس» منذ هذه المدة القصيرة؟ إني لسعيدة جدًا، وأرجو أن تكون بخير».
وأجابتها الخالة التي غرها ذلك، وهي تبحث عن الخطاب باهتمام:
«شكرًا لك، وكم أنت عطوفة!! «ها هي الرسالة، لقد كنت متأكدة أنها ليست في مكان بعيد، ولكني لم أحترس وجعلت الخادمة تطلع عليها، ولذلك اختفت، ولكنها كانت في يدي من وقت قريب، ولذلك كنت متأكدة بأنها لا بد أن تكون فوق المنضدة، لقد كنت أقرؤها «لمسز كول»، ثم أخذت أقرؤها بعد أن خرجت مرة أخرى لوالدتي، لأن رسالة تأتي من «جين» تغمرها سرورًا، ومن ثم فهي لا تمل الاستماع إليها وكنت
أعلم أنها لن تكون بعيدة عن هنا، ها هي معي الآن ولكنها كانت فقط مع خادمتي - وما دمت قد تفضلت بإظهار رغبتك في سماع ما تقوله -
ولكن يجب بادئ ذي بدء أن أعتذر نيابة عن «جين» لكتابتها مثل هذا الخطاب القصير، وهو كما ترين مكتوب في صفحتين، صفحتين فقط لا أكثر بل أقل، وهي في العادة تملأ فراغ الورقة وتضرب على نصف ما كتبته، وكثيرًا ما تبدي والدتي دهشتها من قدرتي على قراءاتها، وكثيرًا ما تقول عندما تفض الرسالة: «أجل يا «هتي» أظنك الآن ستأخذين في حل رموزها، أليس كذلك يا سيدتي! وعندئذ أقول لها بأني واثقة إنها ستجد وسيلة لقراءتها كلها بنفسها إن هي لم تجد من يقرؤها لها - وأنا متأكدة بأنها ستدقق إلى أن تدرك كل كلمة فيها - ولا شك أن والدتي رغم أن عينيها قد ضعف أبصارهما عن قبل، لا تزال ترى والحمد لله بدرجة تدعو إلى الدهشة بنظارتها، وإنها لنعمة كبرى أن تكون نظارات والدتي بهذه الجودة العظيمة، وكثيرًا ما تقول «جين» عندما تكون هنا: «أنا متأكدة يا جدتي بأن عينيك كانتا حادتين جدًا، حتى أنك لا زلت ترين الآن إلى هذا الحد، وتقومين بعمل أشياء جميلة كالتي كنت تعملينها، وكل ما أتمناه أن أكون مثلك فتدوم قدرة إبصاري على مر السنين».
قالت «مس بيتس» كل هذا بمنتهى السرعة، مما اضطرها للتوقف كي تسترد أنفاسها - وأشادت «إمَّا» في بعض كلمات بجمال الخط الذي تكتب به مس «فيرفاكس».
واستطردت «مس بيتس» تقول وهي راضية كل الرضى:
«ما أعظم رقتك.، إنك أحسن حكم في ذلك لأن خطك في منتهى الجمال، وأؤكد لك بأنه لن يكون لمدح كائن من كان، من السرور، ما لمدح «مس

وودهاوس» - وأنت تعلمين أن والدتي لا تسمع، لأن بأذنيها بعض الصمم» - ثم وجهت الحديث إلى أمها قائلة: «أتسمعين يا سيدتي ما تفضلت وقالته «مس وودهاوس» عن خط «جين»؟ واضطرت «إمَّا» إلى الاستماع لكلماتها السخيفة عن «جين» يكرر مرتين قبل أن تتمكن السيدة العجوز الطيبة من أن تفهمه.

وكانت «إمَّا» في الوقت نفسه تفكر في أنها قادرة على أن تهرب من رسالة «جين فيرفاكس» دون أن تبدو فظة، وأوشكت أن تحزم أمرها وتبدي عذرًا تافهًا ثم تخرج مسرعة في الحال، وإذا بمس «بيتس» تعود إليها مرة أخرى وتجذب انتباهها فتقول:

«إن ما عند أمي من الصمم بسيط كما ترين، وهو يكاد يكون معدومًا، ومن المؤكد أنها تسمعني لو رفعت صوتي وقلت الشيء مرتين أو ثلاثًا، ولكنها مع ذلك قد اعتادت صوتي، ويلاحظ كثيرًا أنها تسمع «جين» أكثر مما تسمعني، لأن «جين» تتكلم بوضوح، وعلى كل حال فهي لن تجد جدتها أقل سمعًا مما كانت عليه منذ عامين، وهذا أمر ليس بالهين في سن أمي، إنهما عامان كاملان كما تعلمين منذ أن كانت هنا، ولم يسبق لها أن غابت عنا هذا الغياب الطويل، وكما كنت أقول «لمسز كول»: إننا لا نكاد نعرف كم ستمضي من الوقت معنا».

«وهل تنتظران مجيء «مس فيرفاكس» قريبًا؟».

«أجل، في الأسبوع المقبل».

«هذا شيء يبعث على السرور ولا ريب».

«شكرًا، أنت عطوفة جدًا، أجل في الأسبوع القادم، والجميع في دهشة، وهم يقولون نفس هذا الكلام الجميل، وأعتقد أنها سوف تُسر برؤية أصدقائها في «هايبري» كسرورهم برؤيتها، أجل، قد يكون ذلك يوم الجمعة أو يوم السبت، وهي لا تعلم في أي اليومين تجيء، لأن المقدم «كاميبل» سيحتاج إلى العربة في أحد هذين اليومين، وانه لكرم عظيم منهم أن تقطع كل الطريق بعربتهم، ولكنهم يفعلون ذلك دائمًا، أجل، وسيكون ذلك يوم الجمعة القادم أو يوم السبت، هذا هو ما ذكرته في هذا الصدد، وهو السبب الذي من أجله كتبت في غير الأوقات التي اعتادت الكتابة فيها، إذ لم نكن ننتظر منها خطابًا قبل يوم الثلاثاء القادم أو يوم الأربعاء، حسب ما جرت به العادة».

«نعم، وهذا ما تخيلته، فقد كنت أخشى ألا تتهيأ لي فرصة لسماع شيء عن «مس فيرفاكس» اليوم».

«إنك تأسريننا بفضلك، لا، وما كان ليصلنا منها خطاب لولا تلك المناسة بذاتها التي هيأت مجيئها إلى هنا بهذه السرعة. إن والدتي مسرورة جدًا لأنها ستقيم معنا ثلاثة شهور على الأقل، فهي تؤكد بأنها ثلاثة شهور، كما يتبين لك من قراءة خطابها عليك الآن، وخلاصة الموضوع كما ترين هو أن أسرة «كامبيل» ستسافر إلى أيرلندا، لأن «مسز دكسون» حببت إلى أبيها وأمها المجيء عندها حالًا، ولم يكن في عزمهما الذهاب إلى أن يحين فصل الصيف، و لكنها لم تستطع أن تصبر على فِراقهما أكثر من ذلك. وكانت حتى تزوجت في أكتوبر

الماضي لا تغيب عنهما أكثرمن أسبوع واحد، فما بالك وهي في مملكة غير مملكتها، وكنت على وشك أن أقول وفي بلاد تخالف بلادها، ولذلك كتبت خطابًا عاجلًا لأمها أو لأبيها، وأقول صراحة بأني لا أعلم إلى أيهما كتبت، ولكننا سنرى الآن من خطاب «جين»، وقد كتبته باسمها واسم «مستر دكسون»، يلحان عليهما في الحضور حالًا، ويقولان إنهما سيلتقيان بهما في «دبلن» ثم يعودان بهما إلى مقرهما الريفي في «بالي كريج»، وظني أنه مكان جميل، ولقد سمعت «جين» عنه الكثير من «مستر دكسون»، أقصد أنها لم تسمع عنه من أي شخص آخر، فإن من الطبيعي أن يغرق في الحديث عن بلده في أيام الخطبة، وبما أن «جين» اعتادت أن تخرج كثيرًا للرياضة معهما، لأن المقدم «كامبيل» وزوجته كانا يحرصان على ألا تخرج ابنتهما للرياضة وحدها مع «مستر دكسون»، وهذا بالطبع شيء لا ألومهما عليه، فإنها بطبيعة الحال كانت تسمع كل ما يقوله «لمس كامبيل» عن بيته في أيرلندا، وأظن أنها كتبت إلينا بأنه أطلعها على بعض رسوم وصور للجهة، وعلى بعض مناظر أخذها هو بنفسه، وأعتقد أنه شاب على غاية من الظرف والمرح، وكانت «جين» تتوق إلى الذهاب إلى أيرلندا لما سمعته من وصفه لها».

وساور «إمَّا» في تلك اللحظة شيء من الشك عن «جين فيرفاكس» و«مستر دكسون» الظريف، وعن عدم ذهابها إلى أيرلندا، فرسمت خطة بارعة لتستكتف ما هو أبعد من هذا فقالت:

«لا بد أنك تشعرين بأن من حسن الطالع أن يُسمح لمس «فيرفاكس» بالحضور إليكما في مثل هذا الوقت، وإذا أخذنا في الحساب، الصداقة التي بينها وبين «مسز دكسون» خاصة، فإنه لم يكن من المنتظر إعفاؤها من مصاحبة «المقدم كامبيل» وزوجته في رحلتهما إلى أيرلندا».

«لا ريب أنه عين الصواب، الصواب عينه، وهذا ما كنا نخشاه، لأننا ما كنا نود أن تبعد عنا بهذا القدر، تغيب شهورًا ثم لا يتسنى لها الحضور إذا ما حدث حادث، ولكنك ترين أن كل شيء يتحول إلى ما هو أحسن، إنهما (أعني مستر دكسون ومسز دكسون) يبديان رغبتهما الشديدة في حضورهما مع المقدم «كامبيل» وزوجته - كوني واثقة

من ذلك، بل لا شيء أكرم ولا أكثر إغراء على الاستجابة للدعوة من اشتراكهما معًا في دعوتها، وإن «جين» تقول كما ستسمعين الآن: «إن مستر دكسون يوليها كل عنايته، وهي لا تغفل عن شيء من ذلك أبدًا، فهو شاب على جانب كبير من الظرف، ومنذ أن أدى إلى «جين» جميلًا لا ينسى في «وييموث» وقت أن خرجوا جماعة للتريض في عرض البحر، وحدث أن التفّت الشراع فجأة لسبب ما، وعاد يطاح بها في البحر وينتهي كل شيء في غمضة عين، لولا سرعة خاطره وإمساكه بتلابيبها (وأنا لا يمكنني أن أفكر في ذلك دون أن تأخذني رجفة) نعم، منذ أن علمنا بما حدث في ذلك اليوم، وأنا أشعر بالميل الشديد إلى «مستر دكسون».

«ولكن على الرغم من إلحاح أصدقائها، ورغبتها هي في رؤية أيرلندا، فإن «مس فيرفاكس» تفضل أن تكرس وقتها لك ولمسز بيتس؟».

«أجل، وهذا كله من فعلها وبمحض اختيارها، ويرى المقدم «كامبيل» وكذلك «مسز كامبيل « أن هذا الذي فعلته هو الصواب بعينه، وهو ما يحبذانه، ولا شك أنهما يريدان بصفة خاصة أن تجرب هواء مسقط رأسها، لأنها لم تستمتع أخيرًا بصحتها كعادتها».

«يهمني أن أسمع ذلك، وفى رأيي أنهما يحكمان عن روية! ولكن لا بد وأن تكون «مسز دكسون» قد شعرت ببالغ الأسى، وأنا أعلم أن «مسز دكسون» ليست على درجة ملحوظة من الجمال الشخصي، وأنه لا وجه للمقارنة ببنها وبين «مس فيرفاكس» بحال».

«لا، أبدًا، وإنه لمن حسن ذوقك أن تقولي ما تقولين، والواقع أنه لا وجه للمقارنة بينهما، فلقد كانت «مس كامبيل» دائمًا في منتهى البساطة، ولكنها في غاية الظرف والرشاقة».

«أجل، وهذا شيء أكيد».

«إن المسكينة «جين» أصابها برد شديد، كان ذلك منذ وقت طويل، منذ السابع من شهر نوفمبر (كما سأقرأ لك) ولم تبرأ منه من وقتها، أليست تلك فترة طويلة لإصابتها بوعكة برد لا تزال تلازمها؟ وهي لم تذكر شيئًا عنه قبلًا، لأنها لم ترد أن تزعجنا، فتلك هي طبيعتها، وما أكثرها مراعاة لشعور الناس!! ولكنها على كل حال لا تزال متوعكة الصحة، حتى أن أصدقاءها العطوفين من أفراد أسرة «كامبيل» يرون أنه من الأفضل لها أن تأتي إلى بلدتها، وتستنشق الهواء الذي يلائمها، وهم لا يشكون في أن ثلاثة شهور أو أربعة تقضيها في «هايبري» سوف تكون كافية لكي تشفى شفاءً تامًا، ولا ريب أن مجيئها هنا أفضل بكثير من ذهابها إلى أيرلندا ما دامت مريضة، إذ لن يكون هناك من يقوم بتمريضها مثلنا».

«يبدو لي أن هذا أحسن قرار اتخذ».

«وعلى ذلك فسوف تأتي إلينا يوم الجمعة أو يوم السبت القادمين، وستغادر أسرة «كامبيل» المدينة يوم الاثنين التالي لذلك، وتتجه إلى «هُولي هد» كما ستعرفين ذلك من خطاب «جين». نعم لقد كانت مفاجأة لنا، ولك يا عزيزتي «مس وودهاوس» أن تتصوري كيف كان وقع ذلك في نفسي، ولولا مرضها - ولكني أخشى أنها لا بد أن تكون قد أصبحت نحيلة وفى حالة سيئة، ويجدر بي أن أقول لك، إن ذلك كان من سوء طالعي، ذلك أني أحرص دائمًا على أن أقرأ خطابات «جين» بنفسي أولًا قبل أن أقرأها بصوت مرتفع لأمي، وذلك خشية أن يكون فيها شيء يقلقها، وتلك هي رغبة «جين»، وأني دائمًا أتبعها، وهكذا بدأت أقرأ خطابها وأنا حريصة كعادتي، ولكني ما كدت أصل إلى ذكر مرضها حتى استولى عليّ الجزع وصمت قائلة: «رحماك!!، إن «جين» المسكينة مريضة». وسمِعت أمي ذلك بوضوح، وكانت تراقبني باهتِمام ففزعت حزنًا

عليها، على أني عندما استرسلت في القراءة وحدث أن الحالة لم تكن بالخطورة التي تصورتها لأول وهلة، وقد استطعت أن أهوّن الأمر على أمي الآن حتى لم تعد تفكر كثيرًا في ذلك، ولكنني لا أكاد أتصور كيف فاتني حرصي! وإذا لم تستعد «جين» صحتها سريعًا فسندعو «مستر بري»، ولن نفكر فيما سننفقه في سبيل ذلك، على الرغم من أنه كريم ومحب لجين، حتى أراني أعتقد بأنه لن يطلب آجرًا مقابل عنايته بها، فلن نقبل ذلك كما تعلمين، إذ كان له زوجة وأسرة يرعاها ويقوم بالانفاق عليها، ولا يليق بنا أن يضيع وقته هكذا، أجل، والآن أعطيتك فكرة عما كتبته «جين»، نعود إلى خطابها، وأعتقد أنها ستروي قصتها أحسن مني بكثير».

وقالت «إمَّا» وهي تنظر إلى «هاريت» وتهم بالوقوف:

«آسفة لأننا لا بد أن نسرع بالخروج، لأن والدي في انتظارنا ولم يكن في نيتي ولا في استطاعتي أن أبقى معكم هنا أكثر من خمس دقائق عندما دخلت البيت، وما كانت زيارتي إلا لأني رأيت ألا أمر ببابكم دون أن أسأل عن «مسز بيتس»، ولكني سعدت باستبقائكما لنا طول هذه المدة، ومن واجبنا الآن أن نقول لك «ولمسز بيتس» عمنما صباحًا».

ولم تجد كل المحاولات التي بذلت لحملهما على البقاء أكثر من ذلك، وبلغت «إمَّا» الطريق وهي فرحة بأنها وإن اضطرت إلى سماع الكثير مما لم يكن على هواها وكان عليها أن تنصت إلى مضمون خطاب «جين فيرفاكس» كاملًا، فقد نجحت في الهرب من الاستماع إلى تلاوة نص الخطاب نفسه.

كانت «جين فيرفاكس» فتاة يتيمة، والابنة الوحيدة لصغرى بنات «مسز بيتس». وكان زواج الملازم «فيرفاكس»، الضابط بإحدى كتائب المشاة، من الآنسة «جين بيتس»، حدثًا ذاع صيته وعمّت فرحته، وعقدت عليه الآمال، وإن لم يبق منه الآن إلا ذكرى محزنة لزوج كريم، قضى نحبه وهو يؤدي عمله بعيدًا عن بلده، وذكرى أرملة لم يمهلها المنون من بعده، فراحت ضحية الحزن وداء ذات الرئة، ثم هذه الفتاة جين فيرفاكس وهي من مواليد «هايبري» وكانت قد بلغت الثالثة من عمرها عندما لبّت أمها نداء ربها، فانتقلت إلى كنف جدتها وخالتها، وظلت تحت رعايتهن تدللانها وتجدان فيها العزاء والسلوى عما أصابهما.

وبدا وكأنها ستقيم معهما بصفة دائمة، وأنها ستنال قسطًا من التعليم بقدر ما كانت تسمح به مواردهن الضئيلة، وأنها سوف تشب وليس لها من مزايا النسب أو فرص الارتفاع بمستواها ما يمكن أن يزيد على ما حبتها به الطبيعة من ظرف وحسن إدراك ومن قلب عطوف وأقارب طيبين. ولكن أحد أصدقاء والدها كان له من الشعور، بالإشفاق عليها ما غيّر مصيرها - هذا هو «المقدم كامبيل»، الذي كان يُجل «فيرفاكس»، لأنه كان ضابطًا ممتازًا، وشابًا جديرًا بالتكريم، علاوة على أنه كان مدينًا له بما شمله من رعاية في أثناء إصابته في المخيم بحمى شديدة، وإيمانه بأن الفضل في نجاته إنما يرجع إليه. وما كان المقدم «كامبيل» ليغفل عما طوّق به «فيرفاكس» المسكين عنقه من حسن الصنيع، وأن انقضت أعوام كثيرة على وفاته، قبل أن تهيء له عودته

إلى إنكلترا الفرصة ليقوم بما في وسعه أداؤه. فلما عاد بحث عن الطفلة، وأخذ يتتبع أخبارها، وكان في ذلك الوقت متزوجًا وله طفلة في عمر «جين» فاستضاف «جين» في منزله، تنزل في ضيافتهم وتقضي معهم فترات طويلة، وتستمتع بالحظوة عندهم جميعًا.

وقبل أن تبلغ التاسعة من عمرها، تضافرت رغبته، في أن يكون لها صديقًا وفيًّا، مع ولع ابنته بها، على أن يأخذ على عاتقه تربيتها. وأجيب إلى طلبه، وسرعان ما اندمجت «جين» منذ ذلك الحين في أسرة المقدم «كامبيل» وعاشت بينهم، حتى كانت لا تزور جدتها إلا الفينة بعد الفينة. ووضعت الخطة لإعدادها لأن تكون مدرسة، فقد كان من المستحيل عليها أن تعتمد في حياتها

على بضع مئات الجنيهات التي ورثتها عن أبيها، ولم يكن في وسع «المقدم كامبيل» أن يجد سبيلًا غير هذا. إذ على الرغم من أن دخله من مرتبه وأعماله كان كبيرًا، فإن ثروته كانت وسطًا وكان لا بد أن تؤول بأكملها إلى ابنته، ومن ثم فقد كان يأمل بتعليمها أن يمدها بالوسائل التي تهيء لها فيما بعد عيشة كريمة.

كانت هذه قصة حياة «جين فيرفاكس» بعد أن آل أمرها إلى أيد كريمة ترعاها. فلم تر من أسرة «كامبيل» إلا كل عطف وحنان، كما نالت قسطًا من التعليم ممتازًا، وعاشت دون انقطاع مع أناس اتصفوا برجاحة العقل وسعة المعلومات، فاكتسبت كل ما من شأنه أن يصقلها روحًا وعقلًا.

ولما كانت إقامة المقدم «كامبيل» في لندن، فإنه لم يترك شاردة ولا واردة من مواهبها الروحية إلا وأولاها كل عنايته، وعهد بها إلى خيرة الأساتذة. فلقد كانت ميولها وقدراتها جديرة بكل ما تمليه تلك الصداقة من خدمات، حتى أصبحت لها الكفاية التامة للقيام بمهنة التدريس عندما بلغت الثامنة أو التاسعة عشرة من عمرها، وهي في الحق سن مبكرة لمن يُرخص له بتربية الأطفال. على أن فرط حبهم لها جعلهم لا يسمحون بالتفريط فيها، فلا الأم ولا الأب كانا يحبذان مفارقتها، ولا الابنة كانت تحتمل البعد عنها، وهكذا تأجل يوم الفراق، فقد كان من السهل الاعتذار بأنها ما زالت صغيرة. وبقيت «جين» معهم كأنها ابنة ثانية تشاركهم كل ملذاتهم المعقولة التي تستمتع بها جماعة راقية، فتوفرت لها بذلك، المتعة الحكيمة والمأوى الهنئ ولم ينقصها إلا أمر مستقبلها، ولكنها رأت بحسن إدراكها أن كل هذا لا يجوز أن ينغص عليها حياتها طويلًا، وكان أشرف ما حظيت به، هو حب العائلة بأسرها لها، وتعلق «مس كامبيل» الشديد بها خاصة وأن «جين» كانت تفوقها فيما كان لها من جمال ومواهب. وكانت فتاة الأسرة لا يغيب عنها ما منحته الطبيعة لجين من بهاء الطلعة، وكذلك الوالدان لم يخف عليهما تفوقها على ابنتهما في قدراتها العقلية.

وهكذا ظلت الفتاتان تعيشان سويًا لا يعتري تقديرهما لبعضهما نقصان، إلى أن تزوجت «مس كامبيل» التي واتاها الحظ الذي غالبًا ما يتحدى الآمال في أمور الزواج، فيهب الحب للوسط ويصرفه عن الكمال. فلم يكن «مستر دكسون» ذلك الشاب الجميل، ذو الثروة الطائلة، يتعرف بها حتى تعلق بحبها واستقر معها في حياة زوجية سعيدة. أما «جين فيرفاكس» فقدت كان عليها أن تسعى بعد ذلك إلى كسب قوتها.

وقد تم ذلك الزواج وليس أمام صديقتها التي لم يكن لها مثل حظها فسحة من الوقت لتشق طريقها في الحياة رغم أنها كانت قد بلغت الآن الحادية والعشرين، وهي السن التي كانت قد حددتها لنفسها منذ وقت طويل لتكون بداية لدخولها معترك الحياة.

والآن وقد بلغت هذه السن، فقد استجمعت قواها، وشدت من عزيمتها بحماس من يكرّس نفسه لعمل جديد، واعتزمت أن تسير في التضحية إلى النهاية، وأن تبتعد عن كل مباهج الحياة، وعن مخالطة الناس، وأن تتخلى عن حياة الطمأنينة وتترك الأمل لتعاني الآلام على ما فاتها، وتحس بالفجيعة إلى الأبد.
ولم يكن في وسع المقدم ولا «مسز كامبيل» حين يحكمان تفكيرهما السليم أن يرداها عما اعتزمته، وإن كانت عواطفهما تدفعهما إلى محاولة ذلك، فما داما على قيد الحياة فلا حاجة بها إلى جهد نفسها، بل عليها أن تعتبر بيتهما بيتها دائمًا، وأن تثق بأن راحتهما هي في أن تمكث معهما إلى الأبد، ولكن هذا الإحساس من جانبهما لا يعدو أن يكون أنانية منهما فإن ما لا بد أن يقع آجلًا، أحرى به أن يقع عاجلًا. ولعلهما شعرا بأنه كان يكون أقرب إلى الحكمة والعطف لو أنهما كانا قاوما ما حدا بهما إلى تعطيلها عن مهنتها فيما مضى، فقد كان ذلك خليقًا بأن يجنبها الآن شعور الحرمان من حياة المتعة والراحة والفراغ التي اعتادتها وهي في كنفهما. ومع هذا فقد وجد عطفهما عليها فرحة عندما وجدا عذرًا معقولًا يتعلقان به كي لا يعجل باللحظة المشؤومة، فقد لازم السقم «جين فيرفاكس» منذ زواج ابنتهما، وأصبح من واجبهما أن يمنعاها من العمل إلى أن تستمتع بكامل الصحة وتسترد عافيتها. فالعمل، حتى في أشد الظروف الملائمة، يتطلب حسن أدائه شيئًا غير مجرد السلامة الجسمانية والعقلية.
ولقد كانت «جين» صادقة فيما أفضت به إلى خالتها من أنها لن تسافر معهما إلى أيرلندا، رغم أنها أخفت عنها بعض الحقائق. فلقد كانت رغبتها الخاصة هي التي أملت عليها أن تخصص مدة غيابهما في أيرلندا لتقضيها في «هايبري». ولعلها أرادت بذلك أن تقضي الشهور الأخيرة التي تتمتع فيها بكامل الحرية مع أولئك اللائي يعطفن عليها من أقاربها، ولها في قلوبهن أعظم منزلة. أما أسرة «كامبيل» فقد أيدت هذا الإجراء في الحال ودون توانٍ، وبدافع أو أكثر، قائلين بأن جلّ اعتمادهم على أن تقضي أسابيع قليلة في موطنها لتستعيد صحتها، أكثر من اعتمادهم على أي شيء آخر. وهكذا أصبح مجيئها إلى «هايبري» أمرًا محققًا.
وبدلًا من أن ترحب «هايبري» بالتحفة الغالية التي طال انتظار قدومها في شخص مستر «فرانك تشرشل»، كان عليها أن تكتفي مؤقتًا بمقدم «جين فيرفاكس» التي لم تكن لتجلب معها سوى ذكرى تغيبها مدة عامين كاملين.
واغتنمت «إمَّا» أن يكون من واجبها أن تظل ترحب بشخص لا تحبه ثلاثة شهور كاملة، تؤدي فيها من المجاملات أكثر مما تحب وأقل مما يجب، أما لماذا لا تحب «جين فيرفاكس» فقد تكون الإجابة على هذا السؤال صعبة. لقد أخبرها «مستر نيتلي» مرة أن مرد ذلك أنها تجد فيها الفتاة التي جمعت المحاسن كلها، وأنها كانت تود لو كان هذا هو رأي الناس فيها هي. وعلى الرغم من أنها

لم تقره على هذه التهمة في حينها، فقد مرت بها لحظات منذ ذلك الوقت، كانت تتفحص فيها نفسها، فلا تجد في ضميرها ما يبرئها منها كل التبرئة.
على أنها مع ذلك لم تستطع أبدًا أن تعقد معها أية صلة من صلات الصداقة ولم تعرف سببًا لما كانت تلاحظه فيها من تحفظ وإعراض. ومع ذلك فهي لا يعنيها أن تنال استحسانها أو لا تناله. ثم هناك خالتها فوق ذلك - امرأة ثرثارة لا تكف عن الكلام ومع ذلك فهي موضع الاهتمام من الناس جميعًا دون أن يكون لذلك أي مبرر. لقد كان الناس يتصورون أنهما سيكونان، هي وجين، صديقتين حميمتين. فقد كانتا في سن واحدة، ومن ثم فقد افترض الجميع أنهما لا بد أن يتعلقان ببعضهما البعض تلك كانت الأسباب، ولم تجد «إمَّا» لديها ما هو أحسن منها.
ولم تكن «إمَّا» في الواقع منطقية في كراهيتها لها إلى هذا الحد، فقد كانت تجسّم ما تزعمه من هفواتها، في مخيلتها، حتى أنها لم تكن ترى «جين فيرفاكس» لأول مرة بعد أية غيبة طويلة حتى تشعر بأنها قد أساءت إليها. والآن وقد قامت بزيارتها عقب وصولها، بعد غياب دام سنتين، أدهشها ما رأته منها أنها ظلت على حالتها في مظهرها وسلوكها. فقد كانت «جين فيرفاكس» لا تزال رشيقة بل غاية في الرشاقة، وكان للرشاقة في نظر «إمَّا» أعظم قدر، فقد كان طولها مناسبًا، كان ذلك الطول الذي يظنها الناس معه طويلة دون أن تكون فارعة في الطول، وكان قوامها يتميز بالرقة؛ فكانت وسطًا، لا هي بالبدينة ولا بالنحيلة، رغم ما كان يبدو عليها من بعض مظاهر الضعف الطفيف التي قد تبرز بعض ما في النحافة أو البدانة من عيوب. لمست «إمَّا» كل ذلك الآن. ثم محياها. لقد بدا فيه من الجمال أكثر مما كانت تذكره فيها. ولم تكن تقاطيعها متناسقة، ولكنها مع ذلك كانت جميلة يُسر المرء لرؤيتها، وكان لها عينان داكنتان، وأهداب وحواجب سوداء كانت دائمًا مثار الإعجاب. أمام بشرتها التي اعتادت «إمَّا» أن تتلمس فيها عيبًا يعيبها، وتصفها بأن اللون ينقصها، فكانت صافية رقيقة لا حاجة بها إلى مزيد من الاشراق نعم. لقد كان جمالها من النوع الذي يمتاز بالرشاقة، ومن ثم كان يقضتيها شرفها ومبادئها أن تعجب به.
لقد كان لها من رقة الجمال وصفاء الذهن ما لم تجد له شبيهًا في «هايبري» كلها، فقد كان جمالًا رقيقًا مهذبًا بعيدًا كل البعد عن الابتذال. وقصارى القول، لقد جلست «إمَّا» في أثناء زيارتها الأولى. تنظر إليها وهي راضية من ناحيتين، من ناحية شعورها بالغبطة، ثم من ناحية شعورها بأنها توفيها حقها، وعزمت على ألا تستمر في كراهيتها لها.
وعندما فكرت في تاريخ حياتها وفي مركزها وفي جمالها، وراعت مما رسمه القدر لكل هذا الظرف، ومن الهوة التي ستنحدر إليها في المستقبل وما ستكون عليه حياتها فيما بعد، رأت كل هذا موجبًا لاحترامها والاشفاق عليها، وخاصة إذ أضفنا إلى كل ما تميزتِ به من المحاسن، ما كان من احتمال تعلقها

بمستر «دكسون»، الذي كانت بدأته بطبيعة الحالة من أجل نفسها. بل لم يكن هناك ما هو أدعى إلى الاشفاق عليها وإلى احترامها وتقديرها من التضحيات الجسيمة التي وطدت نفسها على احتمالها. ورأت «إمَّا» الآن أنها أميل إلى إبرائها من تهمة تحويل حب مستر «دكسون» عن زوجته إليها أو أنها قامت بما فيه أية إساءة مما كان يصوره لها خيالها في أول الأمر. ثم إذا كان هناك حب، فهو حب بسيط، حب فاشل ومن جانبها وحدها. باب لعلها كانت تتجرع مرارة الحب وهي لا تشعر عندما كانت تشارك صديقتها الحديث معه، ولعلها الآن حرمت نفسها من زيارة أيرلندا، وقررت الابتعاد عنه وقطع صلتها به، مدفوعة إلى ذلك بأنبل الدوافع وأكرمها، فقررت أن تشق طريقها في الحياة بالالتجاء فورًا إلى احتراف مهنتها المضنية.

وتركتها «إمَّا» وهي تشعر بوجه عام بالحنان والعطف عليها، مما جعلها تفكر فيها وهي عائدة إلى بيتها، وشعرت بالحزن لأنها لا تجد في «هايبري» شابًا جديرًا بها، ولا من يستحق أن ترسم له خطة لكي يقترن بها.

لقد كانت تلك المشاعر مما يبعث على السرور، ولكن هذا السرور لم يدم طويلًا. فقبل أن تعاهد نفسها، وتعلن على الإشهاد صداقتها التي لن تنفصم عرها مع «جين فيرفاكس»، أو تعمل على الرجوع عما سبق أن ارتكبت من خطأ في حقها ومن تحيز لا مبرر له ضدها بأكثر من أن تقول لمستر «نيتلي»: «إنها جميلة حقًا، إنها أكثر من أن تكون جميلة»- كانت «جين» قد قضت أمسية مع جدتها وخالتها في ضيافة

«إمَّا» في «هايبري»، وكان كل شيء قد عاد إلى ما كان عليه، فبرز ما كان في نفسها قديمًا مما كان يحز في نفسها، وبدت خالتها متعبة كعادتها بل وأكثر، إذ أخذت تزيد على ما كانت تبديه من إعجاب بمواهب «جين» بإظهار قلقها على صحتها، وكان عليهم أن يستمعوا إليها وهي تقص عليهم وصفًا دقيقًا للقدر اليسير من الخبز والزبد الذي تتناوله في وجبة الإفطار، وكيف أنها أكلت شريحة صغيرة من لحم الضأن في وجبة الغذاء. وكان عليهم كذلك أن يشاهدوا ما عرضته من قبعات جديدة، وحقائب جديدة لحفظ أدوات الشغل، لها ولأمها. وعادت بذلك مرة أخرى ذكريات الإساءات التي كانت تصدر من «جين».

لقد بدأوا يعزفون، واضطرت «إمَّا» للعزف، وكان ضروريًا أن تعقب «جين» على ذلك بالشكر والإطراء، ولكن لاح لإمَّا أن هذا الإطراء لم يكن إلا مجرد تأدب، ومظهرًا من مظاهر العظمة، لا يُقصد به إلا القول بأسلوب مفرط في الذوق بأن مواهبها هي تفوق ذلك بكثير.

وكانت «جين» فوق هذا، وهو أقبح مساوئها، على درجة كبيرة من الفتور والحذر، ولم يكن هناك من سبيل للوصول إلى أفكارها على حقيقيتها، وبدت كأنها لا تجازف ولا تبوح بشيء، تحت ستار من التأدب، وتحتفظ بمكنونات قلبها بدرجة تمجها النفس وتثير الشك.

لقد بلغت كل مساوئها الذروة الآن وإذا كان هناك ما هو أكثر، فهو ما كانت عليه من الحذر الزائد في موضوع «وييموث» وأسرة «دكسون»، أكثر من أي موضوع آخر، فقد بدا أنها اعتزمت ألا تدلي بشيء يفهم منه أي شيء عن أخلاق «مستر دكسون» الحقيقية، أو عن تقديرها لصحبته، أو عن رأيها في زاوجه - فلم يكن حديثها في ذلك يزيد على أن يكون مجرد موافقة على ما يقال في نعومة وأدب، لا تكاد تقول شيئًا مجردًا أو واضحًا. ولم يكن هذا ليفيدها قليلًا، أو كثيرًا، لأن «إمَّا» رأت خداعها وضربت بحيطتها عرض الحائط وعادت إلى سابق آرائها فيها.

بل ربما كان هناك غير الذي اختارت أن تخفيه أشياء أخرى، ولعل «مستر دكسون» كان على وشك أن يستبدل إحدى الصديقتين بالأخرى، أو أنه ارتبط «بمس كامبيل» من أجل ما كان ينتظرها من ثروة تقدر بإثني عشر ألفًا من الجنيهات.

وكانت موضوعات أخرى كثيرة تحيطها بهذا الستار الكثيف من الكتمان إذ حدث أن كانت في نفس الوقت في «وييموث» مع مستر «فرانك تشرشل» وكان معروفًا أنهما تعارفا هناك، ولكن «إمَّا» لم تفز منها بلفظ واحد يمكن أن تفهم منه شيئًا عن حقيقته أو أخلاقه.

«هل كان وسيمًا؟»؟

«إنها تعتقد أنه يعتبر شابًا ظريفًا جدًا».

«وهل هو لطيف؟».

«كان هذا الرأي السائد عنه بوجه عام».

«وهل بدا ما يدل عى أنه شاب ذو عقل راجح، وأنه شاب واسع المعلومات؟».

«إن من الصعب أن يُدلي المرء برأي قاطع في مثل هذه الأمور عندما يكون في أماكن الاستحمام، أو عندما يكون التعارف عاديًا في مدينة مثل لندن. وإنما يحكم المرء على الأخلاق وهو مطمئن إذا قضى فترة أطول مع «مستر تشرشل» كي يلم بمعلومات أكثر، ولكنها تعتقد بأن الناس جميعًا كانوا يرون سلوكه مرضيًا».

ولم تستطع «إمَّا» أن تغفر لها هذا.

لم تقو «إمَّا» على أن تتسامح معها، غير أن «مستر نيتلي»، وقد كان حاضرًا، لم ير في الحديث استفزازًا أو انتقاصًا من الكرامة، بل على النقيض من ذلك لاحظ من الطرفين معاملة كريمة ومجاملة فائقة، حتى أنه عندما عاد إلى «هارتفيلد» لأمر بينه وبين «مستر وودهاوس»، في صباح اليوم التالي، عبّر عن استحسانه لكل ما رأى، وإن لم يعبّر عنه بالصراحة التي يمكن أن يعبر بها لو أن والدها لم يكن في الحجرة، ولكن عبارته مع ذلك كانت من الوضوح إلى الحد الذي يجعل «إمَّا» تدرك معناها كل الإدراك، وكان «مستر نيتلي» قد اعتاد الظن بأن «إمَّا» غير منصفة لجين، وقد سرّه الآن ما رآه من التحسن الملحوظ في علاقتها بها.

وما كاد ينتهي من الإفضاء إلى «مستر وودهاوس» بما كان ضروريًا، ويستوثق من أنه قد أدرك ما حدّثه فيه ويزيح الأوراق جانبًا، حتى أخذ يقول: «لقد كانت أمسية ممتعة جدًا، ممتعة بصفة خاصة لأنك أنت و«مس فيرفاكس» اسمعتمانا موسيقى رائعة، فليس أمتع يا سيدي، فيما أعرف، من أن يجلس المرء وهو مؤتنس بمثل هاتين الفتاتين وهما تروّحان عنه، تارة بالحديث وتارة بالموسيقى، - وأعتقد يا «إمَّا» أن «مس فيرفاكس» وجدت في تلك الأمسية ما راقها، فأنت لم تدعي شيئًا يعمل لم تعمليه من أجلها. وقد سرني أنك جعلتيها تلعب كل هذا الوقت، فقد كان ذلك متعة لها ولا شك نظرًا لأن جدتها لا تملك آلة للبيانو يمكنها أن تلعب عليها».

وقالت «إمَّا» وهي تبتسم: «يسرني أن أراك راضيًا، ولكني أرجو ألا أكون مقصرة فيما هو واجب نحو ضيوف «هارتفيلد».

وتدخل والدها في الحال: «لا يا عزيزتي، وأنا واثق بأن هذا ليس من طبعك، وما من أحد يصل إلى نصف ما أنت عليه من رعاية وترحيب بالضيوف. إن عنايتك بكل شيء بالغة - ولو كنت قدمت في الليلة الماضية أقراص الكعك مرة واحدة لكان في ذلك الكفاية.

وقال «مستر نيتلي» في الوقت نفسه تقريبًا: «لا، فما أنت بمقصرة عادة، لا في الفهم، ولا في معاملتك للناس، وأظنك تدركين ما أعنيه».

فحدجته بنظرة ماكرة وكأنما تقول له: «إني أفهمك تمامًا» ولكنها اكتفت بقولها: «إن «مس فيرفاكس» شديدة التحفظ».

«طالما قلت لك إنها على شيء من ذلك فعلًا، و لكنك ولابد متغلبة على ما قد يكون عندها من تحفظ أساسه الخجل، فالحرص الذي أساسه أصالة الرأي خليق بالاحترام».
«إنك تظنها خجولة بينما أنا ألا أراها كذلك».
فقال وقد انتقل من مقعده إلى آخر بجوارها: «آه يا عزيزتي «إمَّا» ألا يكون قصدك أن تقولي إنك أمضيت أمسية غير ممتعة».
«لا، أبدًا، فلقد سعدت بمثابرتي على توجيه الأسئلة إليها، كما طاب لي أن أفكر في أني لم أفز من المعلومات إلا بالنزر اليسير».
ولم يجد ردًا على ذلك إلا أن يقول: «لقد خاب أملي».
وقال «مستر وودهاوس» بطريقته النهائية: «أرجو أن يكون الجميع قد أمضوا أمسية ممتعة، ولقد استمتعت أنا بها، وحدث أني شعرت بارتفاع الحرارة المنبعثة من المدفأة، ولكنني رجعت بمقعدى عنها قليلًا، فلم أعد أجد في ذلك ما يضايقني، لقد كانت «مس بيتس» ثرثارة، بقدر ما كانت رقيقة المزاج مبتهجة كعادتها دائمًا، ولو أنها تميل إلى الكلام بسرعة، ومع هذا فهي ظريفة، وكذلك والدتها «مسز بيتس» وإن كانت ذات طابع آخر. أني أحب أصدقائي القدامى، وكذا مس «جين فيرفاكس» فهي من الفتيات الظريفات المفرطات في ظرفهن، فهي ولا شك فتاة في منتهى الظرف وحسن الخلق، ولا بد أن تلك الأمسية صادفت هوى في نفسها يا «مستر نيتلي» لأن «إمَّا» كانت موجودة بين الجماعة».
«صدقت يا سيدي، وكذلك سرّت «إمَّا» لأن «مس فيرفاكس» كانت بين الحاضرين».
ولاحظت «إمَّا» الضجر على وجهه وأرادت أن تخفف من حدّته وأن تهوّن الأمر عليه، على الأقل في تلك الآونة، فقالت بإخلاص لا سبيل إلى الشك فيه: «إنها مخلوق ظريف لا يمل المرء النظر إليه، وأنا أرقبها دائمًا بإعجاب، كما أشعر بالإشفاق عليها من قرارة قلبي».
وبدا «مستر نيتلي» وكأنما أغناه عن الرد ما شعر به من الرضى، وقبل أن يرد عليها بشيء، سبقه «مستر وودهاوس» الذي كان يفكر في أسرة «بيتس» بقوله: «إنه لشيء يوجب أشد الأسى أن تضيق حالتهم المالية إلى هذا الحد، يا لها من مأساة!! وطالما وددت - ولكن المرء لا يجد إلا النزر اليسير ليعمله - تقديم بعض هدايا بسيطة من أشياء غير عادية، ولقد ذبحنا ا الآن خنزيرًا سمينًا، وتفكر «إمَّا» في أن ترسل إليهن حقوا أو فخذًا منه. إنه خنزيرًا صغير شهي اللحم، وخنازير «هارتفليد» ليست كبقية الخنازير، وإن كان هذا الخنزير لا يعدو أن يكون خنزيرًا على كل حال، وإذا لم تتأكدي يا عزيزتي «إمَّا» من أنهن سيقطعن حقوه إلى شرائح، ويجدن تحميرها كما نفعل، دون إضافة أي دهن إليها، أو شيّها، لأن المشوي من لحم الخنزير عسير على المعدة أن تحتمله، فأظن أن الأحرى بنا أن نرسل إليهن الفخذ، ألا ترين ذلك يا عزيزتي؟».

«لقد أرسلت إليهن ربعه الخلفي بأكمله، يا والدي العزيز، لعلمي بأن هذا يسرّك، وسيكون لديهن الفخذ ليعملن منه قديدًا مملحًا، وهو لطيف للغاية، والحقو لإعداده في الحال كما يشتهين».
«هذا هو الصواب يا عزيزتي، إنه عين الصواب، ولم يدر هذا بخلدي ولكن هذه هي الطريقة المثلى، وعليهن ألا يزدن من تمليح الفخذ حتى إذا ما سلقت جيدًا ولم تكن قد زاد تمليحها، كما تسلق «سرل» اللحم لنا، ثم أكل منها باعتدال مع مسلوق اللفت و بعض الجزر أو الفجل، فلست أظنها ألا أن تكون صحية».
وقال «مستر نيتلي» في الحال: «إني أحمل إليك يا «إمَّا» خبرًا فأنت شغوفة بسماع الأخبار. لقد وصل إلى مسمعي وأنا في طريقي إلى هنا خبر أظنه سيسترعي اهتمامك).
«خبر!! أني أحب الأخبار دائمًا، فما هو ذلك الخبر؟ ولماذا تبتسم هكذا؟ وأين سمعته؟ وهل سمعته في راندولز؟
وسكت برهة ثم قال: «لا، لم أسمعه في «راندولز»، بل لم أكن قريبًا من «راندولز».
وإذا بالباب يفتح فجأة، وتدخل الحجرة «مس بيتس» و«مس فيرفاكس» وكانت نفس«مس بيتس» تفيض بالشكر، وجعبتها بالأنباء، لا تدري أيهما تبدأ به، وأدرك «مستر نيتلي» في الحال أن الفرصة قد أفلتت من بين يديه، وإنه لن تتاح له فرصة ليقول كلمة.
«كيف حالك في هذا الصباح يا سيدي العزيز؟ لقد حضرت يا «مس وودهاوس» فأسرتيني بفضلك، وما أجمل ربع الخنزير الخلفي!! كم أنت كريمة!! هل سمعت الأنباء؟ إن «مستر ألتن» سيتزوج».
ولم يكن لدى «إمَّا» فسحة من الوقت لتفكر في «مستر ألتن»، وتملكتها الدهشة إلى حد لم تتمالك نفسها معه من أن تبدو عليها بعض علامات الفزع، وتحمر وجنتاها.
وقال «مستر نيتلي» وعلى ثغره ابتسامة تنم تأكيد بعض ما سبق أن دار بينهما: «هذا هو النبأ الذي عندي، وكنت أظن أنك ستهتمين لسماعه».
وصاحت «مس بيتس» تقول: «ولكن من أين استقيت أنت الخبر؟ ومن أين أمكنك أن تسمعه يا «مستر نيتلي» إذ لم تمضِ خمس دقائق على وصول مذكرة بعثت بها «مسز كول» إليّ. لا، لا يمكن أن يزيد وقت وصولها على خمس دقائق أو عشرة في الكثير، لأني كنت ارتديت صديريتي وقبعتي، وكنت على أهبة الخروج، ونزلت لمجرد التحدث مع «باتي» عن الخنزير مرة أخرى، وكانت «جين» واقفة بالممر، ألم تكوني واقفة هناك يا جين؟ وذلك لأن والدتي كانت تخشى ألا يكون لدينا وعاء يتسع للتمليح، ولذا قلت أني سأنزل لأرى بنفسي، وقالت «جين»: «هل أنزل عوضًا عنك؟ لأني أظن أن بك وعكة برد، وكانت «باتي» تقوم بغسل المطبخ وتنظيفه فقلت: «نعم يا عزيزي» وإذا بالمذكرة تصل، إِن اسمها «مس هوكنز»، وهذا كل ما أعلمه، إنها «مس

هوكنز» وهي من أهالي «باث»، ولكن كيف تمكنت يا «مستر نيتلي» من معرفة النبأ؟ لأن «مسز كول» ما كادت تستقي الخبر من «مستر كول» حتى جلست وكتبت إليّ، إنها تدعى «مس هوكنز»؟

«لقد كنت في عمل مع «مستر كول» ومنذ ساعة ونصف، وكان قد فرغ توًا من قراءة رسالة «مستر ألتن» وقت دخولي، فسلمها إليّ على الفور».

«أجل، هذا هو الوضع بالضبط، وأظن أنه لم يكن هناك من نبأ كهذا يهتم له الجميع، وأنت يا سيدي العزيز، قد برهنت على أنك واسع العطاء، ووالدتي تبعث إليك بأطيب التحيات وبعظيم التقدير المقرون بألف شكر، وهي تقول أنك غمرتها بفضلك».

وأجابها «مستر وودهاوس»: «إن الخنازير في «هارتفيلد» ممتازة ولا شك، وهي تفوق غيرها من الخنازير، حتى أن «إمَّا» وكذلك أنا، نجد في لحمها لذة لا تدانيها لذة».

«أجل يا سيدي العزيز، إن أصدقاءنا كما تقول والدتي يأسروننا بفضلهم، ولو كان هناك أناس قل مالهم، ثم توفرت لهم كل مطالبهم – فنحن هؤلاء الناس ولا ريب، ولنا أن نقول: «إن القدر قد هيأ لنا كنفًا عظيمًا» أجل يا «مستر نيتلي»، وعلى ذلك فقد اطلعت على الخطاب حقًا».

«لقد كان خطابه قصيرًا، ولا ينبغي منه سوى إعلان الخبر، ولكنه كان ولا شك باعثًا على البهجة والسرور».

ونظر إلى «إمَّا» نظرة ماكرة ثم قال: «لقد كان ميمون الطالع من ناحية - لقد نسيت الكلمات بنصها – ولكن ماذا يعنينا أن نتذكرها؟ إن النبأ كما تذكرين، يتخلص في أنه في سبيل الزواج بواحدة تدعى «مس هوكنز»، وقد فهمت من أسلوبه أن الموضوع قد تم الاتفاق عليه نهائيًا.

وقالت «إمَّا» بمجرد أن استردت قدرتها على الكلام:

«عجبًا أن يكون «مستر ألتن» قد أقدم على الزواج!! إننا جميعًا نرجو له السعادة».

وأبدى «مستر وودهاوس» رأيه قائلًا: «إنه صغير جدًا على الزواج، وكان أحرى به ألا يتعجل، ويبدو لي من مظهره أنه غنى، ولقد كان وجوده في «هارتفيلد» مبعث سرور لنا دائمًا؟

وقالت «مس بيتس» وهي مغتبطة: «لقد أصبح لنا جميعًا جار جديد يا «مس وودهاوس»، وإن والدتي في منتهى السرور وهي تقول أنها لا تحتمل أن ترى بيت راعي الأبرشية التليد بغير سيدة، ولا شك أن هذا نبأ عظيم، إنك يا «جين» لم تر «مستر ألتن» من قبل، ولا عجب إن كنت تتطلعين إلى رؤيته».

ولم يبد على «جين» أنها كانت محبة إلى الاستطلاع بدرجة كبيرة، ومن ثم فقد ردّت عليه.

«لا، لم أر «مستر ألتن» أبدًا ثم أخذت تسأل في تلهف: «هل هو- هل هو طويل القامة؟

فصاحت «إمَّا»: «من سيجيب على هذا السؤال؟ إن والدي سيقول «نعم»، أما «مستر نيتلي» فسيقول «لا»، وأما «مس بيتس» وأنا فسنقول إنه ليس بالطويل ولا بالقصير، وإذا ما طال بك المقام هنا يا «مس فيرفاكس» فستعلمين أن «مستر ألتن» عنوان الكمال في «هايبري» جسمًا وعقلًا».
« لقد قلت حقًا يا «مس وودهاوس» إنها ستراه كما تقولين ولو تذكرت يا عزيزتي «مس جين» ما قلته لك بالأمس لرأيت أنه في مثل طول «مستر بري» تمامًا. وأعتقد أن «مس هوكنز»، فتاة ممتازة، وما أعظم اهتمامه بوالدتي، إذ كان يبدي رغبته في أن تجلس في مقصورة الكنيسة الخاصة حتى تستطيع أن تسمع جيدًا لأن والدتي كما تعلمين في آذانها شيء من الصمم، وما هو بالشديد، ولكنها لا تسمع بسهولة أن «جين» تقول إن المقدم «كامبيل» به شيء شيء من الصمم، وكان يظن أن استعمال الماء قد يصلحه، وأعني استعمال الماء الدافئ، ولكنها تقول إن الفائدة من ذلك لم تدم طويلًا وأنت تعلمين بأننا نعتبر «المقدم كامبيل» ملاكًا، وإن مستر «دكسون» يبدو شابًا في منتهى الظرف، وهو جدير بأن يرتبط به، وانه لمن دواعي السرور أن يرتبط الأخيار بعضهم ببعض وهو ما يحدث دائمًا، وسوف يكون هنا «مستر ألتن» و«مس هوكنز» كما أن هناك كذلك أسرة «كول» وهم من خيرة الناس، وكذا أسرة «بري»، ويخيل إلي أنه لم يوجد اثنان هما أسعد وأحسن من «مستر بري» وزوجته» - ثم التفتت إلى مستر «وودهاوس» وقالت: «وإني أقول يا سيدي أني أظن بأنه من النادر أن توجد جهة بها مثل هذا الجمع الذي يعيش في «هايبري»، وإني أقول دائمًا بأننا سعداء بجيراننا يا سيدي العزيز، إن والدتي لا تجد شيئًا أحسن إلى نفسها من الخنزير، وهي تحب حقو الخنزير المحمر».
وقالت «إمَّا»: «أظن ألا سبيل لأحد كي يعرف كم مضى من الوقت على تعرفه بها، وإن المرء ليشعر بأنه لا يمكن أن يكون قد عرفها منذ وقت طويل، فهو لم يبرح هذه المكان إلا منذ أربعة أسابيع».
ولم يكن لدى أحد من الجالسين ما يفضي به في هذه النقطة، ثم بعد قليل من عبارات الدهشة قالت «إمَّا»:
«أراك صامتة يا مس« فيرفاكس»، ولكني آمل أن يثير هذا النبأ من اهتمامك، أنت التي سمعت ورأيت الكثير عن هذه المواضيع في الأيام الأخيرة، ولا بد أنه كان ذلك اتصال كبير بموضوع «مس كامبيل» ونحن لا نسمح لك بألا تكترث بموضوع «مستر ألتن» و«مس هوكنز».
وأجابت «جين» قائلة: «من الجائز أنني عندما أرى «مستر ألتن» سوف أهتم بالنبأ، فهذه طبيعتي، وبما أن زواج «مس كامبيل» كان منذ شهور، فلعل أثره قد زال بعض الشيء»؟
وقالت «مس بيتس»: «لقد ذهب كما لاحظت يا «مس وودهاوس» منذ أربعة أسابيع، أربعة أسابيع منذ أمس، أجل إنها «مس هوكنز» أجلِ، لقد كنت أتخيل

دائمًا أنها ستكون فتاة من هنا وليست هذه الفتاة أبدًا، لقد أسرّت لي «مسز كول» مرة - ولكني قلت في الحال لا، إن «مستر ألتن» رجل جليل الشأن – ولكن - وبالاختصار فإني أظن أنه ليس باستطاعتي سرعة كشف مثل هذه الأشياء، ولست أدعي لنفسي هذه القدرة، ولست أرى إلا ما أجده أمامي - وفي الوقت نفسه، ليس لمخلوق أن يعجب إذا كان «مستر ألتن» طموحًا، - إن «مس وودهاوس» تجعلني أسترسل في الكلام بطيبة قلب، وهي تعلم أني لا أسيء إلى أحد مهمًا كانت الأسباب - كيف حال «مس سمث»؟ يبدو لي أنها عوفيت الآن تمامًا، وهل وصلك خطابها مؤخرًا من «مسز جون نيتلي»؟ ما ألطف هؤلاء الصغار الأعزاء!! أتدرين يا «جين» بأني أتخيل دائمًا أن «مستر دكسون» يشبه مستر «جون نيتلي»؟ أعني في الشكل، أعني في الطول والهيئة وفي أنه غير ثرثار».
«أنت مخطئة تمامًا يا خالتي العزيزة، إنهما لا يشبهان بعضهما أبدًا».
ما أعجب هذا!! ولكن الإنسان لا يمكنه أبدًا أن يكوّن فكرة سليمة عن أي شخص مقدمًا، أن الإنسان يكوّن لنفسه فكرة ثم يتمسك بها، وأنت تقولين أن «مستر دكسون» ليس جميلًا بمعنى الكلمة».
«جميل!! لا، إنه بعيد عن أن يكون جميلًا، فهو ولا شك شخص عادي، وقد أخبرتك بذلك».
«لقد قلت يا عزيزتي أن «مس كامبيل» لا تسمح بأن يقال عنه أنه شخص عادي الملامح، وإنك أنت نفسك..».
«أما من جهتي، فإن حكمي لا يساوي شيئًا، فأنا إذا قدرت شخصًا أراه دائمًا بهي الطليعة، ولكني قلت ما أعتقد أنه هو الرأي السائد عندما قلت إنه عادي الملامح».
«أجل يا عزيزتي «جين» وأعتقد أنه لابد لنا من الانصراف سريعًا، لأن الطقس يبدو سيئًا، وستقلق جدتك، وأنت يا «مس وودهاوس» تأسرينا بفضلك، ولكن لا بد لنا من الاستئذان بالانصراف، لقد كان هذا ولا شك خبرًا سارًا جدًا، وسوف أمر الآن بمنزل «مسز كول» ولكني لن أمكث ثلاث دقائق كاملة، وأنت يا «جين» أحرى بك أن تذهبي إلى المنزل مباشرة لأني لا أود أن أراك خارج المنزل وقت المطر، إننا نعتقد أنها قد تحسنت فعلًا على جو «هاييري»، ولا يسعنا إلا أن نشكرك، هذا ولن أحاول زيارة «مسز جدرد» لأني لا أظن بأنها تعنى بشيء إلا بلحم الخنزير المسلوق، وعندما نطهو الفخذ سيكون لنا شأن آخر، والآن عمت صباحًا يا سيدي العزيز – ها هو «مستر نيتلي» قادم معنا أيضًا، هذا شيء جميل جدًا، وأعتقد أنك ستتفضل بأن تجعل «جين» تتأبط ذراعك إذا شعرت بالتعب، - «مستر ألتن» و«مس هوكنز»! صباح الخير».
وانفردت «إمَّا» بأبيها، ولم تكن بحاجة إلى أكثر من نصف ما تخصه به من العناية عادة، فقد كان مشغولًا بالتعبيرعن أسفه على زواج الشباب المبكر بهذه السرعة، والزواج بالأغراب فوق ذلك، و كان لاعفائها من نصف طلباته ما

جعلها تخصص نصف جهدها الآخر لتكوين رأيها في الموضوع، فلقد وجدت في هذا النبأ ما جعلها تبتهج وتفسح له صدرها لأنه دل على أن «مستر ألتن» لم تطل آلامه، ولكنها حزنت مع ذلك من أجل «هاريت»، فقد كان لا مفر من أن تشعر «هاريت» بالألم، وكل ما كانت ترجوه، هو أن تكون البادئة بنقل الخبر إليها، كي تجنبها سماعه من غيرها، وها هو قد قرب وقت احتمال مجيئها للزيارة!! وما أعجب أن تقابل «مس بيتس» وهي في طريقها!!

فلما بدأ المطر يتساقط اعتقدت «إمَّا» أن الطقس لا بد أن يعطل «مس بيتس» في بيت «مسز جدرد» وأنه لا مفر من أن تفاجأ «هاريت» بسماع النبأ منها وهي أقل ما تكون استعدادًا لتلقيه.

وهطلت الأمطار مدرارًا، ولكن هطولها لم يدم طويلًا، وما هي إلا دقائق خمس، حتى دخلت «هاريت» وعلى وجهها دلائل الاضطراب، من أثر الاسراع في المجيء، وما كادت تدخل حتى قالت: «عجبًا يا «مس وودهاوس»، ماذا تظنينه قد حدث؟» فكان في رنين صوتها ما يدل على مدى الاضطراب في قرارة نفسها.

أما وقد نزلت النازلة فلم يكن أمام «إمَّا» إلا أن تستمع لتعبّر عن عظيم عطفها وحنانها! وأخذت «هاريت» تسرد ما عندها من خبر في لهفة وسرعة، دون عائق يعقوها: «إنها غادرت بيت «مسز جدرد» منذ نصف ساعة، وكانت تخشى سقوط المطر وتخاف أن ينهمر بين لحظة وأخرى،

ولكنها فكرت في أن تأتي إلى «هارتفيلد» أولًا، وأسرعت ما أمكنها، ولكنها وقد مرت بدار فتاة تخيط لها رداء، رأت أن تدخل لترى ماذا تم فيه، ورغم شعورها بأنها لم تمكث نصف لحظة، فإن المطر بدأ يسقط بعد خروجها، ولم تدر ماذا تفعل، ولذا واصلت الجرب بأقصى سرعتها ولجأت إلى «متجرفورد» لتحتمي فيه وكان هذا هو المتجر الرئيسي لبيع الأقمشة الصوفية والتيلية والخردوات على أنواعها، كما كان أكثر حوانيت الجهة إتساعًا وأولها تماشيًا مع الأذواق الحديثة – ولهذا جلست هناك ولم تكن تفكر في شيء أبدًا - ومضت عشر دقائق تقريبًا ثم إذا – من تظنينه يدخل على حين غفلة؟ ثقي بأنه كان شيئًا غاية في الغرابة، ولكنهم كانوا دائمًا يتعاملون مع متجر «فورد»، نعم من يكون الداخل غير «إليزابث مارتن» وأخيها!! عزيزتي «مس وودهاوس» فكري في ذلك - لقد ظننت بأن إغماءة ستلحق بي، ولما أدر ماذا أفعل، لقد كنت أجلس قرب الباب، فوقع بصر «إليزابث» عليّ في الحال، أما هو فلم يرني لأنه كان مشغولًا بمظلته، وأنا واثقة من أنها رأتني، ولكنها حوّلت نظرها عني في الحال ولم تعرني انتباهًا، وتوغل الاثنان حتى وصلا، إلى نهاية الحانوت، و بقيت أنا جالسة قرب الباب وكم كان شعوري بالشقاء يا عزيزتي!! ولا بد أني صرت شاحبة الوجه بلون ردائي، ولم يكن في استطاعتي الخروج كما تعلمين بسبب المطر؛ ولقد وددت وقتها لو كنت في مكان غير هذا، أجل يا عزيزتي «مس وودهاوس»، ثم حدث بعد ذلك أن التفت نحِوي ورآني، لأنهما بدلًا من أن يخرجا

بما ابتاعاه، أخذا يتبادلان الحديث همسًا، وأنا واثقة بأني كنت موضوع حديثهما. وتملكني الظن بأنه كان يحاول إقناعها بالتحدث إليّ (أتظنين يا مس «وودهاوس» أنه كان يريد ذلك؟)، لأنها تقدمت في الحال وأتت نحوي، وسألتني عن صحتي، وكانت على استعداد لمصافحتي لو أنني صافحتها، ولكنها مع ذلك لم تسلك حيالي سلوكها الذي اعتادته من قبل، وقد لاحظت أنها قد تغيرت نحوي، ولكنها حاولت مع ذلك أن تظهر بمظهر الصديقة الوفية، فتصافحنا، ولبثنا فترة نتبادل الحديث وإن كنت لا أدري ماذا قلت. لقد تملكتني رعدة، وأذكر أنها قالت إنها تأسف لأننا لا نلتقي هذه الأيام، ورأيت هذا عطفًا كبيرًا منها. وكم كان شعوري بأني تعسة يا عزيزتي!! وأخذ المطر يتوقف عن السقوط في ذلك الوقت، فعزمت على ألا يمنعني شيء عن الخروج، ولكن تخيّلي ماذا حدث عندئذ!! لقد رأيته يتجه نحوي على مهل، وكأنه لا يدري ماذا يفعل، ثم أتى وتكلم وأجبته، ووقفت دقيقة وأنا أشعر برهبة لا يمكنني أن أصفها لك. وتشجعت أخيرًا وقلت أن المطر قد توقف ولا بد لي من الذهاب، ثم خرجت، وما كدت أبعد عن الباب ثلاث خطوات حتى لحق بي ليقول لي أني لو كنت ذاهبة إلى «هارتفيلد» فإنه يرى أن الأفضل لي أن أتخذ الطريق الذي يمر بحظيرة «مستر كول»، لأن الطريق القريب قد غمرته الأمطار، وشعرت يا عزيزتي وكأن المنية قد داهمتني. قلت إني مدينة له بجزيل الشكر، وما كنت لأقوم بأقل من ذلك كما تعلمين، وعاد بعدها إلى «اليزابث»، وأتيت أنا عن طريقى الحظائر - هذا ما أعتقد أني فعلته- فقد كان من الصعب عليّ أن أعرف أين كنت، أو أن أعرف أي شيء عن المكان، وكم كنت أفضل يا «مس وودهاوس» أن يحدث لي أي شيء إلا ما حدث، ومع ذلك فقد ارتاحت نفسي عندما رأيته رقيق الشعور مغتبطًا، وكذلك كانت «إليزابث» - تحدّثي إلى «مس وودهاوس» واشعريني بالراحة مرة أخرى».

وكانت «إمَّا» تود مخلصة أن تفعل هذا، ولكن ذلك لم يكن في ميسورها حالًا، فقد وجدت نفسها مضطرة إلى التريث والتفكير، ولم تكن هي نفسها تشعر بالهدوء الكامل، وكان يبدو أن مسلك الفتى وأخته، كان صادرًا عن شعور صادق، ولذا لم تجد بدًا من الإشفاق عليهما. وكما جاء في وصف «هاريت» كان هناك مزيج من حب مكلوم ورقة صادقة في سلوكهما، ولكنها كانت تؤمن بما طبع عليه من طيبة القلب وكريم السجايا. ولكن ماذا يغير هذا من مساوئ مثل هذه الزيجة؟ إنه لغباء منها أن تنزعج لهذا. لقد كان طبيعيًا أن يحزن لعدم الفوز بها من غير شك، بل وأن يحزنوا جميعًا لذلك فلقد طعن كل من الطموح والحب في الصميم، إذ ربما كانوا يأملون بأن ارتباطهم بهاريت قد يرفع من شأنهم. ثم ماذا يمكن أن يكون لوصف «هاريت» من قيمة؟ إنها تسر بسهولة ولا تميز بين الغث والسمين فماذا عسى أن يكون لمدحها من قيمة؟ وبذلت قصارى جهدها وحاولت إراحتها بالتهوين من شأن ما حدث واعتباره خليقًا بالإغفال، فقالت: «قد تتألمين لهذا الآن، ولكن يبدو أنكِ تصرفت تصرفًا حكيمًا،

ولقد انتهى. كل شيء، وقد لا يتكرر ذلك بل لا يمكن أن تتكرر تلك المقابلة ولذا فلا ضرورة للتفكير في ذلك».
وقالت «هاريت»: «هذا عين الصواب» وإنها «لن تفكر في ذلك»، ولكنها مع ذلك تكلمت، ولم يكن لها حديث غير ذلك، ورأت «إمَّا» لكي تصرفها عن التفكير في «أسرة مارتن»، أن تنقل إليها الخبر فورًا بعد أن كانت تبغي التريث وأخذ الحيطة في إبلاغه. وكان من العسير عليها أن تعرف هل هي ستفرح أم تغضب، وهل ستخجل أم لا تجد في ذلك إلا ما يسرّي عنها وعقلية المسكينة «هاريت» على ما هي عليه في تلك الفترة وهذه خاتمة ما كان لمستر «ألتن» من أهمية عندها.
وعاد إلى هاريت تدريجًا تفكيرها فيما لمستر ألتن من مزايا. وإذا كانت لم تشعر بوقع الخبركما كانت تشعر به لو أنها علمت به في اليوم السابق، أو حتى منذ ساعة واحدة، فإن اهتمامها بهذا الخبر لم يلبث أن ازداد، حتى أخذت، قبل أن ينتهي حديثهما الأول، تفصح عما في نفسها من لهفة وعجب، ومن جزع وأسف، ومن ألم وسرور، من أجل مس «هوكنز «السعيدة مما قد يحملها على أن تصرف تفكيرها عن أسرة مارتن.
وسرّ «إمَّا» أن تمت تلك المقابلة، لأنها قضت على ما يكون للصدمة الأولى من وقع، ولم يبق لها أي أثر للإزعاج. وما دامت «هاريت» تعيش عيشتها الحالية، فلن تتمكن أسرة «مارتن» من الوصول إليها إلا إذا جدّوا في البحث عنها، وفي هذا سوف يعوزهم الإقدام، ويحول شعورهم بالتنازل عن البحث عنها، لأن الأخوات منذ رفضها لأخيهم لم يذهبوا إلى بيت «مسز جدرد» وقد يمر عام بأكمله قبل أن يلتقوا أو تكون بهم حاجة. إلى الكلام، بل أن تكون لهم طاقة على الكلام.

تبدي الطبيعة البشرية كرمًا نحو من كانوا في كل مواقف تسترعي الاهتمام، فالذي يتزوج أو يموت وهو في ميعة الصبا لا بد أن يلهج الناس بذكر محاسنه.
فلم يكد يمر أسبوع على تردد اسم «مس هوكنز»، في «هايبري» حتى أخذ الناس يشيدون بما فيها من مزايا جسدية وعقلية، ويتغنون بجمالها ورشاقتها، بثقافتها العالية. وظرفها الكامل، فلما عاد «مستر ألتن» ليزهو بآماله السعيدة ويذيع على الملأ كريم صفاتها، لم يجد شيئًا يزيده على ما قيل، اللهم إلا أن يذكر اسمها الأول، واسم الموسيقار الذي تغرم بعزف ألحانه.
فلقد عاد «مستر ألتن» وهو يشعر بأقصى مراتب السعادة، بعد أن كان قد رحل والألم يحز في نفسه بسبب رفضه وما أحسه من طعنة في الصميم وبعد أن فشل في تحقيق أمل كان يرجو منه كل السعادة، بعد سلسلة من الشواهد خيّل إليه معها أنها كانت مشجعات قوية. بل ولم يقف
أثر رفضه عند حد حرمانه من الفتاة التي كان ينشدها، فقد ألفى نفسه كذلك وقد هبط إلى مستوى الرجل المخطئ الآثم. نعم لقد رحل عن «هايبري» وهو مكلوم الفؤاد وعاد إليها خاطبًا لفتاة أخرى تفوق الأولى في نظره بطبيعة الحال. ذلك أن المرء ينزع في مثل هذه الظروف إلى أن يرى ما ناله يفوق دائمًا ما عجز عن أن يناله. عاد وهو فرح قانع بنفسه، عنده ما يشغله ويحفزه، لا يفكر في «مس وودهاوس» ويقف من «مس سمث» موقف التحدي. فقد كان «لأوجستا هوكنز» الفاتنة، علاوة على المزايا المألوفة من الجمال الرائع والمواهب، ثروة خاصة تقدر بآلاف الجنيهات، تبلغ العشرة عدًّا، وفي هذا ما يحفظ عليه كرامته ويوفر له راحته.
وقد تناقل الناس قصته على أحسن ما يتناقلونها به. فهو لم يخب في مسعاه ولا ألقى بنفسه على أعتاب أحد. لقد فاز بسيدة تملك عشرة آلاف جينهًا أو ما يقرب من ذلك، فاز بها في يُسر وسرعة، وما كادت تمضي ساعة على التعرف بها حتى أعقبتها الموافقة، وكانت القصة التي رواها لمستر «كول» عن بداية الموضوع وتطوراته رائعة حقًا، ولقد تمت الخطوات بسرعة، بدأت بمقابلة عن طريق الصدفة، ثم أعقبها تناول الغذاء بمنزل «مستر جرين»، وتلتها وليمة في بيت «مسز براون»، كثرت خلالها الابتسامات، وعلت الوجنات حمرة الخجل، ترتفع وتهبط بازدياد المشاعر والاضطراب النفسي. وقد أمكن التأثير على

الفتاة بسهولة، واستثارة حبها إلى حد يمكن أن يقال عنه في إيجاز إنها كانت مستعدة لقبوله وأن كبرياءها وعقلها وجدا في حبها ما يرضيان عنه.
وهكذا فاز بالمادة وما وراء المادة، فاز بالمال والحب، وأصبح الرجل السعيد الذي كان خليقًا به أن يكونه، لا يتحدث إلا عن نفسه ومهام أموره، ينتظر التهاني، ولا يعنيه أن يسخر الناس منه، وأصبح لا يخشى مخاطبة كل شابات الجهة وهو باسم متودد، بعد أن كان منذ أسابيع قليلة يتخذ الحيطة إذا ما أقدم على التحدث إليهن.
وما كان موعد الاقتران ليطول، فقد كان الأمر بيديهما متى شاءا، إلا فيما تقتضيه بعض الاستعدادات التي لا غنى عنها. وما كان عليهما في الواقع إلا انتظار الضروري من المعدات. فلما ارتحل ثانية إلى «باث» تطلع الكل إلى ما سوف يكون بعد ذلك وأصبحت عينا «مسز كول» تنطقان بأنه سيعود إلى «هايبري» ومعه عروسه.
لم تره «إمَّا» خلال أقامته القصيرة إلا نادرًا، فقد أحست بعد المقابلة الأولى بأنه ما زال متألمًا، لما كان يبدو عليه الآن من مظهر هو مزيج من الكبرياء المكلوم والتفاخر، بل لقد أخذت تعجب كثيرًا من نفسها كيف أنها استملحته فيما مضى، فقد كانت رؤيتها له الآن مقرونة ببعض الذكريات البغيضة، ولولا ما كانت تجده في ذلك من مغزى خلقي كتكفيرعن خطيئتها، ودرس تعلّمته، ومصدر مفيد يقلل من اعتدادها بعقلها، لحمدت الله أو أنها تأكدت بأنها لن تراه أبدًا.
لقد كانت تتمنى له كل خير، ولكن رؤيته كانت تؤلمها، وودت راضية لو أنه عاش سعيدًا، بعيدًا عنها بعشرين ميلًا.
على أن ما ينجم عن إقامته الدائمة في «هايبري» من ألم لها لا بد أن يقل بزواجه، ويختفي كثير من القلق الذي لا طائل تحته، ويزول كثير من المواقف الحرجة. وسوف تكون «مسز ألتن» عذرًا لما قد يطرأ من تغيير في علاقتها به، وتتضاءل مودتها السابقة غير ملحوظة، وتبدأ صلات جديدة بينهما على أساس مختلف.
ولم تكن «إمَّا» تفكر إلا قليلًا في السيدة ذاتها، فقد كان لها ما يكفي حاجة «مستر ألتن» ولا شك، مثقفة إلى القدر الذي يكفي «هايبري» على قسط من الجمال، ولكنه جمال من الجائز أن يكون عاديًا إذا قورن بجمال «هاريت». وأما عن قيمة النسب نفسه، فقد ارتاحت نفس «إمَّا» في هذه الناحية بعد أن أقنعت نفسها بأنه بعد كل ما ظهر منه من علو واستكبار، وتقليل من مكانة «هاريت» لم ينل شيئًا يذكر، ولم يكن من الصعب تبين الوضع النسبي بين من خطبها لنفسه وبين «هاريت».
فأما ما هي خطيبته، فهذا مالم يكن من الممكن التحقيق منه، وأما من تكون خطيبته فهذا مالا يصعب تبينه. فلو طرحنا العشرة آلاف من الجنيهات جانبًا لما تفوقت على «هاريت» في شيء، فهي لا تحمل معها اسم عائلة عريقة، ولا

يجرى في عروقها دم نبيل، ولا عزوة لها. فلقد كانت «مس هوكنز»، صغرى ابنتين لتاجر في «برستول» ولما كانت كل أرباحه من التجارة طول حياته، فهي لا تعدو أن تكون أرباحًا متوسطة.
ولن نكون متجنين عليه إذا ذهب بنا الظن إلى أن السلع التي كان يتجر فيها، كانت دون المتوسط من حيث نظرة الناس وتقديرهم. لقد كان من عادتها أن تقضي بعض أيام الشتاء من كل عام في «باث» ولكن «برستول» هي موطنها ومسقط رأسها، وعلى الرغم من أن والديها ماتا منذ بضع سنوات، فقد بقي لها عم من زمرة المشتغلين بالقانون ظلت تعيش في كنفه.
ولم يكن من المبرزين في مهنته، بل كان لا يعدو أن يكون مجرد رجل يحترف القانون، وقد خالته «إمَّا» محاميًا عاديًا ممن ينتصبون لكسب لقمة العيش، وأنه على درجدة كبيرة من الخمول لا تتيح له النهوض بنفسه. وكل مفخرة للعائلة أنما ترتكز على أختها الكبرى التي ارتفع نجمها بالزواج من سيد ثري بالقرب من «برستول» يملك سيارتين.
هذه هي كل قصة حياة «مس هوكنز»، وهذا كل مجدها. وودت «إمَّا» لو استطاعت أن تخبرها «هاريت» بكل ما خالج مشاعرها. لقد دفعتها بكلامها إلى الحب، ولكن واأسفاه، فليس من السهل عليها أن تجنبها لوعة الحب بالكلام. لقد أحبت «هاريت» وشغل الحبيب كل قلبها، ولن يبرئها الكلام من حبها، ولكن قلبها مع ذلك قد يبرؤ لو جاءها من يحل محله، إن ذلك هو أمر واضح ليس هناك ما هو أوضح منه، بل حتى «روبرت مارتن» قد يكون كافيًا لأن يفعل ذلك، أما دون ذلك فليس ما يكفل برءها لأن «هاريت» من أولئك اللائي أن وقعن في شراك الحب ظللن في شراكه إلى الأبد، وها هي هذه الفتاة المسكينة!! قد زادها رجوع. «مستر ألتن» لوعة وأسى، لأنها كانت تراه دائمًا أينما ذهبت.
لقد رأته «إمَّا» مرة واحدة،، ولكن «هاريت» كانت دائمًا تصادفه في الطريق مرتين أو ثلاثًا في اليوم، أو تنجو بالكاد من مقابلته، أو تسمع صوته، أو تلمح كتفه، أو يحدث أي شيء يجعله مقيمًا في مخيلتها لا يبرحها، فتأخذها نشوة المشدوه أو المستسلم للتكهنات. وكانت علاوة على ذلك تسمع دائمًا ما يقال عنه، لأنها باستثناء الوقت الذي كانت تقضيه في «هارتفيلد»، كانت دائمة الاختلاط بمن لا يرون في «مستر ألتن» عيبًا، ومن لا يلذ لهم حديث إلا عنه، فلم يخل الجو الذي يحيط بها أبدًا من أخبار تدلى عنه ويعقب عليها المعقبون بما يتراءى لهم، ومن ذكر لما حدث له وما عساه أن يحدث له في مختلف شؤونه. ولم يكن، الحديث يخلو من إشارة إلى دخله، وخدمه، وأثاث بيته. لقد زاد من تقديرها له ما كانت تسمعه عنه دائمًا من مديح، وزاد من جذوة حسرتها وألهب مشاعرها ما كان يقال تكرارًا ودوامًا عما تحس به «مس هوكنز» من سعادة، وعما يلاحظ دائمًا من حبه لها، وأنه ليس أدل على هيامه بها من مظهره وهو يسير بجوار البيت، وطريقة وضعه لقبعته فوق رأسه.
وربما كانت «إمَّا» تجِد في تذبذبِ سر «هاريت» ما يسرّي عنها لو أن هذا

التذبذب لم يكن فيه ألم لصديقتها أو لوم عليها هي نفسها. فلقد كانت المكانة الأولى في عقل صديقتها أحيانًا لمستر «ألتن» وأحيانًا أخرى، كانت لمارتن، وقد أفاد ذلك في بعض الحالات، لأنه كان يحول دون طغيان أحدهما على الآخر. لقد كانت خطبة «مستر ألتن» شافية لما لحقها من اضطراب عند مقابلتها لمستر «مارتن»، وكان لزيارة «إليزابث مارتن» لمسز «جدرد» بعد ذلك بأيام قليلة ما جعلها تطرح جانبًا ماجره عليها علمها بخطبة «ألتن» من الأسى.

ولم تكن «هاريت» بالمنزل حين ذهبت «إليزابث مارتن» إلى «مسز جدرد» ولكنها كانت قد أعدت لها رسالة تركتها لها، كتبت في أسلوب مؤثر هو مزيج من اللوم اليسير مع فيض من العطف والحنان، وإلى أن ظهر «مستر ألتن» على المسرح شغلتها هذه الرسالة وملكت عليها حواسها، تفكر فيما يتعين عليها أن تفعله ردًا عليها وتتمنى لو فعلت ما لا تطاوعها نفسها على الاعتراف به، ولكن أما وقد عاد «مستر ألتن» بشخصه فقد قضى على كل هذا الاهتمام، وطالما ظل يقيم في «هايبري» بقيت أسرة «مارتن» في زوايا النسيان.

وفي صباح اليوم الذي رحل فيه ثانية إلى «باث»، رأت «إمَّا»، لكي تزيل بعض ما كان لهذا الحادث من قلق نفسي أنه قد يكون أحرى بهاريت أن تقوم برد الزيارة لإليزابيث مارتن.

لقد ساورها الشك في كيف ستقابل «إليزابيث» تلك الزيارة، وفي ما يجب عليها أن تقوله، وفي أكثر السبل أمنًا وسلامة، فقد يكون إهمال الوالدة والأخوات إذا ما دعين، جمودًا ونكرانًا الجميل، وهذا ما لا يجب أن يكون، ومع هذا فهناك خطر تجديد المعرفة.

وبعد تفكير عميق، استقر رأيها على أن رد «هاريت» للزيارة هو أفضل ما يعمل، على أن يكون ذلك بطريقة تجعلهم يعتقدون بأن هذا التعارف أنما هو على سبيل الرسميات لا أكثر ولا أقل. ورأت أن تصحبها في العربة، ثم تتركها عند مساكن الرهبانية وتبعد بالعربة قليلًا، ثم تعود إليها لتأخذها معها بعد وقت قصير، فلا تترك وقتًا لعمل غير مستحب، أو للعودة إلى الماضي الخطير، وقد يكون في هذا، القول الفصل والبرهان القاطع على ما يجب أن تكون عليه العلاقة مستقبلًا.

ولم يكن في وسعها أن تفكر في حل أحسن من هذا، وعلى الرغم من أنها وجدت في ذلك شيئًا لا تستسيغه، شيئًا من نكران الجميل الأملس البراق، إلا أنها رأت أنه واجب الأداء، وإلا فماذا عسى أن يحدث لهاريت.

لم تتحمس «هاريت» للزيارة، فقد شاء سوء حظها أن يقودها قبل مجيء «إمَّا» لزيارتها في بيت «مسز جدرد» بنصف ساعة أو أقل، إلى نفس المكان وفي نفس اللحظة التي رأت فيها حقيبة باسم «المحترم فيليب ألتن» - شارع هويت هارت باث - ترفع إلى عربة القصاب لكي تحملها إلى حيث تمر عربات نقل البضائع والركاب، وغاب عن ذهنها كل شيء في الوجود في تلك اللحظة عدا تلك الحقيبة ووجهتها.

ورغم ذلك فقد ذهبت. فلما وصلتا إلى الضيعة، كان عليها أن تنزل عند آخر الممشى العريض النظيف المعصبّد بالحصى، تحفه من الجانبين أشجار التفاح المسندة على عُمد من خشب، ويمتد بالسائر إلى الباب الأمامي، فأخذت رويتها للأشياء التي اعتادت أن تبعث في نفسها سرورًا عظيمًا أيام الخريف الماضي تحيي في صدرها بعض ما كان لهذا المكان عندها من اضطراب نفسي.

ولاحظت «إمَّا» عند افتراقهما أنها كانت تمعن النظر فيما حولها وهي واجفة، فصحّت عزيمتها على ألا يزيد وقت الزيارة على ربع الساعة الذي اقترحته، ثم صارت في طريقها لتقضي هذه الفترة مع خادمة لها عجوز تزوجت واتخذت «دونول» مقامًا لها.

وواظبت على الموعد، وعادت إلى البوابة البيضاء بعد ربع ساعة تمامًا، وما كادت «مس سمث» تسمع نداءها حتى أتيت إليها دون تمهل،

لا يرافقها أي فتى يخشى عليها منه ونزلت «مس سمث» بمفردها إلى الممشى المعبّد بالحصى، وقد ظهرت عند الباب لحظتها إحدى أختيّ «مارتن»، وكان يبدو عليها أنها تودعها في حفاوة واحترام.

ولم تستطع «هاريت» أن تعطي بيانًا سريعًا عما حدث، بسبب ما كانت عليه من شدة التأثر، ولكن «إمَّا» أمكنها أخيرًا أن تستجمع منها ما يكفي لبيان طبيعة المقابلة، ومدى الألم الذي تسبب عنها – إنها لم تر غير «مسز مارتن» والفتاتين، قابلتها وهن في ريبة من أمرها إن لم يكن في جفاء، ولم يكن الحديث الذي دار بينهن في معظم الوقت، إلا في الأمور العادية البحتة، إلى أن قالت «مسز مارتن» آخر الأمر وعلى بغتة، أنها تظن أن «مس سمث» قد زاد طولها عما كان فتحول بذلك مجرى الحديث إلى ما هو أشيق وأكثر حرارة،

فلقد سبق لها أن قيست هي وصديقاتها في شهر سبتمبر الماضي، وفي تلك الحجرة نفسها، وجرت خطوط بالقلم الرصاص تحمل علامات وعبارات للتذكرة على إفريز الحائط الخشبي المجاور للنافذة. نعم إنه هو نفسه الذي قام بها، وبدا لهن جميعًا الآن أنهن يتذكرنَ اليوم والساعة، ومن كان حاضرًا وقتها، والباعث لهن على كل ذلك، وعاد إليهن نفس شعورهن السابق وأخذن يتحسرن على ما مضى، وبدا أنهن على استعداد للعودة إلى نفس ما كان بينهن من حسن التفاهم، ثم ما كدن يُعدن كما كن قبلًا، حتى عادت العربة فانتهى بذلك كل شيء (وكانت هاريت كما كانت تتوقع «إمَّا» أكثرهن استعدادًا لكي يحل الصفاء وتزول الجفوة).
وكان لطريقة الزيارة وقصر وقتها، ما جعل «هاريت» تشعر بأنها سوف تكون الأخيرة، لا زيارة بعدها. فما أعجب أن تقضي أربع عشرة دقيقة مع من أمضت معهم ستة أسابيع منذ ستة شهور لا تزيد، وهي لهن، شاكرة حامدة!!
لقد تخيلت «إمَّا» كل هذا وشعرت بأن حقهن أن يغضبن وأن يشعرن بالإساءة، كما أحست بالألم الذي لا محالة لحق بهاريت من جراء ذلك. لقد كانت مهمة مؤلمة كلها، وكم كانت «إمَّا» تود لو كان في وسعها أن تبذل النفس وأن تضحي ما أمكنها لترى أسرة «مارتن» وقد تبوأت منزلة اجتماعية أرفع، فهم جديرون بذلك ولا يعوزهم إلا قدر يسير من الارتفاع كان فيه كل الكفاية. ولكن ما دام هذا حالهم، فماذا عساها أن تفعل غير ما فعلت؟ لقد كان من المستحيل أن تفعل غير ذلك وما هي بنادمة على ما فعلت.
وإذن فلا بد من أن يفرق بينهم وبينها، ولكنها عملية محفوفة بكثير من الألم لهاريت ولها نفسها، وكان ألمها في ذلك الوقت شديدًا حتى لقد شعرت بأنه لا بد من أن تجد شيئًا يسرّي عنهما سريعًا، وصحّت عزيمتها على العودة إلى بيتها عن طريق «راندولز» لتفرج عما بها من أسى. لقد تعبت من التفكير في«مستر ألتن» ومن أسرة «مارتن»، وأصبح كل ما تنشده من الترويح عن نفسها في «راندولز» شيئًا لا بد منه. وكانت خطة طيبة منها بالفعل، ولكنهما علمتا عند وصولهما بالعربة إلى الدار، أن رب البيت وزوجته قد خرجا منذ قليل، وقال لهما الخادم إنه يعتقد أنهما ذهبا إلى «هارتفيلد».
وصاحت «إمَّا» وهما تهمان بالانصراف: «إن هذا في منتهى القبح، وستفوتنا الآن فرصة اللقاء بهما، إنه لشيء مثير للغاية ولست أدري أني مُنيت يومًا بمثل هذه الخيبة. ومالت إلى الوراء في ركن العربة لتتابع ما برمت به وضجرت منه، أو لتحاول إزاحته عن عقلها، ولعلها أخذت بنصيب من الحالتين، شأنها في ذلك شأن من طابت نفوسهم وحسنت نواياهم. ثم إذا بالعربة تقف، فترفع بصرها لترى أن «مستر وستن» وزوجته هما اللذان أوقفاها ووقفا ليتحدثا إليها. وسرّت عند رؤيتهما وازداد سرورها لما بادرها«مستر وستن» بقوله:

«كيف حالك؟ كيف حالك؟ لقد كنا نجالس والدك وسرّنا أن وجدناه بخير، إن فرانك سيأتي غدًا، فقد وصلتني منه رسالة هذا الصباح وأصبح وجوده بيننا غدًا عند الظهر أمرًا محققًا، وهو اليوم في «أكسفورد»، وسيقيم معنا أسبوعين، ولقد كنت متأكدًا من حقيقة الوضع، فلو أنه كان حضر في عيد الفصح لما مكث معنا غير ثلاثة أيام، لقد فرحت لعدم مجيئه في عيد الفصح، والطقس الآن في سبيل أن يكون مناسبًا له، وسيكون طقسًا جميلًا وجافًا وغير متقلب، وسنسعد به تمامًا. لقد أصبح كل شيء وفق ما نشتهي».

وما كان في وسع «إمَّا» أن تقاوم وقع هذا النبأ أو ألا تلحظ البشر الذي طفح به وجه «مستر وستن». وأمّنت «مسز وستن» على كل ما قاله زوجها بما بدا على محياها، وبما همست به من كلمات قليلة، ولكنها هادئة ومحققة للغرض. لقد كان يكفي أن تكون واثقة من حضوره لكي تثق «إمَّا» نفسها بذاك، ففرحت لفرحهم وطفحت النفوس بالبشر بعد أن أعياها الانتظار، وانطوى الماضي الكليل أمام فرحة المستقبل، وذهب بها تفكيرها في سرعة خاطفة إلى أن هناك أملًا في ألا يتطرق الحديث إلى«مستر ألتن» بعد اليوم.

واستطرد «مستر وستن» يلقي عليها أخبار الأحداث التي جرت في «أنسكومب»، فسمحت لابنه بأن يكتب إليه ليقول أن أمامه أسبوعين يقضيهما كيفما شاء وأن يرسم برنامج رحلته، وهي تصغي إليه وتبتسم، ثم هنأته.

وختم حديثه بقوله «وسآتي به سريعًا إلى هارتفيلد».

وخيل إلى «إمَّا» في تلك اللحظة أن زوجته قد مسَّت ذراعها بيدها وهو يقول ذلك: ومالت «مسز وستن»: «هيا بنا يا «مستر وستن» فقد عطلنا الفتاتين.

«أجل، أجل، وأنا على استعداد» ثم التفت إلى «إمَّا» ثانية وقال:

«ولكن لا تنتظري بأنك ستجدين فتى مفرطًا في ظرفه، واعلمي أن ما وصلك عنه ما هو إلا ما أراه أنا فيه، وهو قد لا يعدو في الواقع أن يكون فتى عاديًا».

قال هذا على الرغم مما كان يبدو في عينيه في تلك اللحظة من بريق يؤكد غير ذلك.

وكان رد «إمَّا» على ذلك رد البريء المذهول الذي لا يهدف إلى شيء.

وقالت «مسز وستن» في صيغة الآمر وهي تهم بالانصراف: «فكري فيّ غدًا يا عزيزتي «إمَّا» حوالي الساعة الرابعة»، وكان كلامها موجهًا لها خاصة وفي شيء من القلق.

وأسرع «مستر وستن» يصحح هذا بقوله «عجبًا!! الساعة الرابعة؟ ثقي بأنه سيكون هنا في الساعة الثالثة» وانتهت بذلك مقابلة كانت تبعث على الرضى كل الرضى.

وشعرت «إمَّا» بالسعادة تتملك كل مشاعرها، وتغيّرت نظراتها إلى الأشياء جميعًا، فلم يعد «جيمز» وخيوله في نظرها، في نصف الكسل الذي كانوا عليه قبلًا، وعندما نظرت إلى حواجز الشجيرات المصطفة، خيّل إليها أن شجيرات

العنَّاب على الأقل ستزهر حالًا وتخرج شظاها، فلما التفتت إلى «هاريت» رأت في وجهها ما يشبه الربيع، إذ كانت على ثغرها ابتسامة كذلك، ابتسامة عذبة.
وخطر لها سؤال غير ذي بال، ولم يترك أثرًا وهو:
«هل سيمر مستر «فرانك تشرشل» بباث كما يمر بأكسفورد؟». ولم تجد عندها ردًا على هذا السؤال، فلا الجغرافيا أسعفتها ولا الهدوء عاد إليها، واستقر الرأي عند «إمَّا» أن كلا سيكون في حينه.
وأصبح الصباح في ذلك اليوم المنشود، ولم تنس تلميذة «مسز وستن» الوفية أن عليها أن تفكر فيها في الساعة الرابعة، فلم تغفل عن ذكرها في الساعة العاشرة والحادية عشر والثانية عشرة. وقالت في نفسها وهي تنزل من حجرتها:
«كم أنت قلقة يا أعز صديقاتي، إنك شديدة الاهتمام براحة الناس جميعًا إلا راحتك، إني أكاد أراك الآن قلقة لا تستقرين على حال وتدخلين حجرته الحين بعد الحين، كي تتأكدي من أن كل شيء على ما يرام».
ودقت الساعة، وكانت الثانية عشرة، وهي تجتاز عتبة البهو فعادت تقول لنفسها: «إنها الثانية عشرة، ولن أنسى أن أفكر فيك أربع ساعات منذ الآن وقد أشغل غدًا في مثل هذا الوقت، أو بعده بقليل، بالتفكير في أنهم سيأتون جميعًا لزيارتنا، فأنا متأكدة بأنهم لن يتوانوا في إحضاره».
وفتحت باب الحجرة فرأت سيدين يجلسان مع أبيها، إنهما «مستر وستن» وابنه، وكان لم يمض على وصولهما إلا دقائق قليلة، ولم يكن «مستر وستن» قد انتهى بعد من توضيح سبب مجيء «فرانك» قبل موعده بيوم، كما أن والدها لم يكن قد فرغ من نصف ترحيبه بهما وتهانيه.
ودخلت عليهم تغمرها موجة من الدهشة، وتم التعارف في غمرة من السرور - لقد أصبح «فرانك تشرشل» الذي طالما تحدثوا عنه وكان مثار اهتمامهم، ماثلًا أمامها. وقدموه إليها، فلم تر أنهم زادوا شيئًا في مديحه. لقد كان فتى وسيمًا للغاية، ليس فيه من مأخذ قط، سواء في حسن قامته أو مظهره أو حديثه، وكان محبًا يفيض بالكثير مما تفيض به نفس أبيه من حيوية، كما بدا فوق ذلك متزنًا ونشيطًا.
وأحست في الحال بأنها سوف تُعجب به، فقد آنست فيه من لين الجانب والإقبال على الحديث، ما أكد لها بأنه حريص على التعرف بها، وأن هذا التعارف لا بد وأن يتم عاجلًا. لقد وصل إلى «راندولز» بالأمس مساء، وسرّها تلهفه على الوصول حتى اضطر إلى تغيير خطته في السفر، فيبدأه مبكرًا ويستمر فيه إلى ساعة متأخرة من الليل، ويقطع المسافات بخطى أسرع كي يصل قبل موعده بنصف يوم.
وصاح «مستر وستن» يقول وهو في غمرة من السرور: «لقد أخبرتك البارحة بأنه سيكون هنا قبل الموعد المحدد، وإني لأذكرما كان من عادتي أن أفعله، فالمرء لا يبطئ إذا ما أزمع السفر، ثم هو لا يجد مفرًا من الإسراع في سفره،

لأنه يجد من المتعة في لقاء أصدقائه قبل الموعد الذي ينتظرون فيه قدومه ما يفوق كل ما يبذل في ذلك من جُهد مهما عظم فهو بسيط».
وقال الفتى: «إنه لسرور عظيم أن يجد الإنسان مكانًا يستمتع فيه،. ولو أني لا أزعم حتى الآن وجود بيوت كثيرة أرى متعة فيها، ولكني شعرت بأني سأوفق إلى شيء من هذا بحضوري إلى موطني».
وكان لذكر كلمة «موطني» ما جعل والده ينظر إليه بالرضى من جديد، وأيقنت «إمَّا» في الحال بأنه عرف كيف يحبب الناس فيه، وزاد من يقينها ما حدث بعد ذلك. لقد كان سروره براندولز عظيمًا، أما المنزل فقد بدا له على أحسن ما يكون من الترتيب والنظام، وأبى أن يوافق على أنه متناه في الصغر، كما أعجب بموقعه، وبالطريق المؤدي إلى «هايبري»، وهايبري بالذات، وكان أعجابه بهارتفيلد أكثر من كل ذلك؛ لقد استرسل يتحدث عما يشعر به دائمًا من جاذبية الريف له، وريف موطنه بالذات الذي يهوى إليه فؤاده.
وساور «إمَّا» الشك في أنه لم تهيأ له فرصة الاستمتاع بهذا الشعور من قبل، ولكن حتى لو كان ذلك غير حقيقي، فقد وجدته منه مستعذبًا، وقد أبدع في التعبير عنه ولم تكن تبدو على سلوكه أية مغالاة، أو أنه يسير على غير سجيته وكان مظهره وحديثه يقطعان بأنه يشعر بمتعة غير عادية.
وكانت مواضيع الحديث بوجه عام مما يراد بها فتح باب للتعارف فكان هو من جانبه يوجه إليها الأسئلة: «هل هي فارسة تركب الخيل؟ وهل هناك في «هايبري» ركوب للخيل يمكن أن يجد الإنسان متعة فيه؟ وهل هناك نزهات جميلة على الأقدام؟ وهل الجوار فسيح الأرجاء؟ ثم هل «هايبري» فيها عشيرة كافية؟ إن بها بيوتًا عديدة جميلة جدًا، كما أن هناك أخرى بجوارها. وحلبات الرقص، هل يوجد لديهم فيها شيء؟ وهل هو مجتمع مولع بالموسيقى؟؟
ولما علم عن كل هذا ما أرضاه، وزادت نسبيًا صلة التعارف بينهما، أغتنم فرصة خلا فيها الوالدان إلى بعضهما، ليتناول زوجة أبيه بالثناء المستفيض، والإعجاب العظيم، بما تقوم به لإسعاد أبيه كما حمد لها حسن لقائها له وترحيبها الكريم به، فأضاف بذلك دليلًا آخر على ما له من دراية في كسب القلوب، وعلى أنه أدرك حقًا بأن من واجبه محاولة إرضائها. وهو لم يمتدح زوجة أبيه بكلمة تعدو ما كانت تعلمه «إمَّا» عنها، أو ما كانت تعرف أن «مسز وستن» جديرة به تمامًا، ولكن مما لا ريب فيه مع ذلك أنه لم يكن يعلم عن ذلك إلا النزر اليسير، لقد كان عليمًا بما يلقى ترحيبًا عند الناس أما ما عدا ذلك فلم يكن له علم أكيد به؛ ثم استطرد يقول:
«إن زواج والده في نظره عمل ينطوي على الحكمة، وكل صديق محب لا بد أن يبتهج له، وإن الأسرة التي نال منها هذه المِنّة يجب أن ينظر إليها على الدوام بل بأنها أسدت إليه أعظم ما يستوجب الشكر».
ووصل في مديحه حدًا كان أقرب ما يكون إلى شكر «إمَّا» على ما تحلّت به «مس تيلور» من حميد الصفات، دون أن يبدو عليه أنه يتناسى أن الأصل في

طبيعة الأشياء، أن تكون «مس تيلور» هي التي صقلت «مس وودهاوس» لا أن يكون الأمر على العكس. ثم أنهى حديثه، وكأنما أراد أن يحدد فكرته التي ظل يضرب حولها بالتعبير عن دهشته لما كانت عليه زوجة أبيه من شباب وجمال فقال:

«لقد كنت أتوقع أن أرى شخصًا لطيفًا كريم الأخلاق، هذا كل ما كنت أتوقعه، ولكني أعترف من ناحية أخرى، وأنا أقدِّر كل الظروف، بأني ما كنت أنتظر أكثر من أن أرى سيدة على درجة متوسطة من الوسامة وفي سن معقولة، ولم أكن أعلم بأني سأجد «مسز وستن» سيدة جميلة وشابة».

وقالت «إمَّا»: «إنك لن تبالغ مهما قلت في وصف كمال «مسز وستن» في نظري، ولو أنك ظننتها في الثامنة عشرة لما وجدتني إلا سعيدة بما تقول، أما هي فلن تتأخر عن العراك معك لما تصوغه في مديحها من هذه العبارات. وحذار أن تدعها تتخيل بأنك تحدثت عنها على أنها فتاة جميلة».

وأجابها: «أرجو أن أكون أحسن دراية في المستقبل» ثم «وفي إنحناءة لطيفة» استطرد يقول: «لا، وكوني واثقة بأني سوف أكون في حديثي مع «مسز وستن» مدركًا لما يجوز أن يقال من مديح دون خطر من أن يظن بي أنني أسرفت في القول».

وفكرت «إمَّا» أتكون الظنون التي أستولت عليها عما عساه أن ينجم عن تعارفهما قد مرت بخاطره كذلك؟ وهل ما أزجاه من المديح يؤخذ على أنه من دلائل الموافقة الكاملة، أم على أنه من دلائل التحدي والمعارضة السافرة، ورأت أن يتعيّن عليها أن تراه أكثر وأكثر لكي تفهم عاداته وأساليبه.

ولم يساورها شك فيما كان يدور في ذهن «مستر وستن» معظم الوقت، وكثيرًا ما لاحظته وهو يرمقها مغتبطًا بنظراته الخاطفة، كما كانت واثقة، حتى وقت انصرافه عن النظر إليهما، بأنه كان شديد الإنصات إلى ما يقولان.

ولقد شعرت بمنتهى الراحة لانصراف ذهن والدها التام عن كل تفكير من هذا النوع، وعدم ميله إلى التغلغل في الأمور، أو الشك في شيء، وكان من بواعث سرورها أن عدم تحبيذه للزواج كان لا يزيد عنده على توقع حدوثه، إذ على الرغم من معارضته الدائمة لأي زواج يتم، فإنه لا يتألم سلفًا إذا خشي عقد زيجة من الزيجات. فكان يبدو وكأن سوء الظن لم يبلغ معه حدًا يحمله على الظن بأن شخصين يعتزمان الزواج لمجرد أن يرى بينهما إلفة وتفاهمًا، ألا أن يرى بالدليل القاطع ما يثبت عزمهما.

قد حمدت «إمَّا» هذه الغشاوة في أبيها وقدرت ما ينطوي عليه ذلك من غنم. فلفقد استطاع الآن، وقد خلا عقله من كل ظن ممقوت، وبرئ من كل وسواس يوسوس إليه بأن ضيفه سوف يغدر به، أن يظهر ما طبع عليه من حسن الوفادة والترحيب، فبدا ذلك منه في لهفته وهو يسال عن مدى ما لقيه «مستر فرانك» من راحة في سفره وقد اضطر إلى النوم ليلتين في الطريق،

وفي تعبيره عن فرحه الحقيقي وهو يراه قد أفلت من الإصابة ببرد كان لا بد أن يصيبه.
وانتهت الزيارة في وقت معقول، وأخذ «مستر وستن» في الانصراف وهو يقول: «إنه لا بد من ذهابه، لأن له في «كراون» أعمالًا تتعلق بالكلأ الجاف، كما أن عليه الذهاب عدة مرات إلى «متجر فورد» لقضاء حاجات لمسز وستن، وهو مع ذلك لا يجد ما يدعو لتعجل الآخرين في الانصراف».
ونهض ابنه في الحال، لما كان عليه من نشأة طيبة جعلته يدرك هذا التلميح، وهو يقول:
«نظرًا لما تتطلبه أعمالك من ذهابك بعيدًا، فأني أغتنم الفرصة لكي أقوم بإحدى الزيارات التي لا بد من القيام بها يومًا ما، ومن الأفضل، أن أقوم بها الآن ما دام ذلك ممكنًا، فلقد كان لي شرف التعرف بإحدى جاراتكم (والتفت نحو إمَّا) وهي فتاة تقيم في «هايبري»، أو على مقربة منها، ومن أسرة تدعى أسرة «فيرفاكس»، وأظن أني أجد صعوبة في الاهتداء إلى بيتها، ولو أني أعتقد بأن «فيرفاكس» ليس الاسم المضبوط، وأنه أحرى بي أن أقول «بارنس» أو «بيتس»، فهل تعرفين أسرة بهذا الاسم؟».
وصاح والده قائلًا: «من المؤكد أننا نعرفه، لقد مررنا ببيت «مسز بيتس» وشاهدت «مس بيتس» تطل من النافذة، ولا شك أنك عرفت «مس فيرفاكس»، أذكر أنك قابلتها في «ويموث»، وهي بنت ظريفة فاذهب لزيارتها بالتأكيد».
وقال الفتى: «لا ضرورة لزيارتها في هذا الصباح، ويمكن أن أؤدي الزيارة في يوم آخر، ولكن درجة التعارف في «ويموث»، كانت -».
«عجبًا!! اذهب اليوم، اذهب اليوم ولا تؤجل الزيارة، إن ما يجب تنفيذه حالًا لا يمكن أن تكون مبالغًا في التبكير بتنفيذه، وثمة ملاحظة أخرى من واجبي أن أبديها لك يا «فرانك» وهي أنه لا ينبغي لك أن تقصّر في شيء نحوها وهي هنا، فإنك حين قابلتها مع أسرة «كامبيل» كانت تقف من الجميع موقف الند، أما هنا فهي الآن مع جدّة فقيرة عجوز تعيش على الكفاف، فإن أنت لم تبادر بزيارتها كان ذلك إهانة منك».
وبدا على الابن الاقتناع.
وقالت «إمَّا»: «لقد سمعتها تتكلم عن لقائها بك، وهي فتاة على درجة كبيرة من الرشاقة».
ووافق على عبارتها موافقة فاترة بكلمة «نعم»، مما جعلها تتشكك في أنه يؤمن حقيقة بذلك، ومع ذلك فلا بد وأن تكون هناك معايير خاصة، للرشاقة في عالم «الموضة» الحديثة، إذا كانت «جين فيرفاكس» لا تبدو في نظره فتاة عادية.
ثم استطردت تقول: «إذا كانت دماثة أخلاقها لم تلفت نظرك قبل الآن، فلا أخالها إلا ملفتة نظركِ اليوم، لأنكِ ستراها على أحسن ما تكون، ستراها

وستسمعها، لكن لا، فأني أخشى ألا تسمعها أبدًا، لوجود خالتها التي لا تكف عن الكلام».

وقال «مستر وودهاوس»، وكان آخر من اشترك في الحديث: «هل تعرفت «بمس فيرفاكس» يا سيدي؟ إذا كان هذا، فاسمح لي إذن أن أؤكد لك بأنها فتاة ظريفة جدًا، وهي تقيم هنا، وقد جاءت لزيارة جدتها وخالتها، وهن جديرات بالإعجاب، فأنا أعرفهن طول حياتي، وأعتقد بأنهن سيفرحن كثيرًا لرؤيتك، وسيذهب معك أحد الخدم ليريك الطريق».

«لا يا سيدي، مستحيل ووالدي قادر على توجيهي».

«ولكن والدك لن يذهب بعيدًا إلى مسافة كهذه، فهو لن يصل إلا إلى ناحية «كراون»، وهي على الجانب الآخر من الطريق، وهناك منازل كثيرة، ويحتمل أن تضل الطريق، وهو طريق في غاية القذارة، إلا إذا التزمت السير فوق الإفريز، ولكن حوذي عربتي قادر على أن يرشدك إلى أحسن مكان تعبر منه».

واعتذر مستر «فرانك تشرشل» رغم كل هذا، وبدا جادًا في اعتذاره، وسانده والده بحماس وهو يقول: «صديقي الحميم، أن هذا غير ضروري أبدًا وأن «فرانك» يعرف الوحل حين يراه، أما عن بيت «مسز بيتس» فإنه قد يصل إليه من «الكراون» بوثبة ثم خطوة تتلوها قفزة».

وسمح لهما بالذهاب بمفردهما وانصرف السيدان بعد أن أديت التحية بإيماءة قلبية من أحدهما وإنحناءة رشيقة من الآخر.

وبقيت «إمَّا» ترفل في حلل السعادة لبدء هذا التعارف، وأصبح في مقدورها الآن أن تفكر في آل بيت «راندولز» جميعًا، في كل ساعات النهار، وهي واثقة كل الثقة بأنهم هانئون.

وعاد «مسترفرانك تشرشل» إليهم في صبيحة اليوم التالي وكان بصحبته «مسز وستن» التي بدا وكأنه قد أحبها من أعماق قلبه بقدر ما بدا تعلقه بهايبري. لقد ظل يجالسها في بيتهم وهو مغتبط هانئ حتى كانت الساعة التي اعتادت أن تخرج فيها للتريض، فلما طلبت إليه أن يختار الطريق الذي يسيران فيه، حدده في الحال بهايبري، ولم يكن يشك
إطلاقًا في وجود طرق أخرى كثيرة في كل اتجاه آخر يحلو فيها المسير، ولكنه شعر بأنه إذا ترك له الاختيار فلن يختار في كل مرة إلا الطريق نفسه، فما كان يستهويه دائمًا غير «هايبري»، تلك القرية المشرقة البهيجة ذات الهواء العليل.
ولم تكن «هايبري» في نظر «مستر وستن» تعني غير هارتفيلد»، وقد وثقت بأن هذا هو نفس ما يراه «فرانك»، ولذا فقد سارامباشرة إليها.
ولم تكن «إمَّا» تتوقع مجيئهما، ولم يكن «مستر وستن»، الذي كان قد زارهم من قبل دون أن يمكث عندهم غير برهة استمتع خلالها بسماع الحديث عن ابنه وظرفه، يعرف شيئًا عن خطبتهما. وقد أدهشها كما سرّها أن تراهما يسيران معًا إلى البيت وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر.
لقد كانت تود رؤيته ثانية، وخاصة أن تراه بصحبة «مسز وستن»، فإن رأيها فيه كان يتوقف على سلوكه نحوها، فإن هو قصّر في شيء من ذلك فهي لن تغفر له زلته، ولهذا فقد رضيت عنه كل الرضى عندما رأتهما معًا، ثم هو لم يؤدِ واجبه نحوها بالكلام العذب وحده ولا بالمغالاة في المديح، بل لم يكن هناك ما هو أبلغ في التعبير ولا أثلج للصدر من طريقة معاملته لها بصفة عامة، ولا أصدق من ذلك في الدلالة على رغبته في اتخاذها صديقة له، وفي اكتساب محبتها. وقد توفرت «إمَّا» فسحة من الوقت لكي تكون رأيًا سليمًا عنه، فقد امتدت زيارتهما بقية الصباح. ومشى ثلاثتهم سويًا ساعة أو ساعتين، تارة حول شجيرات التوت في «هارتفيلد» وبعدها في «هايبري»، وسرّه كل ما رآه، وأعجب بهارتفيلد بالقدر الذي يرتاح «مستر وودهاوس» إلى سماعه. فلما عزموا على مواصلة السير، أبدى رغبته في أن تتاح له فرصة معرفة كل أنحاء القرية، ووجد فيها كثيرًا مما أثار اهتماه وجعله يلهج بالمديح، على غير ما كانت تنتظره «إمَّا».

وكان بعض ما أثار اهتمامه كفيلًا بأن يجذبه إلى قلوب الناس، فقد رجا بأن يرى البيت الذي عاش فيه والده ردحًا طويلًا، وكان من قبل منزلًا لجده. ولما تذكر أن هناك امرأة عجوزًا كانت تقوم على تربيته، وعلى أنها ما زالت على قيد الحياة، سار يجوب الطريق من أوله إلى آخره بحثًا عن كوخها.

وعلى الرغم من أنه لم تبد منه مواهب واضحة في بعض ملاحظاته، فقد أظهر شعورًا رقيقًا نحو «هايبري» بوجه عام، فكان ذلك بمثابة تحية منه لمن كان يسير في صحبتهم.

وراقبته «إمَّا» عن كثب، ثم قررت أنه ليس من العدل أن يظن فيه، وهو يمثل هذه المشاعر التي أظهرها؛ إنه كان يتغيب بإرادته، أو أنه لم يعمل على المجيء، أو أنه كان غير مخلص فيما كان يبديه من الأعذار لتخلفه عن المجيء، واستقر رأيها على أن «مستر نيتلي» كان ولا ريب متجنيًا عليه.

وكان أول وقوف لهم عند «نُزل التاج »، وهو مكان لا يستحق أي اهتمام، وإن كان المكان الرئيسي من نوعه في الجهة. وكان به زوجان من الخيل المخصصة لعربات المسافرين، وهي أكثر ما كانت لخدمة أهل الجيرة منها إلى استعمالها في السفر الطويل، ولم تكن رفيقتاه لتتوقعا أن يجد أي شيء فيه يثير الاهتمام أو يدعو إلى التوقف، ولكنهما وقد مرا به، أخذتا تسردان تاريخ الصالة الفسيحة التي أضيفت إلى البناء، وشيدت في الأصل منذ سنوات عديدة لتكون صالة للرقص وظلت تستعمل لهذا الغرض بين الحين والحين عندما كان أهل الجيرة كثيرين ولهم ولع بالرقص، ولكن تلك الأيام الزاهرة قد ولّت منذ مدة، وأصبحت الآن ولا غرض منها أكثر من أن تكون ناديًا للعب الورق أسسه سادة المنطقة وأنصاف السادة.

وأثار هذا القول اهتمامه في الحال، واستهواه إنها كانت صالة للرقص، وبدلًا من أن يواصل المسير توقف لبضع دقائق عند نافذتين عاليتين كانتا مفتوحتين، لينظر إلى داخل الصالة ويفكر في مدى صلاحيتها، ثم أبدى أسفه لتوقف استعمالها فيما خصصت له في الأصل ولم ير بالصالة عيبًا، ولم يقرهما على شيء مما رأتاه فيها من عيوب. قال إن فيها من العرض والطول والجمال ما يكفي، وإنها تكفي الراقصين وتوفر لهم كل الراحة، ومن واجبهم إقامة حفلات راقصة فيها كل أسبوعيين طيلة الشتاء على الأقل، ثم لماذا لم تستعد «مس وودهاوس» الأيام السعيدة السالفة التي كانت لتلك الصالة، وهي القديرة على أن تقوم بأي شيء في «هايبري»؟

وأشارت صاحبتاه إلى النقص في عدد الأسر اللائقة بالجهة، وإلى أنه لا سبيل إلى إغراء أحد ممن يعيشون بعيدًا عن أطراف القرية على الحضور. ولكنه لم يقتنع بذلك، بل لم يكن ليصدق بأن البيوت الجميلة العديدة التي شاهدها حوله، ليس فيها العدد الكافي من محبي الرقص.

بل لقد أبى وهو يستمع إلى التفاصيل، وإلى حال الأسر، أن يقر بأن مثل هذا الخليط من الناس فيه ما يضايق بأي حال، أو بأن هناك أية مشقة في عودتهم

جميعًا إلى أماكن اقامتهم في الصباح التالي.
وكان في جداله كالفتى الذي ملك عليه الرقص كل جوارحه ولقد أدهش «إمَّا» أن ترى ما في أسرة «وستن» من صفات تطغى بهذا الوضوح على ما لأسرة «تشرشل» من عادات، فقد انعكس فيه كل ما كان لوالده من حيوية وابتهاج وميول اجتماعية، ثم لا شيء فيه مما كانت عليه أسرة «أنسكومب» من تحفظ وكبرياء، نعم لم يكن فيه ولا شك القدر الكافي من الكبرياء، بل أن عدم مبالاته بامتزاج الطبقات كان مرده تفكير غير سليم من ناحيته إذ لم يكن يقدّر نتيجة ما يستهين به من أضرار، وكان ما يفعله لا يزيد على أن يكون فورة من فورات المشاعر الحسية.
وأمكن آخر الأمر استدراجه إلى الابتعاد عن واجهة «نُزل التاج »، فلما أوشك أن يكون أمام البيت الذي تعيش فيه أسرة «بيتس» تذكرت «إمَّا» الزيارة التي كان قد عقد العزم عليها بالأمس، وسألته إن كان قد قام بها.
وأجابها: «أجل، أجل، وقد كنت على وشك أن أذكر ذلك. وكانت زيارة موفقة جدًا، فلقد رأيت السيدات الثلاث، وشعرت بأني مدين لك بالشكر لما أعددتيني للقياه، فلو أن الخالة الثرثارة أخذتني على غرة، لكان في ذلك هلاكي، أما من ناحية الأمر الواقع فالأمر لا يعدو أن يكون قد تورطت في زيارة هي أبعد ما تكون عن التفكير السليم، فما كانت هناك ضرورة لأكثر من عشر دقائق أقضيها في تلك الزيارة، ولعل هذا كان أوفق ما يكون. لقد كنت أخبرت والدي بأني سأعود إلى البيت قبله قطعًا لكني لم أستطع الإفلات، بل لم أنعم بفترة سكوت، وقد اكتشفت مع بالغ دهشتي أنا والدي حين لم يعثر عليّ في أي مكان آخر، ثم لحق بي هناك أخيرًا، كنت قد مكثت معهن ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة وأن السيدة الطيبة لم تمكنني من الإفلات قبل ذلك ».
«وماذا كان رأيك في مظهر «مس فيرفاكس»؟
«مريضة، مريضة جدًا، هذا إذا كان يجوز أن تترك فتاة لتبدو مريضة، على أن هذا تعبير غير مقبول بحال، يا «مسز وستن» أليس كذلك؟ إن السيدات لا يبدون مريضات أبدًا، ولست أمزح إن قلت بأن «مس فيرفاكس» بطبيعتها شاحبة اللون، مما يجعلها تبدو معتلة الصحة، وإنه لمما يُرثى له أن تكون بشرتها شاحبة».
ولم توافقه «إمَّا» على ذلك، وأخذت تدافع عن بشرة «مس فيرفاكس» بمرارة، «صحيح أنها لم تكن يومًا ذات بشرة نضرة، ولكنها لم تسمح أبدًا بأن يبدو لون بشرتها كمن كانت بها علة، ثم أن بشرتها ذات نعومة ورقة، مما يكسب محياها جمالًا له طابعه الخاص».
وأصغى إليها بكل ما يجب من التقدير، واعترف بأنه سمع الكثيرين يقولون مثل ما تقول، ولكن لا بد له من الاعتراف بأنه لا شيء عنده يعوّض ما للصحة من إشراقة جميلة، وإن البشرة النضرة تضفي على القسمات غير المنسقة

جمالًا، فإذا كانت القسمات منسقة كان الأثر – وإنه لمن حسن الحظ أنه لم تكن به حاجة إلى وصف ما يكون لديك من أثر».
وقالت «إمَّا»: «أجل، فلا مجال للنقاش في مسائل الذوق، فأنت على الأقل معجب بكل ما فيها ما عدا بشرتها».
وهز رأسه ضاحكًا ثم قال: «لا أستطيع أن أفرق بين «مس فيرفاكس وبين بشرتها».
«وهل كنت تراها كثيرًا في «وييموث»؟ وهل أنت كثير الاختلاط بنفس الجماعة؟».
وكانوا قد اقتربوا في تلك اللحظة من «متجر فورد» فأسرع يقول:
«عجبًا، لا بد أن يكون هو نفس الحانوت الذي يؤمه الناس جميعًا في كل الأيام، كما أخبرني بذلك والدي، فهو قول إنه يأتي بنفسه إلى «هايبري» ستة أيام من أيام الأسبوع، و أن له دائمًا معاملات مع «متجر فورد» فإذا لم يكن في ذلك ما يضايقك، فرجائي أن تسمحي لنا بالدخول حتى أبرهن بأني من أبناء هذه الجهة، أي من مواطني «هايبري» الأصليين، نعم لا بد لي من شراء شيء من «متجر فورد» فإن من شأن ذلك أن يعيد إليّ حريتي، هل ترين أنهم يبيعون القفازات؟
«أجل، إنهم يبيعون القفازات وغيرها من الأشياء، وإني لمعجبة بوظيفتك، إنك ستكون محبوبًا للغاية في «هايبري» لقد ذاع صيتك قبل مجيئك، لأنك ابن «مستر وستن» ولكنك لو صرفت نصف الجنيه في «متجر فورد» لطغت شهرتك على فضائلك».
ودخلوا الحانوت، ولما أنزلت الربط التي أجيد حزمها، في قفازات الرجال الوبرية الناعمة، والقفازات الجلدية التي تخرجها مصانع «يورك»، وعُرضت على الطاولة التي يبيعون عليها، قال: «معذرة يا مس «وودهاوس» لقد كنت تكلمينني، وكنت تقولين شيئًا في نفس اللحظة التي اعترتني فيها نوبة من الوطنية، فلا تدعي ما قلتيه يفوتني، وأؤكد لك بأنه مهما ذاعت شهرتي بين الناس، فإن ذلك لن يعوضني شيئًا عما أفقده من سعادة في حياتي الخاصة».
«لم أسألك إلا إذا كنت تعرف الكثير عن «مس فيرفاكس»؟ وعمن تخالطهم في «وييموث»؟.
«الآن وقد فهمت ذلك وجب عليّ أن أقول إنه سؤال بعيد عن القسط، لأن من حق السيدة وحدها أن تحدد درجة التعارف، ولا شك أن «مس فيرفاكس» قد قررت ما تريد في هذا الصدد، ولن أقدم على أن أقول شيئًا أكثر مما قد سمحت به هي».
«إني أجزم بأنك تتوخى الحيطة مثلها في إجابتك، غير أن ما تدلي به هي من أقوال يترك مجالًا واسعًا للظنون، فهي شديدة التكتم ولا تميل إلى الإفضاء بأقل المعلومات عن أي إنسان، ولذا أراك في حل من أن تقول ما يحلو لك عن درجة معرفتك بها».

«وهل من حقي ذلك؟ إذن فسأقول الحق، فلا شيء يروقني أكتر من هذا، لقد تقابلت معها كثيرًا في «وييموث» وكان لي بالمدينة معرفة بسيطة بأسرة «كامبيل»، وكنا كثيرًا ما نتقابل في «وييموث» في مجتمع واحد يضمنا. و«المقدم كامبيل» رجل ظريف للغاية، وعقيلته سيدة ودودة طيبة القلب، وإني أحبهم جميعًا».
«إذن أستنتج من ذلك أنك على علم بمركز «مس فيرفاكس» في الحياة، وبما سيؤول إليه مصيرها».
ورد عليها في شيء من التردد: «أجل، لا ريب أني أعلم ذلك».
وقالت «مسز وستن» وهي تبتسم: «إنك تطرقين مواضيع حساسة يا «إمَّا» وتذكري اني هنا، إن مستر «فرانك تشرشل» لا يدري ما يقول حين تتحدثين عن «مس فيرفاكس» ومركزها في الحياة ولذا فإني سأبتعد عنكما قليلًا».
وقالت «إمَّا»: الحق إني أنسى أن أفكر فيها، على أنها لم تكن يومًا إلا صديقتي، بل أعز صديقاتي».
وبدا كأنه أدرك تمامًا ما تعنيه، وقدّر هذا الشعور منها.
فلما فرغوا من ابتياع القفازات وغادروا الحانوت، قال «فرانك»:
«هل سمعت إطلاقًا هذه الفتاة التي كنا نتحدث عنها وهي تعزف؟».
وأجابت «إمَّا»: «سمعتها إطلاقًا؟ إنك قد نسيت أنها من أهل «هايبري»، نعم لقد طالما سمعت عزفها منذ نشأنا معًا، أنها تشنف الأسماع بعزفها».
«هل تظنين هذا؟ لقد كانت رغبتي أن أعرف رأي من يصدق حكمه، لقد خلتها تجيد العزف، وظننت أن لها فيه ذوقًا سليمًا، غير أني لا أدري في الواقع شيئًا من حقيقة ذلك، وإن لي بالموسيقى ولعًا كبيرًا، ولكن ليست لي أدنى قدرة على العزف، فلا يحق لي الحكم على ما يعزفه أي إنسان. وأني لأذكر دليلًا يُرجح الظن بأنها تجيد العزف، ذلك أن رجلًا ذا خبرة عظيمة بالموسيقى، كان يحب سيدة أخرى، وخطبها لنفسه، وأصبح على وشك أن يتم زواجه لها، ومع ذلك فهو لم يطلب إلى هذه السيدة الأخرى إطلاقًا أن تجلس لتعزف له، إذا كانت السيدة التي تتحدث عنها موجودة وقادرة على الجلوس أمام المعزف لتعزف له. ولم يكن يبدو عليه أنه يجب أن يسمع غيرها طالما هو يستطيع أن يسمعها. ذلك هو الدليل، لأنه صادر عن رجل موهوب، له أذن موسيقية».
فقالت «إمَّا» في شيء من التسلية: «إنه دليل وأي دليل!! و «مستر دكسون» خبير بالموسيقى، أليس كذلك؟ إننا سنعلم منك عنهم جميعًا في نصف ساعة أكثر مما تعترف به لنا به «مس فيرفاكس» في نصف عام ».
«أجل، هما! مستر دكسون» و «مس كامبيل» اللذان كنت أتحدث إليك عنهما، نعم لقد ظننت هذا دليلًا قاطعًا».
«لقد كان ولا شك دليلًا قويًا، ولكني لا أعدو الصدق إذا قلت إنه كان أقوى بكثير من أن يكون محببًا إلى نفسي لو أنني كنت مكان «مس كامبيل» فإني لا أتسامح قط مع رجل يُغلب الموسيقى على الحب، ويجعل لأذنه مكانة أعلى

من مكانة عينه، ويستشعر عذوبة الأنغام بأكثر مما يستشعر جمال الأحاسيس. لعمري كيف رضيت «مس كامبيل» بهذا؟
«لقد كانت أخص صديقاتها كما تعلمين».
وقالت «إمَّا» ضاحكة: «يا له من عزاء سقيم!!، وإنه لأهون على المرأة أن ترى غريبة يُفضل عليها من أن ترى أعز صديقاتها تقدم عليها، إذ لن يتكرر هذا السلوك مع المرأة الغريبة مرة أخرى، ولكن ما أتعس أن يكون للإنسان صديق عزيز لا يفارقه أبدًا ثم يرى أنه يفضله في كل شيء يعمله، ما أتعسك يا «مس دكسون»، إني لسعيدة أن أراها تذهب إلى أيرلندا لتتخذ مُقامها فيها».
«إنك لتقولين حقًا فلم يكن في هذا ما يطري «مس كامبيل» وإن لم يبد أنها شعرت به من قبل إطلاقًا».
«لست أدري أن كان ذلك هو الأفضل لها أو الأسوأ، وسواء أكان هذا رقة منها أم غباء، أو تسرعًا في الصداقة أو تبلدًا في المشاعر، فإن هناك شخصًا واحدًا لا بد أنه أحس بذلك، إنها «مس فيرفاكس» ولا أحد غيرها، فهي لا بد شعرت بذلك التمييز السقيم المحفوف بالخطر».
«أما عن هذا فليست -».
«لا تتخيل بأني أنتظر منك أو من غيرك بيانًا عن أحاسيس «مس فيرفاكس» لأني لا أظن أحدًا أدرى بها منها نفسها، غير أنها إذا كانت فاستمرت تعزف كلما طلب إليها «مستر دكسون» فللمرء أن تذهب به الظنون حيثما شاء أن تذهب به».
وبادر «فرانك» يقول مسرعًا: «يبدو أنه كان هناك حُسن تفاهم تام بينهم جميعًا» ثم عاد فتراجع مكتفيًا بأن يقول:
«ومع ذلك فإنه يتعذر عليّ أن أقول كيف كانت العلاقة بينهم ومدى ما كان منها خافيًا عن الأنظار، وليس بوسعي إلا أن أقول بأن المظاهر كانت تدل على وجود وئام كامل بينهم جميعًا، ولكن أما وأنك تعرفين «مس فيرفاكس» منذ نعومة أظفارها، فلا بد أن تكوني أقدر مني على معرفة أخلاقها وما قد يكون عليه سلوكها في المواقف الحرجة».
«لقد عرفتها منذ الطفولة ولا شك، وكنا معًا أطفالًا وشابات، وإنه لمن الطبيعي أن يظن الناس أننا كنا على ألفة وثيقة، وأننا كنا نلوذ ببعضنا كلما زادت أصدقاءها. ولكننا لم نفعل شيئًا من ذلك أبدًا، وانه ليصعب عليّ أن أعرف كيف حدث هذا، ولعل مرد ذلك شيء من الخبث من ناحيتي، مما جعلني أشعر بامتعاض من فتاة هي معبودة خالتها وجدتها ومن يلذن بها، يمتدحنها جميعًا في غير انقطاع، ثم هناك إلى جانب ذلك، ما فيها من تحوّط في القول، ولا طاقة لي على الاتصال بشخص ممعن في حيطته».
فقال: «لا شك إنها خلة بغيضة كل البغض، وهي في كثير من الأوقات قد تجنّب صاحبها المتاعب، ولكنها مع ذلك خلة غير مرضية، فالحيطة سياج واق، ولكنها لا تجلب محبة الناس، وما من شخص يحب الحيطة في القول».

«إلى أن يتوقف عن حيطته، وفى هذه الحالة تزداد المحبة، ولكن لا بد أن أكون أكثر حاجة إلى الصديق أو الرفيق الصالح مما أنا الآن كي أبذل جهدي لأتغلب على ما في أي شخص من صفة الحيطة لأظفر به صديقًا. على أن الإلفة التي بيني وبين «مس فيرفاكس» ليست مجالًا للنقاش، وليس عندي أدنى ما يجعلني أسيء بها الظن، إلا أن ما فيها من حيطة مفرطة في كل ما تقوله أو تفعله، وخشيتها من إعطاء فكرة واضحة عن أي إنسان، كل ذلك قد يوحي بالشك في أن هناك ما يجب اخفاوه».

ووافقها على كل ما قالته، وبعد أن سارا وقتًا طويلًا، تقاربت فيه أفكارهما، شعرت «إمَّا» بأنها قد عرفته حق المعرفة، حتى كان من العسير عليها أن تصدق بأن هذه ليست إلا المقابلة الثانية بينهما وقد وجدته على غير ما كانت تنتظر أن يكون. فقد دلت آراؤه على أنه كان بعيدًا عن أن يكون في مسلكه مسايرًا للرجال الذين شغلوا بالحياة، وأنه لم يكن كأولاد الأثرياء، ومن ثم وجدته أحسن مما كانت تظن، وبدت لها آراؤه أكثر اعتدالًا وأرق شعورًا، وراقها خاصة رأيه في بيت «مستر ألتن»، ورغبته في التوجه لرؤيته ورؤية الكنيسة، وعدم مشاركته لهم فيما ذهبوا إليه بأن في المنزل كثيرًا من العيوب، لا فهو لم ير معهم أنه بيت قبيح، وأن من يقيمون فيه جديرون بالعطف والرثاء، نعم، فلو أنه تقاسمه مع السيدة التي يحبها، لما كان هناك مجال للإشفاق عليه، وأضاف أنه لا بد أن يكون فيه من السعة ما يوفر كل أسباب الراحة، وأن من يطلب أكثر منه لا بد أن يكون غبيًا».

وضحكت «مسز وستن» قالت إنه لا يدري شيئًا عما يتحدث عنه، إذ لا لم يكن قد اعتاد الإقامة إلا في منزل كبير، دون أن يفكر فيما فيه من مزايا عديدة، وما في اتساعه من مرافق، فهو ليس أهلًا لأن يحكم على ما لا بد أن يكون من نقص في البيت الصغير، بعكس ذلك كانت «إمَّا» فقد أصرت في نفسها على أنه يعلم ما يتحدث عنده، وأنه قد أظهر ميلًا جميلًا إلى التعجيل بحياة الاستقرار، وأن هناك من الداوفع الطيبة ما يجعله يسارع إلى الزواج، ولعله كان لا يفطن إلى ما يعكر صفو الهدوء المنزلي أحيانًا من جراء عدم وجود حجرة للمشرفة على شؤون البيت أو بسبب عدم ملاءمة الحجرة المعدة لخزن الأطعمة، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يشعر بأنه لا يجد ما يسعده في، «أنسكومب»، وأنه حين يجد من تستهوي فؤاده، سوف يتنازل عن طيب خاطر، عن الكثير من الثروة في سبيل الاستقرار والتبكير بالزواج.

وتزعزع حسن ظن «إمَّا» بعض الشيء «بفرانك تشرشل في اليوم التالي عندما وصل إلى سمعها أنه ذهب إلى لندن لا لشيء إلا لكي يقص شعره. فلقد استبدت به نزوة وهو يتناول الإفطار فأرسل بطلب عربة وسافر وفي عزمه أن يعود على العشاء.

ولم يكن يبدو من سبب هام لذلك أكثر من رغبته في قص شعره، وصحيح أنه لم يكن هناك ثمة ضرر من قطعه ستة عشر ميلًا مرتين في سفره وعودته لسبب كهذا، ولكن هذا العمل منه كان فيه من مظاهر الخيلاء والسخف ما لا تقره، ولا يتفق مع ما كانت تعتقده فيه حتى الأمس من أصالة في الرأي واعتدال في الانفاق ورقة في الشعور مبرأة من حب الذات.

لقد أصبح الآن في نظرها معرضًا لأن يوصف بالخيلاء والإسراف وعدم الاستقرار على حال وتقلب الأهواء، مما قد يدفعه إلى الإقدام على عمل أي شيء نافعًا كان أم ضارًا وعدم الاكتراث بما من شأنه أن يدخل السرور على قلب أبيه وزوجته «مسز وستن»، وعدم المبالاة بما قد يبدو عليه مسلكه بوجه عام.

لقد كان أبوه لا يصفه إلا المتحذلق، ويطيب له الحديث في ذلك كأنه يروي قصة ممتعة. غير أن «مسز وستن» لم يرقها ذلك منه، وبدا شعورها واضحًا كل الوضوح من السرعة التي كانت تمر بها مرور الكرام بهذا الحديث وعدم التعليق عليه بأكثر من قولها: «كل شاب وله أهواؤه ونزواته».

وبدا «لإمَّا» باستثناء هذه النقيصة الصغيرة أن زيارته حتى تلك الآونة لم تعط صديقتها إلا كل رأي طيب عنه. وهكذا لم تكن «مسز وستن» لتتوانى عن وصفه بأنه رقيق ظريف مهذب، أو عن التحدث عن المرات العديدة التي رأته فيها يعامل الناس برقة ورعاية. وقد تبينت «إمَّا» فيه كذلك طبعًا صريحًا مكشوفًا، طبعًا يتسم بالاشراق والحياة. ثم هي إلى ذلك لم تلحظ عليه أي سخف في آرائه، بل رأتها على قسط كبير من الصواب. وكان يذكر خاله بعظيم التقدير، ويولع بالتحدث عنه، وكان يقول عنه إنه لو ترك وشأنه لكان أعظم الرجال جميعًا. وقد اعترف بما كان لزوجة خاله من عطف وحنان، وحمد لها صنيعها. وبدا دائمًا أنه يعمد إلى التحدث عنها باحترام، رغم أنه لم يبد شديد التعلق بها.

كان كل هذا خليقًا بأن يجعله محط الآمال وموضع الرجاء، ولولا ما بدا منه من هذه النزوة التعسة بشأن قص شعره، لما كان هناك ما يحول بينه وبين المكانة المشرفة التي خصه بها خيال «إمَّا»، مكانة إن لم تكن مكانة من وقع في حبها، فهي على الأقل مكانة من كان على وشك أن يكون كذلك (وهو شرف كان لا بد أن يكون من نصيبه لولا تصميمها على عدم الزواج) مكانة خصه بها دون غيره من الرجال كل معارفهما لأنهم رأوه أهلًا لذلك.

وقد أضاف «مستر وستن» إلى ذلك من جانبه فضيلة أخرى لا بد أن يكون لها خطرها، ذلك أنه أدخل في روعها أن «فرانك» شديد الإعجاب بها، وأنه يراها فائقة الجمال جذابة للغاية.

ووجدت «إمَّا» لزامًا عليها، أمام كل ما زكوه به من أقوال كثيرة، ألا تسيء الظن به، وألا تبخسه شيئًا من حقه، فكل شاب على حد قول «مسز وستن» له أهواؤه ونزواته».

كان من بين معارف «فرانك» الجدد في «سرى» فرد واحد لا يميل إليه، على حين كان سائر الناس في أبراشيتي«دونول» و «هايبري» بوجه عام يعطونه حقه من التبجيل ولا يتجنون «عليه في حكمهم، بل ويغضون الطرف، عما قد يصدر دون شاب بهي الطلعة مثله من هينات، وهو الذي لا يفتر ثغره عن الابتسامة ويعرف كيف ينحني احترامًا أمام الناس ويغفرون له ما قد يقع منه من تصرفات يسيرة إلا واحدة لم تنفع فيها انحناءاته ولا ابتساماته - ذلك هو «نيتلي»، فلقد وصل إليه ما حدث من سفر «فرانك» إلى لندن لهذا السبب وهو في «هارتفيلد» فظل ساكتًا، ولكن «إمَّا» ما لبثت أن سمعته بعد هذا بقليل يحدّث نفسه وهو يتطلع إلى صحيفة كانت في يده فيقول: «ها!! إنه كما ظننته تمامًا، شخص تافه وسخيف».

وهمّت بأن تغضب لكذلك ولكنها فكرت لحظة أقنعتها بأنه لم يقل هذا إلا لينفس عما يحس به نحوه من مشاعر، وإنه لم يكن يعني إثارتها، ولهذا تغاضت عما قال.

وكانت زيارة «مستر وستن» وزوجته لهارتفيلد في صباح ذلك اليوم خير ما كانت ترتجيه في تلك المناسبة خاصة، رغم أنهما في مناسبة سابقة أتيا يحملان إليها ما لا يسر من الأخبار.

فلقد حدث ساعة وجودهما في «هارتفيلد» ما جعل«إمَّا» في حاجة إلى استشارتهما والإنتصاح برأيهما، وكان من حسن الطالع أنهما أشارا بما كانت تريده تمامًا.

وإليك ما حدث: «استوطنت أسرة «كول» أبرشية «هايبري» منذ بضع سنين، ورأى الناس فيها أسرة حميدة الخصال، فيها ألفة وكرم وبُعد عن التفاخر والإدعاء، ولكنها كانت من ناحية أخرى من أرومة تحترف التجارة ومن بيت عريق، فلم تكن تلك الأسرة تتبوأ بين علية القوم إلا مركزًا وسطًا ولقد عاشوا في مبدأ مجيئهم إلى القرية في حدود دخلهم هادئين، ولم يكن يلوذ بصحبتهم

إلا عدد قليل لم تكن محبتهم لتكلفهم من الإنفاق إلا النزر اليسير، غير أن مواردهم لم تلبث أن زادت في العامين الأخيرين زيادة كبيرة، فقد أتى متجرهم بالمدينة بأرباح وفيرة، وابتسم لهم الحظ بوجه عام، واتسع مجال نظرتهم إلى الأشياء تمشيًا مع ثرائهم؛ وظهرت رغبتهم في الإقامة في بيت أكبر، وزادوا خدمهم، وأكثروا من الإنفاق في وجوه الصرف كافة، حتى أصبحوا من حيث الثروة وأسلوب الحياة لا تسبقهم غير أسرة «هارتفيلد». وسهّل من قدرتهم على إقامة ولائم العشاء في بيتهم ما توافر لهم من روح اجتماعية، وما تهيأ لهم من حجرة جديدة فسيحة للطعام، واستطاعوا أن يقيموا فيها بالفعل بضع حفلات كان معظم من فيها من غير المتزوجين. وما كان ليجول بخاطر «إمَّا» أنهم ستبلغ بهم الجرأة أن يتطاولوا على دعوة كرائم العائلات من مثيلات آل «دونول» و «هارتفيلد» و«راندولز»، بل ما كان هناك من شيء يغريها على الذهاب لو أنها دعيت. وأسفت أن يكون ما طبع عليه والدها من عادات، سببًا في التقليل مما تهدف إليه برفضها الذهاب. حقًا إن آل «كول» لهم مكانتهم واحترامهم في دائرتهم الخاصة ولكن لا بد لهم أن يُلقنوا درسًا بأنه ليس من حقهم وضع الشروط التي تقوم بمقتضاها الأسر الرفيعة بزيارتهم، وما كان غير «إمَّا» ليلقنهم هذا الدرس.

وكان أملها ضعيفًا في أن يتحقق ذلك عن طريق «مستر نيتلي» ومعدومًا بالمرة عن طريق «مستر وستن».

ولكنها كانت قد عقدت العزم على ما ستتخذه نحو تلك الجرأة قبل أن تأتي دعوتهم لها بأسابيع كثيرة، فلما وقعت تلك الإهانة أخيرًا ودعيت إلى بيتهم كان أثرها عندها غير ما بيَّتت عليه النية.

فلقد وصلت الدعوة إلى أسرتي «دونول» و «راندولز»، ولم تصل إليها ولا لأبيها. وما كانت لتقنع بتعليل «مسز وستن» لذلك بقولها: «أظن أنهم لم يستبيحوا لأنفسهم ذلك معك، لأنهم تعلمون أنكم لا تتناولون العشاء خارج البيت». وودت «إمَّا» لو أن الفرصة تهيأت لها لكي ترفض دعوتهم، فلما أخذ يداعب تفكيرها بعد ذلك، بين الحين

والحين، الاعتقاد بان الجماعة التي ستنتظم في هذا الحفل ستتكوّن ممن يطيب لها أن تكون بينهم، أصبحت في شك من أمر نفسها، ولم تعد واثقة من أن الإغراء قد يستبد بها فتقبل هذه الدعوة.

وكانت «هاريت» مدعوة هي وأسرة «بيتس» للحضور في المساء، وكانت هذه الدعوة موضع الحديث وقت تجوالهم في اليوم السابق، في أطراف «هايبري»، فأظهر «فرانك تشرشل» أسفه الشديد لافتقادها في هذا الحفل، وسأل:

«ألا ينتظر أن يكون هناك رقص في السماء؟ - وكان مجرد هذا الاحتمال مثار المزيد من الانزعاج من نفسها، ولم يعد بقاؤها في عزلة العظمة، حتى على فرض أن ذلك كان من باب التكريم لها، إلا مهدِّئًا تافهًا.

ثم كان وصول تلك الداعية حين كانت أسرة «وستن» في زيارة لهارتفيلد داعيًا إلى اغتباط «إمَّا» بوجود هذه الأسرة في بيتهم وقتها.

إذ على الرغم من أنها قالت بادئ ذي بدء عندما قرأتها «لا شك أنه يجب رفضها» فقد عادت تسألهما في الحال عما يشيران به عليها، وسرعان ما نصحاها بالذهاب. ولم تلبث أن قبلت الدعوة، واعترفت بأنها وقد راعت كل الاعتبارات، لم تجد نفسها زاهدة بالكلية عن تلك الحفلة، ولا سيما أن أسرة «كول» كانت وضعت الدعوة في صيغة كيِّسة، وفي أسلوب يدل على اهتمام حقيقي وتقدير كبير لأبيها. فقد جاء فيها أنه «كان بودهم أن يلتمسوا هذا الشرف في وقت أسبق لولا أنهم كانوا في انتظار وصول حاجز «برافان» قابل للطيّ، من لندن، أملًا في أن يقي

«مستر وودهاوس» من أي تيارات هوائية، وبذا يرغبونه في ألا يضن عليهم بشرف حضوره». وكان هذا بوجه عام، عاملًا قويًا أغراها على القبول. واستقر الرأي فيما بينهم باختصار في كيف يتم تلبية الدعوة دون إغفال لراحة «مستر وودهاوس»، وفي كيف أنه يمكن الاعتماد ولا شك على «مسز جُدرد»، إن لم تكن «مسز بيتس» كذلك ليبقيا معه. ولم يبق بعد ذلك إلا التحدث إليه لكي يوافق على خروج ابنته للعشاء في يوم قرب موعده، لتمضي طيلة السماء بعيدة عنه. أما ذهابه هو نفسه، فلم تكن «إمَّا» تود أن تفكر في احتمال حدوثه. فقد يطول الوقت كثيرًا بالجماعة، فضلًا عن أن الجماعة سوف يكون عددها كبيرًا.

وسرعان ما استسلم «مستر وودهاوس» وهو يقول: «إني لست مولعًا بدعوات العشاء، ولم أكن مغرمًا بها يومًا، وكذلك «إمَّا» فهي لا تقل عني في ذلك. فالسهر لا يوافقنا، ويؤسفني أن أرى «مستر كول» وزوجته يقومان بما يقومان به، وأظن أنه كان أحرى بهما لو حضرا في مساء أحد الأيام، في الصيف القادم، لتناول الشاي معنا، ثم يصحبانا معهما في نزهتهما المسائية، فهذا في ميسورهما ولا شك، فهو وقت معقول، ويمكننا أن نعود بعده جميعًا دون التعرض لرطوبة المساء، فأنا لا أسمح بأن أعرض أحدًا للندى الذي ينتشر في امسيات الصيف. ومع ذلك فما دامت لهما رغبة شديدة في أن تتناول عزيزتي «إمَّا» العشاء عندهما، وبما أنكما ستكونان هناك، وكذلك «مستر نيتلي» لترعوها، فإني لا أحب أن أمَنعها، على شرط أن يكون الطقس على ما ينبغي، لا هو بالرطب، ولا هو بالبارد، ولا هو شديد الريح» ثم استدار إلى «مسز وستن» ونظر إليها نظرة فيها تأنيب رقيق وقال: «آه يا مس «تيلور»، لو أنك لم تتزوجي لكنت مكثت معي في المنزل».

وصاح «مستر وستن» قائلًا: «أجل يا سيدي، وبما أني أخذت «مس تيلور»، فمن واجبي أن آتي بمن يقوم مقامها إذا أمكنني ذلك، وسأذهب إلى «مسز جدرد» في خلال لحظة واحدة إذا رغبت».

على أن فكرة عمل أي شيء في خلال لحظة واحدة، لم تقلل من أثر ما كان عليه «مستروودهاوس» من اضطراب، بل زادته. ولكن السيدات كن أدرى بما يخفف من اضطرابه، فقد كان لا بد أن يتوقف «مستر وستن» عن الكلام حتى يمكن ترتيب كل شيء في تؤدة وعناية.
وبهذه الطريقة أمكن تهدئة «مستر وودهاوس» بسرعة إلى درجة كافية سمحت له بالعودة إلى الحديث كعادته.
قال: «إنه ليسعده أن يرى «مسز جدرد» فهو يقدرها كثيرًا، ولا بد أن تبعث لها «إمَّا» بكلمة تدعوها فيها، ويمكن «جيمز» أن يقوم بتوصيل الرسالة، ولكن لا بد قبل كل شيء إن يرسل رد إلى «مسز كول» على دعوتها، ثم استطرد: «اجعلي يا عزيزتي اعتذاري على قدر ما تستطيعين من عبارة مهذبة!! قولي إني مريض، وإنني لا أذهب إلى أي مكان، مما يضطرني إلى الاعتذار عن قبول دعوتهم الكريمة، ثم لا شك أنك ستصدرين الرسالة بتحياتي ومع ذلك فأنت تقومين بكل شيء على خير ما يرام، ولا أراني في حاجة إلى أن أقول لك ما يجب أن تفعليه، ثم لا بد لنا أن نتذكر إبلاغ «جيمز» بأننا سنحتاج إلى العربة يوم الثلاثاء، فلن أخشى شيئًا وأنت في رعايته. إننا لم نذهب إلى هناك أكثر من مرة
منذ أن عُبِّد الطريق الجديد، ولكني رغم هذا لا أشك في أن «جيمز» سيوصلك في سلام، وعندما تصلين يجب أن تخبريه عن موعد عودته إليك ثانية، ويحسن أن تحددي له ساعة مبكرة، فأنت لا تحبين المكث إلى ساعة متأخرة، وستشعرين بالتعب الشديد عند الفراغ من تناول الشاي».
«ولكنك لا تود أن أعود قبل أن أشعر بالتعب يا أبتي».
«لا حبيبتي، ولكنك سوف تتعبين سريعًا، وسوف يكون هناك عدد كبير يتحدثون في آن واحد، وأنت لا تروق لك الضوضاء.
وصاح «مستر وستن» قائلًا: «ولكن يا سيدي العزيز، لو أن «إمَّا» بكّرت بالخروج، فان الجماعة سينفرط عقدها».
«ورد عليه «مستر وودهاوس»: لن يكون هناك ضرر جسيم لو حدث هذا، فكلما انفض الاجتماع سريعًا كان ذلك أفضل».
«ولكنك لا تقدِّر أثر هذا في نظرة أسرة «كول» وقد يكون في خروج «إمَّا» عقب تناول الشاي مباشرة إهانة لهم، وهم أناس طيبو القلب، ليس لهم ما يعتزون به، ولكنهم على الرغم من ذ لك لابد أن يشعروا بأن مبادرة أي شخص بالخروج ليس فيه تكريم كبير لهم، وقيام «مس وودهاوس» بهذا العمل سيجعلهم يفكرون في هذا أكثر مما لو قام به أي شخص آخر من الحاضرين، وأعتقد يا سيدي أنه لا يرضيك أن تخيب أمل أسرة «كول» أو تجرح شعورها، وهم من أكرم الناس وأكثرهم مودة، وقد لبثوا سنوات عشر، وهم جيرانك».
«قطعًا لا، مهما كانت الأسباب!! وإني لشاكر لك كثيرًا يا «مستر وستن» أن تِلفت نِظري إلىِ ذلكِ، ويحزنني ولا شك أن ألحق بهم أي شيء قد يسبب لهم

ألمًا، وأنا أعلم بأنهم أناس لهم منزلتهم، وقد قال لي «بري» أن «مستر كول» لا يمس الجعة قط، وأنه لا يظن أنها تستهويه، ولكنه مريض بالمرارة وهو يشكو منها كثيرًا، لا، لن أرضى أن أكون سببًا في ألم يلحق بهم، وواجبنا يا عزيزتي «إمَّا» أن نقدِّر هذا، وأعتقد أن الأفضل منعًا للمخاطرة بإلحاق الألم بمستر «كول» وزوجته أن تطيلي المكث بعض الشيء أكثر مما قد ترغبين فيه، فلا تصغي في ذهنك أنك ستتعبين، لأنك ستكونين في أمان تام كما تعلمين وأنت بين أصدقائك».

«أجل يا والدي، ولست أخشى شيئًا من هذا على نفسي أبدًا، ولن أتردد في التأخر بقدر ما تتأخر «مسز وستن» إلا من أجلك، ولست أخشى إلا سهرك من أجلي، وإن كنت مطمئنة إلى أنك سوف تشعر بمنتهى الراحة مع «مسز جُدرد»، وأنت تعلم أنها تهوى لعب الورق، ولكني أخاف إذا ما ذهبت إلى بيتها، أن تسهر وأنت بمفردك بدلًا من أن تذهب إلى فراشك في وقتك الذي اعتدته، إن هذه الفكرة سوف تعكر عليّ صفوي، فلا بد إذن من أن تعدني بأنك لن تسهر».

ووعدها بذلك، على أن تأخذ هي من جانبها على نفسها بعض العهود، كتأكدها من تدفئة نفسها تمامًا إذا شعرت بالبرد عند عودتها، وأن تأكل شيئًا من الطعام إذا أحست بالجوع، وأن تسهر خادمتها في انتظارها،

وأن يستوثق كل من «سِرْل» والخادم المنوط بالطعام والشراب من أن كل ما في البيت، في حِرز أمين كما هي العادة.

وعاد «فرانك تشرشل» مرة أخرى. وإذا كان قد تسبب في تأخر موعد تناول العشاء في بيت أبيه فقد ظل هذا خافيًا على أهل «هارتفيلد»، فقد كانت «مسز وستون» شديدة الرغبة في أن يكون من المقربين عند مستر «وودهاوس» إلى حد أنها كانت لا تكشف لهم عن نقيصة من نقائصه كان يمكن اخفاؤها.

لقد عاد بعد أن قص شعره وأخذ يضحك من نفسه في رشاقة دون أن يبدو عليه ما يدل على خجله من فعلته، فلم يكن لديه من سبب يجعله يطيل شعره ليخفي أي ارتباك قد يظهر على وجهه، ولا من سبب يدعوه إلى أن يمسك يده ويحتفظ بنقوده ليرفع من حيويته. لقد بدا غير هياب وعلى جانب كبير من المرح.

وانطلقت «إمَّا» بعد أن رأته تفكر في الفارق بين ما هو خطأ وما هو صواب، وتُسر إلى نفسها: «لست أدري إن كان هذا هو الذي يجب أن يكون، ولكن من المؤكد أن السخافات تتجرد من صفة السخف إن هي صدرت من العقلاء في غير استحياء. إن فمل الشر يكون على الدوام شرًا، أما السخف فلا يكون دائمًا سخفًا، وأنما يتوقف ذلك على أخلاق من يصدر عنه - إنه يا مستر «نيتلي» ليس بالشاب التافه السخيف، ولو كان كما تقول لسلك مسلكًا غير هذا، وإذن لكان أحد شيئين، إما مزهوًا بعمله أو متواريًا من خجله، ولن يعدو في هذه الحالة أن يكون عمله أحد أمرين، أما زهو المتحذلق المعجب بنفسه أو تحايل ضعاف العقول حين يتسترون على ما فيهم من غرور. بل أني لواثقة تمام الثقة أنه ليس بالتافه ولا بالسخيف».

وجاء يوم التلاثاء وجاء معه الأمل المحبب برؤيته ثانية ولمدة أطول مما سبق حتى الآن، حتى يمكنها أن تحكم على سلوكه العام وأن تستنتج من ذلك ما يرمي إليه من سلوكه الخاص نحوها، ثم تحاول أن تقرر بعدها متى تشيع البرودة في تصرفها معه، وتتخيل ما قد يكون من ملاحظات لأولئك الذين يرونهما الآن لأول مرة مع بعضهما.

واستقر رأيها على أن تغترف من البهجة أقصاها على الرغم من أن الحفل كان في بيت «مسز كول» وعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تنسى أن من بين

نقائص «مستر ألتن» حتى وقت أن كان مقربًا عندها، أنه لم يكن يقلقها منه أكثر من ميله إلى تناول العشاء مع «مستر كول».
وانتهت الترتيبات التي تكفل راحة «مستر وودهاوس»، وتمكنت كل من «مسز بيتس» و «مسز جدرد» من الحضور، وكان أسعد واجبات «إمَّا» قبل أن تغادر المنزل إلى الحفل، ما قامت به من مظاهر الحفاوة والتكريم نحوهما وهما تجلسان إلى والدها بعد العشاء، وبينما كان والدها ينظر في إعجاب إلى جمال ردائها، كانت مشغولة بتقديم شطائر سخية من الكعك وأكواب مليئة من النبيذ إلى السيدتين رغبة منها أن تعوض عليهما أي تمنع عن الأكل مجاراة لأبيها في حرصه على صحته. وهكذا قدمت لهما وجبة سخية، وودت لو علمت بأنهما تمكنتا من أكلها.
وسارت عربتها خلف عربة أخرى كانت في طريقها إلى بيت «مستر كول» وسرّها أن رأتها عربة «مستر نيتلي»، وهو الذي لا يقتني الخيل ولا يملك من فائض المال إلا قليلًا، ويميل في رأي «إمَّا» لما كان عليه من صحة ونشاط واستقلال إلى السير على قدميه والاستغناء عن استخدام عربته مما لا يليق بصاحب «أبرشية دونول». وقد سنحت الفرصة لها الآن لتعبّر عن رضاها من قرارة قلبها قبل مضي وقت، فقد توقف ليأخذ بيدها في النزول من العربة.
وقالت له: «إنه خليق بك أن تأتي بهذا الطريقة على نحو ما يفعل السادة، وإني لسعيدة برؤياك».
وشكرها قائلًا: «ما أسعدني حظًا أن كان وصولنا في نفس اللحظة، فلو أن أول لقائنا كان في حجرة الاستقبال لاعتراني الشك في أنك كنت سترينني على غير عادتي على نحو ما رأيتينني أدنى إلى أن أكون من السادة، وربما غاب عنك أن تتعرفي من هيأتي وحركاتي على الطريقة التي أتيت بها».
«لا، بل كنت لا بد مدركة ذلك، وأنا واثقة من هذا، إذ يحدث دائمًا لمن يأتون بطريقة يعلمون أنها لا تليق بهم أن يفضحهم مظهرهم، فيبدون وقد أحسوا في داخل نفسهم بأنهم قد أتوا عملًا لا يتفق وكرامتهم، وأعتقد أنه يخيل إليك بأنك قادر على حسن السبك، ولكن ذلك وهم منك بل أني ألحظ ذلك عليك دائمًا كلما قابلتك في مثل هذه المناسبات، أما الآن فليس أمامك ما تحاول أن تخفيه، فأنت لا تخشى أن يُظن فيك ما يخجلك، ولن تجهد نفسك كي تبدو أطول قامة من غيرك. وإنه ليسعدني الآن حقًا أن أدخل نفس الحجرة معك».
وأجابها وهو أبعد ما يكون عن الغضب: «إنك فتاة تتحدثين هراء».
وصادف «إمَّا» ما أرضاها، سواء من «مستر نيتلي» أو من بقية الجمع، فقد استقبلت باحترام قلبي لا يمكن إلا أن يدخل السرور على قلبها ولا يترتب عليه إلا كل ما كانت تصبو إليه، وعندما أقبلت «أسرة وستن»، غمرها كل من الزوج والزوجة بأرق مظاهر الحب وعظيم الإعجاب، واقترب منها الابن في شوق ووجه مشرق، جعلها تبدو كما لو كانت هدفه ومحط اهتمامه، ثم وجدته وقت العشاء يجلس بجوارها، ولم يخل هذا من مهارة تأكدتها من جانبه.

وكانت الجماعة تضم عددًا كبيرًا، فقد اشتملت كذلك على أسرة ريفية طيبة لا اعتراض عليها، كان لأسرة «كول» شرف ضمها إلى عداد معارفها، وعلى الرجال من أفراد أسرة «مستر كوكس»، وهو يعمل محاميًا في «هايبري». أما السيدات اللائي كن أقل منزلة، فكان موعد حضورهن في ساعة متأخرة من المساء، وكان من بينهن «مس بيتس» و«مس فيرفاكس» و«مس سمث».
ومع ذلك فقد كان عدد الحاضرين على العشاء أكثر من أن يسمح بتناول أي موضوع عام، وعندما أخذوا يتحدثون عن السياسة، وعن «مستر ألتن»، ألفت «إمَّا» نفسها عاجزة عن توجيه كل انتباهها إلى ما كان جارها يحبوها به من ظرف ومجاملة. وكان أول صوت يصل إليها عن بُعد وتشعر برغبة ملحّة في الإنصات إليه، هو اسم «جين فيرفاكس»، فقد بدا لها أن «مسز كول» كانت تتحدث عنها وأن حديثها سيكون شيقًا ومما يستحب الاستماع إليه جيدًا، واستمعت إليه بالفعل فوجدته جديرًا بالإصغاء بما أشبع خيال «إمَّا»، وهو أبرز ما كان فيها. كانت «مسز كول» تقول إنها كانت في زيارة «لمس بيتس»، وما أن دخلت الحجرة حتى أدهشتها رؤية «بيانو» غاية في الجمال، ولم يكن بالبيانو «الجراندي» ولكنه كان مع ذلك ذا حجم كبير ومربع.
ودل موضوع القصة وآخر ما انتهى إليه الحديث ما بين دهشة وأسئلة وتهنئة من جانبها، وتوضيح من جانب «مس بيتس» على أن «البيانو» كان قد وصل من متجر«برود وود» في اليوم السابق، وعلى غير انتظار، مما كان موضع دهشة الفتاة وخالتها على السواء، وإن «جين» نفسها، كما روت «مس بيتس»، كانت في حيرة من امره وارتبك تفكيرها فيمن يكون الذي أمر بإرسال البيانو، ولكنهما الآن اقتنعتا تمامًا بأنه مُرسل من ناحية لا يوجد سواها، فهو لا بد أن يكون من «المقدم كامبيل».
وزادت «مسز كول» على ذ لك قولها: «لا يمكن أن يظن أحد شيئًا غير هذا، والذي يدهشني هو أن يكون هناك أدنى شك في ذلك، ولكن يبدو أن «جين» قد وصلها منهم مؤخرًا خطاب وليس فيه كلمة عن البيانو، على أنها خير من يعلم أساليبهم، وأنا لا أعتبر سكوتهم عن ذكره دليلًا على أنهم لم يفكروا في تقديم الهدية، بل لعلهم اختاروا أن يجعلوا منها مفاجأة لها».
وأقرها الكثيرون من الحاضرين على ما قالته، وأيقن كل من اشترك منهم في الحديث في هذا الموضوع، بأن هذا البيانو قد أتى من المقدم «كامبيل»، وسرّهم جميعًا أن تقدم لها مثل هذ ه الهدية، وكثر عدد المقبلين على الحديث، مما أتاح «لإمَّا» فرصة التفكير مع استمرارها في الإصغاء إلى «مسز كول» وهي تستطرد فتقول:
«وأصرح لكم بأني لا أذكر وقتًا وصل فيه إلى سمعي خبر كان له وقع في نفسي أحسن من هذا، فلقد آلمني دائمًا أن أرى «مس جين فيرفاكس»، وهي التي تبدع في العزف، وليس لها معزف، لقد كان هذا من المخجل حقًا، وخاصةِ إذا راعينا أِن بيوتًا عديدة لها معازف جميلة مهملة لا يلتفت إليها، وأؤكد

لكم بأن هذا كان أشبه بصفحة على وجوهنا جميعًا، وبالأمس فقط كنت أقول «لمستر كول» وأنا أنظر إلى معزفنا «الجراند» الجديد في حجرة الاستقبال، إنني لا أكاد أميز بين لحن ولحن، وكذلك بناتنا الصغيرات المبتدئات في العزف، قد لا يستعملنه أبدًا، بينما «جين فيرفاكس» البائسة، التي وصلت في الموسيقى إلى قمة المجد لا تملك شيئًا يصح أن يوصف بأنه آلة للعزف، حتى ولو كانت «الأسبينت» تلك الآلة التي عفا الزمان عليها، لكن تتسلى بها. هذا ما كنت أقوله «لمستر كول» بالأمس، ووافقني عليه، وهو شديد الولع بالموسيقى خاصة، حتى أنه لم يتردد في شراء معزفنا على أمل أن بعض جيراننا الطيبين قد يتكرمون علينا أحيانًا بعزف يكون أشجى مما في وسعنا، بل هذا هو السبب الحقيقي في ابتياعه، وأعتقد أنه لولا ذلك، لكان وجوده عندنا موجبًا للخجل، وأملنا كبير أن تستجيب «مس وودهاوس» لرجائنا فتجربه هذا المساء».

واستجابت «مس وودهاوس» لما طلب منها. ولما لم تجد «إمَّا» مزيدًا من الأخبار يمكن أن تظفر بها من «مس كول» التفتت إلى مستر «فرانك تشرشل» وقالت: «لماذا تبتسم؟».

«ولماذا تبتسمين أنت؟» «أنا؟ أظن أني أبتسم لسروري بأن المقدم «كامبيل» على مثل هذا الثراء وله مثل هذا الكرم، إنها لهدية جميلة حقًا».

«جدًا».

«بل أني لأعجب أنه لم يقدم هذه الهدية من قبل».

«لعل مس «فيرفاكس» لم تطل مدة إقامتها هنا بهذا القدر من قبل».

«أو أنه لم يترك لها فرصة استعمال معزفهم الذي لا بد وأن يكون حبيسًا الآن في لندن، لا يمسه أحد».

«إنه «بيانو» جراند، وربما رآه كبيرًا جدًا لا يتسع له بيت «مسز بيتس»».

«من حقك أن تقول ما تشاء، ولكن ملامحك تدل على أن أفكارك في هذا الموضوع شبيهة بأفكاري».

«لست أدري، بل أني لأميل إلى الاعتقاد بأنك تُضفين عليّ من دقة الحكم أكثر مما استحق، وأنا أبتسم لأنك تبتسمين وقد أتشكك في أي شيء تتشككين فيه، ولكني لا أرى الآن ثمة ما يدعو إلى التشكك، فإذا لم يكن هو المقدم «كامبيل» فمن عساه أن يكون؟».

«وما قولك في مسز دكسون؟».

«عجبًا، مسز دكسون»!! إنه رأي في منتهى الصواب ولا ريب، إن ذهني لم ينصرف إلى «مسز دكسون» إطلاقًا، إنها لا بد تعلم كما يعلم والدها ماذا يلقاه مثل هذا البيانو من قبول لديها، بل أن ما يكتنف طريقة إرساله من غموض وما ينطوي عليه من مفاجأة يجعلها أقرب أن تكون خطة شابة منها خطة رجل مُسِن. إنها «مسز دكسون» فيما أظن، ألم أخبرك أنني سأنساق وراء ظنونك؟».

«إذا كان الأمركذلك، وجب عليك أن تفسح المجال لظنونك وأن تجعل من بينها «مستر دكسون» كذلك».
«أجل، «مستر دكسون»: حسن جدًا، ولقد بدأت أتبين الآن أن الهدية آتية من «مستر دكسون « وزوجته معًا، وقد كنا نتحدث يومًا كما تعلمين عن تحمسه وإعجابه بعزفها».
«أجل، فإن ما أدليت به إليّ في ذلك الأمر، أكد لي فكرة راودتني من قبل، ولست أريد أن أتعرّض لحسن نوايا «مستر دكسون» أو «مس فيرفاكس»، ولكني لا أتمالك نفسي من الشك في أحد أمرين، فأما أنه بعد أن تقدم يطلب يد صديقتها أوقعه سوء الطالع في شراك حبها، أو أنه أحس بميل منها إليه. والظنون قد تصل بالإنسان إلى ما يبلغ العشسرين ثم لا يتحقق منها ظن واحد، ولكني أؤكد بأنه لا بد من وجود سبب معين لاختيارها المجيء إلى «هايبري» بدلًا من الذهاب مع أسرة «كامبيل» إلى أيرلندا، مع إنها هنا لا بد أن تعيش عيشة الحرمان والتكفير، بينما الحياة هناك بها كل المتع، أمَّا الادعاء بتجربة هواء الموطن الذي نشأت فيه، فإني أعتبره مجرد ستار وتلمس للأعذار، وقد يكون هذا معقولًا وقت الصيف، ولكن ماذا عسى أن يفعل هواء الموطن لأي إنسان في شهور يناير وفبراير ومارس؟ فمواقد الدفء الجيدة والعربات أوفى بالغرض في معظم حالات اعتلال الصحة، وعلى الأخص في حالتها، ولست أريد منك أن تقتدي بي فيما يخامرني من الظنون على الرغم من أنك تعترف في نبل أنك تفعل ذلك. ولكني مخلصة فيما أدلي به إليك من ظنوني».
«إني أقول لك جازمًا أن ظنونك تنبئ عن احتمال كبير، ويمكنني أنا أقول أن تفضيل «مستر دكسون» لها على صديقتها في العزف هو شيء مؤكد لا يحتمل التأويل».
«ثم هو قد أنقذ حياتها، هل علمت بذلك؟ لقد كانت بين جماعة في نزهة بحرية، وحدث أن كادت تسقط من فوق السفينة، فأمسك بها وأنقذها».
نعم فعل هذا، وقد كنت واحدًا من الجماعة».
«أحقًا كنت معهم؟ حسنًا!! ولكنك بطبيعة الحال لم تلحظ شيئًا، فهي فكرة جديدة عليك، وأظن أنني لو كنت هناك لاكتشفت بعض أشياء».
«أعتقد هذا، ولكني وأنا الشخص البسيط لم أر شيئًا إلا أن «مس فيرفاكس» أوشكت أن تهوى من السفينة، وأن مستر «دكسون» أمسك بها. تم كل هذا في لحظة، وعلى الرغم من أن الصدمة والفزع اللذين نجما عن هذا الحادث بالغين وامتد أثرهما وقتًا طويلًا، بل أني لأعتقد أنه لم يتيسر لأحد منا أن يسترجع هدوءه وسكينته قبل مضي نصف ساعة، فقد كان هذا الحادث مثيرًا للجميع إلى درجة شغلتهم عن ملاحظة أي شيء له أهمية خاصة، ولست أعني بهذا أن أقول أنك ما كنت توفقين إلى استشفاف شيء من وراء هذا الحادث».
وانقطع الحديث عندما طُلب إليهما أن يشاركا الجماعة، في الفترة المملة الطويلة التي تتخلله أصناف الطعام، مما اضطرهما إلى مراعاة الرسميات

والنظام كالآخرين، ولكن عندما أصبحت المائدة حافلة مرة أخرى بأنواع الطعام، ووضعت الصحون في مواضعها الدقيقة فوق المائدة، وانشغل كل واحد بتناول طعامه في يُسر، قالت «إمَّا»:

«إن وصول «البيانو» قد أوضح لي كل شيء، لقد كنت أريد معرفة المزيد، ولكني وجدت في هذا ما فيه الكفاية، وكن واثقًا بأننا سنسمع عما قريب بأنه هدية من « مستر ومسز دكسون».

«وإن هما أنكرا بالكلية أي علم لهما به، كان علينا أن نستنتج أنه آت من قِبل أسرة «كامبيل».

«لا، فأنا واثقة من أنه لم يأت من قبل بيت «كامبيل» و «مس فيرفاكس» نفسها تعلم أنه ليس من عندهم، وإلا كانوا أول من يتجه الظن إليهم وما كانت تشعر بالحيرة لو أنها ركزت تفكيرها فيهم. لعلي لم أتمكن من إقناعك، ولكني أنا شخصيًا مقتنعة كل الاقتناع بأن «مستر دكسون» عامل أساسي في هذه العملية».

«إنك حقًا تؤلمينني إذا ظننت بأني غير مقتنع، فان منطقك يجعل حكمي متمشيًا مع حكمك تمامًا، فعندما ظننت أول الأمر أنك مقتنعة بأن المقدم «كامبيل» هو صاحب هذه الهدية، أخذت الأمر على أنه مجرد حنان أبوي لا يعدو أن يكون شيئًا طبيعيًا، ولكنك عندما ذكرت «مسز دكسون» أحسست بأن ذلك أقرب إلى الاحتمال وأنه دليل على الصداقة الحارة من الجنس اللطيف، وأنا لا أراه الآن إلا هبة أساسها الحب».

ولم تسمح الظروف بالاسترسال في هذا الحديث، وكأنما الاقناع قد أثمر، فقد بدا «فرانك» وكأنه قد اقتنع، فاكتفت «إمَّا» بما قالت.

وتحوّل مجرى الحديث إلى مواضيع أخرى. وقُدمت الحلوى بعد تناول العشاء، ودخل الأطفال، وتجاذب الضيوف معهم الحديث، وأعجبوا بهم، وسط ما كان يدور من حديث عادي، جرى خلاله قليل مما يتسم بالذكاء، وكثير مما يبرهن على مطلق الغباء. ولكن أكثر ما قيل، كان بين هذا وذاك، فهو إما كان يدور حول ما يحدث كل يوم، وإما كان تكرارًا مملًا، أو أخبارًا عفا عليها الزمن، أو فكاهات ثقيلة على النفس.

ولم يطل مكث السيدات بحجرة الاستقبال، حتى أقبلت السيدات الأخريات بمجموعاتهن المختلفة، وراقبت «إمَّا» دخول صديقتها الحميمة الصغيرة. وإذا كانت لم تجد في وقارها وجلالها ما يملأ قلبها سرورًا، فقد وجدت في نضارتها وحركاتها غير المتكلفة ما ابتهجت له نفسها، وفاض قلبها سرورًا بما كان عليه مسلكها من رقة وبشر وعدم استسلام للعاطفة، مما أعانها على أن تجد ما يسرّي عنها من آلام الإخفاق في الحب. وها هي قد جلست هناك – من ذا الذي يتكهن بما سكبت مآقيها من دموع في الأيام الأخيرة؟ ومع ذلك فكفاها سرورًا في هذه الساعة أن تكون الآن في خير حللها وسط سيدات أخريات يرتدين حللًا فاخرة، وأن تجلس معهن تبتسم وتبدو جميلة، ولا تقول شيئًا. أما «جين

فيرفاكس» فكانت تبدو متفوقة في مظهرها وحركاتها - ولكن الشك داخل «إمَّا» في أنه كان يسعدها في تلك اللحظة أن تستبدل بمشاعرها مشاعر «هاريت» فتأخذ منها ما كانت تحس به من آلام الحب الفشل، أجل، حتى ولو كان هذا الحب هو حب «مستر ألتن» الذي ذهب هباء، وتتنازل لها عن سعادة محفوفة بالأخطار تنجم عن علمها بأن زوج صديقتها يحبها.

وفي حفل كبير كهذا، لم يكن من الضروري أن تتصل بها «إمَّا» أو تتحدث إليها، ولم تكن «إمَّا» فوق ذلك تريد التحدث عن «البيانو» فلقد أحسّت بأن لها من العلم بسِّره ما يجعل أي مظهر من مظاهر حب الاستطلاع أو الشغف بالاستماع إلى حديثه، لا يتفق ومقتضيات العدل.

ولكن الآخرين لم يلبثوا أن تناولوا الموضوع بالحديث ثانية، ورأت ما انطبع على وجه «مس فيرفاكس»، وهم يهنئونها، من حمرة الخجل ووخز الضمير، والشعور بالإثم التي اقترنت بعبارتها وهي تقول: «صديقي الحميم المقدم كامبيل».

وكان الموضوع مثار اهتمام «مسز وستن» خاصة وهي الموسيقية ذات القلب الرحيم، ولم يسع «إمَّا» إلا أن تشعر بشيء من التسلية وهي تراها تواصل الحديث في هذا الموضوع، وتكثر من التساؤل والقول، فيما له صلة بالنغم واللمس والدؤاسة، دون مراعاة لما رأته واضحًا على محيا بطلتنا الحسناء من رغبة في الإقلال من هذا الحديث قدر المستطاع.

وسرعان ما لحق بهن بعض السادة، وكان من أوائل المبكرين بالدخول «فرانك تشرشل»، فلقد دخل عليهن فكان أول الداخلين وأبهاهم طلعة، وبعد أن حيا «مس بيتس» وابنة أختها عرضًا، قصد إلى الناحية المقابلة للحلقة، حديث جلست «مس وودهاوس»، ولم يجلس حتى عثر على مقعد بجوارها.

وأخذت «إمَّا» تتكهن بما يجول بخاطر جميع الحاضرين، فلقد كانت هدفه المقصود، وبدا ذلك واضحًا لكل ذي عينين. وقدمته «إمَّا» إلى صديقتها، «مس سمث»، وسمعت في اللحظات المناسبة بعد ذلك، ما كان يجول بخاطر كل منهما عن الآخر - أما هو فقد قال: «إنه لم ير قط وجهًا بهذا الجمال، وإنه يعجبه منها ما هي عليه من عدم الكلفة - أما هي فقد قالت: «الواقع أنها قد تكون مبالغة منها في مديحه، أن تقول إن فيه من الملامح ما يشبه ملامح «مستر ألتن» ولكن بينهما شبهًا على كل حال».

وكظمت «إمَّا» غيظها واكتفت بأن أعرضت عنها في سكون وتبودلت بينها وبين السيد بطل الحديث، ابتسامات ذات معان عندما اتجهت أنظارهما لأول مرة نحو «مس فيرفاكس» ولكن رأت من الحكمة أن تتجنب الحديث. لقد قال لها، إنه كان متلهفًا على مغادرة حجرة الطعام، فهو يكره طول الجلوس فيها، وإنه كان أول من خرج عندما تيسر له ذلك، وأن والده ومستر «نيتلي» ومستر «كوكس» ومستر «كول» لا يزالون منهمكين هناك في الحديث في شؤون «الأبرشية»، وأنه سرّ كثيرًا طول مدة وجوده معهم لما رآه فيهم بوجه عام من

أنهم مجموعة من الرجال العقلاء وأشبه بالسادة في سلوكهم، ثم تناول «هايبري» بالثناء من كل وجه، فقال إنه وجد فيها عددًا كبيرًا من الأسر الكريمة، حتى بدأت «إمَّا» تشعر بأنها كانت تغالي في تحقيرها للقرية، وسألته عن المجتمع في «يوركشير»، وعن أطراف الجهة التي لها صلة بأنسكومب، ومن أي طبقة هم. وأمكنها أن تستنتج من إجابته أن التزاور في «أنسكومب» قليل جدًا، وأن زياراتهم قاصرة على مجموعة من البيوتات، لا يوجد منها ما هو قريب منهم، وأنه حتى عندما تحدد مواعيد الزيارات وتقبل الدعوات، تشاء الصدف أن تعتل صحة «مسز تشرشل» أو ينحرف مزاجها فلا تقوى على الذهاب، وأنهم قرروا فضلًا عن ذلك ألا يتزاوروا مع أشخاص جُدد، وأنه على الرغم من أن له مواعيده وارتباطاته الخاصة، كان لا يستطيع تلبيتها دون عناء كبير، وأنه كان أحيانًا يصعب عليه أن يخرج أو يأتي بأحد معارفه في بعض الليالي.

وتبينت «إمَّا» أن «أنسكومب» لا ترضي مزاج شاب يلوذ بيته أكثر مما يجب على خلاف «هايبري» وهي في أحسن حللها. وكان واضحًا كل الوضوح أن له في «أنسكومب» منزلة عالية، فقد كشفت منزلته فيها عن نفسها دون أن يبدو منه تظاهر بها، وكان ينجح في إقناع زوجة خاله فيما عجز عنه خاله نفسه - فلما ضحكت «إمَّا» لهذه الملاحظة قال إنه يعتقد (باستثناء موضوع أو موضوعين) أنه سوف يستطيع بمرور الأيام أن يقنعها بأي بشيء يريده، واستطرد بعد ذلك بذكر هذين الموضوعين اللذين فشل فيهما، فقد كان يتوق إلى مغادرة البلاد، ويتلهف على السماح له بالسفر، ولكنها لم تطق سماع شيء من ذلك – كان هذا في العام الماضي ثم يقول: أما الآن لا يبدو ميالًا إلى شيء من ذلك.

« أما الناحية الأخرى التي لم يذكرها فكانت كما راود خيال «إمَّا» رغبته في أن يسلك سلوكًا مرضيًا نحو أبيه.

وقال بعد أن توقف قليلًا: «لقد اكتشفت شيئًا مؤسفًا للغاية، هو أنني سأكون باكرًا قد أمضيت هنا أسبوعًا بأكمله وهو نصف ما حددته لي «مسز تشرشل» من الوقت، وما كنت أدري أبدًا أن الأيام سوف تمر بمثل هذه السرعة، عجبًا!! سيكتمل الأسبوع في الغد، وأنا لم أكد أبدأ بالشعور بالمتعة بعد، ولم أكد أتعرف «بمستر وستن» وآخرين غيرها، إني لأكره أن أفكر في ذلك».

«ولعلك بدأت تأسف الآن على قضاء يوم بأكمله، من هذه الأيام القليلة، في قص شعرك».

وقال مبتسمًا: «لا، فليس هذا مما يوجب الأسف إطلاقًا فأنا لا أحب أن أرى أصدقائي إلا وأنا واثق من أنني جدير بأن يروني ».

ووجدت «إمَّا» نفسها، وقد حضر بقية السادة الى الحجرة، مضطرة إلى الانصراف عنه بعض الوقت، والاستماع إلى ما يقوله «مستر كول» فلما ابتعد «مستر كول»، وأصبح في وسعها أن تعاود انتباهها إليه، أبصرت «فرانك

تشرشل» يمعن النظرعبر الحجرة في «مس فيرفاكس» التي كانت جالسة في مواجهته تمامًا.
قالت له: «ما ا الخبر؟ ».
واعتراه شعور بالفزع ثم أجابها: «أشكرك على إيقاظي وأعتقد أني لم أكن مهذبًا، ولكن حقيقة الأمر أن «مس فيرفاكس» قد صففت شعرها بطريقة غريبة، ولغرابتها كان من العسير على أن أغض طرفي عنها ولا أنظر إليها، والواقع أني ما رأيت شيئًا قد بولغ فيه مثل ذلك: مما أعجب تلك الخصل الملتوية!! إنها لا بد أن تكون من تصميم خيالها، فانا لا أرى مثيلها في واحدة أخرى. لا بد لي من التوجه إليها وسؤالها عما إذا كانت هذه «التسريحة » مودة أيرلندية، فهل تتوجه إليها؟ نعم سأتوجه، نعم إني فاعل ذلك لا محالة، وسترين كيف تتقبل ذلك مني وهل تحمر وجنتاها».
وذهب على الفور، وسرعان ما رأته «إمَّا» واقفًا أمام «مس فيرفاكس» يحدثها، ولكنها لم تستطع أن تتبين ما كان لحديثه من أثر على الفتاة وهي تتمتم:
«هذه هي نعمة من نعم الحفل الكبير، أن يدنو المرء ممن يريد، ويقول ما في جعبته، وإني يا عزيزتي «إمَّا» متشوقة إلى الكلام معك، فلقد كنت أقوم باكتشافات وأرسم الخطط تمامًا كما تفعلين، ولا بد لي من أن أرويها لك وهي لا تزال غضة، فهل تعلمين كيف جاءت «مس بيتس» وابنة أختها إلى هنا؟».
«كيف؟ إنهما دعيتا، أليس كذلك؟»
«أجل؟ ولكن كيف جيء بهما إلى هنا؟ طريقة مجيئهما؟».
«في استنتاجي أنهما جاءتا سيرًا على الأقدام، وما عساهما أن يفعلا غير ذلك؟».
«هذا صحيح، ولكنه خطر ببالي منذ فترة وجيزة كم يكون باعثًا على الأسى أن تُرى «جين فيرفاكس» ذاهبة إلى بيتها سيرًا على الأقدام بعد سهر طويل وفي مثل هذه الليلة الباردة. وعندما نظرت إليها أدهشني أنها على الرغم من أني لم أرها قبلًا بمثل هذا الجمال كان وجهها يبدو متوقدًا مما يجعلها عرضة للإصابة بالبرد بصفة خاصة. مسكينة هذه الفتاة، نعم فما كنت لأحتمل مجرد التفكير في ذلك، ولذا فما كاد يدخل «مستر وستن» الحجرة حتى كلمته عن العربة، وأترك لك التفكير كيف استجاب إلى رغبتي في الحال، وما أن أظهر موافقته حتى ذهبت فورًا إلى «مس بيتس» كي أؤكد لها بأن العربة ستكون تحت تصرفها قبل أن تذهب» بنا إلى بيتنا. فقد ظننت أن في هذا ما يكفل راحتها. ما أطيب هذه الفتاة!! كوني واثقة أنها شكرتني ما وسعها أن تشكر، وقالت «ما من أحد له مثل حظها» وظلت تقدم من الشكر أوفره، ثم قالت: «ليس هناك ما يدعو إلى مضايقتكم، فلقد أحضرتنا عربة «مستر نيتلي» وستعود بنا إلى منزلنا» ودهشت لذلك، بل أؤكد لك أن ذلك سرني كثيرًا، ولكن الدهشة تملكتني حِقا! إنها لرعاية كريمة جدًا من «مستر نيتلي» جاءت وليدة

تفكير سليم! وما أقل الرجال الذين يفكرون في مثل ذلك!! وقصارى القول، أنه يغلب على ظني بما أعلمه من نزعاته، أن عربته لم تستعمل إلا من أجل نقلهما، وأشك في أنه كان يود أن يقتني جوادين لنفسه، ولكنه فعل هذا تبريرًا لمعاونتهما».

وقالت «إمَّا»: «هذا قريب الاحتمال جدًا، بل لا شيء أقرب إلى الاحتمال منه، ولست أعرف رجلًا له ما «لمستر نيتلي» من خلق يدفعه إلى مثل هذا العمل، وإلى القيام بكل ما ينطوي على نبل ومنفعة وكرم ومراعاة لشعور الناس. إنه ليس ممن يظهرون الشهامة نحو النساء، ولكنه إنسان رحيم، ومراعاته لما عليه «جين فيرفاكس» من اعتلال الصحة ليس إلا نبعًا من فيض إنسانيته، بل لست أرى أحدًا مثل «مستر نيتلي» في بعده عن حب التظاهر بالشفقة، وأنا أعلم بأنه جاء اليوم في عربة لأننا وصلنا معًا، وقد أضحكني هذا منه، ولكنه لم يفه بكلمة تفصح عما في نيته».

وقالت «مسز وستن» وهي تبتسم: «أجل، إنك تضفين عليه في هذه الحالة من صفات التنزه عن الغرض في جوده أكثر مما أضفى عليه، ذلك لأن فكرة طرأت على ذهني وأنا أتحدث مع «مس بيتس» فأثارت الشك عندي، ولم أستطع أن أتخلى عنها من وقتها، وكلما فكرت فيها بدت لي قريبة الاحتمال، وقصارى القول لقد دبرت مشروع زيجة بين «مستر نيتلي» و«جين فيرفاكس»، أنظري هاك ما آل إليه أمري في صحبتك! في ما تقولين في هذا؟».

وقالت «إمَّا» متعجبة: ««مستر نيتلي» ومس «جين فيرفاكس»!! كيف تفكرين في ذلك يا عزيزتي «مسز وستن»؟!! «مستر نيتلي»!! لا، يجب ألا يتزوج «مستر نيتلي» فأنت لا تحبين أن تري «هنري»، الصغير يحرم من «رهبانية دونول» لا، لا بد أن تؤول «دونول إلى هنري»، ولن أوافق أبدًا على زواج «مستر نيتلي»، بل أنا موقنة بأن ذلك بعيد الاحتمال، ويدهشني أن تفكري في شيء كهذا».

وأنا لا أريد هذا الزواج، ولا أود أن ألحق الضرر بعزيزي الصغير «هنري» ولكنها الظروف هي التي أوحت إليّ بهذه الفكرة، وإذا صحّت عزيمة «مستر نيتلي» على الزواج، فأنك لن تثنيه عنه من أجل «هنري»، وهو صبي في السادسة من عمره ولا يدري من الأمر شيئًا».

«نعم سوف أثنيه، ولن أتحمل أن «هنري» يقتلعه غيره ليحل محله، عجبًا!! مستر «نيتلي» يتزوج!! لا، إن هذا لم يطرأ على فكري أبدًا، ولا يمكنني الآن أن أتبنى هذه الفكرة، والعجب أن تكون هذه الزوجة «جين فيرفاكس» من النساء قاطبة!!».

«بل، لقد كانت كما تعلمين جيدًا أولى المقربات إليه».

«ولكن ما أخرق أن تتم زيجة كهذه».

«إنني لا أتكلم عما تنطوي عليه من فطنة، إنما أردت أن أقول إنها محتملة».

«لست أرى أي احتمال لحدوثها إلا إذا كان لديك أساس أقوى مما ذكرتيه، إن دماثة خلقه، وحنانه، كما قلت لك، يكفيان ليجود على الناس باستعمال خيوله، وهو كما تعلمين، وبصرف النظر عن «جين فيرفاكس»، يقدّر أسرة «بيتس» عظيم التقدير، ويسعده دائمًا أن يشملها برعايته. خير لك أن تقلعي يا عزيزتي «مسز وستن» عن فكرة تدبير الزيجات، فأنت لا تحسنين ذلك، عجبًا!! أتصبح «جين فيرفاكس» سيدة «الأبرشية»! لا، لا، إن هذا يثير مشاعر الناس جميعًا، ولن أجعله يتمكن من القيام بعمل جنوني كهذا، مراعاة لصالحه».

«عفوًا، قد يكون عملًا أخرق، ولكنه غير جنوني، وإذا ما تجاوزنا عن عدم التكافؤ في الثراء، وعما قد يكون من فارق بسيط في العمر، فإني لا أرى فيه شيئًا من عدم الملاءمة».

«ولكن «مستر نيتلي» لا يريد أن يتزوج، وأنا واثقة بأنه ليس لديه أي تفكير في الزواج، فلا تضعي هذه الفكرة في رأسه ثم لماذا يتزوج؟ فهو أسعد ما يكون وهو بمفرده، وله ضيعته وغنمه ومكتبته، وكل الأبرشية تحت تصرفه، وهو مولع بأبناء أخيه، وإذن فليست به حاجة إلى الزواج، ليملأ فراغ وقته ولا ليملأ فراغ قلبه».

«عزيزتي «إمَّا»، طالما هذا تفكيره، فسيظل الحال على ما هو عليه. أما إذا كان يحب «جين فيرفاكس» حقيقة -».

«هذا هراء!، إن «جين فيرفاكس» ليس لها مكان في قلبه، وأنا واثقة من هذا، وهو لا يتأخر عن تقديم أية مساعدة لها أو لأسرتها، ولكن...».

وقالت «مسز وستن» ضاحكة: «أجل، و لعل أعظم خدمة يقدمها لهن، هي أن يهيء لجين مثل هذا البيت المحترم».

«إذ كان هذا في صالحها، فهو ولا شك «سيكون وبالًا عليه، وستكون زيجة تنقص من مكانته وتجلب عليه العار. كيف يتحمل انتماء «مس بيتس» إليه؟ وأن يراها تغشى الأبرشية لتقدم له الشكر طول النهار على تعطفه الكبير بالزواج من «جين» وهي تقول: «ما أكرمه، وما أوجب شكره!!».

ولكنه كان على الدوام جارًا عظيم الجنان!!؟ » ثم تنتقل من ذلك سريعًا ولا تكون قد استكملت بعد نصف الجملة لتتحدث عن قميص أمها العجوز وتقول: «إنه ليس قميصًا مهلهلًا لأنه لا يزال صالحًا للاستعمال وقتًا طويلًا، وأنها لا بد أن تكون شاكرة لأن ما لديهن من «قمصان في غاية المتانة».

«يا للعار يا «إمَّا»!! لا تسخري منها، إنك تؤلبينني على ضميري، وأؤكد لك بأني لا أظن أن «مستر نيتلي» سيناله حرج من «مس بيتس»، فضلًا عن أن هذه الهيئات لا تزعجه، وقد تسترسل في الكلام، فإذا أراد أن يقول شيئًا فما عليه إلا أن يرفع صوته على صوتها. وليست المشكلة في أنها ستكون زيجة غير موفقة، ولكنها في هل هو راغب فيها، وظني أنه كذلك، فلقد سمعته يشيد «بجين فيرفاكس»، ولا بد أنك سمعتيه يشيد بها، ثم اهتمامه بها وقلقه على

صحتها، وخوفه من ألا تكون في المستقبل أسعد حالًا. لقد سمعته وهو يتحدث بحماس عن كل ذلك، ثم ما أكثر إعجابه بعزفها على «البيانو» وبصوتها الرخيم!! فقد سمعته يقول إنه يستطيع الاستماع إليها فلا يمل سماعها، آه!! كدت أنسى فكرة جالت بخاطري. ذلك البيانو الذي أرسله إليها أحد الناس، ألا يكون من «مستر نيتلي»؟ وإذا كنا اقتنعنا جميعًا بأنه هدية من أسرة «كامبيل»، فإني لست أشك أبدًا في أنه هو الذي أرسله. أظنه هو وليس غيره، حتى دون أن يكون قد أحبها».

«إذن فلن يكون ذلك حجة على أنه يحب، ولكني لا أظن أنه يُقدم على شيء كهذا أبدًا، ومستر «نيتلي» لا يفعل شيئًا في الخفاء إطلاقًا».

«لقد سمعته يبدي أسفه على عدم وجود «بيانو» لديها، مرارًا وتكرارًا، بأكثر في ظني مما يحدث لو أن الأمور كانت عادية».

«حسن جدًا، ولو كان في عزمه أن يهدي إليها «البيانو» لأخبرها بذلك».

«قد تكون الكياسة حدت به إلى التردد في ذلك يا عزيزتي «إمَّا»، ولكني أحس إحساسًا قويًا بأن «البيانو» منه، وأعتقد أنه التزم الصمت بشكل واضح عندما كانت «مسز كول» تحدثنا عن «البيانو» وقت أن كنا نتناول العشاء».

«إنك يا «مسز وستن» تحتضنين فكرة ما، ثم تقتنعين بأنها حقيقة، وكثيرًا ما لمتيني من قبل على مثل ذلك، وإني لا أرى أية بادرة لتعلقه بها، ولا أؤمن بما قيل عن «البيانو»، ولن أقتنع بأن «مستر نيتلي» يفكر في الزواج بجين فيرفاكس إلا أن أرى برهانًا على ذلك».

«وطال الجدل بينهما حول تلك المسألة على هذا النحو، واستطاعت «إمَّا» أن تؤثر على صديقتها في النهاية، فقد كانت «مسز وستن» أكثر الاثنتين اعتيادًا على الاستسلام، ثم سرى في الحجرة شيء من الهرج تبين على أثره أن الجمع قد انتهى من تناول الشاي، وأن البيانو قد أصبح معدًّا، واقترب «مستر كول» في الوقت نفسه يرجو من «مس وودهاوس» أن تشرفهم بالعزف عليه، واقتدى به «فرانك تشرشل» وكانت قد شغلت عنه وقت انهماكها في الحديث مع «مسز وستن» فلم تر أكثر من أنه كان قد وجد لنفسه كرسيًا إلى جوار «مس فيرفاكس» وتقدم ليلح عليها في الرجاء. واستجابت «إمَّا» غير متبرمة، فقد كانت تود من كل الوجوه أن تكون في المقدّمة بين العازفات.

وكانت تعلم جيدًا حدود قدرتها، ومن ثم فلم تحاول عزف شيء يزيد على ما يمكنها أن تحسن أداءه، ولم يكن الحماس يعوزها ولا الذوق في اختيار ما ينال من الجميع استحسانًا، وكان صوتها مع الموسيقى في إحدى الأغنيات لا يقل روعة، مما أدهشها هي نفسها، كما شاركها «فرانك تشرشل» في أغنية أخرى فكان رقيقًا وإن لم يصل إلى مستواها. وما أن انتهت الأغنية حتى طلب منها الصفح وسارت الأمور في مجراها.

ولقد اتهمه الحاضرون بأنه ذو صوت رخيم ودراية تامة بالموسيقى ولكنه أنكر ذلك في كياسة، وأكد بأنهِ يجهل الموسيقى، أو أن له صوتًا يصلح للغناء - ثم

اشتركا في الغناء مرة أخرى، وتنحت بعدها «إمَّا» لمس «فيرفاكس» عن مكانها، وما كان بوسعها أن تحاول أن تخفي ما في نفسها من الشعور بأنها تفوقها قطعًا، سواء في رخامة الصوت أو في العزف على البيانو.

واختلطت مشاعرها، فاتخذت لنفسها مقعدًا يبعد قليلًا عن الذين أحاطوا بالبيانو، لتشنف أسماعها، وغنّى «فرانك تشرشل» مرة أخرى، وبدا لها أنهما لا بد قد سبق أن غنَّيا مرة أو مرتين معًا في «ويموث».

غير أن منظر «مستر نيتلي» وقد بدا أكثر الموجودين انتباهًا، أطاح بنصف تفكير «إمَّا»، وتلاحقت الأفكار في رأسها عما ساور «مسز وستن» من شكوك، ولم يقطع عليها تفكيرها بضع لحظات إلا تلك الأصوات الشجية المشتركة التي كانت تشنف الآذان.

ولم يتناقص اعتراضها على زواج «مستر نيتلي»، بل ظلت تراه شرًا ووبالًا، وترى فيه خيبة أمل كبيرة لمستر «جون نيتلي» وبالتالي «لإيزابلا» وضررًا محققًا للأطفال، وتغيرًا مفجعًا في الأوضاع، وخسارة فادحة لهم جميعًا، وانتقاصًا شديدًا لما كان ينعم به أبوها يوميًا. أما من ناحيتها هي فهي لم تكن لتحتمل فكرة وجود «جين فيرفاكس» في أبرشية «دونول» بوصفها «مسز نيتلي»، مسز نيتلي التي يخلي الجميع السبيل لها. لا، يجب ألا يتزوج «مستر نيتلي» أبدًا ولا بد أن يبقى «هنري» الصغير وريثًا لأبرشية «دونول».

ونظر «مستر نيتلي» وراءه وقتئذ، ثم أتى وجلس إلى جوارها، وأخذا يتحدثا، أولًا عن العزف، فكان إعجابه به بالغًا، وحماسه له شديدًا. وجال في خاطرها وقتها أنه لولا «مسز وستن» لما لفت ذلك نظرها، ثم أخذت على سبيل الاختبار تتحدث إليه عن تعطفه بنقل الفتاة وخالتها بالعربة. وعلى الرغم من أن إجابته كانت مختصرة، فقد اعتقدت بأنه أراد بها إظهار عدم ميله إلى الخوض في موضوع حنانه وشفقته.

وقالت: «كثيرًا ما أشعر بالهم لعدم جرأتي على الاستفادة من عربتنا في مثل هذه المناسبات، لا لأنني لا أرغب في ذلك، ولكنك تعلم استحالة تفكير أبي في تكليف «جيمز» إعداد العربة لمثل هذا الغرض».

وأجابها: «لا جدال في هذا إطلاقًا، فهي مسألة خارجة عن البحث، ولكنني متأكدة بأن هذه هي رغبتك في معظم الأوقات» ثم ابتسم وبدا عليه الاقتناع حتى أصبح عليها أن تخطو خطوة أخرى، فقالت:

«وهذه الهوية التي جاءت من أسرة « كامبيل»، هذا البيانو، إنه هبة كريمة».

وأجابها دون أن يبدو عليه حرج: «أجل، ولكن كان أحرى بهم أن يخبروها بذلك. أما المفاجآت فأشياء سخيفة لأنها لا تزيد السرور، بل تسبب غالبًا مضايقات عظيمة، وكنت أنتظر من المقدم « كامبيل» أن يكون أكثر حكمة».

وأصبحت «إمَّا» منذ هذه اللحظة تكاد تقسم على أن «مستر نيتلي» لا شأن له بالبيانو، أما أنه لم يكن متعلقًا بها، أو إنه لم يكن يفضلها حقيقة فقد ظل موضع الشك عندها.

ولما أوشكت «جين» أن تنتهي من أغنيتها الثانية كان صوتها قد بُح وقلّت عذوبته، فرفع صوته عاليًا عندما فرغت من الغناء وقال:

«كفى هذا، وقد غنيت بما فيه الكفاية في أمسية واحدة، فكفّي الآن عن الغناء».

ولكن الحاضرين ألحُّوا في أن تشجيهم بأغنية أخرى، وهم ينادون:

«شنّفي أسماعنا بواحدة أخرى، ولن تتعب «مس فيرفاكس» من الغناء بحال، ونحن ولا نطلب إلا أغنية واحدة».

«وسُمع «فرانك تشرشل» وهو يقول:

«أعتقد أنك لن تلاقي جهدًا في هذا، والمقطوعة الأولى ليست صعبة، أما قوة الأغنية فتتركز في جزئها الثاني».

واستشاط «مستر نيتلي» غضبًا وقال:

«إن هذا الفتى لا يفكر في شيء غير الإعجاب بسماع صوته، ولن نمكنه من هذا».

وكانت «مس بيتس» قد مرت بقربه في تلك اللحظة، فلمسها بيده وهو يقول:

«هل اعتراك يا «مس بيتس» خبل حتى تسمحي لابنة أختك بأن تجهد نفسها بالغناء إلى أن يُبح صوتها بهذه الدرجة؟ هيّا وتدخلي في الأمر، فهم لا تأخذهم بها شفقة!!

ولم ينتظر «مس بيتس»، وقد أصبحت جد قلقة على «جين» حتى تشكره، قبل أن تتقدم وتوقف مواصلة الغناء، وبذلك انتهى الطرب في تلك الأمسية، فإن «مس وودهاوس» و«مس فيرفاكس» كانتا الوحيدتين بين الآنسات، اللتين كانتا تستطيعان العزف.

ثم لم تمض دقائق خمس حتى تقدم اقتراح بالرقص، وإن لم يدر أحد من كان البادئ بالاقتراح. وأخذ «مستر كول» و«مسز كول» في العمل على تنفيذه، وسرعان ما رفعت الأشياء وأفسح المكان لكي يصبح مهيأ للرقص.

وجلست «مسز وستن» وهي التي لا تُجارى في رقصاتها الريفية وبدأت تعزف مقطوعة من «السوالتز»، لا يمكن لأحد أن يقاوم إغراءها.

وأقبل «فرانك تشرشل» على «إمَّا» في أبلغ مظاهر الشهامة التي لا تصدر إلا عن فارس مقدام، وأخذ بيدها، وسار بها إلى قمة قاعة الرقص.

وبينما «إمَّا» تنتظر ليأخذ كل زوجين مكانهما في حلبة الرقص، وجدت وقتًا كافيًا لتنظر فيه من حولها، رغم ما كان يُصاغ لها من عبارات المديح على صوتها الرخيم وذوقها السليم، لكي ترى ما آل إليه الحال مع «مستر نيتلي»، فقد كان رأيها أن الرقص هو البرهان، ذلك لأنه لا يرقص بوجه عام، فإن هو أقدم، ورافق «جين فيرفاكس» الآن، أمكن التكهن بشيء ما.

ولم يبد منه شيء في الحال. لا، إنه يتحدث مع «مسز كول»، وينظر دون اهتمام بأحد. وطلب غيره «جين فيرفاكس» للرقص، واستمر هو في حديثه مع «مسز كول».

ولم تعد «إمَّا» تخشى شيئًا على «هنري» فقد تأكدت أن مغانمه لا زالت في حرز أمين. وتقدمت الرقص في متعة وحماس لا تشوبهما شائبة.
ولم يكن في الإمكان تكوين أكثر من خمسة أزواج من الراقصين والراقصات، ولكن قلة العدد، ومفاجأة الرقص دون إعداد سابق، جعلاه أكثر متعة، ووجدت «إمَّا» نفسها ومعها رفيق يراقصها، ويكوّن معها زوجًا جديرًا بأن يستلفت الأنظار.
ولم يُسمح لسوء الحظ ألا برقصتين اثنتين.
وزحف الوقت، وأصبحت «مس بيتس» تتوق إلى العودة إلى البيت من أجل أمها. ولذلك فبعد محاولات للعودة إلى الرقص مرة أخرى، اضطر الجميع إلى الاستئذان من مسز كول وهم يصطنعون الأسف، وانتهى الحفل.
وقال «فرانك تشرشل» وهو يصحب «إمَّا» إلى عربتها. «لعل هذا مما يوجب الرضى، فقد كان عليَّ أن أدعو «مس فيرفاكس» للرقص، وأنا لا يوافقني رقصها الفاتر بعد رقصي معك».

لم تندم «إمَّا» على تنازلها بالذهاب إلى بيت أسرة «كول»، فقد أمدتها الزيارة في اليوم التالي بذكريات ممتعة. وكل ما يفترض أن تكون قد افتقدته في ناحية الكرامة التي تتأتى من العزلة، قد عوضته بما كسبته من جمال الشهرة.

ثم أكثر من ذلك أن حضورها لا بد كان باعثًا على سرور «آل كول» وهي أسرة جديرة بأن يعمل الناس على إسعادها. وهكذا تركت «إمَّا» أثرًا لا يمحى سريعًا.

على أن السعادة المطلقة حتى في ذكريات الإنسان ليست شيئا مألوفًا، ولهذا فقد كانت هناك نقطتان وجدت فيهما ما يضايقها. فلقد ساورتها الشكوك فيما لو كانت تجاوزت حدود المرأة نحو بنات جنسها، فلم تكتم ما كان يخامرها من الظنون بشأن مشاعر «جين فيرفاكس» وذكرت هذه الظنون لفرانك تشرشل، فقد كان هذا منها بعيدًا عن جادة الصواب. غير أن هذه الظنون كانت قد استبدت بها فلم تستطع أن تمنع نفسها من التحدث إليه بشأنها، فضلًا عن أن انصياعه لكل ما قالته، كان يزكي تدخلها، مما جعل من الصعب عليها آن تعتقد بأنه كان من واجبها أن تمسك عن الكلام. وكان الموضوع الآخر الذي يحز في نفسها يتعلق كذلك «بجين فيرفاكس»، وإن لم يراودها في هذه الحالة أي شك أو ريبة، فلقد كان آسفها شديدًا لتفوق «فيرفاكس» عليها في العزف والغناء، وحز في قلبها ما أظهرته من تراخ أيام طفولتها، فجلست الآن تتدرب بنشاط ساعة ونصف.

وعطلتها «هاريت» بقدومها عن العزف، ولو كانت عبارات المديح التي أطرتها بها «هاريت» تستطيع أن تقنعها لارتاحت وهدأ بالها من تلك الناحية.

قالت «هاريت» حبذا لو كنت أستطيع العزف مثلك ومثل «مس فيرفاكس».

«لا تضيعنا في مستوى واحد يا «هاريت»، لأن عزفي إذا قورن بعزفها، فإنه لا يزيد على مقارنة المصباح بضوء الشمس».

«عجبًا يا عزيزتي، بل أني أظنك أحسن منها في العزف، وأنت لا تقلين عنها في ذلك، وأنا ولا شك أفضل الاستماع إليك، لقد قال الجميع ليلة أمس أنك أبدعت في العزف».

«إن الذين لهم أية دراية بالعزف، لا بد أن يشعروا بالفرق، ولا شك يا «هاريت» إن عزفي فيه ما يستحق المدح، ولكن عزف «فيرفاكس» يفوقه كثيرًا».

«حسنًا، ولكني سأظل على الدوام أعتقد بأنك مثلها في العزف ولو كان هناك أدنى فارق، فإنه أبعد عن أن يلحظه أحد، ولقد أشِاد «مستر كول»، بحسن

ذوقك، وكذلك مؤشر «فرانك تشرشل» تحدث طويلًا عن ذوقك، وقال إنه يقدر الذوق بأكثر مما يقدر الأداء».

«آه!! ولكن جين فيرفاكس» جمعت الناحيتين يا «هاريت».

«وهل أنت واثقة من ذلك؟ لقد وجدت أنها تجيد الأداء، ولكني لم أجد فيها شيئًا دون الذوق، وما سمعت أحدًا يتحدث عن ذوقها، فضلًا عن أني أكره الغناء الإيطالي، فلست أفهم منه كلمة واحدة، وعلاوة على

ذلك، فهي إن كانت تجيد العزف، فاعلمي أن ذلك لا يعدو أن يكون شيئًا هي مضطرة إليه، لأنها ستعطي دروسًا فيه. ولقد كانت أسرة «كوكس» تتحدث الليلة الماضية فيما إذا كانت سوف توفق إلى العمل في أسرة راقية - وكيف وجدتين أسرة كوكس؟».

«إنهم كما هم عليه دائمًا في منتهي الابتذال».

وقالت «هاريت» في تردد: «لقد قالوا لي شيئًا ولكنه عديم الأهمية».

واضطرت «إمَّا» إلى سؤالها ما قالوه لها، رغم أنها كانت تخشى ذكر «مستر مارتن».

«قالوا لي أن «مستر مارتن» تناول معهم العشاء يوم السبت الماضي».

«عجبًا!!».

«وإنه أتى إلى أبيهم في عمل ما، فطلب إليه أن يبقى معهم لتناول العشاء».

«يا للعجب!!».

«وقد تحدثوا عنه كثيرًا، وخاصة «آن كوكس»، ولست أعلم ماذا كانت تعني من ذلك، ولكنها سألتني فيما لو كنت أرى أن أذهب في الصيف القادم وأقيم معهم».

«إنها كانت تعني فضولًا وقحًا، وهو ما طُبعت عليه «آن كوكس».

«قالت إنه كان في اليوم الذي تناول فيه العشاء ظريفًا جدًا معها، وإنه جلس إلى جوارها وقت تناول الطعام، وإن مس «ناش» تظن أن أية واحدة من بنتي «آل كوكس» يسرها أن تقترن به».

«هذا محتمل جدًا، وأظن أنهما بلا أستثناء، أكثر بنات «هايبري» ابتذالًا».

وكانت «هاريت» تريد قضاء بعض الحاجيات من «متجر فورد» ورأت «إمَّا» أن من الحكمة أن تذهب معها، فقد كان من الممكن أن تتقابل مع أسرة «مارتن» مرة أخرى، ولن تخلو مقابلة كهذه من خطر وهي على هذه الحال.

ولما كانت «هاريت» سهلة الانقياد، تكفي الكلمة الواحدة لتحملها على تغيير رأيها، فلقد اعتادت أن تظل وقتًا طويلًا في عملية الشراء. وبينما هي بين أخذ ورد، وعدول عن الرأي في شراء الموسلين، ذهبت «إمَّا» إلى باب المتجر للتسلية، وما كان هناك من تسلية ترجى من مشاهده حركة المرور حتى ولو كانت في أكثر جهات «هايبري» نشاطًا لاوازدحامًا، وكان أعظم ما تأمل أن تراه من مظاهر الحركة والنشاط، مرور «مستر بري» وهو يسرع الخطى، أو

«مستر وليم كوكس» وهو يتدخل باب المكتب، أو خيول عربة «مستر كول» وهي عائدة من رياضتها، أو صبي البريد وهو يهيم على ظهر بغل عنيد.
فلما وقع بصرها على القصاب بصينيته، وعلى امرأة شمطاء متأنقة عائدة من الحانوت وميممة نحو بيتها بسلتها الممتلئة، ثم على جروين يتقاتلان من أجل قطعة من العظم، ومجموعة من الأطفال تتسكع حول واجهة دكان خباز وترمق خبز الزنجبيل بشغف – أدركت أن ليس لها ما تشكو منه فقد وجدت من ضروب التسلية ما فيه الكفاية، وما جعلها تظل واقفة بالباب. والذهن الهادئ المستبشر يقنع عادة وهو لا يرى شيئًا؛ وينظر إلى كل شيء على أن له عنده جوابًا.
وتطلعت «إمَّا» إلى نهاية الطريق المؤدي إلى «راندولز» واتسعت رقعة المنظر أمامها، ثم ظهر لها شخصان، هما «مسز وستن» وابن زوجها، وكانا يشقان طريقهما في «هايبري» لا شك أنهما يقصدان «هارتفيلد» ورأتهم بعد ذلك يقفان عند باب «مسز بيتس»، وهو بيت أقرب قليلًا من «راندولز» عنه من متجر «فورد». وهمّا بطرق الباب عندما أبصراها، فعبرا الطريق في الحال واتجها نحوها. وبدا كما لو كان سرور الأمس قد أضفى على لقاء اليوم سرورًا جديدًا. وأخبرتها «مسز وستن» بأنها كانت ذاهبة لزيارة أسرة «بيتس» لكي تسمع البيانو الجديد، ثم قالت:
- «ذلك لأن رفيقي هذا يقول لي أني وعدت «مس بيتس» في الليلة الماضية بزيارتها هذا الصباح قطعًا وإن كنت لا أذكر ذلك، فلم أكن أعلم أني حددت ذلك، ولكن أما وقد قال إني وعدتهم، فها أنا ذاهبة الآن لزيارتهم».
وقال «فرانك تشرشل»: «وما دامت «مسز وستن» ستقوم بزيارتهم، فإني آمل أن يُسمح لي بمرافقتك، أن أنتظرها في «هارتفيلد»، إن كنت في طريقك إلى البيت».
وشعرت «مسز وستن» بشيء من الخيبة وقالت: «ظننت أنك تريد الذهاب معي عند بيت آل «بيتس» فهو شيء يسرهن كثيرًا».
«أنا!! أظنني سوف لا يكون لي مكان عندهن. وقد لا يكون لي مكان هنا كذلك فإن «مس وودهاوس» تبدو كما كانت لا تريد، أن أكون معها. إن زوجة خالي تبعدني دائمًا عندما تخرج لشراء ما تريد، وتقول إني أضايقها بعصبيتي، ويبدو أن «مس وودهاوس» على وشك أن تنحو نحوها، فماذا عساني أفعل؟
فقالت «إمَّا»: «أنا لا أقوم هنا بعمل يخصني، وإنما أنتظر صديقتي، ولعلها تفرغ من عملها حالًا، ثم نعود بعدها إلى البيت، ولكن أحرى بك أن تذهب مع «مسز وستن» وتستمع إلى عزف البيانو».
«أجل، إن كان هذا ما تنصحينني به» ثم استطرد وهو يبتسم:
«ولكن ما حيلتي لو كان المقدم «كامبيل» قد استعان بصديق مهمل وتبين أن نغم البيانون لا طعم له. ماذا عساني أن أقول في مثل تلك الحالة؟ إني لن أكون إلى جانب «مسز وستن» في الرأي، وقد يكون من الأفضل أن تكون

وحدها، إن كلمة صدق مؤلمة تخرج من فمها قد تلقى تسامحًا، أما أنا فإني أكون مخلوقًا تعسًا إذا كذبت تأدبًا».

وردت «إمَّا» تقول: « لا أعتقد شيئًا من هذا، وأنا أميل إلى الظن بأن في وسعك ألا تكون صادقًا كجيرانك إذا اقتضت الضرورة ذلك، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن البيانو لا طعم له، بل الأمر على العكس، اذا كنت قد فهمت رأي «مس فيرفاكس» في الليلة الماضية».

وقالت «مسز وستن»: «فلتأت معي إذا كنت لا ترى في ذلك ضيرًا، ولن يكون في ذلك تعطيل لنا، وسنذهب بعد ذلك إلى «هارتفيلد»، والحق أني أريد أن تصحبني في هذه الزيارة، فسيشعرون بأن هذه لفتة كريمة منك، ولا أخال إلا أن هذه نيتك».

فلم يزد على ما قاله شيئًا، وعاد أدراجه مع «مسز وستن»، للتوجه إلى بيت «مسز بيتس» والأمل يحدوه أنه سيجزى على ذلك بالذهاب إلى «هارتفيلد» فيما بعد.

وراقبتهما «إمَّا» وهما يدخلان، ثم اشتركت بعدها مع «هاريت» عند منضدة البيع بالحانوت، وحاولت بكل ما أوتيت من البيان أن تقنعها بأنها إذا كانت تريد حريرًا غير منقوش فليس هناك فائدة من رؤية الحرير المنقوش، وأن الشريط الأزرق مهما كان جميلًا، لن ينسجم مع قماش أصفر اللون، واستقر الرأي أخيرًا على كل شيء، حتى إلى أين ترسل ربطة المشتريات.

لقد سألتها «مسز فورد»: «هل أرسلها إلى بيت «مسز جدرد» يا سيدتي؟ واجابتها «نعم»، لا، نعم، إلى بيت «مسز جدرد» ولكن قماش ردائي في «هارتفيلد»، لا، أرجوك أن ترسليها إلى «هارتفيلد» - ولكن «مسز جدرد» سوف تود أن تراه – يمكنني أن آخذ قماش الرداء إلى البيت في أي يوم، ولكني سأحتاج إلى الشريط الآن، ولذا يحسن أن ترسل الربطة إلى هارتفيلد – أو على الأقل الشريط – ويمكنك أن تحزمي الأشياء في ربطتين يا «مسز فورد» ألا تستطيعين؟

«إنه لا يستحق يا هاريت أن تكلف «مسز فورد» عناء حزمه في ربطتين».

«لا شك أنه متعب».

وقالت «مسز فورد» تحاول أن ترضي عملاءها:

«ليس هناك أدنى تعب يا سيدتي».

«ولكني أفضل حقًا أن تكون ربطة واحدة أرجو أن ترسل الأشياء جميعها إلى بيت «مسز جدرد». لعمري لست أدري ما الأصوب، لا، أظن يا «مس وودهاوس» أن إرسالها إلى هارتفيلد قد يكون كذلك صوابًا، ثم آخذها معي إلى البيت ليلًا، فبم تنصحيني؟».

«أنصحك بألا تضيعي نصف لحظة أخرى في هذا الموضوع، رجائي يا «مسز فورد» أن ترسيلها إلى هارتفيلد».

وقات «هاريت» وقد رضيت تمامًا: «أجل هذا هو الأفضل ولست أود أبدًا إرسالها إلى بيت «مسز جدرد».
وسمعت أصوات على مقربة من المتجر، أو بالأحرى صوت وسيدتان وإذا «بمستر وستن» و «مس بيتس»، تلتقيان بهما عند باب المتجر وقالت «مس بيتس»: «عزيزتي «مس وودهاوس» لقد جئت الآن مسرعة كي أرجو أن تتفضلي بالمجيء عندنا وقضاء فترة قصيرة معنا، تبدين فيها رأيك في البيانو الجديد، أنت و«مس سمث» - وكيف حالك يا «مس سمث» أنا بخير وشكرًا لك - ولقد رجوت «مسز وستن» أن تأتي معي لأكون واثقة من تحقيق رغبتي هذه».
«آمل أن تكون «مسز بيتس» و«مس فيرفاكس» - ».
«على أحسن حال، وأشكرك كثيرًا، إن والدتي تتمتع بصحة جيدة، كما أن «جين» لم تصب بالبرد في الليلة الماضية، - وكيف حال «مستر وودهاوس»؟ يسرني أن أسمع عنه مثل هذه الأخبار الطيبة - لقد أخبرتني «مسز وستن» أنك هنا، فقلت عندئذ، لابد أن أسعى إليها جريًا،
وأعتقد أن «مس وودهاوس» لا تأبى عليّ أن أعبر الطريق جريًا وأرجوها أن تدخل عندنا - فإن والدتي يسرها كثيرا أن تراها، ونحن الآن نكوِّن مجموعة لطيفة - إن «مس وودهاوس» لا يسعها أن ترفض. وقال مستر «فرانك تشرشل»: «أجل أرجو أن تذهبي إليها، فإن رأي «مس وودهاوس» عن البيانو له قيمته وقلت له إنه لو ذهب معي أحد، لكنت أكثر وثوقًا من النجاح في مهمتي، فقال: «آه، انتظري هنيهة حتى انتهي مما في يدي، ثم هل تصدقين يا «مس وودهاوس»! ها هو جالس هناك قد أسرنا بفضله ودماثة خلقه، فقد عكف على تثبيت مسمار نظارة والدتي، إن مسمار البرشام خرج صباح اليوم من مكانه، وإنه لشيء يستوجب منا عظيم الشكر - ذلك لأن والدتي لم تكن قادرة على استعمالها، بينما يجب على كل واحد أن يكون عنده نظارتان، وهذا ولا شك من الضرورات، وهو عين ما تقوله «جين» - وأول ما فكرت فيه أن أذهب بها إلى «جون ساندرز»، ولكن حدث ما عاقني عن هذا طول الصباح، فهذا شيء، ثم هذا شيء آخر يليه، ولا نهاية للمشاكل كما تعلمين، فقد جاءت «باتي» مرة تقول أن مدخنة المطبخ في حاجة إلى تنظيف، فقلت عجبًا يا «باتي» لا تأتي إليّ بأخبارك السيئة. ثم ها هو مسمار نظارة سيدتك قد خرج من مكانه، ثم وصل التفاح المشوي، لقد أرسلته «مسز والس» مع غلامها - وتلك الأسرة، أسرة «والس» على أقصى ما تكون من دماثة الخلق وهي كثيرَا ما تطوق عنقنا بمآثرها - ولقد سمعت بعض الناس يقولون أن «مسز والس» غير مهذبة، وإن لها ردودًا جافة - ولكننا لم نر منها قط إلا أعظم رعاية، وليس هذا لما اعتدنا أن نشتريه منهم الآن، هذا القدر الذي نستهلكه من الخبز - ونحن ثلاث فقط، علاوة على العزيزة «جين» الآن، وهي في الحقيقة لا تأكل شيئًا – ومقدار ما تأكله في وجبة الإفطار يثير الدهشة من قلته ولو أنك رأيت

ما تأكله لاستولت عليك الرجفة، ولست أجرؤ على جعل والدتي تعلم بما تتناوله من طعام قليل، ولذا فإني أقول قولًا ثم أقول قولًا آخر حتى لا تعلم من الأمر شيئًا، ولكنها تشعر بالجوع وسط النهار، وليس أحب إليها من هذا التفاح المشوي، وهو مغذ إلى درجة عظيمة - ذلك لأنه اغتنمت الفرصة في اليوم السابق وسألت «مستر برى» عنه، وكنت قد قابلته صدفة في الطريق، وما كنت أشك في ذلك من قبل، إذ كثيرًا ما سمعت «مستر وودهاوس» يوصي بأكل تفاحة مشوية، وأعتقد أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يظن «مستر وودهاوس» أنها تجعل الفاكهة مغذية تمامًا، وغالبًا ما يكون عندنا فطائر التفاح، و«باتي» ممتازة في إعداد هذه الفطائر - وأرجو أن تكوني الآن يا «مسز وستن» قد تغلبت عليهما فتتكرما بالحضور».

«إن «إمَّا» يسرها كثيرًا زيارة «مس بيتس».

وخرجا آخر الأمر من المتجر ولم يعطلهما شيء غير كلام «مس بيتس» فقد انطلقت تقول لصاحبة المتجر: «كيف حالك يا مسز فورد؟ عفوًا لأني لم أرك قبلًا، ولقد سمعت بأن لديك مجموعة جميلة من الشرائط الجديدة، أتيت بها من لندن، ولقد عادت «جين» أمس وهي فرحة، وإني أشكرك لأن القفاز كان مقاسها تمامًا لولا أنه واسع قليلًا عند المعصم، ولكن «جين» راضية به.

وعادت إلى الحديث وهي في الطريق إلى المنزل قالت: «فيم كنت أتحدث، ولم تدر «إمَّا» أي شيء ستركز حديثها عليه في هذا الخليط الغريب من الكلام. «أؤكد بأني غير قادرة على أن أتذكر ما كنت أتكلم عنه، عجبًا!! لقد كنت أتحدث عن نظارة والدتي، وما أجمل صنيع مستر «فرانك تشرشل»!! لقد قال: أظن إني قادر على تثبيت المسمار، وأنا أهوى مثل هذا العمل كثيرًا مما جعله كما تعلمين يبدو غاية - ولابد أن أقول إني وجدته على قدر ما سمعته عنه من قبل، وعلى قدر ما كنت أنتظره منه، بل إني أراه يفوق ذلك كثيرًا، وإني أهنئك يا «مسز وستن» بكل جوارحي، إذ يبدو إنه يتصف بكل ما يرجوه الوالد الشغوف- لقد قال: عجبًا!! أراني قادر على تثبيت المسمار، وإني أحب كثيرًا مثل هذا العمل - ولن أنسى أبدًا دماثة خلقه، وعندما أخرجت التفاح المشوي من خزانة المؤن، على أمل أن يتكرم أصدقاؤنا بتناول بعضه، قال على الفور: آه!! ليست هناك من الفاكهة ما هو في نصف جودته، وهذه أجمل ما شاهدته في حياتي من التفاحات المشوية في البيت - وهكذا كلما ترين كان في غاية - وأعتقد أن ذلك كما رأيت من تصرفه، لم يكن إطراء منه، فلا ريب أنها تفاحات لذيذة للغاية، و«مسز والس» ماهرة في شيها، غير أننا لا نقوم بشيها - أكثر من مرتين، وإن كنا وعدنا «مستر وودهاوس» بشيها ثلاث مرات، لكننا نرجو من «مس وودهاوس» أن تتفضل ولا تذكر هذا. ولا شك أن التفاح هو أجود الأنواع التي تشوى، فكله من «دونول» - وبعضه مما جاد به علينا «مستر نيتلي» في سخاء وكرم، فهو يرسل لنا جوالًا ممتلئًا كل عام، ومن المؤكد أنه ليس هناك في أي مكان من التفاح الذي يخزن مثل التفاح الذي تنتجه أشجاره، وأعتقد أن

لديه شجرتين، وتروي أمي أن البستان كان أيام طفولتها ذائع الصيت، ولكنني ذهلت حقًا بالأمس، لأن «مستر نيتلي» زارنا ذات صباح، وكانت «جين» تأكل تلك التفاحات، وتحدثنا عنها قليلًا وقلنا إنها تجد فيها متعة عظيمة، وسألنا إذا كنا قد أتينا على آخر ما لدينا ثم قال: أعتقد أنكن قد أتيتن على آخرها، ولذا سأرسل لكن كمية أخرى، لأن عندي منها ما يزيد على حاجتي، وقد جعلني «وليم لاركنز» أختزن منها هذا العام كمية أكثر مما اعتدت أن أختزنه، وسأرسل لكن مقدارًا آخر قبل أن يفسد ويصير عديم الفائدة».
وقد رجوته ألا يرسل شيئًا، ولكن الحق أنه وقد انتهى ما كان عندنا منه، لم أستطع أن أقول له انه يبقى لدينا منه الشيء الكثير، إذ لم يتبق منه غير ست تفاحات، ولكن يجب أن نحتفظ بها من أجل «جين»، وما كنت أحتمل أبدأ أن يرسل لنا مزيدًا منه، وكفانا ما غمرنا به في سخاء - وقد قالت «جين» مثل ما قلته وعندما خرج، كادت تتشاحن معي، لا، لا يجب ألا أقول تتشاحن، لأنه لم يقم بيننا طول حياتنا شجار قط - ولكن ساءها اعترافي بأن التفاح أوشك أن ينفذ، وكان بودها أن أجعله يعتقد بأنه ما زال يتبقى منه لدينا الكثير، فقلت عجبًا يا عزيزتي، لقد قلت ما فيه الكفاية، ومع هذا فقد حضر «وليم لاركنز» في نفس المساء، ومعه سلة كبيرة مملوءة بالتفاح، وفيها قنطار على الأقل، فاستحق منا جزيل الشكر - ونزلت وتكلمت مع «وليم لاركنز»، وقلت كل ما يعني لي في هذا الصدد، كما تدركين، ولا شك، آن مستر «وليم لاركنز» معروف لنا منذ عهود بعيد، ويسعدني دائمًا أن أراه - ولكني مع هذا علمت بعد ذلك من «باتي» أن «وليم» قال إن هذا هو كل التفاح الذي كان عند سيده من هذا النوع، وإنه قد أحضره كله ولم تبق منه تفاحة واحدة لسيده الآن كي تشوى أو تسلق، ولم يبد على «وليم» أن هذا ضايقه، فقد كان من دواعي سروره أن سيدة باع مقدارًا كبيرًا منه، وذلك لأن «وليم» كما تعلمين يهمه ما يجنيه سيده من ربح، أكثر من أي شيء آخر - ولكنه قال إن مسز «هدجز» ساءها كثيرًا أن يرسل كل هذا المقدار، ولم تكن لتحتمل رؤية سيدها وليس في استطاعته أن يحظى بفطيرة محشوة بالتفاح في فصل الربيع، وقد أخبر «باتي» بذلك، ولكنه طلب منها ألا تعير هذا اهتمامًا، وألا تذكر لنا شيئًا لأن مسز «هدجز» تغضب أحيانًا، وما دام قد بيع هذا العدد الكبير من الجوالات؛ فليس بذي بال أن يعرف من الآكل للباقي - هذا ما قالته لي «باتي»، ولا شك أن هذا أزعجني كثيرًا جدًا، ولست أود أن يعلم «مستر نيتلي» أي شيء عن هذا مهما كانت الأسباب، فهو لو علم سيكون شديد -، أوقد أردت أن أخفي هذا عن «جين» ولكني لسوء الحظ ذكرته دون أن أتنبه إلى ذلك».
وكانت «مس بيتس» قد فرغت من حديثها عندما فتحت «باتي» الباب، وارتقى زوارها السلم دون أن يكون هناك حديث مرتب يستمعون إليه، ولم يلقن إلا كلّ ما يعبر عن طيبة قلب «مس بيتس» من عبارات غير مرتبطة وهي تقول: «رجائي يا «مسز وستِن» أن تحتاطي، فهناك درجة عند دوران السلم، ورجائي

يا «مس وودهاوس» أن تأخذي حيطتك، فسلمنا مظلم نوعًا ما، وهو أكثرظلامًا وضيقًا عما قد يحب الإنسان، ورجائي يا «مس سمث» أن تحتاطي، إني شديدة القلق يا «مس وودهاوس»، وأعتقد أن قدمك قد أصطدم بالسلم، حاذري يا «مس سمث» من الدرجة الموجودة عند المنحنى».

الفصل الثامن والعشرون

كانت حجرة الجلوس عندما دخلوا عنوانًا على الهدوء والسكينة، فقد كانت «مسز بيتس» قد تركت ما اعتادت القيام به، واستسلمت للنعاس بجانب المدفأة، وكان «فرانك تشرشل» على منضدة بالقرب منها وهو في شغل شاغل بنظارتها، بينما كانت «جين فيرفاكس» واقفة وقد أولتهم ظهرها وعكفت على البيانو تخصه بكل اهتمامها.

ورغم ما شغل به «فرانك» لم يغب عنه أن يبدو مشرق الوجه عندما رأى «إمَّا» للمرة الثانية في هذا اليوم، وقال في صوت خافت نوعًا ما.

«إنه لشيء سار أن تحضري قبل الموعد الذي قدرته بعشرة دقائق على الأقل، وها أنت ترينني أحاول أن أكون ذا منفعة، هل أخبرتينني إذا كنت تظنين أني سوف أنجح فيما أنا بصدده»؟.

وقالت «مسز وستن»: «عجيب!! ألم تنته منها حتى الآن؟ إنك لن تجد عيشًا رغدًا إذا كنت تعمل صائغًا بهذه السرعة».

وأجابها: «إني لم أكن أعمل عملًا متواصلًا، لأنه كنت أعاون «مس فيرفاكس» في محاولة تثبيت البيانو، إذ كان غير ثابت في مكانه تمامًا، وأعتقد أن ذلك راجع إلى عدم استواء أرضية الحجرة، وها أنت ترين أننا كنا ندعم إحدى أرجله بأسفين من الورق، وإنه لعطف منك أن تسمحي أن يستميلوك لتأتي هنا، وكنت أخشى أن تسرعي الخطى إلى منزلك».

وعمل على أن تجلس إلى جواره، وأخذ يجد في البحث عن أحسن تفاحة مشوية يقدمها لها، ويحاول أن يجعلها تعاونه في عمله، أو تقدم له بعض النصح فيه، إلى أن أصبحت «جين فيرفاكس» على استعداد للجلوس إلى البيانو ثانية.

وساور «إمَّا» الشك في أن عدم جلوسها إليه فورًا إنما كان مبعثه حالتها العصبية، فهي لم تكن بعد قد طال بها الوقت على امتلاك البيانو حتى يمكنها العزف عليه دون أن تحس بالاضطراب. فكان لا بد لها من أن تستوثق من قدرتها على العزف، ولذا لم يكن في وسع «إمَّا» إلا أن تشفق على ما كان ينتابها من مشاعر مهما كان الباعث عليها، ووطدت العزم على ألا تكشف عن هذا إلى جارها مرة أخرى.

وبدأت «جين » تعزف أخيرًا، وعلى الرغم من أن المقامات الموسيقية الأولى لم تكن قوية فقد أخذت قوة البيانو تظهر تدريجيًا إلى أقصى درجاتها، وكانت «مسز وستن» قد أخذتها نشوة الطرب من قبل، فطربت الآن مرة أخرى،

وشاركتها «إمَّا» في كل ما كانت تكيله من عبارات المديح، واستقر الرأي أخيرًا، بعد فحص البيانو دقيقًا على أنه أحسن ما يكون.
وقال «فرانك تشرشل» وهو يبتسم نحو «إمَّا»: «أيا كان الشخص الذي استخدمه المقدم «كامبيل» لشراء البيانو فهو قد أحسن الاختيار. وقد سمعت الكثير عن ذوق المقدم «كامبيل» وأنا في «وييموث» وأعتقد أن رقة الألحان ذات الطبقة العالية هي بعينها التي كانت موضع تقديره وتقدير كل تلك الجماعة، ولعله يا «مس فيرفاكس» لم يترك صغيرة ولا كبيرة من الأوصاف الضرورية إلا ذكرها لصديقه، أو كتب إلى «برود وود» مباشرة بنفسه، ألست تظنين ذلك؟».
ولم تلتفت «جين» حولها، أو تجد ما يضطرها إلى الاستماع إليه فقد كانت «مسز وستن» تتحدث إليها بنفس الوقت.
وقالت «إمَّا» همسًا: «ليس هذا عدلًا، إن ما قلته لك كان رجمًا بالغيب فلا تضايقها».
وهز رأسه مبتسمًا، وبدا كما لم يكن لديه أدنى شك أو به أدنى رحمة، ثم عاد يقول بعد ذلك بقليل: «ما أعظم ابتهاج أصدقائك في أيرلندا بسرورك في هذه المناسبة يا «مس فيرفاكس» وأعتقد أنهم يفكرون فيك في معظم الأوقات، ويتقون إلى معرفة اليوم الذي وصل فيه البيانو على وجه التحديد. هل تظنين أن المقدم «كامبيل» يعلم أن المهمة قد أنجزت في الوقت الذي حدده؟ وهل تظنين أنه مرسل من قبله مباشرة، أو أنه بعث بتوجيهات عامة فقط مع طلب لم يحدد فيه الوقت، وإنما اعتمد على ما تجود به الصدف ويسهل معه التنفيذ؟» ثم توقف ولم يسعها إلا أن تستمع، ولم يسعها إلا أن تجيب.
قالت في صوت المستمسك بهدوئه: «إلى أن تصلني رسالة، فإني لا أظن شيئًا لست متأكدة منه، إذ لا بد أن يكون كل هذا رجمًا بالغيب».
«رجم بالغيب!! نعم، ولكنه أحيانًا يصيب، وأحيانًا يخطء وبودي لو أتكهن متى أنتهي من تثبيت هذا المسمار، فما أكثر ما يقوله الإنسان من هراء يا «مس وودهاوس» عندما يكون مكبًا على عمل ما، هذا إذا وجد فرصة للكلام، وظني أن العمال الحقيقيين لا يتكلمون، ولكننا نحن السادة العمال نتكلم إذا حانت الفرصة. لقد تحدثت «مس فيرفاكس» عن الرجم في الغيب. وها هو قد ثبت الرجم بالغيب وإني لمسرور يا سيدتي (مخاطبًا بيتس) لإصلاح نظارتك، فها هي قد التأمت مؤقتًا».
وشكرته الأم وابنتها شكرًا جزيلًا، ولكي يتخلص قليلًا من ثرثرة الثانية، توجه إلى البيانو، ورجا «مس فيرفاكس» التي كانت لا تزال جالسة أمامه، أن تعزف شيئًا وقال: «إنها لمنة كبرى لو أنك عزفت مقطوعات «الفالز» التي رقصنا عليها في الليلة الماضية، دعيني أعيش فيها مرة أخرى، إنك لن تستمتعي بها كما استمتعت، إذ كان يبدو عليك أنك متعبة طوال الوقت، وأعتقد أنك فرحت

لأننا توقفنا عن الرقص، ولكني كنت أضحي بكل شيء وكنت لا أظن بشيء، لو أن الرقص استمر نصف ساعة أخرى».
وعزفت. أما هو فقال:
«ما أهنأ أن يسمع المرء لحنًا طرب له مرة أخرى من قبل!! وإن لم أكن مخطئًا فهو اللحن الذي رقص عليه الناس في «وييموث».
فرفعت نظرها إليه لحظة وقد احمر وجهها، ثم عزفت لحنًا آخر، وتناول قطعة موسيقية من فوق كرسي على مقربة من البيانو، والتفت إلى «إمَّا» وقال: «هذا شيء جديد، هل تعرفينه؟ إنه «كرامر»، وها هي مجموعة جديدة من الألحان الأيرلندية، إنها تأتي من هذه الجهة فيما أظن، وقد أرسل كل هذا مع البيانو، وهو تفكير سليم من المقدم «كامبيل»، أليس كذلك؟ فهو يعلم أن «مس فيرفاكس» لن تجد شيئًا من الموسيقى هنا. وإني لأجل هذا الجانب من رعايته خاصة، هو يدل على أنه صادر من القلب، وليس فيه شيء وليد العجلة، وليس فيه شيء ناقص غير مكتمل، وإنما حب صادق كان الدافع إلى كل ذلك».
وودت «إمَّا» لو أنه كان أقل تحديدًا ولكنها لم تتمالك نفسها من الشعور بالتفكهة، وعندما وجهت نظرها صوب «جين فيرفاكس» رأت آثار ابتسامة على شفتيها. فلما رأت أنه مع كل هذه الحمرة التي طفح بها محياها من أثر يقظة الضمير، كانت هناك ابتسامة منبعثة من سرور مكبوت، قل ترددها في التفكه بما رأت وصارت أقل أسفًا وأقل تأنيبًا لضميرها، ذلك لأن «جين فيرفاكس» الجميلة النزيهة الكاملة، كانت تبدو وكأنها تنعم بمشاعر دفينة كامنة في أعماق نفسها.
وأحضر «فرانك» كل المقطوعات الموسيقية إلى «إمَّا»، وفحصاها معًا، واغتنمت «إمَّا» الفرصة لتقول همسًا: «إنك تتكلم في وضوح تام، ولابد أنها فهمتك».
«أرجو أن تكون قد فهمتنى، وبودي لو أدركت ما أقوله، فلست بمستح أبدًا مما أعني».
ولكني ولا شك أشعر بشيء من الخجل، وبودي لو أن هذه الفكرة لم تخطر لي على بال».
«إنه لمن بواعث سروري العظيم أن الفكرة خطرت لك ونقلتيها إليّ، لقد أصبحت أدرك نظراتها وحركاتها الغريبة فدعي الخجل لها، وهي إن أخطأت وجب أن تشعر بخطئها».
«أظنها تشعر بالخجل».
«لست أرى شيئًا يدل على ذلك، وهي تعزف الآن لحن «روبن أدير» وهو أحب الألحان إليه».
ولمحت «مس بيتس» بعد قليل وهي تمر قرب النافذة، «مستر نيتلي» عن كثب، وهو ممتط جواده، فقالت: «أؤكد أنه «مستر نيتلي»!! ولا بد أن أتحدث

إليه إذا أمكنني ذلك، لأني أريد أن أشكره، ولن أفتح النافذة هنا خشية أن يصبكم برد جميعًا، ولكن بوسعي أن أدخل حجرة والدتي، وأعتقد أنه سيدخل عندما يعلم بالموجودين هنا، وما أسعدني أن أراكم له يعد تتقابلون هكذا!! وما أعظم ما نالت حجرتنا الصغيرة من شرف!!
ولم تكف عن حديثها حتى بعد أن وصلت إلى الحجرة المجاورة، وما أن فتحت نافذتها، حتى استرعت انتباه «مستر نيتلي»، ووصل إلى أسماع الآخرين كل ما دار بينهما من حديث بوضوح، كأنما كان يدور في نفس الحجرة. «كيف حالك؟ كيف حالك؟ - على أحسن حال وأشكرك - إني مدينة لك بالشكر من أجل العربة في الليلة الماضية، لقد وصلنا في موعدنا، و كانت أمي في انتظارنا - أرجوك أن تدخل، أدخل، إنك ستجد هنا بعض الأصدقاء».
هكذا بدأت «مس بيتس»، وكأنما أراد «مستر نيتلي» أن يسمع الحاضرون صوته كذلك، فقال في عزم وفي صيغة الأمر: « كيف حال ابنة أختك يا «مس بيتس»؟ إني أسأل عن صحتكم جميعًا، وبصفة خاصة عن ابنة أختك، كيف، حال «مس فيرفاكس»؟ أرجو ألا يكون قد أصابها برد ليلة أمس، كيف حالها اليوم، خبريني كيف حال «مس فيرفاكس؟».
واضطرت «مس بيتس» أن تجيبه على ذلك قبل أن يستمع إلى شيء آخر منها، ووجد المستمعون في ذلك ما يسليهم، ء ونظرت «مسز وستن» إلى «إمَّا» نظرة ذات معنى خاص ولكن «إمَّا» رغم هذا هزت رأسها وهي في شك مقيم.
وعادت «مس بيتس» تقول: «كم أنا مدينة لك بالشكر! وأشكرك شكرًا جزيلًا من أجل العربة».
وقاطعها قائلًا: «إني ذاهب إلى كنجستون» فهل من خدمة أؤديها لك».
«عجبًا يا عزيزي!! أذاهب إلى «كنجستون»؟ إن «مسز كول» كانت تقول بالأمس إنها تريد شيئًا من كنجستون؟»
«إن مسز كول عندها خدمها وتستطيع أن تبعث بهم، فهل من خدمة أؤديها لكم؟». « لا، وشكرًا لك، ولكن ادخل، فمن تظن أن يكون عندنا؟ هنا «مس وودهاوس» و «مس سمث» وإنها لمنة منهما أن يزورانا كي يسمعا البيانو الجديد، اعقل جوادك في «نزل التاج» وادخل».
فقال بعد ترو: «حسنًا وليكن لخمس دقائق لا أزيد».
«وستجد هنا أيضًا «مسز وستن» ومستر «فرانك تشرشل».. حقًا ما أبهج أن يجتمع عندنا هذا ا العدد الكبير من الأصدقاء!! ».
«لا، ليس الآن، إني شاكر لك، وليس بوسعي أن أمكث حتى دقيقتين، فلا بد لي من التوجه إلى «كنجستون» بأسرع ما يمكنني».
«عجبًا!! ادخل، إنهم سيسرون جدًا لرؤيتك».
«لا، لا، إن حجرتك قد امتلأت بمن فيهم الكفاية، وسوف أزوركم يومًا آخر وأسمع البيانو».

«كم أنا آسفة! ما أبهج حفل الليلة الماضية يا «مستر نيتلي» وما أكثر متعتها!! هل رأيت رقصًا كهذا؟ ألم يكن بهيجًا أن نرى مس «وودهاوس» وفى تراقص «مستر فرانك تشرشل»؟ إني لم أر في حياتي ما يضارعه».
«لا شك أنه كان سارًا للغاية، وأنا لا أستطيع أن أقول ماهو دون ذلك، إذ أعتقد أن «مس وودهاوس» و«مستر فرانك تشرشل» يستمعان إلى كل ما يدور بيننا الآن».
ثم رفع صوته وقال: «لست أدري لماذا لم تذكري «مس فيرفاكس» أيضًا، فأنا أظن أن «مس فيرفاكس» تجيد الرقص، كما أن «مسز وستن» لا يدانيها أحد في عزف مقطوعات الرقص الريفي في انكلترا قاطبة.. والآن لو أرادا أصدقاؤك أن يعترفوا لي بشيء من الجميل، فعليهم أن يرفعوا أصواتهم بمديحك ومديحي، ولكني لن أنتظر حتى أسمعه.
«لحظة أخرى يا مستر نيتلي» إنه شيء هام أذهلنا كثيرًا، فلقد حدث بشأن التفاح ما أذهلني وأذهل «جين ».
«وما الذي حدث الآن؟».
«إننا نفكر في أنك بعثت بكل ما تختزن من التفاح، لقد قلت بأن عندك منه الشيء الكثير، والآن لم تبق منه لك واحدة. إننا ولا شك في دهشة، وقد تكون «مسز هودجز» غاضبة، بل لقد ذكر «وليم لاركنز» ذلك هنا، وما كان يجدر بك أن تفعل هذا، حقًا ما كان يجب أن تفعل، آه لقد انطلق، إنه لا يحتمل أن يسمع ثناء عليه، على أنني ظننت أنه سيبقى معنا الآن، وانه لأمر يرثى له لو أنني لم أذكر شيئًا، أجل (وهي تعود إلى الحجرة) إنني لم أوفق في مهمتي، إذ لم يستطع «مستر نيتلي» أن ينتظر، فهو ذاهب إلى «كنجستون»، وقد سألني عما إذا كان يستطيع أن يؤدي لنا خدمة».
وقالت «جين»: «أجل، لقد سمعنا عرضه الكريم، لقد سمعنا كل شيء».
«أجل يا عزيزتي، وأعتقد أنك سمعتيه، فقد كان الباب كما تعلمين مفتوحًا، وكذلك النافذة، وقد تكلم «مستر نيتلي» «بصوت مرتفع.
ولا بد أنك سمعت كل شيء دون شك لقد قال: «هل من شيء أقضيه لكم في كنجستون؟».
ولذا بادرت أقول له: عجبًا! ما هذا يا «مس وودهاوس» هل عزمت على الخروج. كأني أراك قد حضرت حالًا، وإنه لتفضل عظيم منك».
وقد وجدت «إمَّا» أن الوقت قد حان لكي تعود إلى بيتها، وأن الزيارة قد استغرقت وقتًا طويلًا وعندما ألقوا نظرة على ساعاتهم، رأوا أنه قد مضى جزء غير يسير من النهار، ولذا استأذنت «مسز وستن» كذلك ومن معها في الخروج كي يجدا فسحة من الوقت يسيران فيها مع الفتاتين حتى أبواب «هارتفيلد» قبل أن يسعيا إلى «راندولز».

قد يكون في الإمكان الاستغناء عن الرقص كليا. بل لقد عرف عن أناس في مقتبل العمر أنهم أمضوا الشهور العديدة المتوالية دون أن يغشوا صالة للرقص من أي نوع، ولم يلحق بأجسامهم ولا بعقولهم أي ضرر من جراء ذلك، أما حين يبدأون الرقص وينعمون بسرعة الحركة ولو قليلًا، فأن من العسير عليهم بعد ذلك ألا يطلبوا المزيد.

لقد رقص «فرانك تشرشل» مرة واحدة في «هايبري» فزاد حنينه إلى الرقص منذ ذلك المساء. وقد أمضى هو «إمَّا» فترة نصف الساعة الأخيرة من مساء يوم حبب فيه إلى «مستر وودهاوس» الذهاب مع ابنته إلى «راندولز» في وضع خطة لحفل راقص آخر. وكان أول من فكر منهما في ذلك، هو «فرانك»، كما كان أكثر الاثنين تحمسًا للفكرة. ذلك أن المرأة هي خير من يقدر الصعوبات ويعنى بتهيئة الأثاث ويهتم بالمظهر. ولكن «إمَّا» كانت مع ذلك شديدة الميل إلى أن يرى الناس مرة أخرى كيف يرقص مستر «فرانك تشرشل» و«مس وودهاوس» رقصًا جميلًا، وأن تفعل ما لا يجعلها تحمرخجلًا حين تقارن نفسها «بجين فيرفاكس»، وأن ترقص من أجل مجرد الرقص، دون الالتجاء إلى وسائل الزهو المرذولة. لهذا أخذت تعاونه أولًا في قياس الحجرة التي هم فيها، لمعرفة كم تسع من المدعوين، ثم في أخذ مقاييس حجرة التدخين، لعلها تكون أوسع منها قليلًا، رغم كل ما قاله «مستر وستن» من أنهما متساويان في الاتساع. وكان أول اقتراح، بل أول رجاء له، أن يتم الرقص الذي بدأ به في بيت «مستر كول» في هذه الحجرة، وأن يكون المدعوون هم نفس الذين كانوا هناك، وأن تكون الموسيقى هي نفسها بالذات. وقد قوبل هذا الرجاء منه بالموافقة في الحال، وساند «مستر وستن» الفكرة بابتهاج تام، وتعهدت، «مسز وستن» عن طيب خاطر بالعزف طالما هم تواقون إلى الرقص، ثم أعقب ذلك حصر من يدعون إلى الحفل على وجه التحديد، ومراعاة المسافة الضرورية لكل راقصين.

قال: «أنت ومس «سمث» و«مس فيرفاكس» ثلاثة، ومعكن آنستان من «أسرة كوكس» فيكون العدد خمسًا». وتكررت تلك العبارة منه عدة مرات - وهناك اثنان من أسرة «جلبرت »، ثم «كوكس» الصغير، ووالدي وأنا، هذا علاوة على «مستر نيتلي»، أجل، إن في هذا العدد ما فيه الكفاية للاستمتاع،

أنت و«مس سمث» و«مس فيرفاكس» ثلاثة، ومعكن آنستان من أسرة « كوكس» فيكون العدد خمسًا، وسوف يتسع المكان لخمسة أزواج في يسر».
وسرعان ما قام اعتراضان من «إمَّا» .. قالت: «وهل سيتسع المكان لخمسة أزواج. أعتقد أنه لن يتسع لذلك العدد».
ثم استطردت في اعتراضها الثاني. قالت: «ومع هذا فأن خمسة أزواج ليست بالعدد الذي يستحق الوقوف للرقص، أن خمسة أزواج، إذا فكر الانسان جديًا، ليست بالشيء الذي يذكر، انه لن يكفي أن يدعى خمسة أزواج فقط، وقد يجوز هذا لو أن الفكرة كانت بنت ساعتها ».
وقال قائل منهم: إن «مس جلبرت » ينتظر أن تجيء إلى بيت أخيها، ولا بد إذن أن في دعوتها مع الباقين. وأعتقد آخر، أن «مسز جلبرت» ما كانت لتتأخر عن الرقص في الأمسية الماضية لو أنها في دعيت إلى الرقص. وأشار ثالث إلى ضرورة دعوة شاب آخر صغير من «أسرة كوكس ». وتقدم «مستر وستن» برأيه فقال «إن أسرة من أبناء عمومته يجب إدراجها في قائمة المدعوين، وأخرى من معارفه القدامى لا يمكن إغفالها، حتى ارتفع العدد إلى عشرة أزواج على الأقل بدلًا من خمسة. ثم أخذوا يفكرون بعد ذلك في كيف يوزعونهم.
لقد كانت أبواب الحجرتين متقابلة، ألا يمكن إذن أن يستعملوا الحجرتين ويرقصوا عبر الممر؟. وبدا هذا أحسن تدبير ممكن، وإن لم يكن مرضيًا من كل الوجوه. وإذن فلا بد من البحث عما هو أحسن منه.
وقالت «إمَّا» إن هذا ترتيب سقيم »، وشعرت «مسز وستن» بالقلق من ناحية العشاء، كما عارض «مستر وودهاوس» ذلك بشدة من ناحية الصحة، واغتم كثيرًا لذلك، حتى أنهم لم يسترسلوا في بحثه بعد ذلك. قال:
«إن هذا يكون عملًا في منتهى الحماقة، ولا أحتمل هذا على «إمَّا» لأنها ليست بالقوية، وستصاب بالبرد الشديد، وسوف تتعرض له كذلك «هاريت» الصغيرة، بل وأنتم جميعًا. وأنت يا «مسز وستن» ستصبحين طريحة الفراش، فلا تدعيهم يتحدثون في هذا الشيء الفظيع، أرجو ألا تتركيهم يتكلمون في شيء جنوني كهذا، وهذا الشاب (وبصوت خافت) عديم التفكير، لا «تخبري والده بذلك، ولكن هذا الشاب ليس بالذي يعتمد عليه، إنه كثيرًا ما كان يفتح الأبواب هذا المساء، ثم يتركها مفتوحة دون اكتراث، إنه لا يفكر في تيارات الهواء، ولست أقصد أن أثير حفيظتك عليه، ولكنه ولا شك ليس كما يجب».
واستاءت «مسز وستن» لهذا الاتهام الذي قد يترك أثره، وحاولت أن تقول ما وسعها أن تقوله لكي تدرأ عنه هذه التهمة، ثم قامت وغلقت الأبواب جميعها. وقد تنحوا الآن عن فكرة استخدام الممر، وعادوا إلى
ما رسموه أول الأمر، من جعل الرقص في الحجرة التي هم فيها، كما أظهر «فرانك تشرشل» من حسن النية ما جعل الرقعة التي لم تكن منذ ربع ساعة كافية إلا لخمسة أزواج، صالحة الآن ليرقص فيها عشرة أزواج. فقال:

«لقد كنا كرماء جدًا وخصصنا للراقصين مساحة لا ضرورة لها. إن عشرة أزواج يقفون هنا في يسر وسهولة».

وتململت «إمَّا» وهي تقول: «إنه سيكون حشدًا مزدحمًا، حشرًا مؤلمًا، فماذا أقبح من الرقص في مساحة لا سبيل فيها إلى اللف والاستدارة».

وأجابها بصيغة جدية: «هذا صحيح، إنه شيء قبيح للغاية». واستثمر مع ذلك يقيس الحجرة طولًا وعرضًا وانتهى بقوله:

«أظن أنه سيكون هنا متسع لا بأس بهذه لعشرة أزواج ».

وردت: «لا، لا، إنك تقول كلامًا غير معقول، وسوف يكون الوقوف جنبًا إلى جنب شيئًا مفزعًا، ولا شيء أبعد من أن يكون مصدرًا للسرور، من الرقص في حشد مكتظ وفي حجرة صغيرة».

فأجابها: «لا أنكر هذا، وأنا متفق معك تمامًا، حشد مكتظ وفي حجرة صغيرة!! إنك يا «مس وودهاوس» قديرة على رسم صور بليغة في كلمات قليلة. إنها لقدرة عظيمة.. عظيمة جدًا!! وعلى الرغم من هذا،

فان المرء لا يميل إلى التخلي عن موضوع قطع في بحثه شوطًا بعيدًا، وسوف يغتم والدي لهذا، وقد لا أكون مصيبًا، ولكن يغلب على ظني مع ذلك أنه قد يتسنى لعشرة أزواج أن يقفوا هنا في سهولة تامة».

ولاحظت «إمَّا» أن ما طبع عليه من كياسة، يشوبه شيء من العناد، وأنه يفضل أن يعارضها على أن يحرم من متعة الرقص معها، فرضيت بالمديح وصفحت عما سواه، ولو أنها كانت تنوي أن تتزوجه لحق لها أن تتريث لتزن الأمور، وأن تحاول فهم ما يرضيه، وأن تتبين ما طبع عليه من مزاج. أما من حيث وضعهما الحالي فهو ظريف إلى حد يكفي لأن يكون أحد معارفها.

وقبل أن ينتصف اليوم التالي، كان في «هارتفيلد»، وقد دخل عليها، وعلى ثغره ابتسامة دلت على أن الخطة لا زالت قائمة. وسرعان ما تبين لها أنه جاء ينبئها بأنه أدخل تحسينًا على الخطة، ثم أخذ يقول بعد قليل:

«أجل يا «مس وودهاوس» أرجو ألا تكون مخاوفك من حجرات أبي الصغيرة قد قضت على ما عندك من ميل للرقص، وقد جئت الآن باقتراح جديد في الموضوع، وهو من بنات أفكار أبي، ولا ينقصه إلا موافقتك لكي نعمل على أساسه فهل لي أن أعقد الأمل على أن يكون لي شرف الرقص معك في الرقصتين الأوليين في هذه الحفلة الراقصة الصغيرة المزمع إقامتها، لا في «راندولز». بل في «نزل التاج».

«التاج!!».

«أجل، إن لم يكن لك و«لمستر وودهاوس» اعتراض على ذلك، وأعتقد أنكما لن تعارضا، وإن والدي لشديد الأمل بأن أصدقاءه سيتكرمون بزيارته هناك، وهو يعد بأنه سيوفر لهم مكانًا آفضل من «راندولز» ينزلون فيه معززين مكرمين كما لو نزلوا عليه في بيته. تلك هي فكرته، وليس «لمسز وستن» اعتراض عليها ما دمت أنت راضية، بل هذا هو شعورنا جميعًا، وكم كان رأيك

صائبًّا!! فإن اجتماع عشرة أزواج بأي الحجرتين في «راندولز » شيء لا يحتمل، إنه فظيع!! ولقد شعرت طول الوقت بصواب رأيك، ولكني كنت أتلهف على أي شيء يحوز رضاك، أليس هذا تغيير جميل؟ فهل أنت موافقة؟ هل لي أن آمل في موافقتك؟».
«إنه يبدو لي مشروعًا ليس لأحد أن يعترض عليك اللهم إلا أن يكون الاعتراض من جانب مستر وستن وزوجته بل ظني أنها فكرة رائعة، وأنا من ناحتي سوف أكون في منتهى السعادة. انه التحسين الوحيد على الخطة الأولى الذي كان في الإمكان. إلا تظن يا والدي أنه تعديل رائع؟».
واضطرت إلى توضيح الفكرة مرة أخرى قبل أن يفهمها أبوها فهمًا تامًا، ثم لما كانت فكرة جديدة، فقد كان من الضروري أن تتوسل إليه قبل أن يوافق عليها.
قال في خلال المناقشة: «لا، بل هو يظن أنها فكرة أبعد ما تكون من أن تكون تحسينًا، وأنها فكرة رديئة جدًا، بل وأسوأ كثيرًا من الفكرة الأولى، فإن حجرة في «النزل» لا يمكن إلا أن تكون خطرة، لا تحظى بالتهوئة الواجبة ولا تصلح لأن يأهلها الناس، وإذا كان لا بد من الرقص فأحرى بهم أن يرقصوا في «راندولز». وهو لم يدخل صالة «نزل التاج» مرة في حياته، ولم ير أصحاب هذا «النزل»، لا، إنه تدبير رديء للغاية وسوف يصابون بالبرد في «التاج» أكثر من أي مكان آخر».
وقال «فرانك تشرشل»: لقد كنت يا سيدي على وشك أن أقول إن أعظم ما يعزز هذا التغيير، بعد المكان عن إصابة أي أحد بالبرد، فالخطر من هذا أقل كثيرًا في «نزل التاج» منه في «راندولز ». وقد يكون لدى «مستر بري » من الأسباب ما يبرر أسفه لهذا التغيير، ولكن ليس لأحد غيره أن يأسف لهذا».
ورد «مستر وودهاوس»: «سيدي، أنت مخطئ كل الخطأ إذا تصورت «مستر بري» على هذا الخلق. فمستر «بري» يشتد به القلق حين يصاب أحدنا بمرض، ولكني لا أدري كيف تكون صالة «نزل التاج» أكثر أمانًا لكم من بيت أبيك».
«ذلك لأنها أكبر يا سيدي، ولن تكون هناك مناسبة لفتح النوافذ أبدًا، فسوف ينتهي المساء ولا يفتح مرة، والضرر كما تعلم لا يتأتى إلا من العادة القبيحة التي تجعلهم يفتحون النوافذ، فيدخل الهواء البارد على الأجسام الساخنة».
«يفتحون النوافذ!! من المؤكد يا «مستر تشرشل» أن أحدًا لن يفكر في فتح النوافذ في «راندولز»، فلن يكون من هو بهذه الحماقة!! وما وصل إلى سمعي شيء كهذا. بل عجبي أن يكون هناك رقص والنوافذ مفتوحة!! وأعتقد أنه لا والدك ولا «مسز وستن» (المسكينة مس تيلور سابقًا) يسمحان بذلك.
«سيدي، ولكن قد يتسلل أحيانًا فتى غرخلف الستار على غير انتظار، ثم يفتح النافذة، وكثيرًا ما بلغني نبأ مثل ذلك».
«أحقا بلغك ذلك يا سيدي؟ رحماك يا ربي!! ما كنت أظن هذا أبدًا، ولكني بعيد عن العالم، وكثيرًا ماتستولي عليّ الدهشة لما أسمعه، ومع ذلك فإن فارقًا في

هذه الحالة، وربما حين تتحدث في الموضوع – ولكن مثل هذه الأشياء تحتاج إلى بحث مستفيض، ولا يستطيع المرء أن يبت فيها في عجلة، ولو تكرم كل من «مستر وستن» و «مسز وستن» بزيارتنا صبيحة يوم ما، فإن من الممكن أن نتباحث في هذا ونرى ماذا يمكن عمله».

«ولكن وقتي يا سيدي لسوء الحظ محدود».

«فقاطعته «إمَّا» قائلة: «عجبًا! ستكون هناك فسحة من الوقت لبحث كل شيء ولا داعي للعجلة أبدًا، ولو أمكن يا أبتي تدبير الأمور في «نزل التاج» فإن ذلك سيكون ملائمًا جدًا للخيل، لأنها ستكون قريبة جدًا من حظيرتها».

«إنها ستكون كذلك يا عزيزتي، وهذه ناحية هامة لأن «جيمز» لن يشكو أبدًا، ولكن من الصواب مع ذلك أن نريح خيولنا كلما أمكننا ذلك، وحبذا لو تأكدت أن الحجرات ستهوّى تمامًا، ولكن هل يمكن الاعتماد على «مسز ستوكس»؟ إني أشك في ذلك، وإن كنت لا أعرفها، ولا وقع عليها بصري».

«يمكنني أن أجيب على كل شيء من هذا النوع يا سيدي لأن ذلك سيكون تحت إشراف «مسز وستن»، وقد تعهدت «مسز وستن» بمباشرة كل شيء».

«هاك يا أبي! ولا بد في أن نقتنع الآن ما دام الأمر في يد عزيزتنا «مسز وستن»، فهي العناية مجسمة، ألا تذكر ما قاله لك «مستر بري» منذ سنوات عديدة عندما أصبت بالحصبة «ما دامت «مسز تيلور» قد تعهدت بلف مس «إمَّا» فليس لك يا سيدي أن تخشى شيئًا»؟ وكثيرًا ما سمعتك تستعيد ذلك وتمتدحها».

«نعم لقد حدث ذلك فعلًا، فهذا ما قاله «مستر بري» ولن أنساه، مسكينة أنت يا صغيرتي «إمَّا» لقد قاسيت كثيرًا من الحصبة، ولولا عناية «بري» العظيمة لسايرت حالتك كثيرًا. لقد استمر أسبوعًا وهو يأتي لزيارتك أربع مرات كل يوم، ولقد قال بادئ الأمر إنها من النوع الخفيف، وارتحنا لكذلك كثيرًا، ولكن الحصبة مرض مخيف، وأرجو عندما يصاب أولاد «إيزابلا» بها أن تستدعي «بري»».

وقال «فرانك تشرشل»: «إن والدي و«مسز وستن» في «نزل التاج». في هذه اللحظة، وهما يفحصان إمكانيات الصالة، وقد تركتهما هناك وأتيت إلى «هارتفيلد» وأنا متلهف على أخذ رأيك، وكلي أمل في أن أقنعك بأن تلحقي بهما وتنصحيهما بما ترينه، على الطبيعة. وقد طلبا مني أن أقول لك ذلك، وإنه ليسرهما كثيرًا لو سمحت لي بأن أرافقك إلى هناك، فهما لا يستطيعان أن يؤديا عملًا مرضيًا بدونك».

وكان سرور «إمَّا» بالغًا، أن تكون قد طلبت لتبدي رأيها. خرج الاثنان معًا دون توان إلى «نزل التاج» وتركت والدها ليشغل نفسه

ببحث الموضوع بعد خروجها - وهناك التقيا «بمستر وستن» و«مسز وستن»، وقد سرهما أن يرايها وأن يعلما بموافقتها، وقد كانا مكبين على العمل، لكل

منهما ما يسره بطريقته الخاصة، فبينما كانت هي على شيء يسير من القلق، كان هو يجد كل شيء على أكمل ما يكون.
وقالت «مسز وستن»: «إن هذا الورق الذي يغطي الجدران يا «إمَّا» أسوأ مما كنت أنتظر، أنظري!! إنك ترينه في بعض الأماكن قذرًا إلى أبشع حد، وذلك الإفريز الخشبي الذي يحيط بالجدار قد أهمل وأصفّر لونه أكثر مما كان يدور بمخيلة أحد».
وقال زوجها: «إنك يا عزيزتي تعنين بكل وصغيرة وكبيرة، وماذا يهم كل هذا؟ إنك لن تري شيئًا من ذلك في ضوء الشموع، ولن تقل نظافة عن«راندولز» في ضوئها، ونحن لا نرى أبدًا شيئًا من هذا في الليالي التي يجتمع فيها نادينا».
وهنا تبادلت السيدتان النظرات بما لا يستفاد منه: «إن الرجال لا يعرفون أبدًا متى تكون الأشياء قذرة ومتى تكون نظيفة».
ولعل كلا من السيدين فكر في نفسه كذلك: «إن النساء لهن سخافتهن وهمومهن التي لا مبرر لها».
ونشأت مشكلة بعد ذلك ما كان للسيدين أن يغضا الطرف عنها، مشكلة الحجرة التي يتناول فيها المدعوون العشاء إذ لم يكن يحسب للعشاء حساب وقت أن بنيت صالة الرقص، فلم يكن يجاورها إلا حجرة صغيرة للعب الورق، وإذن فما العمل؟ إن هذه الحجرة الخاصة بلعب الورق سوف تخصص الآن لما أسست من أجله، وحتى لو اجمع أربعتهم على أنها غير لازمة لهذا الغرض، فأنها لا تزال مع ذلك أصغر من أن تسمح بتناول العشاء في يسر. وقد يكون في الإمكان تدبير حجرة أكثر اتساعًا لهذا الغرض، ولكنها كانت في نهاية الطرف الآخر من المبنى،، ولا بد من اجتياز ممر طويل ورديء للوصول إليها.
ونشأت في ذلك صعوبة أخرى، لقد كانت «مسز وستن» تخشى من تيارات الهواء في هذا الممر على الشباب من المدعوين ولم تستطع «إمَّا» ولا السيدان كذلك أن يتحملوا منظر التكدس الكريه وقت العشاء.
واقترحت «مسز وستن» عدم إعداد عشاء كامل، ورأت أن يكتفي بالشطائر، وأن يكون تقديمها في الحجرة الصغيرة، ولكن هذا الاقتراح رفض من أساسه، باعتباره اقتراحًا غير مقبول في شكله ومبناه، إذ كان من رأي المعترضين عليه، أن حفلة رقص خاصة بغير عشاء تعتبر افتئاتًا على حقوق الرجال والسيدات، وخدعة مرذولة لا يجوز «لمسز وستن» أن تعاود الكلام فيها.
وفكرت «مسز وستن» بعد ذلك في شيء آخر قد يفي بالغرض، وألقت نظرة على داخل الحجرة التي كانت موضع الجدل، ثم قالت:
«لا أظن أنها كما نتصور من الضيق، وعددنا ليس بالكثير كما تعلمون».
وكان «مستر وستن» وقتئذ يخطر في سرعة ونشاط عبر الممر وينادي: «إنك تتحدثين كثيرًا عن طول هذا الممر يا عزيزتي، وهو مع كل هذا ليس بالطول الذي يذكر، وليست هناك أية تيارات من ناحية السلم».

وقالت «مسز وستن»: «بودي لو أعلم أي ترتيب يفضله ضيوفنا بوجه عام، إذ لا بد أن يكون هدفنا عمل ما يشيع أقصى السرور في نفسهم، فلو أن أحدًا دلنا على ما يمكن أن يحقق ذلك».

وصاح «فرانك»: «أجل، هذا صحيح جدًا، فإنك تريدين أن تقفي على آراء جيرانك، وليس هذا منك بعجيب، فلو أن المرء تحقق من رأي أهم هؤلاء شأنًا - فهناك مثلًا أسرة «كول»، وهم ليسوا بعيدين عن هنا: فهل أذهب إليهم؟ أو «مس بيتس»؟ فهي أقل بعدًا منهم.

ولست أدري ما إذا كانت «مس بيتس» قادرة كغيرها من الناس على تفهم ميول الآخرين، أظن أننا لسنا في حاجة إلى مجلس استشارة أكثر من هذا، فما رأيكم في ذهابي ودعوة «مس بيتس» لتشترك معنا؟».

وقالت «مسز وستن» في تردد: «أجل، وأرجوك أن تذهب إذا كنت تظن أن ثمة فائدة ترجى من وراء ذلك».

وقالت «إمَّا»: «لن تحصلوا من «مس بيتس» على شيء يحقق هدفًا، نعم سيفيض قلبها بالسرور، ويلهج لسانها بالشكر، ولكنها لن تدلكم على شيء، ولن تستمع حتى إلى أسئلتكم، ومن ثم فلست أرى أي كسب في استشارة «مس بيتس».

«ولكنها مسلية، ومسلية للغاية! وإني مغرم بسماع «مس بيتس» وهي تتكلم، واعلمي أني لست في حاجة إلى إحضار الأسرة بأكملها».

واشترك معهما «مستر وستن» الآن، وعندما سمع بالاقتراح وافق عليه وقال:

«نعم، قم بهذا يا «فرانك»، إذهب وأحضر «مس بيتس»، ودعنا نفرغ من هذه المسألة حالًا، وأنا موقن بأن الخطة ستسرها، ولا علم لي بمن هو أصلح منها في تبصيرها بكيفية التغلب على الصعوبات، فلتذهب وتأتِ «بمس بيتس»، فلقد ازددنا مراعاة لدقائق الأمور، وهي أنموذج حي لمعرفة كيف يكون المرء مسرورًا، ولكن عليك بإحضار الاثنتين، أدعهما سويًا».

«كلتاهما يا سيدي! وهل في وسع السيدة العجوز -؟».

«السيدة العجوز؟ لا، السيدة الصغيرة بالتأكيد، ولسوف أظنك غبيًا كبيرًا يا «فرانك» لو أنك أتيت بالخالة وتركت ابنة الأخت».

«معذرة يا سيدي فلم اتنبه إلى ذلك على الفور، وما دامت هذه رغبتك فإني ولا شك سأبذل جهدي في التأثير عليهما» ثم انطلق.

وأعادت «مسز وستن»، شأنها شأن السيدة دمثة الأخلاق والزوجة الصالحة، فحص الممر قبل أن يعود «فرانك» بوقت طويل، ومعه الخالة القصيرة النشيطة الأنيقة، وابنة أختها الرشيقة، فألقت مساوئه أقل بكثير مما كانت تظن من قبل، بل هي لا تزيد على أن تكون هينات. وهكذا استقر رأيهم بلا صعوبة في هذه المسألة، وصار ما تبقى من المسائل بعد ذلك من الأمور الميسورة، وأصبحت كل الترتيبات البسيطة، من إعداد المائدة والكراسي

والإضاءة، والموسيقى والشاي والعشاء في متناول اليد، فتركت على أنها من التوافه، لتبت فيها «مسز وستن» و«مسز ستوكس» في أي وقت.

وقد كان من الأمور المحققة أن يحضر من دعوا جميعًا، وكان «فرانك» قد بعث برسالة إلى «أنسكومب» يقترح فيها البقاء لأيام قليلة زيادة على الأسبوعين، ولم يكن من المنتظر أن يرفض طلبه، وهكذا سوف تكون حفلة رقص ممتعة.

ووافقت «مس بيتس» من قرارة قلبها عند وصولها، على أنها سوف تكون حفلة ممتعة. إن وجودهالم يكن مطلوبًا للإستشارة، وإنما للموافقة (فهذه ناحية مأمونة الجانب) ومن ثم كانت مطلوبة كل الطلب. ولقد أعطت موافقتها في الحال، جامعة شاملة، في حماس لا ينقطع، فأشاعت في الحاضرين السرور.

وأمضى الجميع نصف ساعة وهم يسيرون جيئة وذهابًا بين الحجرات، بعضهم يبدي اقتراحات، والبعض الآخر يستمع، والكل في انتظار ما يأتي به المستقبل من متعة وسرور. ولم ينفرط عقدهم دون أن يظفر بطل الأمسية بحجز الرقصتين الأولتين مع «إمَّا» لنفسه، ودون أن تسمع ما همس به «مستر وستن» لزوجته وهو يقول:

لقد طلبها يا عزيزتي للرقص، وهذا هو عين الصواب. لقد كنت أعلم بأنه لا بد فاعل ذلك».

لم يبق إلا شيء واحد ليتم سرور «إمَّا» بمشروع الحفلة الراقصة، ذلك هو تحديد موعدها في خلال الفترة التي سمح «لفرانك تشرشل» بقضائها في «سرى». إذ على الرغم من ثقة «مستر وستن» من ذلك، كانت لا تستبعد أن ترفض أسرة «تشرشل» السماح له بالمكث يومًا واحدًا بعد انقضاء الأسبوعين المحددين له، أما تحديد الموعد قبل انقضاء الأسبوعين فلم يكن بالأمر المستطاع. فقد كان لا بد من وقت كاف للاستعداد، ولم يكن ممكنًا إتمام هذه الاستعدادات حتى أوائل الأسبوع الثالث، إذ كان عليهم أن يمضوا بضعة أيام في التنسيق والترتيب، والتنقل هنا وهناك، وبناء الأمل على ما لم يكن مؤكدًا مع ما في ذلك من مخاطرة كانت في رأيها مخاطرة كبرى - بأن كل هذه الترتيبات قد تضيع في النهاية سدى.
على أن سادة «أنسكومب» قد أثبتوا أنهم كرماء بالفعل إن لم يكونوا بالقول، فلقد كان من الواضح أن رغبته في المكث مدة أطول لم تلق منهم ترحيبًا، ولكنهم مع ذلك لم يعارضوها. وهكذا كان كل شيء مطمئنًا ومبشرًا بالنجاح. ولما كان كل تخلص من عقبة يفتح المجال عادة لعقبة أخرى، فقد أخذ ينتاب «إمَّا»، وقد تحققت الآن من إقامة الحفل، ضيق آخر، مبعثه عدم اكتراث «مستر نيتلي» به، لعل سببه أنه لا يرقص، أو أن المشروع قد تم دون استشارته، فبدا كأنه يعتقد بأنه لن يجد فيه متعة، وأنه لن يكون فيه شيء يثير اهتمامه أو يروح عنه. ولم تستطع «إمَّا» أن تظفر برد منه على ما تطوعت به من معلومات بأكثر من قوله:
«أجل، وما دامت أسرة «وستن» ترى أن هذا الحفل يستحق أن يقام مع كل هذه المتاعب، من أجل ساعات قليلة تقضى في متعة صاخبة، فلا وجه لاعتراضي عليه. غير أنه ليس من حقهم أن يختاروا لي ما يسرني. نعم لا بد من حضوري، فليس بوسعي أن أرفض، وسأظل لا أجفو، على قدر استطاعتي، ولكني كنت أفضل أن أكون بمنزلي، وأن أراجع حسابات الأسبوع مع «وليم لاركنز»، وأعترف بأن هذا كان أفضل لي، أما السرور بمشاهدة الرقص، فلست أنا الذي ينعم بمثل ذلك. فأنا لا أراقب الرقص أبدًا، ولا أعرف أحدًا يميل إلى ذلك، وأعتقد أن الرقص الجميل مثل الفضيلة، جزاؤه في

ممارسته، أما أولئك الذين يقفون ليشاهدوا الراقصين، فهم في العادة يفكرون في شيء يختلف عن الرقص كل الاختلاف».

وشعرت «إمَّا» أن هذا الكلام موجه إليها، وأغضبها ذلك منه، إذ لم يكن عدم اكتراثه أو سخطه، تملقًا منه «لجين فيرفاكس» ولم يكن استنكاره للحفل إرضاء لمشاعرها، فهي قد اغتبطت بالفكرة كل الاغتباط، وبلغ من سرورها بها أن فتحت قلبها لها لتقول:

«مرحا، مرحا، يا «مس وودهاوس» إني آمل ألا يحدث ما يمنع من إقامة الحفل، إذ ما أتعس أن يحدث هذا!! وإني لأترقبه بعظيم السرور».

وإذن فهو لم يفضل أن يكون بصحبة «وليم لاركنز» لمجرد أن يرضي «جين فيرفاكس»، لا، أبدًا!! وزاد اقتناع «إمَّا» بأن «مسز وستن» قد أخطأت في تكهناتها، وأن علاقته بجين لم تكن بدافع الحب، بل وليدة الشعور بالعطف والحنان.

ولكن وا أسفاه!! فلم تكن لها فسحة من الوقت للتشاحن مج «مستر نيتلي».

لقد مضى يومان في بهجة ولدها الشعور بالاطمئنان، ثم إذا بكل شيء يصبح في خبر كان. لقد وصل خطاب من «مستر تشرشل» يستنهض فيه ابن أخته العودة، لأن «مسز تشرشل» مرضت واشتد بها المرض، فلم تعد في غنى عنه، وقد كانت في آلام مبرحة (هكذا قال زوجها) عندما كتبت إليه منذ يومين، ولكنها لم تشأ أن تخبره بذلك، رغبة منها في عدم إيلامه، ونظرًا لما طبعت عليه من نكران الذات. على أن المرض قد اشتد بها الآن حتى أصبحت لا تستطيع أن تستهين به، ومن ثم فهي تلحف بالرجاء، أن يبرح إلى «أنسكومب» دون إبطاء.

وبعثت «مسز وستن» بمذكرة إلى «إمَّا» في الحال متضمنة ما جاء بالرسالة، تقول فيها: وهكذا لم يعد هناك مفر من ذهابه، بل لا بد له من أن يبرح في غضون ساعات معدودات، رغم أنه لم يبد عليه أي فزع حقيقي من أجل زوجة خاله لكي يقلل من امتعاضه، فلقد كان عليمًا بأمراضها التي كانت لا تحدث إلا لتلائم أغراضها. ثم أضافت «مستر وستن» تقول في مذكرتها:

«إنه سيستقطع لنفسه عقب الإفطار وقتًا يكفي لأن يسرع فيه إلى «هايبري» ليودع الأصدقاء القلائل الذين يرى فيهم شعورًا بالاهتمام به، وأنه من المنتظر أن يصل إلى «هارتفيلد» حالًا».

واستلمت «إمَّا» المذكرة المشؤومة عقب تناولها طعام الإفطار مباشرة، وما كانت لتستطيع أن تفعل شيئًا عندما قرأتها، إلا أن تعبر عن الأسى على عدم إقامة الحفل، وعلى فراق الفتى،. وعلى كل ما قد ينتابه من الألم بسبب ذلك. حقًا ما أتعس هذا!! وما أبهجها من أمسية تلك التي كنا سنقضيها والكل فيها سعيد، وهي وهو أسعدهم جميعًا. «لقد قلت أن ذلك سيحدث» - كانت هذه كل سلواها الآن.

وظهرت المشاعر التي انتابت والدها واضحة جلية. لقد كان أهم ما شغل باله، مرض «مسز تشرشل»، وقد ود لو علم كيف تعالج. أما الحفلة الراقصة، فقد أفزعه أن يرى «إمَّا» حزينة مكتئبة، ولكنهم في نظره سوف يكونون أكثر أمنًا واطمئنانًا في بيوتهم جميعًا.
واستعدت «إمَّا» للقاء الزائر قبل مجيئه بوقت طويل. وإذا كان لم يبد عليه شيء من مظاهر التبرم والضجر، فقد كان ما بدا على محياه من دلائل الحزن العميق، ومظاهر الغصة في قرارة نفسه، ما كان شفيعًا له عندها.
لقد أخذت مشاعره بالرحيل، منه مأخذًا عقد لسانه عن التحدث فيه، وكان امتعاضه منه جليًا واضحًا. فجلس الدقائق الأولى وهو غارق في بحر أفكاره، ولم يستطع بعد أن استعاد وعيه، أكثر من أن يقول:
«إن الوداع هو أفظع شيء في الوجود».
وقالت «إمَّا»: «ولكنك ستعود، ولن تكون هذه زيارتك الوحيدة إلى «راندولز».
فأجابها (وهو يهز رأسه): «آه، إن قدرتي على العودة ليست مؤكدة!! وسأحاول جهدي أن أعود، وسيكون هذا هو هدفي الذي أوجه إليه كل تفكيري وعنايتي!! لو أن خالي وزوجته يذهبان إلى المدينة هذا الربيع!! - ولكني أخشى ألا يذهبا، لأنهما لم ينتقلا الربيع الماضي، وتلك عادة مضت ولن تعود».
«إن حفلتنا الراقصة لابد أن يصرف عنها النظر».
«واحسرتاه على تلك الحفلة. لماذا انتظرنا هكذا؟ لماذا لم نمسك بتلابيب السعادة في وقتها؟ فما أكثر ما يقضي على السعادة بإعداد العدة لها، ويا له من أعداد سخيف!! لقد قلت لنا إن هذا سوف يحدث. غريب يا «مس وودهاوس» لماذا أنت على الدوام صائبة؟».
«إنه ليحزنني كثيرًا أن أكون صائبة في هذه المناسبة، فلقد كنت أفضل أن أكون مرحة من أن أكون حكيمة».
«إذا تسنى لي أن أعود، فأننا سنقيم الحفل، ووالدي مصر على هذا، فلا تنسي ارتباطنا».
ونظرت «إمَّا» إليه في حنان ورقة، ثم استمر يقول:
«ما أعظمهما من أسبوعين قضيتهما!! لقد كان كل يوم فيهما أثمن وأجمل من سابقه، كل يوم يجعلني أقل تحملًا لأن أعيش في مكان غير هذا، فما أسعد أولئك اللذين يستطيعون البقاء في «هايبري».
وقالت «إمَّا» ضاحكة: «الآن وقد وفيتنا حقنا، فإني سأجرؤ على أن أسألك إذا كان لم يراودك شك فينا في بادئ الأمر؟ ألم تجدنا خيرًا مما كنت تنتظر؟ أعتقد أننا كذلك، بل إني متأكدة بأنه ما كان يخطر لك ببال، أنك سوف تميل إلينا، ولو كانت فكرتك عن «هايبري» طيبة لما تباطأت في المجيء اليها».
فضحك وقد أدرك قصدها. وتأكدت «إمَّا» بأن هذا كان شعوره، ولو أنه أنكره.
«وهل لا بد من رحيلك هذا الصباح بالذات؟».

«أجهل، وسيلحق بي أبي هنا لنعود سويًا، ثم أرحل في الحال. إني أنتظر مجيئه بين لحظة وأخرى».
«ألا تجد خمس دقائق لتخص لها أصدقاءك: «مس فيرفاكس» و«مس بيتس»؟
ما أبأس ذلك!! فأن عقل «مس بيتس» بما له من قدرة كبيرة على الجدل قد يقوّي من عقلك».
«أجل، لقد ذهبت لزيهارتهن. فقد كنت أمر ببابهن، ورأيت أنه قد يكون من الأفضل أن أدخل لزيارتهن، بل كان من الصواب أن أفعل ذلك، ولقد دخلت لأقضي ثلاث دقائق، ولكني تأخرت لأن «مس بيتس» لم تكن موجودة. كانت قد خرجت، وشعرت أنه من المستحيل ألا أنتظر حتى تعود، فهي سيدة لا يتمالك الإنسان نفسه من الضحك منها، بل هو لا بد أن يضحك منها، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يستخف بها. لقد كان من المستحسن أن أقوم بهذه الزيارة، ثم... ».
وتردد وهم واقفًا، ثم سار نحو نافذة وقال:
«يخيل إليّ يا «مس وودهاوس» بإيجاز، أنك لابد تشعرين بشيء من الريبة» ثم نظر إليها كأنما يريد أن يستطلع أفكارها.
ولم تدر ماذا تقول، وبدا كأن هذا كان مقدمة لشيء خطير كانت في غنى من سماعه. ولذلك استجعمت كل قواها لتتكلم أملًا في تأجيل الإفصاح عنه، وقالت في هدوء:
«لقد كنت محقًا تمامًا في رأيك، وكان أمرًا طبيعيًا أن تقوم بهذه الزيارة، ولذا...».
فسكت، وأيقنت أنه كان يتأملها، ولعله كان يفكر فيما قالته، ويحاول أن يعرف مداه، وسمعته يتنهد، وكان من الطبيعي أن تشعر بأن هناك سببًا لتنهده. وما كان له أن يعتقد بأنها تشجعه. ومرت لحظات قليلة حرجة، ثم جلس ثانية وقال وبطريقة أكثر حزمًا:
«لقد أفدت من شعوري بأني أستطيع أن أعطي ما تبقى من وقتي لهارتفيلد، فإن «هارتفيلد»، لها في نفسي منزلة عزيزة» ثم توقف عن الكلام مرة أخرى ووقف ثانية وبدا عليه الارتباك... لقد كان حبه لها أكثر مما كانت تظن، ومن ذا الذي كان أن يتكهن كيف كانت ستكون خاتمة هذا الموقف، لو أن والده لم يحضر في تلك اللحظة؟ وسرعان ما جاء «مستر وودهاوس» في أعقابه وبذل «فرانك» جهده ليستعيد هدوءه.
ومضت بعد ذلك دقائق قليلة، انتهى بعدها هذا الامتحان القاسي.
ولما كان «مستر وستن» دائمًا يقظًا إذا عنا له أمر يجب أداؤه، وكان لا يحب أن يؤجل وقوع شر لا بد من وقوعه، بقدر ما كان عاجزًا عن أن يتنبأ بحدوث شر هناك شك في حدوثه، فقد قال:
«لقد حان الوقت للرحيل».
ولم يسع الفتى إلا أن يوافق، وأن ينهض واقفًا ليستأذن رغم أنه تنهد وقال:

«سوف تصلني أخباركم جميعًا، وسيكون في هذا أعظم سلوى لي، وسأعلم بكل ما يدور بينكم، فلقد أخذت على «مسز وستن» عهدًا أن تراسلني، وقد تكرمت فوعدتني بذلك، فما أسعد أن يكون المراسل سيدة عندما يكون المرء مهتًا بمن هو غائب عنه.. إنها ستخبرني بكل شيء، وسأشعر من رسائلها أني في «هايبري» العزيزة ثانية».

وختم الحديث بمصافحة تفيض ودًا، وهو يقول «مع السلامة».

وسرعان ما خرج واحتجب عن الأنظار. لقد كان سفره مفاجئًا، وكانت الفترة التي قضاها معها قصيرة. وقد ذهب الآن، وشعرت «إمَّا» بما للفراق من أسى، وتنبأت بما سيحل بجماعتهم الصغيرة من خسارة كبرى لغيابه عنها، مما جعلها تخشى على نفسها أن يستبد بها الحزن ويتفاقم إحساسها بهذه الخسارة.

لقد كان تغييرًا محزنًا، إذ ظلا يلتقيان منذ وصوله كل يوم تقريبًا، ولا ريب أن وجوده في «راندولز» قد بث فيها في الأسبوعين الأخيرين حيوية عظيمة.. حيوية لا توصف. حقًا ما أحلاها فترة، تفكيرها فيه، وترقب رؤيته مع كل صباح، وثقتها بأنه سوف يغمرها بعنايته ومرحه وحيويته، ومسلكه وأسلوبه! لقد كانا أسبوعين هنيئين يفيضان سعادة.

وإنه لمن البؤس أن تتردى بعدهما إلى أيام «هارتفيلد» بما فيها من حياة رتيبة. لقد كاد أن يقول لها إنه يحبها، فاستكمل بذلك كل مأمن شأنه أن يزكيه عندها. أما مدى قوة هذا الحب، ومدى متانته ومقارعته للزمن، فهذا شيء آخر، ولكنها ما كانت في تلك الآونة لترتاب في حبه الجارف لها، وفى تفضيله لها على كل من عداها. وقد دفعها هذا التفكير، بالإضافة إلى غيره من الملابسات والظروف، إلى أن تظن في نفسها أنها لا بد أن تكون قد أحبته على الرغم من كل إصرار من جانبها عكس ذلك.

وقالت لنفسها: «لا بد أني أحببته، ما في ذلك شك، فهذا الإحساس بالقلق وعدم الاستقرار، هذا الاحساس بالوهن وبلادة الذهن، هذا العزوف عن الجلوس لأشغل نفسي بشيء أعمله، هذا الشعور بأن كل ما في البيت كئيب وتافه... كل ذلك إنما يدل على أني قد وقعت في شراك الحب، فإذا لم يمكن هذا... فإني أكون أعجب مخلوقة في الوجود، ولو لأسابيع قليلة على الأقل. حقا أن مصائب قوم عند قوم فوائد، فلسوف أجد لي شركاء كثيرين يحزنون من أجل الحفلة، إن لم يكن من أجل «فرانك تشرشل»، و لكن «مستر نيتلي» سيفرح، وله الآن أن يقضي المساء مع عزيزه «وليم لاركنز» إذا أراد».

على أن «مستر نيتلي» لم يظهر أي سرور بانتصاره، وفى الوقت نفسه لم يستطع أن يقول إنه آسف هو نفسه، فقد كانت مظاهر البهجة التى كانت تنتشر فوق وجهه تنفي ذلك، ولكنه قال في جد وصدق إنه آسف لخيبة آمال الآخرين، ثم زاد على ذلك في رقة بالغة:

«إنك يا «إمَّا»، وفرص الرقص لا تأتيك إلا نادرًا، قد خانك الحظ ولا شك. لقد كان سوء طالعِك بالغًا أقصاه!».

ومضت بعض أيام لم تر فيها «جين فيرفاكس» لتحكم على ما لحقها من أسى بسبب هذا التغيير المحزن، فلما تقابلنا، رأتها تبدو في هدوء عجيب. لقد كانت مريضة تقاسي من الصداع، مما جعل خالتها تصرح بأن «جين» لم يكن بوسعها أن تحضر الحفل لو أنه أقيم. وإنه لحسن منها أن تعزو ما كان يبدو على «جين» من عدم اكتراث لا يليق، إلى اعتلال صحتها.

ظلت «إمَّا» لا يخامرها الشك في أنها تحب، وإنما اختلفت في تقدير مدى ما وصلت إليه في مدارج الحب. لقد ظنت في بادئ الأمر إنه كان بالغًا، ثم رأت بعد ذلك أنه كان يسيرًا. لقد كان يسرها كثيرًا أن تستمع
إلى ما يقال عن «فرانك تشرشل»، وزاد من أجله، سرورها برؤية «مستر وستن» وزوجته. كانت تفكر فيه معظم الأحيان، وتتلهف على وصول رسالة منه تقف منها على أحواله، وعلى ما كان عليه مزاجه، وتعرف منها صحة زوجة خاله، والفرصة التي تتهيأ لمجيئه إلى «راندولز» في هذا الربيع مرة أخرى. ولكنها من ناحية أخرى كانت لا تعترف بأنها غير سعيدة، ولا بأنها كانت أقل ميلًا إلى العمل من عادتها بعد اليوم الأول، لقد كانت لا تزال دائبة العمل مبتهجة النفس. وقد تبينت الآن إنه على ما كان عليه من ملاحة لا يخلو من عيوب، وزيادة على ذلك، فإنها على الرغم من كثرة تفكيرها فيه، ورسم آلاف الخطط اللطيفة وقت جلوسها للرسم، أو العمل لدعم حبها أو لوقفه، فإن كل ما ساورها من تخيلات، وصل في النهاية إلى أنها ترفضه. فلقد رأت أن حبهما لا بد أن يتضاءل إلى صداقة. ولم يكن افتراقهما ليتسم إلا بكل ما هو رقيق وبهيج، ولكن مع ذلك كان لا بد من فراقهما. ولما أحست بذلك، خطر لها أنها لا يمكن أن تكون قد بلغت درجة كبيرة من الحب، إذ على الرغم من عزمها الأكيد فيها مضى، على ألا تترك أباها، وألا تتزوج أبدًا، فإن الحب العنيف قد يثير في نفسها أكثر من صراع لا يمكنها التكهن بعاقبته ومن ثم فقد قالت:

«أراني لا أفيد قط من كلمة التضحية، فليس في ردودي الحصيفة كلها، ولا في رفضي الرقيق ما ينبئ بأية تضحية. ويخيل إلى أن ارتباطي به ليس في الواقع شيئًا تستوجبه سعادتي، وفي هذا كل الخير. ولن أحمل نفسي فوق ما حملتها من مشاعر، وكفاني ما أشعر به من حبه، فإنه ليسوءني أن يزيد إلى ذلك».

لقد كانت بصفة عامة قانعة برأيها في عواطفه نحوها.

«إنه ولا شك يهيم بحبها - كل شيء يدل على ذلك - إنه مولع بها دون ريب - ولا بد لي أن أكون على حذر فلا أعمل على إذكاء حبه إذا عاد ثانية وكان لا يزال على حبه، فهو شيء لا يغتفر إن فعلت غير هذا، وقد عقدت العزم على ذلك، لا لأني أتخيل أنه قد يتبادر إلى ذهنه أني كنت أشجعه، لا، فهو كان يعتقد بأني أشاركه عواطفه، لما شعر بمثل هذه التعاسة، ولو كان يظن من جهة أخرى

أنه كان يلقي تشجيعًا، لاختلفت نظراته وعباراته ساعة الفراق، ومع هذا فلا بد لي من الحيطة، هذا على فرض أنه سيدوم على حبه، ولكني لا أنتظر ذلك، فلست أراه من هذا الطراز من الرجال، بل لست واثقة من أنه سيستمر ويثبت على حبه. إن مشاعره حارة، ولكن يبدو لي أنها متقلبة، وقصارى القول، إني إذا نظرت إلى الموضوع من جميع زواياه. رأيت أن مما يستوجب الحمد ألا تكون سعادتي معرضة للخطر، وأن حالي سينصلح بعد قليل، وأعود كما كنت وأنسى كل شيء. والناس يقولون أن كل إنسان يحب في حياته مرة، ومن ثم فأني أكون قد نجوت من الحب بسهولة».

ولما وصلت رسالة منه إلى «مسز وستن»، أعطيت «لإمَّا» كي تتصحفها، فقرأتها في شيء من السرور والإعجاب، وهزت رأسها لأول وهلة، دهشة من أحاسيسها، وانطلقت تفكر في أنها لم تقدر قدرتها حق قدرها. كانت رسالة مستفيضة، كتبت في أسلوب رصين، وتضمنت وصفًا لتفاصيل رحلته ومشاعره. عبر فيها عن حبه وامتنانه واحترامه في نبل ودون تكلف، ووصف كل شيء في بيئته وخارجها، مما رآه مشوقًا، بحماس ودقة، وفي بعد عن كل تنميق أو اعتذار أو قلق. كانت لغته لغة من يحس بإحساس صادق نحو «مسز وستن»، ولم يمس موضوع انتقاله من «هايبري» إلى «أنسكومب»، ويقارن بين المكانين من حيث بعض نعم الحياة الاجتماعية فيهما إلا مسًا خفيفًا، إلى القدر الذي يسمح له بأن يبين مدى شعوره، وأنه لولا مراعاة اللياقة لأفاض وأطنب. ولم يغفل عن ذكر اسمها المحبب، فقد وردت كلمة مس «مس وودهاوس» أكثر من مرة في خطابه، مقرونة في كل مرة بمناسبة من المناسبات السارة التي تشيد بحسن ذوقها أحيانًا، أو تستعيد بعض كلماتها أحيانًا أخرى. وفي آخر مرة وقع نظرها على اسمها في الخطاب، لم يكن مزدانًا بمثل هذه الأكاليل العريضة من المديح، ولكنها مع ذلك تبينت من الملابسة، ما كان لها من تأثير عليه، ورأت فيه ما هو أعظم من كل ما ذكره من مديح. لقد كانت الكلمات الآتية مضغوطة في زاوية بأسفل الرسالة:

«لم يكن وقتي يوم الثلاثاء كما تعلمين ليجود بلحظة أقضيها مع الصديقة الصغيرة الجميلة «مس وودهاوس»، فأرجو أن تبلغيها معذرتي وتمنياتي الطيبة».

ولم تشك «إمَّا» في أن هذه العبارة كتبت من أجلها، وأنه لم يتذكر «هاريت» إلا لأنها صديقتها. أما كل ما قاله عن «أنسكومب» وما يعقده عليها من آمال، فلم يكن أسوأ ولا أحسن مما كانت تتوقع. لقد كانت «مسز تشرشل» تتماثل للشفاء، وهو لا يجرؤ حتى ولا في الخيال، على أن يحدد وقتًا يعود فيه إلى «راندولز».

وعلى الرغم من أن صلب الرسالة كان مرضيًا ومثيرًا لعواطفها فإنها لم تجد وهي تطويها وتسلمها «لمسز وستن»، أنها قد أذكت من مشاعرها فتيلًا، بل وجدت أن في وسعها أن تضرب صفحًا عمن سطرها، ورأت أن من واجبه أن

يوطن نفسه على أن يعيش بدونها. إنها لم تتراجع عن عزمها، ولم يكن إصرارها على الرفض إلا ليزيد إثارتها بما كانت ترسمه من خطط لتهيئ له الهناءة والسلوى.
فقد أثار ذكر «هاريت» وتلك الكلمات التي قرن بها اسمها حين وصفها بأنها الصديقة الصغيرة الجميلة، ما أثار في خاطرها فكرة توجيه حبه إلى صديقتها بدلًا منها. وهل في ذلك استحالة؟ لا، إن «هاريت» ولا شك أقل إدراكا منه بدرجة كبيرة، ولكن أعجب بجمال محياها، وبما هي عليه من البساطة وعدم التكلف في تصرفاتها، كما أن مايحيط بها من ملابسات من ناحية عائلتها، فيه احتمالات كلها في صالحها،... وهذا العمل فيه ولا شك كسب لهاريت ومسرة على السواء.
وقالت لنفسها: «لا، يجب ألا أولي هذه الفكرة شيئًا من اهتمامي، بل يجب أن أطرحها من ذهني كلية، فأنا أعلم الخطر الذي يتأتى من تبني مثل هذه الأفكار. ومع ذلك لقد تحقق ما هو أغرب من ذلك، وعندما لا يعود أحدنا يهتم بالآخر، كما نحن الآن، فسوف يكون في ذلك تدعيم لصداقتنا المنزهة عن الغرض التي أصبو إليه الآن وأنا سعيدة».
لقد كان جميلًا منها أن تعمل حسابًا لراحة «هاريت» وإن كان من الحكمة ألا تتيح وخيالها فرصة التفكير في ذلك إلا نادرًا، لأن الشر الذي قد ينجم عن ذلك قريب الاحتمال، فالناس في «هايبري» كانوا قد جعلوا خطبة «مستر ألتن» موضوع حديثهم أيامًا، ثم كان وصول «فرنك تشرشل»، فشغلوا عن ذلك، وانتقلوا إلى الحديث عن هذا، فقد أطاح اهتمامهم بمجيء «فرانك» ما كان لهم من اهتمام بخطبة «ألتن» والآن وقد غاب «فرانك تشرشل» عن أعينهم، أصبح لا محيص من أن يعود اهتمامهم بالحديث عن «مستر ألتن»، فلقد حدد يوم زفافه، وسيكون بينهم ثانية هو وعروسه عما قريب.
وهكذا لم يكد الناس يفرغون من التحدث عن الرسالة الأولى التي وصلت من «أنسكومب» حتى كان الحديث عن «مستر ألتن»، وعروسه يجري على ألسنتهم جميعًا، وانتقل «فرانك تشرشل» إلى زوايا النسيان. وعافت «إمَّا» سماع تلك الأحاديث، واستراح فؤادها، وطابت نفسها، لتخلصها من مستر «ألتن» ثلاثة أسابيع كاملة، كما تمنت أن يكون قد عاد إلى «هاريت» صوابها كذلك، بعد أن أخذ يذهب عنها أخيرًا ما كانت عليه من بلبلة واضطراب، وأزاح تطلعها إلى حفلة «وستن» الراقصة كثيرًا من حساسيتها السابقة، غير أنه تبين الآن بوضوح أنها لم تكن قد بلغت من السكينة مبلغًا تقوى به على مواجهة قرب الزواج، رؤية العربة الجديدة، وسماع الأجراس في تلك المناسبة، وما إلى ذلك. فلقد كانت «هاريت» المسكينة في لجة من المشاعر المتضاربة الآن، في حاجة إلى ما تجود به قريحة «إمَّا» من نصيحة وما تقوم به لها من رعاية وتهدئة.

وشعرت «إمَّا» أنه ليس بوسعها بذل الكثير من أجل صديقتها بقدر ما شعرت بأن من حق «هاريت» عليها أن تعينها بحسن تدبيرها وأناتها، غير أنه كان يشق عليها أن تظل تتوسل إليها بالحجج، ثم هي لا تجد أثرًا لذلك إطلاقًا، وأن تعمل على إقناعها، ثم لا ترى ما تراه.

واستمعت «هاريت» إليها وهي صاغرة وقالت:

«لقد كان هذا عين الصواب، وتمامًا كما تصفه «مس وودهاوس»، فما كان يستحقان أن أفكر فيهما، ولن أفكر فيهما بعد ذلك».

ولكن تغيير مجرى الحديث لم يجد نفعًا، إذ لم تكد تمر نصف ساعة حتى عادت سيرتها الأولى، واعتراها القلق والضجر من أجل «ألتن» وعروسه. وهاجمتها «إمَّا» أخيرًا من معقل آخر، إذ قالت لها:

«إنك يا «هاريت» باستسلامك للتفكير والهم من أجل «مستر ألتن» إنما توجهين لي أقوى ما عندك من سهام اللوم، وما كنت تستطيعين أن تؤنبيني بأعظم من ذلك على ما ارتكبته من خطأ في حقك. فلقد كانت غلطتي البداية، وأؤكد لك أني لم أنس ذلك أبدًا... لقد خدعت، ولسوء حظي خدعتك، وسوف تؤرقني تلك الذكرى دائمًا. إياك أن تتخيلي أني سأنسى ذلك أبدًا»

وكان وقع هذا على «هاريت» شديدًا، فلم تنطق بغير كلمات قليلة أودعتها كل حبها نحو صديقتها.

وواصلت «إمَّا» الحديث:

«إني لم أقل لك يا «هاريت» تذرعي بالصبر من أجلي، أو قللي من التفكير ومن الحديث عن «مستر ألتن» من أجلي، ولكنه من أجلك أنت وددت أن يكون كل هذا... ومن أجل ما هو من راحتي، وهو اعتيادك ضبط النفس، وتقديرك لواجبك، ومراعتك لمقتضيات الكياسة، ثم محاولة تجنب إثارة ظنون الآخرين، كي تحافظي على صحتك وعلى ثقة الناس فيك، ثم لتعود إليك سكينتك. تلك هي الدوافع التي كنت ألح من أجلها عليك، وهي دوافع كلها هامة، وإني آسفة لأنك لم تشعري بهذه الدوافع إلى حد يجعلك تعملين بما تقتضيه منك. وإن نجاتي من الألم هو شيء ثانوي في نظري، ولكني أريدك أن تنجي بنفسك من آلام أعظم وأشد. لقد شعرت أحيانًا بأن «هاريت» لن تنسى واجبها، ولن تنسى ما قمت به نحوها بدافع الحنان».

لقد كان هذا الالتجاء إلى وجدانها أبلغ أثرًا مما عداه، فلبثت فترة وهي تشعر بالتعاسة لما جال في فكرها من أن «مس وودهاوس» وهي التي تحبها كل الحب، كانت في حاجة إلى رعايتها وإلى عرفانها بجميلها.

ولما هدأ حزنها، أخذ وجدانها، وكان ما يزال مندفعًا قويا، يحفزها إلى عمل ما فيه الصواب، ويشد من أزرها فيما هي فيه.

«أنت يا من أعز من صادفته طوال حياتي، تريدين مني اعترافًا بالجميل!! لست أرى في الوجود من هو مثلك!! وليس في الوجود من له عندي منزلة كمنزلتك!! كم كنت أنا جاحدة يا «مس وودهاوس»!».

وكانت هذه ا العبارة وما صحبها من نظرات، ومن طريقة الأداء، كافية لأن تجعل «إمَّا» تشعر بأنها لم تحب «هاريت» يومًا بمثل ما أحبتها الآن، ولم تحمل لها في الحب والتقدير ما حملته لها في تلك اللحظة.
وقالت لنفسها بعد ذلك: «ما من شيء يعادل في بهجته، رقة القلب. فليس هنالك ما يقارن بها، وأن ما يكون عليه القلب من رقة ومودة وحنان وصراحة، يفوق كل شيء في اجتذاب الناس. إني لواثقة من ذلك. رقة القلب هي التي تجعل أبي العزيز محبوبًا من الناس جميعًا، وهي التي أكسبت «إيزابلا» شهرة بينهم، وهي التي تعوزني أنا، ولكني أعلم كيف أقدم هذه الصفة وأحترمها. وإن «هاريت» لتفوقني في كل ما تضفيه تلك الخلة من سعادة وبهجة. عزيزتي «هاريت» إني لن أرضى بأصفى السيدات ذهنًا، وأبعدهن نظرًا، وأصدقهن حكمًا، بديلًا عنك. وما أكثر ما عليه «جين فيرفاكس» من جمود!! إن «هاريت» لتساوي مائة من أمثالها... وهي كزوجة، خليقة بأن تكون زوجة رجل رقيق الشعور، وهي أكثر من أن تقدر، ولست أذكر اسمًا، ولكن السعيد هو من يستعيض عن «إمَّا» بهاريت! ».

شاهد الناس «مستر ألتن»، لأول مرة في الكنيسة، وقد ينصرف الناس عن التعبد إلى التطلع إليها، ولكن حب الاستطلاع فيهم لن تروي غلته بنظرات تختلس نحو عروس تجلس في أحد مقاعد الكنيسة ومن ثم كان لا بد من أن يرجئوا ذلك إلى زيارات يقومون بها حتى يحكموا إذا كانت حقا جميلة جدًا، أم أن بها بعض الجمال، أو أنها ليست لها مسحة من الجمال إطلاقًا.

واستقر رأي «إمَّا» على ألا تكون آخر من يقوم التهنئة، بدافع من الكبرياء واللياقة أكثر منه حبًا للاستطلاع. ورأت أن تصطحب «هاريت» معها، كي تعجل ما أمكنها بالانتهاء من هذه المهمة الشاقة، إذ لم يكن في وسعها أن تدخل بيته ثانية، وأن تجلس في نفس الحجرة التي لجات إليها منذ ثلاثة شهور، متظاهرة بحجة كاذبة، هي إصلاح رباط حذائها، دون أن تستعيد ذكريات الماضي، ودون أن تعاودها ألف فكرة مؤلمة... عبارات المديح، الأحاجي «الفوازير» والأخطاء الشنيعة.

وما كان لها أن تظن أن «هاريت» المسكينة لن تذكر هي الأخرى شيئًا مما مضى. ومع ذلك فقد سلكت «هاريت» مسلكًا حميدًا، وإن ظلت صامتة شاحبة خلال الزيارة. لقد كانت بطبيعة الحال زيارة قصيرة، فقد كان هناك الكثير مما يشغل بال «إمَّا»، والكثير من الحرج الذي يثقل عليها ويساعد على سرعة الانتهاء من هذه الزيارة، إلى حد لم تستطع «إمَّا» معه أن تكون فكرة عن العروس، أو تتحدث بأكثر من العبارات التي لا تنطوي على أي معنى، من أمثال «أنها أنيقة» أو «أنها لطيفة».

أما في الواقع فإنها لم تعجب «إمَّا» وإذا كانت «إمَّا» لم تر أن تتعجل في إظهار عيوبها، فقد شكت في أن يكون لها أي قسط من الرشاقة، وقد تكون فيها نعومة، ولكنها لا حظ لها من الرشاقة، بل لقد جزمت بأن نعومتها كانت أكثر مما ينبغي لشابة غريبة وعروس في الوقت نفسه. لقد كان قوامها لا بأس به، ووجهها لم يكن قبيحًا، ولكن تقاسيم وجهها ومظهرها وصوتها ومسلكها مع الناس، كلها كانت بعيدة عن الرشاقة. هذا على الأقل ما كانت «إمَّا» تتوقع أن تكون عليه.

أما «مستر ألتن»، نفسه فلم يكن واضحًا في سلوكه، ولكن لا، إنها لا تحب أن تتعجل بإبداء رأيها في مسلكه بكلمة سريعة، فضلًا عن أن استقبال الزائرين

الذين يأتون للتهنئة بالزواج في أي وقت من أوقات النهار أو الليل، هو شيء محرج في ذاته، يحتاج فيه الرجل الكثير من الكياسة لكي يجتازه في يسر، أما المرأة فهي أحسن وضعًا في ذلك من الرجل، فلها من حسن هندامها ومن خفرها ما يعينها، في حين أن الرجل ليس له إلا حسن إدراكه ليعتمد عليه.
ولما راعت «إمَّا» كيف لازم النحس «مستر ألتن» المسكين حتى جمعه في حجرة واحدة وفي وقت واحد مع من تزوجها حديثًا، ومن كان يريد زواجها، ومن كان ينتظر منه أن يتزوجها... أدركت أن من حقه أن يبدو أقل حكمة وأكثر تكلفًا، وأقل ما يمكن هدوءًا.
وقالت «هاريت» وهي تتنهد في رفق، بعد أن غادرتا البيت، وبعد أن انتظرت عبثًا لتبدأ صديقتها بالكلام:
«أجل يا «مس وودهاوس»، ما رأيك فيها؟ أليست خلابة للغاية؟ وترددت «إمَّا» بعض الشيء في الرد ثم قالت:
«نعم – للغاية - إنها شابة لطيفة جدًا»
«أظنها جميلة، وجميلة تمامًا»
«إنها ولا شك حسنة الهندام جدًا، والفستان رائع»
«لا يدهشني أبدًا أنه وقع في شباك حبها»
«لا، لا، فليس هناك ما يدعو الإنسان للدهشة: ثروة لا بأس بها، ثم صادفته في طريقه»
وردت «هاريت» تقول وهي تتنهد ثانية:
«أظن أنها أحبته من كل قلبها»
«ربما كان الأمر كذلك، ولكن ليس حتمًا أن يتزوج كل امرئ بمن هي أكثر الناس تعلقًا به. ولكن «مس هوكنز» كانت تود أن يكون لها
بيتها، ورأت هذا أحسن عرض يمكن أن يتقدم به أحد إليها»
وقالت «هاريت» وهي جادة:
«أجل، وخيرًا فعلت، فلن يتسنى لأحد أن يظفر بأحسن من ذلك، وإني أود لهما السعادة من كل قلبي، ولست أرى الآن يا «مس وودهاوس» أني سوف أهتم بزيارتهما مرة أخرى. إنه رائع كعهدي به، ولكنه تزوج كما ترين فقد تغير الوضع تمامًا. لا وأيم الحق يا «مس وودهاوس» لا تخشى شيئًا، وبوسعي أن أجلس الآن وأبدي إعجابي به، ولا ينتابنى من وراء ذلك بؤس كبير، وإنه لعزاء جميل لي أن أعلم بأنه قد أحسن الاختيار ولم يخطئ، فهي تبدو شابة جميلة، وهو جدير بها تمامًا. ما أسعدها من مخلوقة!! لقد كان يناديها «أوجستا»،، ما أبهج ذلك! ».
وعندما ردت العروس الزيارة، صممت «إمَّا» على استجلاء حقيقتها، فهي سوف تراها الآن مدة أطول، ويكون حكمها عليها أدق. وقد أتيحت «لإمَّا» بالفعل خمس عشرة دقيقة انفردت خلالها بالحديث مع هذه السيدة. فقد تصادف أن تغيبت «هاريت» عن «هارتفيلد»، في حين انشغل والدها بالحديث

مع «مستر ألتن»، فتمكنت من أن تستمع إليها في هدوء، واقتنعت كل الاقتناع في خلال هذه الفترة بأن «مسز ألتن» امرأة مغرورة، راضية عن نفسها كل الرضى، وأنها تبالغ في تقدير أهميتها، لا يعنيها إلا أن تبدو متألقة، وأن تستعلي على الجميع، وبطريقة لا بد أن تكون قد اكتسبتها في مدرسة سيئة. فكانت جريئة في قحة تميل إلى رفع الكلفة، وتستقي أفكارها من أناس على شاكلة واحدة ولهم أسلوب واحد في الحيا ة. وهي ليست غبية ولكنها جاهلة، ولن يفيد «مستر ألتن»، من معاشرتها.

فلو أنه تزوج من «هاريت» لكان هذا أفضل له وأزكى، فهي إذا لم تكن عاقلة أو مهذبة، فقد كانت متصلة بمن يتوافر فيهم الذكاء ودماثة الخلق، ولكن أقرب ما يظن المرء في «مس هوكنز» من ظواهر خيلائها، أنها كانت أحسن من في وسطها. ولقد كان زوج أختها الثري، المقيم قرب «برستول» موضع فخار العائلة، بقدر ما كان بيته وعربته ووضع فخاره.

وبالفعل كان أول موضوع تحدثت عنه بعد أن جلست إلى «إمَّا»، هو موضوع «مابل جروف»، مقر أخي مستر ««سكلنج»، وتلته مقارنة بين «هارتفيلد» و«مابل جروف»، لاحظت خلالها أن مروج

«هارتفيلد» وحدائقها صغيرة، ولكنها منسقة ولطيفة، وأن البيت عصري وجميل البناء. ويبدو أن «مسز ألتن» أعجبت أيما إعجاب بالحجرة الفسيحة، وبالمدخل، وبكل ما وقع عليه نظرها، أو جال بخاطرها. فكانت تقول:

«ما أشبه هذا أو ذاك، بما في «مابل جروف»!! لقد راعني ما بين البيتين من تشابه، فهذه الحجرة في شكلها واتساعها مثل حجرة الجلوس في «مابل جروف» تمامًا، وهي أحب حجرة لدى أختي»، ثم سألت «مستر ألتن»: «ألا تشبهها بدرجة مدهشة بل أنها لتكاد تتخيل نفسه في «مابل جروف».

واستطردت: «ثم السلم، ثقي أني عندما دخلت لاحظت أنه يشبه السلم هناك، ومكانه في نفس المكان في المنزلين، والحق أني لم أتمالك نفسي من الدهشة، وأؤكد لك يا «مس وودهاوس» أن من دواعي سروري العظيم، أن أجد هنا مايذكرني بمكان له في نفسي منزلة عظيمة مثل «مابل جروف» فكم من شهور أمضيتها هناك وأنا سعيدة!!».

(وتنهدت نهدة صغيرة فيها عاطفة) ثم قالت:

«إن «مابل جروف» ولا شك مكان بهيج، وكل من يراه لا بد يؤخد بجماله. لقد كان بمثابة موطن لي تمامًا، وأنت يا «مس وودهاوس» لن تشعري بالفرحة عند رؤية شيء يشبه شيئًا خلفتيه وراءك، إلا إذا نقلت مثلي من موطنك إلى مكان آخر، ولطالما قلت أن هذا الشعور هو أحد مساوئ الزواج».

وقللت «إمَّا» من ردودها ما وسعها ذلك، فكان في ذلك ما يرضي «مسز ألتن»، فقد كانت تميل إلى الاستئثار بالحديث وحدها.

«نعم، ما أعظم الشبه «بمابل جروف»، وأؤكد لك أن الشبه لا يقتصر على البيت وحده، ولكنه كما لاحظت يشمل المروج بدرجة مدهشة، بل وأشجار

الغار في «مابل جروف» مثل ما هي عليه هنا أيضًا من الكثرة، وفي نفس الوضع، بعرض المروج. ولقد لمحت دوحة جميلة تحيط بها صفة، جعلتني أتذكر مثيلتها في «مابل جروف»، إن هذا المكان سوف يأخذ بلب أخي وأختي، فليس غير من عندهم مروج مترامية الأطراف يسرهم أن يروا شيئًا على نفس النمط».
ولم تأخذ «إمَّا» بصحة تلك الفكرة، لأنها كانت تؤمن بأن أولئك الذين لهم مروج فسيحة قلما يهتمون بها عند غيرهم من مروج، ولكنها لم تر فائدة أن تهاجم سقطة مزدوجة كهذه، واكتفت بأن تقول:
«أخشى بعد أن تري الكثير من هذه الجهة أن تظني بأنك أسرفت في الحديث عن محاسن «هارتفيلد». إن «سري» مليئة بالمناظر الجميلة».
«أجل، إني أعلم ذلك كل العلم، فهي بحق حديقة إنكلترا وروضتها اليانعة».
«نعم، ولكن لا ينبغي لنا أن نقيم حججنا على هذا الاعتبار وحده، وأظن أن هناك جهات كثيرة يسميها الناس روضة إنكلترا مثل «سرى».
وأجابتها «مسز ألتن» في ابتسامة المقتنعة:
لا، لا أظن، وما سمعت أبدًا بأن إقليمًا غير «سري» يسمى بهذا الاسم».
وكفت «إمَّا» عن الكلام.
وواصلت «مستر ألتن» الحديث:
«لقد وعدني أخي وكذلك أختي بأن يزورانا في الربيع أو الصيف على الأكثر، فهذا هو الوقت الذي تتجول فيه لارتياد الأماكن المختلفة، ولا شك في أننا سنرتاد جهات كثيرة عندما يحضران، وستكون معهما بطبيعة الحال «بروشتهم» (عربتهم)، وهي تتسع لأربعة أشخاص في راحة كاملة، وبذلك، وبصرف النظرعن عربتنا، سيمكننا أن نرتاد مواطن الجمال المختلفة بمنتهى السهولة، وأظن أن من الصعب عليهما أن يأتيا في عربتهما الصغيرة في ذلك الفصل من السنة، ومن ثم فسأوصيهما عندما يقترب الوقت بأن يحضرا بالبروشة، فهي أفضل بكثير، وأنت تعلمين يا «مسز وودهاوس» أن الإنسان يود حين يأتي بعض الناس إلى قرية جميلة كهذه، أن يريهم كل ما يمكن رؤيته، و«مستر سكلنج» مولع بالتجول وارتياد الأماكن، ولقد خرجنا مرتين في فصل الصيف الماضي لنجوب «كنجز وستن» بنفس الأسلوب، على أثر ابتياع البروشة مباشرة، وكم كان هذا بهيجًا!! أظن يا «مس وودهاوس» إن جماعات كثيرة من السياح تأتي إلى هنا كل صيف».
«لا، فهم لا يأتون إلى هذا المكان بالذات، فنحن بعيدون هنا عن مواطن الجمال التي تجتذب مثل هذا النوع من الناس الذين تتحدثين عنهم، ونحن قوم طبيعتنا الهدوء، وأعتقد أننا أميل ما نكون إلى الاستقرار في البيت من أن تشغلنا مشاريع الاستمتاع»
«حقًا، فليس هناك ما يعادل الاستقرار في البيت ابتغاء الراحة الحقيقية، وما من واحدة تتعلق ببيتها أكثر مني، بل لقد كنت في ذلك مضرب الأمثال في

«مابل جروف»، فكم من مرة قالت «سيلينا» وهي ذاهبة إلى «برستول»:
«لا قبل لي بتحريك هذه الفتاة من البيت، ولا بد لي من الذهاب بمفردي رغم أني أكره أن أكون في البروشة بغير رفيق، أنا واثقة من أن «أوجستا» لن تبرح سياج الحديقة برغبتها».
كم من مرة قالت ذلك، ومع ذلك فإني لست من محبذي العزلة التامة، فأنا أعتقد على النقيض من ذلك أن احتجاب الناس وعدم اختلاطهم بالجماعات شيء ممقوت للغاية، وأنه أحرى بهم أن يختلطوا بدرجة دون إسرف أو إقلال. إني أقدر موقفك تمامًا، ومع ذلك يا «مس وودهاوس» (موجهة نظرها نحو مستر وودهاوس) لا بد أن تكون حالة والدك الصحية عائقًا كبيرًا، فلماذا إذن لا يجرب الذهاب إلى «باث»؟ نعم يجب أن يجرب الذهاب إليها ولا شك، إني أوصيك «بباث» وأؤكد لك أنه لا يساورني شك في أن «مستر وودهاوس» سيفيد منها كثيرًا».
«لقد جربها والدي قبل ذلك أكثر من مرة، ولكنه لم يفد منها أبدًا، وأن مستر «بري» الذي أظن أنك لا تجهلين اسمه، لم يعد يرى أنها قد تأتي بأية فائدة له».
«عجبًا أن هذا لمما يدعو إلى عظيم الأسف، لأني أؤكد لك يا «مس وودهاوس» بأن المياه إذا كانت تتفق مع الشخص فإنها تقضي على علته بطريقة مدهشة. وقد رأيت في المدة التي قضيتها في «باث» أمثلة عجيبة على ذلك، وهي مكان بهيج، ولا بد أن «مستر وودهاوس» سيجد فيه ما يشرح صدره، ويزيل عنه انقباضه، وهو كما أعلم ينتابه الانقباض أحيانًا بدرجة كبيرة، أما عن شخصك أنت فيخيل إليّ أني لست في حاجة إلى توكيد فوائدها لك فأن «باث» لها من المنافع للشباب ماهو معروف للناس جميعًا، وستجدين فيها، وقد عشت حياتك في عزلة، مجالًا لطيفًا للتعارف، وفى وسعي أن أعرفك ببعض العائلات الكريمة هناك، وإن سطرًا واحدًا مني سيجمع حولك حشدًا من المعارف. أن صديقتي الحميمة «مسز بارتدج» وهي التي كنت أقيم معها طوال مدة وجودي في «باث» يسرها غاية السرور أن تعنى بك، وستكون أنسب من يرافقك إلى المجتمعات».
لقد كان في هذا ما يكفي، مما يمكن أن تحتمله «إمَّا» دون أن تخرج على حدود الأدب. ثم فكرة أنها سوف تكون مدينة «لمسز ألتن» بما تعارف الناس على تسميته «التقديم» وأن اختلاطها بالمجتمعات سيكون تحت رعاية صديقتها التي قد لا تعدو أن تكون أرملة جريئة من السوقة، تكسب أودها ممن ينزلون عندها من السكان. لقد حط ذلك من كرامة «مس وودهاوس» وأنقص من قدر سليلة بيت هارتفيلد ولا شك.
كبحت «إمَّا» جماحها عن الرد عليها بما كانت تستطيع أن ترد عليها به، وأن تضمنه كل ما تحسه في نفسها من لوم وتقريع، واكتفت بشكرها في فتور، وأن تقول لها:

«أما مسألة ذهابنا إلى «باث» فهي خارجة عن نطاق البحث، وأنها لا تدري، فقد يكون هذا المكان لا يتفق معها، كما لم يتفق مع أبيها، ثم حولت مجرى الحديث لكي تتجنب كل ما من شأنه أن يثير النفوس، أو يحط من الكرامة فقالت:
«لم أسأل يا «مسز ألتن» إذا كنت بارعة في الموسيقى، فأن سمعة السيدة في هذه المسائل تسبقها عادة، وطالما بلغ أهالي «هايبري» أنك رائعة في العزف».
«لا، أبدًا، ولا يسعني إلا أن أحتج على هذه الفكرة، عازفة رائعة!! أؤكد لك أني بعيدة عن هذا كل البعد. أية جهة متحيزة تلك التي استقيت منها معلومات؟ إني مولعة بالموسيقى حقًا، شغوفة بها كل الشغف، ويقول أصدقائي بأني لا أعدم الذوق الموسيقي أما ما عدا ذلك، فأنى أقسم بشرفي أن عزفي عادي بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وأنا أعلم تمامًا بأنك تجيدين العزف يا «مس وودهاوس»، وأؤكد لك بأنه كان من دواعي سعادتي وراحتي وسروري، ما وصل إلى سمعي بأني سأكون في وسط موسيقي، فأنا لا أستطيع أن استغني عن الموسيقى، فهي عندي من ضرورات الحياة. ونظرًا لاختلاطي الدائم بالأوساط الموسيقية في «مابل جروف» وفي «باث» على السواء، فإن مجيئي هنا كان يكون تضحية كبيرة، بل لقد قلت مثل هذا صراحة لمستر «ألتن» عندما كان يتحدث عن بيتنا المنتظر، ويبدي مخاوفه من أن يكون الانزواء فيه لا يرضيني، ومن أن يكون بيتنا دون مستوى بيتي، لعلمه بما اعتدت عليه... ولا شك أنه لم يخل من مخاوف في هذا الصدد، عندما كان يتحدث بتلك الطريقة، قلت له مخلصة، بأن كل ما في الوجود لا يعنيني، من مجتمعات وحفلات راقصة ومسرحيات. وذلك لأني لا أخشى على نفسي من العزلة ولأن لي من الوسائل الكثيرة ما يجعلني في غنى عن العالم، بل قد أعيش سعيدة بدون هذا كله. أما أولئك الذين حرموا تلك الوسائل، فلهم شأن آخر لأن ما عندي من الموارد يجعلني أعتمد على نفسي. أما تلك الحجرات الصغيرة التي هي ما اعتدته، فأمر لا يشغل بالي، وآمل في نفسي أن أكون كفؤ لمثل هذه التضحية. ومما لا شك فيه، أنني أعتدت كل أنواع النعيم والراحة في «مابل جروف»، ولكني أكدت له بأنه لا ضرورة لعربتين، ولا لحجرات فسيحة لكي أكون سعيدة، ولكني مع ذلك قلت له إني لا أظن نفسي قادرة على أعيش دون أن أكون في وسط موسيقي، ولا شرط لي غير هذا، لأن حياتي بغير الموسيقى تصبح فراغًا لا نهاية له».
وقالت «إمَّا»: «لا نعتقد أن «مستر ألتن» يتردد في أن يكفل لك وسطًا موسيقيًا عظيمًا في «هايبري»، وارجو ألا تجديه قد تجاوز حدود الصدق بأكثر مما يمكن الصفح عنه إذا ما روعى الدافع إلى ذلك».
«لا، ولست أشك في شيء أبدًا من هذه الناحية، وإني لسعيدة بأن أجد نفسي في وسط كهذا، وآمل أن تجمعنا حفلات موسيقية بسيطة لطيفة متعددة، بل ظني أن من واجبنا يا «مس وودهاوس» أن نؤسس ناديًا للموسيقى وأن نلتقي

أسبوعيًا بانتظام في داركم أو في دارنا. أليست هذه فكرة طيبة؟ ولو أننا بذلنا جهدنا، فلا أظن أنه سيمضي وقت طويل دون أن نجد من ينتظم في جماعتنا، وإن شيئًا كهذا سيلائم رغبتي أنا خاصة لأنه سيشجعني على التدرب على العزف. وهناك كما تعلمين أقاويل يؤسف لها عن المتزوجات، ذلك أنهن ينزعن إلى إهمال الموسيقى».
«ولكنك من المؤكد في مأمن من هذا، فأنت مولعة بالموسيقى».
«أرجو ألا أقع في هذا المحظور، ولكني عندما أنظر إلى من حولي من المعارف أشعر برجفة، وها هي «سيلينا» قد تركت الموسيقى كلية حتى أصبحت أناملها لا تلمس البيانو أبدًا، على الرغم من أنها كانت تجيد العزف يومًا ما. كذلك كان الحال مع «مسز جفريز» أو «كلارا بارتردج» كما كان اسمها قبل الزواج، والأختين «ميلمان»» واسمهما الآن «مسز بيرد» و «مسز جيمز كوبر»، وكثيرات غيرهن لا عداد لهن، وأقسم لك بأن هذا كاف لأن يلقي الذعر في قلبي، وكثيرًا ما أغضبني ذلك من «سيلينا»، ولكني بدأت الآن أفهم تمامًا أن المتزوجة أمامها أشياء كثيرة تتطلب عنايتها، وها أنا ذا قد قضيت نصف ساعة صباح اليوم وأنا سجينة مع المشرفة على إدارة بيتي»
وقالت «إمَّا»: «ولكن كل شيء من هذا القبيل سوف يسير قريبًا في نظام رتيب».
وقالت «مسز ألتن» ضاحكة: «أجل، سنرى».
ولما وجدت «إمَّا» أنها مصممة على ترك الموسيقى، لم تقل لها أكثر مما قالت واختارت «مسز ألتن» بعد لحظة موضوعًا آخر للحديث فقالت:
«لقد كنا في زيارة لبيت «راندولز» ووجدنا الاثنين هناك، ويبدو أنهما في غاية الظرف، وقد أحببتهما للغاية، ويخيل إلى أن «مستر وستن» رجل ممتاز، وأؤكد لك أنه أصبح الآن أول أصفيائي، وهي كذلك طيبة فعلًا، فيها شيء من الأمومة ورقة القلب، ولذا جذبتني إليها في الحال، أظنها كانت مربيتك؟».
وعقدت الدهشة لسان «إمَّا» فلم تحر جوابًا، ولكن «مسز ألتن» واصلت الحديث دون انتظار رد من «إمَّا» فقالت:
«ولما علمت بهذا أدهشني أني وجدتها تشبه كرائم السيدات في مسلكها. على أنها مع ذلك سيدة فاضلة حقًا».
وقالت «إمَّا»: «إن «مسز وستن» كانت تمتاز دائمًا بدماثة الخلق، وإن فيها من الكياسة والبساطة والظرف ما يجعل منها أنموذجًا صالحا لأية شابة»
«ومن تظنينه حضر في أثناء وجودنا هناك؟»
فارتبكت «إمَّا» لأن النغمة التي تكلمت بها أوحت بأنه أحد المعارف القدامى. وأنى لها أن ترجم بالغيب»؟
وواصلت «مسز ألتن» حديثها تقول:
«نيتلي» إنه «نيتلي» نفسه، ألم يكن ذلك من حسن الحظ؟ ذلك لأننا لم نكن بالمنزل عندما جاء لزيارتنا في اليوم السابق، وكنت لم أره من قبل. وبما أنه

كان من خواص أصدقاء «مستر ألتن» فقد كنت أتطلع كثيرًا إلى رؤيته، وكثيرًا ما سمعته يتحدث عنه فيقول: «صديقي «نيتلي» حتى أصبحت أتشوق إلى رؤيته. ومن العدل لزوجي العزيز أن أقول له ليس بالصديق الذي يخجل منه.
«فنيتلي» أشبه بالسادة تمامًا، وإني أشعر نحوه بعظيم المودة، ولا ريب أني أراه أشبه ما يكون بالسادة».
ولحسن الحظ كان قد آن وقت الانصراف، فخرجا هي وزوجها، وتنفست «إمَّا» الصعداء».
وقالت في دهشة على الفور: «يا لها من امرأة لا تطاق» إنها أسوأ مما كنت أنتظر، فهي لا تحتمل أبدًا. «نيتلي»! ما كنت لأصدق هذا، «نيتلي» حقًا - إنها لم تره قبلًا ثم هي تدعوه «نيتلي»، وتكتشف إنه من السادة!! بل هي التي من العامة حديثات النعمة، ثم هي تدعو زوجها مستر «ألتن» وتتحدث عنه، بزوجها العزيز، ثم حديثها عن ثروتها، ومظهرها، وصفاقتها، ورقتها المصطنعة التي تخفي وراءها وضاعة الأصل، ثم اكتشافها بأن «مستر نتيلي» من السادة حقيقة. ولعمري هل سيرد لها التحية بأحسن منها، ويكتشف بأنها من كرائم السيدات كذلك. حقًا ما كنت لأصدق شيئًا من ذلك، ثم اقتراحها بأن أشترك معها لنكون ناديًا للموسيقى!!
ويحي!! قد يتبادر للرائي أننا صديقتان حميمتان!! والأدهى والأمر كلامها عن «مسز وستن» ودهشتها من أن التي تعهدت بتربيتي من كرائم السيدات!! إني لم أر في حياتي مثيلًا لهذه المرأة، وهي أكثر مما كنت أنتظر، وإنه لمن العار أن نقارن «هاريت» بها. ترى ماذا عسى أن يقول «فرانك تشرشل» لها لو كان هنا؟ ما أعظم ما كان يثير هذا من غضبه ويغير من رأيه!! ولكن عجبًا لي!! ها أنا ذا أفكر فيه وفي شخصه مرة أخرى، إنه على الدوام أول من أفكر فيه، ها قد ضبطت نفسي متلبسة.. إن «فرانك تشرشل» يخطر ببالي بغير انقطاع».
ومرت تلك الأفكار في خاطرها سريعًا حتى أن والدها وقد استجمع على استعداد للكلام، وكانت هي قد استعدت للاستماع إليه.
وبدأ يقول في تؤدة: «أجل يا عزيزتي، لو راعينا أننا لم نرها من قبل، لتبين لنا أنها شابة لطيفة جدًا، وظني أنها سرت بك كثيرًا، وهي تسارع في الحديث بعض الشيء، وارتفاع صوتها مع سرعة كلامها يؤلم الأسماع، ولكني شديد التدقيق، وأكره الأصوات الغريبة، ولست أجد أحدًا يتكلم مثلك، ولا مثل «مس تيلور» الوديعة، ومع هذا فهي تبدو شابة فاضلة كريمة الخلق، ولا ريب أنه سيجد فيها مثال الزوجة العظيمة، رغم ظني بأنه كان من الخير له ألا يتزوج، ولقد قدمت له ما وسعني من المعاذير لعدم تمكني من زيارته هو وزوجته في هذا المناسبة السعيدة، وقلت له إني آمل أن أقوم بواجب هذه الزيارة في فترة الصيف. لقد كان من الواجب أن أذهب قبل ذلك، فإن عدم المبادرة بزيارة العروس من قلة الذوق، وهي برهان على أني مريض بائس غير أني أكره ذلك الدوران المؤدي إلى زقاق الأبرشية».

«أظن يا سيدي أن أعذارك حازت القبول. ومستر «ألتن» أدرى بحالتك».

«أجل، ولكنها سيدة شابة، ثم هي كذلك عروس، وكان من واجبي أن أؤدي لها واجب الاحترام، ولكني قصرت في ذلك أيما تقصير».

«ولكنك يا والدي العزيز ضد الزواج، فلماذا إذن تتوق هكذا إلى أداء واجب الاحترام للعروس؟ إن هذا لا يشفع لمبادئك، فلو أنت أوليتهما عظيم اهتمامك كان معنى ذلك تشجيعك على الزواج».

«لا ياعزيزتي، إني لم أشجع أبدًا أي إنسان على الزواج ولكني أود دائمًا أن أوجه للسيدة كل ما هو لائق بها من الاهتمام، وخاصة العروس، التي لا يجوز إهمالها أبدًا، ومن حقها أن تلقى كل عناية، ثم أن العروس كما تعلمين يا عزيزتي يجب أن تأتي دائمًا في المقدمة، ثم يليها غيرها مهما عظم شأنهم».

«ما هذا يا والدي؟ فإذا لم يكن هذا تشجيعًا على الزواج فلست أدري ما هو التشجيع؟ وما كنت أنتظر منك أبدًا أن توافق على استدراج الشابات البائسات عن طريق الالتجاء إلى غرورهن».

«إنك لا تفهمينني يا عزيزتي، وليس هذا إلا مراعاة مني للآداب العامة ومقتضيات النشأة الطيبة، ولا شأن له بتشجيع الناس على الزواج».

وسكتت «إمَّا» وأخذت أعصاب والدها تزداد توترًا، فلم يعد يقوى على فهم مرادها. وعادت تفكر في إساءات «مستر ألتن» التي ظلت تشغل بالها وقتًا طويلًا.

لم تكن «إمَّا» بحاجة إلى اكتشاف شيء بعد هذا لتغير من فكرتها السيئة عن «مسز ألتن» فقد ظلت فكرتها الأولى ثابتة لا تتغير، سواء بعد أن قابلتها في المرة الثانية أو في كل مرة أخرى قابلتها فيها بعد ذلك، فقد وجدتها هي هي: مغرورة، دعية، متطفلة، جاهلة، لم تنشأ نشأة طيبة، حظها من الجمال كحظها من الثقافة ضئيل، وقدرتها على الحكم على الأشياء من الضعف بحيث جعلتها تتخيل أنها أتت إليهم مزودة بمعلومات واسعة عن الدنيا وما فيها لكي تبعث الحياة والنشاط في القرية وما حولها، وأن «مس هوكنز» كانت لها منزلة قبل الزواج لا تعلوها إلا منزلتها بعد أن أصبحت «مسز ألتن».

ولم يكن هناك ما يحمل «إمَّا» على الظن بأن«مستر ألتن»، كان يرى في زوجته غير ما كانت تظنه هي في نفسها، فهو لم يكن سعيدًا بها فحسب، بل كان فخورًا بها كذلك يدل مظهره على الامتنان لما كان له من حظ الظفر بسيدة كهذه يأتي بها إلى «هايبري»، سيدة لم تكن حتى «إمَّا» نفسها لتتساوى معها.

أما معظم معارفنا الجدد فقد كانوا يميلون إلى امتداحها أو على الأقل يسيرون على منوال «مس بيتس» طيبة القلب، حين لم يجدوا في أنفسهم القدرة على الحكم عليها، فيسلمون جدلًا بأن العروس لا بد أن تكون ذكية ولطيفة، كما تقول هي عن نفسها. ولهذا حازت من لدنهم كل الرضى، وأصبحت ألسنة الجميع تلهج بالثناء عليها لا يثنيهم رأى «مس وودهاوس» التي ظلت تتسمك بما قالته عنها أول الأمر، حين وصفتها بأنها ظريفة جدًا وفي غاية الأناقة».

بل لقد جد ما جعل «مسز ألتن» تبدو أسوأ مما ظهرت عليه قبلًا، بعد أن تغيرت مشاعرها نحو «إمَّا» ولعل مرد ذلك ما شعرت به من مهانة بسبب ما لقيته اقتراحاتها توطيد الألفة والمودة بينها وبين «إمَّا» من تشجيع فاتر، مما جعلها تتراجع بدورها وتنقلب شيئًا فشيئًا أكثر فتورًا وتباعدًا. وعلى الرغم مما كان لهذا من أثر محمود في نفس «إمَّا»، فقد كان الشعور السيء الذي ولده هذا الموقف، سببًا في زيادة كراهية «إمَّا» لها.

وزاد من هذه الكراهية مسلكها، ومسلك «مستر ألتن» كذلك من «هاريت»، وهو مسلك كان ينطوي على الاستخفاف والإهمال. وإذا كانت «إمَّا» رأت في هذا السلوك من جانبهما ما يرجى أن يكون عاملًا على سرعة خلاص «هاريت»،

مما ألم بها، فان المشاعر التي دفعتهما إلى سلوك هذا المسلك، نزلت بهما في تقدير«إمَّا» إلى الحضيض. فلم يعد هناك مجال للشك في أن حب «هاريت» المسكينة كان مجالًا للزوجين كي يطلقا العنان لمزاحهما وسخريتهما، ولعل نصيبها هي نفسها من تلك القصة كان كذلك موضعًا لمزاحهما في غير رادع، بعد أن أضفيا عليه بطبيعة الحال لونًا فيه اجحاف بها وتسلية لهما، إذ لا بد أنها كانت موضع الكراهية منهما معًا. وقد كان من السهل عليهما دائمًا، إذا لم يعد لهما ما يتحدثان فيه، أن يأخذا في تناول «مس وودهاوس» بالإساءة وأن ينفثا ما في صدريهما من عداوة لم يجدا في نفسيهما الجرأة على الإفصاح عنها بالتحقير السافر، فانقلبا يظهرانها عن طريق معاملة «هاريت» والازدراء المكشوف.

وتعلقت «مسز ألتن» في الوقت ب«جين فيرفاكس» تعلقًا شديدًا من البداية، ولم يكن ذلك تفضيلًا منها لواحدة على واحدة كما يظن إذا كانت هناك خصومة مع الأخرى، بل كان ميلها إليها منذ اللحظة الأولى، فلم تقنع بإظهار أعجابها بها بطريقة طبيعية معقولة، بل اندفعت تبدي رغبتها في مصادقتها والأخذ بيدها في غير الحاف أو رجاء، وفي غير مقابل. وقد علمت «إمَّا» بذلك قبل أن تفقد ثقتها، حين التقت بها للمرة الثالثة وسمعتها تقول:

«إن «جين فيرفاكس» ظريفة للغاية يا «مس وودهاوس» إني أحبها حبًا شديدًا، فهي لطيفة محببة إلى النفس بقدر ما هي وديعة مهذبة، ثم ما أعظم مواهبها بل إني أعتقد أن لها مواهب خارقة، ولست أشك في أنها تعزف ببراعة، فلي من الدراية بالموسيقى ما يكفي لأن أبدي في ذلك رأيًا قاطعًا. كم هي ظريفة حقًا.. ستضحكين لتحمسي، ولكني أؤكد لك بأنه لا حديث لي إلا عن «جين فيرفاكس»، وما لها من تأثير في النفوس بسبب وضعها، فلا بد لنا يا «مس وودهاوس» من أن نبذل جهدنا، وأن نحاول القيام بشيء من أجلها، يجب أن نبرزها، إذ لا يجوز أن تظل مواهبها مجهولة، واعتقد أنك سمعت بتلك ا! لأبيات الجميلة من الشعر:

كم زهرة بين الرمال أو فوق رابية التلال
لم تدر عين أنها في الحسن كاملة الجمال
وأريجها كجمالها ال مدفون، مجهول المآل
ذهبت به ريح الصحا رى بين طيات الزوال

نعم، لا يجوز لنا أن نجعل هذا الشعر ينطبق على «جين فيرفاكس» الحبيبة».

وردت «إمَّا» تقول في هدوء: «لا أظن أن هناك ضررًا من هذا، وعندما تصبحين أكثر معرفة بحالة «مس فيرفاكس» وتدركين كيف كانت تقيم في بيت المقدم «كامبيل» وزوجته، فلست أرى أنه سيخامرك أي شك يجعلك تفترضين أن مواهبها كانت مجهولة».

«عجبًا يا «مس وودهاوس»!! ولكنها الآن في عزلة، ولا علم لأحد بها، وكأنها من سِقط المتاع، ولقد أصبح غير خاف أن كل ما حِظيتِ به من مكاسب وهي

في أسرة «كامبيل» قد صار الآن في خبر كان، وأظن أنها شاعرة بذلك، بل أؤكد لك أنها شاعرة به. وهي خجولة جدًا، لا تتكلم حتى ليشعر الإنسان أنها في حاجة إلى التشجيع. على أن تلك الصفات مما يزيد من محبتي لها، وإني أصرح بأن ذلك من الصفات التي امتدحها من أجلها، لأني ممن يحبذون الخجل كثيرًا، وأعتقد أن الخجل ليس من الصفات التي يشاهدها الإنسان كثيرًا، وهو في غير الأذلاء صفة مستحبة جدًا. إني أؤكد لك أن «جين فيرفاكس» شخصية لطيفة جدًا، وأن حبي لها يفوق الوصف».

«يبدو أن شعورك نحوها فياض، ولكني لست أدري كيف يكون لها منك أو من أحد من معارفها، أولئك الذين عرفوها من قبلك، أي اهتمام أكثر من... ».

«من الممكن يا «مس وودهاوس» أن يقوم من لهم جرأة على العمل، بالشيء الكثير، ولا حاجة بنا أنا وأنت، أن نخشى من ذلك شيئًا، فلو أننا ضربنا المثل لاقتفى الكثيرون أثرنا على قدر ما في مكنتهم، ولو أنهم ليسوا جميعًا مثل مركزنا، إذ لدينا عربات تحملنا إلى بيوتنا، ولنا في عيشنا ما لا يجعلنا نشعر بأمل ضيق إذا زاد عددنا واحدًا بوجود «جين فيرفاكس» بيننا في أي وقت، وإنه ليسوءني كثيرًا إذا ما أعد لنا «رايت» عشاء يجعلني أشعر بالأسف لأني دعوت أكثر من «جين فيرفاكس» لمشاركتنا فيه، فليست لي أية فكرة عن مثل هذا الشيء ولا يحتمل أن أفكر فيه، إذ ما راعينا ما نشأت عليه، ولعل أخطر ما فيّ، فيما يتعلق بتدبير المنزل، هو على نقيض ذلك، لأني أعمل الكثير، ولا أهتم بالإنفاق، ولعل «مابل جروف» هي مثلي الذي أهتدي به في ذلك أكثر مما يجب، فنحن لا نزعم أننا ند لأخي «مستر سكلنج» في الدخل، ومع ذلك فإني عقدت العزم على أن أرعى «جين فيرفاكس»، ومن المؤكد أني سأستضيفها في بيتي معظم الأحيان، وأعرفها بالناس كلما كان ذلك في إمكاني، وسوف أقيم ندوات موسيقية حتى تستطيع أن تظهر مواهبها، وسنترقب على الدوام وجود وظيفة تلائمها، فإن لي معارف كثيرين، ولذلك لا يخامرني شك في أني سأسمع بعد قليل عن شيء يناسبها. وسوف أقدمها للمجتمع ولا شك وعلى الأخص لأخي وأختي عندما يجيئان لزيارتنا، وأنا واثقة أنهما سيحبانها كثيرًا، وعندما تتعرف بهما قليلًا ستذهب عنها مخاوفها كلية، فليس من طبع أي منهما إلا ما يجذب إليه القلوب ويحبب فيه الناس. نعم سوف أستضيفها كثيرًا خلال وجودهما معي، وأعتقد أننا سنهيئ لها مقعدًا في «بروشتنا» في بعض جولاتنا».

وفكرت «إمَّا»: «مسكينة أنت يا «جين فيرفاكس» فأنك ما كنت ستستحقين كل هذا!! قد تكونين أخطأت في حق «مستر دكسون»، ولكن هذه العقوبة فوق ما تستحقين، وذلك العطف وتلك الوصاية من «مستر ألتن»!! وما تقوله وتعيده: «جين فيرفاكس» رباه!! لا تجعلني أتخيل أنها تجرؤ على الذهاب هنا وهناك وتتحدث عني بهذا الأسلوب، ولكني أقسم بشرفي على أن لسان هذه المرأة لا يعرف لاستباحة سير الناس حدًا».

غير أن «إمَّا» لم تعد مضطرة إلى الاستماع لمثل هذا التظاهر مرة أخرى، ولا إلى أي شيء من التلميحات التي توجه إليها مستترة وقد نمقت بعبارات ممجوجة: «عزيزتي مس وود هاوس». فقد تغير مسلك «مستر ألتن»، نحوها بعد ذلك سريعًا، وبقيت «إمَّا» تنعم بالهدوء، فلا يفرض عليها أن تكون صديقة «مسز ألتن» المصطفاة ولا أن تكون تحت إشراف «مسز ألتن» وإرشادها. هذه المرأة التي أقامت نفسها نصيرة «لجين فيرفاكس» وحاميتها النشيطة، فتكتفي بمشاركة الآخرين بوجه عام في معرفة ما يشعرون به، وما يفكرون فيه وما يؤدونه من أعمال.

وأخذت «إمَّا» تتأمل في شيء من الغبطة. لقد كان امتنان «مس بيتس» للرعاية البادية من «مسز ألتن» نحو «جين» إمتنانًا منزهًا عن المراءاة، وفي براءة وحماس، وأصبحت «مسز ألتن» واحدة من ذوي الفضل في نظرها.. سيدة غاية في الظرف، فيها وداعة ورقة، تحب وتحب، فيها من التهذيب والتواضع ما كانت«مسز ألتن» تود أن يراه الناس جميعًا فيها.

ولم يدهش «إمَّا» في كل ذلك سوى أن «جين فيرفاكس» نفسها قد رضيت بهذه الرعاية، واحتملت «مسز ألتن» على نحو ما كان يبدو منها. فلقد وصل إلى سمع «إمَّا» إنها تخرج للرياضة مع «مستر ألتن» وزوجته، وتجالسهما، وتقضي معهما اليوم بأكمله. لقد كان هذا مما يبعث على الدهشة، إذ لم تكن تتصور أن «مس فيرفاكس» مع ما فيها من حسن الذوق والكبرياء تستطيع أن تتحمل معاشرة أهل بيت راعي «الأبرشية» ومصادقتهم.

وقالت «إمَّا» لنفسها: «إنها لغز، إنها غامضة تمامًا لاختيارها المكث هنا الشهر تلو الشهر، وهي تقاسي الحرمان من كل نوع، ثم هي الآن ترتضي عطف «مسز ألتن» عليها بما ينطوي عليه ذلك من جرح لمشاعرها. وتحتمل حديثها وما فيه من إيلام، بدلًا من أن تعود إلى من كانت في رحابهم، وكانوا يغمرونها بخالص حبهم».

لقد جاءت «جين» إلى «هايبري»، على حد قولها، على أن تقيم ثلاثة شهور، وذهبت أسرة «كامبيل» إلى أيرلندا لتقضي الشهور الثلاثة فيها، ولكن «مستر ومسز كامبيل»، وعدا ابنتهما الآن بالمكث حتى منتصف الصيف على الأقل، ودعيت «جين» من جديد لتلحق بهما هناك... أو على حد قول «مس بيتس»، كانت كل الدعوات تأتي منها، من الأبنة «مسز دكسون» التي كانت تكتب وتلح وتقول:

«لو أن «جين» وافقت على المجيء، لأعدت الوسائل، وأرسل الخدم، وهيئ لها الأصدقاء، وأزيلت عنها متاعب السفر»... ولكنها مع ذلك اعتذرت ولم تقبل.

واستنتجت «إمَّا» أنه لا بد أن يكون لرفض تلك الدعوة دافع أقوى تطويه في خبايا نفسها، وأنها تقاسي تكفيرًا عن خطيئة ارتكبتها في حق نفسها، أو في حق أسرة «كامبيل». إنها تكشف عن خِوف شديد،

وحيطة بالغة وتصميم أكيد. إنها تريد أن تجتمع مع «مستر دكسون» وزوجته، إنه قرار صدر عن شخص ما ولكن لماذا مع ذلك ترضى بأن تكون في صحبة أسرة «ألتن»؟ إن في هذا لغزًا قائمًا بذاته»
فلما جهرت بما كان يراود فكرها في تلك الناحية، وعبرت عن دهشتها أمام القلة من الأصدقاء الذين كانوا يعرفون رأيها في «مسز ألتن»، انبرت لها «مسز وستن» تلتمس لمس«جين» العذر وتقول:
«لسنا نظن يا عزيزتي «إمَّا» بأنها تجد متعة كبيرة في بيت راعي الأبرشية، ولكنه أفضل من المكث في بيتها دائمًا. وخالتها طيبة ولكن لا بد أن يضيق بها صدر المرء لو لازمها باستمرار، ثم يجب أن نأخذ في حسابنا ما تخلت عنه «مس فيرفاكس»، قبل أن نستقبح منها ما ذهبت إليه».
وقال «مستر نيتلي» متحمسًا: «صدقت يا «مسز وستن» فأن «مس فيرفاكس»، كأي واحد منا، قادرة على أن تكون لنفسها فكرة صحيحة عن «مسز ألتن»، ولو كان لها الخيار فيمن تخالطه لما اختارتها»، ثم قال وهو يلتفت إلى «إمَّا» وعلى ثغره ابتسامة الملامة:، «ولكنها تلقى من «مستر ألتن» رعاية لم ترها من أحد غيرها».
وشعرت «إمَّا» بأن «مسز وستن» قد ألقت إليها بنظرة خاطفة وأنها في دهشة من تحمسه. ثم أجابت في الحال وقد احمر وجهها:
«لقد كنت أتصور أن تلك الرعاية من جانب «مسز ألتن» تحنق «مس فيرفاكس» أكثر ما ترضيها، وإني قد أتخيل كل شيء إلا أن تكون دعوات «مسز ألتن» مغرية».
وقالت «مسز وستن»: «بل أني لا أعجب إذا كانت «مس فيرفاكس» قد انساقت، متجاوزة في ذلك ميولها الخاصة، إلى قبول
رعاية، «مسز ألتن» تحت تأثير لهفة خالتها على قبول مجاملات «مسز ألتن» لها بصدر رحب وفي غير تمهل. وأغلب الظن أنها أقحمت ابنة أختها ودفعتها لأن تكون أكثر ألفة معها مما لو كان الأمر ترك لحسن إدراكها، هذا عدا رغبتها الطبيعية في شيء من التغيير في حياتها».
وتشوقنا لسماع «مستر نيتلي» يتكلم مرة أخرى، فقال بعد أن ساد السكون بضع دقائق:
«هناك شيء آخر يجب أن يحسب له حساب، وهو أن «مسز ألتن» لا تتحدث مع «مس فيرفاكس» بمثل ما تتحدث به عنها، وكلنا نعلم الفرق بين الضمائر: هو، وهي، وأنت - فهذا أوضح ما في كلامنا، وكلنا يشعر بما يخرج عن الآداب المرعية في أحاديثنا من الأثر، وهو شيء مغروس في نفوسنا منذ سن مبكرة، فنحن لا نقذف أي إنسان بشيء ضايقنا قبل ذلك بساعة، ونختلف في إحساسنا بالأشياء. وعلاوة على ذلك فإن «مس فيرفاكس» تُرهب «مسز ألتن» بتفوقها عليها عقلًا وخلقًا، مما يدفع «مسز ألتن» كمبدأ عام، إلى معاملتها بكل الاحترام الذي يؤهلها له تفوقها، حين تتقابلان وجهًا لوجه. ومن

الجائز ألا تكون «مسز ألتن» قد صادفت امرأة من نوع «جين فيرفاكس» في حياتها من قبل. ومهما أوتيت «مسز ألتن» من غرور، فلن يحول ذلك دون اعترافها بضآلتها نسبيًا - بالفعل إن لم يكن بالإدراك الكافي في قرارة نفسها».
وقالت «إمَّا»:«إني أعرف رأيك الرفيع في «جين فيرفاكس».
وكان «هنري» الصغير يجول في خاطرها وهي تقول ذلك، وانتابها في تلك اللحظة مزيج من الفزع والحنان، جعلها تتردد فيما عساها تقول بعد ذلك.
فأجابها: «أجل، وفي وسع كل واحد أن يعرف مقدار رأيي فيها».
وقالت «إمَّا» مسرعة وقد رفعت حاجبيها وحدجته بنظرة ماكرة لم تلبث إلا لحظة أو بعض لحظة:
«ومع ذلك فقد كان أحرى بك أن تعرف الجانب الأسوأ من أول الأمر». ثم زادت في سرعة كلماتها:
«ومع هذا فقد يصعب عليك أن تدرك عمق هذا الجانب، وقد تدهش يومًا لما أنت عليه من إعجاب شديد بها».
وكان «مستر نيتلي» مكبًا على الأزرار السفلى للجيتر الجلدي الذي يرتديه، وقد احمر وجهه، إما بسبب ما بذله من جهد في تثبيتها في عراويها، وإما لسبب آخر، حين أجاب قائلًا:
«عجبًا، أتعنين هذا؟ ولكنك تأخرت كثيرًا جدًا، فلقد لمح لي «مستر كول» بذلك منذ ستة أسابيع».
ثم توقف، وأحست «إمَّا» «بمسز وستن» تضغط على قدمها ولم تدر ما تفعل، ثم أن هي إلا لحظة حتى استطرد يقول:
«لن يحدث شيء من هذا، بل أؤكد لك أن «مس فيرفاكس» لن ترضى بي لو أني طلبتها، وأنا واثق بأني لن أطلبها».
وقابلت «إمَّا» ضغط صديقتها على قدمها بضغط مثله وصارت تقول وهي مسرورة:
«إنك لست بغرّ يا «مستر نيتلي»، هذا ما أقوله عنك دائمًا».
وبدا وكأنه لا يكاد يسمع قولها، فقد كان غارقًا في بحر من الأفكار، ثم عاد يقول في الحال وبلهجة دلت على شيء من الغضب:
«إذن كنت رتبت نفسك على أني سأتزوج «جين فيرفاكس؟»‌.
«لا، وأؤكد لك أني لم أفعل، فأنت كثيرًا ما عدت عليّ باللائمة لتوسطي في أمور الزواج، حتى لم أعد أجرؤ على مثل ذلك معك، ولم أقصد مما قلته الآن شيئًا، والانسان كثيرًا ما ينطق بأشياء وهو لا يعني
منها أي شيء بالذات. لا!! كن واثقًا بأني لا أرغب أبدًا في أن تتزوج من «جين فيرفاكس» ولا من أي «جين أخرى، فأنك إذا تزوجت، لن تأتي وتجالسنا بهذه الطريقة التي لا تكلف فيها».
وأخذ «مستر نيتلي» يفكر مرة أخرى، وخرج من أحلامه بقوله:

«لا يا «إمَّا»، لست أظن أن إعجابي بها مهما بلغ، قادر على أن يجرفني أمامه. وأؤكد لك بأني ما فكرت في مثل هذا أبدًا» ثم أردف يقول:.
«إن «جين فيرفاكس» فتاة لطيفة جدًا، ولكنها لا تصل إلى درجة الكمال، فأن بها عيبًا – فهي تنقصها الصراحة التي يريدها الرجل في الزوجة».
ولم تتمالك «إمَّا» نفسها من الفرحة عندما سمعت بأن شيئًا يعيبها، وقالت:
«أجل، وأظنك قد أحرصت «مستر كول» على الفور».
«نعم وفي الحال، فلقد لمح لي بذلك تلميحًا خفيفًا، فقلت له إنه مخطئ واستسمحني ولم يزد شيئًا. إن «كول» لا يود أن يبدو أكثر حكمة ولا ذكاء من جيرانه».
«إنه من هذه الناحية يخالف العزيزة «مستر ألتن»، التي تود أن تبز الناس جميعًا في عقلها وذكائها. ترى ماذا تقول عن «أسرة كول»، وماذا تنعتهم به، وكيف تجد لهم أسماء تسميهم بها؟ إن فيها القدر الكافي من النذالة المستهجنة، فهي تدعوك «نيتلي» مجردًا من كل لقب، فماذا هي فاعلة «بمستر كول»؟ لذلك لا يدهشني أن تقبل «جين فيرفاكس» مجاملاتها، وأن ترضى الاختلاط بها، وأن حجتك يا «مسز وستن» هي أكثر ما تكون في جانبي، فأنا قد أكون أكثر استعدادًا لأن أغرى على التخلي عن «مس بيتس» من أن أصدق بأن «مس فيرفاكس» يمكن أن يتغلب عقلها على «مسز ألتن»، بل أنا لا أعتقد بأن «مسز ألتن» تعترف بأنها أقل منها في التفكير، أو القول، أو العمل. ولا أؤمن بأن «مسز ألتن» تتقيد بأية قيود تكبحها أكثر من القاعدة الغثة التي تلتزمها بشأن النشأة الأصيلة، ولن أتصور إلا أنها ستظل تهين ضيفتها بالمديح والتشجيع وتقديم الخدمات. وستظل تتحدث بإسهاب عن نواياها الجليلة، ما بين الحصول لها على وظيفة ثابتة، إلى إشراكها في الرحلات المحترمة التي سوف ينتقلون فيها في بروشتهم».
وقال «مستر نيتلي»: «إن «جين فيرفاكس» حية المشاعر، وأنا لا أتهمها بأنها مجردة منها، بل أظن أن إحساساتها مرهفة، وأنها على درجة ممتازة من قوة التحمل والصبر وضبط النفس، ولكنها لا ينقصها غير الصراحة، فهي منطوية على نفسها، بل لعلها أكثر انطواء مما كانت عليه من قبل. وأنا أحب من الناس من لا يكتنفه الغموض، لا، إنها لم تخطر على بالي أبدًا، إلى أن لمح لي «كول» بعلاقتي المزعومة – لقد رأيت «مس فيرفاكس» وتحدثت معها في إعجاب كبير وسعادة لا تنقطع، ولا شيء أكثر من هذا».
وعندما تركهما، قالت «إمَّا» وهي مزهوة بانتصارها:
«أجل «مسز وستن»، ما قولك الآن في موضوع زواج «نيتلي» من «جين فيرفاكس»؟
«أجل يا عزيزتي «إمَّا»، إن ما أقوله هو إنه مشبع بفكرة أنه لا يحبها، حتى لا أعجب إذا ما انتهى الأمر بوقوعه في حبها، فلا تحاولي أن تنتصري عليّ».

الفصل الرابع والثلاثون

كان كل من سبقت له زيارة «مستر ألتن»، من أهالي «هايبري» وما جاورها ميالًا الآن إلى الاحتفاء بزواجه، فأقيمت مآدب العشاء، وعقدت اجتماعات مسائية له ولعقيلته، وتكاثرت الدعوات يتلو بعضها بعضًا من غير إبطاء، حتى خشيت «مسز ألتن» يخالجها شعور بالغبطة، بأنه لن يمر يوم يخلوان إلى نفسيهما، قالت:

«لقد فهمت الأوضاع، وأدركت نوع الحياة التي سأعيشها بينكم. لعمري أن حياتنا فيما يبدو ستكون حياة لهو وبهجة حياة الأكابر من الناس. وإذا كانت هذه هي المعيشة في القرى، فليس هناك ما يخيف أبدًا، وأؤكد لكم بأننا ابتداء من يوم الاثنين حتى يوم السبت القادم، لا نجد يومًا لم نرتبط فيه بدعوة، وإن سيدة مواردها أقل من مواردي لن تكون في حيرة من أمرها».

ولم تفتها في الواقع دعوة من هذه الدعوات، وقد ساعدتها عاداتها التي كانت لها في «ياشه»، على أن تكون هذه الندوات المسائية بالنسبة لها أمرًا طبيعيًا، كما أضفت عليها «مابل جروف» ذوقًا في إعداد مآدب العشاء. وقد أزعجها بعض الشيء ألا تجد في بيتها حجرتين للاستقبال، وألا يكون

مطبخها مُعَدًا كل الإعداد لعمل الفطائر الحلوة الدسمة، وأن ينعدم الثلج في حلقات لعب الورق «بهايبري»، إن «مستر بيتس» «ومسز بري» «ومسز جدرد» وغيرهن، متخلفات في معلوماتهن عن أمور الدنيا، ولكنها ستريهن عما قريب كيف تنظم الأشياء، ولا بد أن ترد لهن حفاوتهن خلال أيام الربيع، فتجمعهن في ندوة هي غاية من العظمة، تمد فيها موائد اللعب، كل بشموعها الخاصة، ومن فوقها أوراق اللعب غير المستعملة، كل ذلك. بطريقة سليمة، ويستخدم فيها عند المساء عدد أكبر من الخدم ليس بوسعهن استخدام مثله، ليقدموا المرطبات في أوقاتها الصحيحة وفي دورها الدقيق.

وما كانت «إمَّا» في الوقت نفسه لتهدأ أو تقر عينًا إلا إذا دعت «مستر ألتن»، وزوجته لتناول العشاء في بيت «هارتفيلد» إذ لا يجوز أن يتخلفا عن الركب، وإلا تعرضت للقيل والقال، وظن بها الناس الظنون، ورموها بأنها تقصد الإيلام وجرح الشعور. وهكذا أصبح لا مناص من مأدبة عشاء تقيمها. وأمضت «إمَّا» عشرة دقائق وهي تبحث أمر هذه المأدبة مع أبيها، فلم يبد اعتراضًا غير أنه اشترط ألا يكون على رأس المائدة.

وترتب على هذا الشرط ما جرت به العادة دائمًا من قيام المصاعب عمن يقوم مقاومة في الجلوس عند صدر المائدة.
ولم يحتج الأمر بعد ذلك إلى تفكير طويل فيمن يكون المدعوون إذ رؤي أن يكون في مقدمتهم - بعد «أسرة ألتن»، «مستر وستن» وزوجته، وكذلك «مستر نيتلي» . كان هؤلاء هم كل من رؤي توجيه الدعوة إليهم. ولم يكن بد كذلك في أن تدعى «هاريت» الصغيرة المسكينة إلى هذه المأدبة، فتكون بذلك ثامنة المدعوين، وإن لم تكن دعوتها بنفس راضية كما كان الحال مع غيرها. وقد سرّ «إمَّا» بصفة خاصة أن تلتمس «هاريت» قبول اعتذارها لاعتبارات عديدة، منها أنها تفضل ألا تجتمع معه أكثر مما يجب، وأنها لا تقدر أن تراه مع زوجته الجميلة السعيدة دون أن تشعر بشيء من الضيق، وأنها كذلك تفضل أن تبقى في البيت، هذا إذا لم يكن في ذلك ما يسيء إليّ في «وودهاوس».
وكان هذا عين ما تبتغيه «إمَّا» لو كان في وسعها أن تعبّر عما كان يجول في نفسها. وقد سرها أن ترى مثل هذه الشجاعة في صديقتها الشابة، فإن تخليها عن الوجود معه، وتفضيلها المكث بالبيت، كان دليلًا على ما فيها من قوة العزيمة. ورأت «إمَّا» أن في إمكانها الآن دعوة من كانت تحب
أن تكون ثامنتهم، ألا وهي «جين فيرفاكس». فلقد ظل ضميرها يؤرقها من ناحيتها منذ أن كانت مدار حديثها مع «مسز وستن» و«مستر نيتلي»، وظلت كلمات «مستر نيتلي» تتوارد على خاطرها منذ ذلك الوقت، حين قال أن «جين فيرفاكس» لقيت من «مسز ألتن» رعاية لم تلقها من أحد غيرها.
وقالت لنفسها: «تلك هي الحقيقة بعينها، على الأقل من ناحيتي، بل إن هذا هو ما كان يعنيه، وهو شيء مخجل جدًا فلقد كان واجبي، وأنا في مثل عمرها، وأعرفها منذ الصغر، أن تزداد صداقتي بها. وهي لن تميل إلي الآن أبدًا لأني أغفلتها وقتًا طويلًا، ولكني مع ذلك سوف أكون أكثر اهتمامًا بها مما كنت من قبل».
واستجاب المدعوون جميعًا إلى الدعوة، واغتبط كل واحد منهم لأنه لم يكن قد ارتبط بغيرها، ولكن حادثًا لا مؤسفًا طرأ على «إمَّا» ولما تنته من إعداد الترتيبات الأولى لهذا العشاء، ذلك أن الطفلين، أكبر أبناء «نيتلي»، كان تقرر أن يقوما بزيارة جدهما وخالتهما خلال الربيع، وأن تستغرق الزيارة بضعة أسابيع، ورأى والدهما أن يأتي بهما ليقضي يومًا كاملًا في «هارتفيلد»، وشاءت الظروف أن يكون هذا اليوم هو يوم المأدبة، ولم يكن ارتباطه بأعماله ليسمح له بتأجيله إلي يوم آخر. وكان لهذا الحادث أثر أزعج الأبنة ووالدها على السواء، ذلك لأن «مستر وودهاوس» كان يرى أن اجتماع ثمانية أشخاص على مأدبة العشاء هو أقصى ما تحتمله أعصابه، ثم ها هو الآن يجد شخصًا تاسعًا بينهم. وأدركت «إمَّا» أنه ليس مجرد الشخص التاسع فحسب، بل هو شخص

جُبِل بطبعه على العبوس والجد، حتى أنه لم يكن موفقًا حين اختار أن يقضي ثماني وأربعين ساعة في «هارتفيلد» في نفس اليوم المخصص لحفل العشاء.
ولكنها مع ذلك طمأنت أباها أكثر مما طمأنت نفسها، إلى أنه سيكون شخصًا تاسعًا حقًا، ولكنه قليل الكلام، حتى أنه لن يزيد على ضوضاء الثمانية وجلبتهم شيئًا يذكر. ولكن هذا لم يمنعها من أن تشعر بأنه وهو على ما هو عليه من نظرات جافة، والتزام للسكوت، كان في عدم انسجامه معها بديلًا سيئًا لأخيه.
على أن هذا الحادث كان أكثر حظًا بالنسبة لمستر «وودهاوس» منه بالنسبة «لإمَّا»، ففي حين أقبل «جون نيتلي»، كان «مستر وستن» وقد استدعي على غير انتظار إلى المدينة، وكان لا بد من تغيبه في ذلك اليوم. وإذا كان من المحتمل أن يستطيع مشاركتهم في ساعة متأخرة من المساء، فقد كان تغيبه عن مأدبة العشاء أمرًا محققًا. وهدأت نفس «مستر وودهاوس» كل الهدوء، وذهب عن «إمَّا» ما كانت تشعر به من ضيق، بسبب ما رأته من هدوء أبيها، ثم وصول الولدين الصغيرين، ثم ما بدا على زوج أختها من ارتياح لا يخلو من فلسفة عند سماعه بما سيؤول إليه مصيره.
وحل اليوم واجتمع شمل الجماعة في الموعد المحدد، وبدا كأن مستر «جون نيتلي» قد أخذ على نفسه عهدًا بأن يكون محببًا إلى النفوس، وبدلًا من أن يبتعد بأخيه، وينتحي به إلى النافذة وهما يتنظران العشاء، كما هي عادته، شوهد وهو يتحدث إلى «مس فيرفاكس» ثم يتأمل «مسز ألتن» في سكون وقد بدت أنيقة بما عليها من لآلئ ودانتل، لا هم له إلا أن يلحظ ما يكفي من المعلومات التي ينقلها إلى «إيزابلا». على أن «مس فيرفاكس» كانت له بها معرفة سابقة، وكانت فوق ذلك فتاة هادئة رزينة يستطيع أن يتحدث إليها. وكان قد التقى بها في ذلك اليوم قبل موعد الإفطار عندما كان عائدًا من نزهته مع ولديه الصغيرين، وكان المطر قد أخذ يتساقط، فكان من الطبيعي الآن أن يتبادل معها بعض العبارات التي تفرضها المجاملات. قال لها:
«أرجو ألا تكوني قد بعدت كثيرًا عن بيتك في هذا الصباح يا «مس فيرفاكس»، وإلا فلا بد أن يكون البلل قد لحقك، أما نحن فقد وصلنا إلى البيت في الوقت المناسب بشق الأنفس. وأملي أن تكوني قد عدت إلى بيتك في الحال».
قالت: لقد ذهبت إلى مكتب البريد، ثم وصلت إلى البيت قبل أن تهطل االأمطار بغزارة، وهي جولة أقوم بها كل يوم، إذ أذهب دائمًا لإحضار رسائلي ما دمت هنا وفي هذا توفير للمتاعب، فضلًا عن أنه وسيلة للخروج، وأنا أفيد من السير قبل الإفطار».
«على ألا يكون هذا السير وفت سقوط الأمطار».
«لا، ولكنها لم تكن تمطر إطلاقًا وقت أن خرجت».
وابتسم مستر «جون نيتلي» وقال:
«أفهم من ذلك أن نزهتك كانت باختيارك، لأنك لم تكوني قد بعدت ست خطوات عن دارك حين سعدت بلقائك وكان «هنري» و«جون» قد شاهدا حبات

كثيرة من الأمطار تتساقط قبل ذلك بوقت طويل. على أن مكتب البريد يصادف هوى في نفوسنا فترة ما من فترات حياتنا، وعندما تكونين في مثل عمري، فإنك سترين أن الرسائل لا تستحق السير من أجلها في المطر إطلاقًا».
واحمر وجهها قليلًا، ثم أجابت:
«إني لا آمل أبدًا أن أكون في مثل مركزك ولا أن يكون لي ما لك من هذه الاتصالات القيمة، ولذلك فلن أكون عديمة الاكتراث بما يصلني من رسائل مهما امتد بي العمر».
«عديمة الاكتراث!! لا، أنا لم أفكر أبدًا في أن تكوني عديمة الاكتراث، فالرسائل ليست مجالًا لعدم الاكتراث وإن كانت بوجه عام لعنة كبرى».
«إنك تتحدث عن رسائل العمل، أما رسائلي فهي تتصل بالصداقة».
وأجابها في جفوة:
«كثيرًا ماظننتها أسوأ النوعين، لأن العمل كما تعلمين قد يأتي بالمال، ولكن الصداقة قد لا تأتي بشيء من هذا أبدًا».
«آه!! إنك لست جادًا في قولك الآن، وأنا أعرف «جون نيتلي» تمام المعرفة، وأنا واثقة بأنه أدرى بقيمة الصداقة، مثله مثل أي إنسان آخر. إنه ليسهل علي أن أدرك أن اهتمامك بالرسائل أقل كثيرًا جدًا من اهتمامي بها، ولكن هذا ليس مبعثه أنك تكبرني بعشر سنوات، فالعبرة ليست بالسن، ولكن بفارق المركز في الحياة، ثم أنت تجد أعز الناس إليك بجوارك، أما أنا فقد لا أوفق إلى هذا مرة أخرى، ولذا فإني أظن أن مكتب البريد سيظل دائمًا عاملًا قويًا يدفعني إلى الخروج في طقس قد يكون أسوأ من طقس اليوم، إلى أن يحين الوقت الذي تزول فيه كل أسباب التعاطف عن طريق الرسائل».
وقال «جون نيتلي»: «إني حين قلت أن الزمن كفيل بتغيير حالك، كنت أعني أن التغيير سيشمل مركزك كذلك، فإن الوقت كفيل بذلك عادة، فأحداهما كما أرى شامل للآخر، والوقت عادة يقلل من الاهتمام بكل علاقة خارجة عن نطاقنا اليومي. ولكن هذا ليس بالتغيير الذي كنت أتمناه لك. أرجو يا «مس فيرفاكس» أن تسمحي لي كصديق قديم بأن أتمنى تحقيق أملي فيصبح لك بعد عشرة أعوام مثل ما لي من أهداف مركزة».
قال هذا في رقة وحنان وهو أبعد ما يكون عن أن يمسها بسوء، وكأنما أرادت أن تضرب صفحًا عما قال، وكأن شيئًا لم يكن، فضحكت وقالت في عذوبة:
«أشكرك»
غير أن الحمرة التي علت وجهها، وارتعاش شفتيها، والدمعة التي جرت في مقلتيها دلت على أن الضحكة تخفي وراءها مشاعر أخرى.
وتدخل هنا «مستر وودهاوس» يريد أن يحظى بحديثها، فقد كان من عادته في مثل هذه المناسبات أن يرحب بضيوفه وأن يبدي نحو السيدات حفاوة خاصة، وجاء دورها في آخر المطاف، فقال لها في رقة وعذوبة:

«لقد ساءني كثيرًا ما وصل إلى سمعي يا «مس فيرفاكس» خرجت هذا الصباح وقت سقوط المطر، وواجب الشابات أن يحافظن على أنفسهن لأنهن أشبه بالنباتات الغضة، وعليهن أن يعنين بصحتهن وبشرتهن، وهل استبدلت يا عزيزتي الجوارب بغيرها».

«أجل يا سيدي، لقد أبدلتها، وإني أشكرك كثيرًا على اهتمامك بأمري».

«إن الشابات ياعزيزتي «مس فيرفاكس» يجب أن يتأكدن بأنهن موضع العناية، وآمل أن تكون جدتك وخالتك بخير، فهما من أصدقائي القدامى، وبودي لو أن صحتي كانت تسمح لي بأن أكون جارًا خيرًا مما أنا، وأؤكد لك بأنك قد أوليتينا اليوم شرفًا عظيمًا، ونحن كلانا، أنا وابنتي، نقدر غاية التقدير حسن صنيعك، ويسعدنا أن نراك في «هارتفيلد»».

وشعر الرجل المسن، ذو الأدب الجم، والقلب الرحيم، بأنه قد أدى واجبه، وجعل كل حسناء تحس في بيته أنها قد جاءت على الرحب والسعة.

وعلمت «مسز ألتن» في تلك اللحظة بما كان من سير «مس فيرفاكس» في المطر، فإخذت تنهال عليها احتجاجًا وتقول:

«ما هذا الذي أسمعه يا عزيزتي «جين»، عجبًا لك! تذهبين إلى مكتب البريد في المطر!! أؤكد لك بأن هذا ما كان ينبغي أن يحدث، ثم كيف تفعلين شيئًا كهذا أيتها الفتاة المتعبة؟ إن هذا دليل على أني لم أكن هناك لأحافظ عليك».

وأكدت لها «جين» في صبر وأناة بأنها لم تصب بشيء من البرد.

واستطردت «مسز ألتن»:

«عجبًا! أتقولين هذا لي؟ إنك ولا شك فتاة متعبة جدًا، لا تعرفين كيف تعنين بنفسك، عجبًا!! إلى مكتب البريد!! هل سمعت يا «مسز وستن» بمثل ذلك.؟ لا بد لي ولك من استعمال نفوذنا»

وقالت «مسز وستن» في رقة وإقناع: «إني لأجد حقيقة ما يغريني على إسداء النصح، فإن عليك يا «مس فيرفاكس» ألا تخاطري بنفسك على هذا النحو. وبما أنك عرضة لوعكات البرد، كما حدث لك من قبل، فأن من واجبك أن تكوني أكثر حيطة، وخاصة في مثل هذا الوقت من أيام السنة، وأنا أرى دائمًا أن فصل الربيع يتطلب منا أن نكون أكثر حيطة، وقد كان أجدى بك أن تنتظري ساعة أو ساعتين، أو حتى إلى منتصف اليوم، قبل استلام رسائلك، من أن تخاطري بنفسك ثم يعاودك السعال مرة أخرى. ألا تشعرين الآن بأنك جازفت بصحتك؟ نعم، فأنا واثقة بأنك على درجة كبيرة من التعقل، ويبدو لي بأنك لن تقدمي على شيء كهذا مرة أخرى».

وعادت «مسز ألتن» تشترك في الحديث فقالت:

«إنها قطعًا لن تفعل شيئًا كهذا مرة أخرى، بل نحن لن نسمح لها بأن تعمل مثل هذا ثانية».

ثم أومأت برأسها إيماءة لها معناها واستطردت:

«لا بد من اتخاذ بعض الاجراءات، لا بد من ذلك وسوف أتحدث مع «مستر ألتن» في هذا. إن الرجل الذي يحضر لنا رسائلنا كل صباح، وهو واحد من بين خدمنا لا أذكر اسمه، سوف يسأل أيضًا عن رسائلك ويأتي بها إليك، فمن شأن ذلك أن يزيل كل الصعوبات، وأعتقد يا عزيزتي «جين» أنك لن تجدي سببًا يحول بينك وبين قبولك هذه المساعدة».

فقالت «جين»: «إن هذا لهو منتهى العطف منك، ولكني لن أتنحى عن التبكير بالمشي، فلقد نصحوا لي بالخروج كلما أمكنني ذلك، ولا بد لي من المشي إلى أي مكان، ومكتب البريد هو أحد الأمكنة التي أسعى إليها، وثقي أنه لم يصادفني صباح أغبر قبل اليوم».

«لا تزيدي على ما قلتيه شيئًا يا عزيزتي «جين» لقد قضي الأمر (ثم أردفت ذلك بضحكة متكلفة) هذا في الحدود التي يجوز أن أبرم فيها أمرًا دون موافقة زوجي. إن واجبنا أنا وأنت يا «مسز وستن» كما تعلمين أن نحتاط في تعبيراتنا، وإن كنت يا عزيزتي «جين» أعتز بأن أقول إني لا زلت على شيء من النفوذ، وهكذا إذا لم تعترضني صعاب لا سبيل إلى التغلب عليها، فاعتبري هذا الموضوع منتهيًا».

وقالت «جين» بصيغة جدية:

«معذرة، فلست أوافق بحال من الأحوال على إجراء كهذا فيه مشقة على خادمك لا داعي لها، ولو لم يكن في تلك الجولة ما يسرني لتركتها لتقوم بها خادمة جدتي كما هي عادتها في غيابي»

«إن «باتي» يا عزيزتي عندها من العمل ما يشغلها وإنه لعطف منك أن تستخدمي رجالنا».

وبدا على «جين» أنها لا تريد الإذعان، ولكنها استعاضت عن الرد بمعاودة الحديث مع مستر «جون نيتلي»، قالت:

«إن مكتب البريد مؤسسة مدهشة، وما أعجب نظامها وتوزيعها للرسائل، ولو فكر الإنسان فيما يقع على عاتقها من مهام، وما تؤديه على أحسن وجه من أعمال، لوجدها تثير الدهشة حقًا».

«لا شك أنها منظمة أحسن نظام».

«ونادرًا ما يبدو منها إهمال، أو تبدو منها هفوة، وقلما تضل رسالة من بين آلاف الرسائل التي تطوف بلا انقطاع في أرجاء المملكة فلا تصل إلى صاحبها، وظني أن ما يفقد من كل مليون منها لا يعدو أن يكون رسالة واحدة، ثم إذا راعينا تباين الخطوط، وما هو رديء منها يتعين عليهم فك رموزه، لزادت دهشتنا».

«إن الاعتياد يكسب الموظفين خبرة، إذ عليهم أن يبدأوا بتدريب العين واليد بسرعة. وبالمران يزدادون قدرة» ثم استطرد يقول وهو يبتسم:

«وإن أردت مزيدًا في الإيضاح، فهم يوفون أجورهم على هذا فذلك هو السبيل الوحيد لشحذ همم الكفايات، فالشعب يدفع ولا بد أن يجد أحسن الخدمات».

واستمر الحديث في اختلاف الخطوط، وما صحب ذلك من ملاحظات معهودة، فقال «جون نيتلي»:
«لقد سمعت ما يؤكد بأن نوع الكتابة يسود العائلة بأسرها، وطبيعي أن يكون هذا صحيحًا حين يكون المدرس واحدًا، غير أنه يخيّل لي من تلك الناحية، أن التشابه في الخط لا بد أن يكون قاصرًا على الإناث، لأن الأولاد قلما يتعلمون شيئًا جديدًا بعد سن مبكرة، فهم ينتهجون بعد ذلك أي نهج يحلو لهم من الخطوط. وأظن أن هناك تشابهًا كبيرًا جدًا في خط كل من «إمَّا» و «إيزابلا»، حتى أني لم أكن أستطيع دائمًا التمييز بين خطيهما».
وقال أخوه مترددًا: «نعم، هناك بعض التشابه، وأنا أعرف ما تعنيه، ولكن خط «إمَّا» أكثر ضغطًا؟
وقال «مستر وودهاوس»:
«إن خط كل من «إيزابلا» و«إمَّا» جميل، وقد كان دائمًا جميلًا» ثم قال وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة بسيطة، وتنهد نهدة قصيرة: «وهذا هو الحال كذلك مع «مسز وستن» البائسة».
وبدأت «إمَّا» تقول وهي تنظر كذلك إلى «مسز وستن»:
«ما رأيت قط، خط رجل..!! ولكن توقفت عن الكلام عندما لاحظت أن «مسز وستن» كانت منشغلة بالاستماع إلى غيرها. وهيأت لها فترة السكوت، فرصة لكي تقول لنفسها: «ترى كيف أذكره للناس الآن؟ ألست أهلًا لأن أذكره بالاسم على هذا الملأ من الناس في غير تردد؟ وهل من الضروري أن أستعمل عبارة توحي باسمه من طرف خفي؟ كأن أقول مثلًا: صديقك المقيم في «يوركشير» أو مراسلك في يوركشير، - تلك هي الطريقة في ظني لو أنني كنت امرأة سوء، - لا أن من حقي أن أنطق باسمه ولا حرج، لا شك أني في تحسن من يوم إلى يوم، وها أنا ذا أقدم الآن على ذكر اسمه».
كانت «مسز وستن» قد فرغت من الكلام مع محدثها فعادت تقول:
«إن خط مستر «فرانك تشرشل» من أحسن خطوط الرجال التي وقع عليها نظري».
وقالت «مستر نيتلي»: «إن خطه لا يروق لي، فحروفه صغيرة جدًا وغير واضحة، وخطه أشبه بخط النساء».
ولم توافقه السيدتان على رأيه: فقد بدا لهما بعيد الصواب - «لا، إنه لا ينقصه الوضوح بحال، وهو ليس بالخط الكبير، ولكنه واضح وظاهر من غير شك، أفلا يوجد لدى «مسز وستن» خطاب
لتبرزه؟ لا، لقد وصلها منه خطاب مؤخرًا، ولكنها وقد بعثت بالرد طرحته جانبًا
وقالت له «إمَّا» بعد ذلك:
«لو أننا كنا في الحجرة الأخرى، أو لو أنني ذهبت لمكتبتي، لكنت واثقة من إبراز نموذج لكتابته، فلدي مذكرة منه. ألا تذكرين يا «مسز وستن» أنك استخدمتيه ليكتب إلِيّ نيابة عنك يومًا ما؟».

«إنه هو الذي اختار أن يقول إنها استخدمته».

«أجل، أجل، وهذه المذكرة عندي، ويمكنني إظهارها عقب تناول العشاء لأقنع مستر «نيتلي».

وقال «مستر نيتلي» بغير اكتراث:

«نعم، فعندما يكتب شاب فيه شهامة مثل مستر «فرانك تشرشل»، إلى آنسة حسناء مثل «مس وودهاوس»، فإنه ولا شك يقدم أحسن ماعنده».

وكان طعام العشاء قد أعد فوق المائدة، فتأهبت له «مسز ألتن» قبل أن تدعى إليه، وأخذت تقول قبل أن يصلها «مستر وودهاوس» ليطلب منها السماح له بأن يصحبها إلى حجرة الطعام:

«هل من الواجب أن أكون في المقدمة؟ أني لأخجل حقًا من أن أكون دائمًا في المقدمة».

ولم يخف على «إمَّا» تلهف «جين» على إحضار رسائلها بنفسها، فلقد سمعت ورأت كل ما حدث، وشعرت بالميل إلى معرفة ما إذا كانت مسيرة هذا الصباح الممطرة قد تمخضت عن شيء، وذهب بها الظن إلى أن شيئًا قد حدث، وأنها ما كانت لتتعرض لما تعرضت له من بلل، في احتمال وعزم، لولا أنها كانت تأمل أن تصلها أخبار من عزيز مفضل عندها، وإن ما تحملته في سبيل ذلك لم يذهب سدى، بل لقد رأتها تبدو أكثر اغتباطًا مما هي عليه عادة، وجهها مشرق ويفيض بشرًا.

وكان بوسعها أن تتقدم بسؤال أو سؤالين عن سرعة وصول البريد الإيرلندي، وما عساه يتكلفه، بل كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تفعل ذلك، ولكنها أحجمت، وحزمت أمرها على ألا تفوه بلفظ لمس «جين فيرفاكس» تجرح به مشاعرها. وخرجتا في أثر السيدات الأخريات من الحجرة وقد تأبطتا ذراعي بعضهما في مظهر من الود يتفق وما كان عليه كل منهما من جمال ورشاقة.

ولما عادت السيدات إلى حجرة الاستقبال عقب تناول العشاء، لاحظت «إمَّا» أنه كان من المستحيل عليها أن تحول بينهن وبين أن ينقسمن إلى فريقين متباينين كل التباين، فقد استحوذت «مسز ألتن» بما جبلت عليه من إصرار على الحكم على الأشياء، وبعد عن الكياسة، على انتباه «جين فيرفاكس» بطريقة فيها أهانة «لإمَّا»، حتى لم يعد أمام «إمَّا» و«مسز وستن» إلا أن تتحدثا إلى بعضهما، أو تظلا صامتتين. وكانت «جين فيرفاكس» كلما استمهلمتها فترة، عادت إلى استئناف الحديث معها مرة أخرى.

وإذا كان الحديث بين «مس فيرفاكس» و «مسز ألتن» قد جرى همسًا، لا سيما من جانب «مسز ألتن»، فلم يكن خافيًا ما كان يدور حوله حديثهما - مكتب البريد، وعكات البرد، إحضار الرسائل من مكتب البريد، الصداقة - فقد كانت كلها موضوعات استغرقت معظم حديثهما، وزاد عليها موضوع آخر كان ولا شك لا يقل عنها إيلاما لنفس «جين» - ذلك هو استفسار «مسز ألتن» عما إذا كانت قد وفقت الى عمل ملائم، وتوكيدها لها بأنها لا تنقطع عن التفكير في تدبير شيء من أجلها.

وقالت «مسز ألتن»:

«ها هو شهر أبريل قد أتى وأصبحت قلقة من أجلك وعما قريب يحل شهر يونيو».

«ولكني لم أحدد لنفسي شهر يونيو ولا أي شهر آخر موعدًا، ولم أكن أتطلع إلا إلى قضاء فصل الصيف هنا».

«ولكن ألم يبلغك شيء حقيقة؟»

«بل ما تحريّت عن شيء أبدًا، ولست أود أن أتقدم بأي طلب الآن».

«عجبًا يا عزيزتي، فأنك كلما بكرت كان ذلك أدعى إلى توفيقك إلى عمل، وأنت لا تدرين ما ينطوي عليه الحصول على الشيء الذي تريدينه من صعوبة».

وهزت «جين» رأسها وقالت:

«يا عزيزتي «مسز ألتن» ومن ذا الذي يمكن أن يكون قد فكر في ذلك مثل ما فكرت فيه؟».

«ولكنك ليس لك ما لي من دراية بالحياة، ولا علم لك بما يتقدم من طلبات كثيرة للفوز بأحسن الوظائف، فلقد رأيت الكثير من ذلك في المنطقة

المحيطة «بمابل جروف» فقد وصل إلى «مسز براج» وهي ابنة عم «مسز سكلنج» طلبات لا حصر لها، وكانت كل صاحبة طلب شديدة اللهفة على أن تكون من بين أفراد أسرتها، فهي من أرقى الأوساط، وحجرة الدرس في بيتهم تضاء بالشموع، ولك أن تتصوري الإقبال على مثل هذه الوظيفة. إن أعظم ما أرجوه لك، أن يكون لك حظ العمل في بيت «مسز براج» دون سائر بيوت المملكة جميعًا».
وردت «جين»: «سيعود «المقدم كامبيل» وزوجته إلى المدينة أواسط الصيف، ولا بد لي من قضاء بعض الوقت معهما، وأنا واثقة من أنهما يريدان هذا، وقد يحلو لي بعدها أن أتصرف في نفسي ولست أريد أن تتعبي نفسك في البحث عن شيء لي في الوقت الحاضر».
«أتعب نفسي؟ لا، وأنا أعلم بما يساورك من ظنون، إنك تخشين أن تكوني مصدر تعب لي، ولكن أؤكد لك يا عزيزتي «جين» بأن أسرة «كامبيل» لا تهتم بأمرك بأكثر من اهتمامي بأمرك، وسأكتب إلى «مسز بارتردج» في غضون يوم أو يومين، وأكلفها البحث عن أي شيء مناسب لك».
«شكرًا لك،، ولكني أفضل ألا تذكري لها شيئًا عن هذا الموضوع، إلى أن يقرب الوقت، لأني لا أريد أن أكلف أي شخص تعبًا».
«ولكن الوقت يا إبنتي العزيزة يقترب، وها هو شهر أبريل، وأصبح شهر يونيو، بل وحتى يوليو على الأبواب ولا زال أمامنا هذا الأمر لنتمه.
إن عدم خبرتك ولا شك يضحكني؟ فالوظيفة التي تليق بك، ويريدها لك أصدقاؤك، ليست مما يتحقق وجودها في كل وقت، ولن يتسنى الحصول عليها في لحظة، فيجب أن نسعى إليها حالًا».
« معذرة يا سيدتي، ولكن ليس هذا هو ما بيت عليه النية، ولست أبحث عن شيء أنا بنفسي، ويسوءني أن يتولى عني أصدقائي هذا البحث. وإلى أن يحين الوقت الذي تصح فيه عزيمتي، فأني لا أخشى أن تطول بطالتي، وهناك مكاتب بالمدينة، يجد فيها المرء عملًا بمجرد أن يسأل عنه، مؤسسات، لا لبيع الأجساد البشرية، بل المواهب البشرية».
«عجبًا يا عزيزتي، الأجساد البشرية!! إنك تهزين كياني هزًا، أما إذا كنت تنوهين بتجارة الرقيق فأني أؤكد لك بأن «مستر سكلنج» كان دائمًا يساند إلغاءها».
وأجابتها «جين:» «ما قصدت هذا، وما فكرت في تجارة الرقيق، وأؤكد لك بأني ما كنت أفكر إلا في تجارة المربيات، وهي ولا شك تختلف كثيرًا عن الجرائم التي يرتكبها القائمون بتجارة الرقيق. أما عن ضحاياهم وما هن فيه من بؤس، فلا علم لي بشيء منه، ولكني قصدت فقط أن أقول أن هناك مؤسسات تقوم بالإعلان، وإني إذا تقدمت إليها بطلب فلا شك أني سأوفق في الحال إلى شيء لا بأس به».
وأجابتها «مسز ألتن»:

«شيء لا بأس به!! أجل قد يلائم ذلك فكرتك المتواضعة عن نفسك فأنا أعلم مقدار تواضعك، ولكن أصدقاءك لا يرضيهم أن تقنعي بأي شيء يعرض عليك أو بأي وظيفة عادية لا تناسبك، وفى أسرة ليست لها مكانتها الخاصة، أو هي لا تمرح في رغد من العيش، ولا تتوافر لها كل أسباب النعيم».

«إنك لواسعة الفضل، ولكني لا أعبأ بكل هذا. وليس هدفي أن أعيش في رحاب الأغنياء، لأني أظن أن هذا يزيد عذابي، فالمقارنة تضاعف الألم وتحز في نفسي، وكل ما أشترطه أن أكون في أسرة واحد من السادة».

«أنا أدرى بك، أنا أدرى بك من نفسك، أنك وقد ترحبين بأي شيء، ولكني أكثر منك تدقيقًا، وأعتقد أن أسرة «كامبيل» الطيبة ستساندني لأنك وأنت على ما أنت عليه من مواهب، من حقك أن يكون مكانك بين أكرم الأسر، وفي أحسن الأوساط، بل أن درايتك بالموسيقى وحدها لكفيلة بأن تجعلك تملين شروطك، وأن يكون لك من الحجرات ما تشائين، وأن تختلطي بالأسرة حسبما تختارين، ثم إذا كان لك دراية بالعزف على القيثار، وهو ما لا أعلمه، فافي أعتقد بأنك ستحققين كل هذا على أنك تغنين وتعزفين، أجل، إني واثقة تمامًا بأنه سيتسنى لك أن تملي شروطك حتى بغير أن تكون لك دراية بالقيثار. ولم يهدأ بالنا أنا وأسرة «كامبيل» إلا بعد أن تستقري في مركز تكرمين فيه وتشعرين فيه بالغبطة والعزة والهناءة».

وأجابت «جين»:«حسنًا أن تجمعي بين الغبطة والعزة والهناءة في وظيفة كهذه، فهي لا بد أن تتوافر فيها بقسط متكافئ. ومع ذلك فإني جادة في ألا تبذل أية محاولة الآن من أجلي، وعاجزة عن شكرك يا «مسز ألتن»، بقدر ما أنا مدينة بالشكر لأي شخص يبدي شعوره نحوي، ولكني جادة في ألا يحدث شيء من هذا إلى أن يحين فصل الصيف، وسأبقى حديث أنا، وكما أنا، شهرين أو ثلاثة شهور».

وأجابت «مسز ألتن» بشعور من الفرحة: «أؤكد لك بأني كذلك جادة تمامًا فيما عزمت أن أكون عليه دائمًا من يقظة لانتهاز الفرص، وسأكلف أصدقائي مثل ذلك أيضًا، حتى لا يفوتنا شيء فيه غنم».

وظلت «مسز ألتن» تضرب على هذه النغمة، لا يثنيها عنها شيء، إلى أن دخل «مستر وودهاوس» الحجرة، فدفعها غرورها إلى أن تغير مجرى الحديث، وسمعتها «إمَّا» وهي تقول لجين همسًا:

«ها هو عزيزي الهرم الأنيق يأتي، أني أحتج! يكفيك أن تفكري في شهامته إذ خرج قبل بقية الرجال ليأتي إلينا. كم هو حبيب إلى النفس!! أؤكد لك بأني معجبة به كل الإعجاب. إني أحب آداب السلوك القديمة، فهي أقرب إلى نفسي من آداب السلوك الحديثة التي تمجها نفسي غالبًا، وكم كنت أود أن تسمعي عبارات المديح التي كان يطريني بها هذا العجوز الطيب «مستر وودهاوس» على العشاء، حتى أخذت أفكر في أن زوجي العزيز ستتملكه الغيرة. ويخيل إليّ بأني كنت المفضلة على الجميع، فقد لفت فستاني أنظاره.

وبهذه المناسبة، ما رأيك في فستاني؟ إنه من اختيار «سيلينا» وأظنه جميل، وإن كنت لا أدري إذا لم يكن قد بولغ في زركشته، وأنا أبغض كل البغض فكرة الزركشة، كما تزعجني الملابس التي تجذب الأنظار إليها، وإن كان لا بد لي من أن أزيد من زينتي قليلًا،
فإن هذا هو ما ينتظر مني، فالعروس كما تعلمين يجب أن تظهر بمظهر العروس. غير أني أميل بطبيعتي إلى البساطة، وأفضل الرداء البسيط على الرداء الخلاب. على أني من القليلات اللائي يفضلن ذلك. نعم، فإن من يقدرن البساطة في الزي قليلات، لأن المظاهر، وارتداء الملابس الأنيقة هي كل شيء في نظرهن، وأنا أفكر في تنميق قطعة الحرير البيضاء الفضية على نحو ما فعلت بردائي هذا، فهل تظنين بأنه سيكون أنيقًا؟».
وما كاد الجمع يكتمل شمله بحجرة الاستقبال، حتى حضر «مستر وستن»، وكان قد عاد إلى بيته لتناول عشائه في ساعة متأخرة، ثم سار بعد انتهائه منه مباشرة إلى «هارتفيلد»، فكان لقدومه دهشة كبيرة عند البعض، وفرحة عظيمة عند البعض الآخر. فلقد فرح «مستر وودهاوس» لرؤيته في تلك اللحظة، بقدر ما كان يسوؤه لو أنه حضر قبل ذلك! وعقدت الدهشة لسان «مستر نيتلي» أن يرى رجلًا كان في وسعه أن يقضي أمسيته وهو هادئ في داره، بعد يوم أمضاه في مباشرة أعماله بلندن، فإذا هو يخرج مرة أخرى ويسير مسافة نصف ميل إلى بيت غيره، ليظل بين جماعة متباينة، إلى أن يحين وقت نومه، فيختتم يومه المضني بما يبذله من جهد في الحفاوة بالناس والاستماع إلى ضجيجهم، نعم فلقد كان لهذا في نفس «مستر نيتلي» دهشة بالغة الأثر، أن ترى رجلًا كان دائب الحركة من الثامنة صباحًا وفي استطاعته أن يستريح الآن، وأمضى يومه في نقاش متواصل، وفي قدرته أن يهدأ الآن، وأن يكف عن الحديث، وظل طول نهاره يختلط بأكثر من جماعة من الناس، وفي مكنته أن يخلو الآن إلى نفسه، فإذا به يترك الهدوء والدفء إلى جانب مدفأة بيته، ويخرج ثانية في مثل هذه الأمسية من شهر ابريل، بما فيها من برد وأمطار - قد يكون له ما يدفعه إلى ذلك لو أنه جاء ليعود بزوجته إلى البيت فورًا، أما مجيئه على هذا الحال، فقد كان فيه احتمال لإطالة أمد الاجتماع بدلًا من أن ينفرط عقده.
ونظر مستر «جون نيتلي» إليه في دهشة، ثم هز كتفيه وقال لنفسه: «ما كنت أصدق هذا حتى منه».
ولم يساور «مستر وستن» أي شك فيما أثاره من سخط، بل على العكس من ذلك بدا سعيدًا منشرح الصدر كعادته، وكان من حقه أن يتصدر الحديث بعد أن أمضى يومًا بأكمله خارج منزله، وما هيأه ذلك له من أسباب الحديث.
وقد ظل يعمل على الاندماج في الموجودين، وبعد أن أجاب على كل
ما وجهته إليه زوجته من أسئلة عن عشائه، وإقناعه لها بأن الخدم لم ينسوا شيئًا من توجيهاتها الحكيمة اليوم، وبعد أن أذاع على الحاضرين ما وصله من

أخبار عامة، أخذ يمهد لرسالة عائلية كانت موجهة إلى «مسز وستن» بصفة خاصة، ولكنه لم يكن يشك قط في أنها ستقابل بعظيم الاهتمام ممن في الحجرة جميعًا. وأعطاها رلسالة مرسلة إليها من «فرانك»، وكان قد تسلمها وهو في طريقه، فاستباح لنفسه أن يفضها، وقال وهو يعطيها لها:

«اقرئيها، اقرئيها، فلسوف تجدين فيها ما يسرك، وهي قليلة السطور ولن تستغرق قراءتها منك وقتًا طويلًا، واقرئيها «لإمَّا» كذلك».

وتصفحتها الاثنتان معًا، بينما جلس هو يبتسم، ويبادلهما الحديث طول الوقت في صوت خافت نوعًا ما، ولكنه مسموع من الجميع ويقول: «أجل، إنه قادم كما ترين، وأظنه خبرًا سارًا، فما قولكما؟ لقد قلت لكما دائمًا بأنه سيعود إلى هنا قريبًا، ألم أقل ذلك؟ ألم أخبرك بهذا دائمًا يا عزيزتي ولم تصدقيني؟ سيكون بالمدينة في الأسبوع القادم على تقدير، ألا ترين؟ فهي لا صبر لها عندما يكون لديها عمل تعمله، ومن المحتمل جدًا أنهم سيكونون هناك غدًا أو يوم السبت. أما عن مرضها، فليس بها شيء. إنه لشيء عظيم للغاية أن يكون«فرانك» بيننا ثانية وقريبًا منا، لقرب المدينة، وسوف يمكثون وقتًا طويلًا عندما يأتون، وسيقضي هو نصف وقته معنا، وهو ما كنت أتمناه، أجل إنها أخبار سارة جدًا، أليست كذلك؟ هل انتهيت من قراءتها؟ وهل قرأتها «إمَّا» بأكملها؟ دعيها، دعيها، وسوف نتحدث عنها كثيرًا في وقت آخر، فليس هذا أوانها، وسأكتفي بذكر الموضوع للباقين بوجه عام».

وسرت «مسز وستن» بهذا النبأ غاية السرور، وبان سرورها في ملامحها ومن كلامها. لقد سرت به وأدركت أنها مسرورة، وأن من واجبها أن تكون مسرورة، فكانت تهانيها لزوجها في حماس وانطلاق، أما «إمَّا» فقد كانت مشغولة بسبر غور مشاعرها، ومحاولة إدراك مدى اضطرابها لسماع هذا النبأ، وكان اضطرابًا كبيرًا في نظرها.

ولما كان «مستر وستن» شديد الملاحظة، ميالًا إلى الكلام في تلك اللحظة حتى لم يدع غيره يتكلم، فقد رضي كل الرضا بما قالته، وانتقل في الحال ليدخل السرور على قلوب أصدقائه الآخرين بإذاعة بعض النبأ الذي لا بد وأن يكون كل من كانوا بالحجرة قد استمعوا إليه. ولعله من الخير أنه افترض لنفسه أن اغتباط الكل بهذا النبأ أمر مسالم به، وألا لما ظن بأن «مستر وودهاوس» و «مستر نيتلي» سرا لهذا سرورًا خاصًا. وقد كان يرى أن من حقهما بعد «مسز وستن» و«إمَّا» أن يسرا له، ثم «مس فيرفاكس» من بعدهما، ولكن «مس فيرفاكس» كانت منهمكة في الحديث مع «جون نيتلي» ولم يرد أن يقطع الحديث عليهما، فلما وجد نفسه قريب من «مسز ألتن» وأنها ليست مشغولة بأحد، أخذ يدلي إليها بالخبر.

قال لها «مستر وستن»: «آمل أن أسعد قريبًا بتقديم ابني لك» وابتسمت «مسز ألتن» مغتبطة لما لاح لها من أنه يخصها بمثل هذا الأمل.

واستمر يقول لها: «أظنك قد سمعت عن شخص اسمه «فرانك تشرشل» وإنك تعلمين أنه ابني، ولو أنه لا يحمل اسمي».

«أجل، ويسعدني كثيرًا أن أتعرف إليه، وأعتقد أن «مستر ألتن» لن يتأخر عن زيارته، وسيسعد كلانا برؤيته في قصر الأبرشية».

«ما أكرمك، وأنا واثق بأن «فرانك» سيكون في منتهى السعادة. وهو سيكون في المدينة في الأسبوع القادم إن لم يكن قبل ذلك، وقد وصلتنا اليوم رسالة منه بهذا المعنى، وقد التقيت بحامل الرسائل وأنا أسير في طريقي هذا الصباح، وعندما تبينت خط ابني، جرؤت على فض الرسالة رغم أنها معنونة باسم «مسز وستن» لا بإسمي، بل أؤكد لك أنه يخصها بالرسائل، وأنه قلما يبعث إليّ برسالة».

«إذن فقد فضضت رسالة موجهة إليها، عجبًا لك يا «مستر وستن»، (وضحكت ضحكة متكلفة) ثم قالت: «يجب أن أحتج على ذلك، فهذه سابقة خطيرة ولا شك، وأرجو ألا تصبح مثلًا يحتذيه جيرانك، ويحي!! لو أن عليّ أن أنتظر حدوث مثل هذا، لكان من واجبنا نحن المتزوجات أن نقاومه بشدة، يا له من عمل يا «مستر وستن»! بل ما كنت أعتقد فيك هذا».

«أجل، إننا معشر الرجال سبب المتاعب، ويجب أن تأخذي حذرك يا «مسز ألتن»، لقد جاء في هذه الرسالة، وهي رسالة قصيرة كتبت على عجل ولمجرد الإخطار، أنهم جميعًا آتون إلى المدينة في الحال من أجل «مسز تشرشل»، لأنها كانت معتلة الصحة طيلة فصل الشتاء، وهي تظن أن شدة البرودة في «أنسكومب» لا تناسبها، ولهذا فلن يضيعوا وقتًا، وسيرحلون إلى الجنوب جميعًا».

«نعم، أظنهم في يوركشير، فأنسكومب في «يوركشير» فيما أعتقد».

«نعم، وهم على بعد مائة وتسعين ميلًا من لندن، وهي مسافة طويلة».

«نعم طويلة جدًا، وهي تزيد على المسافة ما بين «مابل جروف» ولندن بخمسة وستين ميلًا، ولكن ماذا على ذوي اليسار يا «مستر وستن» من طول المسافة؟ وإنك لتأخذك الدهشة إذا سمعت كيف ينتقل أخي «مستر سكلنج»

أحيانًا من مكان إلى مكان بسرعة، إنه لمن الصعب عليك أن تصدقني، ولكنه ذهب ورجع، هو و«مستر براج» إلى لندن مرتين في أسبوع واحد بأربعة جياد».
وقال «مستر وستن»: «إن ما تخشاه من طول المسافة من «أنسكومب»، إنما مرده فيما علمنا، إلى أن «مسز تشرشل» لبثت أسبوعًا بأكمله وهي لا تقوى على مغادرة مقعدها. لقد قال «فرانك» في رسالته الأخيرة، إنها تشكو ضعفًا شديدًا لم تكن تقوى معه على دخول صوبتها الزجاجية دون الاعتماد على ذراعه وذراع خاله، وهو كما ترين، دليل على منتهى الضعف، ولكنها الآن، كما كتب «فرانك» تتلهف على الإقامة بالمدينة، ومعنى ذلك أنها ستقضي ليلتين في الطريق، ولا شك «مسز ألتن» أن السيدات الرقيقات لهن تكوين غير عادي، وأرجو أن تسلمي لي بذلك».
«لا، أبدًا، لن أسلم لك بشيء وأنا دائمًا أهب للدفاع عن بنات جنسي، وأحذرك بأنك ستجدني خصمًا صعب المراس في هذه الناحية، فأنا على الدوام أقوم بالدفاع عن النساء، وأؤكد لك بأنك لو علمت شعور «سيلينا» بشأن المبيت في «النّزل» لما عجبت لإصرار «مسز تشرشل» على عمل كل ما من شأنه أن يجنبها النزول في واحد منها. إن «سيلينا» تقول إن ذلك شيء يفزعها، وأعتقد أني لمست شيئًا مما هي عليه من دقة التعبير في ذلك، وهي دائمًا تسافر ومعها ملاءاتها، وهي حيطة واجبة، فهل تفعل «مسز تشرشل» مثلها؟».
«كوني واثقة بشأن «مسز تشرشل» تفعل مثل ما يفعله غيرها من السيدات الفضليات، وما من سيدة في الدولة تفوقها في ذلك لأن...».
فقاطعته «مسز ألتن»:
«عجبًا يا «مستر وستن» لا تخطئ فهم ما قلت، وأؤكد لك أن «سيلينا» ليست من السيدات المرهفات، وينبغي ألا يذهب بك الظن إلى ذلك».
«أليست من السيدات المرهفات؟ إذن فهي لا يمكن أن تكون قدوة «لمسز تشرشل» التي لم تقع عيني على سيدة في مثل كماله».
وبدأت «مسز ألتن» تفكر في أنها أخطأت في الحط من شأن «سيلينا» بهذا الحماس وأنها لم تكن تقصد بحال أن يعتقد بأن أختها ليست من أكرم السيدات، ولعله كان ينقصها التحمس لو أنها زعمت ذلك. وبينما هي تفكر في أنسب الطرق للتراجع، استطرد «مستر وستن» يواصل حديثه:
«ليس «لمسز تشرشل» عندي مكانة عظيمة كما قد يتبادر إلى ذهنك، وهذا شيء لا أبوح به لغيرك، وهي شديدة الولع «بفرانك» ولذا فأني لا أذكرها بسوء، وهي على ذلك معتلة الصحة الآن، وإن كانت دائمًا، على حد قولها هي نفسها معتلة شاكية، أنا لا أقول ما أقول يا مسز ألتن لكل الناس، غير أني لا أثق كثيرًا في مرض «مسز تشرشل».
«ولماذا لا تذهب يا «مستر وستن» إلى «باث» أو «كلفتون» إن كانت مريضة حقًا؟».

«لقد ثبت في ذهنها أن شدة البرد في «أنسكومب» لا تلائمها، أما حقيقة الأمر كما أظن، فهو أنها قد سئمت الإقامة في «أنسكومب»، فلقد مكثت بها الآن مدة أطول مما اعتادته من قبل، وبدأت تتوق إلى التغيير... إنها مكان هادئ منعزل، مكان جميل ولكنه منعزل جدًا».

«أجل، ولعله مثل «مابل جروف» فليس هناك مكان أكثر عزلة عن الطريق من «مابل جروف»، وما أكثر ما حرلها من مزارع شاسعة، حتى ليبدو لك أنك قد انقطعت عن كل شيء وأنك في عزلة تامة. وقد لا تكون «مسز تشرشل» في مثل صحة «سيلينا» ولا في حيويتها، مما يجعلها قادرة على الاستمتاع بهذه العزلة، وقد لا تتوافر لها المقومات الكافية لأن تحيا حياة الريف. إنني أقول دائمًا أن المرأة لا يتوافر لها كثير من تلك المقومات، وأني لكثيرة الحمد على كثرة ما يتوافر لدي من هذا، مما يجعلني في غنى عن المجتمعات».

«لقد أمضى «فرانك» هنا أسبوعين في شهر فبراير».

«أذكر أني سمعت هذا، وسوف يجد عند عودته، أن العشيرة في «هايبري» قد زادت واحدة، هذا إذا أبحت لنفسي أن أكون أنا هذه الزيادة، ولعله لم يبلغه شيء عن وجود شخص مثلي».

كان هذا استدرارًا صريحًا للثناء لم يغب عن فطنة «مستر وستن» فقال على الفور في كياسة بالغة:

«سيدتي العزيزة، ما من أحد غيرك يتصور أن هذا ممكن، ألم نسمع عنك؟ إني أعتقد بأن خطابات «مسز وستن» الأخيرة، كانت في معظمها تفيض أكثر ما تفيض بالحديث عن «مسز ألتن».

وشعر «مستر وستن» أنه قد أدى واجبه، فعاد يتحدث عن ابنه ويقول:

«لم نكن حين تركنا «فرانك» متأكدين من الوقت الذي نراه فيه ثانية، ولذا فقد قوبل نبأ اليوم بترحيب مزدوج، لأنه لم يكن في الحسبان، وإن ظللت أجد ما يدفعني إلى الاعتقاد بأنه سيعود إلينا سريعًا، نعم كنت على يقين بأن شيئًا طيبًا سيحدث لنا، ولكن أحدًا لم يصدقني، لقد كان هو و «مسز وستن»، وكلاهما في منتهى اليأس، لا يدريان كيف يرسم الخطة لعودته، وكيف يمكن أن يتصور أن خاله وزوجة خاله سيخليان سبيله مرة أخرى، وهكذا... وكنت دائمًا أشعر بأن شيئًا طيبًا سيحدث، وقد تم هذا كما ترين. بل لقد لاحظت يا «مسز ألتن» على مر الأيام أن الأمور إذا تعقدت وسارت على غير ما نشتهي شهرًا، فإنها حتمًا تنصلح في الشهر الذي يليه».

«إن ما تقول هو عين الصواب يا «مستر وستن»، عين الصواب تمامًا، وهذا ما كنت أقوله دائمًا الأحد السادة الذين كانوا معنا وقت الخطوبة، عندما كانت تتعثر ولا تسير بالسرعة التي يتمناها، حتى صار أميل إلى اليأس، يؤكد بأنه لو استمر الحال بهذا البطء، فإن شهر مايو سيحل قبل أن تلبس العروس ثوبها البرتقالي الذي أخرجته محلات «هايمن». وما أعظم كل ما كابدته لأزيل تلك

الأفكار المقبضة عنه، واستبدل بها ما هو أكثر بهجة للنفس، ثم ناهيك بالعربة وما أصابنا منها، وأني لأذكر أنه جاءني ذات صباح وهو يائس».

وانتابتها نوبة خفيفة فتوقفت، واغتنم «مستر وستن» الفرصة وأخذ يواصل حديثه ويقول:

«لقد كنت تتحدثين عن شهر مايو، وشهر مايو هو الشهر الذي أمرت فيه «مسز تشرشل»، أو هي أمرت فيه نفسها بتمضيته في لندن، وهكذا يتحقق أملنا الجميل في تكرار الزيارات من «فرانك» طوال الربيع، وهو عين الفصل من فصول السنة الذي يجب أن يختار لمثل تلك الزيارات، فالنهار فيه طويل، والطقس بديع ممتع يغري على الخروج، وحرارته لا تشتد أبدًا فتعوق الرياضة. وعندما كان «فرانك» هنا لم تفتنا فرصة للاستمتاع إلا اغتنمناها، ولكن الأمطار وقتها كانت غزيرة، والطقس رطبًا ومقبضًا، فهذا هو الحال دائمًا في فبراير كما تعلمين، وقد فوت علينا الجو نصف ما كنا قد عقدنا العزم على عمله، وها قد حان الوقت الآن للاستمتاع، ولن ينقصنا شيء من أسباب المتعة. على أنني لست أدري يا «مسز ألتن» هل نحن أكثر غبطة لأننا غير متأكدين من موعد لقائه، لأننا نترقب مجيئه ولا ندري أيكون ذلك اليوم أو غدًا، أو في أي ساعة من ساعات اليوم،... أو أننا نكون أكثر غبطة حتى يكون بيننا بالفعل. أظن أن الأمر كما أقول، وأرى أن الحالة الذهنية هي التي تبعث على الانتعاش والسرور. على أني آمل أن تجدي في أبني ما يسرك، وأن كان يجمل بك ألا تنتظري العجائب، فالناس ينظرون إليه عادة على أنه شاب ظريف، ولكن لا تنتظري شيئًا خارقًا للمألوف. إن إفراط «مستر وستن» في التحيز إليه كما قد يتبادر إلى ذهنك، يغمرني بالسرور، إنها تظن أنه ليس له نظير».

«أؤكد لك يا «مستر وستن» أني أرجح أن تكون فكرتي عنه في صالحه، فلقد سمعت الكثيرين يثنون عليه، ومن حقي أن تعرف في الوقت نفسه أنني دائمًا من هؤلاء الذين يحكمون بآرائهم، ولا ينقادون إلى رأي غيرهم دون أن يتحروا بأنفسهم، وأن تدرك من الآن بأنني سوف أحكم على ابنك بعد أن أراه، فلست أنا ممن يطرون الناس تزلفًا».

وكان «مستر وستن» غارقًا في أفكاره، ثم لم يلبث أن قال:

«أرجو ألا أكون قد قسوت على «مسز تشرشل» المسكينة ويؤسفني إذا كانت مريضة أن أكون قد تجنيت عليها، غير أن في خلقها بعض النواحي التي تجعل من العسير عليّ أن أتحدث عنها بالأناة التي كنت أودها، وليست صلتي بتلك الأسرة لتخفي عليك، ولا أنت تجهلين المعاملة التي لقيتها، وإني لأسر إليك بأنها وحدها الملومة على كل ما حدث، فلقد كانت هي الرأس المفكرة في كل ذلك، وما كانت أم «فرانك» لتلقى الإهانات التي لقيتها لولاها. إن «مستر تشرشل» فيه كبرياء، ولكن كبرياءه لا يذكر بجانب كبرياء زوجته، وهو في كبريائه كالسادة، شامخ الأنف متعفف عن الإساءة، ليس منه ضرر لأحد، وإن بدا عديم الحيلة ِمتعبًا. أما كبرِياؤها ففيه غطرسة وغلظة مما يجعل الإنسان

يضيق بها ذرعًا، أنها لا يمكن أن تدعي الانتماء إلى أسرة عريقة، فهي ليست كريمة المنبت، ولم تكن وقت اقترانه بها شيئًا يذكر، فيما عدا أنها كانت ابنة أحد السادة. ولكنها منذ أن اندمجت في أسرة «تشرشل» بزتهم جميعًا في مباهاتها بأمجادها وعلو شأنها، وأؤكد لك أنها في ذاتها كانت من محدثي النعمة».

«يا للعجب!! إن هذا يكفي لأن يخرج المرء عن شعوره، إني أمقت محدثي النعمة كل المقت، ولقد جعلتني «مابل جروف» أمج هذا الصنف من الناس، ذلك لأن في تلك الناحية أسرة تنغص العيش على أخي وأختي لما عليه أفرادها من تعاظم واستعلاء، ولقد جعلني وصفك «لمسز تشرشل» أفكر فيهم في الحال، ويطلق على هذه الأسرة اسم «تابمان»، وقد استوطنوا تلك الجهة منذ عهد قريب، وهم يمتون بالقرابة إلى عدد كبير من حثالة الناس، ولكنهم يشمخون بأنوفهم ويتعالون، ظنًا منهم بأنهم على قدم المساواة مع الأسر العريقة، ولما يمض على إقامتهم في «وست هول» سنة ونصف على أكثر تقدير. وما من أحد يعرف كيف آلت إليهم أموالهم. لقد أتوا من «برمنجهام» وهي كما تعلم يا «مستر وستن» بلدة لا تعقد عليها آمال جسام وإني أقول دائمًا في اسمها وقرًا على الاسماع، ولكن لا أحد يعلم أكثر من هذا عن أسرة «تابمان»، ولو أني أؤكد لك بأن هناك أشياء كثيرة يذهب إليها الناس في ظنونهم عن هذه الأسرة، وهم مع ذلك يتخيلون كما يتضح من مسلكهم، أنهم على قدم المساواة مع أخي «مستر سكلنج»، الذي شاءت الأقدار أن يكون من أقرب جيرانهم. إنه لشيء قبيح وزعم سخيف منهم - إن «مستر سكلنج» قد استوطن «مابل جروف» إحدى عشرة سنة، وكان والده مقيمًا بها من قبله، كما أعتقد بل وأؤكد أن ««سكلنج» الكبير كان قد انتهى من شراء البيت قبل أن يموت».

وحدث ما قطع عليهما الحديث، إذ كانت أقداح الشاي توزع على الحاضرين. ولما كان «مستر وستن» قد أفرغ كل ما في جعبته، فقد اغتنم الفرصة لكي ينصرف عنها.

فلما انتهوا من تناول الشاي، جلس كل من «مستر وستن» وزوجته، و«مستر ألتن» مع «مستر وودهاوس» يلعبون الورق، بينما بقي الخمسة الباقون يفعلون ما يحلو لهم.

ويساور «إمَّا» الشك في انسجام جماعتهم، فقد بدا «مستر نيتلي»، أقل ميلًا للحديث، بينما كانت «مسز ألتن» تود أن تكون موضع الاهتمام، في حين لم يرد أحد أن يظهر اهتمامه بها، فضلًا عن أنها هي نفسها لم تكن منشرحة الصدر فآثرت السكوت.

أما مستر «جون نيتلي»، فقد أثبت أنه كان أكثر كلامًا من أخيه، وكان موعد سفره في باكورة اليوم التالي، فأخذ يقول:

«أجل يا «إمَّا» إني أعتقد بأنه لا حاجة بي إلى مزيد من الحديث عن الأولاد، ولديك خطاب أختك، كل شيء دون فيه بإسهاب، أما مهمتي إليك فهي أكثر تركيزًا، وتختلف في روحها عما جاء في خطاب أختك. أن كل ما أوصي به هو ألا تدلليهما، أو تعطيهما دواء».
فقالت «إمَّا»: «آمل أن أرضيكما معًا، وسأبذل قصارى جهدي لإسعادهما، وفي هذا ما فيه الكفاية «لإيزابلا»، فالسعادة والسرور يبعدان عنهما الحاجة إلى الدواء، ويجنبانهما الميل إلى التدليل».
«وإن وجدتيهما سببًا للمتاعب، فعليك أن ترسيلهما إلى بيتهما ثانيًا».
«هذا محتمل جدًا، إنك تظن ذلك، أليس كذلك؟».
«إني أشعر أنهما قد يكونان مبعث ضجيج وجلبة لأبيك وربما كانا سببًا في تعطيلك، إذا كانت زياراتك ستستمر على هذه الزيادة كما هو الحال أخيرًا».
«الزيادة؟».
«بالتأكيد، ولا بد أنك تشعرين بأن هناك اختلافًا عظيمًا في تصرفاتك في غضون السنة الأخيرة».
«اختلاف!! لا وأيم الحق، ما اختلفت في شيء».
«لا شك أنك أصبحت أكثر ميلًا إلى المجتمعات عما كانت عادتك، وما عليك إلا أن تتأملي الآن ما نحن فيه، لقد جئت هنا لأقضي يومًا واحدًا، فإذا بي أجدك قد ارتبطت بوليمة عشاء. متى كان يحدث هذا أو يشبهه من قبل؟ إن سكان المنطقة في تزايد، وبالتالي سيزداد اختلاطك بالناس، وكل خطاب يصل منك إلى «إيزابلا» في الفترة الأخيرة فيه وصف لمباهج جديدة، ومآدب عشاء بدار «مستر كول»، وحفلات راقصة في «نزل التاج»، ثم هذا الاختلاف الذي طرأ عليك، وتجلى في كثرة خروجك والذي لم يأت إلا عن طريق «راندولز».
وأسرع أخوه يقول: «أجل، إن «راندولز» هي السبب في كل ذلك».
«حسنًا جدًا، وما دام يوجد احتمال كما أظن، في أن يقل سلطان «راندولز» عما هو الآن، فمن المكن يا «إمَّا» أن يكون «هنري» و«جون» عقبة في طريقك أحيانًا، فإن كان هذا، أرجو أن ترسليهما إلى بيتهما».
وصاح «مستر نيتلي»: «لا، ليس ثمة ما يدعو إلى أن تصل الأمور إلى هذه النتيجة، وليرسلا إلى «دونول»، فلن يكون عندي ما يشْغلني عنهما».
وصاحت «إمَّا»: أؤكد لك أنك تدفعني إلى الضحك، وأود أن أعلم كم من ارتباطاتي العديدة تتم دون أن تكون أنت بين الجماعة. ثم لماذا يظن بأن هناك خطرًا من عدم وجود فراغ عندي لأرعى الأولاد الصغار؟
وما هي تلك الارتباطات العجيبة التي كانت لي؟ هل هي مأدبة العشاء التي كانت في بيت «كول»؟ أم هي ما تحدثنا عنه لإقامة حفلة راقصة لم تتم؟ ثم أومأت برأسها إلى مستر «جون نيتلي» وقالت:
«إني أفهمك، لقد كنت سعيد الحظ لإلتقائك بأصدقائك العديدين هنا، ولقد غمرك هذا بالسرور فلم ترد أن يمر هذا دون ملاحظة».

والتفتت هنا إلى «مستر نيتلي» وقالت:

«ولكني لا أكاد أنخيّل لماذا وأنت تعلم أني من نادر النادر أن أبتعد عن «هارتفيلد» ساعتين كاملتين، تتنبأ بمثل هذه المباذل التي أمضي فيها الوقت عبثًا. أما عن الصغار الأعزاء، فلا بد لي أن أقول إنه إذا لم يتسع لهما وقت خالتهما «إمَّا»، فلن يكونا أسعد حالًا مع عمهما «نيتلي»، الذي يغيب عن بيته ما يقرب من خمس ساعات، بينما هي لا تغيب عن بيتها ساعة واحدة، وحتى إذا ظل في البيت فهو منصرف إما إلى القراءة، وإما إلى تسوية حساباته».

وبدا كأن «مستر نيتلي» يحاول ألا يبتسم، وقد نجح في ذلك بالفعل دون مشقة، عندما أخذت «مسز ألتن» تتحدث إليه.

كان قليل من التفكير الهادئ كافيًا لتعلم «إمَّا» كنه الاضطراب الذي أصابها عند سماعها أنباء «فرانك تشرشل»، وسرعان ما تأكد لها أنها لم تكن تخشى على نفسها أو تقلق، وإنما كان خوفهًا وقلقها من أجله. لقد تضاءل تعلقها به حتى أصبح وكأنه لا شيء يستحق أن يشغل تفكيرها.

أما ما كان يؤرقها فهو أن يعود، وهو الذي ولا شك أكثر الاثنين حبًا، وهو يحمل نحوها نفس المشاعر الملتهبة التي كان يحملها لها وقت سفره. فإذا كان فراقهما شهرين لم يذهب بلواعج حبه، إذن فالمكاره تتربص بها والخطر لا بد محيق بها، ولا بد من الحيطة من أجلها ومن أجله معًا. فلقد كانت مصممة على ألا تقع في حبائل حبه مرة أخرى وترى أن من واجبها ألا تعمل على تشجيعه.

وودت لو تمكنت من الحيلولة دون إفصاحه عن كوامن مشاعره، فإن ذلك سيكون خاتمة مؤلمة لتعارفهما. ومع هذا فلم يكن في وسعها إلا أن تترقب شيئًا حاسمًا، وشعرت بأن الربيع لن يمر بغير أزمة أو حادثة تقلب هدوءها الخالي وتحيل سكينتها اضطرابًا.

ولم يمض وقت طويل، ولو أنه كان أطول مما كان «مستر وستن» يتوقع، قبل أن تتمكن من تكوين فكرة عما يعتمل في نفس «فرانك تشرشل» من المشاعر. ولم تأت أسرة «أنسكومب» إلى المدينة في وقت قريب كما رسم لهم خيالهم. ولكنه لم يلبث أن قدم إلى «هايبري» بعد مجيئه إلى المدينة بقليل، أتى ليقضي فيها ساعتين، فلم يكن في وسعه أن يقضي فيها أكثر من ذلك في تلك الرحلة. ولما كان قد حضر من«راندولز» إلى «هارتفيلد» مباشرة فقد كان في استطاعة «إمَّا» أن تتفحصه، وأن تقرر بسرعة ما عليه حالته، وما عليها أن تفعله. وكانت المقابلة على أعظم ما يكون من المودة ولم يكن هناك أقل شك في سروره البالغ لرؤيتها، ولكن الشك خالجها في الحال، في أن اهتمامه بها لم يكن كسابق عهده وأن مشاعره نحوها لم تكن بنفس العذوبة والرقة التي كانت عليه. وراقبته بدقة فاتضح لها أنه أقل هيامًا بها مما كان قطعًا، ولعل غيابه واعتقاده بعدم اكتراثها به، كان لهما هذا الأثر الطبيعي الذي كانت ترجوه.

لقد بدا مبتهجًا للغاية، مقبلًا على الحديث والضحك كما كان دائمًا، وكان يحلو له أن يردد الحديث عن زيارته السابقة ويستعيد ما مضى من حوادثها. ولكن حديثه لم يكن خلوًا من الانفعال. ولم يكن اكتشافها بأنه أصبح أقل اهتمامًا بها

نتيجة هدوئه، كلّا فهو لم يكن هادئًا، بل كان قلقًا مضطرب لا يستقر على حال. كان مبتهجًا، ولكن ابتهاجه بدا وكأنه غير صادر من أعماق نفسه. أمّا ما الذي جعلها تقطع برأيها في الأمر، فهو بقاؤه عندهم ربع ساعة لا تزيد، ثم خروجه مسرعًا ليقوم بزيارات أخرى في «هايبري»: فلقد صادفه في طريقه جماعة من المعارف القدامى، فلم يقف إلا ليتبادل معهم كلمة أو كلمتين، ولكن غروره جعله يظن بأنهم سيشعرون بخيبة أمل إن لم يقم بزيارتهم، وإنه لا بد لذلك في أن يسرع بالخروج، مع أنه كان يود أن يمكث في «هارتفيلد» وقتًا أطول.

ولم تشك «إمَّا» في أنه قد أصبح أقل تعلقًا بها ولم تكن مشاعره المضطربة، ولا إسراعه بالخروج، تبدو أنها خلّصته كلية من حبه، ومن ثم فقد كانت تميل إلى الظن بأن مرد ذلك ما كان يخشاه من عودة تأثيرها عليه، وأنه كان قد عقد العزم على أن يكون حذرًا، وألا يجعل زمامه بين يديها بعد الآن.

وكانت هذه الزيارة هي الوحيدة التي قام بها «فرانك تشرشل» في غضون عشرة أيام، وكان دائمًا يعتذر لمن في «راندولز» بأنه كان «يأمل الحضور» أو أنه كان «عازمًا على الحضور» ولكنه «كان يجد دائمًا ما يمنعه من ذلك» وأن «زوجة خاله لم تكن تحتمل أن يبتعد عنها». على أنه إذا كان مخلصًا فيما يقول، أو أنه حاول المجيء حقًا، كان لنا أن نستتنج بأن انتقال «مسز تشرشل» إلى لندن لم يكن ذا أثر فعال في برئها من مرضها العصبي، أو مرضها الذي تزعمه. لقد قال في «راندولز» بأنه متأكد من مرضها، وإنها حقًا مريضة جدًا، وأنها على الرغم من أن الكثير من أمراضها كانت أمراضًا وهمية وبعيدة عن الحقيقة، إلا أنه أصبح يشك الآن، وقد عاد بفكره إلى الماضي، في إنها صارت أضعف مما كانت عليه منذ نصف عام، وإن كان لا يعتقد أنها مريضة بعلة لا يمكن برؤها منها بالعناية والدواء، أو يشك في أنها لن تعمر طويلًا. ولم تستطع كل ظنون أبيه أن تحمله على الاعتراف بأن أمراضها ليست إلا من صنع الخيال أو أنها لا زالت قوية البنيان كما كانت.

ولم يمض غير وقت طويل حتى ظهر بأن لندن ليست بالكاد الذي يوافقها، فهي لم تقوط على تحمل ضجيجها، فتوترت أعصابها باستمرار، وزادت آلامها. وسرعان ما وصل إلى «راندولز» في نهاية الأيام العشرة، من ابن أخت زوجها ما يفيد تغيير خطتها، وأنهم سيرحلون حالًا إلى «ريشمند» حيث يتولى علاجها طبيب ذائع الصيت هناك، فضلًا عن أن ذلك المكان يستهويها وإنهم من أجل ذلك استأجروا بيتًا مؤثثًا، في بقعة جميلة، وأن من المنتظر أن تستفيد من هذا التغيير كثيرًا.

وبلغ «إمَّا» أن «فرانك» كان يبدو مغتبطًا كل الاغتباط وهو يشير في خطابه إلى هذا الإجراء، وأنه يقدر كثيرًا نعمة بقائه شهرين قريبًا من أصدقائه الأعزاء العديدين. فلقد استأجروا البيت لشهري مايو ويونيو. كذلك علمت «إمَّا» بأنه

كتب الآن يقول أنه واثق كل الثقة من أنه سيكون معهم في «راندولز» كثيرًا، بل وكلما أراد.

- وأدركت «إمَّا» ما كان لهذه الآمال الجميلة من أثر في نفس «مستر وستن»، وأنه كان يعتبرها مصدرًا لكل ما أتت به هذه الآمال من سعادة، وودت لو أن هذا لم يكن. على أن فترة الشهرين كانت كفيلة بوضع ظنونه موضع الاختبار.

نعم فلم يكن هناك شك في فرحة «مستر وستن»، فقد كان مغتبطًا الاغتباط كله، لقد كان ذلك هو ما يرجوه، إذ أصبح وجود «فرانك» بالقرب منهم أمرا محققًا. وماذا على شاب من مسافة أميال تسعة؟ إنها لا تستغرق إلا ركوب ساعة واحدة، وسوف يتردد عليهم دائمًا، والفرق بين المسافة وهو في لندن، وبينها وهو في «ريشمند»، هو الفرق بين رؤيته دائمًا أو عدم رؤيته أبدًا. لقد كانت المسافة ستة عشر ميلًا، بل هي لا بد أن تكون ثمانية عشر ميلًا إلى شارع «منشستر»، وهي عائق كبير في سبيل حضوره، وإذا هو تمكن من الرحيل، فأنه سوف يقضي يومه في المجيء والرجوع. ومن ثم فلم يكن لوجوده في لندن أية فائدة لهم، ووجوده فيها أو في «أنسكومب» سيان. ولكن المسافة من «ريشمند» تسهل عليه الاتصال بهم، وهي أسهل عليه مما لو كان في مكان أقرب من ذلك.

وقد تحقق بهذا الانتقال شيء جميل جاء سريعًا وعاجلًا، ذلك هو الذي يقام في «نزل التاج»، وهو حفل لم ينسه أحد، وإن كان من العبث محاولة تحديد يوم لإقامته قبل الآن، أما الآن فقد صار من الممكن تحديد موعده. واستؤنفت الاستعدادت. ولم يمض غير وقت قليل على انتقال أسرة «تشرشل» إلى «ريشمند» حتى وصل خطاب موجز من «فرانك» يقول فيه أن زوجة خاله قد شعرت بتحسن كبير نتيجة لهذا التغيير، وأنه أصبح لا يشك في أن بوسعه أن يقضي معهم أربعًا وعشرين ساعة في أي وقت، وشجعهم ذلك على تحديد اليوم، وجعله في وقت قريب بقدر الإمكان. لقد أصبحت الحفلة الراقصة التي سيقيمها «مستر وستن» أمرًا محققًا، ولم تبق إلا أيام قلائل لكي يسعد شباب «هايبري».

واستسلم «مستر وودهاوس» ولم يعارض، فقد خفف عنه هذا الفصل من السنة بعض ما كان يخشاه، فأن شهر مايو أفضل من شهر فبراير في كل شي.

واتفقوا على أن تمضي «مسز بيتس» الأمسية في «هارتفيلد» وأخطر الحوذي «جيمز» بالاستعداد، وكان أمل «مستر وودهاوس» عظيمًا في أنه لن يلحق «هنري» ولا «جون» الصغيرين أي ضرر في غياب «إمَّا» عن البيت.

الفصل الثامن والثلاثون

لم يحدث هذه المرة ما يكدر الصفو أو يمنع الحفلة الراقصة، واقترب اليوم، ثم حان موعده، وبعد صباح ساده شيء من قلق الانتظار وصل «فرانك تشرشل» إلى «راندولز» بنفسه وبعينه قبل العشاء. وأمنوا كل شيء.

ولم يكن حتى الآن قد قابل «إمَّا» مرة أخرى. فقد كان من نصيب قاعة «نزل التاج» أن تشهد هذه المقابلة، وأن تكون مقابلة تفوق مجرد مقابلة عادية وسط جمهرة من الناس. فلقد ألح «مستر وستن» في رجائه «لإمَّا» بأن تبكر بالحضور قبل غيرها لاستشارتها في مدى صلاحية الحجرة، ومدى ما تهيئه للمدعوين من أسباب الراحة. وقد بلغ به إلحاحه وإلحافه حدًا لم تكن تستطيع معه إلا أن تستجيب لرجائه. ومن ثم كان عليها أن تمضي بعض الوقت في هدوء مع الفتى. وكان على «إمَّا» أن تصحب «هاريت» معها، فسارت العربة بهما إلى «نزل التاج»، ووصلتا في الوقت المناسب عقب وصول أسرة «راندولز» مباشرة.

وبدا عند وصولهما أن «فرانك تشرشل» كان يترقب في قلق، وعلى الرغم من أنه لم يكثر من الحديث، فقد كانت عيناه تنطقان بعزمه على قضاء أمسية ممتعة.

وأخذ الجميع يجوبون أرجاء المكان ليروا أن كل شيء كان كما يجب، وانضم إليهم في غضون دقائق قليلة، راكبو عربة أخرى، كان لسماع صوت عجلاتها دهشة عظيمة عند «إمَّا»، وأوشكت أن تقول متعجبة:

«ما أبعد تبكيرهم بالحضور عن الحكمة!» لولا أنها وجدتها أسرة من قدامى الأصدقاء، جاءوا كما جاءت هي، استجابة لرغبة «مستر وستن» في الاستعانة برأيهم. وجاءت في إثر هؤلاء عربة أخرى فيها بعض أبناء العمومة كانت وصلتهم دعوة تحمل نفس الرجاء بأن يبكروا بالحضور للغرض نفسه، حتى بدا كأن نصف المدعوين سيجتمعون بعد قليل لإبداء رأيهم في الاستعدادات.

ولاحظت «إمَّا» أنها ليست هي وحدها التي رأى «مستر وستن» الاعتمادعلى سلامة ذوقها. وشعرت بأن كبرياءها لن يتحقق لمجرد أنها السيدة المفضلة عند رجل يصطفيها لتكون موضع ثقته. لقد كانت تحب فيه الصراحة، ولكنها كانت ترى في الوقت نفسه أنه لو قلل من طيبة قلبه لكان على خلق أفضل،

فأن ما يجعل الإنسان مثاليًا، هو أن يكون عطوفًا على الجميع، لا أن يكون صديقًا للجميع. هذا هو الرجل الذي يظفر بإعجابها.

وانطلق الجماعة يجوبون أرجاء المكان، ويتأملون، ويكررون الثناء مرة بعد مرة،. فلما فرغوا من كل شيء، انتظموا في نصف حلقة حول المدفأة ليبدى كل منهم ما يعن له من الملاحظات، إلى أن أثير موضوع جديد، هو أن الشهر قد يكون شهر مايو، ولكن إشعال المدفأة في المساء كان مع ذلك لا يزال مستحبًا.

واكتشفت «إمَّا» أن الذنب لم يكن ذنب «مستر وستن» إذا كان عدد المستشارين الخصوصيين قد وقف عند هذا العدد ولم يزد عليه، إذ كانتا قد وقفتا عند بيت «مسز بيتس» ليقولا أن العربة تحت أمرهن، فعلمتا أن الخالة وابنة الأخت سوف تأتيان في عربة أسرة «ألتن».

وكان «فرانك تشرشل» يقف بجوارها، ولكنه لم يكن مستقرًا، بل كان قلقًا، مما دل على أنه كان يفكر في شيء يؤرقه، وكان ينظر حوله، ويتجه ببصره نحو الباب يترقب قدوم عربات أخرى. فهل كان قلقه لأنه لم يعد قادرًا على الصبر حتى يبدأ الحفل، أم لأنه كان يخشى وجوده إلى جوارها دائمًا.

وجاء ذكر«مسز ألتن» فقال: «أظنها ستكون هنا بعد قليل، فأنا شديد اللهفة على رؤيتها، فقد سمعت عنها الكثير، فظني أنها ستأتي بعد فترة وجيزة ».

وسمع صوت عربة آتية، فتحرك في الحال، ولكنه عاد وقال: «لقد نسيت أنني لم يسبق لي التعرف بها، وأني لم أر «متر ألتن» ولا «مسز ألتن» من قبل، ولا يليق بي أن أكون في المقدمة».

وأقبل «مستر ألتن» وعقيلته، وارتسمت على الأفواه الابتسامات كما تبودلت التحيات. ونظر «مستر وستن» حوله وقال: «ولكن أين «مس بيتس» و«مس فيرفاكس»، لقد كنا نعتقد أنكما ستحضرانهما معكما»؟.

لقد كانت هفوة، ولكنها هفوة بسيطة، وسرعان ما أرسلت إليهما العربة على الفور.

وتاقت «إمَّا» إلى معرفة أول رأي يكونه «فرانك» لنفسه عن «مسز ألتن»، وكيف يكون تأثير أناقتها المدروسة عليه – بملابسها الأنيقة وابتساماتها المستعلية. وقد استعد بالفعل ليكون لنفسه رأيًا فيها، فوجه كل انتباهه إليها بعد أن انتهى من التعرف بها.

وعادت العربة بعد دقائق قليلة، وكان البعض يتحدث عن سقوط بعض الأمطار، فقال «فرانك» لأبيه: «سأرى يا سيدي إن كانت هناك مظلات للوقاية من الأمطار، فلا ينبغي أن ننسى «مس بيتس»».

ثم خرج ومن ورائه سار «مستر وستن» ولكن «مسز ألتن» استوقفت «مستر وستن» لتقول له عن ابنه ما يرضى نفسه، وسرعان ما أخذت تدلي برأيها، فبدأت بصوت جعل حديثها مسموعًا من الفتى، رغم أنه لم يكن يتمهل في مشيته، فسمعها وهي تقول: «لا شك أنه شاب ظريف جدًا يا «مستر وستن»،

ولقد أخبرتك صراحة بأني سأكوّن عنه فكرة مستقلة، ويسرني أن أقول أني شعرت بعظيم السرور لرؤيته. كن واثقًا من قولي هذا، فلست ممن يطرون الناس أبدًا، نعم أني أراه شابًا ظريفًا للغاية، فيه من جميل الخصال ما يعجبني ويلقى هوى في نفسى! إنه ولا جدال أنموذج للسيد الكامل، وليس به أثر من الغرور، ولا في دلال الشبان الذين أمقتهم كل المقت. وما من أحد في «مابل جروف» يحتملهم، فلا «مستر سكلنج» ولا أنا نستطيع أن نحتملهم، وكنا نرميهم أحيانًا بأقذع كلام يمكن أن يجرح شعورهم. أما «سيلينا» وهي على ما هي عليه من الوداعة المعيبة أحيانًا، فكانت أكثر منا تحملًا لهم».

وكان «مستر وستن» يوليها كل انتباهه وهي تتحدث عن ابنه، فلما أخذت تتحدث عن «مابل جروف»، تذكر أن هناك سيدات قد أقبلن، وأن عليه أن يعنى بهن، ووجد لزامًا عليه أن يسرع بالانسحاب في ابتسامة عذبة.

والتفتت «مسز ألتن» إلى «مسز وستن» تقول:

«لا شك أنها عربتنا وفيها «مس بيتس» و«جين». إن حوذينا وخيولنا كلها في منتهى السرعة، وأعتقد أنه ليس هناك ما هو أسرع منها، ثم ما أعظمه من سرور أن يبعث المرء بعربته إلى صديق!! لقد فهمت بأنكم تكرمتم بتقديم عربتكم، ولكن لا ضرورة لذلك أبدًا مرة أخرى، وكونوا واثقين بأني سأرعاهما دائمًا».

ودخلت «مس بيتس» ومعها «مس فيرفاكس» إلى الحجرة يصحبهما السيدان، وبدت «مسز ألتن» كما لو كانت تظن أن من واجبها، بقدر ما هو من واجب «مسز وستن» تمامًا، أن تتقدملا لاستقبالهما. ولم تكن إيماءاتها ولا حركاتها لتخفى على واحدة مثل «إمَّا» بعينها الفاحصة، غير ان كلامها وكلام غيرها، سرعان ما غاب عن الأسماع في الحال تحت وابل من حديث «مس بيتس»، التي دخلت وهي تتكلم، ولم تنته من كلامها إلا بعد وقت طويل من جلوسها معهم حول المدفأة. إذ ما كاد يفتح الباب حتى سمعت وهي تقول:

«ما أكرمكم!! وليس هناك مطر إطلاقًا، إنه ليس بالمطر الذي يؤبه له، وأنا لست قلقة على نفسي، والحذاء سميك تمامًا – لقد قالت «جين» (حالما دخلنا من الباب): «شيء جميل، شيء جميل!! هذا ولا شك شيء فخم، إنه جدير بالإعجاب!! إنه ولا ريب فائق التنسيق ولا ينقصه شيء. نعم، ما كان يجول في خاطري شيء من هذا، والإضاءة عظيمة. جين! جين! جين! أنظري، هل رأيت شيئًا كهذا؟ - آه «مستر وستن»! لا بد أنك تملك مصباح علاء الدين، إن «مسز ستوكس» الطيبة لن تعرف حجرتها بعد الآن. لقد شاهدتها ساعة دخولي، وكانت واقفة بالمدخل فقلت: «أهلًا مسز ستوكس»! ولكن لم يكن لدي من الوقت ما يسمح لي بأن أقول أكثر من ذلك».

والتقت في تلك اللحظة «بمسز وستن» فانطلقت تقول: «جميل جدًا وأشكرك يا سيدتي، وأرجو أن تكوني بخير، ويسرني أن أسمع ذلك، إني أخشى أن يكون قد ألم بك صداع، لأني أراك تنتقلين هنا وهناك كثيرًا، وأنا أعلم ما أنت فيه من

متاعب كثيرة. إنه يسعدني سماع ذلك ولا شك، آه!! يا عزيزتي «مسز ألتن» كم أنا شاكرة لك من أجل العربة! لقد جاءت في أنسب وقت، وكنت أنا وجين على أتم استعداد، ولم نعطل الخيل لحظة، وهي عربة مريحة للغاية، ولا شك يا «مسز وستن» أننا مدينون لك بالشكر على حسن صنيعك. إن «مسز ألتن» كتبت لجين بذلك، وإلا كنا جئنا في عربتك، ما أجمل أن يقدم لنا في يوم واحد عرضان كهذين!! أؤكد لك يا سيدتي أني قلت لوالدتي إني لم أجد جيرانًا مثل هؤلاء – أشكرك، إن والدتي تتمتع بكامل الصحة، إنها ذهبت إلى بيت «مستر وودهاوس»، وقد جعلتها تأخذ شالها معها لأن الطقس لا يكون دافئًا في المساء. وهو شالها الكبير الجديد، وقد أهدته لها «مسز دكسون» بمناسبة عقد قرانها، وكم كان كريمًا منها أن تفكر في والدتي!! إنها اشترته من متجر في «ويموث» وهو من اختيار «مستر دكسون»، وتقول «جين» إنه كان هناك ثلاثة شالات غيره، وإنهم ترددوا بعض الوقت في أيها يختارون، وفضل المقدم «كامبيل» الزيتوني اللون، هل أنت متأكدة يا عزيزتي «جين» بأن قدميك لم تبتلا؟ إنها كانت قطرة أو قطرتين فقط، ولكني شديدة الخوف، غير أن مستر «فرانك تشرشل» كان عظيمًا، فقد كان هناك حصير لنخطو فوقه، ولن أنس أبدًا أدبه الجم. ولا بد لي أن أخبرك يا مستر «فرانك تشرشل» بأن نظارة أمي لم يطرأ عليها أي خلل من وقتها، ولم يخرج المسمار من مكانها ثانية، ووالدتي تتحدث في معظم الأوقات عن دماثة خلقك، «أليس كذلك يا «جين»؟ ألا تتحدث غالبًا عن مستر فرانك «تشرشل»؟ آه!! ها هي «مس وودهاوس» كيف حالك يا عزيزتي «مس وودهاوس»؟ - على أحسن حال؟ أشكرك وأنا بصحة جيدة – هذا اجتماع عقد في فردوس الخيال، ما أعظم التغيير من حال إلى حال!» (ونظرت إلى «إمَّا» نظرة تحمل كل معاني الرضى) وقالت: «يجب ألا ألهج بالمديح، أني أعلم بأن ذلك ليس من أدب السلوك، ولكن ثقي يا «مس وودهاوس» بأنك تبدين – لكن ما رأيك في شعر «جين»؟ إني أوكِل لك الحكم على ذلك، إنها عملت كل ما فيه بنفسها، ما أدهش تصفيفها لشعرها!! ولا أظن أن حلاقًا من لندن يقدر على مثل ذلك، ثم ها هو الدكتور «هيوز» وعقيلته قد أقبلا، ولا بد لي من التوجه لأتحدث معهما لحظة – كيف حالكما؟ - وكيف حالك؟

أين العزيز «مستر ريتشارد»؟

آه!! ها هو هناك لا تزعجاه، وأفضل له أن يشغل بالحديث مع الشابات».

كيف حالك يا «مستر ريتشارد»؟ لقد رأيتك بالأمس وأنت تجوب المدينة بعربتك.

وها هي «مسز أوتواي» و«مستر أوتواي» الرجل الطيب، وكذلك «مس أوتواي» و«مس كارولين»، ما أجمل هذه الطائفة من الأصدقاء!! وها هو «مستر جورج» و«مستر أرثر»!! كيف حالكما؟ وكيف حالكن جميعًا؟.

نحن بخير، وأنا شاكرة جزيل الشكر، وما كنا أحسن مما نحن عليه الآن أبدًا – صه!! ألست أسمع عربة أخرى؟ من يا ترى يكون هؤلاء؟ - يحتمل جدًا أن تكون عربة أسرة «كول» الأجلاء – الحق أن وقوفي بين أصدقاء كهؤلاء شيء يملأ القلب بهجة وسرورًا، وما أعظم تلك النار التي نستدفئ حولها!! إن حرارتها تكاد تشويني تمامًا – لست أريد قهوة وشكرًا لأني لا أتناول القهوة أبدًا، وإن تفضلت يا سيدي فليكن قليل من الشاي، وأمامك الوقت فيه متسع، فليس هناك ما يدعو إلى العجلة آه!! ها هو الشاي قد حضر، إن كل شيء على ما يرام!».
وعاد «فرانك تشرشل» إلى مكانه بجانب «إمَّا» التي وجدت نفسها عندما سكتت «مس بيتس»، مضطرة إلى الإصغاء إلى حديث «مسز ألتن» و«مس فيرفاكس»، وكانتا تقفان خلفها على مسافة قصيرة منها. أما هو فكان سابحًا في بحر من التفكير، فلم تدر إذا كان هو كذلك منصتًا للحديث الذي يجري خلفه.
وبعد أن أسهبت «مسز ألتن» في امتداح مظهر «جين» وجمال ردائها، وتقبلت «جين» ذلك منها قبولًا حسنًا، بدا واضحًا أن «مسز ألتن» كانت تريد أن تكون هي الأخرى موضع المديح والإعجاب، فأخذت تسأل:
«ما رأيك في فستاني؟ وما رأيك في التطريز؟ وماذا ترين في تسريحة «رايت» لشعري؟، وتلقت على هذه الأسئلة وعلى كثير غيرها إجابات تتسم بالأناة والأدب.
ثم قالت «مسز ألتن»:
«ما من أحد أقل مني تفكيرًا في الملابس بوجه عام، ولكني في مثل هذه المناسبات، وأنظار الناس جميعًا تتجه إليّ، وكذلك إكرامًا لأسرة «وستن» التي لا أشك أنها أحيت هذه الحفلة الساهرة خاصة لتكريمي، فأني لا أريد أن أكون أقل من غيري، وأنا لا أرى في الحجرة باستثناء ما لاعلى من اللآلئ، إلا عددًا قليلًا منها. لقد فهمت أن «فرانك تشرشل» راقص ممتاز، وسوف نرى أن كانت طريقتنا في الرقص متوافقة. إن «فرانك تشرشل» ولا شك شاب ظريف، وإني معجبة به كثيرًا».
وأخذ «فرانك تشرشل» يتحدث بقوة في تلك اللحظة حتى خطر ببال «إمَّا» إنه لا بد قد سمع إطراءه، وأنه لا يريد أن يستمع إلى مزيد منه؟ وخفت صوت السيدتين في تلك اللحظة حتى علا صوته على صوتهما فترة من الوقت إلى أن كفّ عن الكلام مرة ثانية، فظهر صوت «مسز ألتن» واضحًا، وانضم إليهما في تلك اللحظة «مستر ألتن»، فقالت زوجته متعجبة».
«آه!! لقد عثرت علينا أخيرًا ونحن في عزلتنا. لقد كنت في تلك اللحظة أقول بأنك ستكون في اشتياق إلى سماع أخبارنا».
وانطلق «فرانك تشرشل» يردد قولها وعلى وجهة مظاهر الدهشة وعدم الرضى:

«جين!! جين!! إنه لأمر هين أن تناديها هكذا، ولكني أرى أن «مس فيرفاكس» لا تعارض في ذلك».
وقالت «إمَّا» همسًا: «كيف وجدت «مسز ألتن؟»».
«لا شيء أبدًا».
«إنك جاحد».
«جاحد؟ وماذا تعنين؟».
ثم انبسطت أسارير وجهه، وانقلب عبوسه ابتسامًا.
وقال: «لا، لا تقولي شيئًا لي، أنا لا أريد أن أعلم ما تعنين... أين والدي؟ ومتى سيبدأ الرقص؟».
ولم يسهل على «إمَّا» أن تفهمه، إذ بدا لها متقلب الأهواء مضطرب المزاج، ثم انصرف ليبحث عن والده، ولكنه عاد مسرعًا ومعه «مستر وستن» وزوجته. لقد التقى بهما وهو في شيء من الحيرة، ورأى ضرورة بسط حيرته لهما أمام «إمَّا». فلقد طرأ على بال «مستر وستن» فجأة أنه لا بد من دعوة «مسز ألتن» لتفتح الرقص، وأن «مسز ألتن» نفسها تنتظر ذلك. الأمر الذي يتعارض مع رغبتهم في أن تكون الصدارة في ذلك «لإمَّا». واستمعت «إمَّا» لهذه الحقيقة المرة بجلد.
ثم قال «مستر وستن»: «وماذا نحن فاعلون لكي نهيئ لها زميلًا يناسبها؟ إنها سترى أن من واجب «فرانك» أن يطلبها لترقص معه».
والتفت «فرانك» في الحال إلى «إمَّا» يستنهضها الوفاء بما وعدته به من قبل، وأعلن مزهوًا بأنه قد ارتبط بشريكته في الرقص، وبدا على والده أنه موافق على ذلك كل الموافقة. ثم تبين أن «مسز وستن» كانت تود أن يرقص «مستر وستن» نفسه مع «مسز ألتن»، وأن عليهم إقناعه بذلك. واستجاب إلى رغبتها في الحال. وتقدم «مستر وستن» ومعه «مسز ألتن»، ومن بعدهما «مستر فرانك تشرشل»، ومعه «مس وودهاوس» إلى حلبة الرقص. وهكذا كان على «إمَّا» أن تقنع بأن تكون التالية لمسز «ألتن» على الرغم من أنها كانت تعتبر أن الحفلة قد أقيمت من أجلها خاصة. وكاد هذا أن يكون كافيًا ليجعلها تفكر في الزواج.
وما من شك في أن «مسز ألتن» كانت في تلك اللحظة صاحبة المكانة الأولى، وأنها حظيت بما يشبع كبرياءها إذ على الرغم من أنها كانت تود أن تبدأ رقصها ومعها «فرانك تشرشل»، فإنها لم تخسر بذلك التغيير شيئًا، بل ربما كان «مستر وستن» أفضل من ابنه مقامًا. ورغم ما في ذلك من مساس بشعور «إمَّا»، فقد ظلت هانئة مبتسمة وهي ترى هذه المجموعة المحترمة تنتظم في صف واحد، وسرها أن تشعر بأنه ما زال أمامها ساعات طويلة تقضيها في مرح غير عادي. ولم يكن يضايقها شيء أكثر من عدم اشتراك «مستر نيتلي» في الرقص، فقد اتخذ مكانه بين الواقفين. وما كان له وهو في ميعة الصبا أن يفعل ذلك، بل كان عليه أن يرقص، وألا يِضع نفسه في مصاف الأزواج والآباء،

ولاعبي الورق، الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يهتمون بالرقص، إلى أن يحين وقت الجولة الفاصلة في اللعب. ولعله لم يكن يستطيع أن يتخذ لنفسه مكانًا أفضل من المكان الذي وقف فيه، لكي تظهر محاسنه في أجلى صورها. فلقد اصطف بين المسنين، وذوي الأجسام البدينة من أصحاب الأكتاف المتدلية، فبدا بينهم فارع الطول قويًا معتدل القامة، مما جعل «إمَّا» تشعر بأنه لا بد أن يكون محط أنظار الجميع، وأنه باستثناء زميلها في الرقص، ليس له بين كل الشبان من هو ند له.
وخطا بضع خطوات دلت دلالة كافية على أنه لو كان حاول الرقص لأبلى فيه بلاء حسنًا، ولأظهر من الرشاقة فيه ما هو جدير بالسادة. وكان كلما التقت أنظارهما، وجدته وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة، ولكنه كان بوجه عام يبدو مهمومًا. وودت في تلك اللحظة لو كان أكثر حبًا للرقص، وأكثر ميلًا إلى «فرانك تشرشل»، وقد بدا لها إنه كان في حالات عديدة يوجه أنظاره إليها، وما كانت لتخدع نفسها بأنه كان مهتمًا برقصها. أما إذا كان يقصد نقد سلوكها، فلم يكن لها في ذلك ما تخشاه، ذلك لأنه لم يكن بينها وبين زميلها في الرقص شيء من المغازلة، بل كان مظهرها أدنى إلى أن يكون مظهر صديقين مبتهجين، منهما إلى حبيبين. وقد تحقق لها الآن بما لا يدع مجالًا للشك، أن «فرانك تشرشل» لم يعد كسابق عهده من حيث عواطفه نحوها.
واستمر الرقص في مرح وبهجة، ولم يضع اهتمام «مسز وستن» بالمدعوين، ولا حفاوتها المتواصلة بهم، سدى، فقد بدا كل واحد منهم سعيدًا مغتبطًا، وانطلقت الألسن تلهج بالثناء على الحفلة ومباهجها منذ بدايتها، مع أن من النادر أن يأتي المديح إلا في ختام الحفلة. ولم تكن الحفلة من حيث الحوادث الهامة التي تستحق التسجيل، تختلف عن غيرها من الحفلات المماثلة، إلا حادثة واحدة شغلت فكر «إمَّا». فقد بدأت الرقصتان الأخيرتان قبل موعد العشاء، ولم تجد «هاريت» زميلًا يراقصها فكانت السيدة الشابة الوحيدة التي جلست دوت أن ترقص. لقد كان عدد الراقصين والراقصات متساويًا منذ البداية فكيف تأتي إذن أن تكون واحدة منهم دون زميل يراقصها، ولكن عجب «إمَّا» سرعان ما تلاشى عندما أبصرت «مسترألتن» يتمشى ولا يطلب «هاريت» إلى مراقصته، كلما أمكنه أن يتجنب ذلك. ووثقت «إمَّا» من أنه لن يقدم على طلبها، وكانت تنتظر في كل لحظة أن يهرب إلى الحجرة التي يلعبون فيها الورق، ولكن الهرب لم يكن جزءًا من خطته فيما يبدو، فقد أتى إلى حيث يجتمع الجالسون بحجرة الرقص، وأخذ يتحدث معهم، وصار يروح ويغدو أمامهم، كأنما يريد توكيد حريته وعزمه على الاحتفاظ بها، لا يبالي أحيانًا أن يمر أمام «مس سمث» مباشرة، أو أن يتحدث إلى من كانوا بالقرب منها.
ورأت «إمَّا» ذلك، ولم تكن حتى الآن قد بدأت ترقص، وكانت تشق طريقها من مؤخرة القاعة، فكان أمامها من الوقت ما يسمح لها بأن تتلفت حولها. وما كادت تدير رأسها قليلًا حتى أبصرت كل شيء. فلما بلغت منتصف القاعة،

كانت الجماعة قد أصبحت خلفها، فكفت غن المراقبة. غير أن «مستر ألتن» كان على مقربة منها، فسمعت كل ما دار بينه وبين «مسز وستن» من حديث، كما لاحظت أن زوجته التي كانت تقف أمامها مباشرة، لم تكن تستمع للحديث فحسب، بل كانت تشجع زوجها على المضي فيه بنظرات لها دلالتها. وكانت «مسز وستن» ذات القلب الرقيق قد تركت مكانها لتقول له:

«أراك لا ترقص يا مستر ألتن» فكان جوابه على الفور:

«أنا على أتم استعداد يا «مسز وستن» إذا كنت ترقصين معي».

وأجابته: «أنا!، لا، وإنما سآتي لك بمن تجيد الرقص أكثر مني، فأنا لا أجيد الرقص».

فقال: «أعتقد بأني سأكونر سعيدًا جدًا لو أن «مسز جلبرت» أرادت الرقص، على الرغم من أني بدأت أشعر بأني رجل متزوج ومتقدم في السن، وأن أيام الرقص قد ولت بالنسبة لي. إلا أنه يسعدني جدًا أن أقف للرقص في أي وقت مع صديقة قديمة مثل «مسز جلبرت».

«إن «مسز جلبرت» لا تنوي أن ترقص، ولكن هناك فتاة لم يطلبها أحد للرقص، ويسرني جدًا أن أراها ترقص، إنها «مس سمث».

«أوه! مس سمث! إني لم ألحظ ذلك، ما أعظم كرمك! ولولا أني رجل متزوج وقد تقدم بي السن – ومع ذلك فأن أيام رقصي يا «مسز وستن» قد ولت، فمعذرة، وإني طوع أمرك، وعلى استعداد لعمل أي شيء آخر بمنتهى السرور، أما أيام رقصي فقد انتهت».

ولم تزد «مسز وستن» على ما قالته شيئًا، وقدرت «إمَّا» ما لا بد قد اعتراها من دهشة وشعور بالخذلان وهي تعود إلى مقعدها. إذن فهذا هو «مستر ألتن»، مستر ألتن الظريف الرقيق، صاحب الأيادي البيضاء. هذا هو «مستر ألتن» الرقيق الحاشية – ونظرت حولها لحظة، فرأته يقف مع «مستر نيتلي» على مسافة قريبة منها، وأخذ يتأهب لتبادل الحديث معه، بينما تبودلت بسمات الغبطة بينه وبين زوجته. ولم تنظر «إمَّا» مرة أخرى، فقد تأجج فؤادها بالغيظ، وخشيت أن يظهر ذلك على محياها.

ومضت لحظة، لفت نظرها بعدها منظر أدعى إلى الغبطة، فقد رأت «مستر نيتلي» يأخذ بيد «هاريت» إلى المرقص!! إنها لم تصادف في حياتها ما هو أعظم دهشة، ولا أدعى إلى راحة النفس مما رأته في تلك اللحظة. لقد أصبحت كل جوارحها تنطق بالسرور وعرفان الجميل، لما شمل به «هاريت» وشملها هي من فضل، وتاقت نفسها تشكره. وعلى الرغم من بعد المسافة بينهما، مما كان يحول دون الحديث، فقد أعربت ملامح وجهها عن الكثير، عندما وقع نظرها عليه مرة أخرى.

لقد دل رقصه على أنه كان بارعًا كما اعتقدت، وكانت «هاريت» ولا شك تكون أسعد حظًا لولا التجربة القاسية التي مرت بها، على أن ملامحها مع ذلك كشفتِ الآن عن مدى شعورها بالمِتعة التي صادفت هوى في نِفسها، فصارت

تقفز أعلى مما كانت تقفز في أي وقت مضى، وتثب إلى أبعد من وسط الصالة دون أن تتوقف لحظة عن الابتسامة.
وانزوى «مستر ألتن» في حجرة لعب الورق وهو أدعى ما يكون إلى السخرية (كما اعتقدت إمَّا)، وإن كانت لم تجده في مثل قسوة زوجته، ولو أنه آخذ في أن يكون على شاكلتها – وقد عبرت زوجته عن بعض مشاعرها لزميلها في الرقص، فأبدت ملاحظات مسموعة كان من بينها:
«إن «نيتلي» قد أخذته الشفقة ب«مس سمث» الصغيرة المسكينة، إنه ولا ريب رجل دمث الأخلاق إلى أقصى حد».
وأعلن للحاضرين أن موعد تناول العشاء قد حل، فأخذوا يتحركون صوب المائدة، وهكذا سيظل صوت «مس بيتس» يطرق الآذان منذ هذه اللحظة، وما من أحد يستطيع أن يقطع عليها حديثها إلى أن تجلس إلى المائدة وتمسك بملعقتها وإن هي إلا لحظة حتى انطلقت تقول:
«جين، جين عزيزتي جين، أين أنت؟ ها هي لفافة رقبتك، إن «مسز وستن» ترجوك أن ترتديها، إنها تقول بأنها تخشى التيارات الهوائية بالممر، ولو أنهم قد احتاطوا لكل شيء، ولقد سمر أحد الأبواب، ووضعت عليه أغطية كثيرة من الحصير..
عزيزتي «جين»، يجب أن ترتديها ولا شك..
أهلًا مستر «تشرشل»، إنك عظيم الأريحية، وما أحسن وضعك للتلفيعة حول رقبتك!
إن رقصك رائع ولا شك…
أجل يا عزيزتي، لقد ذهبت إلى المنزل جريًا كما قلت بأنه لا بد من ذلك لكي أساعد جدتك وقت ذهابها إلى فراشها، ثم عدت ثانية ولم يشعر أحد بغيابي، فقد خرجت دون أن أتفوه بكلمة كما أخبرتك، ووجدتها على أحسن حال، وقد أمضيت أمسية بهيجة مع «مستر وودهاوس» وشمل حديثهما نواحي شتى، كما لعبا النّرد، وتناولا الشاي بالطابق الأرضي، وأكلت البسكوت والتفاح المشوي، وتناولت النبيذ قبل أن تخرج، ولقد كانت سعيدة الطالع في بعض رمياتها «لزهر النرد»، وقد سألت عنك كثيرًا، وسألت عن مقدار متعتك، وعمن رقص معك، فقلت أوه!! إني لن أسبق «جين» بالأخبار، وقد تركتها وهي ترقص مع مستر «جورج أوتواي»، وهي تحب أن تخبرك عن كل شيء بنفسها غدًا، وإن أول من رقص معها كان «مستر ألتن»، ولست أدرك من سيطلبها لترقص بعد ذلك، وربما يكون «مستر وليم ويلكوكس» سيدي العزيز، إنك واسع الفضل، أليس من أحد غيري تعاونه؟ فأنا لست عديمة الحيلة، سيدي، إنك في منتهى العطف، فلتمسك «جين» بأحد ذراعيك، وأنا بذراعك الآخر… قف، قف، ولنرجع إلى الوراء قليلًا، إن «مسز ألتن» ذاهبة – عزيزتي «مسز ألتن»، ما أظرفها! وما أجمل الدانتل التي ترتديها!! إننا جميعًا نمشي الآن في ركابها، إنها ملكة الأمسية، أجل، ها نحن عند الممر، هناك درجتان يا «جين»، احترسي من

الدرجتين، لا، إنها درجة واحدة فقط، أجل، لقد كنت أعتقد إنهما درجتان. إن هذا لشيء عجيب جدًا، لقد كنت واثقة من أن هناك درجتين، ولكني أرى درجة واحدة... لم أر شيئًا كهذا في التنسيق والراحة... والشموع في كل مكان – لقد كنت أحدثك عن جدتك يا «جين»، لقد كانت هناك مسألة بسيطة أزعجتها... ثقي بأن التفاح المشوي والبسكوت كانا على أحسن ما يكون، ولكن جيء أولًا بصحن من «الحلويات» بالصلصة وكشك ألماظ لم يسلق تمامًا فأرجعه – وليس هناك من شيء أشهى من «الحلويات» بكشك ألماظ عند جدتك، ولذا لم تنل ما كانت تشتهيه، ولكننا اتفقنا على ألا نقول هذا لكائن من كان، خوفًا من أن يتسرب الخبر إلى العزيزة «مس وودهاوس» التي لا بد أن تستاء لذلك كثيرًا... أجل إن هذا شيء فخم جدًا، وإني في غاية الدهشة وما كنت أتخيل شيئًا كهذا... لقد اجتمع الجمال والسخاء معًا!! ما رأيت شيئًا مثله قبلًا، أجل، وأين سنجلس؟ أين سنجلس؟ ليكن ذلك في أي مكان لا تتعرض فيه «جين» لتيار الهواء، أما أنا فلا يهمني أن أجلس في أي مكان، نعم، هل تحبذ هذا الجانب؟ أؤكد لك يا «مستر تشرشل» أنه حسن، لولا أنه أكثر مما أستحق، ولكن لك ما تريد، إن توجيهاتك في هذا البيت لا يمكن أن تخطئ... كيف سنتذكر يا عزيزتي «جين» نصف هذه الصحون لنقولها لجدتك؟ هناك حساء كذلك، رحماك!! إن الطعام لن يقدم لي حالًا، ولكن الرائحة عظيمة جدًا، ولا يسعني إلا أن أبدأ بالأكل».

ولم تسنح الفرصة «لإمَّا» كي تتحدث إلى «مستر نيتلي» إلا عقب تناول العشاء، فلما انتظموا جميعًا في صالة الرقص مرة أخرى، أومأت إليه بعينيه تدعوه إليها لكي تشكره، ولم يسعه إلا أن يستجيب لها، وقد كان شديدًا في استهجانه لمسلك «مستر ألتن»، فقد ركان فظًا بدرجة لا تغتفر، وكذلك نظرات «مستر ألتن» لم تسلم من لومه واستنكاره... قال:

«إنهما عمدا إلى تجريح أكثر من «هاريت»، ولكن أخبريني يا «إمَّا» لماذا هم أعداؤك؟».

ونظر إليها نظرة ابتسام فاحصة، فلما لم يفز منها برد قال:

«أما هي فلا يجوز أن تكون غاضبة عليك مهما كان حاله هو، وأظنك ليس عندك ما تقولينه في ظني هذا، ولكن يجب أن تعترفي يا «إمَّا» أنك كنت تريدين أن تزوجيه من «هاريت».

وأجابت «إمَّا»: «نعم أردت ذلك، وهما لن يغتفراه لي».

«وهز رأسه وابتسم ابتسامة التشفي وأكتفى بقوله: «لن أعود عليك باللائمة، وسأتركك لأفكارك».

«وهل تعهد بي إلى أفكاري التي تتملقني وتغرر بي؟ وهل أنَبأتني نفسي المغرورة يومًا بأني مخطئة؟».

«إنها ليست نفسك المغرورة، ولكنها نفسك الجادة فلو قادتك الأولى إلى الضلال، فإني واثق بأن الأخرى ستدلك على أنه خطأ».

«إني أعترف بأني أخطأت الظن تمامًا في «مستر ألتن» فهو شخص فيه صغار، وقد اكتشفته أنت ولكني لم أكتشفه. لقد كنت واثقة بأنه يحب «هاريت» وكانت تلك الثقة نتيجة لسلسلة من أخطاء عجيبة متتالية».

«وأنا في مقابل هذا الاعتراف، سأكون منصفًا وأقول أن اختيارك كان أحسن له من اختياره لنفسه، فأن «هاريت سمث» فيها من الصفات العالية ما حرمت منه «مسز ألتن» كلية، فهي فتاة غير دعية، مخلصة وغير ماكرة، والرجل العاقل ذو الذوق السليم، يفضلها على امرأة مثل «مسز ألتن». لقد وجدت «هاريت» حلوة الحديث أكثر مما كنت أظن».

وشعرت «إمَّا» بمنتهى السرور، ثم قطع حديثهما ضوضاء أشاعتها دعوة «مستر وستن» للحاضرين جميعًا كي يبدأوا الرقص ثانية.

«هلمي يا «مس وودهاوس» ويا «مس أوتواي» ويا «مس فيرفاكس»: ماذا تفعلن جميعكن؟ هيا يا «إمَّا» وكوني قدوة لزميلاتك إني أراكن جميعًا متكاسلات نائمات؟».

وقالت «إمَّا»: «أنا على استعداد كلما دعيت».

وسألها «مستر نيتلي»: «ومع من سترقصين؟».

وترددت لحظة ثم أجابت: «معك إذا طلبت مني ذلك».

فقال وقد مد يده إليها: «هل تراقصينني؟».

«نعم أراقصك. لقد أظهرت بأنك تجيد الرقص، وأنت تعلم بأننا لسنا بالأخ والأخت حقيقة حتى يكون رقصنا شيئًا مموجًا».

«أخ وأخت!! لا، قطعًا لا».

كان هذا التفاهم البسيط مع «مستر نيتلي» من دواعي سرور «إمَّا» العظيم كما كان واحدًا من بين الذكريات الجميلة للحفلة الراقصة التي كانت تستعيدها وهي تسير في المروج في الصباح التالي. وبلغت فرحتها الذروة لأنهما تلاقيا معًا في إدراك حقيقة «مستر ألتن» وزوجته، وأن آراءهما كانت متفقة سواء فيما يتعلق بالزوج أو زوجته، وأثلج صدرها بصفة خاصة مديحه لهاريت. بل لقد كانت القحة التي بدت من «ألتن» وزوجته، والتي كانت تهدد بتعكير صفو بقية الأمسية، من بين العوامل التي جعلت الأمسية مرضية لها، فقد انتظرت أن تؤدي إلى نتيجة أخرى سعيدة، وهي تخلص «هاريت» من حبها ل«مستر ألتن» كلية حتى لا يبقى منه شيء. وزارد أملها في ذلك من طريقة حديث «هاريت» قبل مغادرتها صالة الرقص، عن هذه الحادثة، إذ بدت وكأنها كانت مغمضة العينين ثم فتحهما بغتة، فرأت أن «مستر ألتن» ليس بالرجل الممتاز الذي كانت تتصوره؛ لقد زال ولعها به ولم تعد «إمَّا» تخشى أن يعود قلب «هاريت» فينبض بالحب مرة أخرى بما يوجه إليها من عبارات المجاملة المؤذية. وكان اعتماد «إمَّا» في كل ذلك على ما في قلب «ألتن» وزوجته من ضغينة تجعلهما ينظمان الخطة لإشعارها دائمًا بأنها كمية مهملة، وهو كل ما تطلبه الآن. نعم، ما أعظم ما تنتظره «إمَّا» من هناءة في الصيف القادم، بعد أن صارت «هاريت» أكثر تعقلًا و«فرانك تشرشل» أقل حبًا، وغدا «مستر نيتلي» غير ميال إلى التشاحن معها.

ولم تكن تنتظر أن ترى «فرانك تشرشل» في ذلك الصباح، فقد أخبرها بأنه لن يسعد بالمجيء إلى «هارتفيلد»، إذا كان لا بد له من العودة إلى مقره ظهرًا، ولم تأسف «إمَّا» على ذلك.

فلما انتهت من ترتيب كل هذه المسائل، ثم عادت ففحصتها، وتحققت أخيرًا من سلامتها، استدارت لتعود من نزهتها إلى بيتها وهي سعيدة بأنها تستطيع الآن أن تلبي مطالب الولدين الصغيرين ومطالب جدهما، فإذا بالبوابة الحديدية الكبرى المؤدية إلى البيت تفتح، ويدخل فيها شخصان كانا آخر من تتوقع أن تراهما معًا... «فرانك تشرشل» و «هاريت» وقد تعلقت بذراعه... «هاريت» نفسها وبعينها ولا أحد غيرها. وتأكدت «إمَّا» في الحال أن شيئًا غير عادي لا بد قد حدث.

وكانت «هاريت» تبدو شاحبة خائفة، بينما كان «فرانك» يحاول بث الطمأنينة في نفسها، ولم يكن يفصل البوابة الحديدية عن الباب الخارجي للبيت غير عشرين خطوة، وسرعان ما كان ثلاثتهم في البهو، وارتمت «هاريت» في الحال على مقعد وفقدت وعيها.

وكان لا بد لفتاة فاقدة الوعي من معاونتها على أن تفيق من إغماءتها، ومن أسئلة يجاب عليها، ومن استفسارات توضح. إن مثل هذه الحوادث تثير اهتمامًا بالغًا، ولكن أثرها لا يمكن أن يستمر طويلًا، ولذا فلم تمض إلا دقائق معدودة حتى أضحت «إمَّا» ملمة بكل شيء.

فلقد حدث أن «مس سمث» و«مس بكرتون»، وهي إحدى نزيلات بيت «مسز جدرد»، وكانت مدعوة إلى الحفلة، خرجتا معًا، وسلكتا طريق «ريشمند». ومع أنه طريق عام، بعيد عن المخاوف، فقد سبب لهما فزعًا، ذلك أنهما بعد أن بعدتا عن «هايبري» بما يقرب من نصف ميل، انعطف بهما الطريق فجأة إلى منعطف تظلله أشجار الدردار على الجانبين، ويمتد مسافة طويلة في بقعة منعزلة. فلما أوغلا السير في الطريق، أبصرا على حين بغتة، وعلى مسافة قصيرة أمامهما، فوق رقعة عريضة من الأرض يكسوها الكلأ، جماعة من الغجر الرحل، وإذا بطفل يخرج من بين هؤلاء ويتقدم نحوهما مستجديًا. فهلعت «مس بكرتون» وصرخت صرخة مدوية، ونادت على «هاريت» لتسير في أثرها، ثم أسرعت بصعود مرتفع من الطريق، وفتحت فرجة في سياج الشجيرات تقع عند ذروته، واتخذت منه أقصر الطرق لتعود «هايبري». أما المسكينة «هاريت» فلم تقو على اقتفاء أثرها، إذ كانت تشكو من تقلصات عضلاتها من أثر الرقص، وشعرت وهي تحاول ارتقاء المرتفع بعودة التقلصات إليها، مما أعجزها عن الصعود فاضطرت إلى البقاء في مكانها وهي على هذه الحالة، وكان الخوف قد بلغ بها أشده.

وما كان أحد يستطيع أن يجزم بما قد يكون من مسلك المتسولين، لو أن الفتاتين كانتا أشجع من ذلك، ولكن ما حدث، جعل احتمال الاعتداء أقوى وأكثر احتمالًا، فقد هجم على «هاريت» ستة أولاد على رأسهم امرأة ضخمة وصبي كبير، وكان الكل يصيحون، وكان مظهرهم يفوق ألفاظهم في الدلالة على ما فيهم من وقاحة، فازداد خوفها. ووعدتهم في الحال بأن تعطيهم نقودًا، ثم أخرجت كيس نقودها وسلمتهم شلنًا، وتوسلت إليهم ألا يطلبوا مزيدًا، وألا يسيئوا إليها. وأمكنها بعد ذلك أن تسير في طريقها، وإن كانت تسير في بطء، وبعدت عنهم قليلًا. ولكن كيس نقودها، وهلعها، كان فيهما إغراء شديد لهم، فساروا خلفها، وأحاطت بها العصابة كلها، طلبوا منها مزيدًا من النقود.

ووجدها «فرانك تشرشل» وهي على هذه الحالة. هي في خوف ترتعد فرائصها، وهم يملون عليها شروطهم، وينهالون عليها سبابًا وصراخًا. فلقد شاء حسن الحظ أن يتأخر «فرانك» في مغادرة «هايبري»، مما جعله يأتي لنجدتها في تلك اللحظة الحرجة. فلِقد أغراه جمال الطقس في ذلك الصباح على أن

يسعى ماشيًا على قدميه، وأن يترك الخيل ليلتقي بها في طريق آخر، يبعد عن «هايبري» مسافة ميل أو ميلين. وكان قد استعار من «مس بيتس» في الليلة السابقة مقصًا، ونسي أن يعيده إليها، فاضطر إلى الوقوف ببابها، ودخل ليمضي عندهن دقائق قليلة، ومن ثم فقد تأخر عما كان يقدر. ثم لما كان يسير على قدميه، فأن العصابة لم تره حتى صار على مقربة منها، فرد إلى قلب كل من المرأة والصبي ما كانا قد أوقعاه في قلب «هاريت» من هلع، وتركهما وهما على أشد ما يكونان من الرعب.

وتعلقت «هاريت» به وهي عاجزة عن الكلام، لا تقوى على ما هو أكثر من مجرد الوصول إلى «هارتفيلد» قبل أن تنهار بالكلية. وكان «فرانك» هو الذي رأى أن يأتي بها إلى «هارتفيلد»، ولم يفكر في مكان غير هذا. تلك كانت القصة التي رواها وروتها «هاريت» حالما أفاقت وقويت على الكلام. ولم يجسر «فرانك» على البقاء معهم إلا بمقدار ما اطمأن على سلامتها، فأن المعطلات العديدة لم تترك له دقيقة واحدة يضيعها. وبعد أن أخذت «إمَّا» على عاتقها مهمة طمأنة «مسز جدرد» على سلامتها، وإبلاغ «مستر نيتلي» عن وجود مثل هؤلاء الناس في الجهة، بدأ في الرحيل، مودعًا من «إمَّا» بكل ما في وسعها من الشكر والتمنيات الطيبة، نيابة عن صديقتها وعن نفسها.

إن مغامرة كهذه، يلتقي فيها شاب ظريف وفتاة جميلة وبمثل هذه الطريقة قلما تقصر عن الإيحاء بأفكار معينة، مهما كان للمرء من اتزان العقل وثبات القلب – هذا ما ذهب إليه تفكير «إمَّا»، وهل هناك من لغوي أو نحوي أو حتى رياضي، يرى ما رأته، ويشاهدهما سويًا، ويسمع قصتهما، ثم هو لا يشعر بعد ذلك بأن الظروف قد تضافرت على أن تجمع بينهما برباط من الألفة، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء، فهو بالنسبة لها، وهي المرأة الخيالية، أشد وأقوى، حتى ليحفزها ذلك إلى الحدس والتنبؤ بما سيكون، ولا سيما أن عقلها كان ممهدًا بما وضعته من أساس لخطة كانت قد عقدت عليها آمالاً واسعة.

لقد كان الأمر كله عجيبًا للغاية، فلم يسبق أن حدث للفتيات في تلك الجهة شيء كهذا إطلاقًا، وهي لا تذكر أن معركة طارئة نشبت، أو فزعًا في هذا النوع وقع، ولكن ها هو يحدث الآن لشخص بذاته، وفي الوقت ذاته، الذي يمر فيه شخص آخر بذاته، وبطريق المصادفة البحتة لكي يخلصها. إنه ولا شك شيء خارق للغاية، وزاد من دهشتها ما كانت تعلمه عن حالة كل منهما النفسية. أما هو فقد كان يود التغلب على شعوره نحوها هي نفسها، وأما الأخرى فقد كانت أخذت تبرأ من جنونها بمستر «ألتن». وهكذا بدا كأن كل الظروف قد تضافرت لكي تحقق أعظم النتائج أثرًا. فقد كان من المستحيل ألا يقرب هذا الحادث بينهما بقوة وبشدة.

وحدث في أثناء الدقائق القليلة التي دار فيها الحديث بينهما وبينه خلال الفترة التي راحت فيها «هاريت» في شبه غيبوبة، أن تحدث عن ذعرها وعن ساجتها، وكيف أنها تعلقت بذراعه بشدة، وهي في دهشة وفرحة. ثم كيف انهال

بالسخط على «مس بكرتون»، ووصف سلوكها بأنه سلوك يتسم بالغباء والجنون، بعد أن انتهت «هاريت» من سرد قصتها.

وكان لا بد للأمور أن تسير في مجراها الطبيعي دون أن يكون هناك ما يدفعها أو يعمل على مساعدتها، وهي من ناحيتها لن تخطو خطوة أو تبدو منها إيماءة – لا، فقد كفاها تدخلًا. غير أنه لا ضير مع ذلك من وجود خطة، مجرد خطة سلبية، لا تزيد على أن يكون مجرد أمنية – أما أن تتجاوز هذا الحد، فهذا لن يكون مهما كانت الأسباب.

وكان أول ما عقدت العزم ألا يعلم أبوها بما حدث، فقد كانت تعلم مقدار ما يسببه له ذلك من قلق وجزع، ولكنها سرعان ما شعرت بأن إخفاء الأمر عليه، هو من المستحيلات، إذ لم تمض نصف ساعة حتى كان الخبر قد ذاع في أرجاء «هايبري» جميعها وأصبح موضوعًا يتشدق به الثرثار، ويلوكه لسان الصغير والوضيع، وينقله شباب المنطقة وخدمها في متعة من ينقل النبأ الخطير. وغطت أنباء الغجر على أنباء حفلة الليلة السابقة، وجلس «مستر وودهاوس» المسكين يرتجف خيفة، كما تنبأت «إمَّا» لم يكن ليقنع إلا إذا وعدوه بأنهم لن يبتعدوا عن خميلة شجيرات التوت ثانية. وقد شعر بشيء من الراحة لسؤال الكثيرين عنه وعن «مس وودهاوس» وكذلك عن «مس سمث» بقية اليوم (فقد كان جيرانه يعلمون أنه يجب أن يسأل الناس عنه).

وقد سره أن يرد على المستفسرين، بأنهم جميعًا «بين بين». وعلى الرغم من أن هذا الوصف، كان بعيدًا كل البعد عن حقيقة – فقد كانت ابنته بخير، ولم تكن «هاريت» أقل منها صحة فأن «إمَّا» لم تشأ أن تتدخل أو تعترض عليه. فلقد كانت بوجه عام، في نظر رجل هذا شأنه، في حالة بائسة من اعتلال الصحة، مع أنها لا تكاد تعرف ما هو المرض، وهو إذا لم يختلق لها الأمراض، فأنها لن تبرز في أخباره.

ولم ينتظر الغجر ما تتخذه العدالة نحوهم من إجراءات حاسمة، فأسرعوا بالرحيل، وأصبح في وسع فتيات «هايبري» لا أن يسرن مرة أخرى وهن في أمان، وسرعان ما تضاءل الحادث حتى صار قليل الأهمية، إلا لدى «إمَّا» وابنيّ أختها، فقد ظل خيالهم محتفظًا به، واستمر «هنري» و«جون» كل يوم يسألان عن قصة «هاريت» مع الغجر، ويصححان في إصرار، أبسط ما تذكره في روايتها للحادث من اختلاف عما سبق لها روايته.

مضت على تلك المخاطرة أيام قلائل، وإذا بهاريت تأتي ذات صباح إلى «إمَّا» وفي يدها ربطة صغيرة، ثم جلست وبدأت تقول في تردد:

«لو كان لديك يا «مس وودهاوس» متسع من الوقت، فإن عندي شيئًا أود أن أدلي به إليك. إنه نوع من الاعتراف، وبعدها ينتهي الأمر».

واعترت «إمَّا» دهشة بالغة، ورجتها أن تتكلم، وبدا على «هاريت» بالإضافة إلى ما قالته، مظهر من الجد جعل «إمَّا» تتوقع أن تدلي إليها بشيء أكثر من أن يكون عاديًا.

واستطردت «هاريت» تقول:

«إنه لمن واجبي، بل هي رغبتي كذلك، ألا أكتمك شيئًا عن هذا الموضوع. فلقد أصبحت من حسن الحظ مخلوقًا غير ما كنت، في ناحية معينة، ومن ثم فأن من حقك أن تعرفي ما طرأ عليّ من تغيير وأن تقري به عينًا. ولست أريد أن أقول أكثر مما هو ضروري… فإني أذوب خجلًا من أني استسلمت بمثل ما استسلمت، وأظن أنك تدركين ما أعنيه».

فقالت «إمَّا»: «أجل، وآمل أن أكون قد فهمت».

وصاحت «هاريت» تقول في حرارة: «ما أعجب أني كنت طوال هذا الوقت أعيش في عالم الخيال!! لقد كان هذا مني أشبه بالجنون، ولم أعد الآن أرى في هذا الشخص شيئًا غير عادي، سيّان عندي أن أقابله أو لا أقابله، ولولا ما لي من عينين، لفضلت عدم رؤيته. والحق أني أفضل أن أقطع المسافات الطويلة لكي أتجنبه. إنني لا أحسد زوجته إطلاقًا، لاأعجب بها ولا أحسدها كما كنت أفعل. إنها ولا شك جذابة جدًا، ولكني أظنها بعيدة عن الكياسة وحسن الخلق، سمجة ممقوتة. وإن أنسى فلا أنسى نظرتها في تلك الليلة، ومع هذا فأني أؤكد لك يا «مس وودهاوس» بأني لا أتمنى لها سوءًا، لا، وليكونا دائمًا في سعادة، فلن أشعر لحظة واحدة بعد الآن بأي ألم. ولكي أؤكد لك بأني صادقة فيما أقول، فسأقضي الآن على ما كان يجب أن أقضي عليه من أمد بعيد، بل ما كان يجوز لي أن أحتفظ به يومًا، وأنا أعلم ذلك تمامًا (واحمر وجهها خجلًا وهي تتكلم) ومع ذلك فأني سآتي عليها الآن جميعًا، وأود بصفة خاصة أن أقوم بهذا العمل في وجودك كي ترين كيف أصبحت عاقلة» ثم نظرت إلى «إمَّا» نظرة ذات معنى وقالت:

«أليس في وسعك التكهن بما في هذه الربطة».
«لا، لست أعرف أي شيء – فهل كان قد أعطاك شيئًا يومًا ما؟».
«لا، بل ولا يمكنني أن أسميها هدايا، ولكنها أشياء كنت أعتز بها كثيرًا».
ومدت يدها تحمل إليها الربطة، فقرأت «إمَّا» عليها هذه العبارات:
«أنفس الكنوز».
وأثار فيها ذلك، غريزة حب الاستطلاع إلى درجة كبيرة.
وفتحت «هاريت» الربطة، فنظرت «إمَّا» إليها في لهفة وشغف، ورأت داخل لفافة من الأوراق الفضية العديدة، علبة جميلة صغيرة من الخشب المطعم. وفتحتها «هاريت» وكانت بها غلالة من أنعم القطن، ولم تر «إمَّا» علاوة على القطن إلا قصاصة صغيرة من شريط لاصق غير مستعملة.
وقالت لها «هاريت»: «الآن يجب أن تتذكري».
«لا، والحق أني لا أذكر شيئًا»..
«عجبًا! ما كنت أظن أنك قد نسيت ما حدث في هذه الحجرة بالذات بشأن شريط اللصق في إحدى المرات الأخيرة التي تقابلنا فيها، كان ذلك قبل إصابتي بالتهاب الحلق بأيام قلائل، وقبل مجيء «مستر ومسز جون نيتلي» مباشرة، وأظنه كان في نفس الأمسية. ألا تتذكرين جرحه لأصبعه بمبراتك الجديدة، ونصيحتك له باستعمال شريط اللصق؟ - ولما لم يكن لديك شيء منه، ولعلمك بوجوده عندي، فأنك أردت أن أمده به، ولذا أخرجت ما معي، وقطعت له قطعة منه، ولكنها كانت كبيرة جدًا، فقطع منها جزءًا صغيرًا، وأخذ يعبث بعض الوقت بما تبقى قبل أن يعيده إليّ، وعندئذ دفعني سخفي إلى أن أجعل منها كنزًا، واحتفظت بها لا أستعملها أبدًا، وجعلت أنظر إليها الفينة بعد الفينة على أنها متعة كبرى».
ووضعت «إمَّا» يدها فوق وجهها، وهمت واقفة، ثم صاحت قائلة: «عزيزتي هاريت»، لقد جعلتيني أخجل من نفسي إلى درجة لا أطيق احتمالها – ألا أتذكر؟ أجل، إني أتذكر كل ذلك الآن، إلا احتفاظك بهذه البقية من اللصاق، ولكني لم أعرف شيئًا من ذلك حتى هذه اللحظة. جرح أصبعه، وتوصيتي باستعمال شريط اللصق، وقولي بعدم وجود شيء منه عندي!! ما أعظم خطيئتي!! لقد كان في جيبي الكثير منه! ولكنها إحدى حيلي التي لا معنى لها! بل إني لأستحق أن أظل طول حياتي خجلة من تصرفي، ثم جلست ثانية وقالت: «أجل، واصلي حديثك، وماذا غير هذا؟».
«وهل كان لديك حقًا شيء منه؟ أنا واثقة بأن هذا لم يخطر ببالي أبدًا، لأنك فعلت ما فعلت بطريقة طبيعية».
وقالت «إمَّا» بعد أن زال عنها الخجل وهدأت نفسها، وقد تنازعها الشعور بالدهشة والرغبة في التسلية:
«إذن فقد احتفظت بهذه القطعة من شريط اللصق من أجله!! ثم أضافت تحدث نفسها: «رحماك يا ربي!! متى كنت أفكر في الاحتفاظ بقطعة من

شريط اللصق التي كان يعبث بها «فرانك تشرشل»، وأضعها داخل قطعة من القطن، - إنني لا أعتقد بأني قادرة على أن أفعل شيئًا كهذا».
وعادت «هاريت» تقول وهي تنظر إلى علبتها مرة أخرى:
«ها هو شيء آخر أكثر قيمة، لأنه كان في وقت ما ملكًا له، بينما شريط اللصق لم يكن ملكه».
وتشوقت «إمَّا» لرؤية هذا الكنز النفيس. لقد كان بقية من قلم رصاص قديم خالية من الرصاص.
وقالت «هاريت»: «هذه كانت ملكًا له بالفعل، ألا تتذكري ذات صباح؟ لا، لا أظنك تتذكرين ذلك، ولكن ذات صباح – لقد نسيت أي يوم كان بالضبط، يوم الثلاثاء أو يوم الأربعاء السابق على ذلك المساء. فقد أراد أن يكتب مذكرة في نوتته، وكانت عن صناعة الجعة من الصنوبر، فقد كان «مستر نيتلي» يحدثه عن تخمير أوراق الصنوبر لصنع جعة، فأراد أن يدونها، ولكنه عندما أخرج قلمه الرصاص لم يجد له إلا رأسًا صغيرة، سرعان ما براه عن آخره حتى أصبح عديم النفعة، ولذا أعرتيه قلمًا آخر. أما هذه البقية، فقد تركها فوق المنضدة لأنها كانت لا تصلح لشيء، ولكني ظللت أرقبها، وحالما وجدت في نفسي الجرأة، التقطتها ولم أفرط فيها منذ ذلك اللحظة».
وصاحت «إمَّا» قائلة: «إني أتذكر ذلك، وأتذكر تمامًا ذلك الحديث عن الجعة المصنوعة من الصنوبر، أجل، وقد قلت أنا، وكذلك قال «مستر نيتلي» بأننا نحبها – وبدا «مستر ألتن» مصممًا على أن يتعودها. إني أتذكر ذلك تمامًا، انتظري، لقد كان «مستر نيتلي» وقتها واقفًا هنا في هذا المكان بالضبط، أليس كذلك؟ أظنه كان يقف هنا تمامًا».
«لست أدري، وليس بوسعي أن أتذكر ذلك، إنه لشيء عجيب جدًا ألا أتذكره. لقد كان «مستر ألتن» جالسًا هنا حيث أنا الآن تقريبًا».
«أجل أكملي حديثك».
«هذا كل شيء، وليس عندس أكثر منه لأرويه لك، أو لأزيده على ما قلت، عدا أني سألقي بهذه الأشياء في النار، وأريد أن تشاهديني وأنا أفعل ذلك».
مسكينة أنت يا عزيزتي هاريت! «وهل كنت حقًا سعيدة باكتناز هذه الأشياء؟».
«أجل، لأني كنت بلهاء!! ولكني الآن أخجل من نفسي، وبودي لو يسهل عليّ نسيان ذلك، بقدر ما يسهل عليّ حرقها الآن، ثقي بأني كنت مخطئة جدًا لاحتفاظي بأية ذكريات بعد أن تزوج. لقد كنت أعلم أني مخطئة، ولكن لم يكن لي من العزيمة ما يكفي ليجعلني أتخلى عنها».
«ولكن هل من الضروري يا «هاريت» أن تحرقي شريط اللصق، فقد تكون له منفعة».
وأجابتها «هاريت»: «إني أكون أسعد حالًا إذا أحرقته، فأني أشعر بامتعاض كلما رأيته، ولا بد لي أن أتخلص من كل شيء، ها هي كلها في النار، وها أنا ذا قد انتهيت من «مستر ألتن» والحمد لله».

وفكرت «إمَّا»: «ومتى يا ترى تكون البداية مع «مستر تشرشل»؟» ولم تلبث أن اكتشفت بعد ذلك بقليل ما يحملها على الاعتقاد بأن البداية قد حدثت بالفعل. ولم يسعها إلا أن تأمل أن تكون الغجرية، على الرغم من أنها لم تتكهن لهاريت بمستقبلها، قد نجحت في تقرير هذا المستقبل. فقد حدث بعد العدوان على «هاريت» بأسبوعين تقريبًا أن وصلتا عفوًا إلى ما يكشف عن حقيقة الأمور، ولم تكن «إمَّا» في تلك اللحظة تفكر في ذلك، مما زاد من قيمة ما استطاعت أن تستقيه من المعلومات. فقد قالت عفوًا، وفي سياق حديث عادي: «أجل يا هاريت، أنصحك بأن تفعلي كذا وكذا عندما تتزوجين» قالت هذا ولم تفكر بعد ذلك فيما قالته، ولكنها بعد صمت لا يزيد على دقيقة واحدة، سمعت «هاريت» تقول بنغمة فيها جد:

«لن أتزوج أبدًا».

ورفعت «إمَّا» نظرها فقرأت في الحال ما دلت عليه معالم وجهها، وبعد لحظة تأرجحت فيها أفكارها بين أن تضرب صفحًا عن هذه العبارة أو تناقشها، أجابت:

«عجبًا! لن تتزوجي أبدًا!! إن هذا قرار جديد».

«بل هو قرار لن أحيد عنه أبدًا»..

وقالت «إمَّا» بعد فترة تردد قصيرة: «آمل ألا يكون الباعث على ذلك – آمل ألا يكون هذا إكرامًا «لمستر ألتن».

وصاحت «هاريت» غاضبة: «مستر ألتن»! من يكون؟ لا، لا».

واستطاعت «إمَّا» بعد ذلك أن تسمع تمتمة «هاريت»:

«إنه يفوق «مستر ألتن» بكثير».

وتمهلت «إمَّا» هنا وقتًا أطول لتزن ما تقول، هل تكف عن الحديث؟ أم تمر بهذه العبارة مرّ الكرام، متظاهرة بأنها لا ترتاب في شيء؟ - ربما تظن «هاريت» بأنها فظة أو غاضبة إن هي فعلت ذلك، وربما لا يترتب على صحتها إلا إندفاع «هاريت» لترجوها أن تستمع إلى المزيد، وهي قد وطدت نفسها على ألا تكون صريحة وتفصح عن كل ما في سريرتها. واستقر رأي «إمَّا» على أن من الأصوب أن تدعها تقول ما تريد الآن، وأن تقف على كل ما تحب أن تدلي به، فأن أفضل الأشياء دائمًا، ما كان يتسم بالصراحة. لقد قررت من قبل إلى أي مدى قد تسمح لنفسها بأن تسير في أي موضوع من هذا النوع، وأن من الخير لكليهما أن تبادر بإبداء رأيها الحكيم – كان هذا قرارها النهائي، ومن ثم فقد قالت:

«إني لن أدعي يا هاريت بأني لست متأكدة مما تعنين، إن ما عقدت العزم عليه، أو بالأحرى ما تفكرين فيه من عدم الزواج، إنما ينجم عن اعتقادك أن من تفضلينه من الرجال قد يكون أعلى منك منزلة، فهو لن يفكر فيك، أليس كذلك؟».

«مس وودهاوس!! صدقيني إني لا أجرؤ على التفكير في ذلك، ولا شك أني لست بمجنونة إلى هذا الحد، ولكني أجد متعة في الإعجاب به عن بعد، والتفكير في أنه يفوق الناس جميعًا، وأنا كلي شكر وإعجاب واحترام».
«وإني لا أعجب منك أبدًا يا «هاريت»، لأن ما أداه لك من خدمة كان يكفي لأن يلهب مشاعرك».
«خدمة! خدمة! إنها مكرمة لا يمكن التعبيرعنها» إن مجرد ذكرى لها، وذكرى لما شعرت به وقتئذ، عندما رأيته آت، وما كان عليه من نبل، وما كنت فيه من محنة قبل ذلك، - يا له من تغيير!! لقد انقلب الوضع في لحظة واحدة!! من تعاسة تامة إلى سعادة كاملة».
«وإنه لشيء طبيعي جدًا، طبيعي ومشرف، إذ يشرفك أن تكوني أحسنت الاختيار وأنت جامدة شاكرة، ولكني لا أستطيع أن أعدك بأنه سيكون تفضيلًا ميمونًا، ولست أشير عليك بأن تستسلمي لهذا يا «هاريت»، فأني لست متأكدة من أنه سيبادلك حبًا بحب. فكري فيما أنت مقبلة عليه، ولعلك تكونين أكثر تعقلًا لو أنك كبحت جماح مشاعرك وأنت لا تزالين بعد قادرة على ذلك، وعلى كل حال لا تدعي مشاعرك تشتط بك بعيدًا إلا إذا وثقت من أنه يحبك. راقبيه، واجعلي سلوكه هو الذي يوجه مشاعرك، وإني أحذرك الآن، لأني لن أتكلم معك في هذا الموضوع بعد ذلك أبدًا، وقد عقدت العزم على ألا أتدخل في شيء، وسأطرح منذ هذه اللحظة عن ذهني كل شيء عن هذا الموضوع. ولنكف الآن عن ذكر أي أسماء على الإطلاق. لقد ضللنا الطريق من قبل، أما الآن فسنكون على حذر. إنه أعلى منك مكانة ولا شك، وقد تكون هناك اعتراضات وعراقيل على جانب كبير من الخطورة. ولكن حدث يا «هاريت» على الرغم من ذلك أن تحققت أشياء أعجب من هذا. فقد تمت زيجات أكثر من هذه من حيث عدم التكافؤ، ولكن خذي حذرك مع ذلك، ولا أود أن تكوني واسعة الأمل. ومهما كانت النتيجة فثقي بأنك وقد سموت بأفكارك إليه، قد قدمت الدليل على حسن ذوقك، وهو ما سوف أقدره فيك دائمًا».
وقبّلت «هاريت» يدها في صمت واعتراف بالجميل، وتأكدت «إمَّا» أن مثل هذا الحب لن يضر صديقتها، وأنه سيرفع من عقليتها ويصقلها، وسوف يحميها من خطر المهانة والتحقير.

حل شهر يونيو في «هارتفيلد» وهم على هذا الحال من الخطط والآمال، وإغضاء العين. أما في «هايبري» بوجه عام فلم يكن هناك تغيير ملحوظ، وكان «مستر ألتن» وزوجته ما زالا يتحدثات عن زيارة «مس سكلنج» وعقيلته، وعن استعمال «بروشتهم» (عربتهم) في تجوالهم، وكان «جين» لا تزال في بيت جدتها. ولما كانت عودة أسرة «كامبيل» من أيرلندا قد تأجل موعدها، وتحدد لها شهر أغسطس بدلًا من أواسط الصيف، فقد أصبح من المحتمل أن تبقى في «هايبري» شهرين كاملين. هذا إذا تمكنت من مقاومة نشاط «مسز ألتن» من أجلها، واستطاعت أن تتخلص من رغبتها الملحة في أن تهيئ لها وظيفة حسنة على الرغم منها.

أما «مستر نيتلي» الذي كره «فرانك تشرشل» في مرحلة مبكرة، من تعارفهما لسبب هو أدرى به من غيره، فقد أزداد كرهًا يومًا بعد يوم، وبدأ يشك في أنه يخدع «إمَّا»، فما من شك في نظره في أن «إمَّا» كانت هدفه ومطلبه، بل الشواهد كلها تدل على ذلك – اهتمامه بها، تلميحات أبيه، التزام زوجة أبيه الصمت، ثم العبارات التي تصدر عنه، وسلوكه، ما كان منه حصيفًا أو غير حصيف، كلها كانت تنطق بذلك. غير أنه في الوقت الذي كان فيه الكثيرون يخصون به «إمَّا»، بينما «إمَّا» تتنازل عنه بدورها إلى «هاريت»، أخذ «مستر نيتلي» يتهمه ببعض النزوع إلى مداعبة «جين فيرفاكس». ولم يستطع «نيتلي» أن يدرك كنه ذلك، ولكن كان هناك من الظواهر ما يدل على أن بينهما انسجامًا وتفاهمًا. وكان أقل ما ذهب إليه تفكيره، أنه كان يبدو معجبًا بها – وما أن لاحظ ذلك مرة حتى أصبح غير قادر على أن يقنع نفسه بأن مسلكه نحوها يخلو من المغزى، مهما كان يود أن يتحاشى الوقوع في خطأ من تلك الأخطاء التي تنجم عن خيال «إمَّا». ولم تكن «إمَّا» حاضرة حين بدأ الشك في سلوكه نحو «جين فيرفاكس» يساوره. لقد كان وقتها يتناول العشاء هو وآل «راندولز» و«جين» في بيت آل «ألتن»، ولاحظ نظرة، بل أكثر من نظرة، توجه إلى «مس فيرفاكس»، وبدا صدور ذلك من الشخص الذي يعجب «بمس وودهاوس» شيئًا في غير موضعه. فلما اجتمع بهم في مناسبة أخرى، لم يتمالك نفسه من ذكر ما سبق له مشاهدته، ولا أن يتحاشى ملاحظة أشياء، إن لم تكن كما قال «كوبر» عندما رأى الشفق فظنه نارًا:

«إن ما شاهدته هو من صنع خيالي».
فقد أيدت ظنه بأن بين «فرانك تشرشل» و«جين» ودًا، بل وتفاهمًا.
وكان «نيتلي» قد سار ذات يوم بعد تناول العشاء، كما كان يفعل كثيرًا، ليمضي أمسيته في «هارتفيلد»، وكانت «إمَّا» و«هاريت» في سبيل الخروج للتريض، فاشترك معهما في السير، وعند عودتهم، التقوا في طريقهم بجماعة تفوقهم عددًا، وكان هؤلاء قد وجدوا مثلهم، أن الحكمة تقضي بالتريض في ساعة مبكرة، لأن الطقس كان ينذر بالمطر. وكان الفريق مكونًا من «مستر وستن» وزوجته وابنه، و«مس بيتس»، وابنة أختها اللتين التقيا بهم بطريق المصادفة. واندمجوا جميعًا معا، فلما وصوا إلى بوابات «هارتفيلد» ألحت «إمَّا» عايهم جميعًا بأن يدخلوا ويتناولوا الشاي مع والدها، لأنها كانت تعلم بأنه يرحب بمثل هذه الزيارات.
ولقيت الدعوة قبولًا من آل بيت «راندولز» في الحال، وكذلك «مس بيتس» رأت هي الأخرى أن في وسعها قبول دعوة العزيزة «مس وودهاوس» الكريمة جدًا، بعد حديث طويل خرج يتدفق على لسانها دون أن يستمع إليه إلا نفر قليل.
وبينما كانوا يعرجون على الحدائق المحيطة بالبيت، مر بهم «مستر بري» يركب جواده، وتحدث الرجال عن مطيته. فقال «فرانك تشرشل» «لمسز وستن» على الفور: إن الشيء بالشيء يذكر، ماذا تم فيما اعتزم عليه مستر بري من أصلاح عربته؟».
وبدت على «مسز وستن» الدهشة وقالت: «ما كنت أعلم أبدًا أنه كان يفكر في مشروع كهذا».
«لا، لقد عرفت ذلك منك، وقد كتبت لي كلمة عن ذلك منذ ثلاثة شهور».
«عجيب!! أنا!! هذا مستحيل».
«بل أنت بالتأكيد، وأنا أذكر ذلك تمامًا، فلقد ذكرت أن من المؤكد أن يتم هذا قريبًا جدًا، وقد أخبرت «مسز بري» أحد الناس بذلك، وكانت سعيدة به للغاية، وقالت إن ذلك نتيجة إقناعها له، وإنها كانت ترى أن خروجه في الطقس الرديء يصيبه بضرر بليغ – لا بد أنك تتذكرين ذلك الآن».
«ثق بأني ما سمعت حتى هذه اللحظة شيئًا من هذا أبدًا».
«أبدًا!! أبدًا!! رحماك يا إلهي! كيف حدث هذا؟ إذن لا بد وأن أكون قد رأيت ذلك في منامي، فأثر عليّ كل التأثير – وأنت يا «مس سمث»، أراك تمشين وكأنك متعبة. إنك لن تأسفي على أن تجدي نفسك في بيتك».
وصاح «مستر وستن» يقول: «ما هذا؟ ما هذا الذي تقولون عن «بري» وعربته؟ هل سيصلح «بري» عربته يا فرانك؟، يسرني أن يكون قادرًا على ذلك، وهل سمعت هذا الخبر منه؟».
فأجابه ابنه ضاحكًا: «لا يا سيدي، ويبدو أني لم أعلم ذلك من أحد، وهو شيء في غاية الغرابة!! لقد أدخل في روعي أن «مسز وستن» ذكرت لي ذلك في

أحد خطاباتها إلى «أنسكومب» منذ أسابيع عديدة، وكان بالخطاب كل هذه التفصيلات، وبما أنها تعلن الآن بأنها لم تسمع شيئًا من ذلك قبلًا، فلا بد وأن يكون حلمًا، فأنا كثير الأحلام، وأحلم بكل من في «هايبري» عندما أكون بعيدًا عن هنا، فلما أنتهي من أصدقائي الأعزاء أبدأ أحلم بمستر «بري» وزوجته».

وقال والده: « ومع ذلك فهو أمر عجيب أن ترى بانتظام، مثل هذه الأحلام المتصلة، التي تتعلق بأناس لا يحتمل أبدًا أن تفكر فيهم وأنت في «أنسكومب». عجيب أن ترى «بري» يصلح عربته، وترى زوجته تحضه على ذلك مراعاة لصحته وهو ما سيحدث حتمًا في يوم من الأيام، وإن كنت عجلت به قليلًا. حقا ما أعجب أن نرى أحيانًا في الأحلام شيئًا يكون محتمل الوقوع!! وما أكثر ما نراه من سخافات في أحلامنا الأخرى!! أجل، يا «فرانك»، إن علمك يدل ولا ريب على أنك تفكر في «هايبري» عندما تغيب عنها. وأنت يا «إمَّا» أظنك كثيرة الأحلام كذلك؟».

وكانت «إمَّا» بعيدة عن أن تسمع ما قال، وقد أسرعت أمام ضيوفها لتخبر والدها بقدومهم، ولذا لم تصل إلى أسماعها ملاحظة «مستر وستن».

وصاحت «مس بيتس»، وكانت تحاول عبثًا أن يستمعوا إليها في آخر لحظة: «لماذا؟ الحق أني إذا كان لا بد لي من الكلام في هذا الموضوع، فإني لا أنكر أن مستر «فرانك تشرشل» يجوز أن يكون قد رأى حلمًا - ولست أعني أنه لم يحلم بذلك – وأعتقد أني أرى أحيانًا أعجب الأحلام، ولكن لو سئلت رأيي في الموضوع، لكان من واجبي أن أعترف بأنه كانت هناك فكرة كهذه فعلًا، في فصل الربيع الماضي، وذلك لأن مسز «بري» نفسها ذكرت هذا لوالدتي، وقد علمت بذلك «أسرة كول» كما علمنا، ولكن هذا سرًا لا يعلم به أحد غيرنا، ولقد فكرنا في ذلك منذ ثلاثة أيام تقريبًا، وكانت «مسز بري» تتلهف على أن يكون له عربة، وجاءت إلى والدتي ذات صباح وهي مبتهجة جدًا لأنها ظنت بأنها نجحت في ذلك – ألا تتذكرين يا «جين» أن جدتك أخبرتنا بذلك عندما عدنا إلى البيت؟ لقد نسيت إلى أين كنا ذاهبين، ومن المحتمل جدًا أننا كنا في طريقنا إلى «راندولز»، ولقد كانت «مسز بري» دائمًا مغرمة بوالدتي بصفة خاصة، والحق أني لا أعرف أحدًا لا يغرم بها وقد أسرت لها بذلك ا، ولا شك أنها لم تجد مانعًا من أن تخبرنا، على ألا يعلم به غيرنا، ومنذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا، ما ذكرت ذلك لأحد أعرفه، وفي الوقت نفسه لن أقطع بأني لم أبح بشيء من ذلك لأحد، لعلمي بأنه يبدر مني أحيانًا أشياء قبل أن أتنبه إليها- والمعروف أني كثيرة الأحلام، ولذا يفرط مني بين الحين والحين بعض أقوال كان من الواجب ألا أتفوه بها - وأنا لست مثل «جين » وكان بودي أن أكون مثلها، وأشهد أنها لم تفش سرًا أبدًا، أين هي؟ ها هي خلفي - إني أذكر تمامًا مجيء «مسز بري» وقتها. يا له من حلم عجيب!!».

وكانوا يدخلون الصالة في تلك اللحظة. وسبق «مستر نيتلي» «مس بيتس» في النظر إلى وجه «جين» فأشاح ببصره، بطريقة لا إرادية في وجه «فرانك

تشرشل»، الذي كان يبدو عليه بعض الاضطراب المكتوم، إلى وجهها، ولكنه وجدها متخلفة عنهم إلى الوراء، وقد شغلت بشبالها. وكان «مستر وستن» قد دخل، أما السيدان الآخران، فقد انتظرا عند الباب ليفسحا لها حتى تمر. وشك «مستر نيتلي» في أن «فرانك تشرشل» كان يريد اجتذاب أنظارها نحوه، إذ كان باديًا عليه أنه كان يُمعن النظر فيها. فإن كان هذا قصده فقد خاب مسعاه. ومرت «جين» من بينهما ودخلت الصالة دون أن تنظر إلى أحد منهما.

ولم يكن هناك متسع من الوقت، لملاحظات أو توضيحات أخرى، فكان لا بد أن يؤخذ الحلم على علاته، كما كان على «مستر نيتلي» أن يأخذ مكانه مع الباقين حول المائدة الكبيرة المستديرة التي أتت بها «إمَّا» إلى «هارتفيلد» حديثًا، وما كان غيرها ليستطيع أن يضعها هناك، وأن يؤثر على أبيها لكي يستعملها عوضًا عن المائدة الصغيرة التي استمرت معهم أربعين عامًا يتناول عليها وجبتين من وجبات طعامه في كل يوم. وعلى هذه المائدة الجديدة تناولوا الشاي الآن في هناءة دون أن يبدو من أحد منهم أنه كان يتعجل الانصراف.

وقال «فرانك تشرشل» بعد أن فحص منضدة كانت موضوعة وراءه وفي متناول يده:

«هل أخذ أبناء أختك يا «مس وودهاوس» الحروف الأبجدية التي كانت هنا، أعني الصندوق الذي يحوي الحروف الأبجدية؟ لقد كان هنا دائمًا فأين هو؟ إن هذه الأمسية من الأمسيات الخاملة التي يحسن اعتبارها من أمسيات الشتاء أكثر منها من أمسيات الصيف. ولقد استمتعنا ذات صباح باللعب بتلك الحروف، وكنت أود أن أحيّركم بها مرة أخرى».

وسرت هذه الفكرة «إمَّا» فأحضرت الصندوق، وسرعان ما نثرت الحروف فوق المائدة، ولم يبد أن أحدًا غيرها كان يميل إلى استعمالها، وأخذ كل منهما في الحال يكون منها كلمات للآخر، أو لأي واحد من الباقين ممن لهم اهتمام بالألغاز. وصادفت اللعبة هوى في نفس «مستر وودهاوس» بصفة خاصة لما فيها من هدوء، إذ كثيرًا ما كان يتضايق من الألعاب الصاخبة التي كان «مستر وستن» يقترحها أحيانًا. وجلس «مستر وودهاوس» الآن تارة يبدي أسفه في حنان واكتئاب على سفر الصغار الأعزاء، وتارة ليتغنى، بعد أن يلتقط أحد الحروف القريبة منه، بأن «إمَّا» قد أجادت كتابة الحروف.

ووضع «فرانك تشرشل» كلمة أمام «مس فيرفاكس» فنظرت نظرة بسيطة حول المائدة، ثم شغلت باستجلاء مرماها، وكان «فرانك» يجلس بجوار «إمَّا»، ومن أمامهما كانت تجلس «جين » بينما كان «مستر نيتلي» في مكان يمكنه من رؤيتهم جميعًا، وقد تعمد أن يرى كل ما في استطاعته أن يراه، دون أن يلحظ عليه ذلك أحد، وأدركت «جين» ما تعنيه الكلمة، وفى ابتسامة خافتة دفعت بالحروف بعيدًا. وهنا إذا كان قصدها من ذلك أن تختلط حروف هذه الكلمة بسائر الحروف حتى لا يتبينها أحد، فقد كان عليها أن تركز نظرها على المائدة بدلًا من أن تجول ببصرها عبرها. أما وهي لم تفعل، فقد بقيت الحروف

دون أن تختلط بغيرها. والتقطتها «هاريت» في لهفتها على أية كلمة جديدة، بعد أن فشلت في أن تكون أية كلمة بنفسها. وعكفت على حل طلاسمها وكانت تجلس بجوار «مستر نيتلي»، فالتفتت إليه كي يعاونها، وكانت الكلمة «هفوة»، فلما نطقت بها «هاريت» وهي فرحة، احمرت وجنتا «جين»، ودل هذا على أن الكلمة كانت ذات مغزى عندها – وربط «مستر نيتلي» ذلك بموضوع الأحلام، والمنام الذي كانوا يتحدثون فيه منذ فترة قصيرة، ومع ذلك فقد ظل فحوى كل هذا خافيًا عليه، ولكن
كيف تظل الدقة وأصالة الرأي اللتين عرفت بهما السيدة التي كانت مفضلة عنده، على هذه الحالة من السبات وعدم اليقظة!!، وأوجس خيفة من
أن يكون هناك خداع مدبر، وبدا له أن عدم الإخلاص والخداع يكاد
يقابله عند كل ركن وفي كل خطوة، وأن هذه الحروف ما هي إلا وسيلة للتحبب والتضليل - كانت لعبة يتلهى بها الأطفال، فاختارها «فرانك تشرشل» ليخفي بها لعبة أكثر عمقًا ومكرًا.
واستمر يراقبه وهو أكثر ما يكون سخطًا، ويراقب رفيقتيه اللتين ضربت على عينيهما غشاوة، وهو أشد ما يكون ذعرًا وعدم اطمئنان، ورأى بعد ذلك كلمة صغيرة تعد «لإمَّا» ثم تعطى لها بنظرة ماكرة خبيثة، ولاحظ أن «إمَّا» عرفتها في الحال وسرت لها كثيرًا على الرغم من أنها دلت على شيء رأت أنه أحرى بأن يكون عتابًا، فقد قالت: «هذا ا سخف. يا للعار!!».
وسمع «مستر نيتلي»، «فرانك تشرشل» يقول بعد ذلك وهو ينظر ناحية «جين»: «سأعطيها إذن لها، هل أفعل ذلك؟ » كما سمع بوضوح معارضة «إمَّا» له بشدة وهي تضحك وتقول:
«لا، لا، لا يجوز، لن تعطيها لها أبدًا».
ولكنه مع ذلك أعطاها لها - نعم أن هذا الفتى المولع بالنساء، الذي يسلك مسلك المحب وهو مجرد من المشاعر، ويزكي نفسه أمامهن في غير حياء، قد سلم الورقة إلى «مس فيرفاكس »، ورجاها في أدب وخشوع أن تفحصها.
ودفع حب الاستطلاع الشديد «مستر نيتلي» إلى معرفة كنه هذه الكلمة، فعمد إلى اغتنام الفرصة ليلقي عليها نظرة خاطفة. ولم يمض غير قليل حتى استطاع أن يراها، وإذا بها «دكسون»، وبدا كأن إدراك «جين فيرفاكس» للكلمة يتفق مع إدراكه لها، بل إن فهمها كان قطعًا أكثر إدراكًا للمعنى المستتر، المعنى البعيد لتلك الحروف الخمسة بهذا الترتيب.
وظهر على «جين فيرفاكس» الاستياء، ورفعت رأسها، فلما وجدت
العيون ترمقها، زادت حمرة وجنيتها بدرجة لم يرها قبلًا، واكتفت بقولها: «ما كنت أعلم أن أسماء الأشخاص يباح استعمالها» ثم دفعت بالحروف بعيدًا وهي غاضبة، وبدت وكأنها عقدت العزم على ألا تشغل نفسها بكلمة أخرى تقدم إليها، وأشاحت بوجهها عن هؤلاء الذين هاجموها والتفتت نحو خالتها.
وصاحت خالتها رغم أن «جين» لم تنطق بكلمة تقول:

«أجل، إنه عين الصواب يا عزيزتي، وكنت على وشك أن أقول الشيء نفسه، فقد حان وقت انصرافنا ولا شك، وأوشكت الشمس أن تغيب، وستكون جدتك في انتظارنا. والآن، سيدي العزيز، ما أكرمك ونتمنى لك مخلصين قضاء ليلة سعيدة».

ودل تحفز «جين» للانصراف على أنها كانت على استعداد لذلك، كما أدركت خالتها، فوقفت في الحال، وأرادت الابتعاد عن المنضدة ولكن الكثيرين أخذوا كذلك يتحركون، فتعذر عليها الخروج، وخيل لمستر «نيتلي» أنه رأى في تلك الفترة مجموعة أخرى من الحروف تجمع ويدفع بها نحوها في لهفة، ورآها تنحيها عنها في عزم دون أن تفحصها. ثم أخذت بعد ذلك تبحث عن شالها، و«فرانك تشرشل» يبحث معها وكان الظلام قد أخذ يخيم عليهم، وساد الحجرة هرج، فلم يعرف «نيتلي» كيف كان انصرافهما.

وبقي «نيتلي» في «هارتفيلد» بعد انصرافهم جميعًا، وكانت كل أفكاره متجهة إلى ما رآه، وكان غارقًا في أفكاره حتى أنه، وقد جيء بالشموع التي تساعده على الملاحظة، وجد لزامًا عليه كصديق، وكصديق غيور على مصلحة صديقه، أن ينوه بشيء عن ذلك «لإمَّا» وأن يوجه إليها بعض الأسئلة، فما كان يسعه أن يراها في موقف خطير كهذا ثم لا يحاول المحافظة عليها، فهذا واجب لا مناص منه: قال لها: «هل تسمحين لي يا «إمَّا» أن أسأل على أي أساس كانت تلك التسلية العظيمة، بل هذا الوخز المؤلم لتلك الكلمة الأخيرة التي سلمت إليك وإلى «مس فيرفاكس». لقد رأيت الكلمة، وأني لأعجب كيف تكون فيها تسلية لواحدة، ومضايقة شديدة للأخرى».

وأرتبكت «إمَّا» غاية الارتباك ولم تجد في نفسها الجرأة على الإيضاح، إذ على الرغم من أنها لم تتخلص من ظنونها، فقد كانت، تشعر ولا شك بالخجل لأنها أذاعت تلك الظنون قائلة:

أوه! لم نقصد أي شيء بهذا، وما تلك إلا دعابة بيننا».

فأجابها جادًا: «يبدو أن الدعابة كانت قاصرة عليك وعلى «مستر تشرشل».

وكان يأمل أن تتكلم ثانية، ولكنها التزمت الصمت، وفضلت أن تشغل بأي شيء آخر عن أن تتكلم. وجلس برهة قصيرة والظنون تساوره، ومرت بخاطره أوضاع كثيرة. فلفقد تدخل فكان تدخله غير مثمر، وبدا في ارتباك «إمَّا» من اعترافها بالصلة الوثيقة بينها وبينه، أنها قد وقعت في حبه، ومع هذا فقد تكلم ورأى أنه مدين لها بما يحمله على المخاطرة بأي شيء قد ينجم عن تدخل غير مرغوب منه، فهذا خير من أن يعرض مصلحتها للخطر، فأن من الأفضل أن يواجه أي شيء، عن أن يتذكر في المستقبل أنه أهمل في موضوع كهذا.

وقال لها أخيرًا في حنان: «عزيزتي «إمَّا»، أتظنين أنك على علم تام بدرجة التعارف بين السيد والسيدة اللذين كنا تتحدث عنهما؟».

«بين مستر فرانك تشرشل، ومس فيرفاكس؟ نعم أعرف ذلك تمامًا، ولماذا تشك في هذا؟»

«أما كان هناك من سبب يجعلك تفكرين في أنه معجب بها وأنها معجبة به؟».

فصاحت لتقول في تلهف وصراحة: «أبدًا أبدًا، ولا خطر على بالي ذلك مثقال ذرة، وكيف يتأتى لك أن تفكر في هذا؟»

«خيل لي أخيرًا أني رأيت دلائل على المحبة بينهما، وكانت هناك نظرات بينهما لها دلالتها، ولست أرى إلا أنهما يعنيان إخفاءها على الناس كافة».

«عجبًا! إنك تسليني إلى درجة بالغة، ويسرني أن أجدك تفسح لخيالك المجال إلى هذا الحد، ولكنه لن يصل إليّ شيء. ويؤسفنى جدًا أن أحد من خيالك وأنت في أولى محاولاتك، فهو لن يسعفك بشيء، على أني أؤكد لك أنه ليس هناك بينهما غرام، وأن الظواهر التي استلفتت نظرك نشأت في بعض ظروف خاصة، فهي نتيجة مشاعر من نوع آخر يختلف عن هذا تمامًا، ومن المستحيل إيضاحها، إذ فيها سخافات كثيرة، ولكن الجزء الذي يمكن أن يقال عنها، وفيه شيء من التعقل، هو أنهما بعيدان كل البعد عن أي إعجاب أو محبة، وهما كأي شخصين آخرين، وأنا أسلم بهذا من ناحيتها، ويمكننى أن أؤكد ذلك من ناحيته أيضًا، وأنا زعيمة بأنه لايعيرها اهتمامًا».

كان كلامها عن إيمان جعل «مستر نيتلي» يتردد، وعن اقتناع جعله يسكت، وكانت مبتهجة، وودت لو طال الحديث، لأنها كانت تريد أن تسمعه وهو يسترسل في ظنونه، ويصف لها كل النظرات، وتستمع إلى تساؤله أين حدث هذا ومتى، وغير ذلك من الأسئلة التي قد تجد فيها متعة عظيمة. ولكنه لم يشاركها ابتهاجًا، ووجد نفسه غير قادر على أن يشبع رغبتها، فلقد أثيرت مشاعره إلى درجة كبيرة فمنعته عن الكلام.

وحتى لا يضيق ذرعًا بنار الموقد المتوهجة التي اعتادها «مستر وودهاوس» معظم أمسيات السنة، فقد أسرع بالخروج، وسار إلى بيته حيث لا بد أنه واجد في رهبانية «دونول» هدوء الوحدة ولطف الجو.

كان على أهالي «هايبري» بعد أن طال بهم الأمل في انتظار زيارة يقوم بها «مستر سكلنج» وزوجته إلى قريتهم في القريب، أن يتحملوا الوجيعة التي ألمت بهم عندما علموا بأنهما لن يتمكنا من المجيء قبل فصل الخريف، وهكذا لم يكن هناك جديد يمكن أن يضيفوه إلى معلوماتهم حتى ذلك الوقت، وكان عليهم أن يكتفوا بما يتبادلونه كل يوم من أنباء الموضوعات الأخرى التي توافقت وقتًا ما مع أخبار مجيء أسرة «سكلنج» المرتقبة. من هذه الأنباء آخر البيانات التي كانت تأتيهم عن «مسز تشرشل»، وما كان يصلهم عن حالتها الصحية في تقارير تبدو متباينة كل يوم، وحالة «مسز وستن» وما ينتظر لها من سعادة متزايدة بمجيء مولود لها كانت لا تقل عن سعادة جيرانها جميعًا لهذا الحدث المنتظر.
وشعرت «مسز ألتن» بخيبة نتيجة لتأجيل ما كانت تترقبه من فرصة للسرور والتفاخر، وكذلك أصبح على التوصيات التي كانت تعتزم القيام بها، والتعارف الذي كانت تريد أن تقوم به بين أهل «هايبري» وبين «مستر سكلنج» وقرينته مما كانت رسمته لنفسها، أن تنتظر وأن تتأجل جميع الحفلات التي كانت تزمع إعدادها، فتظل مجرد فكرة يتحدث عنها الناس – هكذا كان تفكيرها بادئ ذي بدء، ولكنها اقتنعت بعد تفكير بسيط بأنه ليس ثمة ما يدعو إلى تأجيل أي شيء. إذ لماذا لا يقومون برحلة إلى «بكس هل» على الرغم من عدم مجيء «سكلنج» وزوجته؟ وفي وسعهملا الذهاب معهما مرة أخرى في الخريف. واستقر الرأي على أن يذهبوا إلى «بكس هل». ولبث الجميع وقتًا طويلًا وهم يعرفون أن رحلة كهذه سوف تتم، بل ان هذه الرحلة تولدت عنها فكرة أخرى، ذلك أن «إمَّا» لم تكن قد ذهبت إلى «تكس هل» في حياتها، وقد ودت الآن أن ترى ما يتحدث عنه الناس جميعًا ويصفونه بأنه جدير بالمشاهدة. فاتفقت هي و» مستر وستن» على اختيار صباح يكون الطقس فيه لطيفًا، للذهاب هناك، على ألا يسمح لأكثر من اثنين أو ثلاثة من النخبة المصطفاة بمصاحبتهم، وأن تتم الرحلة في هدوء، وبطريقة مهذبة، لا تظاهر فيها، وبأسلوب يختلف عن رحلات آل «ألتن» وآل «سكلنج» بما فيها من جلبة وضوضاء، واستعداد وتظاهر، وطعام وشراب.

واختمرت الفكرة عندها حتى أنها لم تتمالك نفسها من الدهشة والشعور بشيء من الضيق عندما سمعت من «مستر وستن» بأنه قد اقترح على «مستر ألتن»، وقد فقدت الأمل في مجيء أختها وزوج اختها، أن تشترك الجماعتان وتذهبا معًا، وأن «مسز ألتن» لم تتردد في الموافقة، وأن الرحلة لذلك ستتم، إلا إذا كان عند «إمَّا» اعتراض على ذلك. ولما كان لا اعتراض لها على شيء سوى أنها تشعر بكراهية شديدة نحو «مسز ألتن»، كراهية لا بد وأن «مستر وستن» نفسه يعرفها كل المعرفة، فقد آثرت ألا تثير الموضوع مرة أخرى، فهي لا يمكن أن تثيره دون أن يكون في ذلك تأنيب له، مع ما يستتبعه ذلك من إيلام لزوجته. ولهذا وجدت نفسها مضطرة إلى الموافقة على ترتيب لو كان في وسعها لبذلت أقصى ما يمكنها لكي تتجنبه حتى لا يعرضها لمهانة تلحقها بسبب ما قد يقوله الناس عنها من أنها ذهبت في ركاب «مسز ألتن».

وأحست «إمَّا» بأن كل مشاعرها قد جرحت، وكان لتظاهرها بالرضى عن أمر تكرهه أثر كبير على تفكيرها، جعلها تحس في قرارة نفسها بنزعة قاسية نحو طيبة «مستر وستن» التي أفلت زمامها.

وقال «مستر وستن» وقد اطمأن كثيرًا:

«يسرني أنك وافقت على ما قمت به، بل كنت أرى أنك ستوافقين، فإن مثل هذه الجماعات لا تكون ممتعة إلا إذا زاد عددها، فإن الإنسان لا يمكن أن يعتبر مبالغًا مهما زاد من عدد أفراد مثل هذه الجماعات، فالجماعات الكبيرة فيها عناصر تسليتها، وهي على كل حال سيدة طيبة القلب ولم يكن في وسعنا أن نغفلها».

ولم تنكر «إمَّا» شيئًا من ذلك جهارًا، ولم توافق على شيء منه في قرارة نفسها.

حدث هذا في أواسط شهر يونيو، وكان الطقس لطيفًا، وصارت «مستر ألتن» تتعجل تحديد اليوم لتتفق مع «مستر وستن» على فطائر الحمام، ولحم الضأن البارد – وإذا بحصان العربة يصاب بالعرج، فيزعزع كل هذا الترتيب بدرجة محزنة. وقد تمضي أسابيع طويلة، أو قد تكون أيامًا قليلة، قبل أن يصبح الحصان أهلًا لاستخدامه.

وتوقفت كل شيء، وساد الجماعة ركود كئيب، فقد كان الموقف أكثر مما يمكن أن تحتمله مواهب «مسز ألتن».

وصاحت تقول: «أليس في هذا يا «مستر نيتلي» ما ينغص على الإنسان حياته، خاصة والطقس جميل يسمح بالرحلات؟ إن هذه التأجيلات وضياع الأمل على هذا النحو لشيء كريه على النفس، فماذا نحن فاعلون؟ فلسوف ينقضي العام على هذا المنوال ونحن لم نفعل شيئًا، وأؤكد لك أننا في وقت أسبق من هذا في العام الماضي كونا جماعة لطيفة، خرجت في نزهة من «مابل جروف» إلى «كنجزوستن».

وأجابها «مستر نيتلي»: «يمكنكم أن تذهبوا إلى «دونول»، فهي رحلة يمكن القيام بها دون حاجة إلى الخيل، هيا اذهبوا هناك وكلي من «شليكي» فهو قد أخذ ينضج بسرعة».

وإذا لم يكن «مستر نيتلي» جادًا في دعوته في أول الأمر، فقد اضطر بعد ذلك إلى أن يكون جادًا فيها، بعد أن رآها تقبل على عروضه وتتقبله في غبطة.

ولم تكن حركاتها أقل وضوحًا من كلماتها عندما قالت:

«آه!! إن هذا أشهى ما أشتيهه».

كانت «دونول» تشتهر بمزارع الشليك، وكان هذا مبررًا للدعوة، ومع ذلك فلم يكن هناك من ضرورة لوجود مبرر، فلو أنها لم تكن مزارع شليك، بل مزارع كرنب، لكان ذلك كافيًا لأن يغريها على قبول الدعوة، فقد كان كل ما تريده أن تذهب إلى أية جهة. وقد عادت فوعدته المرة بعد المرة بأنها لا بد آتية – وتكررت وعودها أكثر مما كان ينتظر – فقد كان سرورها عظيمًا بهذا البرهان الذي أقامه على صداقته الوثيقة بها، وهذا الدليل على أنه – فيما ذهب إليه تفكيرها – يخصها بالتكريم.

قالت له مرة: «يمكنك أن تعتمد عليّ كل الاعتماد، وتأكد بأني سأحضر، وما عليك إلا أن تحدد اليوم لتراني معكم. ثم هل تسمح لي بإحضار «جين فيرفاكس» معي؟».

قال: «لا يمكنني أن أحدد يومًا حتى أنتهي من التحدث إلى آخرين أود أن تتعرفي بهم».

«أوه! أترك كل هذا لي، ويكفي أن تعطيني تفويضًا، فأنا ولية الأبرشية، وتلك وليمتي، وسأتي بالأصدقاء معي».

قال: «آمل أن تحضري «ألتن» معك، ولكني لا أكلفك عناء دعوة أحد غيره».

«آه.. إنك تبدو الآن ماكرًا جدًا، ثم لاحظ أن لا ضير عليك من تفويضي، فلست فتاة غير ناضجة، وأعلم أن المرأة المتزوجة يمكنك أن تسلمها زمامك وأنت آمن، وهذه وليمتي، فاترك كل شيء لي، وسوف أتولى عنك دعوة ضيوفك».

وأجابها في هدوء: «لا، فليس هناك إلا زوجة واحدة في الدنيا يمكنني أن أسمح لها بدعوة من ترتاح إليهم من الضيوف إلى «دونول»، هذه هي...».

فقاطعته «مسز ألتن» وهي أقرب ما تكون إلى التوجع:

«..«مسز وستن» فيما أظن؟».

«لا، إنها «مسز نيتلي»، وإلى أن يحين الوقت لأن تكون هناك «مسز نيتلي» فسأعالج مثل هذه المسائل بنفسي».

وصاحت وقد اطمأنت إلى عدم وجود من مفضل عليها:

«إنك إنسان مدهش، فيك دعابة، كما أن لك قدرة على أن تقول ما يحلو لك، علاوة على حبك للمزاح. أجل سوف أحضر «جين» معي «جين» وخالتها، وسأترك الباقين لك، وليس لي اعتراض أبدًا على مقابلة أسرة «هارتفيلد»، فلا ترتاب في ذلك لأني أعلم أن لك بهم صلة وثيقة».

«ولا شك أنك ستقابلينهم إذا كانت الكلمة لي، وسوف أذهب إلى منزل «مس بيتس» وأنا في طريقي إلى منزلي».

«لا، لا ضرورة لذلك أبدًا، لأني أرى «جين» كل يوم، ولكن أنت وما يحلو لك، وليكن القيام بهذا المشروع صباحًا يا «نيتلي»، وهذا شيء بسيط جدًا، وسوف أرتدي قبعة كبيرة، وسأحمل فوق ذراعي سلة صغيرة من سلالي، ومن المحتمل أن تكون السلة ذات الشريط الأحمر، ولا شيء أبسط من ذلك كما ترى، وسيكون مع «جين» سلة أخرى مثلها، ولن تكون هناك رسميات ولا تظاهر، بل ستكون أشبه بجماعة الغجر الرحل، وسنتجول في حدائقك، ونجمع الشليك بأنفسنا، ونجلس تحت الشجر، وكل شيء آخر ترى تقديمه لنا يجب أن يكون كله طبيعيًا وبسيطًا ما أمكن، إلا ترى ذلك؟».

«ليست هذه فكرتي بالضبط، إن فكرتي فيما هو بسيط وطبيعي، هو أن تمد المائدة في حجرة الطعام، وأظن أن أحسن الظروف التي يرى فيها السادة والسيدات، بخدمهم وأثاث بيتهم، على الطبيعة ودون تكلف، هو في تناولهم وجبات الطعام داخل المنازل، فأن أنتم تعبتم من أكل الشليك في الحديقة، فأمامكم اللحم البارد داخل البيت».

«أجل، ليكن ما تحب، إنما لا تعد لنا أصنافًا كثيرة، وبهذه المناسبة، إلا يمكنني أنا أو ومديرة بيتي أن نساعدك بآرائنا؟ أرجو أن تكون صريحًا يا «نيتلي»، فإذا أردت أن أكلم «مسز هدجز» أو أردت أن أشرف بنفسي على أي شي...».

«لا أريد شيئًا من هذا وأشكرك».

«أجل، ولكن لو صادفتك أية صعوبات، فأن مديرة بيتي في منتهى المهارة».

«وأنا زعيم بأن مديرة بيتي ترى أنها ليست أقل منها مهارة، وهي تأنف أن يساعدها أحد».

«وددت لو كان لدينا حمار، وأن نأتي جميعًا وقد ركب كل منا حمارًا... «جين» و«مس بيتس» وأنا، بينما يسير زوجي بحذائنا. نعم، لا بد أن أتحدث معه بشأن ابتياع حمار لنا، ففي رأيي أن هذا من الضروريات في حياة القرى، لأن السيدة التي لها موارد كثيرة لا يمكنها أن تقبع في عقر دارها دائمًا، كما أن المشي إلى مسافات طويلة، يعترضه التراب زمن الصيف، والأوحال في الشتاء».

«لن يصادفك شيء من هذين ما بين «دونول» و«هايبري» فأن منعطف «دونول» لا يوجد به تراب إطلاقًا، وهو الآن في منتهى الجفاف، ويمكنك المجيء على حمار إن كنت تفضلين ذلك، كما أن في إمكانك استعارة حمار «مسز كوي»، وبودي أن يكون كل شيء وفق مزاجك ما أمكن».

«أنا واثقة بأن هذه هي رغبتك، والحق أني لا أنكر عليك ذلك يا صديقي المخلص، فأني أتبين من تلك الصراحة المطلقة التي تتميز بها أن لك قلبًا في منتهى الطيبة، وأنت على حد قولي «لمستر ألتن» فكه تحب الدعابة. أجل، وكن واثقًا يا «نيتلي» بأني شاعرة تمامًا باهتمامك بي في كل هذا، ولقد وضعت يدك على الشيء الذي يسرني».

لقد كان هناك سبب آخر هو الذي جعل «مستر نيتلي» يتحاشى وضع المائدة في الظل، وهو أنه يريد إقناع «مستر وودهاوس» وكذلك «إمَّا» بالاشتراك في هذه الجماعة، وكان يعلم بأنه لو جلس أحدهما في العراء ليأكل، فهو لا بد أن يمرض حتمًا، فضلًا عن أنه لا يجوز أن يغرر بمستر «وودهاوس» إلى ما فيه تعاسته، تحت ستار ركوب العربة في الصباح لقضاء ساعة أو ساعتين في «دونول».

لقد كان أساس دعوته إلى هذه الرحلة، الثقة، ولم تكن هناك ثمة مخاوف في الأفق تجعل مستر «وودهاوس» يندم على قبولها، ولهذا فقد استجاب للدعوة، ولم يكن قد ذهب إلى «دونول» منذ سنتين.

قال وهو يقبل الدعوة: «إنه لشيء جميل جدًا أن يذهب ومعه «إمَّا» و«هاريت» في أحد الأيام الجميلة، في الصباح، وأن يستطيع الجلوس في هدوء مع «مستر وستن»، بينما تمرح البنات العزيزات في الحدائق، ولا يجدن الجو رطبًا فيما يظن، في مثل هذا الفصل وفي وقت الظهيرة، بل لقد تاقت نفسه كثيرًا إلى رؤية البيت القديم ثانية، ويسره أن يتقابل مع «مستر ألتن» وزوجته وغيرهما من جيرانه، وليس له أي اعتراض على الذهاب، هو أو «إمَّا» أو «هاريت»، في يوم يكون فيه الطقس جميلًا، وأنه كان شيئًا جميلًا من «نيتلي» في نظره أن يدعوهم، بل وتعطفًا كبيرًا منه أن يدعوهم إلى هذه الزيارة، فهي خير من دعوة إلى وليمة عشاء خارج البيت، فهو لا يحب مثل هذه الولائم.

وسعد «مستر نيتلي» إذ رآهم يلبون دعوته في غير توان، وأنها لقيت في كل مكان صدرًا رحبًا، حتى خيل إليه أنهم كانوا جميعًا، شأنهم شأن «مسز ألتن»، يعتبرونها تكريمًا خاصًا لكل واحد منهم. فقد صرحت كل من «إمَّا» و«هاريت» بأنهما تأملان أن تجدا في تلك الرحلة سرورًا عظيمًا. وقطع «مستر وستن» على نفسه عهدًا، ولم يكن قد طلب منه ذلك، أن يأتي بفرانك لكي يشاركهم إذا أمكن ذلك، ليبرهن على موافقته وامتنانه، وإن لم يكن هناك به حاجة إلى يبرهن على ذلك. واضطر «مستر نيتلي» إلى أن يقول بأنه سوف يسعد برؤيته، وآلى «مستر وستن» على نفسه ألا يضيع وقتًا، وأنه سيسرع بالكتابة إليه، وأنه لن يترك أية حجة يغريه بها على الحضور إلا استعان بها.

وشفى الحصان من عرجه في الوقت نفسه بسرعة، حتى أن مشروع ذهاب الجماعة إلى «مكس هل» عاد يبحث من جديد بغبطة وسرور، واستقر الرأي أخيرًا على أن يكون الذهاب إلى «دونول» يومًا، ثم إلى «بكس هل» في يوم آخر، ودلت الدلائل على أن الطقس سيكون جميلًا في كلا اليومين.

وسار «مستر وودهاوس» في عربته آمنًا، في شمس حارة متألقة، في يوم من أيام أواسط الصيف، وقد فتح أحد نوافذ العربة وهو في طريقه لكي يسهم في تلك الرحلة الخلوية. وما أن وصل هناك حتى وجد له مكانًا بإحدى حجرات دار «الرهبانية» التي توفرت فيها كل أسباب الراحة، وكانت قد أعدت خصيصًا له منذ الصباح، وزودت بالمدفأة. واستقر فيها وهو قرير العين مطمئنًا، مستعدًا

للتحدث في غبطة عما تم، ولإبداء النصح للجميع ليجلسوا بعيدًا عن حرارة الشمس.
وكانت «مسز وستن» قد تعمدت المشي إلى «الرهبانية» على قدميها لكي تتعب نفسها، ثم تجلس معه طول الوقت. وهكذا تخلفت عن الجمع وبقيت معه تستمع إليه دون ملل، وتبدي عطفها على ما يقول.
ولم تكن «إمَّا» قد رأت «دار الرهبانية» منذ وقت طويل، حتى أنها بمجرد أن اقتنعت بأن والدها قد استراح، رأت أن تتركه وهي مسرورة، وأن تذهب لتستطلع ما حولها، لتجدد وتنقح ما علق بذاكرتها بما تراه الآن، ولتكون أكثر وأدق فهمًا للبيت والحدائق المحيطة به، التي سوف تظل دائمًا موضع اهتمامها واهتمام كل عائلتها.
فقد شعرت «إمَّا» أن العلاقة التي تربطها بالمالك الحالي والمالك في المستقبل سوف تكفل لها الاعتزاز والاطمئنان، عندما شاهدت المبنى المنيف الفخم، بطرازه الجميل وموقعه الفريد، وقيامه في منخفض يجعله في مأمن من عوامل الجو، وحدائقه الفسيحة وقد امتدت في منحدر يصل إلى المراعي التي يحف بها مجرى من الماء، مما جعل المنظر فريدًا في الرهبانية، ثم هذه الأشجار الكثيرة المصطفة على الجانبين، التي لم يعمل البذخ، ولا مجاراة العصر الحديث على اقتلاعها. أما البيت فقد كان أكبر من بيت «هارتفيلد»، كما كان يختلف عنه كل الاختلاف، إذ كان مقامًا على رقعة فسيحة من الأرض متباعدة الأطراف غير منتظمة، وكانت به حجرات كثيرة مريحة، فضلًا عن حجرة أو حجرتين كانتا عنوان الفخامة، وبدا البيت كما يجب أن يكون، بدا كما هو لا أصطناع فيه، وزاد تبجيل «إمَّا» له أنه كان مقام أسرة عريقة لا تشوبها شائبة، سواء في الادراك أو النسب. نعم لقد كانت هناك بعض العيوب في نزعات «جون نيتلي»، ولكن «إيزابلا» استطاعت أن تندمج فيه، وكانت في ذلك بارعة، وما كان زواجها منه ليضيف إليهم رجالًا ولا أسماء، ولا أماكن تجعلهم يتوارون منها خجلًا – وسعدت «إمَّا» بهذه المشاعر كلها وانطلقت تتجول، وترى وتسمع، إلى أن أصبح لزامًا عليها أن تفعل ما يفعله الآخرون.
فتجمعوا جميعًا حول مزارع الشليك إلا «فرانك تشرشل»، فقد كان حضوره من «ريشمند» مرتقبًا في أية لحظة. ووقفت «مسز ألتن» بكل ما يعتمل في نفسها من سعادة، وعلى رأسها قبعتها الكبيرة، وفي يدها سلتها، على استعداد للسير في الطليعة لتجمع أو تتقبل ما طاب من الشليك، أو لتتحدث عنه، فقد أصبحت الآن ولا تفكير لها ولا حديث إلا عن الشليك، أو على حد قولها:
«انه أحسن الفواكه في انكلترا طرًا، انه أحبها عند الناس جميعًا انه صحي دائمًا – ان هذه المجموعة هي أحسن مجموعة وأجودها أنواعًا – ما ألذ أن يجمعه الإنسان بنفسه – فهذه هي الطريقة الوحيدة للاستمتاع به حقًا، ولا شك أن أحسن الأوقات لجمعه تكون في الصباح – وهذا شيء لا يتعب الإنسان أبدًا – إنها كلها أنواع طيبة – والنوع المسمى «هوت بوي» هو أرقاها ولا يقارن به

نوع آخر – أما الأنواع الأخرى فتؤكل بصعوبة – وشليك «الهوت بوي» نادرًا جدًا – أنا أفضل الشليك «الشيلي» - أما «الهوت وود» فهو أحسنهما نكهة وطعمًا – وأسعار الشليك في لندن – إنه يكثر حول «برستول» وفي «مابل جروف» - البستانيون يختلفون في رأيهم عن وقت تجديد زراعته – إنهم لا يتبعون طريقة واحدة في ذلك – إنهم لا يتزحزحون عما اعتادوه – إن الشليك فاكهة لذيذة، وعيبه أنه مغذ جدًا فلا يؤكل منه كثير – والشليك أقل في المرتبة من الكراز – العنب البناتي أكثر منه إنعاشًا – وليس من عيب في جميع الشليك سوى كثرة الإنحناء». ثم انتقلت من ذلك لتقول: «إن الشمس متوهجة، وكدت أموت من التعب – لا يمكنني أن أتحمل أكثر من هذا – لا بد أن أذهب وأجلس في الظل».
على هذا النحو جرى الحديث نصف ساعة، لم ينقطع خلالها إلا مرة واحدة، عندما خرجت «مسز وستن» وهي قلقة على ابن زوجها، لتسأل إذا كان قد حضر، وكانت على شيء من الازعاج، لأنها كانت توجس خيفة من حصانه.
وكانت هناك مقاعد لا بأس بعددها في الظل، ووجدت «إمَّا» نفسها الآن مضطرة إلى استراق السمع للحديث الذي يدور بين «مسز ألتن» و«جين فيرفاكس». كان الحديث عن وظيفة ممتازة أخطرت بها «مسز ألتن» في هذا الصباح، وسرت لها كثيرًا. ولم تكن تلك الوظيفة عند «مسز سكلنج» ولا عند «مسز براج»، ولكنها في أسرة لا تأتي في المنزلة إلا دون هاتين وحدهما. إنها عند ابنة عم «مسز براج»، وهي من معارف «مسز سكلنج»، سيدة معروفة في «مابل جروف»، لطيفة وجميلة، ممتازة، من أرقى الأوساط والدوائر، من طبقة عالية، كل ما فيها راق - وكانت« مسز ألتن» جد شغوفة بأن تسمع الموافقة على هذا العرض في الحال، وكانت متحمسة نشيطة، تتحدث حديث المنتصر، ومن ثم فقد أبت اعتذار صديقتها وإصرارها على أنها لن ترتبط بأي عمل في هذه الآونة، لنفس الأسباب والدوافع التي سبق أن أبدتها لها. وعلى الرغم من هذا، فإن «مسز ألتن» صممت على أن تأخذ منها تفويضًا بأن تكتب الرد بالموافقة، في بريد اليوم التالي. ودهشت «إمَّا» كيف تتحمل «جين» كل هذا، لقد بدا عليها الغيظ، وكان في كلامها حدة، وأخيرًا وعلى غير عادتها، اتخذت قرارًا عمليًا، فاقترحت أن تتحركا من مكانهما، قالت:
«ألا يتمشون؟ ألا يريهم «مستر نيتلي» الحدائق، الحدائق جميعها؟» - نعم فلقد كانت صفاقة صديقتها أكثر مما يمكنها أن تتحمله.
وساروا زمرًا زمرًا، وكان الطقس حارًا، لا تكاد تزيد أية زمرة منهم على الثلاثة إلا ما ندر، ثم أخذوا بعد ذلك يسيرون الواحد يتلو الواحد اعتباطًا، نحو ظل ظليل، في طريق متسع قصير، تحفه على الجانبين أشجار الليمون، ويمتد إلى منتصف المسافة بين النهر والحديقة حتى خيّل إليهم أنه منتهى المطاف، إذ كان لا يوصل إلى شيء، لا شيء إلا منظر في النهاية، يتخلله جدار حجري غير مرتفع، له أعمدة عالية، كأنما أريد منها أن تعطي مظهر الاقتراب من بيت لم ترفع قواعده أبدًا.

وإذا كان الذوق الذي أملى تلك الخاتمة على هذا المنظر مما تختلف فيه الرأي، فلقد كان السير في ذاته ممتعًا، وخاتمته جميلة للغاية.

وأخذ المنحدر العظيم الذي أقيمت الرهبانية قرب سفحه يزداد انحدارًا شيئًا فشيئًا بعد المروج والحدائق، وتلا ذلك على مسافة نصف ميل، ربوة عظيمة وعرة المنحدر، تكسوها الأشجار، وتمتد عند قاعدتها مزرعة الرهبانية في مكان آمن من فعل الرياح، ومن أمامها المراعي التي يحف بها النهر في شكل قوس جميل.

كان المنظر جميلًا تقر له العين ويهدأ له الفكر، جمع بين الإنكليزية والهدوء الإنكليزي في يوم سطعت شمسه وأشرقت دون أن تلفح الوجوه.

ووجدت «إمَّا» و«مستر وستن» أن الكل قد تجمعوا في ذلك الممشى، وأبصرت من بينهم في الحال «مستر نيتلي» و«هاريت» وهما يسيران بهدوء في الطليعة، وقد تميزا عن بقية القافلة.

نعم «مستر نيتلي» و«هاريت»!! لقد كانا يتبادلان الحديث بشكل يستلفت النظر. وقد سرها أن ترى ذلك، فلقد أتى وقت كان يأنف فيه أن يكون رفيقًا لها، وكان يشيح بوجهه عنها في غير مجاملة، ثم ها هما الآن قد انشغلا فيما يبدو في حديث شيق. كذلك أتى وقت كانت فيه «إمَّا» نفسها تبتئس لو أنها رأت «هاريت» تشرف على ضيعة الرهبانية في مكان يبرز روعتها، ولكنها الآن أصبحت لا تخشى شيئًا من ذلك، وصار لا ضير عليها من رؤية الضيعة بكل ما فيها من مظاهر الرخاء والجمال، والمراعي الفنية وقد انتشرت فوقها الأغنام والبساتين المزهرة، وعمود الدخان الخفيف الذي يتصاعد في أجوائها.

ولحقت بهما «إمَّا» عند الجدار فوجدتهما أكثر انهماكًا في الحديث من أن يلتفتا حولهما، فقد كان مشغولًا بإعطاء «هاريت» بعض المعلومات عن طريق الزراعة، كما شمل الحديث أشياء أخرى. وابتسم إلى «إمَّا» وكأنما كان يقول لها:

«تلك الأشياء تخصني، ومن حقي أن أتناول مثل هذه المواضيع بالحديث دون أن يظن بأني أتحدث عن «روبرت مارتن». ولم يكن يساورها في الواقع مثل هذا الشك، فهي قصة عفا عليها الزمن، ومن المحتمل أن «روبرت مارتن» نفسه لم يعد يفكر في «هاريت». وساروا جميعًا في بعض منعطفات الطريق ذات الظلال المنعشة، ووجدت «إمَّا» أن تلك الفترة كانت ألذ أوقات النهار.

وانتقلوا بعد ذلك إلى البيت، إذ كان لا بد من دخولهم جميعًا لتناول طعامهم. واخذ كل منهم مجلسه، وكان «فرانك تشرشل» لا يزال غائبًا، ونظرت «مسز وستن» واعادت النظر وهي تترقبه في قلق دون جدوى، في حين أن والده أبى أن يعترف بأنه يشعر بالقلق، بل ضحك لمخاوفها. وظلت زوجة أبيه تتمنى لو أنه تخلى عن مهره الأسود. فلقد أكد لهم بصورة قاطعة لا يتسرب إليها أدنى شك بأنه سيأتي، وأضاف:

«إن صحة زوجة خاله قد تحسنت كثيرًا حتى أصبح لا يشك في مجيئه إليهم».
ولم يتوان عدد كبير من الحاضرين عن تذكيرها بأن حالة «مسز تشرشل» عرضة للتقلبات المفاجئة التي قد تخيب أمل ابن أخت زوجها فيما قدر لنفسه بأنه لا بد أن يتحقق. ومالت «مسز وستن» أخيرًا إلى أن تصدق هذا الرأي وأن تقول إنه لا بد وأن تكون «مسز تشرشل» قد اعتراها مرض فمنعه ذلك من المجيء، وقد تطلعت «إمَّا» إلى «هاريت» وقت أن عرضت هذه النقطة على بساط البحث فألقتها هادئة تملك زمام مشاعرها.
وانتهت وجبة الطعام الباردة، وحان وقت خروجهم ثانية ليشاهدوا ما لم يكونوا قد شاهدوه حتى الآن – برك الأسماك القديمة بالرهبانية، وقد يمتد بهم المسير كذلك حتى حشيش المرعى الذي كان سيبدأ بقطعه في اليوم التالي.
أما مستر «وودهاوس» وقد انتهى من جولته القصيرة بأعلى مكان في الحدائق، حيث لا يخطر ببال أحد، حتى هو، أن الرطوبة يمكن أن تصل إليه من النهر، فإنه لم يخرج ثانية، وقررت ابنته أن تبقى معه حتى يتسنى «لمستر وستن» أن يقنع زوجته بالخروج كي تقوم بشيء من التريض والتنويع كانت نفسيتها في أشد الحاجة إليهما.
وكان «مستر نيتلي» قد بذل ما في وسعه لتسلية «مستر وودهاوس» فأعد لهذا الصديق العجوز مجلدات بها رسوم ونقوش محفورة، وأدراجًا بها نياشين، وأحجارًا كريمة ذات نقوش بارزة، وقطعًا من المرجان، وأصدافًا، وكل ما اشتملت عليه خزانات الأسرة من المقتنيات القديمة الأخرى، فكان لذلك أثره في الترويح عن «مستر وودهاوس» بقية الصباح. وتولت «مسز وستن» عرض هذه الأشياء جميعها عليه، وهو بدوره سيريها كلها الآن لابنته «إمَّا» - وكان من حسن الحظ أنه لم يكن له من صفات الطفولة أكثر من عدم تذوقه لما يراه. فقد كان يتسم بالبطء والثبات في التفكير. وقبل أن يبدأ عرض هذه التحف مرة أخرى، خرجت «إمَّا» إلى البهو لتمضي فيه بضع لحظات بمفردها، لكي تلقي نظرة على مدخل البيت، وعلى ما يحيط به من الحدائق التي تقع عند مشارفه، وما كادت تدلف إليه حتى ظهرت أمامها «جين فيرفاكس» وهي تدخل من الحديقة مسرعة وعلى وجهها مظهر الهاربة، ولما لم تكن تنتظر أن ترى «مس وودهاوس» بهذه المفاجأة، فقد ارتاعت لأول وهلة على الرغم من أن «مس وودهاوس» هي نفس الشخص الذي كانت تبحث عنه.
وقالت «مس فيرفاكس»: «هل تتكرمين إذا افتقدوني أن تقولي إني عدت إلى البيت؟ فها أنا ذاهبة في هذه اللحظة إن خالتي لا تنتبه إلى أن الوقت قد أزف، ولا تدري كم من الوقت تغيبنا، ولكني واثقة بأنهم في انتظارنا، وقد قررت أن أذهب حالًا، وأنا لم أذكر شيئًا عن هذا لأحد غيرك، لأني لو فعلت فإنما أعمل على إثارة المتاعب والقلق. لقد ذهب بعضهم إلى البرك وذهب البعض الآخر إلى طريق تحف به أشجار الليمون، ولن يفطنوا إلى عدم وجودي حتى يعودوا

جميعًا إلى البيت، فإذا أحسوا بغيابي وقتها، فهل تتكرمين بأن تقولي إني عدت إلى بيتي؟».

«بكل تأكيد، إذا كانت رغبتك – ولكن هل ستذهبين إلى «هايبري سيرًا على الأقدام وأنت بمفردك؟».

«أجل، وماذا يصيبني إذا فعلت؟ إني أسير بسرعة، وسأصل إلى البيت بعد عشرين دقيقة».

«ولكن المسافة بعيدة جدًا، ولا شك أنك ستشعرين بطول المسافة وأنت تسرين بمفردك، فخذي معك خادم أبي، ودعيني أطلب العربة، وفي الإمكان وصولها بعد خمس دقائق».

«شكرًا، شكرًا، لا تطلبي العربة بأي حال، أرجوك، فأني أفضل المشي. وهل أنا التي تخاف من السير بمفردها؟ أنا التي قد يُعهد إليها بحراسة غيرها عما قريب».

قالت هذا وهي في شدة الاضطراب، وردت عليها «إمَّا» بحنان تقول: «لن يكون هذا مبررًا لتعريض نفسك الآن للخطر، ولا بد أن أطلب العربة، وحتى حرارة الجو نفسها لا تخلو من الخطر، وها أنت تشعرين بالتعب، من الآن».

وأجابت قائلة: «نعم أنا متعبة، ولكنه ليس بالتعب الخطير وسوف ينعشني المشي السريع، وكلنا نعلم يا «مس وودهاوس» ما يحس به المرء إذا استولت عليه الهموم أحيانًا، وإني لأعرف بأن مشاعري وصلت إلى درجة الإعياء، وإن أعظم مكرمة تُسدينها إليّ الآن هي أن تتركيني أذهب، ويكفي أن تقولي إني ذهبت إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك».

ولم تعترض «إمَّا» عليها بكلمة أخرى، فقد أدركت كل شيء، فلما أحست بإحساسها استنهضتها إلى مغادرة البيت في الحال وودعتها بسلام، وداع الصديق الوفي. ونمت نظرات «مس فيرفاكس» وهي ترحل، عن شعورها بالامتنان، وكانت كلماتها وقت الانصراف: «آه يا «مس وودهاوس» ما أعظم ما يجده الإنسان من الراحة إذا ما خلا إلى نفسه أحيانًا!». وبدت تلك الكلمات وكأنها تنبعث من قلب أثقلته الهموم، وأنها تصف بعض ما كانت تعانيه من الآلام التي لا تنقطع، حتى من بعض أولئك الذين يكنون لها منتهى الحب.

وقالت «إمَّا» وهي تعود إلى البهو ثانية:

«يا له من بيت ويا لها من خالة!! إني لمشفقة عليك، وكلما أظهرت إحساسك بما تلاقينه من أهوال لا شك فيها، زاد حبي لك».

ثم ما كاد يمضي على ذهاب «جين» ربع ساعة، وما كادوا ينتهون من رؤية بعض مشاهد لمقام «القديس مارك» بمدينة البندقية، حتى دخل «فرانك تشرشل» الحجرة، ولم تكن تفكر فيها لحظتها. بل لقد نسيت أن تفكر فيه ولكنها مع ذلك سرت لرؤيته. وهدأ روع «مسز وستن»، فقد أثبت المهر الأسود ألا لوم عليه ولا تثريب، وتحقق ظن من قالوا إن «مسز تشرشل» هي السبب، فلقد تأخر لأنِها أحست فترة

باشتداد وطأة المرض عليها، إذ تعرضت لاضطراب عصبي استمر معها بضع ساعات، مما جعله يطرح عن ذهنه فكرة المجيء حتى وقت قريب جدًا، ولو كان يعلم ما سيلقاه وهو راكب من الحر، وما لا بد أن يكون عليه من التأخير، مع أنه سار بأقصى سرعة، لكف عن المجيء بالكلية.«
فلقد كان الحر شديدًا لم يقاس مثله من قبل، وود وهو في الطريق لو كان مكث في عقر داره، فما كان شيء أقسى على نفسه من الحر. إن في وسعه تحمل البرد مهما كانت درجته، أما الحر فلا قبل له باحتماله. فلما انتهى من حديثه معها جلس على أبعد مسافة ممكنة من بقايا نار المدفأة التي أشعلت من أجل «مستر وودهاوس» وهو في حالة يرثى لها.
وقالت «إمَّا»: «ستشعر بشيء من الترطيب حالًا، إن أنت جلست هادئًا».
«إني سأعود حالما يقل شعوري بالحرارة، فلم يكن من السهل أن يستغنوا عني، ولكني صممت على المجيء، وأظن أنكم سترحلون من هنا قريبًا، وأن الجماعة سينفرط عقدها سريعًا. لقد قابلت واحدة منهم وأنا في طريقي، إنه جنون منها في مثل هذا الجو، منتهى الجنون».
واستمعت «إمَّا» ونظرت إليه، وأدركت في الحال أن خير ما توصف به حالة «فرانك تشرشل» أنه كان مضطرب المزاج، فإن من الناس من يكتئبون دائمًا عندما يشعرون بالحر، وقد يكون هذا هو تكوينه. ونظرًا لأنها كانت تعلم بأن الطعام والشراب غالبًا ما يزيلان أثر بعض التوعكات الطارئة، فقد اقترحت عليه أن يتناول بعض المرطبات، وقالت له: «ستجد في حجرة الطعام من كل شيء قدرًا كبيرًا»، وأشارت إلى الباب في رقة وعطف، غير أنه رفض أن يتناول شيئًا.
«لا، يجب ألا آكل وأنا غير جائع، فسوف لا يكون من وراء الأكل إلا زيادة الإحساس بالحرارة».
وبعد دقيقتين لانت عريكته وقلت خشونته، وبدرت منه بعض كلمات عن الجعة التي تصنع من الصنوبر، ثم انصرف، وعادت «إمَّا» تولي والدها كل عنايتها، وتقول في نفسها:
«إني لسعيدة بأن أكون قد تخلصت من حبي له، فما يجوز لي أن أهوى رجلًا لا يتمالك نفسه إذا صادفه يوم حار. على أن حلم «هاريت» ووداعتها، يجعلانها أهلًا لأن تتغاضى عن ذلك».
وكان قد تغيب وقتًا يكفي لأن يأكل وجبة شهية، ثم عاد بعد ذلك وهو أحسن حالًا مما كان، إذ ذهب عنه ما كان يشعر به من أثر الحرارة، وعادت إليه دماثة الخلق، وأمكنه أن يسحب كرسيًا بقربهم، وأن يظهر اهتمامه بما شغلوا به، وأن يعبر بطريقة معقولة عن أسفه لأنه اضطر إلى مثل هذا التأخير.
كان يبدو مهمومًا، ولكنه حاول أن يرفع من معنويته، وأخذ يتكلم هراء بطريقة شيقة. وكانوا وقتها يتأملون بعض مناظر من سويسرا فقال:

«سوف أغادر أرض الوطن حالما تشفى زوجة خالي، فلن يهدأ لي بال حتى أرى بعض هذه الأماكن، وسوف تصلك رسومي من وقت لآخر لتتصفحبها، أو وصف رحلتي لتقرئيه، أو شعر من أشعاري لتتسلي به، سأعمل أي شيء لأعلن عن نفسي».
«قد يحدث هذا ولكنه لن يكون برسوم من سويسرا، لأنك لن تذهب إليها أبدًا ولن يسمح لك خالك وزوجته بمغادرة إنكلترا».
«بل هما قد يقتنعان بالذهاب إليها كذلك، فقد يوصف لها المناخ الدافئ، بل إني لشديد الأمل في أننا سنسافر جميعًا إلى الخارج، وأؤكد لك أني أكاد أتوقع ذلك وإني لأشعر في هذا الصباح بما يوحي إليّ بأني سأكون في الخارج عما قريب، فلا بد لي من السفر، وقد سئمت عدم العمل، وأريد شيئًا من التغيير، وأنا جاد فيما أقول «مس وودهاوس» مهما أوحت به نظراتك الفاحصة، فلقد سئمت إنكلترا، وبودي لو تركتها غدًا إن أمكنني».
«إنك سئمت الرخاء والانغماس في المتع ألا يمكنك أن تخلق لنفسك بعض المتاعب وتقنع نفسك بالبقاء؟».
«عجبًا! أنا أسأم الرخاء والانغماس في المتع!! لقد أخطأت تمامًا يا «إمَّا»، بل لست أرى أني أعيش في رخاء أو أني منغمس في الملذات، فأنا مغلوب على أمري في كل شيء له قيمة في الحياة، ولست اعتبر نفسي محظوظًا أبدًا».
«ومع ذلك فأنت لست بالكآبة التي كنت عليها وقت مجيئك، فاذهب الآن واستزد من الطعام والشراب، فسوف يصلح حالك، إن شريحة أخرى من اللحم البارد، وجرعة أخرى من نبيذ ماديرا الممزوج بالماء سيجعلانك مثلنا تمامًا».
«لا، لن أتحرك من هنا، سأجلس بجانبك، فأنت أحسن علاج لي».
«إننا ذاهبون إلى «بكس هل» غدًا، وسوف تكون معنا، إنها ليست سويسرا، ولكن لا بأس بها لشاب في حاجة ماسة إلى التغيير، فهل تبقى وتذهب معنا؟».
«، لا بالتأكيد، فسأذهب إلى بيتي عندما تخف وطأة الحر في المساء».
«ولكن في إمكانك أن تعود باكر صباحًا حين يكون الطقس باردًا».
«لا، وما أغناني عن ذلك! فإن أنا أتيت معكم فأني سأكون مكتئبًا».
«أرجو إذن أن تبقى في ريشمند».
«ولكني إن بقيت هناك، سأكون أكثر اكتئابًا، وسوف لا أحتمل أبدًا أن أفكر في أنكم هناك جميعًا وأنا لست معكم».
«هذه صعوبات يجب عليك أن تتغلب عليها بنفسك، وعليك أن تختار أية درجة تريدها من الكآبة، ولن أضغط عليك بعد الآن».
وكان الباقون في طريقهم عائدين، وسرعان ما تجمعوا، وتهلل بعضهم فرحًا عندما رأوا «فرانك تشرشل»، وقابله فريق آخر بفتور، ولكن، القلق والاضطراب سادهم جميعًا عندما علموا بعدم وجود «مس فيرفاكس».

ولما كان هذا هو وقت انصرافهم جميعًا، فقد انتهوا من الحديث، وانصرفوا بعد أن أعدوا برنامجًا موجزًا للترتيبات النهائية لخطة سيرهم في اليوم التالي. وزاد ميل «فرانك تشرشل» إلى عدم الانفصال عن زمرتهم، إلى درجة كبيرة، حتى قال «لإمَّا» آخر الأمر:

«أجل، إن كنت تريدين بقائي لأكون معكم، فأني سأبقى».

وابتسمت ابتسامة الموافقة، وما كان من شيء بعد ذلك ليعود به قبل أمسية اليوم التالي، إلا أن يستدعي إلى «ريشمند».

الفصل الثالث والأربعون

كان يومًا جميل الطقس للغاية كي يقوموا برحلتهم إلى «بكس هل»، كما دل كل شيء آخر من المظاهر الخارجية، كالتنظيم، وإعداد الأماكن والمحافظة على المواعيد، على أن الجماعة ستنعم بهذه الرحلة.

وأشرف «مستر وستن» على كل شيء، وتولى توجيه سير الجماعة كلها ما بين «هارتفيلد» والأبرشية. وجاء كل واحد في موعده. وذهبت «إمَّا» بصحبة «هاريت»، أما «مستر بيتس» وابنة أختها فقد ذهبتا مع «مستر ألتن» وزوجته، وذهب السادة على متون الخيل، بينما بقيت «مسز وستن» في صحبة «مستر وودهاوس» ولم يكن ينقصهم شيء إلا أن ينعموا بيومهم عند وصولهم إلى «بكس هل». فلقد قطعوا في رحلتهم مسافة سبعة أميال ابتغاء المتعة، فلما وصاوا إليها هللوا فرحًا وإعجابًا، ولكن معظم أوقات النهار كانت مع ذلك فاترة شملها الخمول والوجوم، وكانت تعوزها الوحدة والترابط، ولم تجد كل الوسائل في التغلب على ذلك. فتفرقوا زمرًا متناثرة، فسار «ألتن» وزوجته معًا، وصحبت كل من «مس بيتس» و«جين» - «مستر نيتلي» - وكانت «إمَّا» و«هاريت» من نصيب «فرانك تشرشل».

وحاول «مستر وستن» عبثًا أن يجعلهم أكثر التئامًا وانسجامًا. وكان يبدو في أول الأمر أن هذا الانقسام كان وليد المصادفة، ولكنه لم يتغير أبدًا تغيرًا ملحوظًا.

صحيح أنه لم يبد من «مستر ألتن» وزوجته أية رغبة في عدم الاختلاط أو المجاملة ما أمكنهما، غير أن الفرقة سادت الجماعة في غضون الساعتين اللتين قضتهما فوق الربوة، حتى أصبحت الفرقة هي المبدأ، إلى درجة أصبح من العسير معهما على «مستر وستن» ببشاشته المعهودة أن يتغلب على الفرقة، أو تستطيع أية مناظر خلابة أو أية مرطبات منعشة أن تخفف من وطأتها. وبدت «إمَّا» بادئ الأمر مكتئبة مغتمة، ولم تكن رأت «فرانك تشرشل» بهذا السكوت، وهذا التلبد أبدًا، فهو لم يقل شيئًا يستحق أن يسمع، وكان ينظر وهو لا يرى، ويبدي إعجابه بغير إدراك، ويستمع إليها وهو لا يعي ما تقول، - ولا عجب أن تكون «هاريت» في أثناء وجومه هي الأخرى واجمة، حتى أصبح الاثنان لا يطاقان.

فلما جمع الكل مجلس واحد، تحسن الحال، وشعرت «إمَّا» بهذا التحسن، فانقلب «فرانك تشرشل» يتحدث في بشر وبهجة ويخصها بكل عنايته، حتى

بدا وكأنه لم يعد يعنيه إلا أن يدخل السرور على قلبها، وأن يتقرب إليها. وانعكس ذلك على «إمَّا»، فقد أسعدها أن تنتعش نفسها، ولم يغضبها أن تستمع إلى مديحه، وأصبحت هي الأخرى مرحة جذلة الفؤاد، فأفسحت له صدرها، وسمحت له بأن يجرؤ على التودد إليها كما كان يفعل قبلًا عندما كان ودهما على أشده. وإذا كان هذا في مقياس تقديرها للأمور لم يعن شيئًا، فقد كان في نظر الأغلبية التي كانت ترقبهما، غزلًا، ولا شيء غير الغزل. وتعرضا بذلك إلى قول الناس: إن «فرانك تشرشل» و«مس وودهاوس» قد أفرطا في غزلهما».

وهكذا جعلا من نفسهما هدفًا لأن يتقول عليهما الناس بألسنتهم، وأن تبعث بذلك إحدى السيدات في خطاب إلى «مابل جروف»، وتبعث به أخرى إلى أيرلندا. ولم يكن هذا لأن «إمَّا» فرحت، فشغلتها سعادة حقيقية عن التفكير، بل لأنها شعرت بأنها أقل سعادة مما كانت تنتظر. فلقد ضحكت لأن أملها لم يتحقق، وعلى الرغم من أنه أعجبها منه أنه أولاها كل عنايته، وعلى الرغم من إيمانها بأن كل هذه الرعاية، سواء أكانت مظهرًا للصداقة أم الإعجاب، أم مجرد مداعبة، كانت في منتهى الحكمة، فإن ذلك لم يكتسب قلبها ثانية. فقد كانت مصممة على أن تتخذه صديقًا لا أكثر.

وقال لها: «كم أنا مدين لك بالشكر إذ أشرت عليّ بالحضور اليوم، ولولاك لكان من المؤكد أن أحرم من كل ما شعرت به من سعادة وسط هذه الجماعة، فقد كنت قررت بالفعل أن أعود إلى «ريشمند».

«نعم لقد كنت مكتئبًا جدًا، وإن كنت لا أدري لم كان كل هذا، إلا إذا كان لأنك تأخرت كثيرًا عن تذوق ثمرات الشليك الممتازة، ومع ذلك فقد كنت صديقة أكثر عطفًا عليك مما تستحق، أما أنت فقد كنت خانعًا تستجدي الأمر بالمجيء».

«لا تقولي أني كنت مكتئبًا، لقد كنت متعبًا من أثر الحر الشديد».

«إن الطقس اليوم أشد حرارة».

«ولكني لا أشعر بها، وأنا في تمام الراحة اليوم».

«أنت مستريح لأنك طوع الأمر»

«أمرك أنت؟ أجل»

«ربما قصدت أن تقول لي هذا، ولكن الذي أعنيه هو حكم النفس، وأنت بطريقة ما كسرت القيود بالأمس وهربت من حكم نفسك، ولكنك اليوم عدت إلى طبيعتك، وبما أنه لن يتسنى لي أكون معك دائمًا، فأحرى بك أن تثق بما تمليه عليك نفسك من أن تخضع لأمري».

«إن النتيجة في الحالين سواء، إذ لن يكون لنفسي سلطان عليّ دون أن يكون هناك دافع، فأنت تأمرينني سواء تكلمت أم لم تتكلمي، ويمكنك أن تكوني معي دائمًا، بل أنت على الدوام معي».

«إن مبدأ ذلك يرجع إلى الساعة الثالثة بالأمس، إذ لا يمكن أن يكون نفوذي الدائم قد بدأ قبل ذلك، وإلا ما كان مزاجك يضطرب ويستولي عليك الغم قبل ذلك».
«عجبًا!! الساعة الثالثة مساء أمس، أهذا هو تاريخك؟ أظن أنني رأيتك أول ما رأيتك في فبراير».
«إن شهامتك لا تنكر حقًا، ولكن (قالتها في صوت خافت) لا أحد غيرنا يتكلم، وإنه لكثير جدًا أن نظل نقول كلامًا سخيفا لكي نروح على سبعة يجلسون صامتين».
وأجابها في جرأة مثيرة: « أني لا أقول شيئًا أخجل منه، أن أول رؤيتي لك كانت في فبراير وليسمعني جميع من يجلسون الآن فوق الربوة إن أمكنهم، ولتصل كلماتي من «دوركنج» إلى «مكلهام»، أن أول رؤيتي لك كانت في فبراير» ثم قال همسًا:
«إن رفاقنا في منتهى الخمول، فماذا نفعل لتنشيطهم؟ إن أي كلام سخيف سيؤدي الغرض ويدفعهم إلى الكلام. سيداتي سادتي! لقد أمرتني «مس وودهاوس» (وهي الزعيمة أينما حلت)، بأن أقول إنها تريد أن تعلم فيم تفكرون جميعًا؟»
وضحك البعض، وأجابوا في دعابة مستعذبة، وتكلمت «مس بيتس» طويلًا، وشمخت «مسز ألتن» بأنفها اعتراضًا على زعامة «مس وودهاوس»، وكان رد «مستر نيتلي» أكثرالردود وضوحًا، فقد قال:
«هل «مس وودهاوس» متأكدة من أنها تريد سماع ما نفكر فيه جميعنا؟».
فصاحت «إمَّا» تقول وهي تضحك ملء شدقيها دون اكتراث:
«لا، لا، ليس هناك ما يدعو إلى ذلك أبدًا، وهذا آخر شيء أقوى الآن على مجابهته، دعوني أسمع أي شيء آخر غير ما تفكرون فيه جميعًا، ولا أقول جميعَا، فربما كان بينكم واحد أو اثنان (ونظرت إلى مستر وستن وهاريت) لست أخشى معرفة فكرهما»..
وصاحت «مسز ألتن» تقول في شيء من العنف:
«هذا شيء ما كنت أظن أن من حقي أنا نفسي أن أسأل عنه، على الرغم من أني قد أكون القيمة على الموجودات، نعم لم أفكر يومًا في مثل ذلك أيا كان الوسط أو كانت الجماعة التي كنت معهم، جماعات الاستكشاف، الشابات، سيدات متزوجات».
وكان كلامها موجهًا لزوجها خاصة، فأجابها في همهمه:
«هذا عين الصدق يا حبيبتي، إنه عين الصدق، ما سمعنا شيئًا كهذا أبدًا، ولكن بعض السيدات يقلن أي شيء يخطر ببالهن، والأفضل أن تتركي هذا يمر على أنه فكاهة، والناس جميعًا يعلمون ما يجب بإزائك».
وقال «فرانك» ل«إمَّا» همسًا: «إن هذا لن يجدي، إن معظمهم يشعرون بالإهانة، وسأهاجمهم بحديث أحول: «سيداتى سادتي، لقد أمرتني «مس

وودهاوس» بأن أقول أنها قد تنازلت عن حقها في أن تعرف بالضبط ما يجول بخاطركم، ولا تطلب من كل واحد منكم بصفة خاصة إلا شيئًا يكون مسليًا جدًا، وأنتم هنا سبعة خلافي أنا، (أنا الذي يسرها أن تقول عني من الآن بأني مسل جدًا) وهي تطلب من كل واحد منكم إما أن ياتي بشيء واحد يدل على منتهى الذكاء، سواء أكان نثرًا أو نظمًا، مبتكرًا أو معادًا، وأما أن يأتي بشيئين على درجة متوسطة من الذكاء، أو بثلاثة من منتهى الغباء. وهي تتعهد بأن تضحك عليها جميعًا من كل قلبها».

وقالت «مس بيتس»: «هذا شيء جميل جدًا، وإذن فلا داعي لأن أفلق، ثلاثة أشياء في منتهى الغباء، هذا يناسبني ولا أشك، وأعتقد أني أستطيع أن أقول ثلاثة أشياء تدل على الغباء حالما أفتح فمي، أليس كذلك».

(ونظرت حولها وهي في منتهى البشاشة معتمدة على موافقة الجميع) - قالت: «ألا تظنون جميعًا أني قادرة على أن أفعل ذلك؟».

فلم تتمالك «إمَّا» نفسها وقالت:

« نعم يا سيدتي، ولكن قد تكون هناك صعوبة، ومعذرة إذا قلت بأنك لا يجوز أن تتجاوزي العدد، أي ثلاثة فقط في وقت واحد».

وخدعت «مس بيتس» بما قوبلت به هذه العبارة من الضحك، ولم تفطن في الحال إلى ما كانت تعنيه «إمَّا» ولكنها عندما أدركته لم يثر غضبها على الرغم من أنه صبغ وجنتيها بحمرة دلت على أنه آلمها.

«آه! هذا حسن ولا شك، أجل أني أفهم ما تعنيه (والتفتت إلى «مستر نيتلي»)، وسأحاول أن أصون لساني عن الكلام، ولا بد أني جعلت نفسي مرذولة، وإلا ما كانت قالت شيئًا كهذا لصديقة قديمة».

وصاح «مستر وستن» قائلًا: «لقد أعجبتني الفكرة. موافق، موافق، وسأبذل جهدي، ها انا ذا أعد أحجية، فما حساب الأحجية عندكم».

وأجاب ابنه: «أخشى أن يكون حسابها ضئيلًا يا سيدي، ضئيلًا جدًا، ولكننا سنكون كرماء، وخاصة مع من يكون في الطليعة».

وقالت «إمَّا»: «لا، لا، أنها لن يكون حسابها ضئيلًا، وإن أحجية من «مستر وستن»، سوف توفي بما عليه وبما على جاره، تكلم يا سيدي، وأرجوك أن تسمعني إياها».

وقال «مستر وستن»: «أنا نفسي أشك في أنها تدل على قسط وفير من الذكاء، ولكنها مسألة حقيقية جدًا، وها هي: «ما هما الحرفان الهجائيان اللذان يدلان على الكمال؟»».

«ما الحرفان الدالان على الكمال!! لا شك أني لا أعرف».

«آه!! لا يمكنك التكهن أبدًا، وأنا واثق من أنك (مخاطبًا «إمَّا») لن تعرفي ذلك عن طريق الحدس أو التخمين، وسأخبرك بهما يا «إمَّا»:«إنهما: أ، م(أم – أم)، أتفهمين؟»، وفهم الجميع وارتاحوا لها. نعم إنها قد تكون أحجية تنقصها المسحة الشخصية، ولكن «إمَّا» وجدت فيها ما يسرها ويضحكها كثيرًا، وكان

الحال كذلك مع «فرانك» و«هاريت». أما الآخرون فلم يبد عليهم أنهم تأثروا بها جميعًا لدرجة واحدة، فقد خفي مغزاها على بعضهم، وكان البعض الآخر لا يزال حائرًا في فك طلاسمها، وقال «مستر نيتلي» جادًا:

«هذا يبين لنا نوع الذكاء المطلوب، ولقد أحسن «مستر وستن» كثيرًا إلى نفسه، ولكنه ولا شك قد أطاح بالآخرين فما كان يجب أن يأتي هذا الكمال هكذا سريعًا».

وقالت «مسز ألتن»: «وأنا عن نفسي أعترض، وأرجو أن أعفى من ذلك، فأنا لا يمكنني أن أحاول، فأنا لست مغرمة بشيء من هذا النوع إطلاقًا. لقد وصلتني مرة قصيدة صغيرة بأسمي، وكانت من تلك القصائد التي تدل أول حروف أبياتها وأواخرها على كلمات معينة، فلم أرتح إليها أبدًا، وعرفت مرسلها، وهو شاب سخيف كالجرو!! (وأومأت إلى زوجها برأسها ثم قالت):

«أتعرف من هو الذي أعنيه؟» إن مثل هذه الأشياء تصلح جدًا في حفلات الكريسماس «عيد الميلاد»، عندما يجلس المرء حول المدفأة، ولكنها ليست مستساغة كما أرى عندما يكون الإنسان في رحلة في الريف أيام الصيف، فلتعفني «مس وودهاوس» فلست أنا ممن يقولون الأشياء الذكية عند الطلب، ولست أدعي لنفسي بأني أجيد فن الأحجية، وأنا أجد الكثير من المرح بطريقتي الخاصة، ولكن لابد أن يسلم بي بأن من حقي أن أقرر متى أتكلم، ومتى أمتنع عن الكلام، فأرجو أن تتخطانا إن سمحت يا «مستر تشرشل» تخطاني أنا و «مستر ألتن» ثم «نيتلي» و «جين»، فليس لدي أي واحد منا شيء يقوله فيه براعة».

وأضاف زوجها في سخرية: «أجل، أجل، أرجو أن تتخطاني فليس عندي شيء أقوله يكون من ورائه تسلية «لمس وودهاوس» أو لأية فتاة أخرى، وأنا رجل عجوز ومتزوج ولا أصلح لشيء. هلا قمنا لنتمشى يا «أوجستا»؟»؟

«بكل سرور، والحق أني سئمت إطالة التجول في بقعة واحدة هيا يا «جين»، وأمسكي بذراعي الآخر!».

ورفضت «جين»، فمشى الزوج وزوجته، وقال مستر «فرانك تشرشل» في مكان عام، «وأظن أنهما تعرفا ببعضهما بعد ذلك لأسابيع قليلة في «باث»، ما أعجب- حظهما وأن يوافق شن طبقة!. فلا، «باث»، ولا أي مكان عام آخر يمكن أن يؤدي إلى معرفة حقيقية بطباع الشخص وميوله. وأنما تكون هذه المعرفة برؤية النساء في بيوتهن، وبين أترابهن، وفي ظروفهن العادية كما هن دائمًا، في غير أصطناع أو تكلف. أما ما عدا ذلك، فهو رجم بالغيب ومسألة متروكة للحظ، وهو يؤدي إلى الفشل بوجه عام، وكم من رجل استسلم بعد تعارف قصير، ثم ندم بقية العمر!».

وتكلمت «مس فيرفاكس» الآن،- و ندر ما تكلمت من قبل إلا أن يكون مع بطانتها الخاصة، فقالت:

«لا ريب أن مثل هذه الأشياء تحدث» - ثم منعها سعال عن مواصلة الكلام. والتفت «فرانك تشرشل» نحوها ليستمع وقال:
«إنك كنت تتكلمين» - وعاودتها القدرة على الكلام فقالت:
«ما كنت أريد إلا أن ألفت النظر إلى أنه على الرغم من أن ظروفًا سيئة كهذه قد تصادف بعض الرجال والنساء أحيانًا فإني لا أظن أنها كثيرة الوقوع، وقد تنعقد أواصر المحبة بسرعة ودون تبصر، ولكن غالبًا ما تكون هناك فرصة للخلاص في الوقت المناسب. وأود أن أفهم على أني أقصد أن الشخصيات الضعيفة خائرة العزيمة (تلك التي تكون سعادتها دائمًا تحت رحمة الصدفة) هي وحدها التي تسمح لتعارف جانبه الحظ أن يظل مصدرًا للمتاعب، وأن يبقى كابوسًا جاثمًا على صدورهم إلى الأبد».
ولم يحر «فرانك» جوابًا، واكتفى بالنظر، ثم انحنى صاغرًا، وقال بعد ذلك مباشرة، وصوته ينم عن الارتياح.
«أجل، إني قليل الثقة بحكمي على الأشياء، حتى أنني أرجو عندما أتزوج، أن يختار لي شخص آخر زوجتي، فهل تقومين أنت بهذا؟
(والتفت إلى «إمَّا») هل تختارين زوجة لي؟ أنا واثق بأنني سأحب
أية واحدة يقع عليها اختيارك، وأنت كما تعلمين، موردة الزوجات للعائلة
(ونظر إلى أبيه مبتسمًا) ابحثي لي عن واحدة، وأنا لست متعجلًا، تبنيها وثقفيها».
«وأجعلها مثلي».
«بكل تأكيد إن أمكنك».
«حسنًا جدًا، وسوف أؤدي رسالتي وتكون لك زوجة ظريفة».
«يجب أن تكون مرحة، وأن تكون لها عينان عسليتان، ولا يهمني غير ذلك، وسأذهب إلى الخارج وأقضي سنتين، وعندما أعود سوف آتي إليك لأطلب زوجتي، فتذكري هذا».
وما كانت «إمَّا» لتخشى النسيان، فهو تكليف يمس أحب المشاعر إليها. ألا تكون «هاريت» هي نفس الزوجة التي وصفها؟ وإذا استثنينا العيون العسلية، فإن زيادة سنتين قد تجعل «هاريت» الزوجة التي يريدها. ومن يدري فقد تكون هي التي يعنيها. بل أن حديثه عن تثقيفها على يدي، ليشير إلى ذلك ضمنًا».
وقالت «جين» لخالتها: «والآن يا سيدتي هل نلحق بمسز «ألتن»؟
«كما ترين يا عزيزتي، وبكل جوارحي، وأنا على أتم استعداد. لقد كنت مستعدة للذهاب معها، ولكن يمكننا أن نكون معها الآن، وسندركها حالًا، ها هي هناك - لا، إنه شخص آخر؛ إنها إحدى سيدات المجموعة التي بالعربة الايرلندية، لا، إنها لا تشبهها، أجل، أني أعلن على الإشهاد -.
وانصرفا وفي أثرهما «مستر نيتلي» بعد نصف دقيقة، لم يبق إلا «مستر وستن» وابنه و«إمَّا» و«هاريت». وزاد انتعاش الفتى إلى درجة تكاد تكون غير مستحبة حتى أن «إمَّا» نفسها سئمت أخبارًا من إطرائه لها ومن مرحه، وودت

لو أنها كانت تسير في هدوء، مع أي فرد آخر من الباقين، أو أن تجلس بمفردها لا يرافقها أحد مطلقًا، تتأمل المناظر الجميلة التي تحتها وهي هادئة.

وكان لحضور الخدم للبحث عنهم، وأخبارهم بأن العربات قد أعدت فرحة في نفسها وأي فرحة - وحتى تلك الضجة التي صحبت جميع الأشياء، والاستعداد للمسير، وذلك القلق الذي كانت عليه «مسز ألتن»، لكي تكون عربتها في المقدمة، أمكن تحملها عن طيب خاطر، أملًا في انتقالهم بعرباتهم إلى بيوتهم في هدوء، وبذا ينتهي يوم كانت متعته أمرًا مشكوكًا فيه، وتمنت ألا يغرر بها أبدًا مرة أخرى، في مشروع آخر كهذا، عناصره من أفراد متباينين، لا وئام بينهم ولا انسجام.

وبينما كانت تتنظر العربة، وجدت «مستر نيتلي» بجانبها ينظر حوله كأنما يريد ألا يكون أحد قريبًا منه، ثم قال:

«لا بد لي يا «إمَّا» أن أتحدث معك مرة أخرى كما اعتدت أن أتحدث، ربما كان هذا امتيازًا لي تحتملينه أكثر مما تسمحين به، ولكن لا بد لي مع ذلك من أن أستغله، بل أنا سأستغله، فأنا لا يسعني أن أراك تخطئين ثم لا أعتب عليك. كيف لا تأخذك الشفقة بمس بيتس؟ وكيف تكونين بمثل هذه الجرأة في فكاهتك مع سيدة على هذا الخلق، وفي مثل سنها وظروفها ما كنت أظن يا «إمَّا» أن هذا يحدث».

وتذكرت «إمَّا» كل ما حدث، واحمر وجهها خجلًا، وأسفت، ولكنها حاولت أن تهون الأمر وتتناساه، وأجابت:

«ولكن كيف كنت أحجم عن قول ما قلته، فلم يكن أحد ليستطيع أن يتمالك نفسه، فضلًا عن أن كلامي لم يكن بهذا القبح الذي ذكرته، بل لعلها لم تفهمه».

«أؤكد لك أنها فهمته، وشعرت بكل ما تعنين منه، فلقد عادت فأشارت إليه بعد ذلك، وكان بودي لو سمعت كيف تحدثت عن هذا الموضوع - بأية صراحة وبأي كرم! بودي لو أنك استمعت إليها وهي تمتدح اصطبارك، وتطنب في الرعاية التي لقيتها منك ومن أبيك دائمًا، ثم لا تعرف كيف توفق بين هذا وبين أن تكون صحبتها متعبة لك بهذا القدر»!

وصاحت «إمَّا»: «عجبًا!! أنا أعلم أنه ليس هناك مخلوق يفضلها، ولكن يجب عليك أن تعلم أن الطيب والمضحك قد اجتمعا فيها معًا لسوء الحظ إلى أقصى حد».

فقال: «إني أعترف بأنهما يجتمعان في شخصها، ولكن لو أنها كانت غنية لتجاوزت كثيرًا عما يطغى أحيانًا من مضحكاتها على محاسنها. ولو أنها كانت ذات ثراء، لكنت أبحت لكل سخافة غير ضارة فيها، أن تجد لها منفذًا، وما كنت أتشاحن معك الآن لأي إسراف أو خروج عن اللياقة في سلوكك نحوها لو أنها كانت نظيرتك في المكانة. ولكن قدري يا «إمَّا» ما هنالك من بون شاسع بينكما، فهي فقيرة، وكانت في صغرها منعمة، ثم هوت إلى الحضيض، وإذا هي قدر لها أن تعمل طويلًا، فمن المحتمل جدًا أن تنحدر إلى ما هو أفظع مما

هي فيه. إن ظروفها يجب أن تنال عطفك وإشفاقك، ولا شك أن ما بدر منك كان فيه إساءة لها، أنت التي عرفتك منذ نعومة أظفارك، أنت التي رأتك تشبين في وقت كانت فيه اللفتة منها تشريفًا، ثم هي تجدك الآن، وأنت في نشوة جامحة. وفي كبرياء الساعة، تضحكين منها، وتحطين من قدرها، وتفعلين ذلك أمام ابنة أختها، وأمام غيرها، ومنهم الكثيرون (ومن المؤكد أن بعضهم) يسيرون على منوالك في معاملتها. أن هذا لا يسر يا «إمَّا»، وهو كذلك بعيد جدًا عن أن يسرني، غير أن من واجبي أن أقول لك الحقائق ما دمت قادرًا، بل أنا مصمم على أن أقولها، وأنا قانع بأني إنما أبرهن لك بأسداء نصيحتي المخلصة على حسن صداقتي، كما أني واثق بأنك سوف تكونين يومًا ما أكثر إنصافًا لي منك الآن».

وبينما كانا يتحدثان، كانا يقتربان من العربة، فكانت قد أعدت وهيئت للركوب، وقبل أن تتمكن من الكلام ثانية، أخذ بيدها وأركبها العربة. لقد أساء في تلك اللحظة فهم حقيقة مشاعرها التي جعلتها تشيح بوجهها عنه، وجعلت لسانها ينعقد عن الكلام. فلقد كانت مشاعرها مقرونة بالسخط على نفسها، وبالألم والقلق الشديدين، فلم تقو على الكلام. وعندما دخلت العربة، اضطجعت إلى الوراء، ولبثت لحظة وهي منهارة، ثم أخذت تؤنب نفسها لأنها لم تودعه، ولأنها لم تعترف له بغلطتها أو تذكر له حسن صنيعه بكلمة طيبة.

وانصرفت والكآبة بادية على وجهها، ثم أطلت من العربة ونادته، ولوحت له بيدها، كي تبدو على عكس ما كانت عليه، ولكن الفرصة كانت قد أفلتت، إذ كان قد استدار وابتعد عنها. وجرت الخيل في السير بها بسرعة خالتها فوق عادتها. واستمرت تنظر خلفها على غير جدوى.

ووصلت العربة بهما بسرعة لم تعهدها، إلى منتصف المنحدر، وبعدت «إمَّا»، بذلك عن كل ما وراءها. وبلغ بها الغيظ مبلغًا يصعب الإفصاح. عنه ولم تستطع إخفاء غيظها، ولم تشعر في حياتها بمثل ما كانت تشعر به من اضطراب وهموم وألم في أية مناسبة أخرى. لقد كان وقع الصدمة عليها عنيفًا للغاية، وكان قوله حقًا لا سبيل إلى نكرانه، وأحست بكل ذلك في قرارة نفسها. ويحها، كيف عاملت مس «بيتس» بهذه الوحشية وبتلك القسوة!! كيف عرضت نفسها لتكوين فكرة سيئة عند شخص تجله وتقدره!! ثم كيف تؤلمه وقت انصرافه ولا تنبس بكلمة تعبر عن شكرها له وموافقتها على ما قاله، وتشاركه حنانه أو عطفه على «مس بيتس».

ولم يفلح الوقت في التهدئة من روعها، وكانت كلما فكرت بدت أكثر تأثرًا، وأحسست بضيق لم تشعر به من قبل، ولم يكن هناك لحسن الحظ ما يضطرها إلى الكلام، فلم يكن معها في العربة إلا «هاريت» وكانت هي الأخرى تبدو مهمومة مجهدة، عازفة عن الكلام. وأحست «إمَّا» بالدموع تنحدر فوق وجنتيها، على طول الطريق وهي متجهة إلى بيتها، ولم تكلف نفسها عناء كفكفتها وهي تسيل بغزارة.

ظلت «إمَّا» طيلة المساء تفكر فيما أحاط برحلة «بكس هل» من تعاسة، لا تدري ما يكون رأى سائر الجماعة في تلك الرحلة. فقد يكونون وهم في بيوتهم المتباينة، وبما يختلفون فيه من نظرة إلى الأشياء، ينظرون إليها على أنها كانت رحلة ممتعة. أما هي فقد رأت أن الصباح الذي أمضوه فيها قد أسيء استخدامه، وأنه كان خلوًا من أية متعة نفسية أو عقلية وهم هناك، فلما عادوا، كانت ذكراه أشد سوءًا من أي يوم آخر من أيام حياتها. وإن أمسية كاملة تقضيها في لعب النرد مع أبيها، كانت تكون السعادة مجسمة إذا قورنت بذلك الصباح، السعادة الحقة، لأنها في تلك الحالة كانت تضحي بأحلى ساعات اليوم من أجل راحته، ولأنها وهي تشعر بهذه السعادة، وتشعر بأنها لا تستحقها بجانب ما يضيفه عليها أبوها من تقدير وثقة وحب، لا تتعرض للوم أو تأنيب. لقد كانت تأمل، باعتبارها ابنته، ألا تكون مجردة من الحنان، وأن أحدًا لن يستطيع أن يقول عنها: «كيف تجردت من الشعور نحو أبيك؟» أو أن يقول: «إن من واجبي أن أتحدث إليك بصراحة، بل أني متحدث إليك بصراحة ما دمت أستطيع ذلك»، ولن يتكرر ما حدث مع «مس بيتس»، لا، أبدًا!! ولو كانت الرعاية والحب في المستقبل تمحو ما سلف، فقد يكون هناك أمل في العفو. إن ضميرها يحدثها بأنها كثيرًا ما كانت تهملها إهمالًا لعله كان في الفكرأكثر منه إهمالًا في الواقع. إنها تشعر في قرارة نفسها بأنها كانت فظة معها، مزدرية لها. ولكن شيئًا من هذا لن يحدث بعد الآن. إنها لا بد أن تذهب لزيارتها في صباح الباكر، ندمًا منها على ما فرط منها، وأن تجعل هذه الزيارة من جانبها فاتحة لصلة ودية منتظمة تقوم على قدم من المساواة بينها وبينها.

وكانت «إمَّا» على عهدها فيما اعتزمته عندما أصبح الصباح، فبكرت بالذهاب إلى «مس بيتس» قبل أن يعوقها شيء، وخطر لها أن من المحتمل أن ترى «مستر نيتلي» في طريقها، أو أنه قد يأتي وهي هناك. وما كان لها اعتراض على هذا، بل ما كانت لتخجل من أن تبدو نادمة ما دام ندمها صحيحًا وتوبتها نصوحة، واتجهت بأنظارها وهي تسير إلى «دونول» ولكنها لم تره.

فلما كانت في بيت «مس بيتس»، علمت أن السيدات جميعًا في البيت، ولم تبتهج نفسها لسماع مثل هذا الخبر في يوم من الأيام، ولا سارت عبر الطرقة أو ارتقت السلم في بيت هذه السيدة بمثل ما كانت تشعر به الآن من رغبة

صادقة في إدخال السرور على قلوبهن. فلم تكن زياراتها من قبل إلا قيامًا بواجب، أو تنازلًا واستعلاء.
وحدث عند اقترابها، هرج ومرج ولغط، وسمعت صوت «مس بيتس»، كما لو كان هناك ما يردن سرعة انجازه، وبدا الخوف على الخادمة وارتبكت وقالت لها لو تفضلت لانتظرت لحظة واحدة، ثم أدخلتها بعد ذلك سريعًا، وبدا «لإمَّا» أن الفتاة وخالتها قد هربتا معا إلى الحجرة المجاورة، بل لقد رأت «جين» بالفعل، فبدت لها مريضة جدًا، وقبل أن يحجبهما الباب عنها، سمعت «مس بيتس» تقول: «أجل يا عزيزتي، وسأقول إنك طريحة الفراش، وأنا واثقة بأن فيك من المرض ما يكفي».
وكان يبدو على مس«بيتس»، تلك السيدة التي لم تتخل عن كرمها وتواضعها يومًا، أنها لا تدري تماما ما كان يجري.
قالت: «أخشى ألا تكون «جين» موفورة الصحة، ولكني لا أعلم، إنهم يقولون أنها في صحة جيدة، وأظن أن أبنتي ستكون هنا حالًا يا «مس وودهاوس»، وأرجو أن تكوني قد عثرت على كرسي تجلسين عليه، وكان بودي ألا تكون «باتي» قد خرجت، فأني قليلة الجهد، هل وجدت يا سيدتي كرسيًا؟ وهلا جلست حيث تشائين؟ إني متأكدة بأنها ستكون هنا حالًا».
وترقبت «إمَّا» مجيئها في شغف، وخشيت لحظة أن تكون «مس بيتس» قد توارت عنها عمدًا، ولكن «مس بيتس» «سرعان ما أتت وهي تقول: «إني لسعيدة جدًا وشاكرة».
ولكن «إمَّا» شعرت بأنها لم تكن ثرثارة أو مبتهجة كعادتها، وأنها كانت أقل هدوءًا في مظهرها وحركتها. ولاح «لإمَّا» أنها لو سألتها عن صحة «فيرفاكس» فقد تفسح الطريق أمام عواطفها القديمة لكي تعود كما كانت، وظهر أثر السؤال في الحال.
«ما أكرمك يا «مس وودهاوس»!! أظنك سمعت بالخبر وحضرت لتسعدينا بالتهنئة، ولا شك أن هذا مما أفرح له (ومسحت دمعة أو دمعتين من عينيها)، ولكننا سنشعر بالألم لبعدها عنا، بعد أن لبثت معنا طويلًا، وهي الآن تشكو صداعًا عنيفًا، ولقد أمضت الصباح كله في الكتابة، فما أطول الخطابات التي تكتبها إلى المقدم «كامبيل» «ومسز دكسون»، وقد قلت لها:
«يا عزيزتي إنك ستفقدين بصرك، فأن الدموع لا تفارق عينيها، ولا عجب في ذلك، لا عجب في ذلك. إنه تغيير عظيم بالنسبة لها، ولكنها محظوظة إلى درجة مدهشة، وأظن أن وظيفة جميلة كهذه، لم تحظ بها فتاة من قبل لأول مرة تخرج فيها للعمل - ولا تظنين أننا غير حامدين لمثل هذا الحظ المدهش (وعادت تنثر الدموع عن عينيها) - ما أباس المخلوقة العزيزة! لو أنك رأيت ما تشكوه من الصداع - والإنسان كما تعلمين إذا كان يشكو ألمًا ممضًا، فأنه لا يقدر النعمة ولا يغتبط لها بمثل ما تستحقه لقد أثقلتها الهموم إلى أقصى حد، وما من أحد يستطيع أن يتبين إذا نظر إليها ما تحس به من غبطة وسعادة

لنيلها مثل هذه الوظيفة، اغتفري لها عدم مجيئها لمقابلتك، لأنها معتلة، وقد دخلت حجرتها، لأني أريد منها أن ترقد في الفراش، وقلت لها: «إني سأقول يا عزيزتي بأنك طريحة الفراش ولكنها مع ذلك ليست بالفراش، إنها تتمشى في الحجرة، على أنها وقد فرغت من كتابة الخطابات تقول أن صحتها ستتحسن حالًا. إنها ستأسف أشد الأسف يا «مس وودهاوس» لحرمانها من رؤيتك، ولكن عطفك كفيل بالصفح عنها، لقد وقفت بالباب تنتظرين، وأخجلني ذلك جدًا. لقد كان هناك شيء من الهرج، فلم نسمع طرقك على الباب، ولم نعلم بقدوم أحد حتى سمعنا وقع أقدامك على السلم فقلت: «لا بد أن تكون «مسز كول» ثقوا إنه لا أحد غيرها يأتي مبكرًا هكذا، فقالت:

«أجل، وعلينا أن نتحملها في أي وقت جاءت، ومن الخير أن يكون ذلك الآن». ولكن «باتي» دخلت بعد ذلك وقالت إنك أنت القادمة، فقلت: «عجبًا! إنها «مس وودهاوس»، وأنا متأكدة بأنك تودين رؤيتها». فقالت: «لا يمكنني رؤية أحد» ثم همت واقفة وخرجت من الحجرة، وهذا ما دفعنا إلى أن نجعلك تنتظرين. ونحن في غاية الأسف ومنتهى الخجل لذلك، وقد قلت لها: «إذا كان لا بد من ذهابك يا عزيزتي، فاذهبي، وسوف أقول لها إنك طريحة الفراش».

واهتمت «إمَّا» بذلك غاية الاهتمام، لأن حنانها نحو «جين» كان قد أخذ يزداد منذ بعض الوقت، وقد محت الصورة التي وصفت بها «مس بيتس» آلامها الآن، كل ما سبق من سوء الظن بها، ولم تترك وراءها غير الاشفاق والعطف. ورأت «إمَّا» وهي تستعيد مسلكها إزاءها، ذلك المسلك الذي كانت تعوزه الرقة والعدالة، إن من الطبيعي أن تصمم «جين» على رؤية «مسز كول» أو أية صديقة أخرى غير متقلبة، بينما لا تقوى على تحمل رؤيتها في ظرفها الحالي، وتحدثت «إمَّا» فترجمت كل مشاعرها في أسلوب يتسم بالأسف والاستعطاف، وعبرت عن أملها الخالص بأن يكون ما تجمع لديها من حديث «مس بيتس» عن خطة المستقبل، من مصلحة «مس فيرفاكس» وسعادتها ما أمكن، واستطردت تقول:

«لا بد أنها تجربة قاسية لهن جميعًا، بعد أن كانت تعلم أن مشروعها سيؤجل إلى أن يعود المقدم «كامبيل»».

وأجابتها «مس بيتس»: «ما أكثر عطفك، ولكنك دائمًا عطوفة».

ولم تحتمل «إمَّا» كلمة دائمًا، وأرادت أن توفر عليها عبارات العرفان بالجميل، فعمدت إلى سؤال مباشر وضعته لمس «بيتس»: «هل لي أن أسأل إلى أين تذهب «مس فيرفاكس»؟.

«إلى سيدة تدعى مسز «سمول ردج»، وهي سيدة لطيفة وممتازة للغاية، ليوكل إليها الاشراف على بناتها الثلاث الصغيرات، وهن بنات ظريفات. ومن المستحيل أن توجد أية وظيفة أخرى تكون الراحة فيها أكثر وفرة، إذا ما استثنينا أسرة «مسز سكلنج» نفسها، وأسرة مسز «براج»، ولكن مسز «سمول ردج» صديقة للأسرتين، وفى نفس الجيرة، إذ تقيم على بعد أربعة

أميال من «مابل جروف»، وهكذا ستكون «جين» على بعد أربعة أميال لا أكثر من «مابل جروف».

«أظن أن «مسز ألتن» هي التي تدين لها «مس فيرفاكس»».

«أجل، إنها «مسز ألتن» طيبة القلب، وهي الصديقة المخلصة التي لا تتأخر عن أداء أية خدمة، إنها لم تقبل منها رفضًا، ولم تدع «جين» تقول «لا». فإن «جين» عندما سمعت بذلك لأول مرة (وكان ذلك أول أمس، وفي نفس الصباح الذي كنا فيه في دونول) قررت أن ترفض العرض، لنفس الأسباب التي تذكرينها. وكما تقولين تمامًا، إنها كانت قررت ألا توافق على شيء حتى يعود المقدم «كامبيل» و لم يكن هناك من شيء يحملها على الارتباط بأي شيء في هذه الآونة - وأخبرت «مستر ألتن» بذلك مرارًا وتكرارًا، وأنا واثقة أنه لم يكن يخطر ببالي أنها يمكن أن تغير رأيها - ولكن «مستر ألتن»، تلك السيدة الطيبة التي لا تبدي من الرأي إلا ما كان دائمًا حصيفًا، كانت أبعد مني نظرًا، ولم يكن أحد من الناس يستطيع أن يقاوم «جين» برقة كما فعلت، أو يمتنع عن قبول رفضها بمثل هذا العطف، لقد قالت أمس صراحة، إنها لن تكتب بأي رفض كما كانت «جين» تريد، ورأت أن تنتظر. وأمس مساء على وجه التحديد، استقر الرأي على ذهاب «جين»، وقد أدهشني ذلك تمامًا، فلم تكن عندي أية فكرة، إذ انتحت «جين» «بمسز ألتن» جانبًا، وأخبرتها أنها بعد أن فكرت في مزايا الوظيفة التي وجدتها لها «مسز سكلنج»، استقر رأيها على قبولها، وما كنت أعلم شيئًا عن ذلك حتى بُت في الأمر نهائيًا».

«وهل قضيتم المساء مع «مسز ألتن؟»».

«أجل، جميعنا، فقد طلبت «مسز ألتن» منا أن نذهب إلى بيتها، واتفقنا على ذلك ونحن فوق الربوة حين كنا نتجول مع «مستر نيتلي»، إذ قالت:

«لا بد وأن تقضوا المساء عندنا جميعكم، وأنا أصر على حضوركم جميعًا».

«وهل كان «مستر نيتلي» معكم كذلك؟»».

«لا، لم يكن معنا، فقد اعتذر من أول الأمر، ومع أني كنت أظن أنه سيأتي، لأن «مسز ألتن» قالت إنها لن تتركه، فإنه لم يحضر ولكن والدتي و «جين» وأنا، لنا جميعًا هناك، وقد أمضينا أمسية جميلة عندها. أن المرء يا «مس وودهاوس» لا بد وأن يجد دائمًا عند أمثال هؤلاء الأصدقاء العطوفين ما يسره، على الرغم من أن كل واحد منهم كان يبدو متعبًا، بعد رحلة الصباح، حتى المتعة كانت متعبة - ولست أدعي أن أحدًا منهم استمتع بهذه الرحلة كثيرًا، ومع ذلك فأني سأظل دائمًا أرى أنها كانت جماعة لطيفة جدًا، وسأشعر دائمًا بأني مدينة بجزيل الشكر للأصدقاء الكرماء الذين أدمجوني معهم».

«ظني أن «مس فيرفاكس» كانت تفكر طول النهار لتصل إلى رأي دون أن تفطني إلى ذلك».

«أظن هذا».

«لا بد أنها لن ترحب بهذا اليوم الموعود إذا حان، لا، هي ولا أصدقاؤها جميعًا. ولكني آمل أنها ستجد في عملها ما يهون عليها، وأعني بهذا، حالة الأسرة من حيث كيانها ومعيشتها».
«شكرًا عزيزتي «مس وودهاوس»، نعم أن هناك ولا شك كل ما تجد فيه هناءها. وفيما عدا أسرتي «سكلنج» أو «براج»، لا يوجد من بين معارف «مسز ألتن» حضانة أخرى للأطفال لها مثل هذه البحبوحة من العيش، وتلك العظمة. إن مستر «سمول ردج» سيدة غاية في الظرف، وهي على مستوى من المعيشة يكاد يعادل مستوى «مابل جروف»، أما عن الأطفال، فإننا إذا استثنينا أطفال «سكلنج» وأطفال «براج»، فليس هناك من هم ألطف منهم في أي مكان آخر، وسوف تعامل «جين» بينهم بكل رعاية وحنان، ولن تكون حياتها إلا سرورًا في سرور. ثم ما أعظم مرتبها!! الحق أني لا أجرؤ على ذكر مرتبها لك يا «مس وودهاوس»، وحتى أنت يا من اعتدت سماع المبالغ الضخمة، سيصعب عليك أن تصدقي أن مرتبًا كبيرًا كهذا، يمكن أن يعطى لفتاة مثل «جين».
وصاحت «إمَّا» قائلة: «آه يا سيدتي!! لو أن أطفالًا آخرين كانوا مثل ما كنت أنا، وكما أتذكر عن نفسي، فأنى أظن أن خمسة أضعاف ما سمعت عنه من مرتبات حتى الآن لن يعتبر إلا كسبًا حلالًا».
«كم أنت نبيلة في أفكارك!».
«ومتى تترككم مس فيرفاكس؟».
«قريبًا جدًا، في القريب العاجل قطعًا، وهذا هو أسوأ ما في الأمر، سوف بكون ذلك في غضون أسبوعين، إذ أن مسز «سمول ردج»، تتعجل حضورها، ووالدتي المسكينة لا تدري كيف تصبر على فراقها، ولذا فاني من وقتها وأنا أحاول إبعاد الموضوع عن تفكيرها، وأقول لها: «هلم يا سيدتي لا تجعلينا نفكر في هذا بعد الآن».
«لا بد وأن أصدقاءها جميعًا سيحزنون لفراقها. ثم ألا يستاء المقدم «كامبيل» وزوجته عندما يجدان أنها التحقت بعمل قبل رجوعهما؟»
«أجل إن «جين» تقول إنها متأكدة من ذلك، ولكنها تشعر رغم هذا أن وظيفة كهذه لا يجوز لها أن ترفضها. ولقد دهشت كثيرًا عندما قالت لي في بادئ الأمر ما كانت تقوله وتردده لمسز «ألتن»، ثم جاءت «مسز ألتن» في اللحظة نفسها لتهنئني على ذلك! كان ذلك قبل موعد تناول الشاي، ولكن لا، انتظري عليّ، لا يمكن أن يكون ذلك قبل موعد تناول الشاي، لأني أذكر - آه، ها قد تذكرت الآن، لقد حدث شيء ما قبل أن تتناول الشاي، ولكنه لم يكن ذلك. لقد نودي وقتها على «مستر ألتن»، وخرج من الحجرة قبل تناول الشاي - إذ كان ابن «جون أبدي» العجوز يريد أن يتحدث معه. إن «جون»، العجوز رجل مسكين، وأنا أجله كثيرًا، فقد اشتغل كاتبًا لأبي سبعًا وعشرين سنة كاملة، وهذا الرجل العجوز المسِكين طريح الفراش الآن، وهو مصِاب بمرضه

النقرس، الذي يسبب له ألمًا شديدًا في مفاصله، ولا بد أن أذهب لزيارته اليوم، وأنا متأكدة أن «جين» ستذهب لزيارته كذلك إذ غادرت البيت إطلاقًا.

لقد جاء ابن «جون» المسكين ليتكلم مع «مستر ألتن» عن معونة من الأبرشية. وابنه كما تعلمين ميسور، لأنه رئيس الخدم في «نزل التاج» فضلًا عن أنه يسوس الخيل، وما إلى ذلك، ولكنه مع ذلك لا يستطع أن يعول أباه دون معونة من الخارج. فلما عاد «مستر ألتن»، قص علينا ما قاله له السايس «جون»، ثم تبين بعد ذلك أن العربة الصغيرة كانت قد ذهبت إلى «راندولز» لتنقل مستر «فرانك تشرشل» إلى «ريشمند». هذا ما حدث قبل تناول الشاي، ولذا فلا بد أن كلام «جين» مع «مسز ألتن» كان بعد تناول الشاي».

ولم تترك «مس بيتس» ثمة وقتًا لكي تقول لها «إمَّا» إن هذه أخبار جديدة عليها بالكلية، وإنه لا علم لها بها من قبل، بل استطردت، وهي لا تفترض أن من الجائز ألا تكون «إمَّا» ملمة بتفاصيل رحلة «فرانك تشرشل»، تسرد هذه التفاصيل في إسهاب. ومن ثم فان إتاحة الفرصة «لإمَّا» لتقول ما كانت تريد أن تقوله، لم تعد ذات موضوع.

إن ما سمعه «مستر ألتن» من السايس عن هذا الموضوع، وكله من المعلومات التي جمعها السايس بنفسه، ومما يعلمه الخدم في «راندولز» يتلخص في أن رسولًا كان قد أتى من «ريشمند» عقب عودة الجماعة من «بوكس هل» مباشرة، وكان وصول هذا الرسول أمرًا مرتقبًا، وأن «مستر تشرشل» بعث منه برسالة قصيرة إلى ابن أخته، وصف فيها بوجه عام حالة «مسز تشرشل»، وطلب منه ألا يؤخر عودته إلى أكثر من باكورة اليوم التالي، وأن «مستر فرانك تشرشل» قرر العودة فورًا دون تأخير. ولكن لما كان يبدو على حصانه أنه مصاب بالبرد، فقد أرسل «توم» في الحال ليأتي بعربة «نزل التاج» الصغيرة. وقد رآها السايس بنفسه وهي تمر بجانبه، وشاهد الحوذي وهو يدفع الخيل إلى الجري بأقصى سرعة.

ولم يكن في كل هذا ما يثير الدهشة أو الاهتمام، ولم يجذب انتباه «إمَّا» في شيء إلا لأنه كان مرتبطًا بموضوع كان يشغل بالها في ذلك الوقت فلقد لفت نظرها التناقض بين أهمية «مسز تشرشل»، وأهمية «جين فيرفاكس» في الحياة، إحداهما كل شيء، بينما الأخرى لا شيء - ثم جلست تفكر في الفارق بين مصير النساء عامة، وانشغلت بتفكيرها
ذلك عن كل ما حولها، إلى أن تنبهت إلى «مس بيتس» وهي تقول:

«أجل، إني أرى ما تفكرين فيه، إنك تفكرين في البيانو، وماذا يكون مصيره؟ وأنت على حق في ذلك. لقد كانت المسكينة «جين» تتحدث عن البيانو الآن، وقالت تخاطبه: «يجب أن تذهب! يجب أن نفترق عن بعضنا، ولن يكون لك عمل هنا بعد الآن - ومع هذا فليبق حيث هو، وليخصص له مكان بالمنزل إلى أن يعود «المقدم كامبيل»، وسوف أتكلم معه بشأنه، وسوف يجد له حلًا

ويساعدني على التخلص من متاعبي» - إني أعتقد أنها لا تعرف حتى يومنا هذا إن كان البيانو هدية منه أو من ابنته».

واضطرت «إمَّا» الآن إلى التفكير في البيانو، وضايقها بعض الشيء أن تتذكر ظنونها السابقة التي أوحى لها بها خيالها الظالم، فكان إثمًا وعدوانًا. وبلغ من ضيقها بنفسها أنها أخذت تعتقد أن زيارتها قد استغرقت من الوقت ما فيه الكفاية، فاستأذنت في الانصراف وهي تكرر من عبارات التمنيات الطيبة الصادرة من القلب ما وسعها.

الفصل الخامس والأربعون

لم تصادف «إمَّا» وهي طريقها إلى بيتها ما يقطع عليها خيط أحلامها وتأملاتها، ولكنها عندما دخلت حجرة الاستقبال وجدت فيها من كان لا بد أن يوقظها من هذه الأحلام، فلقد جاء «مستر نيتلي» ومس «هاريت» في أثناء غيابها عن البيت، وكانا يجلسان مع أبيها. فلما دخلت عليهم توقف «مستر نيتلي» على الفور وقال بطريقة أكثر جدًا مما اعتاد:

«لم أسمح لنفسي بأن أخرج دون أن أراك، ولكن ليس لدي مع ذلك من الوقت ما يسمح لي بالبقاء الآن، ولهذا وجب أن أخرج على الفور. إنني ذاهب الآن إلى لندن لتمضية بضعة أيام مع «جون» و «إيزابلا»، فهل لديك ما تحبين أن تبعثي به، أو ما تقولينه غير الحب، وهي بضاعة لا يحملها أحد؟».

«لا شيء أبدًا، ولكن أليست هذه مفاجأة؟».

«نعم، إنها لكذلك، ولكني كنت أفكر في ذلك منذ أيام».

وتأكدت «إمَّا» أنه لم يصفح عنها بعد، فقد بدا على غير طبيعته، ولكن الوقت مع ذلك كان كفيلًا بأن يظهر له أن من الواجب أن يعودا صديقين كما كانا. فلما وقف يتأهب للذهاب، دون أن يذهب، أخذ والدها يمطرها بوابل من أسئلته:

«حسنًا يا عزيزتي، هل وصلت إلى هناك في أمان؟ وكيف كان حال صديقتي القديمة وابنتها؟ أظن أنهما اثنتا لذهابك إليهما. لقد ذهبت عزيزتي «إمَّا» يا «مستر نيتلي» لزيارة «مسز بيتس» و «مس بيتس» كما قلت لك قبلًا، وهي تهتم بهما دائمًا».

واحمر وجه «إمَّا» لهذا المديح الذي لا يتفق مع الحقيقة ونظرت إلى مستر «نيتلي» بابتسامة تصحبها إيماءة بالرأس كان فيها كل ما أرادته من معنى، وظهر وقع ذلك في تحول الموقف إلى صالحها على الفور، فبدأ وكأنما رأى بعينيه الحقيقة تشع من عينيها، وأحس بكل ما كان في مشاعرها من نبل في تلك اللحظة، وأكبر ذلك منها، ثم نظر إليها نظرة تألق منها كل ما كان يجول بنفسه من تقدير لها، وطابت نفسها لذلك. ثم صدرت منه حركة بسيطة غمرتها بالسعادة، حركة لا تصدر إلا من شعور يزيد على مجرد الصداقة العادية. فلقد أمسك بيدها. أتكون هي التي تقدمت بالخطوة الأولى؟ إنها لا تدري، فلعلها هي التي قدمت له يدها. لقد أمسك الآن بيدها وضغط عليها، ومن المؤكد أنه كان على وشك أن يرفعها إلى شفتيه ثم إذا به لسبب ما يتركها فجأة. ولم تدر لماذا أحس بمثل هذا التردد، ولماذا رأى أن يغير فكره

بعد أن كاد يلثم يدها - ولو أنه لم يتوقف عما كان يزمع أن يفعله، لكان ذلك منه أصدق حكمًا. ومع ذلك فلم يكن هناك أقل شك فيما كان ينوى أن يفعله. وسواء أكان تردده مرده قلة جرأته أو أي سبب آخر، فقد بدا لها ساعتها في أجمل مظهر وأكمله، بدا في كل بساطته ونبله، وعبر عن وده وصداقته خير تعبير.

لقد تركهم بعد ذلك مباشرة واختفى عن أنظارهم في لحظة. لقد كان من عادته دائمًا إذا خرج أن يسير بنشاط من لا هو بالمتعجل ولا هو بالمتراخي، ولكن خروجه الآن كان على غير عادته أقرب أن يكون بغتة.

ولم تأسف «إمَّا» على ذهابها إلى «مس بيتس»، ولكنها ودت لو أنها كانت بكرت بالخروج من عندها عشر دقائق. فلقد كان يسعدها أن تستمتع بالحديث مع «مستر نيتلي» عن وظيفة «جين فيرفاكس»، ولم تأسف كذلك على ذهابه إلى «ميدان برنزويك» بلندن، فقد كانت تعلم مقدار ما تنطوي عليه زيارته من سعادة، ولكنها كانت تفضل أن تكون هذه الزيارة في وقت آخر، وأن تخطر بها قبلها بمدة أطول.

لقد افترقا مع ذلك وهما صديقان حميمان، فلم يخف عليها ما كانت تدل عليه نظراته، ولا جرأته التي لم يتمها. لقد فعل كل هذا ليؤكد له أنها قد استعادت حسن ظنه بها، وتبين لها أنه ظل عندهم نصف ساعة، فأسفت على أنها لم تبكر بالعودة من زيارة «مس بيتس».

وعلى أمل أن تحول أفكار أبيها عما قد يضايقه من ذهاب «مستر نيتلي» إلى لندن، ورحيله إليها بغتة، وعلى متن جواد - لما تعلمه عن الأثر السيء الذي كان ذلك لا بد محدثه في نفسه - أخذت تنقل إليه أخبار «جين فيرفاكس» فتحقق لها ما كانت ترجوه من وراء ذلك، إذ أفادت تلك الأخبار كثيرًا في الحد من أفكاره الأخرى،، وأثارت اهتمامه دون تعكير لصفوه. فقد كان عقله مهيأ منذ فترة طويلة لذهاب «جين فيرفاكس» للعمل مربية للأطفال بأحد المنازل، فأخذ يتحدث عن ذلك الآن وهو مبتهج النفس. أما ذهاب «مستر نيتلي» إلى لندن فقد كان صدمة له غير متوقعة».

«لا شك أني سعيد جدًا يا عزيزتي لسماعي بأنها وفقت إلى ما فيه راحتها، إن «مسز ألتن» دمثة الأخلاق، وهي لطيفة جدًا، وأظن أن معارفها على أحسن ما يجب أن يكون عليه المعارف، وإني آمل أن يكون المكان جافًا، وإنهم سيعنون بصحتها، إذ يجب أن تكون صحتها في المقام الأول بقدر ما كانت صحة «مس تيلور» المسكينة موضوع عنايتي من غير شك، واعلمي يا عزيزتي أنها ستكون مع تلك الأسرة الجديدة، كما كانت «مس تيلور» معنا، وإن كنت أرجو أن تكون أسعد من «مس تيلور» الآن، من ناحية واحدة، ألا يغرر بها فتخرج من عندها وقت أن يصبح المنزل منزلها بعد أن تكون قد قضت مدة طويلة فيه».

ووصلت إلى «راندولز» في اليوم التالي، أخبار من «ريشمند» طغت على كل شيءِ آخر. فقد جاءت رسالة عاجلة تعلن وفاة «مسز تشرشل»!! وعلى الرغم

من أن ابن أخت زوجها لم يكن لديه سبب خاص يدفعه إلى الإسراع بالعودة من أجلها، فأنها لم تعش أكثر من ست وثلاثين ساعة بعد عودته، إذ انتابتها نوبة مفاجئة تختلف في طبيعتها عن أي شيء كانت تبرره حالتها العامة، فقضت نحبها بعد نزع لم يستغرق إلا وقتًا قصيرًا، أصبحت «مسز تشرشل» العظيمة بعده أثرًا بعد عين.

وشعر الناس بهذا الحادث شعورهم بمثله، وإن تفاوتوا في درجات الحزن والأسى. وترحموا على الراحلة، وقلقوا على الأصدقاء من الأحياء، ثم أخذوا يتساءلون في الوقت المناسب عن مكان الدفن. لقد قال لنا «جولد سمث»:

«إن المرأة الجميلة إذا انحدرت إلى حمأة الحماقة، فليس لها بعد ذلك إلا أن تموت، وإن هي انحدرت حتى أصبحت بغيضة، فأحرى بها كذلك أن تموت لتتخلص من سوء سمعتها» وكذلك «مسز تشرشل» بعد أن لبثت مكروهة خمسًا وعشرين سنة على الأقل، أخذ

الناس يترحمون عليها، ويتحدثون عنها الآن بإشفاق. فلقد كانت من ناحية واحدة على الأقل على حق. إنهم لم يعترفوا قبلًا بخطورة مرضها، فأبرأها الموت من مظنة الناس بأنها كانت واهمة، وأن أمراضها كانت كلها من نسج الخيال. وهكذا كنت تسمع الناس يقولون:

«مسكينة «مسز تشرشل»!!، لا شك أنها كانت تقاسي كثيرًا، وأكثر مما كان الظن- أن الآلام المستمرة تجهد الأعصاب، وتضجر المشاعر - كان حادثًا محزنًا بقدر ما كان صدمة كبيرة، على الرغم مما كان فيها من عيوب - وماذا سيفعل «مستر تشرشل» بدونها لا شك أن موتها خسارة فادحة لمستر تشرشل، وهو لن يقوى على التغلب عليها».

وحتى «مستر وستن» هز رأسه وبدا عليه الحزن وقال:

«آه! مسكينة تلك السيدة، من ذا الذي كان يظنه هذا!! وعاهد نفسه على أن يجعل حزنه أكرم ما يكون، كما جلست زوجته تتنهد، وتعدد محاسن طيات ردائها العريضة، وتبدي من عبارات المواساة ومظاهر الترحم أصدقها.

وكان من أول ما خطر على بالهما، هو وقع هذا الحادث على «فرانك تشرشل»، وهو نفس ما فكرت فيه «إمَّا» كذلك. فقد اتجهت أفكارها، وهي جزعة مشفقة، أولًا إلى موت «مسز تشرشل»، وحزن زوجها عليها، ثم ركزت تفكيرها فيما عساه أي يكون أثر هذا الحادث على «فرانك» وفيما قد يعود عليه منه بالنفع، وكيف أنه سصبح بعده طليقًا. ورأت في لحظة واحدة كل فائدة ممكنة في موت «مسز تشرشل»، كما رأت أن ارتباطه بمس «هاريت سمث» أصبح الآن ولا شيء يعوقه، وأن «مستر تشرشل» وقد تخلص من اعتماده على زوجته، قد أصبح لا يخشاه أحد، وأضحى وديعًا سهل القيادة، يستطيع ابن أخته أن يقنعه بأي شيء، وأن كل ما تبقى، وكل ما ترجوه له، أو أن يعقد صلات الحب التي لم تكن واثقة وغم أمانيها الطيبة، من أنها قد بدأت بالفعل. أما مسلك «هاريت» في هذه المناسبة قد كان رائعًا. فقد تمالكت

نفسها بدرجة عظيمة. ومهما كان يلوح أمامها في الأفق من آمال براقة، فأنها لم تكشف عن شيء من هذا. وابتهجت «إمَّا» وهي تلحظ هذا الدليل الذي تقيمه على ازدياد رباطة جأشها، ورأت أن تكف عن أية إلماحة بسيطة قد تعرض ضبطها لشعورها إلى الخطر. ومن ثم فقد ظل حديثهما عن موت «مسز تشرشل» محاطًا بسياج من التحفظ وضبط النفس.

ووصلت إلى «راندولز» خطابات موجزة من «فرانك» وصف فيها أحوالهم، وخططهم العاجلة الهامة، تبين منها أن «مستر تشرشل» كان أحسن حالًا مما كان يظن، وأن أول انتقال لهم بعد تشييع الجنازة إلى «يوركشير»، سيكون إلى بيت صديق قديم لهم في «وندسور»، كان «مستر تشرشل» قد ظل يعده بالزيارة خلال السنوات العشر الأخيرة. وهكذا لم يكن هناك من شيء يمكن أن تقوم به من أجل «هاريت» في الوقت الحاضر، وكل ما يمكن عمله من جانبها لا يعدو حدود تمنياتها لها بمستقبل زاهر. ومن ثم فإن ما كان يشغل بال «إمَّا» بإلحاح في هذه اللحظة، هو العناية بأمر «جين فيرفاكس» التي كانت آمالها تأفل في الوقت الذي كانت تشرق فيه آمال «هاريت»، والتي أصبح ارتباطها والعمل لا يسمح لكائن ما كان في «هايبري» بأن يتوانى عن إظهار عطفه عليها. نعم لقد أصبح العطف على «جين فيرفاكس»، هو ما يشغل بال «إمَّا».

ولم تأسف «إمَّا» على شيء الآن قدر أسفها على فتورها نحوها فيما مضى، فإذا بمن كانت تهملها الشهور الطوال، تصبح هي نفسها التي تتوق إلى أن تغمرها الآن بكل تقدير وعطف. لقد كانت تريد أن تكون ذات منفعة لها، وأن تظهر لها اعتزازها بصحبتها، وأن تثبت لها احترامها وتقديرًا لها. وعقدت عزمها على إقناعها بأن تقضي يومًا كاملًا في «هارتفيلد»، فكتبت لها رسالة، ألحت فيها عليها أن تقبل دعوتها، ولكن الدعوة رفضت وكان رفضها شفويًا بحجة: «إن صحة «مس فيرفاكس» لا تسمح بالكتابة».

وعندما زار مستر «بري» «هارتفيلد» في الصباح نفسه، ظهر من حديثه «لإمَّا» أنه كان قد ذهب ليعودها، وأن صحتها لم تكن تسمح بأن يزورها أحد، ولكنه سمح له بالدخول عندها على غير رغبتها. وقاله إنها كانت تشكو صداعًا أليمًا، وحمى عصبية، إلى درجة جعلته يشك في قدرتها على الذهاب إلى بيت مسز «سمول ردج» في الموعد المحدد. لقد كانت صحتها في تلك الفترة معتلة خائرة، ولا شهية لها للأكل على الإطلاق، وعلى الرغم من عدم وجود أعراض خطيرة لها، وليس بها ما تشكو منه في جهازها التنفسي، وهو أخوف ما كانت تخافه الأسرة، فإن مستر «بري» كان قلقًا عليها، وكان يظن بأنها حملت فوق طاقتها، وأنها تشعر بذلك ولو أنها لا تعترف به، وأنه يلاحظ أن مسكنها الحالي لا يصلح لمن كان يشكو من اضطراب الأعصاب، ولا سيما إذا لازم دائمًا حجرة واحدة. لقد كان يود لها شيئًا غير هذا. انه يجد لزامًا عليه أن يعترف بأن خالتها الطيبة وأن كانت صديقته منذ وقت بعيد، فهي ليست خير أنيس لمن كان

مريضًا بهذه الحالة. إن رعايتها لها واهتمامها بها لا يمكن أن يكونا عرضة لأي شك، بل هما في الحقيقة يفوقان كل حد، ولكنه يخشى مع ذلك أن تضار مس «فيرفاكس» بأكثر من أن تنتفع.

واستمعت «إمَّا» إليه باهتمام بالغ، وازداد حزنها من أجلها وأخذت تبحث علها تجد وسيلة لكي تمد لها يد المساعدة، كأن تستأثر بها من خالتها ولو لمدة ساعة أو ساعتين تنتقل بها في خلالهما إلى جو مختلف ومناظر مختلفة، وتتحدث إليها حديثًا معقولًا هادئًا - وكتبت إليها في صباح اليوم التالي تقول لها بكل ما وسعها من قدرة على التعبير، بأنها ستعرج بالعربة على باب بيتها في أي ساعة تحددها، وأن مستر «بري» يقطع بأن مثل هذه الرياضية ستكون في صالحها - وجاء ردها في هذه العبارة الموجزة: «تحيات «مس فيرفاكس» وشكرها، ولكن حالتها لا تسمح لها بأي رياضة».

وشعرت «إمَّا» بأن رسالتها كانت تستحق أكثر من هذا، ولكنها رأت مع ذلك أن من العبث أن تغضب من كلمات مقتضبة كانت في ذاتها دليلًا على المرض واعتلال المزاج، ولم يعد يهمها إلا أن تتخذ خطة مضادة تقاوم بها هذا العزوف من جانبها عن رؤيتها أو قبول مساعدتها، ولذلك فقد أمرت على الرغم من هذا الرد المقتضب، بإعداد العربة، فلما أعدت ركبتها إلى بيت «مسز بيتس» أملًا في أن تستطيع إقناع «جين» بمصاحبتها، ولكنها باءت بالفشل الآن، كما باءت به من قبل إذ أقبلت «مس بيتس» إلى باب العربة لتعبر لها عن جزيل الشكر، وتقول لها إنها متفقة معها من قرارة قلبها في الرأي بأن تنسم الهواء الطلق قد يعود عليها بأعظم فائدة - وحاولت «إمَّا» بكل الأساليب التي في مكنتها أن تقنعها، ولكن جهودها ضاعت سدى، فقد ذهبت «مس بيتس» ثم عادت لتعلن بأن «جين» تتشبث برأيها ولا تحيد عنه، وأن مجرد اقتراح خروجها يزيد حالتها سوءًا.

وودت «إمَّا» لو تمكنت من رؤيتها لتحاول بنفسها أن تقنعها، ولم تكد تبدي هذه الرغبة حتى تبين لها من رد «مس بيتس» أنها وعدت ابنة أختها بأنها لن تسمح بدخول «مس وودهاوس» عليها بأي حال فقد قالت:

«الحق أن عزيزتي المسكينة «جين» لا تطيق رؤية أحد، لا أحد مطلقًا - أما «مسز ألتن» فهي قطعًا مسموح لها بالمقابلة، وكذلك الحال مع «مسز كول» و«مسز بري» - أما غير هؤلاء فان «جين» لا تريد أن ترى منهن أحدًا».

ولم تشأ «إمَّا» أن توضع في صف واحد مع «مسز ألتن» و «مسز بري» و «مسز كول»، وهن اللائي يقحمن أنفسهن في كل مكان. ولكنها شعرت في الوقت نفسه بأنه ليس من حقها أن تفضل عليهن، ومن ثم فقد استسلمت، واكتفت بعد ذلك بسؤال «مس بيتس» عن غذاء ابنة أختها، وعن قابليتها للطعام، فقد كانت ميالة إلى تقديم المساعدة لها في تلك الناحية.

وأثار الحديث في هذا الموضوع أحزان المسكينة «مس بيتس» فانطلقت تتحدث عنه بإفاضة، قالت: «إن «جين» تكاد لا تأكل، وقد أوصى «مستر بري»

بتناول الأطعمة المغذية، ولكنها لا تستسيغ شيئًا مما عندهم (فليس هناك من له مثل ما لنا من جيران كرماء).
وعادت «إمَّا» إلى بيتها فطلبت إلى مديرة البيت في الحال أن تفحص مخازنها، ثم أرسلت على جناح السرعة إلى «مس بيتس» بعض السميد الفاخر، مقرونًا برسالة تحمل كل معاني المودة والحب. وما هي إلا نصف ساعة حتى أعيد السميد مقرونًا بألف شكر من «مس بيتس» ، وقالت في ردها:
لا ولكن عزيزتي «جين» لا يرضيها إلا أن يرد، فهي لا يمكن أن تأخذه، وهي علاوة على ذلك تصر على القول بأنها ليست في حاجة إلى أي شيء إطلاقًا».
فلما سمعت «إمَّا» بعد ذلك بأن «جين فيرفاكس» شوهدت وهي تتجول في المراعي على مسافة من «هايبري» في مساء ذلك اليوم الذي اعتذرت فيه عن الخروج بحجة أن حالتها لا تسمح بالتريض، وأبت أن تخرج معها في العربة، استطاعت أن تربط الخيوط ببعضها، ولم تشك في أن «جين» قد حزمت أمرها على ألا تقبل منها مجاملة، وأسفت على ما وصلت إليه الأمور معها، أسفت كل الأسف، وحزنت على وضع يدعو إلى الرثاء بما يكتنفه من توتر في الأعصاب واضطراب في التقدير وضعف
في الحكم على الأشياء، وآلمها ألا تلقى حمدًا على شعورها النبيل، وأن تنظر إليها على أنها ليست أهلًا للصداقة. على أنها مع ذلك وجدت لنفسها عزاء في نواياها الطيبة، وفي قدرتها على أن تقول لنفسها: لو أن «مستر نيتلي» اطلع على خفايا محاولاتها العديدة لمساعدة «جين فيرفاكس»، أو لو أنه اطلع حتى على ما تكنه لها في قلبها من حب، لما وجد فيها ما يستحق لومًا.

وذات صباح عقب وفاة «مسز تشرشل» بعشرة أيام تقريبًا، نودي على «إمَّا» لمقابلة «مستر وستن» بالطابق الأرضي، إذ كان يريد أن يحدثها حديثًا خاصًا، ولم يكن في وسعه أن يمكث غير خمس دقائق – والتقى بها عند باب حجرة الاستقبال، وما كاد يسألها عن صحتها بصوته العادي، حتى أخذ يقول لها في صوت خافت، حتى لا يسمع والدها كلامه:

«هل تستطيعين المجيء إلى «راندولز» في أي وقت هذا الصباح؟ فلتأت إن كان ذلك في إمكانك. إن «مسز وستن» تود أن تراك، بل هي يجب أن تراك».

«هل هي مريضة؟».

«لا، لا، أبدًا، وإنما تشعر بشيء من الاضطراب، وهي ولا شك كانت تطلب إعداد العربة وتأتي إليك بنفسها لولا أنها لا بد أن تراك على انفراد (ثم أومأ برأسه نحو أبيها)، فهل في وسعك المجيء؟».

«بالتأكيد، بل وفي هذه اللحظة أن أردت، فمن المستحيل أن أرفض شيئًا تطلبه بمثل هذه الطريقة، ولكن ماذا حدث؟ أحقًا أنها ليست مريضة؟».

«كوني واثقة مما أقول، ولكن لا تسألي أكثر من ذلك، وستعرفين كل شيء في حينه، وهي مسألة لا يمكن الإفصاح عنها الآن!! ولكن صه، صه!!».

وكان من المستحيل حتى على من في ذكاء «إمَّا» التكهن بشيء، قد بدا في نظراته أن شيئًا هامًا قد حدث، ولكن ما دامت صديقتها في صحة جيدة، فقد حاولمت ألا تقلق، واتفقت مع والدها على أن تخرج للتريض، وخرجت فورًا من المنزل هي و «مستر وستن»، وسارا في طريقهما إلى «راندولز» بخطوات سريعة.

وقالت «إمَّا» عندما بعدا بعض الشيء عن أبواب الممشى المؤدي إلى البيت:

« أخبرني الآن يا «مستر وستن» ماذا حدث؟».

وأجابها في لهجة من الجد: لا، لا، لا تسأليني، فقد وعدت زوجتي، بأني سأترك كل شيء لها، وسوف تفضي لك بالنبأ خيرًا مني، فكوني صبورة يا «إمَّا» وستعرفين كل شيء حالاً».

وصاحت «إمَّا» وهي واقفة، ولا زالت جزعة: «قل لي ماذا حدث، رباه!! قل لي في الحال يا «مستر وستن»، هل حدث شيء في «ميدان برنزويك»، إني أحس بأن شيئًا قد حدث، أخبرني! أستحلفك أن تقول لي الآن ماذا حدث».

«لا، وثقي بأنك أخطأت الظن».

«لا تتلاعب بي يا مستر وستن»، وقدر ما لي من أصدقاء أعزاء في «ميدان برنزويك»، من ذا يكون من هؤلاء؟ أستحلفك بكل ما هو مقدس ألا تحاول إخفاء شيءعني».

«ثقي بكلمتي يا «إمَّا».

«بكلمتك! ولماذا لا يكون بشرفك! لماذا لم تقل بشرفي أن الأمر لا يتعلق بأحد منهم؟ يا إلهي!! وأي نبأ يمكن أن يحمل إليَ ولا تكون له علاقة بواحد من أفراد هذه الأسرة؟».

فقال بصيغة بالغة في جدها: «أقسم لك بشرفي أن الأمر لا يتعلق بأحد منهم، وليست له أدنى صلة بأحد من أفراد أسرة «نيتلي»؟

وذهب عن «إمَّا» فزعها، وواصلت السير، بينما استطرد هو يقول:

«لقد أخطأت حيث تحدثت عن نبأ ينقل إليك، فما كان يجب أن أستخدم هذا التعبير، والحق أن الأمر لا يعنيك، وإنما يعنيني أنا وحدي، على الأقل هذا ما نرجوه، وقصارى القول يا عزيزتي «إمَّا» ليس هناك ما يدعو إلى القلق. ولست أقول إنها مسألة ليست كريهة، ولكن قد يكون ما هو أسوأ منها بكثير. ولو أسرعنا في السير، فسنكون في «راندولز» حالًا».

ورأت «إمَّا» أنه لا بد من أن تنتظر، وأن انتظارها لا يتطلب منها جهدًا كبيرًا، ولهذا لم تسأل أكثر مما سألته، واكتفت بأن تدع خيالها يسبح بها، فأوحى إليها باحتمال أن يكون المسألة متعلقة ببعض الشؤون المالية، مسألة كريهة ظهرت فوق الأفق فورًا، في الظروف العائلية الراهنة ونجمت عما حدث أخيرًا في «ريشمند»، لقد نشط خيالها إلى أقصى حد، ورسم لها احتمال وجود ستة أطفال غير شرعيين واستبعاد «فرانك» المسكين من الميراث. وهو أمر على الرغم من أنه يكون غير مرضي، لا يجوز أن يسبب لها أشجانًا، ولا ينبغي أن يزيد أثره على أكثر من إثارة حب الاستطلاع فيها.

وقالت وهما لا زالا يسيران: «من هذا السيد الذي يمتطي حصانًا؟». قالتها لكي تساعد «مستر وستن» على الاحتفاظ بسره، لا لشيء أكثر من هذا.

فقال: «لست أدري، إنه أحد أفراد أسرة «أتواي» - إنه ليس «فرانك»، فهو الآن في منتصف الطريق إلى «وندسور».

«وهل كان ابنك معك الآن؟».

«نعم، ألا تعلمين ذلك؟ أجل، أجل، دعيك من هذا» ولبث لحظة وهو لا يتكلم، ثم قال وهو أكثر حيطة:

«أي نعم، لقد حضر «فرانك» هذا الصباح لمجرد أن يسأل عن أحوالنا».

وجدّا بعد ذلك في السير فوصلا إلى «راندولز» بعد قليل. وقال عندما دخلا الحجرة: «أجل يا عزيزتي ها قد جئت بها وآمل الآن أن تصبحي أحسن حالًا بعد قليل، وسأترككما معًا، إذ لا فائدة من التسويف، وإن احتجتما إليّ فأني لن أكون بعيدًا عنكما».

وسمعته «إمَّا» وهو يقول في صوت خافت ولكنه واضح، قبل أن يغادر الحجرة: «لقد بررت بما وعدت، وليست عندها أية فكرة».
وكان يبدو على «مسز وستن» أنها مريضة، وبلغ بها الارتباك حدًا زاد «إمَّا» قلقًا.
وما أن انفردتا معًا حتى قالت «إمَّا» في لهفة:
«ما الخبر يا صديقتي العزيزة؟ إني أرى مكروهًا قد حدث. دعيني أعرف ما حدث فورًا. لقد سرت هذا الطريق بطوله وأنا في شدة القلق، وكلانا يمقت القلق، فلا تتركيني على هذه الحالة وقتًا أطول، وخير لك أن تفصحي عن مأساتك مهما كانت».
وقالت «مسز وستن» في صوت متهدج: «أليست لديك فكرة عن النبأ حقًا؟ ألا تستطيعين يا عزيزتي «إمَّا» - ألا تستطيعين أن تتكهني بما توشكين أن تسمعيه؟».
«إني أتكهن بأنه شيء يتعلق بمستر «فرانك تشرشل».
«أصبت الحقيقة، فهو يتعلق به، وسأنبئك حالًا». (وعادت إلى شغلها، كأنما كانت مصممة على ألا ترفع بصرها إليها).
«لقد جاء هنا في هذا الصباح في مهمة غير عادية، وإنه لمن المستحيل علينا أن نعبر عن دهشتنا، إنه أتى ليتكلم مع أبيه في الموضوع – ليعلن عن غرامه».
ثم توقفت لتأخذ نفسها، واتجه فكر «إمَّا» أول الأمر إلى نفسها ثم إلى «هاريت».
وعادت «مسز وستن» تقول: «الحق أنه أكثر من غرام، إنه خطبة، خطبة مؤكدة. فما قولك يا «إمَّا»، وماذا يقول الناس جميعًا عندما يعلمون أن «فرانك تشرشل» و«مس فيرفاكس» قد عقدت خطبتها. والأمر لا يقف عند هذا الحد، فقد تمت خطبتهما منذ أمد بعيد!!».
وكادت «إمَّا» تقفز من أثر الدهشة ثم قالت وقد أفزعتها الصدمة:
«جين فيرفاكس»!! يا إلهي!! لا يمكن أن تكوني جادة؟ إنك لا تعنين ما تقولين».
وأجابتها «مسز وستن» وهي لا تزال تشيح ببصرها عنها، وتواصل الحديث في تؤدة حتى تجد «إمَّا» من الوقت ما تهدئ فيه من روعها:
«من حقك أن تدهشني، نعم من حقك أن تعجبي، فلقد كانت بينهما خطبة حقيقية من أكتوبر، تمت في «ويموث» ثم بقيت سرًا مكتومًا لا يعلم بها أحد غيرهما، لا أسرة «كامبيل» ولا أسرتها، ولا أسرته. إنه خبر غريب جدًا، حتى أني مع تأكدي منه أكاد لا أصدقه، ولن أستطيع أن أصدقه إلا بشق الأنفس، لقد كنت أظن في نفسي أني أعرف «فرانك».
ولم تسمع «إمَّا» ما قيل إلا لمامًا، فقد كان عقلها موزعًا بين فكرتين: أحاديثهما السابقة معه عن «مس فيرفاكس»، ثم تفكيرها في المسكينة «هاريت» -

لاوظلت بعض الوقت لا تستطيع أن تفعل أكثر من أن تبدي دهشتها وتطلب ما يؤكد الخبر، المرة بعد المرة.
وقالت أخيرًا وهي تحاول أن تستعيد هدوءها:
«أجل، هذا حادث لا بد لي من أن أفكر فيه نصف يوم على الأقل قبل أن أستطيع فهمه. عجبًا، مخطوبين طيلة الشتاء – وقبل مجيء أحد منهما إلى «هايبري»؟».
«إنهما مخطوبان منذ أكتوبر، مخطوبان سرًا. لقد جرحني سماع هذا النبأ يا «إمَّا»، جرحني وآذاني في شعوري كثيرًا، كما أذى والده في شعوره. إن في بعض مسلكه ما لا يمكن أن تغتفره له».
وفكرت «إمَّا» لحظة ثم أجابت: «لن أدعي بأني لا أفمهك، ولكي أخفف عنك قدر استطاعتي، كوني وثقة بأن ما كان يظهره من اهتمام بي ليس له أي أثر في هذه الناحية مما قد تخافينه».
ورفعت «مسز وستن» بصرها إليها وهي تكاد تكون خائفة من تصديق ما تقول، ولكن ملامح «إمَّا» كانت من القوة والثبات بقدر ما كانت كلماتها.
واستطردت «إمَّا» تقول:
«ولكي لا تجدي مشقة كبيرة في تصديق ما أفخر به من عدم الاكتراث بهذا النبأ، أحب أن أزيد علمًا بأنه كانت هناك فترة في أوائل تعارفنا كنت أعجب به خلالها فعلًا، وكنت شديدة الميل إلى الارتباط به، بل تعلقت به فعلًا. أما كيف توقفت هذا الميل، فهو ما يصح أن يكون موضع الدهشة. وقد توقف هذا الإحساس بالفعل من حسن الحظ. والحق أنه قد مضى عليّ بعض الوقت – ثلاثة شهور الآن على الأقل – لم أعد أهتم فيها به. صدقيني يا «مسز وستن» فهذه هي الحقيقة المجردة».
وقبلتها «مسز وستن» ودموع الفرحة في عينيها، وعندما عاودتها القدرة على الكلام، أكدت لها أن تصريحها قد أراحها أكثر من أي شيء آخر، وقالت:
«إن «مستر وستن» سوف يزول كربه الآن بقدر ما زال عني كربي، فلقد كانت هذه النقطة مثار بؤس وحزن لنا. فلقد كانت أعز أمانينا أن ترتبطا ببعضكما، بل لقد خدعنا بأن هذا قد تم بينكما – فتصوري كيف كان شعورنا الآن من أجلك».
«لقد نجوت بنفسي، وكانت نجاتي أمرًا يستحق منكم ومني الدهشة والحمد، ولكن هذا لا يعفيه مع ذلك يا «مسز وستن»، بل يجب أن أقول أنه ملوم كل اللوم، فبأي حق يأتي بيننا وقد ارتبط بأواصر الحب والخطبة، ثم يكون سلوكه سلوك من لم يكن خاطبًا؟ وبأي حق كان يحاول أن يسامرنا، وأن يخص أية فتاة بالرعاية الدائمة كما كان يفعل، بينما هو في الحقيقة مرتبط بغيرها؛ ثم كيف يفسر ما كان يمكن أن يترتب على عمله من سوء؟ وكيف يدري بأنه لم يكن يستدرجني بما فعل إلى الوقوع في شراك حبه؟ إنه خطأ بين، خطأ فاحش ولا شك».

«لقد قال شيئًا يا عزيزتي «إمَّا» جعلني أميل إلى الظن بأن...».
وكيف تحملت هي مثل هذا السلوك منه؟ وأية رباطة جأش منها هذه، وأمامها شاهد على سلوكه! تنظر فتراه يولي سيدة أخرى اهتمامه أمام عينيها المرة بعد المرة، ثم لا تشعر بالمهانة، ولا تعترض، إنها رباطة جأش لا أفهمها ولا أحترمها».
«كان بينهما سوء تفاهم وقتها يا «إمَّا». لقد قال هذا صراحة ولم يكن لديه متسع من الوقت ليوضح أكثر من ذلك، فقد مكث هنا ربع ساعة لا تزيد، وكان في حالة من الاضطراب حالت بينه وبين الاستفادة الكاملة من هذه الفترة التي مكثها معنا، ولكنه أكد سوء التفاهم الذي كان بينهما ويبدو أن سوء التفاهم هذا كان السبب في الأزمة الحالية، ومن المحتمل جدُا أن يكون سوء تصرفه هو الذي أوجد سوء التفاهم بينهما».
«سوء التصرف!! عجبًا يا «مسز وستن»!! إن هذا لوم هين للغاية – إن الأمر أكثر بكثير من أن يكون مجرد سوء تصرف!! لقد ألقى به عمله في الهاوية، وأراني عاجزة عن أن أعبر لك إلى أي مدى أسقطته فعلته من نظري. لقد كان أبعد ما يكون عما يتصف به الرجال!! من الطهر والأمانة، والتمسك بالصدق والمبادئ، والبعد عن الخداع والوضاعة – هذه هي الصفات التي يجب أن يتصف بها المرء في كل ما يقوم به من الأعمال مدى حياته».
«لا يا عزيزتي «إمَّا» فلا بد الآن من أن أدافع عنه، فهو على الرغم من خطئه في هذه الحالة، فقد عرفته زمنًا يكفي لأن أؤكد بأنه يتصف بكثير من الصفات الحميدة، و..».
فصاحت «إمَّا» وهي لا تستمع إليها:
«يا إلهي!! وهذه مسألة «مسزسمول ردج» أيضًا!! و«جين» وهي على وشك أن تذهب لتعمل مربية!! ماذا يعني بمثل هذا التنطع الفظيع، أن يجعلها تتجشم الصعاب لتلتحق بعمل، بل حتى مجرد التفكير في مثل هذا؟».
«إنه لم يعلم شيئًا عن هذا «إمَّا» ويمكنني أن أبرئه من هذه التهمة تمامًا، فهي التي قررت ذلك بنفسها دون أن يكون له علم به، أو على الأقل إن الخبر لم يبلغ إليه بطريقة مؤكدة، وأنا أعلم على حد قوله، أنه لم يكن يدري شيئًا عن خططها حتى أمس، وأنه قد فوجئ بها، وإن كنت لا أدري كيف كان ذلك. فربما وصلته رسالة كشفت له عما كانت تعتزمه، عن هذا المشروع بالذات، ولعل هذا ما دفعه إلى أن يحزم أمره ويتقدم في الحال ليعترف بكل شيء لخاله، ويضع نفسه بين يديه يستجدي عطفه وحنانه، وبالاختصار، لكي يضع خاتمة لحالة التستر اللعينة، التي ظلت قائمة وقتًا طويلًا».
وأخذت «إمَّا» تعيرها أذنًا واعية.
وواصلت «مسز وستن» حديثها:
«ستصلني منه أخبار سريعًا، فقد أخبرني عند رحيله بأنه سيكتب لي قريبًا، وبدا لي من طريقته في الكلام، ما جعلني أترقب أن أسمع منه تفاصيلٍ كثيرة قد لا

يمكنه الإفصاح عنها الآن، فلننتظر إذن حتى يصل خطابه، أوقد يأتينا بما يبرر الصفح والمغفرة ويلقي ضوءًا على نواحي كثيرة، تجعل سلوكه أكثر وضوحًا، وأدعى إلى الغفران، في حين أن سلوكه الآن غير مفهوم. فلا تجعلينا نقسو عليه، أو نتعجل الحكم بإدانته، ولنتذرع بالصبر، فلا مندوحة لي من أن أظل أحبه. والآن وقد اقتنعت من ناحية واحدة، وهي النقطة الهامة في الموضوع، فأني أود من صميم قلبي أن تنتهي الأمور على أحسن وجه، وهو ما آمل أن يكون، فلا بد أنهما قاسيا كثيرًا من وراء هذا التستر».

وأجابت «إمَّا» في خشونة: «يبدو أن ما قاساه لم يضره كثيرًا. ولكن كيف كان وقع ذلك على مستر «تشرشل»؟».

«كان راضيًا كل الرضى عن ابن أخته، ووافق دون أدنى مشقة - أنظري ماذا صادف تلك الأسرة من الأحداث في خلال أسبوع واحد!! وأظن أنه ما كان هناك أمل أو فرصة، أو حتى مجرد احتمال لحدوث مثل ذلك، وقت أن كانت «مسز تشرشل» على قيد الحياة. ولكنها ما كادت تهدأ في مثواها، حتى عمل زوجها النقيض مما كانت تقره، ما أجلّها من نعمة ألا تبقى السلطة الغاشمة بعد موت صاحبها!! فلقد وافق دون إلحاح».

وفكرت «إمَّا» في قرارة نفسها: «آه!! لقد كان مستعدًا لأن يقوم بمثل ذلك من أجل هاريت».

تم كل ذلك في الليلة الماضية، وسافر، «فرانك» مع شروق الشمس

في هذا الصباح وانتظر بعض الوقت في «هايبري» أظن في بيت «مس بيتس»، ثم أتى هنا، ولكنه كان يتعجل لكي يعود إلى خاله، فهو أشد ما يكون حاجة إليه الآن منه في أي وقت مضى، حتى أنه لم يستطع أن يمكث معنا أكثر من ربع ساعة، كان خلالها في شدة الاضطراب، إلى درجة جعلته يبدو شخصًا يختلف كل الاختلاف عمن عرفته، وعلاوة على كل ذلك، فقد صدم عندما وجدها في شدة المرض، وهو ما لم يكن يعرف عنه شيئًا إطلاقًا، وقد دل كل مظهره على أنه تأثر بمرضها تأثرا بالغًا».

«وهل تعتقدين حقًا أن الموضوع كان بمثل هذه السرية التامة؟ هل أسرة «كامبيل» وأسرة «دكسون» لم يكن لهما علم بهذه الخطوبة؟».

وما كانت «إمَّا» لتذكر اسم «دكسون» دون أن يعلو وجهها شيء من الحمرة.

«لا أحد منهم قط، فقد أكد لي بأن الأمر ظل يخفى على الناس جميعًا ما عدا شخصيهما».

وقالت «إمَّا»: «أجل، أظن أننا سنقتنع تدريجًا بالفكرة، وأرجو لهما كل سعادة، ولكني سأظل دائمًا أرى سلوكه أمرًا قبيحا للغاية، وماذا عساه أن يكون سوى أنه نفاق وخداع وتجسس وخيانة؟ أن يأتي بيننا مرتديًا مسوح الصراحة والبساطة وهو مرتبط بهذا الرباط الخفي ليتحكم فينا جميعًا. لقد ظللنا طيلة الشتاء والربيع ونحن نستغفل، ويغرر بنا، نتخيل أننا جميعًا سواء من حيث الصدق والشرف، بينما يوجد بيننا اثنان يجريان المقارنات ويحكمانِ على ما

يصدر منا من مشاعر وأقوال ما كانت تلقى على مسامعهما. فعليهما أن يتحملا النتائج إن كان سمعا ما يرضيهما».

وأجابت «مسز وستن»: «إن ضميري مرتاح من هذه الناحية، وأنا واثقة كل الثقة بأني لم أقل لأحدهما شيئًا عن الآخر لم يسمعه مني كلاهما».

«أنت محظوظة، فلقد كانت هفوتك الوحيدة قاصرة على أذني لا تتعداهما، عندما تخيلت صديقًا لنا قد وقع في غرام هذه السيدة».

«صحيح، ولكني كنت دائمًا أحسن الظن «بمس فيرفاكس» ولم أذكرها بسوء مهما ارتكبت من الهفوات، أما أن أذكره هو بسوء، فإني مطمئنة من هذا الناحية كل الاطمئنان».

وظهر «مستر وستن» في تلك اللحظة قرب النافذة، وكان من الواضح أنه كان يراقبهما - وأومأت إليه زوجته بنظرة لكي يدخل، وبينما هو يقبل نحوهما قالت:

«دعيني الآن يا عزيزتي «إمَّا» أتقدم إليك برجاء أن تكوني في كلامك ونظرتك إلى الأشياء، باعثة على اطمئنانه، وعلى رضائه عن هذه الزيجة، إذ علينا أن نأخذ بالأحسن، ثم أن معظم ما قد يقال عنها إنما هو في صالحها - أنها ليست بالمصاهرة المرضية، ولكن ما دام «مستر تشرشل» لا يشعر بهذا، فلماذا نشعر بها نحن؟ وقد يكون من حسن حظه - أقصد «فرانك» أن يرتبط بفتاة على مثل هذه الأخلاق القويمة وأصالة الرأي، وهو ما كنت دائمًا ولا زلت أمتدحه فيها، على الرغم مما ارتكبته من انحراف عن جادة الصواب، وما أكثر ما يمكن أن يقال دفاعًا عنها حتى بالنسبة لهذه الغلطة!».

وصاحت «إمَّا» تقول عن إحساس صادق:

«إن الكثير قد يقال ولا شك، هذا إذا اغتفرنا لسيدة أن تفكر في نفسها فقط إذا كانت في موقف مثل موقف «مس فيرفاكس» إن المرء ليكاد يقول في مثل هذا الموقف أن الدنيا ليست دنياهم وحدهم، ولا قوانينها ملك لهم دون سواهم».

واستقبلت «مستر وستن» عند دخوله بوجه مبتسم وقالت:

«صدقني بأنك قمت نحوي بحيلة لطيفة للغاية، وأظنها كانت خطة أريد بها إثارة غريزة حب الاستطلاع عندي، وتقوية قدرتي على التكهن، ولكنك أزعجتني حقًا حتى ظننت أنك فقدت نصف ما تملك يداك على الأقل، ثم ها هي المسألة بدلًا من أن تكون مسألة يرثى لها، هي مسألة توجب التهنئة - وإني أهنئك يا «مستر وستن» من قرارة قلبي، على أن هذه الفتاة، وهي من أجمل فتيات إنكلترا وأكثرهن ثقافة وتهذيبًا، ستكون زوجة ابنك».

وأكدت النظرات التي تبادلها هو وزوجته أنها تعني ما تقول، وكان لهذا من الأثر المباشر ما جعله يبتهج ويستعيد ما كان عليه من حيوية انعكست في مظهره وصوته. وصافحها بحرارة معبرًا عن امتنانه لها، وتناول الموضوع بطريقة دلت على أنه لا يريد إلا فسحة من الوقت ليقتنع بأن الزيجة ليست رديئة إلى هذا الحد. وما كان زميلاه ليقترحا عليه إلا أن يهون عليه أثر هذا النزق، أو يزيل عن

فكره بعض ما كان يصادفه من اعتراضات، وظلوا يتناولون الموضوع ويقلبونه على وجوهه، فترة من الوقت. ثم عاود الحديث فيه مع «إمَّا» مرة أخرى وهما في طريقهما إلى «هارتفيلد»، حتى اقتنع تمامًا بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأنه ما كان بوسع «فرانك» أن يغفل خيرًا مما فعل.

«هاريت، مسكينة أنت يا هاريت!». كانت هذه كلمات «إمَّا»، كانت كلماتها التي ضمنتها كل ما كان يجول بخاطرها من أفكار مؤلمة تستطع التخلص منها، بل كانت أصل تعاستها الحقيقية في كل هذا الموضوع. لقد تصرف «فرانك تشرشل» بأزائها تصرفًا معيبًا – معيبًا من عدة وجوه - ولكنها لم تكن ساخطة عليه بسلوكه نحو «هاريت» بقدر ما كان غضبها بسبب سلوكها هي نفسها نحوها، ذلك أن الورطة التي أوقعها فيها من أجل «هاريت»، هي التي ضخمت من إساءته في نظرها. مسكينة «هاريت»! لقد خدعت للمرة الثانية بسبب تفكيرها الخاطئ وغرورها الزائف. لقد كان «مستر نيتلي» يكاد يتنبأ حين قال مرة:
««إمَّا» إنك لا تسلكين سلوك الصديقة من قبل «هاريت سمث» - نعم إنها لم تكن موفقة في خدمتها. ومع ذلك فقد كانت على حق في ألا تتهم نفسها، لا في هذه الحالة، ولا في الحالة السابقة بأنها هي دون سواها،، السبب فيما أصاب «هاريت»، أو بأنها هي التي أوحت بهذه المشاعر إلى «هاريت»، وأنه لولاها لما وجدت هذه المشاعر طريقها إلى نفسها. فلقد اعترفت «هاريت» نفسها بإعجابها بفرانك تشرشل، وتفضيلها إياه، حتى قبل أن تشير عليها بشيء من ذلك. ولكن هذا لم يمنع «إمَّا» من أن تشعر بأنها ملومة في تشجيعها لشيء كان في إمكانها أن توقفه وأن تحول دون التمادي في مثل هذه العواطف، فقد كان لها من النفوذ ما يحقق لها ذلك. لقد شعرت الآن بأنه كان من واجبها أن تمنع ذلك، وأحست بأنها جازفت بسعادة صديقتها على أسس غير كافية. فلقد كان حسن الإدراك يقتضيها أن تقول لهاريت أن من واجبها ألا تسمح لنفسها بالتفكير فيه، وأن فرص تعلقه بها كانت لا تزيد على واحد في الخمسمائة. ولكنها اكتفت الآن بأن قالت لنفسها: «ولكني أخشى أن يكون حظي من حسن الإدراك قليلًا».
نعم لقد كانت ساخطة على نفسها كل السخط، ولولا أنها كانت ساخطة على «فرانك تشرشل» كذلك لكان في ذلك الطامة الكبرى. أما عن «جين فيرفاكس» فقد أصبح في استطاعتها على الأقل أن تزيح عن نفسها الشعور بالقلق من أجلها، ويكفيها ما لديها من قلق من أجل «هاريت» بل ليس هناك ما يدعوها إلى تحمل هم «جين» بعد الآن، فإن متاعبها واعتلال صحتها وكلاهما ولا

شك مصدره نفس السبب في طريقهما إلى البرء، فلقد انتهت أيام البؤس والإهمال التي كانت تعيشها، وعما قريب سوف تعاودها الصحة والهناءة والسعادة. لقد أصبح الآن في وسع «إمَّا» أن تتصور لماذا كانت رعايتها لها ترد وتزدري، وكشف ذلك لها عن أمور أخرى كثيرة أقل من ذلك شأنًا، إذ لا شك أن سلوك «جين» كان وليد الغيرة، فقد كانت «جين» تنظر إليها على أنها منافسة، ومن ثم كان مصير كل مساعدة طيبة تقدمها، أو عرض تعرضه، الرفض. فكان التريض في عربة هارتفيلد يبدو لها كأنها تركب فوق آلة من آلات التعذيب، وكان السميد الذي يأتيها من مخزن هارتفيلد كأنه السم الزعاف. لقد أدركت «إمَّا» الآن كل شيء، ورأت بقدر ما سمحت لها قدرتها على التخلي عن مشاعر الغضب وعدم الإنصاف والأنانية التي كانت تحسها أحيانًا، أن «جين فيرفاكس» لنا يكون لها من السعادة ولا من علو المكانة أكثر من دنياها التي تعيش فيها، أما «هاريت» فكانت أحق بكل عنايتها، فليس هناك إلا القليل من العطف الذي تستطيع أن تشمل به أحدًا غيرها. لقد كات «إمَّا» تخشى في حزن ومرارة إن تكون خيبة أمل «هاريت» في هذه المرة أقسى منها في المرة الأولى. فلما فكرت فيما يتطلبه الموقف من عناية فائقة وما سيكون له من أثر أشد في نفس «هاريت»، رأت أن كل ذلك يتطلب منها الحيطة وضبط النفس، وأنه لا بد من اطلاعها على الحقيقة المؤلمة، وبأسرع ما يمكن. لقد طلب منها «مستر وستن» من بين ما طلب، وهي تهم بالانصراف، أن يظل الموضوع سرًا، إذ قال لها:

«يجب الآن أن يبقى الموضوع بحذافيره سرًا مكتومًا، فهذه رغبة «مستر تشرشل»، احترامًا منه لذكرى الزوجة التي فقدها منذ وقت قريب، وقد اعترف كل واحد بأن هذا أكثر من أن يكون مجرد كياسة يجب مراعاتها».

ووعدته «إمَّا» بمراعاة ذلك، ولكنها رأت مع هذا وجوب استثناء «هاريت»، ولأن هذا هو أوجب الواجبات عندها.

وعلى الرغم من حنقها وضيقها، لم تتمالك «إمَّا» نفسها من الشعور بأن المسألة أقرب أن تكون مهزلة مضحكة، أن ترى نفسها تؤدي بالنسبة إلى هاريت نفس المهمة الدقيقة المؤلمة التي انتهت «مسز وستن» من أدائها حالًا نحوها هي، وأن يكون عليها أن تعلن في تلهف إلى سيدة أخرى نفس النبأ الذي أعلن لها في مثل هذا التلهف. وزادت دقات قلبها عندها سمعت وقع أقدام «هاريت» وصوتها، وفكرت إذا كانت المسكينة «مسز وستن» قد شعرت يا ترى بمثل ما شعرت به عندما اقتربت هي من «راندولز»، وهل سيكون للإفضاء بالنبأ نفس الأثر عند «هاريت» مثلما كان عندها. وشعرت بأنه من حيث هذه النقطة الأخيرة لا يوجد أي احتمال البتة.

وصاحت «هاريت» عند دخولها الحجرة في لهفة:

«أجل يا «مس وودهاوس»، أليس هذا أدهش الأخبار جميعها؟».

وأجابتها «إمَّا» وقد عجزت عن التكهن بشيء، لا من مظهرها ولا من صوتها، ولم تدر إذا كانت «هاريت» حقًا قد وصلها أي تلميح.

«أي خبر تعنينه؟».

«الخبر الخاص «بجين فيرفاكس»، فهل سمعت في حياتك شيئًا أغرب من هذا؟ لا داعي لأن تخافي من إفشائه إليّ، فقد أخبرني به «مستر وستن» بنفسه، إذ التقيت به منذ برهة، وطلب إليّ أن أحرص على كتمانه، وما كنت لأفكر في ذكره لأحد سواك. على أنه قال إنك على علم به ».

وقالت «إمَّا» وكانت لا تزال في حيرة: «وما الذي أخبرك به مستر وستن».

«أوه! لقد أخبرني بكل شيء، أن «جين فيرفاكس» ومستر «فرانك تشرشل» سيتزوجان، وأن الخطبة معقودة بينهما سرًا طوال هذه المدة، أليس هذا عجيب؟».

«نعم كان عجيبًا ولا شك، فلقد كان مسلك «هاريت» عجيبًا إلى حد جعل «إمَّا» تعجز عن فهمه، وبدا لي كأن شخصيتها تغيرت كلية، وأنها لا تريد أن يبدو عليها مظهر من مظاهر الارتباك أو الخيبة، أو دليل على اهتمامها الخاصة بما اكتشفت. ونظرت إليها «إمَّا» وقد عجزت عن الكلام.

وصاحت «هاريت» تقول: «وهل كانت لديك أية فكرة عن غرامه بها؟ ربما كنت تعلمين أنت - (واحمر وجهها وهي تتكلم)، أنت التي في قدرتك أن تستشف ما في قلوب الناس جميعًا، ولكن لا أجد غيرك..».

وقالت «إمَّا»: «ثقي بأني قد بدأت أشك في أن لي أية موهبة كهذه، وهل أنت جادة يا «هاريت» حين تسألينني إذا كنت تخيلته على علاقة مع سيدة أخرى في نفس الوقت الذي كنت فيه - ضمنًا أو صراحة - أشجعك على الاستسلام لمشاعرك نحوه؟ لا، لم يكن عندي أدنى ظن حتى آخر ساعة بأن «فرانك تشرشل» كان له أدنى شغف «بجين فيرفاكس»، وتأكدي بأنه لو كانت لدي فكرة عن ذلك، لكان من واجبي تحذيرك».

وصاحت «هاريت» وقد احمر وجهها من الدهشة:

«أنا! ولماذا تحذرينني؟ إنك لا تظنين أن مستر فرانك تشرشل يهمني؟».

وأجابت «إمَّا» وهي تبتسم: «يسرني أن أسمعك تتكلمين بهذه الشجاعة، ولكنك قاطعًا لا تعنين إنكار إنك كنت قد حملتيني في وقت ليس ببعيد على أن أفهم بأنك كنت تهتمين به».

«هوه!! أبدًا، كيف تخطئين فهمي يا عزيزتي مس وودهاوس». (واستدارت وهي متضايقة).

وصاحت «إمَّا» بعد أن سكتت لحظة تقول:

«هاريت! ماذا تعنين؟ رباه!! ماذا تعنين؟ أخطئ فهمك؟ هل لي أن أفترض إذن -؟» وعجز لسان «إمَّا» عن أن ينطق بكلمة أخرى، وانحبس صوتها، ثم جلست تنتظر في هلع إلى أن ترد عليها «هاريت».

أما «هاريت» التي كانت تقف بعيدًا، وقد أشاحت بوجهها عنها، فلم تقل شيئًا على الفور، فلما تكلمت أخيرًا، كان صوتها يقرب من صوت «إمَّا» في اضطرابه وبدت تقول:
«ما كنت أظن من الممكن أن تخطئي فهمي! إنني أعلم بأننا اتفقنا على ألا نذكره بالاسم إطلاقًا - ولكني بالنظر إلى تفوقه الكبير على أي شخص غيره، ما كنت أظن أن من الممكن أن يتطرق إلى ذهنك أي شيء آخر.. «مستر فرانك تشرشل» حقًا؟! ما أعجب ما تظنين! فلست أعرف أحدًا من الناس يمكن أن ينظر إليه وهو في صحبة الآخر، ثم يراه شيئًا، بل أني لأرجو أن أكون أحسن ذوقًا من أن أفكر في «مستر فرانك تشرشل» فهو لا شيء بجانبه. وانه ليدهشني أن تكوني قد وقعت في مثل هذا الخطأ وأنا واثقة أنه لولا اعتقادي بأنك كنت موافقة تمامًا على تعلقي به وقصدت تشجيعي على ذلك، لكنت اعتبرت أول الأمر أنها وقاحة عظيمة مني أن أجرؤ حتى على مجرد التفكير فيه. ولولا أنك قلت لي أول الأمر، أن أشياء أكثر غرابة من ذلك حدثت، وأن زيجات أخرى تمت، كان فيها الزوجان أشد تفاوتًا (وهذه هي نفس كلماتك) ما كنت جرؤت على أن أستسلم بعواطفي إلى – إنني لم أكن أفكر أن ذلك ممكن، ولكن إذا كنت أنت التي تعرفينه من زمن -».
وقاطعتها «إمَّا» وقد استجمعت قواها وضبطت أعصابها:
«ليفهم كل منا الآخر الآن يا «هاريت»، حتى لا يكون هناك مجال للخطأ فيما بعد - هل أنت تتحدثين الآن عن - مستر نيتلي؟».
«نعم إنه هو، ولم أستطع أن أفكر في شخص آخر غيره، وهو ما كنت أظن أنك تعلمينه. لقد كان الأمر واضحًا كل الوضوح عندما كنا نتكلم عنه».
وردت «إمَّا» في هدوء مغتصب: «لم أفهم ذلك تمامًا، ولكن حديثك وقتها بدا لي كأنه يتعلق بشخص آخر، إني لأكاد أؤكد أنك ذكرت مستر «فرانك تشرشل» بالاسم، وأنا واثقة بأن الحديث كان عن الخدمة التي أداها لك مستر فرانك تشرشل بحمايتك من الغجر».
«عجبًا لك يا «مس وودهاوس» كيف تنسين بسرعة؟».
«عزيزتي «هاريت» إني أذكر الكلام الذي قلته في تلك المناسبة تمامًا، لقد أخبرتك وقتها أني لم أدهش لعلاقتك به، وأننا إذا راعينا الخدمة التي أداها لك لكانت هذه العلاقة أمرًا طبيعيًا للغاية، وقد وافقت أنت على ذلك، وعبرت عن شعورك بهذه الخدمة بحمية وحماس، حتى لقد وصفت مشاعرك حينما رأيتيه يتقدم نحوك لتخليصك. إن ما ذكرتيه لا يزال أثره قويًا في ذاكرتي».
صاحت «هاريت»: «آه!! الآن أتذكر يا عزيزتي ما تعنين! فلقد كنت أفكر في ذلك الوقت في شيء يختلف عن هذا كل الاختلاف، فلم أكن أعني الغجر، ولا مستر فرانك تشرشل، لا! (ثم في شيء من الحيوية) لقد كنت أفكر وقتها في مناسبة أغلى من هذه بكثير، كنت أفكر في مجيء «مستر نيتلي» ليطلبني لأراقصه عندما تنحى «مستر ألتن» عن صحبتي، ولم يكن هناك غيره في

الحجرة ليراقصني، فلقد كان هذا العمل منه عطفًا كريمًا، وكان ينطوي على نبل وكرم. تلك كانت الخدمة التي جعلتني أبدأ أشعر بما له من تفوق على الناس قاطبة».
وصاحت «إمَّا»: يا إلهي!! لقد كانت هذه أنحس وأتعس غلطة!! فما العمل إذن؟».
«إذن فما كنت تشجعينني لو أنك فهمتيني؟ إنني على الأقل كنت أكون أقل عذابًا الآن مما لو كان الأمر يتعلق بالآخر، والآن- إن في الإمكان -».
وسكتت لحظات قليلة لم تقو «إمَّا» خلالها على الكلام. وعادت «هاريت» تقول: «لا يدهشني يا «مس وودهاوس» ما تشعرين به من الفارق العظيم بين الاثنين سواء بالنسبة لي أم بالنسبة لأي شخص آخر، ويجب أن تفكري بأن تفوقه عليّ يزيد خمسمائة مليون مرة على
تفوق الآخر، ولكني آمل يا «مس وودهاوس» أنه على فرض... أنه
إذا... أنه حتى لو كان ذلك غريبا كما يبدو- ولكنك تعلمين أن هذه
كانت كلماتك، لقد حدث ما هو أكثر غرابة، وإن زيجات تمت، كانت
الفوارق فيها أشد مما بيني وبين مستر «فرانك تشرشل»!! ولذلك
يبدو لي وكأن أشياء مثل هذه قد حدثت قبلًا، وإذا قدر لي أن يكون لي
مثل هذا الحظ الذي يعلو على كل وصف، أي أنه إذا كان «مستر نيتلي» حقيقة - إذا كان لا يهتم بالفوارق، فإني آمل يا عزيزتي «مس وودهاوس» أنك لن تعارضي في ذلك، أو تحاولي وضع العراقيل في طريقي، ولكني واثقة بأنك أعظم من أن تفعلي ذلك».
وكانت «هاريت» واقفة بجانب أحد النوافذ، فاستدارت «إمَّا» لتنظر إليها في دهشة وجزع، وقالت على عجل:
«وهل تظنين أن «مستر نيتلي» يبادلك الحب؟».
وأجابت «هاريت» في تواضع لا يشوبه خوف:
«أجل، ولا بد أن أقول بأني أظنه يبادلني مشاعري».
وغضت«إمَّا» الطرف عنها في الحال، وجلست تفكر في سكون، وجمدت في مكانها بضع في دقائق، فقد كان قليل من الدقائق يكفيها لتقف على مكنونات قلبها، فأن عقلًا مثل عقلها، إذا ساورته الشكوك مرة فلا حد لقدرته على التفكير والنشاط.. وهكذا استطاعات أن تلمس الحقيقة كلها أن تكشفها وتعترف بها - لماذا كان غرام «هاريت» «بمستر نيتلي» أسوأ بكثير من غرامها «بفرانك تشرشل»؟ ولماذا زاد الموقف سوءًا إلى درجة مخيفة بوجود بعض الأمل عند «هاريت»، بأنه يبادلها الحب؟ فلقد خطر لها في تلك اللحظة في سرعة السهم، أن مستر «نيتلي» يجب ألا يتزوج غيرها، وتكشف أمام عينيها في تلك الدقائق القليلة مسلكها وقلبها على السواء فتبينتهما بجلاء ووضوح لم يتاحا لها من قبل، وبدا لها كيف أنها كانت غير حكيمة في مسلكها نحو هاريت! كيف أن مسلكها كان خلوًا من كلِ تفكير في مصلحتها، بعيدًا عن كل كياسة،

مجردًا من الشعور ومن الفعل، فأي عمل وأي جنون هذا الذي تملكها وقادها في هذا الطريق؟
لقد صدمها كل ذلك صدمة قوية مخيفة، وكانت على استعداد لأن تصف سلوكها بأقذع ما هناك من ألفاظ. ومع ذلك فعلى الرغم من كل هذه العيوب التي كشفتها في نفسها، فقد رأت أن بقية باقية من الاحترام الذاتي، وأن قلقها على مظهرها، وإحساسها القوي بالعدالة نحو «هاريت» (إذ لا حاجة الآن للإشفاق على فتاة آمنت بأن مستر نيتلي يحبها، وإن كان العدل يقتضيها ألا تسيء إليها الآن بأي فتور من جانبها) كل ذلك جعل «إمَّا» تقرر الجلوس والتحمل فترة أطول وهي هادئة، بل وهي تتظاهر بالشفقة. فلقد كان من مصلحتها بالذات ولا شك أن تتبين أقصى آمال«هاريت»؟، فإن هاريت لم تفعل في الواقع ما يجوز أن يفقدها التقدير والاهتمام اللذين لم تفتأ تسبغهما عليها عن طيب خاطر، أو يجعلها جديرة بالهوان، على يد واحدة لم تنجح يومًا في توجيهها الوجهة السليمة. ولذلك التفتت إلى «هاريت» مرة أخرى عندما استيقظت من سباتها وكبحت عواطفها، وعادت تستأنف الحديث بنغمة فيها ترحيب، فلقد كان الموضوع الذي استأنفا الحديث فيه، هو قصة «جين فيرفاكس» العجيبة، التي كانت قد تضاءلت واختفت حتى الآن لأنهما كانتا لا تفكران في شيء إلا في نفسيهما وفي مستر «نيتلي».
وعلى الرغم من أن «هاريت» كانت سابحة في أحلام بعيدة عن أن تكون محزنة، فقد سرها كثيرًا الآن أن تطرح أحلامها جانبًا تحت تأثير التشجيع الذي لقيته ساعتها من حكم وصديق مثل «وودهاوس» فلقد كان، لا ينقصها إلا أن تدعي، فتدلي بقصة آمالها وأحلامها، وهي في غمرة من السرور المشوب بالخوف. وكانت «إمَّا» وهي تسأل وتستمع، أكثر من «هاريت» قدرة على إخفاء مخاوفها، مع أنها لم تكن أقل منها خوفًا - كان صوتها ثابتًا أما عقلها فقد كان يهتز اضطرابًا بما يثيره هذا الحديث عن النفس، وهذا السر المتدفق الذي ينذر بالخطر، وهذا الخليط المفاجئ من المشاعر المحيرة، فاستمعت وهي تتوجع في قرارة نفسها، بينما في مظهرها الخارجي كانت تبدو صابرة على ما كانت تدلي به «هاريت» من تفصيلات - وهي تفصيلات إذا وضعت في أسلوب منطقي، أو أحسن ترتيبها وإلقاؤها، كانت آخر ما تنتظره.
أما إذا جردت مما فيها من زخرف ومن ركاكة وتكرار لا داعي له، فلن يكون فيها ألا ما ينغص عليها نفسها، ولا سيما إذا أيدتها الظروف والقرائن التي استعادتها ذاكرتها الآن لتؤيد التحسن الذى كان قد طرأ على رأي «مستر نيتلي» في «هاريت».
وها هي تفاصيل القصة كما روتها «هاريت» بالتغيير الذي طرأ علي مسلكه نحوها منذ هاتين الرقصتين الهامتين، وكانت «إمَّا» نفسها تعلم بأنه ألفاها أفضل بكثير مما كان يتوقع، ومنذ ذلك المساء، أو على الأقل منذ أن شجعتها «مسِ وودهاوس» عليِ التفكير فيه، أخذت هاريت تشعر بأنه يكثر من حديثه

معها أكثر مما اعتاد، وأنه ولا شك قد تغير في معاملته لها وفي سلوكه نحوها، فبدا رقيقًا عطوفا عليها، ثم أخذ هذا الشعور يزداد يومًا بعد يوم في الفترة الأخيرة، فلما كانوا يسيرون جميعًا، كان كثيرًا ما يأتي ليمشي إلى جوارها، ويحادثها وهو مبتهج كل الابتهاج، وكأنه يريد أن يعقد صلة التعارف الوثيق بها. إن «إمَّا» نفسها تدرك أن هذا كان يحدث بالفعل، وهي نفسها كثيرًا ما لاحظت هذا التغيير إلى حد يقرب مما تقوله صديقته. وظلت «هاريت» تكرر ما كانت تلقاه منه من عبارات الإطراء والمديح. وشعرت «إمَّا» أن هذا يتفق تمامًا مع ما كانت تعلمه من رأيه في «هاريت»، فلقد كان يمتدحها لعدم تكلفها، ولما هي عليه من بساطة وشرف ونبل في المشاعر. نعم لقد كانت تعلم بأنه يرى كل هذه المزايا في «هاريت»، وأنه كان يتحدث عنها في استفاضة أكثر من مرة. على أن كثيرًا مما علق بذاكرة «هاريت» من تلك الدقائق الصغيرة العديدة التي كانت تبدو من رعايته لها، في نظرة أو حديث، أو انتقال من مقعد إلى مقعد آخر، أو في مرح مستتر، أو استنتاج عابر بأنه يفضلها على غيرها، كل ذلك مر على «إمَّا» دون أن تلحظه، لأنها لم تكن تشكك في شيء من هذا. بل كانت هنالك حوادث امتد بعضها إلى نصف الساعة، وكان فيها لمن رأتها بعينها ساعتها، الكثير من الأدلة التي مرت كلها على «إمَّا» دون أن تلحظها - ثم ها هي الآن تستمع إليها من جديد. على أن آخر حادثين يمكن ذكرهما، وكان فيهما ما قوى أمل «هاريت»، لم يفت «إمَّا» أن تلحظهما بنفسها فشهدت بنفسها الآن على صحتهما. أما أولهما، فكان سيره معها بعيدًا عن الآخرين وقت التجول بين أشجار الليمون في «دونول» حيث سارا معًا وقتًا ما قبل أن تلحق «إمَّا» بهما، وكان قد بذل جهده (كما أقنعت نفسها) لكي يستأثر بها لنفسه، وكان يتكلم معها بادئ الأمر بطريقة شخصية تختلف عما كان يفعل قبلًا، طريقة كانت ولا شك بعيدة جدًا عن أن تكون عادية! (ولم تكن هاريت تذكر ذلك دون أن تعلو وجهها حمرة) وبدا لها وقتها كما لو كان يريد أن يسألها إذا كانت تحب غيره. ولكن ما كاد يبدو احتمال وجود «مس وودهاوس» معهما حتى غير مجرى الحديث وأخذ يتكلم عن الزراعة. أما الحادث الثاني فكان جلوسه وحديثه معها ما يقرب من نصف الساعة قبل عودة «إمَّا» من زيارتها في صباح آخر يوم زارهم فيه في «هارتفيلد»، رغم أنه قال عند دخوله، أنه لا يستطيع أن يمكث إلا أقل من خمس دقائق، ثم ما ذكره في أثناء حديثهما حين قال إنه وإن كان عليه إن يذهب إلى لندن، فقد كان بوده ألا يترك بيته أبدًا، وهو اعتراف (شعرت به «إمَّا» كذلك) فاق كل اعتراف منه لها من قبل، بل لقد آلمت هذه الثقة الفائقة التي أبداها نحو هاريت وقتها إحساس، «إمَّا».

وبعد أن فكرت «إمَّا» قليلًا في موضوع أول الحادثين، أقدمت على توجيه السؤال الآتي لهاريت:

«ألا يجوز أنه -، أليس من الممكن- أنه عندما كان يسأل، كما - تظنين، عن علاقتك العاطفية، ربما كان يشير إلى «مستر مارتن»، وأن «مستر مارتن»، هو

الذي كان في ذهنه وقتها؟».
ولكن«هاريت» رفضت هذا الرأي بشدة وهي تقول:
«لا، «مستر مارتن»؟ كلا ولا شك! فلم يكن هناك أي تلميح عن «مستر مارتن»، وأرجو أن أكون الآن أكثر إدراكًا فلا أهتم بمستر «مارتن»، أو حتى يظن بأني أهتم به؟.
فلما انتهت «هاريت» من بسط قصتها، جعلت تستحلف عزيزتها «مس وودهاوس»، إذا كانت لا ترى ما يعزز الأمل عندها، وقالت:
«ما كنت أجرؤ على التفكير في ذلك أول الأمر لولاه، إنك أشرت عليّ بأن أراقبه بعناية، وأن أجعل سلوكه نبراسًا أسير على هدية، وهذا بالضبط هو ما فعلته، ولكن يخيل إليّ الآن أنني أصبحت جديرة به، وأنه إذا ما اختارني فلن يكون في ذلك ما يثير دهشة كبيرة».
وكان لما أثاره هذا الكلام من المشاعر المريرة، المشاعر المتعددة القاسية، ما جعل «إمَّا»، تبذل كل ما عندها من جهد، لكي تقوى على أن تقول ردًا عليها:
«لن أستطيع يا «هاريت» أن أصرح الآن بشيء سوى أن «مستر نيتلي» هو آخر من يحاول عامدًا أن يجعل أية سيدة تفكر في أنه يتجه إليها بعواطفه بأكثر مما يخالجه من عواطف نحوها بالفعل».
ونظرت «هاريت» إلى صديقتها كأنها تريد أن تضعها في مكانة القديسات لهذه الجملة التي صادفت هوى في نفسها، ولم ينقذ «إمَّا» مما كانت ستقاسيه من إنطلاقات الفرح والتدليل، إلا سماعها وقع أقدام أبيها، إذ كان يجتاز البهو في طريقه إليهما. وأحست هاريت باضطراب شديد جعلها تخشى مقابلته، فهي لا تستطيع أن تتمالك نفسها، وفي هذا ما قد يزعج «مستر وودهاوس»، ومن الأفضل خروجها الآن، وبتشجيع من صديقتها خرجت من باب آخر. وكانت لحظة خروجها هي اللحظة التي تركت فيها «إمَّا» العنان لعواطفها، فانطلقت تقول:
«رباه!! ليتني لم أرها أبدًا».
واستبدت بها أفكارها بقية اليوم، والليلة التالية، وظلت في حيرة من أمرها بسبب ما تكاثر عليها من أحداث مربكة في خلال الساعات القليلة الماضية، فقد كان لها في كل لحظة دهشة جديدة وكان لا بد أن تأتي كل واحدة منها بما يجرح كرامتها -، كيف يتأتى لها أن تفهم كل هذا! كيف تدرك الخداع الذي كانت تمارسه هي نفسها ولا تزال تعيش فيه؟ وكيف تفهم الأغلاط التي وقعت فيها، الغشاوة التي نزلت على عينيها، والوقر الذي أصاب أذنيها؟ وتجولت هنا وهناك، ولاذت بحجرتها، وهرعت إلى شجيرات التوت، ولكنها في كل محاولة من هذه المحاولات، في كل مكان، وفي كل وضع، أدركت أن سلوكها كان مستضعفًا للغاية، وأن الآخرين خدعوها خداعًا يحز في نفسها، وأن خداعها لنفسها كان أكثر الخداع إيلامًا للنفس، وأنها كانت تعسة، وقد لا يكون يومها هذا إلا بداية لتعاسة مستمرة.

وكان أول ما اتجهت إليه في محاولاتها أن تفهم حقيقة قلبها وأن تقف على كنهه، وكرست لهذا الغرض كل لحظة وجدت نفسها فيها في حل من مطالب أبيها، وكل لحظة شرد فيها تفكيرها تلقائيًا.
وعجبت كم من الزمن مضى عليها وهي تحتفظ لمستر «نيتلي» بهذا الإعزاز في قلبها، الذي تنطق به كل مشاعرها الآن، متى بدأ سلطانه عليها؟ هذا السلطان الجارف، ومتى نجح في الوصول إلى هذه المكانة من حبها، التي كانت بعض الوقت، ولمدة قصيرة «لفرانك تشرشل»؟. وعادت «إمَّا» إلى الماضي تحاول أن تقارن بين الاثنين، قارنت بينهما بمقياس تقديرها كما بديا لها منذ أن تعرفت بثانيهما، وكما كان يجب أن تقارن بينهما في أي وقت مضى لو أن هذه المقارنة قد خطرت على بالها، فلو أن الحظ واتاها لكانت قامت بتلك المقارنة ولكنها بقيت ترى«مستر نيتلي» أفضل الاثنين بكثير، في أي وقت، وتعتز بتقديره لها أكثر من اعتزازها بتقدير الآخر. وتكشف لها الآن أنها إنما كانت تخدع نفسها حين كانت تحاول أن تقنع نفسها بغير ذلك، وأنها كانت لا تعرف من أمر قلبها شيئًا. ومجمل القول أنها لم تتعلق «بفرانك تشرشل» حقيقة في يوم من الأيام.
هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها نتيجة لتفكيرها الذي انصرفت
إليه في هذه المرحلة، وهذا مبلغ علمها عن نفسها ردًا على أول استفسار من الاستفسارات التي وضعتها نصب عينيها، دون أن يستغرق منها ذلك وقتًا طويلًا. لقد بلغ بها الأسى والغضب مبلغًا، وأخجلتها مشاعرها جميعًا إلا واحدة، هي شعورها بأنها تحب «مستر نيتلي» - أما كل ما عدا ذلك مما شغل بالها، فقد كان في نظرها شيئًا ذميمًا تمجه النفس.
لقد كانت تؤمن في زهو لا يحتمل، بأنها عليمة بخفايا مشاعر الناس جميعًا، وكانت لها جرأة لا تغتفر على إقحام نفسها في شؤونهم بغية تنظيم مصائرهم، وقد أثبتت الآن فشلها في كل ذلك. بل لم يقف الأمر عند مجرد الفشل في تحقيق شيء، فقد أثمرت خططها شرًا بدلًا من أن تثمر خيرًا، فأساءت إلى «هاريت»، بقدر ما أساءت إلى نفسها، ويخشى أن تكون على وشك الإساءة الآن إلى «مستر نيتلي». فلو أن هذه الزيجة غير المتكافئة تمت، لوقع اللوم على كاهلها دون سواها - لأنها هي التي تكون قد مهدت لها، لأن حبه لها ما كان يمكن أن يتأتى إلا استجابة لشعوره بأنها تعلقت به. وحتى إذا لم يكن هذا هو الوضع، فهي المسؤولة أولًا وآخرًا عن معرفته بها فلولاها لما كانت له فرصة مقابلة مستر «نيتلي» و«هاريت سمث»! عجبًا!! إنها الزيجة تحمل من عناصر الدهشة ما لا تحمله غيرها. لقد صار ارتباط «فرانك تشرشل» «بجين فيرفاكس»، إذا قورن بذلك، شيئًا عاديًا لا جدة فيه، شيئًا لا يثير قيلًا ولا قالًا، ولا ينبئ باتساع الشقة بين الزوجين. «مستر نيتلي» و «هاريت سمث»!! ما أعظم ما تنطوي عليه هذه الزيجة من رفعة لقدرها وحط لقدره. نعم لقد أفزع «إمَّا» مجرد التفكير فيما سيحل به من سقوط في أعين الناس، فيتلقونه وإبتسامات

السخرية على وجوههم، ويودعونه وعبارات الاستهزاء على أفواههم، ويتحدثون عنه فيجعلونه موضع تهكمهم. أضف إلى ذلك ما يلحق بأخيه من عار وذلة، وبه نفسه من آلاف المتاعب».
«أيكون هذا؟ لا، لا، أنه مستحيل، ومع ذلك فهو يبدو بعيدًا جدًا عن أن يكون مستحيلًا. وهل من الحقائق المستحدثة في الحياة أن يقع رجل له من القدرات ما يعد في المرتبة الأولى، أسيرًا لقوى أدنى منه بكثير؟ وهل من المستحدثات أن رجلًا كثرت أعماله، فشغلته عن البحث عن المرأة التي تناسبه، تظفر به فتاة قادرة على أن تبحث عنه؟ هل من المستحدث على أي شيء في الوجود، أن يكون الإنسان غير متكافئ، أن يكون متباينًا مختلفًا عن غيره، أو أن تكون الفرص والمناسبات (كأسباب ثانوية) هي التي توجه مصير الإنسان؟».
«آه! لو أنها لم تعمل أبدًا على الارتفاع بهاريت!! لو أنها كانت تركتها حيث يجب أن تكون، وحيث أخبرها هو نفسه أين يجب أن تكون!! لو أنها لم تمنعها بغباء لا يمكن لإنسان أن يتصوره عن الزواج من ذلك الشاب الذي لم يكن له ما يضيره، وكان خليقًا بأن يساعدها ويجعلها محترمة في الوسط الذي يجب أن تظل تنتسب إليه. فلو أن شيئًا من ذلك تم، لكان كل شيء الآن في أمان، ولما وقع شيء من هذا الموقف المزعج».
عجبًا! كيف تطاولت «هاريت» فجرؤت على أن تسمو بأفكارها إلى «مستر نيتلي»! كيف جرؤت على أن تتصور أن رجلًا من هذا الطراز قد اختارها، إلا أن تكون واثقة من ذلك! ولكن «هاريت» كانت الآن أقل شعورًا بالوضاعة، وأقل إنصياعًا لوخز الضمير عن ذي قبل، ولم يعد خضوعها السابق، سواء في العقلية أو في المكانة شيئًا ملموسًا. بل لقد جاء وقت كانت تشعر فيه بأن تنازل «مستر ألتن» إلى الزواج بها فيه تصغير لشأنه، بأكثر مما تشعر به الآن إذا تزوجها «مستر نيتلي». وا أسفاه!! ألم يكن هذا كذلك من غرس يديها؟ إذ من غيرها تجشم المتاعب ليجعل «هاريت» تفكر في أنها ذات أهمية من غيرها؟ نعم، من الذي علمها أن تعلو بنفسها ولقنها بأن لها من الصفات ما يؤهلها لمرتبة عالية في الحياة إلا هي نفسها. فإذا كان الغرور قد استولى الآن على «هاريت» يعد ذلة ومسكنة، فلم يكن ذلك إلا من عملها.

الفصل الثامن والأربعون

ظلت «إمَّا» وهي المهددة الآن بفقد سعادتها، لا تعلم حتى هذه اللحظة مدى توقف هذه السعادة على أن تكون هي المفضلة لدى«مستر نيتلي»، وأن تكون أكثر من تحظى باهتمامه ومحبته. ولما كانت قد ظلمت طيلة حياتها وهي مقتنعة بأنها المفضلة عنده، وأن من حقها أن تكون كذلك، فقد نعمت بهذا الاقتناع دون تفكير، ولم تدرك أهمية ذلك إلا حين رأت الخطر يهدد سعادتها، وبان لها أن من المحتمل أن تحل غيرها محلها. نعم لقد ظلت وقتًا طويلًا، وطويلًا جدًا، وهي تشعر بأنها هي المقربة الأولى إليه، فهو لم يكن له معارف من السيدات، وكانت الوحيدة التي كانت له صلة بها غيرها «إيزإبلا» التي كانت تقف منها موقف الند، في أية مقارنة تعقد بينهما لتكون إحداهما المفضلة عنده. وقد كانت تعلم بالضبط مدى حبه واحترامه لإيزابلا، بقدر ما كانت تعلم أنها هي نفسها ظلت سنوات عديدة وهي صاحبة الحظوة عنده، رغم أنها لم تكن جديرة بهذه الخطوة، فهي كثيرًا ما أهملته، وخالفته، واستخفت بنصحه، أو تعمدت معارضته، وهي فوق ذلك لا تكاد تشعر بنصف ما له من مواهب، وتتشاحن معه لأنه كان لا يقرها على رأيها ولا يستسيغ منها مبالغتها في قدر مواهبها. ومع ذلك فقد كان بحكم العادة وبحكم الصلة العائلية التي تربطهما، وبحكم تحيزه العقلي، يحبها ويرعاها منذ طفولتها، محاولًا اصلاحها - قلقًا عليها كي يحملها على انتهاج طريق الصواب. لم يكن يشاركه في هذه الرعاية أحد إطلاقًا. وكانت تعلم أنه على الرغم من كل أخطائها يعزها. بل لعلها تستطيع أن تقول إنه كان يعزها جدًا - ومع هذا، فلما أخذت بواعث الأمل التي كان لابد أن تثمر بعد ذلك، تبدو في الأفق أمامها؛ لم تستبح لنفسها أن تسايرها أو تمسك بزمامها. وقد تظن «هاريت سمث» بأنها المفضلة عنده دون سواها، وأنها جديرة بأن يهيم بها «مستر نيتلي» حبًا، أما هي فلا تستطيع أن تزعم لنفسها شيئًا من ذلك، ولا يمكنها أن تخدع نفسها فتزعم أنه يحبها حبًا أعمى – ولقد ظهر لها مؤخرًا ما يدل على أن صلته بها كانت بعيدة عن التحيز أو الممالأة. وكم كان وقع سلوك «إمَّا» نحو «مس بيتس» شديدًا عليه! كيف أنه تحدث إليها في ذلك. وإذا لم يكن فيما قاله لها وقتها غلظة، إذا قيس بعظم الجرم الذي ارتكبته، فقد كان ولا شك كلامًا قاسيًا في عرف العواطف الرقيقة التي تسمو على مجرد العدالة المنزهة، والطيبة التي تقوم على صفو النفس. ولم يكن لها

أمل، بل ولا ما يشبه الأمل، في أن يكن لها من الحب ما يجوز أن يشغل بحثه بالها الآن، إلا أمل واحد (ضعيف أحيانًا وقوي أحيانًا أخرى)، هو أن تكون دي «هاريت» قد خدعت نفسها فبالغت فيما يوليها من تقدير، وفسرته على أنه قد أغرم بها. وكان لا بد «لإمَّا» أن ترجو ذلك، لا من أجلها، بل من أجله هو، حتى وإذا لم يعد عليها هذا بفائدة إذا هو ظل دون أن يتزوج. فلو أنها ضمنت ذلك ووثقت من أنه سيظل أعزبًا طول حياته لطابت نفسها لذلك ورضيت به كل الرضى. ليبق إذن كما كان «مستر نيتلي» كما هو، بالنسبة لها ولأبيها، وبالنسبة للعالم أجمع ولتستمر الصلة الغالية بين «دونول» و«هارتفيلد» على حالها دون أن تفقد شيئًا من أواصر الصداقة والثقة التي تشدهما إلى بعضهما. إذن لضمنت منتهى الطمأنينة والراحة النفسية. أما الزواج منه فلن يجديها شيئًا، فهو لا يتفق مع ما هي مدينة به لأبيها، ولا مع ما تشعر به نحوه من واجب، وهي لن تتزوج حتى ولو كان «مستر نيتلي» هو الذي طلب زواجها. بل أن أمنيتها الملحة يجب أن تكون في أن ترى «هاريت» وقد باءت بالفشل فيما كانت ترجوه. وراودها الأمل في أنها قد تستطيع إذا رأتهما معًا مرة أخرى، التأكد على الأقل من فرص هذا الفشل، وإذن فلا بد من تشديد الملاحظة عليهما من الآن وإذا كان شعورها بالبؤس قد اشتد بها لفشلها حتى الآن في أن تلحظ حتى أولئك الذين كانت تجعلهم موضع رقابتها، فقد عز عليها أن تعترف لنفسها أنها يمكن أن تكون قد بقيت مغمضة العين في هذه الحالة. لقد كانت عودته مرتقبة يومًا بعد يوم، وعما قريب ستلعب قوة الملاحظة دورها، وما أسرع ماذا كانت قوة الملاحظة فيها تظهر عندما تتركز أفكارها في مجال واحد. وقد عولت في الوقت نفسه على ألا ترى «هاريت»، فليست لإحداهما في رؤية الأخرى منفعة الآن وليس من المصلحة أن يثار الحديث في الموضوع أكثر من ذلك، وصممت على ألا تقتنع حيث يمكن أن تتشكك، ومع ذلك فلم يكن لها من السلطان ما تقاوم به ثقة «هاريت» بنفسها، ورأت أنه لن يكون من وراء الكلام إلا الإثارة، ومن ثم فقد كتبت إليها ترجوها في ضعف مقرون بالحزم، ألا تأتي إلى «هارتفيلد» في الوقت الحاضر، وأكدت لها رأيها الجازم بأن من الأفضل تجنب كل المناقشات الخاصة بينهما في موضوع معين، وأبدت أملها أنه إذا ما انقضت أيام قلائل لا يلتقيان فيها - إلا أن تكون المقابلة وسط جماعة - فلن يكون لها اعتراض إلا على أن يكون الحديث بينهما على انفراد - فقد يكون في استطاعتهما أن يتناسيا ما دار بينهما من حديث بالأمس. وانصاعت «هاريت» لذلك ووافقت وهي شاكرة.

وما كاد الاتفاق يتم على ذلك حتى أقبل زائر ليبتعد بأفكار «إمَّا» بعض الشيء عن الموضوع الوحيد الذي ظل يشغل أفكارها في نومها وفي يقظتها طوال الأربع والعشرين ساعة التي انقضت. ولم يكن هذا الزائر سوى «مسز وستن» التي كانت قد انتهت من زيارة لمن اختارها ابن زوجها لتكون حليلته، ورأت وهي في طريقها إلى بيتها أن تمر بهارتفيلد استجابة

لواجبها نحو «إمَّا» من جهة، ولأنها من جهة أخرى وجدت في ذلك ما يسرها، ولكي تروي لها جميع تفاصيل تلك المقابلة الهامة.

وكان «مستر وستن» قد صحبها إلى بيت «مسز بيتس» وأدى نصيبه من الرعاية الضرورية بمنتهى الرقة، واستطاعت، «مسز وستن» بعد ذلك أن تقنع «مس فيرفاكس» بالخروج معها لتشم الهواء، ومن ثم فقد عادت الآن وفي جعبتها الكثير لتقوله «لإمَّا» مما جمعته خلال نزهتهما في الهواء، مما كان لا يتاح لها، لو أنها أمضت ربع ساعة في حجرة استقبال «مسز بيتس» بكل ما كان يعترضها من المشاعر الثقيلة المحرجة.

وأثار ذلك شيئًا من غريزة الاستطلاع في «إمَّا» فاستغلتها إلى أقصاها بينا كانت صديقتها تقص عليها أخبارها. لقد خرجت«مسز وستن» لتقوم بزيارة مس «فيرفاكس» وهي تشعر باضطراب كبير في داخل نفسها، وما كانت تود في بادئ الأمر أن تذهب إطلاقًا في الوقت الحاضر، بل كانت ترى أن يسمح لها بدلًا من ذلك بالكتابة إلى «مس فيرفاكس» لا أكثر، وأن تؤجل زيارة المجاملة حتى يمضي بعض الوقت ويوافق «مستر تشرشل» على إعلان الخطبة – إذ لما كانت تنظر إلى الشيء من جميع جوانبه، فقد رأت أن مثل هذه الزيارة لا يمكن أن تتم دون أن تثير الأقاويل – ولكن «مستر وستن» كان يخالفها في هذا الرأي، ويتوق إلى إظهار موافقته الكاملة لمس «فيرفاكس» وأسرتها، ولم ير في مثل هذه الزيارة ما يثير الظنون، حتى إذا كان فيها ما يثير الظنون، فقد كان يرى مع ذلك أنه ليس هناك ما يضير في أدائها. فإن مثل هذه الأشياء على حد قوله: «لا بد أن تتداول بين الناس»، وابتسمت «إمَّا» وقد شعرت بأن «مستر وستن» كان محقًا فيما قال. وبالاختصار توجها للزيارة معًا، وبلغ ارتباك الفتاة درجة كبيرة حتى عجز لسانها عن الكلام، ودلت نظراتها وأفعالها على عمق ما كانت تعانيه من المشاعر. لقد كان منظرًا يبعث على الرضى، أن يريا السيدة العجوز وهي راضية القلب هادئة، بقدر ما غمرت ابنتها الفرحة واشتد بها السرور، حتى منعها عن الثرثرة كعادتها. ومع ذلك فقد كانتا - الأم والابنة - وقورتين في سرورهما، مبرأتين من كل أنانية، لا تهتمان بنفسهما إلا قليلًا، بينما تهتمان «بجين» وبكافة الناس كل الاهتمام حتى أجمعت القلوب على حبهما وشمولهما بكل مشاعر العطف والحنان.

وقد أتاح مرض «مس فيرفاكس» فرصة طيبة «لمسز وستن» كي تدعوها للتريض في الهواء الطلق، فلم تقبل في أول الأمر واعتذرت، ولكنها رضخت بعد إلحاح، وبينما كانتا تسيران بالعربة، تغلبت «مسز وستن» بشيء من التشجيع الرقيق على كثير من الحرج الذي كان يضايق «مس فيرفاكس» حتى جذبتها إلى الحديث في الموضوع الهام، وانطلقت «مس فيرفاكس» تعتذر عما بدا منها من صمت غير كريم في أول مقابلتهما، وتعبر بحرارة عما ظلت تشعر به دائمًا نحوها ونحو «مستر وستن» من أن الاعتراف بالجميل، فكان ذلك عذرًا لفتح طريق الحديث ِبينهما فيما هو أهم، فما كادت ِتنتهي من ِالتعبير

عن المشاعر المتدفقة حتى أخذتا تتحدثان عن الخطبة حالًا ومستقبلًا، فقد كانت «مسز وستن» على يقين من أن حديثًا كهذا لا بد أن يخفف كثيرًا عن رفيقتها التي ظلت تكبت كل شيء في نفسها فترة طويلة، وسرها كثيرًا ما قالته في ذلك الموضوع.

وواصلت «مسز وستن» كلامها تقول: ! لقد تحدثت إليّ طويلًا وبحرارة عما قاسته من ألوان البؤس من جراء إخفاء نبأ هذه الخطبة كل هذه الشهور الطويلة. وإليك تعبيرًا من تعبيراتها في هذا الصدد: «لن

أقول إني لم أهنأ في بعض اللحظات بعد أن بدأت هذه الخطبة، ولكن يمكنني أن أقول إني لم أتذوق نعمة الهدوء ساعة واحدة، - وكان ارتجاف شفتيها وهما تنطقان بهذه العبارة برهان على ما كانت تشعر به في قرارة نفسها.

وقالت «إمَّا»: «ما أبأس الفتاة!! إذن فهي ترى أن موافقتها على الخطبة في جو من السرية كانت خطأ».

«خطأ!! أعتقد أنه ليست هناك من يقدر على لومها بأكثر مما تجنح إليه هي من لوم نفسها، لقد قالت:

«وقد ترتب على ذلك أني أصبحت أعاني حالة مستمرة من الألم، بل هذا ما يجب أن أتحمله، ولن يجدي الألم ولا العقاب الذي يحل بالمرء لابتعاده عن الطريقة القويم في التقليل من هذا، فالألم لا يكفر عن الخطيئة.

وأنا لا يمكن أن أكون غير ملومة، فلقد سلكت طريقًا يتجافى مع ما أشعر بأنه الصواب، بل أن ضميري ليحدثني بأن ما أسفر عنه هذا الخطأ من توفيق وعطف سابغ، ما كان يجب أن يكون، وواصلت حديثها تقول:

«ولا تتصوري يا سيدتي أنني لم تحسن تربيتي، أو تعودي عليّ باللائمة على المبادئ التي لقنني إياها الأصدقاء الذين تولوا تنشئتي، ولا على الرعاية التي حبوني بها، فلقد كان الخطأ خطئي، وأؤكد لك أنه مع كل ما قد يبدو من الأعذار في الظروف الحالية فإني لا زلت أخشى أن يعلم المقدم «كامبيل» بهذه القصة». وعادت «إمَّا» تقول: «ما أبأس الفتاة! أظنها إذن تحبه حبًا جارفًا، ولا بد أنها انساقت إلى الخطبة بدافع من حبها وحده، ولا بد أن الحب تغلب على العقل في حالتها».

«أجل ولست أشك في أنه ملك عليها فؤادها».

وعادت «إمَّا» تقول وهي تتنهد: «آخشى أن أكون قد أسهمت في زيادة تعاستها حالات عديدة».

«إن ما فعلتيه يا حبيبتي أنما فعلتيه من ناحيتك ببراءة وحسن نية، وربما يكون قد دار في ذهنها شيء من ذلك عندما أشارت إلى سوء التفاهم الذي ألمح لنا به «فرانك » من قبل، فقد قالت هي نفسها أن من النتائج الطبيعية للشر الذي زجت بنفسها فيه، أن فقدت قدرتها على الفهم المنطقي السليم، فقد عرضها شعورها بأنها أخطأت، إلى تيار جارف من بلبلة الفكر، وجعلها سريعة الانفعال إلى دِرجةٍ كان من العسير عليه فعلًا أن يتحملها وهكذا على حد قولها «عجزت

عن أن أبدي ما يجب عليّ من التسامح بإزاء مزاجه ومشاعره - مشاعره المبتهجة ومرحه وميله إلى الدعابة، تلك المشاعر التي أعتقد أنها كانت في ظروف أخرى تأسر فؤادي، كما كانت تأسره في بداية الأمر» - ثم أخذت تتحدث عنك، وعما أسبغت عليها من العطف والحنان في أثناء مرضها، وأبدت لي رغبتها، وعلى جهها حمرة دلت على أن كل هذه الأحداث كانت مرتبطة بعضها ببعض، في أن أشكرك إذا ما أتيحت لي الفرصة لأفعل ذلك - ولا يسعني أن أكيل لها الشكر على كل ما بدا منك من رغبة طيبة، وكل محاولة لإسداء الخير لها. لقد كانت تشعر بأنها لم توفك حقك من الاعتراف بالجميل بالمرة؟.
وقالت «إمَّا» وهي جادة: «ما كنت لأتحمل مثل هذا الشكر لولا أنني أعلم بأنها سعيدة الآن، وهو ما يجب أن تكون عليه، على الرغم من كل النقائص التي يسببها لها ضميرها الحي - آه يا «مستر وستن»، لو أن هناك قائمة تسجل ما قدمت لمس فيرفاكس من خير وشر! – أجل (وكبحت جماح نفسها وحاولت أن تكون أكثر حيوية) يجب أنا ننسى كل هذا الآن، وإنه لكرم عظيم جدًا منك أن تأتيني بهذه التفاصيل الهامة، فيما تظهرها في أسمى صورة، وآنا واثقة بأنها طيبة جدًا، وأرجو لها كل سعادة، وما من شك في أنه هو السعيد، فهي في نظري قد حوت كل الفضائل».
وما كانت تلك الخاتمة لتمر على «مسز وستن» دون أن تلقى منها جوابًا – فلقد كانت تحسن الظن «بفرانك تشرشل» من كل ناحية من نواحيه، وهي علاوة على ذلك تحبه من أعماق قلبها، ومن ثم كان دفاعها عنه يتسم بالجدية. كانت تتكلم الآن كلامًا منطقيًا لا يضارعه إلا حبها له، على أن انتباه «إمَّا» كان قد شرد في نواح أخرى، فسرعان ما انتقل إلى ميدان «برنزويك»، والى «دونول»، فلم تحاول الإصغاء إليها فلما ختمت «مسز وستن» كلامها بقولها: «لم يصلنا حتى الآن الخطاب الذي ننتظره بفارغ الصبر، ولكني آمل أن يصل سريعًا» - وجدت «إمَّا» نفسها مضطرة الى السكوت فترة قبل أن تجيب، وأخيرًا وجدت أنه لا مناص من الإجابة كيفما كان، قبل أن تتذكر أي خطاب هذا الذي كانوا يتشوقون إلى وصوله.
وسألتها «مسز وستن» وهي تهم بالانصراف:
«هل أنت بخير «إمَّا»؟».
«أجل، وعلى أحسن ما يجب أن أكون، وأنا بخير على الدوام، وأرجو ألا تنسي إخطاري عن الخطاب بأسرع ما يمكنك».
لقد أذكت الأخبار التي أتت بها «مسز وستن» ما كان يراود «إمَّا» من أفكار غير سارة، لأنها رفعت من قدر «مس فيرفاكس» في نظرها بقدر ما زادتها إشفاقًا عليها، وأذكت شعورها بأنها لم تكن منصفة لها فيما مضى. وحز في قلبها أنها لم تبحث من قبل عما يقوي صلتها بها، واحمر وجهها خجلًا لما كانت تشعر به نحوها في ذلك الوقت من حسد، كان ولا شك السبب في ذلك إلى حد ما - فلو انها اتبعت ما كانت تعلمه من رغبات «مستر نيتلي» وأولت «مِس فيرفاكس»

الرعاية التي هي جديرة بها من كل الوجوه، أو أنها حاولت أن تكون أحسن فهمًا لها، أو لو أنها قامت بما من شأنه أن يوثق الألفة بينها وبينها، أو حاولت أن تجعل منها صديقة بدلًا من «هاريت سمث» ، فمن المرجح أنها كانت توفر على نفسها الألم الذي يلاحقها الآن، فلقد كان لإحداهما من حيث المنبت والقدرة والتعليم كما يؤهلها لأن تكون رفيقة لها وأن تلقاها وهي شاكرة ممتنة، أما الأخرى فما عساها أن تكون؟ وحتى على فرض أنهما لم تصبحا صديقتين حميمتين، وأن «مس فيرفاكس» لم تجعلها موضع ثقتها ومستودع سرها في هذه المسألة الهامة - وهو أكثر الأشياء احتمالًا - فإن تعرفها اليها كما يجب، وما كان في مكنتها، كان لا بد أن يعصمها من الظنون الكريهة التي راودتها عن وجود علاقة غير مستحبة بينها وبين «مستر دكسون»، وهي ظنون لم تتصورها وتحتضنها عن جهالة فحسب، ولكنها نقلتها إلى غيرها من الناس بما لا يمكن أن يغتفر لها. وارتعدت «إمَّا» لما يمكن أن يكون قد نال من مشاعر «جين» الرقيقة بسبب ذلك، وما يتسم به «فرانك تشرشل» من نزق وخفة. واسترسلت «إمَّا» في تفكيرها حتى أصبحت تؤمن بأنها أسوأ مصادر الشر التي أحاطت «جين فيرفاكس» منذ أن جاءت إلى «هايبري » قاطبة، وأنها لا بد كانت العدو الدائم لها، وأنه ما اجتمع ثلاثتهم يومًا، إلا وكانت «إمَّا» تعكر على «جين فيرفاكس» صفوها في أكثر من ألف مناسبة، وأن الكيل طفح بسلوكها في يوم «بُكس هل».

وطالت أمسية ذلك اليوم وخيمت عليها الكآبة في «هارتفيلد»، وزادت حالة الطقس ما أمكنها من تلك الكآبة. فهطلت الأمطار في جو عاصف بارد، ولم يبد من مظاهر شهر يوليو إلا ما كان يتوج الأشجار والشجيرات من ثمار وأزهار عبثت الرياح به، وعملت على اغتصابه منها، وإلا ما كان من طول النهار، مما جعل رؤية مثل هذه المناظر القاسية أكثر وضوحًا.

وكان للطقس أثره على «مستر وودهاوس»، ولم يحفظ عليه هدوءه وسكينته إلا عناية ابنته به، التي تكاد لا تتوقف، وما كانت تبذله من أجله من جهد لم تكابد نصفه من قبل، وقد دفعها ذلك إلى أن تذكر أول مرة كانا فيها على انفراد في مساء ذلك اليوم الذي تزوجت فيه «مسز وستن»، حين دخل عليهما «مستر نيتلي» عقب تناول الشاي مباشرة فبدد ما كان يخيم على جوهما من كآبة. واستبد بها تفكيرها الآن في كل اتجاه. واحسرتاه!! إن مثل هذه البراهين البهيجة التي تدل على ما في «هارتفيلد» من جاذبية وكانت تجعلها محط مثل هذه الزيارات قد تصبح قريبًا أثرًا بعد عين. لقد كانت الصورة التي رسمتها في تلك الليلة البعيدة عن الحرمان الذي سوف يأتي به إليهم الشتاء المقترب صورة لا أساس لها وسرعان ما ظهر خطؤها، فلا الأصدقاء تخلوا عنهم، ولا المسرات كانت تنقصهم. أما الآن فقد كان أخشى ما تخشاه ألا تؤدي تكهناتها بالمستقبل إلى مثل هذه النتيجة العكسية، فقد كان المستقبل الذي يواجهها الآن مليئًا بالنذر، إلى درجة لا يمكنها أن تطرحها وراء ظهرها، بل قد لا تحمل

في طياتها بارقة أمل واحدة. فلو أن ما يحتمل حدوثه في محيط الأصدقاء حدث بالفعل، فإن هارتفيلد لا بد أن تصبح مكانًا منسيًا نسبيًا، وأن تترك «إمَّا» لتروح عن أبيها بمشاعر لا تعدو أن تكون قائمة على أنقاض سعادة محطمة.

وإن الطفل الذي سوف يولد في «راندولز» لا بد أن يكون رابطة أعز وأقوى عندهم، حتى منها هي نفسها، ولسوف يستحوذ على قلب «مسز وستن» ويشغل كل وقتها، ولا بد أن يحرموا منها في النهاية.، ومن زوجها كذلك. وكذلك «فرانك تشرشل»، فهو لن يكون بينهم بعد الآن، ومن المنطق ألا تعود «مس فيرفاكس» إلى «هايبري» سريعًا فلسوف يتزوجان ويستقران في «أنسكومب» أو على مقربة منها. وهكذا سوف تحرم «هايبري » من كل ما هو حسن فيها، فإذا أضيف إلى هذه الخسائر ضياع «أبرشية دونول » فمن ذا الذي يبقى بعد ذلك من ذوي الوجوه المشرقة أو العقول الراجحة في مجموعتهم؟ إن «مستر نيتلي» لن يأتي بعد ذلك لينعم بالراحة عندهم في أمسياته،! ولن يدخل بيتهم في أية ساعة من ساعات النهار، كأنما يود لو استبدل بيته ببيتهم! كيف يمكن تحمل هذا؟ فإذا هم حرموا الآن منه ما أجل «هاريت»، أو اعتقدوا أنه وجد في صحبة «هاريت» كل ما يبتغيه، أو إذا كانت «هاريت» زوجته المختارة، السيدة الأولى والصديقة العزيزة والزوجة المحبوبة التي يرى فيها كل ما في الوجود من النعم، فأي شيء يمكن أن يزيد من تعاسة «إمَّا» سوى ما يراود فكرها ولا يبارحه إطلاقًا بأن كل هذا كان من غرس يديها؟

وعندما وصل بها تفكيرها إلى مثل هذه الدرجة، لم تتمالك نفسها من أن تفزع وتتنهد بقوة، أو أن تتجول بضع ثوان في الحجرة ولم يعد أمامها من ينبوع تلتمس منه شيئًا من السلوى أو الصبر على بلواها إلا تصميمها على أنه تحسن من سلوكها، وأملها في أنه مهما كان الأمر في الشتاء القادم وفي كل شتاء يأتي بعده، من نقص في المسرات، وشعور بالضجر، فإنها ستكون مع هذا أكثر تعقلًا وأكثر معرفة بنفسها وأقل أسفًا عليه إذا انقضى.

استمر الطقس على حاله طوال الصباح التالي، وظل نفس الشعور بالوحدة والكآبة يخيم على «هارتفيلد» - ولكن الجو صفا وقت الأصيل، وخفت شدة الرياح، وانقشعت السحب فظهرت الشمس، وعاد الطقس طقس صيف مرة أخرى. وكان من أثر ذلك التبدل من جو إلى جو، أن زادت الرغبة في نفس «إمَّا» في الخروج، وعزمت على أن تبارح البيت بأسرع ما يمكنها. ولم يبد المنظر الخلاب، ولا النسيم العاطر، ولا الإحساس بجمال الطبيعة وما فيها من هدوء ودفء وتألق، مما يأتي عادة في أعقاب العاصفة، أكثر جاذبية لها في أي وقت مضى. وتاقت نفسها إلى ما قد يهيئه لها كل ذلك من السكينة شيئًا فشيئًا. وما كاد «مستر بري» يدخل عليهم عقب تناول العشاء المباشرة، ويعقبها من ساعة تلازم فيها أباها، حتى أسرعت إلى خميلة شجيرات التوت. هناك أخذت تتجول تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال، وقد انتعشت روحها وتحللت بعض الشيء من وطأة أفكارها، وإذا بها تبصر «مستر نيتلي» يجتاز باب الحديقة، ويتجه نحوها. كان هذا أول علمها بعودته من لندن. لقد كانت تفكر فيه قبل ذلك بلحظة واحدة، وتراه بعيدًا عنها بستة عشر ميلًا، ومن ثم لم يكن أمامها من الوقت الآن إلا ما يتسع للإسراع بجمع شتات أفكارها، إذ كان عليها أن تهدئ من روعها وأن تضبط أعصابها. ثم ما هي إلا نصف دقيقة حتى كانا معًا. فلما انتهيا من تبادل عبارات التحية التقليدية، وكانت تحية مقتضبة من الطرفين سألته عن أصدقائها المشتركين - إنهم جميعًا بخير - ومتى تركهم؟ في هذا الصباح فقط - لا بد أن الأمطار كانت تهطل خلال سفره -، نعم -.

وأدركت «إمَّا» أنه يقصد السير معها.

وتطلع إلى داخل حجرة الطعام، فلما وجد ألا حاجة إليه هناك فضل أن يخرج. ولفت نظرها أنه لم يكن في مظهره ولا في حديثه منشرح الصدر، وأوحت إليها مخاوفها أن أول ما يكون من أسباب ذلك إنه ربما قد أخبر أخاه بخطته التي يعتزمها، وأن الطريقة التي قوبلت بها تلك الخطة آلمته.

وسارا معًا وهو يلتزم الصمت، ولاحظت أنه كان في معظم الوقت ينظر إليها محاولًا أن يرى من وجهها أكثر مما كانت تريد أن يرى منه. وقد نجم عن اعتقادها هذا خوف آخر. فلعله كان يريد أن يتحدث إليها عن علاقته «بهاريت»، بل لعله كان يترقب منها تشجيعًا ليبدأ الحديث في ذلك، ولكنها لم تر في

نفسها الرغبة ولا القدرة على أن تمهد للحديث في موضوع كهذا. فإذا كان يريد أن يبدأ الحديث فيه، فعليه أن يفعل كل هذا بنفسه. على أنها لم تقو على تحمل هذا الصمت طويلًا. فلقد كان الصمت بينهما أبعد ما يكون عما جبلا عليه - وقلبت الأمر على وجوهه، واستقر رأيها أخيرًا، ثم بدأت تقول وهي تحاول أن تبتسم:

«الآن وقد عدت، فأن لدي من أخبارك ما سوف يدهشك».

فقال في هدوء وهو ينظر إليها:

«أحقًا ما تقولين؟ ومن أي نوع هذه الأخبار يا ترى؟».

«أحسن الأنواع في الدنيا، إنها أخبار عن زواج».

وبعد أن انتظر لحظة، وكأنما أراد أن يتأكد بأنها قصدت ألا تقول أكثر من هذا، أجاب:

«إن كنت تقصدين بذلك «مس فيرفاكس» و «فرانك تشرشل» فقد سمعت بهذا الخبر الآن».

وصاحت «إمَّا» تقول:

«كيف يكون هذا ممكنًا؟. قالت هذا وقد أدارت خديها المشرقين نحوه، فقد خطر لها وهي تتكلم أنه ربما زار «مسز جدرد» وهو في طريقه إلى هناء.

«لقد وصلتني من «مستر وستن» في هذا الصباح رسالة مختصرة تتعلق بمهام الرهبانية، وقد سطر في نهايتها خبرًا موجزًا عما حدث.

وزال عن «إمَّا» ما كان يثقل كاهلها، وأمكنها أن تقول في الحال وقد زادت طمأنينتها قليلًا:

«ولعلك كنت أقل دهشة من أي واحد فينا، لأن الظنون كانت تساورك. إنني لم أنس أنك حاولت مرة أن تحذرني وكان بودي لو أنني أخذت بتحذيرك (ثم بصوت خافت وتنهد مكتوم):

«ولكن يبدو أنه قد قدر على أن أعيش دائمًا في الظلام».

وساد السكوت برهة، ولم تخالجها الظنون بأنها قد أثارت بذلك اهتمامه بشيء خاص، حتى وجدته يتأبط ذراعها ويضمه إلى مكان قلبه، وسمعته وهو يقول في صوت خافت ونغمة تفيض شعورًا:

«إن الوقت يا عزيزتي «إمَّا» سوف يدمل الجرح، وأنت ذات العقل الراجح والفكر الثاقب، أنت التي تبذلين كل هذا الجهد من أجله والدك.

إنني أعلم بأنك لن تنساقي بنفسك إلى..»، ثم ضغط على ذراعها ثانية وهو يقول في كلمات أكثر تباعدًا، وأخف صوتًا: «إلى الشعور بالصداقة الجارفة، ولا إلى المهانة وجرح الكرامة، والوعود البغيضة المبتذلة!» ثم ختم كلامه وهو يقول في صوت أعلى وأكثر انطلاقًا: «إنه سيرحل من هنا قريبًا، وسوف يكونان في «يوركشير» بعد قليل، والحق أني لحزين من أجلها، فهي جديرة بمصير أفضل».

وأدركت «إمَّا» ما يعنيه، وما كادت تفيق من غمرة السرور التي بعثها هذا التفكير الرقيق في نفسها حتى أجابت:

«إنك شديد الحدب والعطف، ولكنك قد أخطأت، ولا بد أن أردك إلى الصواب. فأنا لست في حاجة إلى مثل هذا الإشفاق، وغفلتي عما كان يحدث جعلتني أنتهج معها طريقًا لا بد أن أظل أخجل منه دائمًا، فقد

انسقت بحماقة بالغة إلى أن أقول وأفعل الكثير مما قد يجعلني ولا شك هدفًا للظنون البغيضة، ولكن ليس هناك من أسباب أخرى تجعلني آسف على أنني لم أقف على السر في وقت أكثر بكورًا».

فصاح وهو ينظر إليها في تلهف: «أحقًا أنك تخجلين مما فعلت يا «إمَّا»؟ - ولكنه تدارك نفسه وقال على الفور: «لا، لا، لقد فهمتك - سامحيني، وأنا سعيد لقدرتك على أن تبوحي حتى بمثل هذا القدر، وهو ولا شك ليس ممن يؤسف عليه! وإني لآمل أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يجد هذا القول تأييدًا من عقلك وجوارحك، وإنه لمن حسن حظك أنك لم تتورطي في حبك إلى ما هو أبعد من ذلك، وأنا أعترف بأنه ما كان يمكنني أن أتأكد من تصرفاتك ومن مدى شعورك نحوه، فلم أكن موقنًا من شيء سوى أنك كنت تفضلينه على غيره، وهو تفضيل لم أعتقد أبدًا أنه جدير به، فإنه لمن العار أن ينسب هذا الفتى للرجال، وغير معقول أن يجزى على ذلك بمثل هذه الشابة الجميلة؟ «جين، إنك ستكونين مخلوقة تعسة يا «جين».

وقالت «إمَّا» وهي تحاول أن تبدو مبتهجة، بينما كانت في الحقيقة في حالة من الحيرة والارتباك: «إني يا «مستر نيتلي» في الحقيقة في موقف شاذ للغاية، ولا أستطيع أن أدعك تسترسل في خطتك، ولكن ما دمت قد فهمت من سلوكي أني أحبه، فان من الطبيعي أن أخجل من اعترافي بأني ما أحببت أبدًا ذلك الشخص الذي تتحدث عنه بقدر ما هو من الطبيعي أن تخجل السيدة إذا اعترفت بشعور على عكس ذلك - ولكني ما أحببته أبدًا».

وأصغى إليها في سكون تام، وودت لو تكلم، ولكنه لزم الصمت، وظنت بأن عليها ألا تكون ضنينة بالكلام حتى تكون خليقة بأن تنال منه الصفح. لقد كان من العسير عليها أن تجد نفسها لا زالت مضطرة إلى التصغير من شأنها في نظره - ورغم هذا واصلت حديثها تقول:

«ليس لي ما أقوله من سلوكي إلا القليل، فلقد كان في اهتمامه بي ما أغراني وجعلني أرخي العنان لنفسي كي أبدو سعيدة. إنها القصة القديمة، القصة المألوفة، وهي لا تخرج عما حدث لمئات من بنات جنسي من قبل. ومع ذلك فقد لا يكون هذا خليقًا بالغفران إذا صدر ممن تدعي الفهم مثلي. لقد تدخلت ظروف عديدة فساعدت على الإغراء، فهو ابن «مستر وستن»، وكان يأتي هنا باستمرار، وكنت أجده على الدوام ظريفًا للغاية وبالاختصار-» (ثم استطردت وهي تتنهد): «إن في إمكاني أن أتوسع في الأسباب، وأن أغالي فيها ببراعة، ولكنها تتركز جميعها في نهاية الأمر في أنني كنت أريد آن أشبع غروري،

فسمحت له بالاهتمام بي، ومع هذا لبثت بعض الوقت في الأيام الأخيرة وأنا لا أجد لتلك الرعاية أي معنى، وظننتها شيئًا على سبيل العادة، أو الخداع، وإنه ليس فيها ما يدعوني لأن أفكر فيها جديًا. إنه خدعني، ولكنه لم ينلن بأذى، إنني لم أتعلق به يومًا، ولذلك فقد أصبحت الآن قادرة على فهم سلوكه، إنه لم يرد أبدًا أن يوقعني في حبائله، وإن ما فعله لم يرد منه
إلا أن يكون ستارًا يخفي وراءه علاقته بسيدة أخرى. لقد كان هدفه أن يعمي كل من حوله. وأعتقد أنه ما من أحد كان يسهل أن تجوز عليه الحيلة أكثر مني، غير أن كل شيء كان مكشوفًا لي، وهذا من حسن حظي، وبالاختصار فأني لسبب ما قد نجوت منه».
وكانت تأمل عند هذه النقطة أن تحظى منه برد على ما قالته، وأن يقول بضع كلمات يعبر بها عن اقتناعه بأن سلوكها كان على الأقل معقولًا، ولكنه لاذ بالصمت، ورأت على قدر ما وصل إليه ذهنها أنه كان غارقًا في بحر من الأفكار، وأخيرًا قال بنبرات صوته العادية:
«إني لم أحسن الظن «بفرانك تشرشل» أبدًا، بل ولعلني أكون قد قللت من قدره، فإن معرفتي به لا تعدو أن تكون بسيطة جدًا، وحتى إذا كنت لم أقلل من قدره فقد يبرهن على أنه غير ما ظننت، فالمجال أمامه متسع لذلك. وهو مع سيدة كهذه، وليس هناك ما يدفعنى إلى أن أرجو له سوءًا، بل أنا ولا شك أرجو له الخير من أجلها، لأني أجد سعادتها مقرونة بحسن سلوكه ودماثة خلقه».
وردت «إمَّا»: «لا شك عندي بأنهما يشعران بالسعادة معًا وأعتقد بأنهما يخلصان لبعضهما، وأن بينهما حبًا متبادلًا».
ونشط «مستر نيتلي» يقول: «إنه رجل سعيد الحظ!! إنه يخطب وهو في مقتبل العمر، في الثالثة والعشرين، فترة العمر التي إذا اختار الرجل فيها زوجته أساء الاختيار عادة ما أعجب أن يجزى بمثلها وهو في الثالثة والعشرين من عمره!! وما أكثر الأيام التي سيقضيها في حياته منعمًا!! وواثقًا من حب سيدة مثلها!! حب منزه عن الأغراض. فإن أخلاق «جين فيرفاكس» كفيلة بأن تثبت تنزهها عن الغرض وبعدها عن الأنانية. لقد كان له الغنم من كل جانب، هناك المساواة في المكانة - أعني في الوسط وفي العادات والتصرفات التي لها أهميتها. إنها مساواة في كل ناحية عدا ناحية واحدة، وما دام لا يتطرق الشك في طهارة قلبها ونقاء سريرتها، فأن تلك الناحية التي لا بد أنها ستزيد من سعادته هي التي عليه أن يمدها بها ليكمل ما ينقصها من المزايا - فالرجل يود دائمًا أن يهيئ للسيدة بيتًا أفضل من البيت الذي أخذها منه، فمن استطاع ذلك، وهو عارف بقدرها، لا بد في رأيي أن يكون أسعد المخلوقات طرًا. إن «فرانك تشرشل» ولا شك ميمون الطالع، وكل شيء ينقلب إلى ما فيه مصلحته، يقابل شابة في إحدى مدن الينابيع المائية فيكسب ودها، ثم لا يجد في نفسه القدرة حتى على مضايقتها والمعاملة الجافة، ولو أنه كان طاف

أطراف المعمورة، هو وكل أسرته بحثًا عن الزوجة الكاملة لما عثروا على واحدة تفوقها - وتقف زوجة خاله في طريقه، ولكنها لا تلبث أن تموت، ولا يبقى عليه ألا أن يتكلم، ثم ها هم أصدقاؤه جميعًا يودون أن يعملوا كل ما فيه سعادته. لقد أساء إلى الناس جميعًا، ولكن الكل يسعدهم أن يصفحوا عنه، لا شك آنه رجل سعيد الحظ».
«إنك تتكلم وكأنك تحسده».
«بل أنا أحسده يا «إمَّا» أحسده من ناحية واحدة».
ولم تقو «إمَّا» على أن تقول أكثر مما قالت، فقد بدا قاب قوسين أو أدنى من الحديث عن «هاريت»، وشعرت في الحال بضرورة تحاشي الحديث في ذلك الموضوع ما أمكنها. ورسمت الخطة التي تسير عليها. إنها ستتكلم في شيء يختلف عن هذا كل الاختلاف، إنها ستتحدث عن الأطفال في «ميدان برنزويك»، وانتظرت لكي تستعيد أنفاسها وتعود إلى الحديث معه مرة أخرى، فإذا «بمستر نيتلي» يبدأها بقوله:
«إنك لم تسأليني عما أحسده عليه؟ - وعزمت على ألا تستطلعي الأخبار، وأراك مصممة على ألا يبدو منك ما ينبئ بسيء من حب الاستطلاع. إنك عاقلة، أما أنا فليس بوسعي أن أكون عاقلًا، وإذن فلا بد من أن أذكر ما لم تسأليني عنه يا «إمَّا»، رغم أني بعد لحظة قد أود ألا أكون قلته».
وصاحت تقول في لهفة: «أوه! إذن لا تنطق به، لا تنطق به، تمهل قليلًا، وفكر مليًا! لا تورط نفسك».
فقال بصوت ينم عن ألم ممض: «أشكرك».
ولم يزد شيئًا.
ولم تحتمل «إمَّا» أن تكون سببًا في إيلامه. لقد كان يريد أن يستودعها سره، ولعله أراد أن يستشيرها فقررت أن تستمع إليه مهما كلفها ذلك، فقد تعاونه فيما اعتزمه، أو قد تجعله يرضى بما اتخذه من قرار، وقد تمتدح «هاريت» بما هي أهل له، أو تؤكد أنه حر التصرف فتزيح عن كاهله عبء الشعور بالتردد وعدم البت، وهو لا بد أن يكون أشق عليه مما يحتمله عقل كعقله.
ووصلا إلى البيت فقال:
«أظن أنك ستدخلين الآن».
وأجابته وقد تأكدت بأنه ما زال يتكلم وهو مهموم:
«لا، بل أحب أن أقوم بجولة أخرى، فإن «مستر بري» لم يخرج بعد » - ثم أردفت بعد أن خطت بضع خطوات:
«لقد كنت فظة الآن فمنعتك عن الكلام يا «مستر نيتلي» واخشى أن أكون آلمتك، ولكن لو كانت لك أية رغبة في أن تحدثني بصراحة كصديق، أو أن تسألني عن رأيي في شيء تفكر فيه، فمن حقك عليّ أن تأمرني بهذا كصديق، وسوف أستمع إلى كل ما تود أن تقوله، وسوف أخبرك تمامًا بما أراه».

وردد «مستر نيتلي» كلمتها «كصديق»! ثم استطرد يتقول:
«إنها يا «إمَّا» كلمة أخشى - لا!! لست أريد أن أقول شيئًا. ولكن مهلًا! ولماذا أتردد؟ لقد أفرطت حتى الآن في التكتم. إنني أقبل ما عرضتيه يا «إمَّا»، أقبله على الرغم مما قد يبدو فيه من غرابة. ها أنا ذا ألجأ إليك كصديق، فقولي لي إذن، أليست لي فرصة للنجاح بالمرة؟ وتوقف وهو ينتظر في قلق وقع السؤال عليها، وكان في نظراته من المعاني ما غلبها ثم قال:
«إمَّا» يا أعز عزيز، أنك ستكونين أعز الناس عندي دائمًا، مهما كانت نتيجة حديثنا هذه الساعة، يا أعز أعزائي وأحب الناس إلى قلبي يا «إمَّا»، قولي لي فورًا، قولي «لا» إذا كان لا بد أن تقوليها».
«أراك صامتة، إنك في صمت مطبق!! إني لا أطلب أكثر من هذا في هذه اللحظة».
وكادت تخور قواها بسبب ما لحقها من اضطراب في تلك اللحظة، ولعل أبرز مشاعرها كان الخوف من أن تستيقظ من أحلى أحلامها.
وعاد يقول في الحال بنبرات صوت يفيض رقة وحزمًا وإخلاصًا وتوكيدًا: «إني لا أملك عنان الكلام يا «إمَّا» ولو أن حبي لك كان أقل، لكنت قادرًا على أن أكون أكثر حديثًا عن الحب، ولكنك تعلمين ما أحسه. إني لم أعتد أن أقول لك غير الحقيقة، ولقد عُدت عليك باللوم أحيانًا وأغلظت لك القول، فتحملت ذلك مني بما لا قبل لسيدة أخرى في إنكلترا أن تحتمله. فهلا تحملت الآن يا «إمَّتي» يا أعز الأعزاء ما سوف أقوله لك من الحقائق بمثل ما تحملت اللوم وقارس الكلام من قبله. ولعلي لم أكن موفقًا في طريقة تعبيري عن حبي. علم الله لقد كنت أبدو غير مكترث في حبي، ولكنك تفهمينني حقًا. أجل إنك تعرفين مشاعري وسوف تستجيبين لها إن أمكنك وأنا لا أطلب الآن سوى أن أسمع صوتك مرة أخرى».
وكان عقل «إمَّا» وهو يتحدث، غارقًا في لُجّة من التفكير، ولكنه مع ذلك استطاع بكل ما أوتي من سرعة ألا تغيب عنه كلمة واحدة، وأن يفهم حقيقة كل شيء، وأن يستوعب ويتبين أن كل آمال «هاريت» لم يكن لها أساس مطلقًا، وأنها كانت خطأ وأوهامًا، كأي شيء خُدعت به هي نفسها، وأن «هاريت» لم تكن له شيئًا يذكر، وأنها هي كل شيء عنده، وأن كل ما كانت تقوله عن «هاريت»، إنما كان اللغة التي ترجمت بها عن مشاعرها، وأن ما انتابها من اضطراب، وما ساورها من ظنون وما هد من عزيمتها وثبط من همتها، إنما كان من غرس يديها ومنبعثًا منها هي نفسها. ولم يتسع الوقت أمامها لتستعرض كل هذه الأفكار، مع كل ما كانت تشعه في نفسها من سعادة، بل وجدت من الوقت كذلك ما تغتبط فيه لأن سر «هاريت» لم يفتها، وما يجوز أن يفوتها، ولن يفوتها، فقد كان هذا كل ما يمكن أن تؤديه لصديقتها المسكينة من خدمة فلم يكون لدى «إمَّا» من حماس العاطفة ما يحفزّها للتوسل إليه أن يتخلى عن حبها، وأن يحب «هاريت» بدلًا منها لأنها أحق منها -

ولا من علو الهمة ما يدفعها إلى رفضه في الحال، والى الأبد، دون أن تبدي سببًا لذلك، أو دافعًا سوى أنه لا يمكنه أن يتزوج الاثنتين معًا. لقد كانت تحس بالوجيعة والندم من أجل «هاريت»، لكنها لم تفكر بعاطفة جامحة غاشمة تجعلها تعارض الممكن أو المعقول. بل أضلّت صديقتها الطريق السوي، وفي هذا ما ستظل تلوم نفسها عليه دائمًا، ولكن رأيها كان كمشاعرها، قويًا، وكان في قوته الآن كما كان قبلًا، لا يُقر مثل هذه الزيجة له، لا تنطوي عليه من عدم التكافؤ، والحط من منزلته. لقد كان الطريق أمامها واضحًا، وإن لم. يكن ممهدًا كل التمهيد، لقد تكلمت الآن عندما توسل إليها أن تتكلم. فماذا قالت يا تُرى؟ قالت بالطبع ما يقال، وما تفعله النساء دائمًا، وقالت ما فيه الكفاية لتبين له أنه ليس هناك ما يدعو لليأس، ولتستدرجه كي يفصح عما هو أكثر. لقد كان بائسًا في وقت ما.

وقد رأى ما يوحي بالسكوت والحذر حتى ضاع كل أمل عنده فترة ما - لقد بدأت برفض الاستماع إليه، ثم جاء التحوَّل فكان مفاجأة إلى حد ما، وقد يكون في اقتراحها القيام بجولة أخرى الآن، وفي تجديدها لأطراف الحديث الذي كانت قد أنهته منذ قليل، بعض الغرابة! لقد شعرت بما في ذلك من تضارب، ولكن «مستر نيتلي» كان كريمًا فتغاضى عنه ولم يبحث عن تفسير له.

وإنه لمن النادر، بل النادر جدًا أن يتحرى الإنسان قول الصدق كاملًا فيما يقوله، كما أن من النادر حدوث شيء لا يخلو من بعض الخطأ أو التخفي، ولكنه قد يكون شيئًا تافهًا لا يُذكر، كما هو الشأن في هذه الحالة بالذات، حيث كانت المشاعر صادقة، وإن لم يكن السلوك فيها سليمًا، وإذن ما كان «مستر نيتلي» ليستطيع أن ينسب إلى «إمَّا» أنها أصبحت أرق قلبًا عما كانت، أو أنها صارت أكثر قبولًا لما يبديه من المشاعر. لقد كان في الواقع لا يرتاب إطلاقًا فيما له من تأثير، بل هو لم يفكر حين تبعها إلى الخميلة في محاولة التأثير عليها، بل حضر وهو قلق ليرى كيف كان وقع خطبة «فرانك تشرشل» عليها، دون أن يكون له غرض خاص، أو حتى غرض على الإطلاق، سوى أن يحاول، إذا أذنت له بان يبدأ الحديث، تهدئتها أو إسداء النصح إليها في تلك المسالة. أما الباقي فكان وليد ساعته، كان الأثر المباشر الذي أحدثه ما سمعه منها، على مشاعره، نعم فلقد كان من أثر توكيدها الساحر بأنها لا تكترث إطلاقًا

«بفرانك تشرشل» وبأنه لا يحتل أي مكان في قلبها، ما أمده بالأمل أنه هو نفسه قد يظفر بودها مع الزمن - ولكن أمله مع ذلك لم يكن يسمو إلى محاولة الظفر بودها في تلك اللحظة، فقد كان كل ما يأمله في لحظة تغلّب فيها شوقه على سلامة حكمه، أن تقول له أنها لا تحظر عليه أن يحاول كسب ودها. وكان في تفتح الآمال الواسعة أمامه رويدًا رويدًا، ما جعلها أكثر سحرًا، وغدا الآن وفي متناول يده ذلك الحب الذي كان لا يرجو من قبل أكثر من أن يسمح له بخلقه إن أمكنه، فتحوّل في غضون نصفه ساعة من حالة الوجوم والهم، إلى ما يشبه السعادة الكاملة، فليس هنالك وصف غير هذا يمكن أن يوصف به

شعوره في تلك اللحظة. ولم تكن هي أقل منه تغيرًا، فلقد أكد نصف الساعة الذي انقضى، الحقيقة، الحقيقة الغالية وهي أن كلاهما يحب الآخر، وأزال عنهما بقدر متساوٍ الشعور بالجهل والغيرة وعدم الثقة. فلقد بدأ حبه «لإمَّا» وبدأت غيرته من «فرانك تشرشل» في نفس الوقت تقريبًا، وربما كان في إحدى العاطفتين ما جعله يتعرف على الأخرى، فقد كانت الغيرة من «فرانك تشرشل» التي استولت عليه، هي التي أبعدته عن القرية، وكان اجتماع «بكس هل» السبب المباشر الذي دفعه إلى اتخاذ هذا القرار ليكون في مأمن من أن يشاهد مرة أخرى مثل تلك الرعاية التي سمحت لفرانك بأن يبديها نحوها وشجعته عليها.

لقد ذهب من القرية ليتعلم عدم الاكتراث، ولكنه أخطأ في انتقاء المكان، فلقد ألفى السعادة المنزلية ترفرف على بيت أخيه، وبدت المرأة فيه على أبهى ما تكون. لقد كانت «إيزابلا» تشبه «إمَّا» كثيرًا ولا تفترق عنها إلا بقدر ما كانت تقل عنها فيما كان يلفت نظره، مما كان يجعل «إمَّا» تبدو له متألقة دائمًا. وقد مكث هناك اليوم تلو اليوم إلى أن حمل إليه بريد ذلك الصباح قصة «جين فيرفاكس»، فلم يقو على المكث أكثر من ذلك. ففي غمرة الفرحة التي لا بد أن يكون قد شعر بها، بل الفرحة التي لم يتردد في الاعتراف بإحساسه بها، وجد نفسه وقد استبد به الاهتمام «بإمَّا» - والقلق عليها - فهو لم يعتقد أبدًا بأن «فرانك تشرشل» يستحق «إمَّا» - لقد ركب عربته، وجعل يشق طريقه إلى بيته وسط الأمطار، ثم سار مباشرة عقب تناول طعام العشاء، ليرى كيف كان وقع هذا الاكتشاف على أحلى وأحسن المخلوقات جميعًا، تلك التي لا عيب فيها رغم كل أخطائها.

لقد وجدها مضطربة ومهمومة. حقًا لقد كان «فرانك تشرشل» وغدًا، وسمعها وهي تعلن بأنها لم تحبه أبدًا. لقد أصبحت «إمَّا» له، وتعاهدا على ذلك، قبل أن يدخل إلى البيت، ولو أنه كان فكّر وقتها في «فرانك تشرشل» فلربما بدا له من أفاضل الناس.

الفصل الخمسون

ما أبعد المشاعر التي عادت بها «إمَّا» إلى بيتها، عن تلك التي خرجت بها منه!! إنها لم تكن تطمع حين خرجت إلا في مسكن وقتي لما كانت تعانيه من آلام نفسية، فإذا بها تعود وهي في نشوة من السرور، وأي سرور سرور كانت تؤمن بأنه لا بد أن يزداد ويقوى حين يزول عنها أثر هذه الانتفاضة السارة.

وجلسوا لتناول الشاي، والتفت نفس الجماعة حول نفس المائدة - وما أكثر المرات التي وقعت فيها أنظارها على نفس الشجيرات التي تقوم فوق المروج، وما أكثر ما لاحظت نفس الجمال الذي تضفيه شمس الغروب عليها!! ولكنها لم تشعر في يوم من الأيام بمثل ما كانت تشعر به الآن من نشوة وحياة حتى عز عليها أن تجمع ما يكفي من حيويتها العادية لتكون سيدة البيت المهيمنة عليه، ولا حتى ما يكفي لتكون الابنة المعنية بأبيها، إلا بشق الأنفس. أما «مستر وودهاوس» المسكين فيلم يساوره أقل شك فيما كان يعتمل ساعتها من تآمر في صدر ذلك الرجل الذى كان يرحّب به الآن من قرارة نفسه، وكان قلقًا عليه، يرجو ألا يكون قد أصيب بالبرد في سفره. على حين أنه لو أتيح له أن يطلع على ما في قلبه في تلك اللحظة لما عُني بما عليه رئتاه. أما وقد بعُد خياله عن توقع أي شر، وعجز عن أن يستشف شيئًا غير عادي في نظراتهما أو سلوكهما، فقد أخذ يعيد على سمعهما وهو مبتهج كل الأنباء التي كان قد سمعها من «مستر بري»، وصار يتحدث وهو أعظم ما يكون صفاء، لا يساوره أدنى شك فيما كان في قدرتهما أن يقولاه له بدورهما.

وظلت «إمَّا» في حمى متقدة من المشاعر طالما كان «مستر نيتلي» معهما، ولكنه عندما خرج، أخذت تهدأ قليلًا، وتخف حرارتها- ورأت في هذه الليلة التي ذهب فيها الكرى عن جفونها، وهي الضريبة التي كان عليها أن تدفعها في مقابل أحداث الأمسية، أن هناك نقطة أو نقطتين جديرتين بأن تكونا موضع اعتبارها، مما جعلها تشعر بأن حتى سعادتها لا تخلو من المكدرات: والدها و«هاريت». فما كادت تخلو إلى نفسها حتى شعرت بوطأة ما لكل منهما عليها من حقوق، فقد كان أهم ما يشغل بالها، هو كيف تستطيع أن توفر أقصى ما يكون من الراحة لكليهما - ووجدت في الحال حلًا لمشكلة أبيها. ولم يكن قد تسنى لها أن تعرف حتى الآن ماذا عسى أن يطلب «مستر نيتلي»، ولكنها رجعت إلى قلبها تناجيه، فهداها إلى قرار حاسم لا تحيد عنه وهو أنها لن تفارق

أباها بحال من الأحوال، بل لقد بكت لمجرد التفكير في احتمال البعد عنه، واعتبرت التفكير في ذلك إثمًا لا يغتفر، وإذن فما دام حيّا، فلن يتعدى الأمر مرحلة الخطبة، ولكنها طمأنت نفسها إلى أنه لو زال خطر ابتعادها عنه، فإن ذلك سوف يزيد من راحته. أما مسألة «هاريت» فقد كانت أشق الأمرين لتتخذ فيه قرارًا – كيف تعفيها مما لا ضرورة له من الآلام، كيف تقدم لها ما يمكن من الأسف والندم، كيف تبدو لها وهي أقل ما تكون عداوة؟ وبلغت حيرتها وضيق صدرها بهذه الأمور حدًا بعيدًا، وانطلق عقلها يستعيد ما مر به من تأنيب مرير، وأسف مضن في الأيام القليلة السابقة، ومع ذلك فلم تستطع أن تقرر أخيرًا سوى المضي في اجتناب مقابلتها، والاتصال بها في كل ما تريد إبلاغه عن طريق الخطابات. وكان أقصى ما تتمناه الآن إبعادها عن «هايبري» فترة من الوقت، واتجه تفكيرها إلى مشروع آخر كاد أن يصل إلى مرتبة التصميم، وهو أن تحصل لها على دعوة للذهاب إلى «ميدان برنزويك». لقد كانت «إيزابلا» تعجب بها، وإن أسابيع قليلة تمضيها عندها في لندن لكفيلة بأن تضفي عليها شيئًا من الترويح النفسي. ولم يكن من طبيعة «هاريت»، في رايها، أن تهرب مما قد تجد فيه تجديدًا أو تنويعًا، بما في ذلك مشاهدة الشوارع والحوانيت والأطفال - ولسوف يكون هذا، على أي حال، دليلًا على ما لها من عطف ورعاية، في نفس من تدين لها بكل شيء، وفترة انفصال وقتي بينهما، وتجنب لليوم المشؤوم الذي لا بد أن يلتقي فيه الجميع مرة أخرى.

واستيقظت مبكرة وكتبت خطابها لهاريت، وكانت مهمة تركتها في وجوم شديد، وزاد من حزنها أن «مستر نيتلي» وهو في طريقه إلى «هارتفيلد» لتناول الإفطار معهما، لم يصل في موعده لقد كانت تشعر أن اقتناص نصف ساعة بعد ذلك، لتسير معه في نفس المكان ثانية، أمر ضروري، حرفًا ومجازًا، لكي تستعيد قسطًا من سعادة الأمسية الماضية، ويطمئن قلبها إلى حلاوتها.

ولم يتركها «مستر نيتلي» تنتظر وقتًا طويلًا إلى الحد الذي يجعلها تنصرف إلى أقل تفكير قي غيره، وإذا بخطاب يأتيها من «راندولز» في مظروف سميك. وفكرت فيما لا بد أن يكون بداخله، ولعنت الضرورة التي تضطرها إلى قراءته الآن، فلقد كانت تشعر بأنها قد أصبحت الآن على وئام مع «فرانك تشرشل»، وأنها ليست في حاجة إلى مزيد من الإيضاحات. إنها لا تريد أن تتفرغ لأفكارها الخاصة. بل هي لن تستطيع أن تفهم شيئًا مما كتبه. ومع ذلك فقد كان لا بد أن تتصفحه. وفضت المظروف، وتأكدت كل التأكد بأن فيه خطابًا من «فرانك تشرشل» إلى «مسز وستن» وقد أرفقت به «مسز وستن» مذكرة كتبت لها فيها:

«إني لأشعر يا عزيزتي «إمَّا» بمنتهى السعادة وأنا أرسل إليك الخطاب المرفق بهذا، إذ أني أعلم مقدار ما سيناله من إنصافك، ولا أكاد أشك فيما سيكون له من أثر سار في نفسك – وأظن أننا لن نختلف اختلافًا بيّنا في رأينا في كاتبه مرة أخرى - ولكني مع ذلك لن أعطلك بمقدمة طويلة – إننا جميعا

بخير – لقد كان هذا الخطاب علاجًا شافيًا لكل ما كنت أشعر به أخيرًا من اضطراب عصبي طفيف - إن نظراتك يوم الثلاثاء لم تعجبني، ولكنه على أية حال كان صباحًا عبوسًا، وعلى الرغم من أنك لن تعترفي بأثر الطقس عليك، فإن جميع الناس يشعرون بوطأة الرياح الآتية من الشمال الشرقي - وكنت شديدة القلق على والدك العزيز في أثناء العاصفة وقت الأصيل، يوم الثلاثاء، وبالأمس صباحًا. ولكني شعرت بالراحة لما سمعته في الليلة الماضية من «مستر بري» بأن العاصفة لم تصبه بضرر «.

المخلصة دائمًا

ا. و

(إلى «مسز وستن»)

وندسور - يوليو

سيدتي العزيزة، إن كنت قد أوضحت موقفي بالأمس، فإن وصول هذا الخطاب سوف يكون مرتقبًا، وسواء أكان وصوله مرتقبًا أم غير مرتقب، فإني أعلم بأنه سيقرأ بإخلاص وإمعان. فأنت سيدة طيبة كاملة، وأعتقد بأني في حاجة إلى كل ما فيك من طيبة كي تتجاوزين عن بعض سلوكي فيما مضى، ولكني قد نلت صفح من كان من حقها أن تشعر بالكثير من الأسى. على أني أزداد شجاعة وأنا أكتب، وإنه لمن أشق الأمور على من يصادفه التوفيق أن يطأطئ الرأس، فلقد صادفني التوفيق حتى الآن في مرتين التمست فيهما الصفح، حتى أصبحت لا أخشى خطر الوثوق من أنني سأنال الصفح منك، ومن أولئك الأصدقاء الذين كان لهم من الأسباب ما من شأنه أن يحنقهم عليّ».

إن عليكم جميعًا أن تحاولوا فهم موقفي بالضبط عندما وصلت أول مرة إلى «راندولز»، وأن تذكروا بأني كنت أحمل سرًا كان لا بد من المحافظة على سريته مهما كلفني ذلك. تلك كانت الحقيقة. أما أن لي الحق في أن أضع نفسي في موقف يحتاج إلى مثل هذا التكتم، فموضوع آخر لا مجال لبحثه الآن. وأما أن أنساق إلى الأخذ بأن هذا من حقي، فلا يسعني إلا أن أحيل كل مكابر في ذلك، إلى بيت في «هايبري» مشيد من الطوب، وجُعلت له نوافذ لها شرائح زجاجية في أسفلها، وإطارات مثبتة في أعلاها. إنني لم أجرؤ على طلب يدها علانية، فإن الصعوبات التي كانت تعترضني نتيجة للحالة التي كانت سائدة في «أنسكومب» وقتئذ لا يمكن أن تخفى على أحد، بل ولا هي في حاجة إلى بيان. وقد واتاني الحظ وكانت لي الغلبة قبل أن نفترق في «ويموث» وتمكنت من التأثير على أنزه عقل نسائي في الوجود، كي يكون كريمًا فيخضع لقبول خطبة تظل سرًا مكنونًا، ولو أنها رفضت لكنت جننت. وقد تتساءلين: وماذا كنت ترجو من عملك هذا؟ ما الذي كنت تصبو إليه؟ لقد كنت أصبو إلى شيء، وإلى كل شيء، إلى الوقت وإلى الفرصة وإلى المناسبات، والى النتائج البطيئة، إلى المفاجآت، والمثابرة، والكلل والصحة والمرض. لقد كان أمامي كل ما أنتظره من خير، وكانت أولى بشائر النعم، أني حصلت على

وعد منها بأن تظل وفيَّة لي، وأن تظل تراسلني، أما إذا أردت مزيدًا من الإيضاح فلي الشرف يا سيدتي العزيزة أن أكون ابن زوجك، وقد ورثت منه الميل إلى توقع الخير، وهو ميراث لا يعد له في القيمة ميراث البيوت أو الأرض. تخيّليني إذن في ضوء هذه الظروف وأنا أصل إلى «راندولز» في أول رسالة لي. وهنا أشعر بالخطأ، فقد كان في الإمكان إن أبكّر بتلك الزيارة. ثم عودي إلى الماضي بذاكرتك يتبيّن لك أني لم أحضر حتى جاءت «مس فيرفاكس» إلى «هايبري». وما دمت أنت التي لحقتك الإساءة، فلا بد صافحة عني فورًا. ثم أعود فألجأ إلى عطف أبي لأذكره بأني ظللت طوال تغيبي عن منزله محرومًا من نعمة التعرف إليك، وأملي ألا يكون سلوكي في فترة الأسبوعين اللذين قضيتهما معكما أنعم بالسعادة، قد جعلني عرضة إلى اللوم، إذ ما استثنينا نقطة واحدة.
وأصل من ذلك إلى الشيء الأساسى، الشيء الهام في مسلكي حين كنت بينكم، الشيء الذي يقلقني ويحتاج مني إلى إيضاح عاجل، إني أذكر «مس وودهاوس» بأجل الاحترام وأخلص الصداقة، ولعل والدي يرى كذلك أن من واجبي أن أزيد على هذا فأقول: وبمنتهى التواضع. فإن كلمات قليلة بدرت منه بالأمس كشفت لي عن رأيه، وأنا أعترف بأني ملوم بعض اللوم. فلقد بدا من سلوكي نحو «مس وودهاوس» فيما أعتقد، أكثر مما كان ينبغي، فلقد دفعتني رغبتي في تكتم سر كان لا بد من أن أحرص على كتمانه إلى استغلال ذلك التعارف الذي دُفع إليه كلانا على الفور، بأكثر مما كان يجب أن أسمح به لنفسي. ولست أنكر أن «مس وودهاوس» كانت هدفي الظاهر، ولكني أعتقد بأنك ستصدقيننى حين أقول إنه لولا تأكدي من عدم اكتراثها بي، لما كان هناك قدر من الأنانية مهما عظم، كان يمكن أن يغريني على الاستمرار في ذلك. وإن «مس وودهاوس» على ما هي عليه من جمال وظرف، لم توح إلي أبدًا بأنها فتاة يحتمل أن تقع في شباك حبي، بل إنها لعقيدتي إنها كانت مبرّأة من احتمال التعلق بي إطلاقًا، بل كانت رغبتي أيضًا أن تكون كذلك. فلقد كانت تتقبل اهتمامي بها بالترحيب والود والدعابة الفكهة، مما يتفق مع هدفي كل الاتفاق، وكان يبدو أن كل واحد منا يفهم الآخر. لقد كان اهتمامي بها حقًا لها علينا، لما بيننا من صلة، وهذا ما كانت تفهمه هي نفسها، وإن كنت لا أستطيع أن أجزم إذا كانت «مس وودهاوس» قد فهمتني حقيقة قبل انقضاء الأسبوعين أم لا - وإني لأذكر أنني عندما زرتها مودعًا قبل سفري، كنت على وشك الاعتراف لها بالحقيقة، ثم خطر لي وقتئذ أنها قد تكون عندها فكرة عن الموضوع، وأيًا كان الحال، فإني لا أشك في أنها قد كشفت أمري منذ ذلك الوقت، على الأقل إلى درجة ما. وقد يحتمل أنها لم تتكهن بكل شيء، ولكن يقظتها لا بد أن تكون اخترقت بعض حجبه على الأقل. هذا ما لا أشك فيه، وسوف تجدين عندما يتحرر الموضوع من القيود المفروضة عليه، أنها لم تؤخذ

على غرة بالمرة، فكثيرًا ما لمحت لي به، وأنا أذكر أنها أخبرتني في الحفلة الراقصة، بأني مدين «لمسز ألتن» على اهتمامها بأمر «مس فيرفاكس».

وإني لأطمع الآن في أن تسمحي لي، وأن يسمح لي أبي، بأن يكون هذا الذي رويته عن سلوكي نحوها مخففًا لما بدا في نظركما نزقًا مني، فطالما تعتبرانني آثمًا في حق «مس وودهاوس»، فلن أستحق منكما صفحًا - أبرآني مما علق بذهنكما، حتى إذا سمحت الظروف، أخذتما لي البراءة بأطيب الأماني من «إمَّا» وودهاوس التي أحبها حب الأخ لأخته، إلى حد يجعلني أتوق إلى أن أراها وقد أحبت وسعدت بحبها كما سعدت بحبي. لقد أصبح في يدكما الآن سر موقفي في كل شيء غريب قلته أو فعلته خلال هذين الأسبوعين.

لقد كان قلبي في «هايبري»، فكان حقًا عليّ أن أنتقل إليها بجسمي كلما أمكنني ذاك، دون أن أثير أي شك أو مظنة، فإذا تذكرت بعد ذلك أي خروج مني عن المألوف، فخذيه على محمل حسن. أما عن البيت فوالدي دار حوله لغط كثير، فإني أشعر أن من واجبي أن أقول أن مس «ف» كانت تجهل تمامًا الظروف التي أرسل إليها فيها، فهي ما كانت لتسمح له بإرساله أبدًا لو أ أن الخيار كان متروكًا لها. إن مراعاتها لشعور الناس طوال أيام الخطبة يا سيدتي العزيزة، كان فوق ما يمكنني أن أوفيه حقه، وأني لا آمل جادًا، أنك ستعرفينها على حقيقتها بنفسك في القريب، فإن أي وصف مهما بلغ لن يوفيها حقها فلا بد أن تدلك هي عن نفسها بنفسها – وهذا لا يكون بالقول. على أن من يتعمد إخفاء ما لها من مزايا، لم يوجد بعد.

وقد وصلني منها خطاب منذ بدأت أسطر رسالتي هذه التي ستكون أطول مما قدرت لها، بعثت فيها بأخبار وافية عن صحتها، ولكن لما كان من طبيعتها ألا تشكو أبدًا، فإني لا أعتمد على ما ذكرت في رسالتها، وأود أن أقف على رأيك في حالتها الصحية، وأنا واثق من أنك ستذهبين للزيارتها دون تباطؤ. أنها تعيش في رعب من زيارتك لها، ولكن لعلك قد أديت هذه الرسالة بالفعل الآن، فلا تتواني في موافاتي بأخبارها، فإني أتلهف على سماع الكثير من تفاصيل ذلك. وتذكري كم كانت الدقائق التي أمضيتها في «راندولز» قليلة، وكيف كنت فيها حائرًا كالمجنون، على أن حالتي لم تتحسن كثيرًا حتى الآن، ولا زلت في حالة من الجنون، قد يكون مردها إلى الشعور بالسعادة أو إلى الأمور بالبؤس. فعندما أفكر فيما لقيته منها من العطف والحنان، وما وجدته فيها من صبر وكمال، وما أضفاه عليّ خالي من الكرم، أكاد أجن من الفرح. أما حين أتذكر كل ما سببته لها من قلق، وأتبين أنني لا أستحق إلا القليل من العفو، فإني أجن من الغضب، آه لو أنني كنت أستطيع أن أراها ثانية!! ولكن لا ينبغي لي أن أقترح ذلك الآن، فلقد كان خالي كريمًا كل الكرم معي، فلم يشأ أن يعتدى على ما لي من حقوق. ولا زال عليّ أن أسترسل في خطابي هذا على طول ما كتبته حتى الآن، فأنت لم تعلمي بعد كل ما يجب أن تعلميه، ذلك أنني لم أكن قادرًا على أن أعطي أية تفاصيل مترابطة بالأمس، ولكن المفاجأة التي

انكشف بها الموضوع، وظهوره في وقت غير مناسب، قد يحتاج إلى إيضاح، فان ما وقع في السادس والعشرين من الشهر الماضي قد فتح لي الباب فى الحال لتحقيق أسعد الآمال، كما يمكنك أن تستخلصي، وإني مًا كنت أجرؤ على مثل هذه الإجراءات المبكرة لولا الظروف الدقيقة للغاية التي لم تترك لي ساعة أضيعها سدى، رغم أنني كنت أشعر بأن من واجبي أن أحجم عن عمل أي سوء لي بهذه العجلة. وكانت هي الأخرى ولا شك ستحس في هذه الحالة بأحساسي وبترددي، فتقابل ذلك برقة مضاعفة من جانبها، ولكن لم يكن في ذلك خيار، فلقد كان هذا الاتفاق السريع على شغل الوظيفة، الذي اتفقت عليه مع تلك المرأة - لقد وجدت نفسي عند هذه المرحلة من خطابي هذا يا سيدتي العزيزة، مضطرًا إلى الكف عن الكتابة فورًا، حتى أستجمع قواي وتهدأ نفسي، لقد جُبت القرية الآن وآمل أن أكون أكثر منطقًا وبُعدًا عن الخيال بالقدر الذي يكفي لكي أجعل بقية خطابي كما أحب أن يكون عليه فلا شك أن الرجوع إلى الماضي يقض مضجعي ويؤرقني. فلقد كان سلوكي مخجلًا، ويمكنني أن أعترف هنا بأن معاملتي لمس «و» وغلظتي في معاملة مس «ف» تجعلني خليقًا بأن أتعرض للوم الشديد، إنها لم توافق على هذه المعاملة، وكان من الواجب إن يكون كل ذلك ما يكفي لأن يردعني. أما الاعتذار بأنني كنت أبغي من وراء ذلك إخفاء الحقيقة، فهو ما لم تقتنع به مس «ف» فامتعضت، وظننت أن امتعاضها كان أكثر مما يبرره الموقف، فقد خيّل إليّ في كثير من المناسبات، أنها مترددة، حذرة في غير ضرورة، وأحسست بعض الفتور فيها أحيانًا، ولكنها كانت دائمًا على حق. و لو أنني كنت أخذت برأيها، وأخضعت مشاعري إلى المستوى الذي ظنته هي لائقًا، لنجوت من أقصى همّ صادفني طوال حياتي، فلقد تشاحنا، هي وأنا- هل تذكرين ذلك الصباح الذي قضيناه في «دونول»؟ لقد تحوّل كل ما سبق أن حدث بيننا من مضايقات بسيطة في ذلك اليوم إلى أزمة. جئت أولًا متأخرًا، ثم قابلتها وهي متجهة إلى البيت بمفردها، وأردت آن أسير معها، ولكنها لم تسمح لي بذلك ورفضت رفضًا باتًا، وظننت هذا وقتئذ تصرفا أبعد ما يكون عن التعقل، ومع ذلك فإني لا أرى في ذلك شيئًا الآن، إلا أن يكون ذلك حرصًا طبيعيًا منها، فهل يُعقل وأنا أخص سيدة أخرى برعاية منتقدة، ساعة من الزمن، لكي أخفي خطبتي عن الناس جميعًا، أن توافق هي في نفس الساعة التي تليها، على اقتراح قد يجعل كل حيطة سابقة عديمة الجدوى؟ ولنفرض أن أحدًا قابلنا ونحن نسير معًا، ما بين «دونول» و«هايبري»، لكانت هذا الخطبة تصبح مظنة الناس. ولهذا فقد كان جنونًا مني أن أغضب - لقد شككت في حبها يومها، وزاد شكي في اليوم التالي ونحن في «بُكس هل « عندما استثرتها بسلوكي، فأهملتها إهمالًا معيبًا، إهمالًا مخجلًا، إهمالًا وقحًا، بينما اختصصت «مس وودهاوس» بكل رعاية ظاهرة، مما لا يمكن لأية سيدة، أن تتحمله، وعبّرت عن سخطها بمجموعة من الكلمات كانت مفهومة عندي كل الفهم. وقصارى

القول يا سيدتي، كانت مشاحنة لا لوم فيها عليها، بينما كان موقفي فيها كريها مذمومًا وعُدت في نفس المساء إلى «ريشمند»، وكان من الأفق أن أبقى معكم إلى صبيحة اليوم التالي، وما كانت عودتي إلا لأني وددت أن أظهر غضبي منها ما أمكنني، ومع ذلك فلم أكن بالحماقة التي لا تجعلني أقدر بأن الأيام سوف تصلح ما بيننا، ولكنني كنت الطرف الذي لحقته الإساءة بسبب فتورها، ومن ثم فقد سافرت وأنا مصمم على أن تكون هي البادئة في اتخاذ الخطوة الأولى لإصلاح ذات البين، وسأظل أهنئ نفسي دائمًا على أنك لم تكوني من بين الجماعة التي ذهبت إلى «بكس هِل»، فلو أنك شاهدت سلوكي هناك، فلست أظن أنك كنت تحسنيين الظن بي بعد ذلك أبدًا. وقد ظهر أثر ذلك عليها في القرار الحماسم المباشر الذي اتخذته، إذ حالما تبينت أني قد رحلت عن «راندولز» فعلًا، وافقت فورًا على العرض الذي قدمته لها «مسز ألتن»، تلك السيدة المتطفلة، تلك السيدة - والشيء بالشيء يذكر- التي كانت طريقة معاملتها لها تملؤني دائمًا بالسخط والكراهية. وليس لي أن أشكو مما حظيت به من طول الأناة والصبر، وألا فلا بد لي من أن أعترض بشدة على ذلك القدر من الأناة والصبر اللتين تتمتع بهما هذه امرأة. إنها تناديها:
«جين»! نعم «جين»! وإنك لتلاحظين بأني لم أبح لنفسي حتى الآن، أن أناديها بهذا الاسم، حتى ولا لك أنت. فكري إذن فيما كنت أقاسيه حتمًا وأنا أسمع هذا الاسم يجري على لسان «ألتن» وزوجته، يتداولانه تكرارًا بكل سماحة وفي غير ضرورة، وبكل القحة التي لا تتوافر إلا لكل من يتخيل في نفسه عظمة وهمية. رجائي أن تفسحي لي صدرك، فسأنتهي من خطابي حالًا. وقد وافقت «مس فيرفاكس» على هذا العرض الذي عرضته عليها تلك المرأة، وعزمت على أن تقطع صلتها بها نهائيًا، فكتبت لي في اليوم التالي تقول: إننا لن نتقابل مرة أخرى، وإنها تشعر بأن خطبتنا كانت مصدر تعاسة وإحساس بالندم لكل منا. وفكت الخطبة. وصلني منها هذا الخطاب في صباح ذلك اليوم الذي ذهبت فيه روح زوجة خالي المسكينة إلى بارئها. وفي غضون ساعة كتبت لها ردي على خطابها، ولكن ارتباكي ساعتها، وكثرة الأعمال التي نيط بي أداؤها
وقتها، كل ذلك جعلني أودع الخطاب في درج مكتبي ولا أرسله مع سائر الخطابات الكثيرة الأخرى، في ذلك اليوم. ولما كنت اعتقدت بأني كتبت ما فيه الكفاية لإرضائها على الرغم من أن ردي لم يزد على بضعة سطور، فقد لبثت ولا شيء يقلقني، بل على العكس، شعرت بخيبة لما لم أتسلم منها خطابًا آخر بسرعة، ولكنى انتحلت لها الأعذار، كما أني كنت مشغولًا جدًا. وهل لي أن أضيف على ذلك فأقول لأني كنت مسرورًا للغاية كذلك بنظرتي إلى الأمور، مما صرفني عن تلمّس الأخطاء. وانتقلنا إلى «وندسور» بعد ذلك، ووصلني منها «طرد»، بعد ذلك بيومين. فقد أعادت لي كل خطاباتي! كما وصلتني بالبريد في الوقت نفسه، رسالة سطرت فيها سطورًا قليلة أبدت فيها بالغ دهشتها لعدم وصول أي رد مني على خطابها الأخير، وزادت على ذلك فقالت:

«وبما أن السكوت على مثل ذلك لا يمكن أن يُحمل على غير محملة، وهكذا أصبح أجدى على كل منا إنهاء كل ترتيب آخر بأسرع ما يمكن، فهي ترسل لي الآن في عربة مأمونة كل خطاباتي، راجية إذا لم يتيسر لي وضع يدي مباشرة على كل خطاباتها حتى أرسلها إلى «هايبري » في مدى أسبوع، فإن في إمكاني أن أبعث بها، بعد تلك الفترة إليها بعنوان - وبالاختصار رأيت أمام عيني توجيهًا كاملًا إلى بيت «مسز سمول ردج»، بالقرب من «برستول»، وكنت أعرف الاسم والمكان، وأعرف كل شيء عنه، فأدركت في الحال ماذا فعلت. فقد كان ذلك متفقًا كل الاتفاق مع ما تتصف به من صلابة العزم التي أعرف أنها كل صفاتها. وكان حرصها في خطابها السابق على الاحتفاظ بهذا المشروع سرًا لا تبوح به، دليلًا على أنه موضوع شائك يحتاج إلى كياسة.
والحق أنه لم يبد منها أنها تريد تهديدي بأي حال، ولك أن تتصوري الآن الصدمة التي لحقت بي. تخيلي كيف جن جنوني لما ترتب على أخطاء البريد، إلى أن تبينت غلطتي الحقيقية، وإذن فماذا أعمل؟ شيئًا واحدًا لا ثاني له، هو أن أتحدث إلى خالي في الموضوع، إذ ما كان يمكنني أن آمل في أن يستمع إليّ مرة أخرى بغير موافقته على خطبتنا. وتحدثت إليه وساعدتني الظروف، فلقد لطف حادث وفاة زوجته من كبريائه، فوافق قلبًا وقالبًا، وبأسرع مما كنت أنتظر، مسكين ذلك الرجل فلقد تمكن من أن يقول أخيرًا وهو يتنهد من أعماق قلبه، إنه يتمنى أن أجد في زواجي مثل ما كان له في زواجه من سعادة مقيمة.
وأحسست بأنها ستكون سعادة من نوع آخر. أتشعرين بميل إلى الإشفاق عليّ لما بدا أني عانيته حين فاتحته في الموضوع، فجعلته بذلك رهنًا بيد القدر؟ لا، لا يأخذنك الإشفاق عليّ حتى تسمعي كيف وصلت إلى «هايبري» ورأيت إلى مدى كنت عاملًا من عوامل مرضها!! لا تشفقي عليّ حتى أحدثك كيف وجدت مظاهر الوهن والمرض بادية عليها حين لقيتها، فلقد وصلت إلى «هايبري» في ساعة من النهار كنت أعرف فيها مما أعلمه عن تأخرهم في تناول طعام الإفطار عادة، أني على يقين بسنوح الفرصة لكي أجدها بمفردها، ولم يخب ظني. وأخيرًا لم أبؤ بالفشل فيما سافرت إلى «هايبري» من أجله. لقد كان عليّ أن أعمل على زوال الكثير مما علق بنفسها من غضب كان لها ولا شك كل الحق فيه. وتم هذا وعاد لنا صفونا أعز وأعز كثيرًا مما كان في أي وقت، ولن تكون بيننا لحظة كدر أبدًا من الآن. والآن أعفيك يا سيدتي العزيزة من هذا العبء فلا أثقل عليك بعد ذلك، ولكني لن أختتم رسالتي قبل أن أقوم بالشكر لك ألف مرة وألفًا، لما حبوتوني به دائمًا من حنان، وعشرة آلاف مرة لما سوف تقومين به نحوها من رعاية يمليها عليك قلبك الطيب. وإن كنت لسبب ما أني أسعد مما أستحق، فأنا كما ترين تمامًا. إن «مس وودهاوس» تسميني وليد الحظ السعيد وأرجو أن يتحقق ماتقول. إن حظي السعيد لا ريبة فيه من

ناحية واحدة، هو أنني كنت قادرًا على أن أهب نفسي لأكون ابنك المحب الشكور.

«ف – س - وستن تشرشل»

كان لا بد لهذا الخطاب من أن يهز مشاعر «إمَّا»، مما اضطرها إلى أن تفسح له صدرها وتعمل بما أوصته به «مسز وستن» على الرغم من عزمها السابق على أن تعمل نقيض ذلك. وعندما وصلت إلى حيث ورد اسمها في خطابه، لقي كل سطر يتعلق بها هوى في نفسها، بل كانت كل سطوره مرضية في نظرها. وحتى عندما ذهب عنها ما كان لهذا الخطاب من أثر السحر، لبث موضوع الخطاب عالقًا في ذهنها، إذا أثار فيها ما كانت تشعر به نحو كاتبه من التقدير. ولما كان لا بد أن يكون لأية صورة من صور الحب في نفسها جاذبية قوية في تلك اللحظة، لم تتوقف عن القراءة حتى أتت عليه بأكمله. وعلى الرغم من أنه كان من المستحيل، عليها ألا تشعر بخطئه فقد رأت بعد الانتهاء من قراءته أن خطأه كان أقل مما كانت تظن، وأنه قاسى وندم، وأنه يعترف «لمسز وستن» بجميلها وأنه مولع بحب «مس فيرفاكس». وشعرت هي نفسها بالسرور لأنها غدت وهي لا تحمل له ضغينة. ولو أنه دخل عليها الحجرة في تلك اللحظة، فلا بد أنها كانت تصافحه بحرارة كما كانت تفعل دائمًا.

لقد كان للخطاب في نفسها وقع حسن، حتى أنها رغبت من «مستر نيتلي» عندما جاء إليهم مرة أخرى أن يقرأه. فقد كانت واثقة من أن «مستر وستن» يرغب في أن يطلع عليه غيرها، خاصة من كان مثل «نيتلي»، قد رأى بعينيه كثيرًا من العيوب في مسلكه.

وقالها لها «مستر نيتلي»: «يسرني كثيرًا أن أتصفحه، ولكنه يبدو طويلًا، وسآخذه معي ليلًا إلى بيتي».

«ولكن ذلك ليس ميسورًا، فإن «مستر وستن» سيزورنا في المساء، ولا بد لي من إعادة الخطاب معه».

وأجابها: «كنت أفضل أن أقضي الوقت كله في الحديث معك، ولكن بما أنها مسألة تتعلق بعدالة الحكم عليه، فلك ما تريدين».

وشرع يقرأه، ولكنه ما كاد يفعل، حتى توقف ليقول:

«لو أنه أتيح لي يا «إمَّا» أن أرى أحد خطابات هذا السيد إلى زوجة أبيه منذ بضع شهور، لما تناولته بعدم اكتراث كهذا».

وقطع شوطًا قصيرًا وهو يقرأ في سريرته، ثم وهو يبتسم:

«ها ها!! إنها بداية فيها ثناء عاطر، ولكن هذه هي طريقته، وإن أسلوب واحد من الناس يجب ألا يكون قاعدة يسير عليها غيره، على أننا لن نكون قساة».
ثم أضاف بعد قليل: «سيكون من الطبيعي أن أبدي رأيي جهرًا وأنا أقرأه، لأني لهذا سأشعر أني قريب منك، ولن يكون في ذلك ضياع كبير للوقت، أما إذا كنت تكرهين ذلك...».
«لا، أبدًا، بل إني راغبة في ذلك».
وعاد «مستر نيتلي» إلى قراءته بهمة أعظم، ثم قال:
«إنه يعبث هنا وهو يتحدث عن الإغراء. إنه يعلم أنه مخطئ وليس لديه شيء منطقي يقدمه – إنه شيء رديء – كان الواجب عليه ألا يعقد الخطبة – إنه يتحدث عن نزعات أبيه» - وهو مع ذلك غير منصف لأبيه، فقد كان هدوء «مستر وستن» وتفاؤله بركة وعونًا له في كل ما قام به من جهود قويمة وشريفة وقد استحق «مستر وستن» كل هناءه، في الحاضر، قبل أن يحاول اكتسابها – نعم هذا هو الصديق بعينه، إن ابنه لم يأت إلا بعد أن أتت «مس فيرفاكس» هنا».
وقالت «إمَّا»: «وأنا لم أنس كم كنت أنت واثقًا من أنه لوكان يريد الحضور لما توانى في ذلك – إنك بارع جدًا في تخطي هذه النقطة وأنت تقرأ – ولكنك كنت على حق على أية حال».
«لم أكن في حكمي يا «إمَّا» غير متحيز تمامًا، ولكني مع ذلك أعتقد أنه لولا تدخلك في هذه المسألة لظللت حتى الآن لا أثق به».
وعندما وصل إلى ما كتبه عن «مس وودهاوس»، اضطر إلى قراءة كل ما كتب عنها بصوت مرتفع – قرأ كل ما يتعلق بها، أما بابتسامة أو بنظرة أو بهزة من رأسه، أو بكلمة يعبر بها عن موافقته أو عدم موافقته، أو لإظهار حبه، حسب مقتضيات الحال، ثم اختتم بعد ذلك بصورة جدية، وبعد تفكير عميق فقال:
«هذا سلوك سيئ، وإن كان من المحتمل أن يكون أسوأ من ذلك. إنه يلعب لعبة في منتهى الخطورة، إنه مدين بخلاصة للأمر الواقع – وهو لا يحكم على سلوكه نحوك. إنه في الحقيقة مخدوع دائمًا برغباته، لا يهتم إلا قليلًا بغير ما فيه راحته – إنه يتخيل بأنك غصت إلى أعماق سره! وهذا شيء طبيعي منه، فإن عقله مليء بالدسائس والمؤامرات حتى أصبح يظن ذلك في غيره – فما أكثر ما يضلل الغرض والخداع إفهام الناس! «إمَّا» حبيبتي، ألست ترين أن كل شيء يعمل على أن يثبت أكثر فأكثر ما للصدق والإخلاص في معاملة كل منا للآخر من جمال؟».
ووافقته «إمَّا» على ذلك، ثم قالت وقد علت وجهها حمرة من أجل «هاريت» لم تجد لها تفسيرًا صادقًا:
«من الأفضل أن تستمر في قراءة الخطاب».
واستمع لها ولكنه توقف على الفور مرة أخرى ليقول:

«البيانو!! آه!! لقد كان هذا من أعمال الصغار. رجل وصل به الطيش حدًا لا يقدر معه إذا كان عمله قد يسبب من المتاعب ما يفوق كثيرًا ما قد يأتي به من سرور! إنه خطة صبيانية!! ولست أدرك ما هناك من رغبة أي رجل في أن يقدم لسيدة دليلًا على حب يعلم بأنها تفضل الاستغناء عنه، ويثق من أنها كانت تمنع مجيء البيانو لو أمكنها ذلك».

ثم قطع بعد ذلك شوطًا في القراءة دون توقف، وكان أول ما استوقفه بعد ذلك اعتراف «فرانك تشرشل» بأنه قد سلك مسلكًا مشينًا، فقد دفعه هذا إلى أن يقول:

«إني متفق معك تمامًا يا سيدي، فلقد سلكت مسلكًا مشينًا جدًا، وأنت لم تكتب سطرًا واحدًا أصدق من هذا».

ثم بعد أن قرأ ما تلا ذلك مباشرة، عن سبب اختلافهما، وإمعانه في أن يعمل عكس ما كانت «جين فيرفاكس» تدرك أنه الصواب، توقف الهوينا ليقول:

«هذا رديء جدًا، فلقد استدرجها لتضع نفسها من أجله في موقف صعب ومحرج للغاية. وكان أول ما يجب عليه أن يجنبها ما لا داعي له من الألم. وما من شك في أنها كانت أشد منه صبرًا وكفاحًا حين استمرت تراسله. لقد كان من واجبه أن يراعي ظنونها وهواجسها، إن وجدت، حتى ولو كان لا مبرر لها، ولكن ظنونها كانت كلها معقولة ولها ما يبررها.

وواجبنا أن ننظر إلى غلطتها الوحيدة وأن تتذكر أنها أخطأت بموافقتها على الخطبة لكي تحتمل فكرة العتاب الذي لاقته».

وعرفت «إمَّا» بأنه الآن في سبيل الوصول إلى رحلة «بكس هل» فتضايقت، إذ كان مسلكها هي نفسها في تلك الرحلة، بعيدًا عن اللياقة، وشعرت بمنتهى الخجل، وخشيت بعض الشيء من نظرته التالية، ومع ذلك فقد قرأ كل هذا بثبات وإمعان دون أن يبدي أقل ملاحظة، اللهم إلا نظرة خاطفة ارتدت في الحال خشية أن تؤلمها، ولم تعد «بكس هِل» بعدها إلا نسيًا منسيًا.

وكانت ملاحظته التالية: «وليس في خطابه الكثير مما يمكن أن يقال عن رقة أصدقائنا الأفاضل «ألتن» وزوجته – فمشاعره طبيعية، عجبًا! ثم ما هذا! لقد صممت على قطع صلتها به نهائيًا!! شعرت بأن الخطبة أصبحت مصدر تعاسة وشعور بالندم لكل منهما فأنهتها. أية صورة تبدو لنا من هذا عن سلوكه؟ أجل، إنه لا بد أن يكون شاذًا للغاية».

«لا، لا، استمر وسوف تجد أنه يعاني الكثير».

وأجابها «مستر نيتلي» دون اكتراث: «أرجو أن يكون الأمر كذلك فعلًا».

وواصل قراءة الخطاب - «عجبًا! «سمول ردج»! ما معنى ذلك؟ وما كل هذا؟».

«إنها قبلت العمل كمربية لأطفال مسز «سمول ردج»، وهي صديقة عزيزة «لمسز ألتن»، وجارتها في «مابل جروف» - وإني لأعجب بهذه المناسبة، كيف تتحمل «مسز ألتن» الفشل في مهمتها».

«لاتتكلمي يا عزيزتي «إمَّا»، أنت ترغمينني على قراءة هذا الخطاب حتى ولو كان عن «مسز ألتن»، فلم يبق عليّ غير صفحة واحدة وسأنتهي منها حالًا - ما أعجب هذا الخطاب الذي كتبه الرجل!! .
«بودي لو قرأته وأنت أكثر عطفًا عليه».
«أجل، ها هي فقرة إحساس، إذ يبدو أنه تألم عندما وجدها مريضة، حقًا إنني لا أرتاب في أنه مغرم بها. «أعز وأعز كثيرًا مما كانت في أي وقت!»... وأرجو أن يداوم على شعوره بما لهذا التصافي بينهما من قيمة... إنه كريم في شكره للغاية، إنه يكيله بالآلاف وعشرات الآلاف...
«أسعد مما أستحق» - هلمي إنه يعرف نفسه – إن «مس وودهاوس» تسميني وليد الحظ السعيد – هل هذا هو الاسم الذي كنت تسمينه به؟».
«إنك تبدو كأنك لم تقتنع بخطابه بمثل ما اقتنعت، ولكن يجب مع هذا أن تقتنع، لا بد أن تحسن رأيك فيه من أجل هذا الخطاب، وأرجو أن يكون شفيعه عندك».
«أجل، لا ريب أنه يشفع له. لقد كانت له أخطاء عظيمة، وهي أخطاء نبعت من سوء تقديره وعدم تفكيره، وإني أشاركه الرأي في ظنه بأنه قد يكون أسعد مما يستحق. ولكن لما كان دون أدنى شك يهيم «بمس فيرفاكس» حقًا، وسيكون له قريبًا حظ الوجود معها دائمًا، فإني أراني ميالًا إلى الاعتقاد بأن أخلاقه سوف تتحسن، وانه سيكتسب منها ما ينقصه من الثبات على المبدأ والمحافظة عليه. والآن دعيني أتحدث إليك عن شيء آخر فهناك موضوع يهم شخصًا آخر قد شغل عليّ بالي في هذه اللحظة حتى لم أعد أستطيع التفكير في «فرانك تشرشل» أكثر من ذلك - إنني يا «إمَّا» منذ أن تركتك هذا الصباح وعقلي لا يكف عن التفكير في موضوع واحد».
ثم أتبع ذلك بذكر الموضوع في لغة إنكليزية مهذبة لا تكلف فيها، وخليقة بمثل «مستر نيتلي» في حديثه حتى مع من يحبها. أما هذا الموضوع فهو كيف يتسنى له أن يطلب يدها دون الافتئات على سعادة والدها. وجاء رد «إمَّا» سريعًا: «فما دام والدها العزيز على قيد الحياة، فإن أي تغيير في الظروف الحالية، يكون عندها من المستحيلات، فليس بوسعها أن تتركه إطلاقًا... وأقرها على جزء واحد من هذه الإجابة: إستحالة تركها لأبيها، فقد كان شعور «مستر نيتلي» بذلك لا يقل عن شعورها، ولكنه لم يسعه أن يوافق على عدم السماح بأي تغيير آخر، لقد ظل يفكر في هذا الموضوع ويمعن في التفكير، وكان أمله أولًا أن يؤثر على مستر وودهاوس كي ينتقل معهما إلى «دونول» وكان بوده أن يكون ذلك في الإمكان، ولكن معرفته «بمسز وودهاوس» لم تجعله يتمادى في خداع نفسه فاعترف الآن باعتقاده الراسخ بأن مثل هذا الانتقال ستكون فيه مجازفة براحته، بل ربما كان في ذلك مخاطرة بحياته، وهو ما لا يمكن أن يخاطر به. أيعقل أن ينقل «مستر وودهاوس» من هارتفيلد! لا لقد شعر بأن مثل هذا الاقتراح لا تجوز محاولته، ولكنه كان واثقا بأن «إمَّا»، أعز الناس إليه،

لن تجد أي مجال للإعتراض على الخطة التي تفرعت عن هذه التضحية - وهي أن يَقبَل هو نفسه لينزل في «هارتفيلد»، فما دامت سعادة والدها، أو بتعبير آخر حياته – تتطلب استمرار إقامتها في هارتفيلد، فإن هارتفيلد يجب أن تكون مقامه كذلك.
لقد سبق أن خطرت «لإمَّا» فكرة انتقالهم جميعًا إلى «دونول» فكرت في تلك الخطة ورفضتها كذلك. أما الخطة التي جعلها بديلًا لذلك فلم تطرأ على بالها. وقد شعرت بكل ما تدل عليه من محبة، وأحست بأنه حين يترك «دونول» إنما يضحي بالكثير من حرية التصرف في وقته وعاداته، وأنه سيجد أمامه الكثير، والكثير جدًا مما عليه أن يتحمله بمعيشته مع أبيها بصفة دائمة. ووعدته بالتفكير في هذا، كما نصحته بأن يزيده بحثًا، ولكنه كان متأكدًا كل التأكد بأن أي بحث أو تفكير لن يصرفه عن رغباته أو عن رأيه في هذا الموضوع، بل هو يؤكد لها بأن هذا الموضوع ظل موضع اعتباره وتفكيره وقتًا طويلًا، وأنه سار طوال الصباح وهو بمعزل عن «وليم لاركنز» ليفكر فيه بمفرده.
وصاحت «إمَّا»! «آه!! هناك مشكلة لم نحتط لها، إني متأكدة بأن «وليم لاركنز» لن يرضى عن هذا، ولا بد من أن نحصل على موافقته قبل أن تسأل عن موافقتي».
ووعدته مع ذلك في أن تفكر في الأمر، بل وأن تفكر فيه وهي جد عازمة على أن ترى فيه مشروعًا صالحًا من كل الوجوه.
ولقد كان غريبًا أن «إمَّا»، وقد بدأت الآن في تقليب وجهات النظر الكثيرة عن «رهبانية دونول» لم تتطرق إلى ذهنها الآن أية فكرة عما قد يلحق بابن أختها «هنري» الذي كانت فيما مضى تتشبث بحقوقه باعتباره وريث «دونول» المنتظر، أما أنها فكرت فيما ينطوي عليه ذلك بالنسبة للولد الصغير المسكين، فهو ما لم تكن تستطيع أن تتجنبه.. ولكن تفكيرها لم يتعد أثره ابتسامة فاترة، فقد سرها أن تكتشف سبب كرهها الحقيقي لزواج «مستر نيتلي» «بجين فيرفاكس» أو أية امرأة أخرى.
إن ما عرضه عليها من فكرة الزواج والإقامة في هارتفيلد كان يزداد قبولًا عندها كلما فكرت فيه، فبدت الأضرار التي تصيبه من جراء ذلك أقل، والمزايا التي تجنيها هي نفسها منه أزيد، ومنفعتها المتبادلة له ترجح كل العيوب.
ما أحسنه من رفيق لها فيما ينتظرها من أوقات تخيم عليها الهموم والقلق!! وما أعظمه من شريك في كل ما هنالك من واجبات وأعباء تزداد همومها بمرور الأيام!!
لقد كانت السعادة تغمرها لولا المسكينة «هاريت» فقد بدت كل نغمة لها تحمل في ثناياها ما يؤلم صديقتها التي صار من الواجب الآن إبعادها حتى عن «هارتفيلد». وهذا الاجتماع العائلي الممتع الذي كانت «إمَّا» تسعى لتستأثر به، لا بد أن تبعد عنه «هاريت» حرصًا عليها وعطفًا، فهي الخاسرة في كل الحالات، ولن تكون «إمَّا» آسفة على غيابها في المستقبل باعتباره انتقاصًا من

متعتها. إن وجود «هاريت» في مثل هذه الجماعة، سيكون عديم الأثر منه أي شيء آخر. أما من ناحية الفتاة المسكينة نفسها، فإن الضرورة القاسية قد جعلتها تتعرض لمثل هذه العقوبة التي لا تستحقها.

وسوف يُسدل الستار على «مستر نيتلي» بالنسبة لها وتنساه بطبيعة الحال على مر الأيام، أو بعبارة أخرى سيحل غيره محله، وإن لم يكن من المنتظر أن يحدث ذلك قريبًا، كما أن «مستر نيتلي» نفسه لن يفعل شيئًا يساعدها على شفائها من عنائها، وهو يختلف في ذلك عن «مستر ألتن». فإن «مستر نيتلي» بما يتسم به دائمًا من العطف ورقة الإحساس، ومراعاة شعور الناس لن يستحق أبدًا أن يُقلل من تمجيده وتقديسه عما كانت تفعل من قبل. ولا شك أنه أمل بعيد حتى من «هاريت» نفسها أن تحب أكثر من ثلاثة رجال في عام واحد.

ارتاحت «إمَّا» إلى درجة عظيمة عندما وجدت أن «هاريت» كانت مثلها راغبة في تحاشي المقابلة، فقد كان اتصالهما عن طريق الرسائل، فيه من الألم ما يكفي، وما أشد ألمهما لو أنهما اضطرا إلى المقابلة!!

وكانت العبارات التي تسطرها «هاريت» كما يتبادر إلى الذهن خالية من كل لوم ومن أي شيء ينبئ بأي شعور بالإساءة... ورغم هذا كانت «إمَّا» تتخيل فيها شيئًا من الإحساس بجرح الكرامة، شيئًا من هذا القبيل تعبر عنه بأسلوبها، مما قوى عندها الرغبة في انفصالهما عن بعضهما، وقد يكون مرد ذلك إحساسًا كامنًا في دخيلة نفسها، ولكن «إمَّا» في تصورها كانت ترى أنه من المستحيل على أحد أصابته مثل هذه الضربة أن يتجرد من الشعور بالإساءة، إلا أن يكون ملاكًا.

ولم تلق «إمَّا» أية صعوبة في الحصول على دعوة من «إيزابلا» لهاريت وكانت سعيدة الحظ لأنها وجدت سببًا كافيًا يبرر هذه الدعوة دون أن تلجأ إلى اختراع الأسباب المصطنعة، إذ كان قد لحق بأحد أسنان «هاريت» عطب، وكانت تود حقيقة منذ بعض الوقت أن تستشير طبيبًا للأسنان. وسر مسز «جون نيتلي» أن تؤدي لها خدمة، فقد كان أي شيء يتعلق باعتلال الصحة مثير اهتمامها. وعلى الرغم من أنها لم تكت تحبذ أي طبيب للأسنان مثل تحبيذها لطبيب الأسنان مستر «ونجفيلد»، فقد أبدت رغبتها القوية في أن تكون «إمَّا» في رعايتها. فلما انتهى كل شيء من جانب أختها، عرضته «إمَّا» على صديقتها فوجدتها سلسلة القيادة راضية عن الفكرة، ومن ثم فقد أصبح ذهاب «هاريت» أمرًا مؤكدًا. وكانت الدعوة لفترة أسبوعين على الأقل. وتقرر انتقالها في عربة «مستر وودهاوس»، وعملت كل الترتيبات وتم كل شيء، ووصلت «هاريت» إلى «ميدان برنزويك» سالمة.

وهكذا صارت «إمَّا» قادرة على الاستمتاع بزيارات «مستر نيتلي»، وأصبح في وسعها أن تتكلم وتستمع وهي مغتبطة لا يعكر صفوها ذلك الإحساس بالظلم أو الإجرام الذي كان ينتابها، أو ذلك الألم المضني الذي كان يعتريها كلما تذكرت ذلك القلب الكسير الذي كان قريبًا منها، وما قد يعانيه وهو على مقربة منها في تلك اللحظة من ألم، وهي التي أضلته الطريق بنفسها.

وقد تكون «إمَّا» بالغت في أثر الفرق بين وجود «هاريت» في بيت «مسز جدرد» وبين وجودها في لندن، على مشاعرها، ولكنها حين تكون في لندن لن تفكر فيها إلا إذا جد ما يثير حب الاستطلاع عندها، ويشغل عليها تفكيرها، وهو مع ذلك سيجعلها تغمض عينها عن الرضى ويجردها من نفسها.

وهي لن تسمح في الوقت نفسه لأي شيء آخر مقلق بأن يشغل من فكرها المكان الذي كانت تشغله «هاريت» - فقد كان لا يزال أمامها نبأ، كانت وحدها دون غيرها قادرة على نقله، ألا وهو الاعتراف بخطبتها لأبيها. ولكنها كانت عازمة على ألا تقول عنه شيئًا في هذه الآونة، مصممة على أن تؤجل إنشاءه إلى أن تنجو «مسز وستن» من أخطار الوضع، وتكتب لها السلامة منها، فليس من العقل ولا من الحكمة أن تثير في تلك الفترة اضطرابًا آخر في نفوس من تحبهم، ولن يلحقها ضير إذا انتظرت حتى الوقت المناسب، وتريثت أسبوعين على الأقل تنعم فيهما بالفراغ وهدوء البال حتى يكون سرورها أعظم وأكثر إثارة. واستقر رأيها على الفور، أداء للواجب واغتنامًا للسرور، أن تخصص نصف ساعة من أوقات هذه العطلة العاطفية لزيارة «مس فيرفاكس»، فقد كان عليها أن تذهب لرؤيتها بقدر ما كانت تتوق هي نفسها إلى ذلك. فلقد كان التشابه بين حالتيهما في تلك الآونة مدعاة لزيادة عوامل الشعور بالمودة المشتركة بينهما.

إن ارتياحها لهذه الزيارة سوف يكون ارتياحًا دفينًا خفيًا، ولكن الشعور بتشابه آمالهما سوف يزيد من اهتمامها بالإصغاء إلى أي شيء قد تقوله «جين».

وذهبت لزيارتها، وكان قد سبق لها أن سارت بعربتها مرة حتى وصلت إلى الدار، ولم تتمكن من مقابلتها. إنها لم تدخل عتبة دارها منذ الصباح التالي ليوم «بكس هِل» حين كان الأسى قد استبد «بجين» وبلغ منها مبلغًا جعل «إمَّا» تفيض بالاشفاق عليها، ولو أن أسوأ مآسيها لم تكن متوقعة في ذلك اليوم! أما اليوم فقد دفعها الخوف من عدم الترحيب بها إلى أن تقرر، على الرغم من تأكدها بوجودهن في البيت، أن تنتظر في الممر، وتبعث باسمها. وسمعت «باثي» وهي تعلن اسمها، ولكن حدث بعد ذلك هرج يشبه الهرج الذي حدث في المرة السابقة. وحاولت المسكينة «مس بيتس» لحسن الحظ تفسيره وقتها - ولم تسمع «إمَّا» بعد ذلك غير الرد المباشر: ! سليها أن تتفضل بالصعود»! وبعد لحظة استقبلتها «جين» على السلم بنفسها، وتقدمت نحوها في شغف كأنما تريد أن تقول لها: «ليس غيري من هو جدير باستقبالك». ولم ترها «إمَّا» بمثل هذه الصحة ولا بمثل هذا الجمال ولا بمثل هذه الجاذبية. كانت تفيض شعورًا وحيوية وحماسًا، لا ينقص محياها ولا سلوكها شيء على الاطلاق وتقدمت وقد مدت يدها وهي تقول في نبرات خافتة، ولكنها تفيض شعورًا:

«لا شك أن هذا منتهى العطف منك يا «مس وودهاوس»، إنه لمن المستحيل عليّ أن أعبر – وآمل أن تصدقينني – أغفري لي إذا كنت عاجزة عن الكلام بالمرة».

وأثلج هذا صدر «إمَّا» وكانت على أهبة الكلام، ولم يمنعها عن الاسترسال في التعبير عن سرورها إلا سماعها لصوت «مسز ألتن» يأتي من حجرة الاستقبال، مما جعلها تختصر التعبير عن كل ما كانت تجيش به نفسها من مشاعر المودة، وما كانت تريد أن تعبر عنه من آيات التهنئة، إلى مصافحة باليد تفيض إخلاصًا ومحبة.

كانت «مسز بيتس» و «مسز ألتن» تجلسان معًا. أما «مس بيتس» فلم تكن بالبيت، مما يفسر الهدوء الذي كان يسود جلستهما. وودت «إمَّا» لو أن «مسز ألتن» كانت في مكان آخر في تلك اللحظة، ولكنها كانت في حالة نفسيية تجعلها تفسح صدرها للناس جميعًا. وقابلتها «مسز ألتن» ورحبت بها على غير عادتها، مما جعلها تأمل ألا يكون وراء هذه المقابلة أي سوء. وخيّل «لإمَّا» وقتها أن في وسعها أن تنفذ إلى ما يجول بخاطر «مسز ألتن» من الأفكار، وأن تدرك لماذا كانت منتعشة مثلها وسرعان ما هداها تفكيرها إلى أن سبب ذلك هو أن «مس فيرفاكس» قد اتخذتها أمينة على سرها، وأنها لذلك تخيلت أنها على علم بما لا يزال سرًا خافيًا على غيرها. بل لقد لاحظت «إمَّا» دلائل هذا الاستنتاج على ملامح وجهها بمجرد أن دخلت عليها، إذ بينما كانت تقوم بتحية «مسز بيتس» وتبدي عناية بالإصغاء إلى إجابات هذه السيدة العجوز الطيبة، أبصرتها تطوي في شيء من التظاهر بالسرية، ورقة يبدو أنها كانت تقرؤه وبصوت مرتفع على «مس فيرفاكس»، ثم أعادتها إلى حقيبة يدها ذات اللون الأرجواني والذهبي، التي كانت إلى جوارها، وهي تقول بإيماءات لها مغزاها:

«يمكننا أن نفرغ من ذلك في وقت آخر كما تعلمين، ولن تعوزنا الفرصة. والواقع أنك قد سمعت الآن كل العناصر المهمة في الموضوع، ولم أشأ إلا أن أبرهن لك على أن «مسز (س)» تقبل اعتذارنا وأنها ليست مستاءة، وأنت ترين رقتها في الكتابة. يا إلهي!! إنها مخلوقة ظريفة، ولو كنت ذهبت إليها لأحببتها من قلبك، ولا أزيدك قولًا بعد هذا - ولنكن على حرص ولا نحيد عن مسلكنا القويم - صه!! هل تذكرين تلك الأبيات؟ لقد نسيت القصيدة الآن:

وإذا النساء ظهرن في شيء حدث أخلى الجميع لهن كل مكان

والذي أعنيه الآن في مسألتنا هذه يا عزيزتى، تلك السيدة – اقرئي - وحذار أن تنطقي باسم، قولي السيدة فقط، والواقع أني في نشوة عارمة، ألست كذلك؟ وكل ما أريد، هو أن أبعد عنك القلق من ناحية مسز (س)، وأنت ترين أن بياني قد أرضاها تمامًا».

ثم عادت تقول همسًا عندما التفتت «إمَّا» لتنظر إلى ما كانت «مسز بيتس» منشغلة في غزله: «إنك تلحظين أني لم أذكر أسماء، لا، لا، فأنا حريصة حرص وزير الدولة في تكتمه للسر، وقد تصرفت تصرفًا كان في منتهى الحكمة».

ولم يتطرق إلى «إمَّا» شك في أن كل ذلك كان منها مجرد استعراض يتكرر كلما سنحت الفرصة. فلما انسحبوا بعد ذلك في الحديث برهة عن حالة الطقس وعن أحوال «مسز وستن» ، ألفت «إمَّا» الحديث يوجه إليها فجأة:

«ألا تظنين يا «مسز وودهاوس» أن صديقتنا الصغيرة «الدلوعة» التي معنا الآن قد شفيت بشكل جميل؟ ألا ترين أن إبلالها يكسب «بري» أعلى مراتب الشهرة؟» وهنا نظرت بطرف عينها إلى «جين» نظرة لها دلالتها وقالت: «ثقي أن «بري» قد أعادها إلى كامل صحتها في وقت قصير عجيب! يا الله! لو أنك كنت رأيتها عندما كانت في أسوأ حال!» - ثم همست في أذني «مس فيرفاكس» عندما كانت «مسز بيتس» تقول شيئًا «لإمَّا»: «ولن ننطق بكلمة واحدة عن المعونة التي لقيها «بري»، ولا كلمة واحدة عن طبيب شاب جاء من «وندسور»، لا أبدًا، بل سنجعل «لبري» الفضل كله في ذلك».

وانتظرت برهة ثم عادت توجه الحديث إلى «إمَّا» «إنني لم أسعد برؤيتك يا «مس وودهاوس» منذ أن ذهبت الجماعة إلى «بكس هل»، لقد كانت مجموعة لطيفة جدًا، غير أني أظن مع هذا، أنه كان ينقصها بعد النواحي، فإن الأمور لم تبد - أعني أنه كان يبدو بأن سحابة خفيفة من الهموم كانت تخيم على بعض الموجودين، هذا ما ظهر لي على الأقل، ولكن ربما أكون قد أخطأت، ومع هذا فإني أظن بأنه لم يكن بأس من القيام بالرحلة، وهذا مما يعزي الإنسان على الذهاب مرة أخرى. فما قولكما والطقس جميل في أن نجمع الفريق بعينه ونقوم برحلة أخرى إلى، «بكس هل»؟ لا بد أن تكون الزمرة هي هي نفسها، هي بعينها دون استثناء» ودخلت «مس بيتس» بعد ذلك في الحال، ولم تجد «إمَّا» مناصًا من الشعور بالتسلية بسبب ما بدا على «مس بيتس» من ارتباك عندما ردت على أول سؤال لها، أما ترددًا منها فيما يباح لها أن تقوله، وإما لأنها لم تعد قادرة على ألا تقول كل ما في جعبتها.

«شكرًا يا عزيزتي «مس وودهاوس»، أنت العطف مجسمًا، من المستحيل أن أقول.. نعم.. إني أفهم تمامًا ولا شك.. تلك خطط العزيزة «جين».. أي لست أعني.. ولكنها عوفيت لدرجة مفرحة. كيف حال «مستر وودهاوس»؟ إني مسرورة للغاية.. هذا ليس في قدرتي مطلقًا.. نحن كما ترييننا هنا، مجموعة صغيرة تغمرها السعادة..

نعم، لا شك في ذلك،.. إنه فتى ظريف! أي ودود جدًا.. أعنى «مستر بري» الطيب!.. ما اعظم عنايته بجين!».

وظنت «إمَّا» من اغتباطها العظيم الذي زاد على كل مألوف، وهي تعبر عن شكرها لوجود «مسز ألتن» أنه كان هناك بعض الاستياء من «جين» من جانب «الأبرشية» ، وأن هذا الاستياء قد زال كرمًا وجودًا... وبعد همسات قليلة جعلت شك «إمَّا» يقينًا، عادت «مسز ألتن» تتحدث بصوت مسموع فقالت:

« أجل، ها أنا جئت إلى هنا يا عزيزتي الصبية، وقد مكثت هنا طويلًا، ولو كنت في مكان آخر لكان من واجبي أن أعتذر عن طول بقائي. ولكني في الحقيقة أنتظر سيدي ومولاي، وقد وعدني بأن يكون هنا ليؤدي واجب الزيارة لكنَّ».

« لعمري! هل سيسعدنا «مستر ألتن» بالزيارة؟ إن هذا سيكون ولا شك فضلًا منه، لأني أعلم بأن السادة لا يحبون الزيارات الصباحية، كما أن «مستر ألتن»

مشغول طول الوقت».
«كوني واثقة بأنه سيأتي لزيارتكن يا «مس بيتس»، إنه ولا شك مشغول من الصباح إلى الليل، ولا نهاية للناس الذين يجيئونه منتحلين سببًا آو آخر. فالقضاة والمشرفون وأوصياء الكنيسة، يطلبون رأيه دائمًا. ويبدو أنهم بدون رأيه عاجزون عن القيام بأي عمل. إني أقول في كثير من الأحيان: «إني أعتقد يا مستر «أي» أنك مشغول أكثر مني، وأنا لا أعرف ماذا كان يحدث لأقلام رسمي وللبيانو، لو جاءني نصف العدد الذي يأتي إليك من ذوي الحاجات، وحسبي ما آلت إليه هواياتي الآن من سوء الحال، فقد أهملتها بدرجة لا تغتفر. أعتقد أني لم أعزف فاصلًا موسيقيًا واحدًا في هذين الأسبوعين. ومع ذلك فإني أؤكد لكنَّ بأنه سيحضر من غير شك ليزوركن جميعًا».
ثم رفعت يدها لتحجب بها كلماتها عن «إمَّا» وقالت:
«إنها كما تعلمين زيارة للتهنئة، أجل، إنها زيارة واجبة».
ونظرت «مس بيتس» حولها وقد غمرها السرور. واسترسلت «مسز ألتن» تقول في صوت مسموع مرة أخرى:
«لقد وعدني بالمجيء حالما يستطيع أن يخلص من «نيتلي» ولكنه في خلوة مع «نيتلي» الآن يتشاوران. إن مستر «أن» هو يد «نيتلي» اليمنى».
وصممت «إمَّا» على ألا تبتمسم مهما كلفها ذلك واكتفت بأن قالت: «وهل ذهب «مستر ألتن» إلى «دونول» ماشيًا؟ إنه سيشعر بالقيظ في الطريق».
«لا، لا، أن الاجتماع في «نزل التاج» وهو اجتماع يعقد بانتظام، وسوف يكون «وستن» و«كول» هناك أيضًا، ولكن الإنسان ينزع إلى الكلام عادة عمن لهم الزعامة وحدهم، وأظن أن مستر «أي» و«نيتلي» هما أصحاب الرأي الأعلى في كل شيء».
وقالت «إمَّا»: «ألم تخطيئ في اليوم؟ إني أكاد أكون واثقة بأن الاجتماع في «التاج» موعده الغد. لقد كان «مستر نيتلي» في هارتفيلد بالأمس وقال أن الاجتماع سيكون يوم الأحد».
وكان رد «مستر ألتن» في الحال: «لا، لا، إن الاجتماع اليوم- بالتأكيد» ثم استمرت تقول: «إني أعتقد أن هذه أكثر «الأبرشيات» تعبًا، فلم نسمع بمثل هذه الأشياء أبدًا في «مابل جروف».
وقالت، «جين»: «إن أبرشيتكم هناك صغيرة».
«صدقيني يا عزيزتي أني لا أعرف، ولم أسمع من قبل حديثًا يثار عن هذه النقطة»
ولكن الدليل على ذلك، صغر المدرسة التي سمعتك تتحدثين عنها وتقولين إنها مشمولة برعاية أختك و«مسز براج»،، وهي المدرسة الوحيدة، ولا يزيد أطفالها على خمسة وعشرين طفلًا».
«عجبًا أيتها المخلوقة الذكية!! هذه هي الحقيقة بعينها، ما أعظم تفكيرك! إني أعتقد يا «جين» أننا لو امتزجنا معًا، أنا وأنت، لكانت منا شخصية كاملة: حيويتي

وعزيمتك يجمعان الكمال كله – ومع ذلك فإني لا أقصد التلميح بأن بعض الناس قد لا يرون الكمال مجسَّمًا فيك كما أنت – ولكن صه!! – لا تتفوهي بكلمة، «أرجوك».

وبدا أن لا ضرورة لهذا التحذير، فإن «جين» كانت تريد أن تتحدث، لا إلى «مسز ألتن»، ولكن إلى«مس وودهاوس»، كما تبينت «مس وودهاوس» ذلك بوضوح، فلقد كانت رغبتها في تمييز«مس وودهاوس» بقدر ما تسمح به الآداب المرعية واضحة جدًا رغم أن ذلك لم يتجاوز النظرة في معظم الأحيان.

وحضر «مستر ألتن» ورحبت به زوجته بشيء من حيويتها المتألقة وقالت:

«إنه لجميل جدًا ولا شك أن ترسلني هنا يا سيدي لكي أضايق أصدقائي كل هذا الوقت، إلى أن تتفضل بالحضور، لكنك تعلم طبيعة المخلوقة المطيعة التي تتعامل معها، وتعلم بأني لن أتحرك من مكاني حتى يعود مولاي، وها أنا ذا قد جلست هنا ساعة لأكون لأولئك الفتيات مثلًا على الطاعة الزوجية السليمة - ومن يدري فقد يحتجن إليها قريبًا».

وكان «مستر ألتن» يشعر بالحر والتعب، فلم تلق هذه الحِكم منه التفاتًا، فلما انتهى من تحية السيدات الأخريات أخذ يعبّر عما يشعر به من ضيق بسبب الحر، وما لقيه من عنت من مشيه على غير جدوى.

قال: «عندما وصلت إلى «دونول» لم أجد «نيتلي»، مسألة غريبة: فلم يكن هنك ما يبرر غيابه بعد المذكرة التي بعثت بها إليه في الصباح، وبعد الرسالة التي رد بها عليّ وقال فيها أنه سيكون بالتأكيد في البيت حتى الساعة الواحدة».

وصاحت زوجته تقول: «عجبًا!! دونول!! لم تذهب يا عزيزي مستر «أي» إلى «دونول». لعلك تعني «نزل التاج».

«لا، لا، إن موعدنا لذلك غدًا، وقد أردت أن أرى «نيتلي» اليوم بشأن هذا الموضوع ذاته، وكم كان الصباح شديد الحر فظيعًا لا يطاق! (ثم في نبرات تنبئ عن شعور بسوء المعاملة): ومما زاد اليوم سوءًا أني سرت كذلك عبر الحقول، ثم إذا بي لا أجده بالبيت!! أؤكد لك أني لم أرتح لذلك أبدًا، فهو لم يترك لي اعتذارًا، أو يبعث لي برسالة، وقد صرّحت لي مديرة البيت بأنها لا تعلم بأن حضوري كان مرتقبًا. إنه شيء في غاية الغرابة، ولا يعلم أحد قط أين ذهب. ربما يكون ذهب إلى «هارتفيلد» أو إلى طاحون الرهبانية، أو إلى الغاب. إننا يا «مس وودهاوس» لم نعهد ذلك في صديقتنا «نيتلي» من قبل، فهل يمكنك تفسير ذلك؟».

وتسلَّت «إمَّا» باستنكار ما حدث وهي تقول: «إنه ولا شك أمر في منتهى الغرابة، وإنها ليس لديها ما تقوله دفاعًا عنه».

وصاحت «مسز ألتن» تقول: (وهي تشعر بالمهانة، كما هو خليق بأية زوجة مخلصة): «لا يمكنني أن أتصور حدوث مثل هذا، وليس بوسعي أن أتخيل كيف أمكنه أن يعمل شيئًا كهذا معك وأنت غير الناس جميعًا، وآخر من ينتظر أن

ينساه أحد!! لا بد أنه يا عزيزي مستر«أي» ترك لك رسالة، أنا متأكدة من ذلك، وحتى « نيتلي» لا يمكن أن يكون بمثل هذا الشذوذ. إذ لا بد أنه تركها ونسيها الخدم. كن واثقًا بأن هذا هو الوضع، بل هو محتمل جدًا من خدم «دونول» الذين لحظت في معظم الأحيان أنهم جميعًا في منتهى القبح والإهمال. وأنا أجزم بأني لا أقبل شخصًا مثل «هاري» ليقوم بتقديم طلباتي على المائدة في بيتنا مهما كانت الظروف. أما مسز «هودجز» فإن «رايت» كفيلة بأن تجعلها من سقط المتاع، لا تساوي شيئًا، وقد وعدت بأن تبعث إلى «رايت» وصفة نوع من الأطعمة، ولكنها لم ترسلها أبدًا».
واستطرد «مستر ألتن» يقول: «وكنت قد قابلت «وليم لاركنز» عندما اقتربت من البيت، فأخبرني بأني لن أجد سيده في البيت، ولكني لم أصدقه. وكان يبدو على «وليم لاركنز» الاكتئاب، قال إنه لا يدري ماذا حدث لسيده في الأيام الأخيرة، وإنه عجز عن حمله على الكلام على أنني لا شأن لي بما يريده «وليم» وكل الذي كان يهمني هو أن أرى «نيتلي» اليوم، ولهذا ضايقني جدًا أن أمشي في القيظ على هذا النحو على غير طائل».
وشعرت «إمَّا» أن ذهابها إلى البيت مباشرة هو أحسن شيء تفعله، فقد كان هناك كل احتمال بأنهم كانوا ينتظرونها هنالك في تلك اللحظة، كما أن في الإمكان منع «مستر نيتلي» من التمادى في عدوانه على «مستر ألتن»، إن لم يكن كذلك على «وليم لاركنز».
وسرها وهي تستأذن في الانصراف أن تجد «مس فيرفاكس» تصمم على مرافقتها عند خروجها من الحجرة، وتسير معها حتى الطابق الأرضي، مما جعلها تغتنم الفرصة وتبادر في الحال إلى اقتناصها فتقول:
«ربما كان من الخير أن الفرصة لم تُتح بي، فلو لم يلتف حولك أصدقاء آخرون لكنت وجدت ما يغريني على إثارة موضوع ما، وتوجيه الأسئلة إليك بشأنه، وأن أكون في كلامي أكثر صراحة عما قد يجيزه العرف... وأشعر بأنني كنت أبدو وقحة لا محالة إن فعلت».
وصاحت «جين» تقول وقد علت وجهها حمرة واستولى عليها التردد فجعلاها تبدو «لإمَّا» على درجة متناهية من الرشاقة لم تبلغها بكل ما كان لها من جمال في وقت هدوئها العادي:
«أوه!! لم تكن هناك خطورة من ذلك، وإنما الخطر في أني أتعبك. بل ما كنت ترضينني بشيء أكثر مما أظهرتيه من اهتمامك بأمري – حقًا يا «مس وودهاوس» (قالتها وهي أكثر استجماعًا لأفكارها): «إنني وأنا أشعر بأنني قد تنكبت الطريق القويم، وسلكت مسلكًا معوجًا، موغلًا في إعوجاجه، أجد سلوى وعزاء في علمي بأن أولئك الأصدقاء الذين يُعض على آرائهم الصائبة بالنواجز لا يصل بهم الامتعاض مني إلى حد يجعلهم.. إني لا أجد الوقت الذي يكفي لنصف ما أريد أن أقوله، وأنا مشوقة إلى تقديم الاعتذارات والمعاذير

لأدافع عن نفسي، وأشعر بأن هذا دين عليّ يجب أداؤه.. ولكني لسوء الحظ.. وبالاختصار، إن لم يتسع لي عطفك يا صديقتي..».

وصاحت بها «إمَّا» في حماس وقد أمسكت بيدها:

«أوه!! أنت ولا شك مرهفة الإحساس جدًا، دائمًا يقظة لما ترينه الصواب، فما أنت مدينة لي باعتذار، كما أن كل من تظنين بأن لهم عليك حق الاعتذار، راضون كل الرضى، مبتهجون حتى..».

«إنك شديدة العطف، ولكني أدرك سلوكي نحوك، وما أكثر ما كنت جافة متكلفة! كان لي دائمًا دور أقوم بتمثيله، كانت كلها حياة خداع!! وأنا أعلم بأني لا بد أثرت امتعاضك».

«أستحلفك ألا تقولي أكثر من هذا، بل أني لأشعر بأن الاعتذار يجب أن يكون كله من جانبي، فليصفح كل منا عن الآخر حالًا، ولنؤد ما يجب أداؤه بمنتهى السرعة، وأنا واثقة بأن مشاعرنا لن تتوانى عن أداء ذلك. أرجو أن تكون وصلتك أخبار سارة من وندسور».

«للغاية».

«وأظن الأخبار التي تتلو ذلك ستنبئنا بقرب ابتعادك عنا، في اللحظة التي بدأت أعرفك فيها».

«أما من ناحية ذلك، فان من المؤكد أنه لا يمكنني التفكير في شيء من ذلك الآن، وسأبقى هنا إلى أن يستدعيني «المقدم كامبيل وزوجته».

وردت «إمَّا» تقول وهي تبتسم: «قد لا يتيسر إتمام أي شيء الآن، ولكن أسمحي لي بأن أقول إنه لا بد من التفكير فيه».

وأجابت «جين» وعلى ثغرها هي الأخرى ابتسامة:

«إنك لعلى حق. فلقد فكرت في ذلك بالفعل. وأنا أعترف لك (وأنا متأكدة بأن ما أقوله سيكون في حرز أمين) بأن الأمر قد أصبح منتهيًا فيما يتعلق بمعيشتنا مع «مستر تشرشل» في «أنسكومب»، ولا بد من ثلاثة شهور على الأقل للحداد التام، ولكني لا أظن أنه سيكون ثمة شيء بعد انتهائها يدعونا للانتظار».

«أشكرك، أشكرك، هذا ما كنت أريد أن أتأكد منه. آه لو عرفت مقدار حبي لكل شيء أكيد ليس فيه غموض.. في رعاية الله، في رعاية الله.

سعد أصدقاء «مسز وستن» جميعًا بنجاتها أخطار الوضع؟ وإذا كان سرور «إمَّا» بسلامتها مضاعفًا، فإنما مرد ذلك أنها أصبحت والدة لبنت صغيرة. فلقد كانت أمنيتها أن يكون المولود «مس وستن».

وما كانت لتعرتف بأنها تهدف من وراء هذه الأمنية إلى التمهيد لزواج الطفلة بعد أن تكبر، بأحد أبني «إيزابلا»، ولكنها كانت متأكدة بأن الابنة هي أنسب ما يكون للأم والوالد، وأنها بلسمًا شافيًا «لمستر وستن» حين يتقدم به العمر – فحتى «مستر وستن» سيتقدم به العمر بعد عشر سنين يطولها من عمره المديد – وإن الحياة سوف تدب حول موقده بما يجري حوله من ألعاب، وما يُروى من خزعبلات، وقصص عجيبة، وخيالات تقوم بها طفلة، لن يكون مصيرها النفي من بيت أبيها أبدًا. أما عن «مسز وستن»، فما من أحد كان يشك في أنها ستجد في الابنة كل ما تبغيه، فإنه لمن المؤسف حقًا ألا يُتاح لمن لهم إلمام بالتعليم، فرصة لاستخدام ما لديهم من قدرات مرة أخرى. قالت «إمَّا» لمستر «نيتلي».

«لقد كان لها كما تعلم ميزة التمرن عليّ حين كانت تقوم على تربيتي، ثم استطردت: «كما تدربت بارونة «ألمين» على كونتيسة «أوستلليس» في قصة مدام «دي جنلس» المعروفة، «أدليد وتيودور». وسنرى الآن أن تربية صغيرتها «أدليد» ستجري بطريقة أقوم».

وأجابها «مستر نيتلي»: إن سوف تدللها أكثر من تدلليلها لك، ثم تعتقد بأنها لم تدللها أبدًا. وسوف يكون هذا هو الفارق الوحيد».

وصاحت «إمَّا»: «مسكينة أيها الطفلة!! وإذن فماذا عسى أن يكون مصيرها في هذه الحالة».

«لن يكون شيئًا في منتهى السوء، بل سوف يكون مصيرها كمصير الآلاف، متعبة في طفولتها، ثم تُصلح من شأنها عندما تكبر. لقد أخذت يا عزيزتي «إمَّا» أتجرد من كل ما كنت أشعر به من غضاضة نحو الأطفال المدللين، ألا يكون جحودًا مني أن أقسو على هؤلاء وأنا المدين لك بكل سعادتي».

فضحكت «إمَّا» وأجابته: «ولكنك عاونتني بكل جهودك لكي أقاوم تدليل الآخرين. وأنا لا أثق في أن عقلي وحده كان يكفي لاصلاحي بغير هذه المعاونة».

«ألا تثقين؟ أما أنا فواثق من ذلك. فالطبيعة قد وهبتك إدراكًا، بينما «مس تيلور» قد أضفت عليك المبادئ، وإذن فلا بد أنك قد أفدت من كليهما. أما عن تدخلي، فقد كان من المحتمل أن يكون ضارًا بقدر ما كان يحتمل أن يكون نافعًا. ولقد كان من الطبيعى جدًا أن تقولي:
«وماذا له من حق لكي يلقي عليّ درسًا؟ - وأخشى أن أقول، إنه كان من الطبيعي جدًا أن تشعري بأن هذا الدرس كان يؤدى فوق ذلك بأسلوب بغيض. ومن ثم فلست أعتقد بأني أديت لك أية خدمة، بل أنا الذي أفدت، إذ جعلت منك هدفًا لأرق مشاعري. فما كان بوسعي أن أفكر فيك بهذا القدر دون أن أغرم بك وبأخطائك وبكل شيء فيك. وقد نتج عن دأبي على تخيّل الأخطاء الكثيرة فيك أني أحببتك منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمرك على الأقل».
وصاحت «إمَّا» تقول: «إني واثقة بأنك أفدتني، وبأني كنت أهتدي بهديك بأكثر مما كنت مستعدة لأن اعترف به في حينها، وأنا واثقة من أن لك عليّ فضلًا، فإذا ما نشأت «أنَّا وستن» الصغيرة مُدللة، كان عليك بما طبعت عليه من إنسانية بالغة، أن تؤدي لها مثل ما أديته لي - إلا شيئًا واحدًا، أن تحبها عندما تبلغ الثالثة عشرة».
«كثيرًا ما كنت تقولين لي وأنت فتاة صغيرة، وأنت تنظرين إليّ نظرة اشمئزاز: «إني سأفعل كذا وكذا يا «مستر نيتلي»، ووالدي يقول بأن لي أن أفعله»، أو تقولين: «إن مس تيلور» سمحت لي ذلك» - وهو شيء كنت تعلمين أني لا أوافق عليه - وكان تدخلي في تلك الحالات يثير في نفسك إحساسين بغيضين بدلًا من إحساس واحد».
«إذن ما ألطف ما كنت من مخلوقة في ذلك الوقت!! ولا عجب أن تحتفظ بأقوالي في طيات مثل هذه الذكريات الحبيبة».
«كنت دائمًا تناديني «مستر نيتلي»، «مستر نيتلي»، ومع أن العادة قد أبعدت عن هذا النداء صفة الرسمية الصرفة، فهو لا تزال به مسحة من الرسمية، وبودي لو تناديني باسم آخر، ولكني لست أدرى بأي اسم تناديني».
«أذكر أني سميتك مرة في إحدى نوباتي اللطيفة «جورج» - كان ذلك منذ عشر سنوات، وقد فعلت ذلك لأني ظننت بأنه يغضبك، ولكني لم أكرره مرة أخرى بعد ذلك لأنك لم تعترض عليه».
«أفلا يمكنك أن تسميني «جورج» الآن؟».
«هذا مستحيل!! لا يمكنني أن أسميك إلا «مستر نيتلي»، ولن أعدك بمحاكاة «مسز ألتن» في دلالها، فأسميك مستر «ن».
ثم عادت تقول في الحال وقد احمر وجهها وضحكت: «إني أعد، أعدك بأن أسميك مرة باسمك الأول مجردًا عن لقبك، لن أقول «متى» ولكن ربما أمكنك أن تعرف «أين»، أقوله - سأقوله في المبنى الذي يعلن فيه «ن» أنه يقبل «م» على السراء والضراء» .

وأحزن «إمَّا» ساعتها أنها لم تكن قادرة على أن تكون أكثر عدلًا معه فيما كانت فطنته سوف تؤديه لها من خدمة جليلة، بما كان يبديه لها من تضحية غالية كانت ولا شك تجنبها أسوأ ما فيها من حماقات نسائية،

ألا وهو إصرارها على أن تكون لها «بهاريت سمث» ألفة وثيقة - ولكن هذا كان موضوعًا دقيقًا للغاية، وما كان بوسعها أن تثيره الآن، بل قلَّما كان يذكر اسم «هاريت» في حديثهما، لربما كان مصدر هذا من جانبه في عدم تفكيره فيها لا أكثر. أما «إمَّا» فكانت أميل إلى أن تنسب ذلك إلى ما في الحديث عنها من حرج، وإلى ما كان يراوده من أن صداقتها لها

كانت آخذة في التضاؤل، كما أنها هي نفسها كانت تشعر بأنهما لو كانا افترقا في ظروف أخرى، لكان من المحقق أن تزيد المراسلات بينهما، ولكان أخبارها لا تعتمد في معظمها، كما هي الآن، على خطابات «إيزابلا» - ولعله لحظ ذلك فتجنب ذكرها في حديثهما. على أن ألمها من اضطرارها إلى إخفاء الأمر عليه، كان لا يقل كثيرًا عن ألمها من أنها عكّرت على «هاريت» صفو هنائها.

وأرسلت «إيزابلا» تقريرًا طيبًا عن ضيفتها كما كان منتظرًا، ذكرت فيه أنها ظنتها عند قدومها مهمومة، وأنها خيّل اليها أن ما يبدو عليها لا يعدو أن يكون أمرا طبيعيًا، هي توشك أن تذهب لاستشارة طبيب الأسنان، ولكنها لم تلحظ عليها بعد أن انتهت هذه المهمة، تغييرًا كبيرًا في حالتها عما كانت عليه من قبل.

ولم تكن «إيزابلا» قوية الملاحظة، ومع ذلك فلم يفتها أن تلحظ نفور «هاريت» من اللعب مع الأطفال.

وشعرت «إمَّا» بالسكينة، وراودتها الآمال العذبة، لأن «هاريت» سيطول مكثها هناك، إذ كان من المحتمل أن يمتد الأسبوعان إلى شهرعلى الأقل، فقد كان موعد مجيء مستر «جون نيتلي» وزوجته إلى «هايبري» في شهر أغسطس، ومن ثم فقد دعيت للبقاء معهم حتى تعود معهم إلى هايبري.

وقال «مستر نيتلي»: «أن «جون» يضن حتى يذكر اسم صديقتك، ها هو رده أن أحببت أن تريه».

كانت الرسالة ردًا على خطابه الذين ذكر فيه عزمه على الزواج. ومدت «إمَّا» يدها في شوق عظيم واستلمته وهي في لهفة شديدة على معرفة ما يقوله أخوه عن زواجه بها، لا يمنعها عن ذلك سماعها بأنه لم يشر إلى صديقتها في خطابه ولو بكلمة واحدة.

واستطرد «مستر نيتلي» يقول: «إن «جون» أخي يسره سروري، ولكنه ليس ممن يجيدون المديح، وعلى الرغم من معرفتي بأنه يكنّ لك أقصى ما يكون من حب أخوي، فان خطابه بعيد عن زخرف الكلام، الأمر الذي يجعل أية فتاة أخرى تظنه فاترًا في مدحه لها - على أني لا أخشى أن تطلعي على ما كتبه».

فلما قرأت «إمَّا» الخطاب قالت: «إنه يكتب كما يكتب الرجل العاقل. إني أجل أخلاصه، ومن الواضح جدًا أنه يعتبر الغنم لي كله من هذه الخطبة، وأنه لم يفقد الأمل في أن تصبح بمرور الوقت جديرة بمحبتك بقدر ما تراني أنت الآن. ولو أنه قال شيئًا خلاف ذلك ما كانت صدقته».

«انه لا يعني شيئًا كهذا يا «إمَّا» يا قرة عيني، إنه لا يعني إلا - فقاطعته تقول وعلى ثغرها ابتسامة حادة:

«إنني إنا وهو نختلف اختلافًا يسيرًا جدًا في تقديرنا للطرفين، وقد يكون هذا الاختلاف أقل كثيرًا مما يدركه لو أننا تناولنا الموضوع دون تحفظ أو مجاملة».

«إمَّا»، عزيزتي «إمَّا» -».

فصاحت تقول وهي أشد ابتهاجًا مما كانت: «إن كنت ترى أن أخاك لم ينصفني فما عليك إلا أن تنتظر حتى يطلع والدي على السر وتسمع رأيه، وثق بأنه سيكون أكثر من هذا بعدًا عن إنصافك أنت. وسيرى كل السعادة وكل الغنم في جانبك بينما كل الفضل في جانبي، وإن كان بودي ألا ينزل بي فورًا إلى حد أن يقول عني «إمَّا» البائسة، فإن إشفاقه الرقيق على الفضائل المكلومة لا يتعدى ذلك».

فصاح قائلًا: «بودي لو أمكن إقناع والدك بنصف السهولة التي سنقنع بها «جون» بأن تساوينا في الفضائل يكسبنا كل الحقوق في أن نسعد معًا.. هناك جزء واحد في خطاب «جون» يطيب لي.. فهل لاحظتيه؟ إنه يقول إن أخباري لم تدهشه إطلاقًا، وإنه كان يترقب سماع شيء كهذا».

«إذا كنت أفهم أخاك على حقيقته فإنه لا يعني إلا أنك كنت تفكر في الزواج، أما أنا فلم أخطرعلى باله، ويبدو لي أنه لم يكن يتوقع ذلك أبدًا».

«أجل، أجل، ولكن الذي يثير دهشتي أنه استطاع أن يستشف ذلك من خلال مشاعري. تُرى ماذا جعله يحكم هذا الحكم؟ إني لم أحس أي اختلاف في حالتي النفسية أو في حديثي كان يمكن أن يجعله يتوقع زواجي في ذلك الوقت وأنا في أي وقت آخر، ومع ذلك فلا بد أنه كان هناك اختلاف ما، وقد يجوز أن هذا الاختلاف بدا عليّ عندما كنت أقيم معهم منذ أيام، إذ أعتقد أني لم ألعب مع الأطفال بالكثرة التي كنت ألعب بها معهم. وأذكر أن الأولاد قالوا ذات مساء:

«إن عمنا يبدو الآن متعبًا على الدوام».

وسارت الأيام تقترب بهم من الوقت الذي يذيعون فيه النبأ دائرة أوسع، ويعرفون فيه وقعه على الآخرين. وحرصت «إمَّا» على استخدام تفكيرها الهادئ في هذه الناحية بمجرد أن تصبح «مستر وستن» الصحية كافية للسماح بزيارات «مستر وودهاوس»، فعقدت عزمها على أن تعلن النبأ في بيتها أولًا، ثم في «راندولف». ثانيًا - ولكن كيف تفصح عنه لأبيها قبل كل شيء؟ وبأية طريقة؟ لقد أخذت على عاتقها مهمة نقل الخبر إليه في ساعة يكون فيها مستر «نيتلي» غائبًا، أو حين يجيِء الوقت الذي يُضيق فيه صدرها عِن

الاحتفاظ بالسر الذي كان عليها تأجيله. ولكن هذه الخطة كانت تقتضي أن يأتي «مستر نيتلي» في ساعة معينة ليبدأ من حيث انتهت بإعلان النبأ، فهي تريد أن تكون البداية لها.

واضطرت أخيرًا إلى التحدث إلى أبيها، إلى التحدث إليه في مظهر من البهجة.. إذ كان من واجبها ألا تفصح عن النبأ بنبرات حزينة فتجعل الزواج مصدرًا لشقاء لا مفر منه، وألا تبدو وكأنه كارثة بالنسبة لها. ولذلك فقد بذلت كل ما في مُكنتها من جهد وتفكير، أولًا لكي تُعد ذهنه لسماع شيء مدهش، ثم أتبعت ذلك بكلمات قليلة مؤداها أنه لو أمكن الحصول على موافقته، التي ترجو ألا تكون عسيرة، بالنظر إلى ما يترتب عن ذلك من إسعاد للجميع، فإنها تنهي إليه بأنها هي و«مستر نيتلي» قد عقدا العزم على أن يتزوجا، وأن «بيت هارتفيلد» - سوف يحظى بصحبة رجل تعلم بأنه أحب الناس إلى قلبه من بعد ابنته و«مستر وستن»، محبة مستديمة لايفترق فيها عنهما.

مسكين هذا الرجل!! لقد كان النبأ صدمة قوية عليه في بادئ الأمر، وحاول جهده أن يصرفها عن هذه الفكرة، وجعل يذكّرها أكثر من مرة بما كانت تقوله دائمًا من أنها لن تتزوج، ويؤكد بأن أفضل شيء لها أن تظل عزَبة. ثم تحدث عن تعاسة «إيزابلا» و «مس تيلور» - ولكن كل هذا ذهب أدراج الرياح، وتعلقت «إمَّا» بأكتافه في حنان وابتسمت ثم قالت له إنه أمر لا مفر منه، وإنه لا ينبغي له أن يجعلها في مصاف «إيزابلا» و«مسز وستن» اللتين انتزعتا من «هارتفيلد» عندما تزوجتا، فتركتا بذلك فراغًا كئيبًا، أما هي فلن تغادر هارتفيلد، بل ستبقى فيها دائمًا، ولن تغير من عدد أفرادها، ولا من أسباب الراحة فيها إلا فيما كان أحسن وأفضل.

وتأكدت تمامًا بأنه سيكون أسعد حالًا إذا ما اختمرت في ذهنه فكرة وجود «مستر نيتلي» معه، تحت يده وطلبه في كل وقت. أليس يحب «مستر نيتلي» حبًا عميقًا؟ لقد كانت واثقة من أنه لن ينكر محبته له. فمن ذا الذي كان يسعى إلى استشارته دائمًا في أعماله، غير «مستر نيتلي»؟ ومن ذا الذي كان يؤدي له خدماته، وكان على استعداد دائمًا لكي يكتب له خطاباته؟ ومن ذا كان يفرح إذا عاونه في أمر؟ وكان يفرح بلقائه، ويعنى بأمره ويحب صحبته؟ ألا يود أن يجده دائمًا أمامه؟ أجل، كل هذا كان حقيقة لا تقبل جدلًا. إن من الصعب على «مستر نيتلي» في وضعه الراهن أن يكون معه في كل الأوقات، وإذن فيجب أن يفرح الآن لأنه سيكون معه كل يوم، بل يريانه الآن كل يوم بالفعل، فلماذا لا يستمران هو وهي على ما هما عليه؟

لقد تبين أن من الصعب إقناع «مستر وودهاوس» بهذه السرعة، ومع ذلك فقد أنجزت أصعب نقطة في الموضوع، فألقت بفكرة الزواج أمامه، وتركت للوقت والتكرار المتواصل القيام بما تبقى. وسرعان ما أعقبت توسلات «إمَّا» وتوكيداتها، توكيدات «مستر نيتلي» وتوسلاته فكان لثنائه عليها ثناء ينبع من

صميم حبه لها، ما جعل للموضوع نوعًا من الترحيب. وسرعان ما اعتاد «مستر وودهاوس» أن يتحدث إليه كلاهما في الموضوع كلما سنحت الفرص. وقدمت «إيزابلا» لهما كل ما أمكنها من مساعدة بما كانت ترسله من خطابات تعبر فيها عن تحبيذها الكامل، كما أظهرت «مستر وستن»، عندما سمعت بأمر الخطبة لأول مرة استعداها لمعالجة الموضوع بما يحقق الآمال - أولًا على اعتبار أنه أمر مفروغ منه، وثانيًا على أنه شيء طيب ومستحب، فقد كانت تعلم تمامًا ما لهاتين التذكيتين من تقارب في الأهمية النسبية في عقل مستر وودهاوس».

وتم الاتفاق على كل ما يجب أن يعمل، وأخذ كل من اعتاد أن يأخذ برأيهم يؤكدون له أنها زيجة فيها كل ما يسعده. ولما كان هو نفسه قد أخذ يشعر ببعض هذه المشاعر التي تؤيد هذا الرأي، فقد أخذ يفكر في أنه قد يحين الوقت بعد عام أو عامين، الذي لن يترتب فيه على إتمام هذا الزواج ضرر بليغ.

ولم تكن «مستر وستن» في هذه المهمة تمثل أي دور، أو تظهر من المشاعر ما تضمر في كل ما قالته «مستر وودهاوس» تحبيذًا لهذا الزواج، بل لم يدهشها شيء أكثر من دهشتها عندما كاشفتها «إمَّا» لأول مرة بالأمر، ولكنها لم تر في ذلك إلا ما يزيد في سعادة الجميع، ولذلك فلم تتردد في أن تدفعه إلى آخر الشوط. فلقد كان لمستر «نيتلي» عندها من المكانة ما جعلها تؤمن بأنه جدير «بإمَّا» أعز عزيزة عندها، وترى إن الزيجة لا غبار عليها من أي وجه من الوجوه، وأنها من ناحية واحدة من نواحيها، وهي نقطة في غاية الأهمية، زيجة موفقة وسعيدة، حتى بدا لها الآن أن «إمَّا» ما كانت لتأمن الزواج بغيره، وأنها هي نفسها كانت أغبى

المخلوقات لأنها لم تفكر فيها وتجعلها أمنية من أمانيها قبل ذلك بوقت طويل، فما أقل الرجال الذين لهم ما له من المكانة التي تؤهلهم لأن يطلبوا يد «إمَّا»، ولهم ما له من القدرة على أن يتخلوا عن بيوتهم من أجل

«هارتفيلد»! ثم من غير «مستر نيتلي» يستطيع أن يفهم «مستر وودهاوس» ويتحمله لكي يجعل مثل هذه الزيجة أمرًا مستحبًا! فلقد كانت مشكلة مصير «مستر وودهاوس» المسكين، المسألة التي اعترضتها دائمًا هي وزوجها كلما فكرا في تزويج «إمَّا» من «فرانك تشرشل». وكان تفكيرهما في الطريقة التي يمكن التغلب بها على ما لكل من بيت «هارتفيلد» وبيت «أنسكومب» من حقوق ثابتة، العقبة الكأداء التي تتحطم عليها كل مشروعاتهما دائمًا. واذا كان «مستر وستن» أقل منها اعترافًا بهذه العقبة، فهو حتى مع هذا، لم يقو أبدًا على أن ينهي الحديث بأفضل من أن يقول: «إن مثل هذه المسائل سوف تحل من تلقاء نفسها، وسوف يجد الشباب لنفسه منها مخرجًا» أما في هذه الحالة فليس هناك ما يمكن أن يُلقى به إلى خبايا المستقبل، فهي زيجة على أساس سليم، فيها تكافؤ، مبرأة من الغموض، وليس فيها ما يستحق أن يوصف بأنه

تضحية أي من الجانبين. إنها زيجة تبشر بسعادة وفيرة، وليست فيها عقبة حقيقية معقولة يجوز أن تقف في سبيلها أو تدعو إلى تأجيلها.
وكانت «مسز وستن» وهي غارقة في مثل هذه الأفكار، وطفلتها فوق ركبتيها، تشعر بأنها من أسعد النساء جميعًا. وإذا كان هناك ما يمكن أن يزيد من سرورها، فهو تفكيرها بأن الطفلة ستكبرعما قريب، وستصبح أول مجموعة من قبعاتها ضيقة عليها.
وأثار خبر الخطبة الدهشة أينما ذاع، ولبث «مستر وستن» خمس دقائق وهو في دهشة، غير أنه كان له من سرعة البديهة ما جعل الدقائق الخمس كافية لكي يألف الفكرة. فقد أبصر ما في الزيجة من المزايا، وسعد بها بنفس القوة التي سعدت بها زوجته، وسرعان ما زالت دهشته، وآمن بعد انقضاء ساعة بأن هذا هو ما كان يتنبأ به دائمًا.
ثم قال: «إني أستنتج بأن هذه المسألة ستظل في طي الكتمان، وهذه المسائل تكون دائمًا من الأسرار إلى أن نتبين بأن كل الناس على علم بها، ولست أريد إلا أن أعلم متى أكون في حل من ذكرها، وأود أن أعلم إذا كان قد خالج «جين» أي شك بشأنها».
وذهب في صبيحة اليوم التالي إلى «هايبري»، وأرضى نفسه من هذه الناحية فأنهى إلى «جين» بالخبر. أليست منه في منزلة الابنة، ابنته الكبرى؟ لقد رأى من الواجب أن يخبرها. وبما أن «مس بيتس» كانت حاضرة، فقد كان من الطبيعي أن ينتقل الخبر إلى «مسز كول» و «مسز بري» «مسز ألتن» على أعلى ذلك. ولم يكن هذا غير ما يتوقعه صاحب الشأن نفسها، فلقد وضعا في حسابهما منذ أن وصل الخبر إلى «راندولز» أنه لا بد منتشر سريعًا في أنحاء، «هايبري» جميعها، بل وجعلا يفكران فيما سوف يثيره النبأ من دهشة في كثير من الندوات العائلية التي تعقد في الجهة في الأمسيات. وبصفة عامة يمكن القول بأن هذه الزيجة حازت قبولًا حسنًا، وإن اختلفت الآراء في أيهما كان أسعد حظًا... فريق كان يحبذ انتقالهم جميعًا إلى «دونول» وترك «هارتفيلد» لأسرة «جون نيتلي»، بينما فريق آخر يتكهن بحدوث خلافات ومنازعات بين الخدم. وعلى الرغم من كل هذا، لم يقم بوجه عام أي اعتراض جدي إلا فى مكان واحد، هو «الأبرشية»، فهناك، وهناك فقط، لم تلق الخطبة تحبيذًا يخفف من وقع النبأ، على أن اهتمام «مستر ألتن» إذا قورن باهتمام زوجته لم يكن شيئًا
مذكورًا، فقد كان لا يرجو أكثر من أن تجد الفتاة الآن ما فيه إشباع لكبريائها، مفترضًا في الوقت نفسه أنها كانت تعمل دائمًا على إيقاع «نيتلي» في حبائلها إذا أمكنها ذلك. أما عن مسألة العيش في «هارتفيلد»، فقد بلغت به الجرأة أن يقول: «خير أن يكون هو من أن أكون أنا الذي أعيش فيها».
أما «مسز ألتن» فقد استبد بها الاضطراب، وصاحت تقول:

«ما أبأس «نيتلي» وما أتعسه من مخلوق!! يا له من رزء أصابه! وإنها لجد مهمومة من أجله، فعلى الرغم من أنه متقلب الأهواء، فإن فيه ألف صفة حميدة. كيف أمكن أن تقهره؟ ما كنت أظن أبدًا أنه يحب، وما تبادر إلى ذهني شيء من ذلك قط. مسكين أنت يا نيتلي!! سوف تنتهي كل إتصالاتنا الجميلة بك، ما أسعده عندما كان يأتي ليتعشى معنا كلما دعوناه!! غير أن كل هذا سيصبح الآن أثرًا بعد عين. ما أبأسه من إنسان!! ولن تذهب بعد الآن جماعات جوالة إلى «دونول» من أجلي. لا، لا من إن «مسز نيتلي» ستكون هناك لتحول دون ذلك. ما أقبح هذا!! إنني لا آسف أبدًا على ما قلته بالأمس عن مديرة بيته. إنها لفكرة مفزعة أن يعيشوا كلهم معًا، فكرة لن يكتب لها النجاح. لقد حاولت ذلك أسرة أعرفها بالقرب من «مابل جروف» ولكنها اضطرت إلى الانفصال قبل أن ينتهي الأسبوع الأول».

ودارت عجلة الزمن ولم تبق إلا أيام قلائل وتصل الجماعة من لندن. لقد كان ذلك تغييرًا مزعجًا، وأخذت «إمَّا» تفكر ذات صباح في هذا التغيير، وترى أنه لا بد أن يسبب لها قلقًا وغمًا، حين دخل عليها «مستر نيتلي» فطرحت عن ذهنها هذه الأفكار المحزنة. وبعد أن دارت بينهما في بادئ الأمر بعض المجاملات السعيدة، سكنت هنيهة ثم أخذ يقول في نبرات حازمة:

«إن عندي ما أحب أن أفضي به إليك يا «إمَّا»، إنه بعض الأخبار».

وقالت مسرعة وهي تنظر إلى وجهه: «أسارة هي أم مزعجة».

«لست أدرى بما يجب أن تسمى».

«آه!! إني متأكدة بأنها أخبار سارة، فإني أرى ذلك مرتسمًا على محياك، وأنت تحاول ألا تبتسم».

فقال وقد انبسطت أسارير وجهه: «أخشى، وأخشى كثيرًا جدًا يا عزيزتي «إمَّا» ألا تبتسمي عند سماعها».

«عجبًا! ولكن لم هذا؟ إنه ليصعب عليَ أن أتخيل شيئًا يسرّك أو يسليك، ثم هو لا يسرني ويسليني كذلك».

وأجابتها: «هناك موضوع واحد تختلف فيه آراؤنا، وأرجو ألا يكون هناك غيره.. ثم توقف لحظة وابتسم مرة أخرى وعيناه محدقتان في وجهها وقال: «ألم يخطر بذهنك شيء حتى الآن؟ ألا تتذكرين؟ إنه «هاريت سمث».

واحمرت وجنتاها عند سماعها الاسم، وشعرت بأنها تخاف شيئًا ولو أنها لم تكن تدري ما هو.

وصار يقول: «هل وصلتك منها أخبار في هذا الصباح؟ أعتقد هذا، كما أعتقد بأنك على علم بكل شي».

«لا، لم يصلني شيء، ولست أعلم شيئًا فبالله خبّرني».

«أراك على استعداد لسماع أسوأ الأنباء، إنه شيء في غاية السوء،

أن «هاريت سمث» ستتزوج «روبرت مارتن».

و ارتاعت «إمَّا» وكأنما كانت لا تتوقع ذلك، وقالت وعيناها تحملقان في لهفة بالغة: «لا، إن هذا مستحيل» ثم ضمت شفتيها وكفّت عن الاسترسال في الحديث.

وواصل «مستر نيتلي» حديثه: «بل إنه كذلك! وقد بلغني هذا من «روبرت مارتن» نفسه، وهو لم يتركني إلا منذ نصف ساعة».

وظلت تنظر إليه في دهشة معبّرة.
«لقد صادف ذلك هوى في نفسك يا «أمّتي» العزيزة، ولست أجد عندك شيئًا مما كنت أخشاه - وددت لو أن آراءنا كانت متشابهة، ولكنها ستكون كذلك على مر الأيام. كوني واثقة كل الثقة بأن الزمن سيجعل أحدنا يغيّر رأيه. وفي الوقت نفسه لا أرى حاجة بنا إلى الكلام في هذا الموضوع بالذات».
وأجابته وقد استجمعت قواها: «أنت تخطئ فهمي، إنك تخطئ فهمي في هذا المسألة، لا لأن خبرًا كهذا يسبب لي ألمًا الآن، بل لأني لست قادرة على تصرفه، فهو يبدو مستحيلًا!!، لا، لا! لا يمكن أنك تعني أن تقول أن «هاريت سمث» قبلت أن تتزوج «روبرت مارتن» بالفعل، ولا يمكن أن تعني حتى أنه تقدم الآن ليخطبها مرة أخرى. أن كل ما تعنيه هو أنه يعتزم ذلك».
وأجاب «مستر نيتلي» في عزم وقد علت وجهه ابتسامة:
«أعني أنه فعل ذلك وأنها قبلت».
وصاحت «إمَّا» تقول: «رباه!! ماذا أسمع؟» ثم لجأت إلى سلّة أشغالها تتخذ منها ذريعة لتطأطئ رأسها، وتخفي كل ما يرتسم على محياها من مشاعر البهجة والمتعة التي كانت تعلم بأنها لا بد قد ظهرت عليها. وأضافت تقول:
«أجل! أخبّرني عن كل شيء. دعني أفهم كيف حدث هذا؟ أين؟. ومتى؟، دعني أعرف كل شيء، فما من شيء أدهشني أكثر كل ذلك - لكني أؤكد لك بأنه لم يحزنني - كيف؟ كيف أمكن ذلك؟
«إنها مسألة في منتهى البساطة - فلقد ذهب إلى لندن منذ ثلاثة أيام ليقوم ببعض الأعمال، وكنت عهدت إليه بتوصيل بعض الأوراق التي كنت أريد إرسالها إلى «جون» فسلّمها إليه في منزله. ودعاه «جون» ليذهب معهم في نفس الأمسية إلى ملهى «أستلي»، وكانت النية معقودة على أخذ الولدين الكبيرين إلى الملهى، وبذلك كانت الجماعة تتألف من أخينا وأختنا ثم «جون» و«هنري» و «مس سمث». ولم يمانع صديقي «روبرت» في قبول الدعوة. فعرجوا عليه في طريقهم، وكانوا جميعًا في منتهى السرور، ثم دعاه أخي لتناول العشاء معهم في اليوم التالي- فلبّى الدعوة، وأثناء ذلك (كما فهمت) وجد فرصة للتحدث مع «هاريت» ومن المؤكد أن حديثه لم يذهب عبثًا، فكان قبولها مصدر سرور له بقدر ما هو أهل لهذا السرور. وعاد في عربة الأمس، ثم جاءني في هذا الصباح عقب الإفطار مباشرة ليقدم إليّ تقريرًا عما قام به أولًا فيما يختص بشؤوني، ثم فيما يخصه. هذا كل ما يمكنني آن أقوله لك عن كيف وأين ومتى وستروي لك صديقتك «هاريت» بيانًا أكثر من هذا عندما ترينها، وستخبرك بكل التفاصيل الدقيقة التي لا تكتسب رونقًا إلا إذا جاءت على لسان سيدة، أما نحن معشر الرجال فلا نروي من الأخبار إلا ما كان عظيمًا هامًا. ولا بد لي مع هذا من أن أقول أنه كان يبدو «روبرت مارتن»، كما كان يبدو لي، أن قلبه كان يجيش بعواطف جارفة نحوها، فقد قال دون أن يكون لقوله مساس كبير بالموضوع الأصلي، إنهم عندما غادروا مقصورة «أستلي»،

سار أخي وبرفقته زوجتها و«جون» الصغير، وسار هو ومعه «مس سمث» و«هنري» من خلفهم، ثم حدث أن اشتد حولهم الزحام حتى شعرت «مس سمث» بالضجر».

وتوقف عن الكلام، ولم تجرؤ «إمَّا» على محاولة الرد في الحال فقد كانت واثقة من أنها لو تكلمت فسوف تكشف عما تشعر به من سرور يفوق حد الوصف، فكان لا بد لها من الانتظار لحظة وإلا خالها مجنونة.

وراعه سكوتها. وبعد أن تأملها برهة عاد يقول:

«حبيبتي «إمَّا»، لقد قلت أن هذه الحادث لن يحزنك الآن، ولكني أخشى أن يكون قد آلمك أكثر مما كنت تتوقعين، إن هناك مغمزًا في مركزه، ولكن يجب أن تجعلي موضع اعتبارك أنه هو الرجل الذي تقنع به صديقتك، وأنا كفيل بأنك ستحسنين الظن به كلما زادت معرفتك به؛ فسوف تسرّك رجاحة عقله وسلامة مبادئه. أما عن شخصه فلن يسعك أن تتمني لصديقتك خيرًا منه، وسوف أغيّر من مكانته الاجتماعية إذا أمكنني ذلك، وأؤكد لك يا «إمَّا» أنه جدير بالكثير. إنك تسخرين مني من أجل «وليم لاركنز» ولكني لنا أتخلى كذلك عن «روبرت مارتن».

وود لو رفعت ناظريها إليه وابتسمت. وابتسمت فعلًا ولكنها لم تكن ابتسامة عريضة،. وأجابته في نشوة ظاهرة:

«ليس هناك ما يدعو لأن تتعب نفسك لكي تجعلني أرضى عن هذا الزواج، فإن من رأيي أن «هاريت» قد تصرفت تصرفًا حكيمًا، بل قد تكون عائلتها أدنى من عائلته من حيث المكانة - وأنا لم ألذ بالصمت إلا لدهشتي، وهي دهشة شديدة حقًا، فأنت لن تستطيع أن تتصور ما كان لهذا النبأ في نفسي من مفاجأة فقد كنت لا أتوقعه فقد كان هناك ما يحملني على الاعتقاد بأنها كانت أخيرًا أشد عزوفًا عنه، أكثر كثيرًا مما كانت قبلًا».

وأجابها «مستر نيتلي»: «يجب أن تكوني أكثر معرفة بصديقتك والواجب يقتضيني أن أقول إنها فتاة مرضية الطباع عطوفة، ولا يحتمل أبدًا أن تعزف عن أي فتى يقول لها إنه يحبها».

ولم تتمالك «إمَّا» نفسها من الضحك وهي تجيبه:

«لعمري إني أكاد أعتقد بأن مبلغ درايتك بها هو كمبلغ درايتي تمامًا، ولكن هل أنت متأكد يا «مستر نيتلي» تمامًا بأنها وافقت عليه موافقة تامة؟ قد أصدق أنها سوف تقبله فيما بعد - ولكن هل قبلته بالفعل؟ أليس من الجائز أنك لم تفهمه؟ إنكما كنتما تتحدثان في أمور أخرى - أعمال مالية ومعارض للماشية، وآلات حديثة للبذر، ألا يجوز وأنت في خضم هذه الموضوعات الكثيرة، أنك لم تفهمه؟ وإنه لم يكن متأكدًا من يد «هاريت» بقدر ما كان متأكدًا من مقاسات أحد الثيران المشهورة؟».

ولمست «إمَّا» في تلك اللحظة الفرق الشاسع بين وجهي كل من «مستر نيتلي» و «روبرت مارتن» وبين مظهرهما، وتمثلت أمامها ذكريات ما حدث من

«هاريت» أخيرًا جلية واضحة، وعاد إلى أسماعها رنين تلك الكلمات التي قالتها في حماس وحزم: «لا، وأرجو أن أكون أحصف من أن أفكر في «روبرت مارتن»، حتى كانت تتوقع أن يكون الخبر إلى حد ما سابقًا لأوانه، فهو لا يمكن أن يكون غير هذا.

وصاح بهاء «مستر نيتلي»: «هل تجسرين على أن تقولي هذا؟ أتجرئين على الظن بأني على هذه الدرجة من الغباوة حتى أعجز عن إدراك ما يقوله الرجل؟ ماذا تستحقين على ذلك؟».

«أستحق دائمًا أحسن معاملة لأني لا أحتمل غيرها، ولهذا يجب أن أسمع منك الآن الرد صريحًا واضحًا - فهل أنت واثق تمامًا من مدى العلاقة التي بين «مستر مارتن» و «هاريت» الآن؟».

وأجابها بكلام لا غموض فيه ولا أثر لإيهام:

«بل أنا متأكد تمامًا بأنه أخبرني أنها رضيت به زوجًا، وأثق بأن كلماته لم يكن فيها أي غموض أو شك، وأظن أني قادر على أن أبرهن لك بأن الأمر لا بد أن يكون كذلك، فقد سألني عما يجب عليه أن يفعله الآن، ولم تكن له معرفة بأحد يمكنه الرجوع إليه لجمع معلومات عن ذويها وأصدقائها إلا «مسز جدرد»، وقد سألني إذا كان في وسعي أن أنصحه بشيء أنسب من الذهاب إلى «مسز جدرد»، فأكدت له بأن هذا ليس في إمكاني. ثم قال إنه سيحاول رؤيتها في بحر ذلك اليوم».

وأجابت «إمَّا» بابتسامة وضاءة:

«إني مقتنعة تمامًا، وأرجو لهما مخلصة كل سعادة».

«ها!! لقد تغيرت تغيرًا واضحًا عما كنت حين تكلمنا في هذا الموضوع من قبل».

«أرجو هذا – فقد كنت مغفلة في ذلك الحين».

«بل لقد تغيّرت أنا كذلك، وأصبحت الآن شديد الميل إلى الاعتراف لك بكل ما في «هاريت» من صفات حميدة، لقد تكبّدت بعض المتاعب من أجلك ومن أجل «روبرت مارتن» (فقد كنت أعتقد دائمًا بأنه يهيم بها)، كي أزيد معرفتي بها، وكثيرًا ما تحدثت معها طويلًا، ولا بد إنك رأيت ذلك. وقد تبادر إلى ذهني أحيانًا أن شيئًا من الشك قد أخذ يساورك في أني أحاول التأثير عليها من أجل «مارتن» المسكين، وهو ما لم يحدث إطلاقًا، ولكني مقتنع، من كل ملاحظاتي عنها، بأنها فتاة لطيفة ليس فيها تكلُّف أو تصنّع، أفكارها ناضجة، ومبادئها سليمة للغاية، وتستوحي سعادتها تأتي لها به حياتها المنزلية من العطف والمنفعة، ولا شك عندي في أنها مدينة لك في ذلك بالتفكير».

فصاحت «إمَّا» وهي تهز برأسها: «أنا!! واحسرتاه على المسكينة «هاريت»! وكبحت جماح نفسها واستسلمت في هدوء لسماع المزيد من هذا المديح الذي لا تستحقه.

وانقطع الحديث بعد ذلكِ بقليل عندما دخل أبوها عليهما، ولم تأسف

لذلك، فقد كانت تريد أن تنفرد بنفسها، وكانت في دهشة وحيرة استحالت معهما قدرتها على تهدئة نفسها. فقد طارت نفسها شعاعًا بما استولى عليها من دهشة، وما استبد بها من نشوة. وما كان في وسعها تحكيم عقلها في أي شيء، إلى أن أخذت تتحرك وتحدث نفسها، وتضحك وتتأمل.

وكان مجيء أبيها ليعلن أن «جيمز» قد خرج ليعِد الخيل تمهيدًا للذهاب إلى «راندولز»، وهي رحلة أصبحت تؤدى يوميًا الآن. فكان ذلك مبررًا لها لكي تتوارى من الحجرة.

وللمرء أن يتصور ما كانت عليه مشاعرها من ابتهاج وفرحة وشعور بالحمد في تلك اللحظة. فإن السعادة المرتقبة التي كانت تنتظر «هاريت»، أزالت عن«إمَّا» الشيء الوحيد الذي كان يثقل كاهلها، حتى أصبح يُخشى عليها من أن تؤدي مبالغتها في فرحتها إلى تهديد أمنها. وما الذي كانت ترجوه أكثر من ذلك؟ لا شيء إلا أن تصبح أهلًا له، ذلك الذي كانت نواياه وآراؤه على الدوام تفوق نواياها وآراءها، ولا شيء إلا أن يكون لها من غفلتها السابقة دروس تتعلم منها التواضع والحذر في المستقبل.

لقد كانت حادة، وجادة للغاية في حمدها وثنائها على ما نالت، وفي

قراراتها التي اعتزمتها لأيامها المقبلة. وعلى الرغم من ذلك فلم يكن هناك ما يمنع ضحكها أحيانًا وهي على هذا الحال من الجديّة.

وكان لا بد لها أن تضحك من مثل هذه الخاتمة، خاتمة الفشل الذريع الذي نزلت بها منذ خمسة أسابيع!! ما أغرب قلب «هاريت» وما أغرب «هاريت نفسها»!!

لقد أضحت عودتها الآن باعثًا على السرور، بل وسيكون كل شيء مبعث سرور، وسيكون من دواعي هذا السرور التعرف «بروبرت مارتن».

وكان أكثر ما يثلج صدرها، ويريح بالها، أنه لم تعد هناك ضرورة إلى إخفاء شيء عن «مستر نيتلي»، وسيزول قريبًا ما كانت تمجّه نفسها من تنكر وتورية وغموض.

وأصبحت الآن ونصب عينيها أن تجعله موضع ثقتها التامة، وهو ما كانت ترحب به نفسها كل الترحيب، كواجب من واجباتها.

وخرجت مع أبيها وهي أكثر ما تكون فرحة وسرورًا. وإذا لم تكن تنصت إليه دائمًا، فقد وافقته على كل ما قاله. وسواء أتكلم أم سكت، كان يجد منها تاييدًا كاملًا، لما كان يشعر به من ضرورة الذهاب إلى «راندولز» كل يوم خوفًا من أن يحزّ عدم ذهابهما في نفس «مسز وستن».

ووصلا إلى «راندولز»، وكانت «مسز وستن» وحدها في حجرة الاستقبال، وما كاد ينصتان إلى أخبار الطفلة، ويتلقى «مستر وودهاوس» عبارات الشكر على مجيئه، وهو ما كان يطمع فيه، حتى ظهر من خلال رتاج النافذة شبحان يمران بالقرب منها.

وقالت «مسز وستن»:«إنهما «فرانك» و«مس فيرفاكس»، لقد كنت على وشك أن أخبركما بسرورونا ودهشتنا عندما رأيناه يصل هذا الصباح. وهو باق معنا إلى الغد، وقد أمكننا أن تؤثر على «مس فيرفاكس» كي تمضي اليوم معنا. إنهما داخلان هنا فيما أرجو».

ولم تمض نصف دقيقة حتى كانا داخل الحجرة. وامتلأ قلب «إمَّا» سرورًا عند رؤيتهما، وإن كان هذا لم يُحل دون وجود شيء من الاضطراب في نفسها، وإثارة لبعض الذكريات المحرجة للطرفين. ولكنهم تقابلوا في جو من الترحيب والابتسامات تعلو شفاههم، وإن ظل يسودهم شعور لم يسمح بادئ الأمر بالاسترسال في الكلام. وخيّم عليهم الوجوم بعض الوقت بعد أن أخذوا أماكنهم، حتى شكّت «إمَّا» فيما إذا كانت الرغبة التي طالما شعرت بها وتحققت الآن، رغبة رؤيتها «لفرانك تشرشل» مرة أخرى وهو بصحبة «جين»، وجدت ما يتناسب معها من السرور. ولكن ما كاد «مستر وستن» ينضم إلى الجماعة، وتُحمل الطفلة إلى الحجرة ليراها الضيوف، حتى انتهت حاجتها إلى ما يثيرهم أو يملأ عليهم الجو حياة، واستطاع «فرانك تشرشل» أن يغتنم الفرصة، وأن يستجمع من الشجاعة ما جعله يقترب منها ويقول:

«إن من واجبي أن أشكرك يا «مس وودهاوس» على صفحك الكريم الذي جاء في أحد خطابات «مسز وستن»، وأرجو ألا يكون الزمن قد قلل من رغبتك في الصفح، كما أرجو ألا ترجعي فيما قلتيه عني وقتئذ».

وصاحت «إمَّا» تقول في سرور عظيم: «لا، أبدًا، أن ذلك لن يكون. ويسرني أنا بصفة خاصة أن أراك وأصافحك وأقدم لك التهنئة بنفسي».

وشكرها من صميم القلب، واستمر بعض الوقت وهو يعبّر في شعور مستفيض عن امتنانه وسروره.

ثم قال وهو يلتفت إلى «جين»:

«ألا تبدو في صحة جيدة؟ أليست أحسن مما كانت في أي وقت مضى؟ وأنت ترين مقدار ولع أبي و«مسز وستن» بها».

ولكن سرعان ما أخذت مشاعره تتقد ثانية، وفي نظرات تكاد تنطق بالضحك، وبعد أن تحدث عن عودة أسرة «كامبيل» المنتظرة، نطق باسم «دكسون»، فاحمر وجه «إمَّا» ونهته عن أن ينطق به في وجودها، وصاحت قائلة:

«لا يمكنني أن أفكر في هذا الاسم أبدًا إلا وأشعر بمنتهى الخجل من نفسي».

وأجابها: «بل أن الخجل كل الخجل هو من نصيبي أنا، أو هو يجب أن يكون من نصيبي. ولكن هل من المعقول أن ذهنك ظل خاليًا من كل شك في هذا الموضوع، أقصد في الفترة الأخيرة؟ فأنا أعرف أنك لم يكن يداخلك أي شيء قبل ذلك».

«أؤكد لك بأني لم يداخلني أدنى شك!».

«إن ذلك يبدو في منتهى الغرابة... لقد كنت مرة على وشك وبودي لو أنني أقدمت وقتها... فلو فعلت لكان أفضل. فعلى الرغم من أني كنت كثير الخطأ

فإن خطئي كان من النوع الجسيم الذي لا يعود عليّ بفائدة. فلو أنني تحللت من السرية وقتها وأخبرتك بكل شيء لكان الخطأ أخف وطأة».
وقالت «إمَّا»: «إن الخطأ لا يستحق أسفًا الآن».
وعاد يقول:
«عندي بعض الأمل في التأثير على خالي كي يزور «رندولز»، فهو راغب في أن يتعرف بها. وعندما تعود أسرة «كامبيل»، فإننا سنلتقي بها في لندن، ونبقى هناك، واعتقد أن بقاءنا سيستمر إلى أن يتيسر لنا الانتقال بها شمالًا. ولكني الآن على مسافة بعيدة منها - أليس ذلك صعبًا يا «مس وودهاوس»؟ إننا لم نتقابل مرة واحدة منذ أن عاد الوئام بيننا، إلى أن كان هذا الصباح، ألا تشعرين بالاشفاق عليّ؟».
وعبّرت «إمَّا» عن إشفاقها بحنان بالغ، حتى صاح وقد طرأت عليه فكرة سارة قائلًا:
«أجل! وبهذه المناسبة» - ثم خفّض من صوته، وبدا وقتها جادًا، واستطرد يقول: «أرجو أن يكون «مستر نيتلي» بخير!! إني أعلم أنك اطلعت على خطابي، وأظنك تذكرين ما ضمنته من تمنياتي لك. دعيني أرد التهاني، وأؤكد لك بأن سماعي للخبر كان له في نفسي أجمل الأثر وأطيب السرور. إنه رجل في غنى عن كل مديح».
وابتهجت «إمَّا» وودت أن يستمر على هذ ا النحو من الحديث ولكنه شغل بعد لحظة بما يعنيه، وبحبيبته «جين» ثم عاد يقول:
«هل رأيت مثل هذه البشرة؟ مثل هذه النعومة والنضارة! ومع هذا فهي لا توصف بالجمال، ولا يمكن أن يقال إنها جميلة، إن لون وجهها غير عادي بهذه الأهداب السوداء، وهذا الشعر الأسود، إنه لون مميز للغاية وقد ميز صاحبته عن غيرها، ففيها من اللون ما يكفي ليكسب صاحبته جمالًا».
وأجابت «إمَّا» في دهاء وخبث: «لقد كنت معجبة بلون بشرتها دائمًا، ولكن هل يمكن أن يغيب عن ذاكرتي ذلك الوقت الذي عبت فيه شحوب وجهها حين كنا نتحدث عنها أول الأمر؟ هل نسيت كلية».
«لا، لا، وكم كنت وقحًا!! كيف أمكنني أن أجرؤ -».
ثم عاد فضحك ملء شدقيه عندما تذكر هذا الحديث، حتى أن «إمَّا» لم تجد مناصًا من أن تقول:
«إنني لا أشك في أنك وأنت في خضم ارتباكاتك في ذلك الوقت كنت تجد متعة كبيرة جدًا في أن تخدعنا جميعًا، أنا واثقة من ذلك، وأعتقد أن هذه كانت تسليتك».
«لا، لا - كيف تتهمينني بشيء كهذا؟ لقد كنت أتعس مخلوق».
«لا، لم تبلغ بك التعاسة حدًا يجعلك لا تشعر بالمرح، وأنا واثقة بأن هذا كان ينبوعًا تغترف منه متعة هائلة أن تشعر بأنك تخدعنا جميعًا.

ولعلي أكون أكثرهم استعدادًا للشك، لأني والحق أقول، أظن بأني كنت أجد شيئًا من التسلية أنا نفسي في مثل ذلك الموقف، بل أظن أن هناك شيئًا من التشابه في حالتينا».
وأحنى رأسه موافقًا.
وأردفت تقول على الفور وهي تنظر نظرة تدل على أصالة الرأي:
«إذا لم يكن بيننا تشابه في طباعنا وميولنا، فهناك تشابهه في مصيرنا، ذلك المصير العادل الذي ربطنا بشخصين يتفوقان علينا بكثير».
فأجاب في حماس:
«هذا صحيح، هذا صحيح - لا، إنه ليس صحيحًا من ناحيتك، إذ ليس هناك من يتفوق عليك، ولكنه يصدق عليّ تمامًا، إنها ملاك كامل، أنظري إليها، أليست ملاكًا في كل حركاتها؟ لاحظي كيف تحرك رقبتها، لاحظي عينيها وهي تتطلع إلى والدي» (ومال برأسه وهمس): «ويسرّك أن تسمعي بأن في نيّة خالي أن يعطيها كل مجوهرات زوجته بعد أن تُعاد صياغتها، وقد عزمت على أن أصوغ من بعضها حِلية للرأس، ألا تبدو جميلة فوق شعرها الداكن؟».
وأجابت «إمَّا»: «بل جميلة جدًا ولا شك»، وبدا الحنان في كلماتها حتى انطلق يقول شاكرًا:
«ما أعظم سروري لرؤيتك ثانية!! وأن أراك بهذا المظهر الخلاب!! وما كنت لأضحي بهذه المقابلة بأي ثمن، ولو أنت لم يتيسر لك المجيء، لكان من المؤكد أن أذهب لزيارتكم في «هارتفيلد».
وكان الباقون في شُغل عنهما بالحديث عن الطفلة، إذ كانت «مسز وستن» تروي لهم مما استولى عليها من الفزع بسبب بعض مظاهر اعتلال الصحة التي بدت على الطفلة في الأمسية الماضية، وتقول أنها تعتقد أن ذلك كان جهلًا منها، ولكنها مع ذلك انزعجت، وكانت على وشك أن تستدعى «مستر بري» وقد يكون أحرى بها أن تتوارى من ذلك خجلًا، ولكن «مستر وستن» نفسه لم يكن أقل منها انزعاجًا، ومع ذلك فلم تمض عشر دقائق حتى عوفيت الطفلة كلية - كانت هذه قصتها عن الطفلة. وقد أثارت اهتمام «مستر وودهاوس» بصفة خاصة، فأثنى عليها كثيرًا لأنها فكرت في استدعاء «بري»، ولم يأسف على شيء إلا لأنها
لم تنفذ ذلك وقال: «إنه يجب عليها أن تستدعي «بري» دائمًا إذا ما بدا على الطفلة أقل توعك حتى ولو لم يمكث غير لحظة، وبذلك يذهب عنها الفزع سريعًا، ولا تحتاج إلى استدعاء «بري» كثيرًا - وربما كان مما يؤسف له أنه لم يأت في الليلة الماضية، إذ على الرغم من أن الطفلة قد عوفيت الآن، فقد كان من الأفضل لو أن «بري» رآها».
قال «لإمَّا» وهو يحاول استلفات نظر «مس فيرفاكس» في أثناء الكلام: «بري»! صديقي مستر «بري»!! ماذا يقولون عن مستر «بري»؟ هل كان هنا هذا الصباح؟ وكيف يتنقل الآن؟ هل أصلح عربته؟».

وتذكرت «إمَّا» في الحال، وأدركت ما يرمي إليه، وأخذت تشاركه الضحك، وبينما هي كذلك، كانت ملامح وجه «جين» تدل بوضوح على أنها أيضًا قد سمعت الحديث عنه رغم تظاهرها بأنها لم تسمعه.

وصاح «فرانك»: «لقد كان حلمًا عجيبًا ذلك الذي رأيته!! وأنا لا أفكر فيه أبدًا إلا وأضحك، إني أتبين ذلك في وجنتيها وفي ابتسامتها، وفي محاولتها الفاشلة للعبوس. أنظري إليها، ألا ترين السطور التي دبجتها في خطابها وحمّلتها هذا الخبر عن عربة «بري»، تجري تحت عينيها في هذه اللحظة؟ - إن الغلطة كلها تتكشف أمامها – إنها غير قادرة على أن تستمع إلى أي شيء آخر، ولو أنها تتظاهر بالإنصات إلى الآخرين؟».

ووجدت «جين» نفسها مضطرة إلى أن تبتسم ابتسامة عريضة، بقيت معالمها على فمها وهي تلتفت نحوه وتقول في صوت خافت واضح ومنطلق:

«إن قدرتك على تحمل مثل هذه الذكريات تثير دهشتي، إن الذكريات قد تخطر أحيانًا بالذهن عفوًا، أما أنت فلا أدري كيف تستعيدها عمدًا؟».

وكان في جُعبته الكثير مما كان يمكن أن يقوله ردًا عليها ويصادف هوى في النفس، ولكن عواطف «إمَّا» كانت معظمها مع «جين»، في أثناء المناقشة، فلما بارحت «راندولز» وأخذت بطبيعة الحالة توازن بين الرجلين، شعرت بأنها مع سرورها برؤية «فرانك تشرشل» وتقديرها الودي له، كما فعلت، لم تكن أبدًا أكثر مما هي عليه الآن شعورًا بما كان عليه «مستر نيتلي» من سمو الخلق. وقد استكمل هذا اليوم، الذي كان أكثر أيامها سعادة، مظاهر سعادته كلها، بهذه المقارنة التي دفعتها إلى التفكير في صفات نيتلي ومناقبه.

الفصل الخامس والخمسون

إذا كانت «إمَّا» لم تزل تشعر من حين إلى حين بالقلق من ناحية «هاريت» ولم تزل يساورها الشك في قدرتها على نسيان حبها «لمستر نيتلي» حقًا، وفي استعدادها لقبول أي رجل آخر مكانه عن طيب خاطر، فإن عذابها وقلقها من جراء هذا الشك لم يطل بهما الزمن. فلقد وصلت الجماعة من لندن بعد قلائل، وما كادت تتهيأ لها فرصة الانفراد ساعة بهاريت حتى اقتنعت تمامًا، وعلى غير ما كانت تنتظر، بأن «روبرت مارتن» قد حل مكان«مستر نيتلي» من قلبها كلية، وأنه قد أصبح محط آمالها في السعادة.
لقد شعرت « هاريت « بشيء من الكآبة وبدت عليها بعض مظاهر البلادة في أول الأمر، ولكنها بمجرد أن اعترفت بأنها كانت مدعية وبلهاء ومغرورة في قدر نفسها، أخذ ما كانت تشعر به من الألم والارتباك يتلاشى وينتهي بانتهاء الكلمات على لسانها، وإذا بالماضي وقد ذهب عنه كل ما فيه من هم وحزن، وإذا بالسعادة تغمرها في الحاضر والمستقبل. وأما ما كان من رأي صديقاتها ومدى استصوابهن لما فعلته، فإن «إمَّا» أزالت عنها في الحال ما كانت تخشاه من تلك الناحية بتقديمها أجمل التهاني لها عندما قابلتها. وسرّ «هاريت» غاية السرور أن تسرد تفاصيل كل ما حدث في الأمسية التي أمضوها في ملهى«أستلي»، وفي أثناء تناول العشاء في اليوم التالي، فتناولت الحديث في كل هذا وهي على أقصى ما تكون من الغبطة. ولكن أي مغزى كان لهذه التفصيلات؟ الواقع أن «هاريت»، كما استطاعت «إمَّا» أن تعترف الآن، كانت دائمًا تعجب «بروبرت مارتن» وأن حبه ظل يعلو على كل مقاومة، أما ما عدا ذلك، فهو ما لا علم «لإمَّا» به، ولا تفسير له عندها. وأيًا كان الأمر فقد كانت حادثة سعيدة، وكان كل يوم يمر، يمد «إمَّا» بسبب جديد يعزز هذا الرأي. وقد ظهر الآن منبت «هاريت» وتبين أنها ابنة لتاجر له من الثراء ما يكفي أن يهيئ لها العيش المريح الذي ظلت تنعم به دائمًا، وكان له من النبل ما جعله يحرص دائمًا على التستر- ذلك هو كرم العنصر الذي لم تكن «إمَّا» لتتوانى قبل ذلك عن أن تشهد به، بل لعل عنصره لم تعلق به شائبة كأي واحد من سادة القوم، ولكن أي نسب ذلك الذي كانت تريد أن تتقدم به إلى «مستر نيتلي»!! إن وصمة البنوة غير الشرعية التي لا تمحوها نبالة الأصل ولا الثروة، وكانت ولا شك وصمة دائمة.

لم يبد الأب أي اعتراض على هذه الزيجة، بل لقد لقي الفتى منه كل معاملة كريمة، وسارت الأمور جميعها كما يجب أن تسير. ولما تعرّفت «إمَّا» «روبرت مارتن»، الذي أصبح الآن من معارف بيت «هارتفيلد»، تبينت فيه كل مظاهر الحكمة والجدارة التي تلائم صديقتها الصغيرة. إن «إمَّا» لم تكن تشك في سعادة «هاريت» مع أي رجل كريم النفس. أما مع هذا الرجل خاصة، وفي البيت الذي أعدّه لها، فقد كان لها أمل فيما هو أكثر من ذلك، في الطمأنينة والاستقرار والتطور. وهي فوق ذلك ستعيش بين أولئك الذين يحبونها، ولهم من الإدراك ما يفوق إدراكها، تنعم بينهم بقدر من العزلة يضمن لها السلامة، ولها في الوقت نفسه مما يشغلها ما يكفي لأن يحقق لها البهجة ويشرح نفسها. وهي لن تنقاد إلى ما فيه إغراء، ولن يجد الإغراء سبيله إليها، بل سوف تعيش موقرة سعيدة.
واعترفت «إمَّا» بأن صديقتها أسعد المخلوقات حقًا في العالم، لأنها استطاعت أن تغرس في قلب رجل كهذا حبًا ثابتًا لا يتزعزع – فإذا لم تكن أسعد الناس حظًا، فقد نجحت على الأقل في أن تجعله لا يخضع لأحد سواها.
ولما كان من الضروري أن تشغل «هاريت» بما تتطلبه واجباتها نحو بيت «مارتن»، فقد أخذ ذهابها إلى «هارتفيلد» يقل شيئًا فشيئًا، وما كان في ذلك ما يدعو إلى الأسف. فقد كان لا بد للعلاقة الوثيقة التي بينها وبين «إمَّا» أن تقل، وأن تتحول صداقتهم إلى نوع من العطف أكثر هدوءًا واستقرارًا. وهكذا كان من حسن الحظ أن ما ينبغي أن يكون وما كان لا بد أن يكون، قد أخذ يتحقق الآن بطريقة طبيعية وشيئًا فشيئًا.
وحضرت «إمَّا» إلى الكنيسة قبل أن ينصرم شهر سبتمبر، ورأتها وهي تعاهد «روبرت مارتن» على أن تتخذه زوجًا وهي في رضى بلغ من الكمال حدًا لم تستطع معه ذكريات الماضي، حتى ما كان منها متعلقًا «بمستر ألتن»، الذي وقف أمامها الآن، أن تقلل من شأنه. ولعلها مع ذلك لم تلحظ وجود «مستر ألتن» في تلك اللحظة، إلا باعتباره راعي الكنيسة الذي يباركها إلى جوار المذبح. وهكذا كان «روبرت مارتن» و«هاريت»، وهما آخر زوجين من الأزواج الثلاثة عُقدت خطبتهما، أول من عُقد قرانهما من بينهم جميعًا.
وكانت «جين فيرفاكس» قد غادرت«هايبري» قبل ذلك، وعادت إلى بيتها الحبيب مع أسرة «كامبيل» وما فيه من متع. كما أن «مستر تشرشل» في لندن كذلك ينتظران حلول شهر نوفمبر.
وحدد كل من «إمَّا» و«مستر نيتلي» الشهر الذي يتوسط هذين الشهرين موعدًا لزواجهما، واتفقا على أن يتم زواجهما في أثناء إقامة «جون» و«إيزابلا» في «هارتفيلد» كي تتاح لهما فرصة التغيب أسبوعين يقضيانهما في رحلة على الساحل. هكذا كانت خطتهما. وقد وافق كل من «جون» و«إيزابلا» وغيرهما من الأصدقاء عليها. أما «مستر وودهاوس» - كيف يمكن التأثير على «مستر وودهاوس» لكي يوافق عليها؟ - وهو الذي لم يُشر يومًا إلى زواجهما إلا على

أنه حدث بعيد الأثر، فقد حزن عندما أخذ يجسون نبضه أول مرة حتى كادا ييأسان، ثم عادا يفاتحانه في الموضوع فكانت مفاتحتهما هذه المرة أقل إيلامًا. ثم بدأ يفكر بعد ذلك في أنه أمر لا بد منه، وأنه ليس في وسعه أن يمنعه – فكان ذلك منه بادرة تبشر بالأمل، وخطوة في اتجاه نزوعه إلى الاستسلام. ورغم هذا فهو لم يفرح. بل على النقيض من ذلك بدا منه العكس إلى حد بدأت معه شجاعة ابنته تتصدع. فهي لم تكن تقوى على تحمّل رؤيته وهو يتألم أم يتخيل أنه قد أهمل. وعلى الرغم من أنها كادت تقتنع بما كان يؤكده لها كل من «مستر نيتلي» وأخيه، بأن ما يخالجه من الألم سوف يزول بمجرد أن يتم عقد القران، فقد ترددت مع ذلك – ترددت ولم تقو على أن تقدم على الزواج.

وفي وسط هذا القلق والتردد اتفقا، ولم يكن اتفاقهما عن حالة توقد من الذهن طرأت على «مستر وودهاوس» أو نتيجة لأي تغير عجيب في جهازه العصبي، ولكنه جاء بفعل هذا الجهاز نفسه، ولكن في اتجاه آخر. فقد سُرقت في إحدى الليالي كل الديوك الرومية التي كانت في حظائر «مسز وستن» - وكان من الواضح أنه عمل مُدبَّر، ثم امتدت الأيدي بعد ذلك إلى حظائر أخرى للدجاج في المنطقة، فذهبت مخاوف «مستر وودهاوس» إلى أن هذا النهب والسلب لم يعد أن يكون سطوًا وانتهاكًا لحرمات البيوت، واشتد قلقه لذلك. ولولا إحساسه بالحماية التي يهيئها له زوج ابنته، لاستولى عليه الفزع في كل ليلة من ليالي حياته، ومن ثم فقد ألفى نفسه وقد أخذ يعتمد على ما لمستر «نيتلي» وأخيه من قوة وعزم وبديهة حاضرة. فطالما كان أحدهما يُسبغ حمايته عليه وعلى ما ملكت يداه، كان بيت «هارتفليد» آمنًا. عير أن مستر «جون نيتلي» لا بد أن يعود إلى لندن قبل نهاية الأسبوع الأول من نوفمبر. وكانت نتيجة هذه المأساة أن استطاعت ابنته تحديد يوم قرانها بعد أن أعطى موافقة كانت أكثر رضى وبهجة مما كانت تأمله وقتئذ – ولم يمض شهر على زواج مستر ومسز «روبرت مارتن»، حتى لجأوا إلى «مستر ألتن» كي يضم يدي «مستر نيتلي» و«مس وودهاوس» في زيجة لا تنفصم.

كانت حفلة زواجهما شبيهة بغيرها من حفلات الزواج التي لا يميل فيها الفريقان إلى فخامة الملبس أو التظاهر.

وظنت «مسز ألتن» من وصف زوجها الدقيق أن الملابس جميعها كانت في منتهى القبح ودون ما غيرها بكثير وقالت: «يا له من نقص كبير في الساتان، ويا لها من قِلَّة في قناعات الوجوه المصنوعة من «الدانتيل». إن ذلك كله لمدعاة للإشفاق!! إن «سيلينا» ستتجهم عندما تسمع بهذا».

وعلى الرغم من تلك المآخذ، فإن التمنيات، والآمال، والثقة، والتكهنات التي أبداها العدد القليل من الأصدقاء الأوفياء الذين شاهدوا الحفل، قد تحققت كلها بما رفرف على هذه الزيجة من سعادة كاملة وهناء مقيم.